ابن قرناس: سنّة الأولين

ابن قرناس

سنّة الأوّلين

تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها

منشورات الجمل

ابن قرناس: سنّة الأوّلين

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾

(الحجر: ١٠ ـ ١٣)

توطئة

يقول القرآن الكريم بأن الوجود الإنساني على الأرض بدأ برجل وامرأة، ثم بعائلة صغيرة، ثم بمجتمع صغير. ويؤكد لنا القرآن الكريم أن ذلك المجتمع الأول كان يقوم على طاعة الله واتباع دينه القويم الصافي، أو دين الفطرة، كما سماه: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (الروم: ٣٠).

ولكن ذلك المجتمع الأول توالد وكثرت أعداده وانتشروا على مساحات أوسع من الأرض، مكوِّنين عدة مجتمعات. ومع الزمن نسي الناس بعضاً من الدين ودخلت عليه تشريعات غريبة عنه ابتدعها البشر وتمسكوا بها على أنها من دين الله: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاختلفواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (يونس: ١٩).

فبعث الله سبحانه الرسل لتعيد الناس إلى دين الفطرة، أي دين النشأة الأولى للبشر: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختلفواْ فِيهِ. . .

وكانت التشريعات الدخيلة يتم تبنيها ضمن دين الله بواسطة الذين يفترض بهم أن يُحكّموا شرع الله بينهم، وهم الزعماء «وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختلفواْ فِيهِ».

ومن يفترض فيهم أنهم أكثر الناس معرفة بدين الله، وهم من نصبوا أنفسهم كرجال للدين: وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اختلفواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (البقرة: ٢١٣).

وكلما ابتعد الناس عن الدين بعث الله سبحانه وتعالى الرسل لإعادتهم إلى الصراط المستقيم: يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (الأعراف: ٣٥).

ولكن الناس كانوا لا يستجيبون لدعوة الرسول لأن زعماءهم ورجال دينهم ووجهاءهم أصبحوا ينتفعون من وضعهم الذي وجدوا أنفسهم عليه، والذي جاء الرسول يدعو إلى نبذه والتخلي عنه. لذا لم يعد الرجوع إلى الدين يستهوي الغالبية من الناس: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس: ٧٤).

ولأن الرسول رجل عادي يدعو إلى نبذ ملذات الدنيا مقابل ملذات بعلم الغيب تتمثل في حياة ما بعد الموت، فإن أغلب الناس ينظرون إلى الرسول على أنه مجنون وأن من يتبعه قد فقد عقله أو غمَّ عليه: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ (الذاريات: ٥٢).

ولذلك اقتصر الإيمان بالدعوة دائماً على قلة من الضعفاء، ومن يتطلعون لوضع أفضل من الوضع الذي هم عليه: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ استكبرواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦).

أما بقية أفراد المجتمع فلم يؤمنوا ولو بقي الرسول بينهم إلى الأبد، ولم يكونوا يكتفون بعدم الإيمان بالرسول بل حاولوا قتله وصد الناس عن الدعوة والوقوف ضد انتشارها: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (الأعراف: ٨٨).

وفي النهاية يهلك الله سبحانه وتعالى أولئك الكبراء، كما سماهم القرآن، وينجي الرسول والقلة الذين آمنوا معه: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِين (يونس: ٧٣).

والقرآن الكريم ذكر عدداً من الأمم السابقة التي كانت تعيش في جزيرة العرب، وكانت قريش تعرف مساكنهم: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (طه: ١٢٨).

ومن تلك الأمم ما جاء ذكرهم في قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (ق: ١٢ ـ ١٤).

وكلهم وغيرهم كانت مواقفهم من دعوة الرسل ثابتة، حيث يبدأ المؤمنون القلة الذين نجوا مع الرسول بالتحول عن تشريعات الدين شيئاً فشيئاً مع الزمن، فيرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً من بينهم يدعوهم إلى الرجوع إلى دين الله القويم الذي بسبب التمسك به نجّى الله أجدادهم من الهلاك.

فقريش كانوا ذرية لإسماعيل الذي يدين بدين أبيه إبراهيم، مثلما كان قوم عاد ذرية من نجا مع نوح: . . .إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الأعراف: ٦٩).

وثمود ذرية لمن آمن من قوم عاد: وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ (الأعراف: ٧٤).

ليتكرر المشهد بوتيرة واحدة لا تتغير، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (الذاريات: ٥٢-٥٣).

ولأن السنة هي الطريقة التي تُبتدع ثم يتبعها الناس، والتي قد تكون سنة ممدوحة أو سنة مذمومة، فقد أطلق القرآن على مواقف الأمم من الدين مسمى «سنة الأولين»، كطريقة سار عليها البشر بتوافق غريب. ومن هنا جاءت تسمية الكتاب، يقول تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (الحجر: ١٠-١٣).

وسنة الأولين شملت أيضاً أسباب رفض الناس للدين الذي اتفقت عليه الأمم، وقد بين القرآن أن من أهمها:

صعوبة الإيمان بالغيب، والمتمثل في حياة ما بعد الموت: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (المؤمنون: ٨١-٨٣).

وصعوبة الإيمان بقدرة الرسول، وهو الرجل العادي، على مخاطبة السماء: إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (المؤمنون: ٣٨).

ومحاربة الناس للتغيير وحب الإبقاء على الموروث: قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (هود: ٥٣).

وعدم التنازل عن المكانة الاجتماعية والجاه: قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأرض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (يونس: ٧٨).

وصعوبة التفريط بملذات الدنيا: فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (مريم: ٥٩).

واتباع الناس زعماءهم: وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (هود: ٥٩).

ورجال دينهم: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٧-٧٨).

وأسباب أخرى.

وقد مرت دعوة موسى لبني إسرائيل بجميع المراحل التي مرت بها دعوات الرسل قبله دون اختلاف، فقد تبع قوم موسى سنة الأولين التي سار عليها من كان قبلهم من الأمم. بدءً من كونهم ذرية لمن آمن مع نوح: وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إسرائيل أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً. ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (بني إسرائيل: ٢-٣).

وتثنية بأن من آمن بموسى قلة من بني إسرائيل وليس كلهم، على الرغم من اضطهادهم من قبل فرعون: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (يونس: ٨٣).

وبعد أن نجّى الله موسى من فرعون، ونزلت عليهم التوراة بدأت تلك القلة القليلة الناجية من بني إسرائيل بالتحول عن الدين إلى معتقدات دخيلة، وموسى لا زال بينهم، وبعد موته عليه الصلاة والسلام ابتعد بنو إسرائيل أكثر عن دين ربهم، فبعث الله سبحانه وتعالى فيهم رسلاً آخرين لإعادتهم إلى الصراط المستقيم، ومن أولئك الرسل عيسى ابن مريم، الذي بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه من تشريعات أدخلوها على دين الله: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابن مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (المائدة: ٤٦).

ولكن سنة الأولين جرت كالمعتاد، فلم يؤمن بدعوة عيسى إلى الرجوع إلى دين الله القويم، سوى قلة من المستضعفين: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إلى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٥٢).

وعندما رحل عيسى عن هذه الحياة أدخلت ذرية من آمن مع عيسى في الدين تشريعات ليست منه فاقت تشريعات من سبقهم طغياناً وكفراً. حيث اعتبروا مولد عيسى ابن مريم من دون أب دليل على أنه ابن لله أو أنه إله مع الله: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأرض وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (النساء: ١٧١).

ولم يرجع بنو إسرائيل عن غيهم، على الرغم من تتابع الأنبياء عليهم الذين حاولوا إعادتهم لحكم التوراة والإنجيل، واستمروا في تمسكهم بمعتقداتهم التي أدخلوها على الدين، ووصل بهم الأمر إلى قتل الأنبياء: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أنفسكُمُ استكبرتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (البقرة: ٨٧).

وتتالت أجيالهم وكل جيل يضيف على الدين ما ليس فيه ويتمسك به: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ

حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة: ١٣).

وبكفرهم وإفسادهم سلط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم: فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (بني إسرائيل: ٥).

ثم توالت عليهم المحن والمصائب فقضى على ممالكهم، وخربت ديارهم: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأنفسكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (بني إسرائيل: ٧).

وقد أعطى القرآن صورة إجمالية لحال اليهود عبر التاريخ وما آلوا إليه في سور كثيرة منها قوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (الأعراف: ١٦٧-١٦٩).

حيث قطّعوا في كل أرجاء الأرض وسلطت عليهم الأمم، منذ سقوط مملكة سليمان، كعذاب إلهي لهم، وهو أشد من عذاب الأمم السابقة التي كانت تهلك بكوارث طبيعية وينتهي حالها. أما اليهود فالعذاب مستمر فيهم جيلاً بعد آخر منذ آلاف السنين، في وضع مأسوي لم يتعرض له شعب آخر.

ولو أنهم تمسكوا بدين الله لاختلفت أوضاعهم في الدنيا والآخرة: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ (المائدة: ٦٥-٦٦).

وفي كل العصور كانوا رمزاً للخسة والدناءة، وكرههم الناس وجاهروا بعدائهم. ومع ذلك فقد سلطهم الله في هذا العصر على المسلمين، عندما زرعتهم القوى العظمى كخنجر في كبد بلاد العرب، لأن المسلمين بقيادة العرب، اختارهم

الله لقيادة العالم إلى الهدى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ. . (آل عمران: ١١٠).

ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، وأدخلوا في دين الله ما ليس فيه ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم: وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (آل عمران: ١٨٧).

وقد مرت بالمسلمين المواقف نفسها التي وقفتها الأمم السابقة من دين الله، فلم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام إلا قلة من الناس أغلبهم من الضعفاء والعبيد، وقد أهلك الله كبراء قريش واليهود، وقُضي على سلطة قبائل الجزيرة باستسلام زعمائها لدولة الإسلام، التي كانت عندما توفي رسول الله تسيطر على كامل تراب جزيرة العرب، وإن لم يمثل المؤمنون بالإسلام إلا قلة قليلة، أما الغالبية فقد بدأوا التحول عن الدين بمجرد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويكون ما أصاب المسلمين من تشرذم ومهانة وخذلان نتيجة طبيعية لما اقترفوه بحق دين الله سبحانه وتعالى الذي شرفهم بحمل مسؤولية توصيله للناس، ولكنهم خانوا الأمانة وأصبحوا كاليهود الذين حملوا قبلهم التوراة ثم لم يحملوها «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (الجمعة: ٥).

ويكون المسلمون قد شابهوا اليهود عندما نزل عليهم كتاب من الله، القرآن، للعمل به ونشره بين الناس، مثلما نزل على اليهود التوراة، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم واستبدلوه بتشريعات من صنع رجال دينهم، كما اليهود: اتخذواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابن مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة: ٣١).

فكما أن اليهود قد قدسوا التلمود والمشنا وهي كتب كتبها رجال دينهم بأيديهم، وتركوا التوراة، حتى درست وضاعت معالمها، فإن القرآن قد هجره الناس إلى ما عرف بالفقه والحديث والتفسير، وكادت معالمه أن تدرس، ويختفي من حياة البشر، عندما ترك المسلمون نسخته الوحيدة التي كتبها لهم الرسول، مسجاة في المدينة، وخرجوا لمحاربة البلاد المجاورة في العراق وخراسان والشام

ومصر. ولولا رحمة ربي لنسي الناس تلك النسخة الوحيدة من القرآن في دار أم المؤمنين حفصة إلى الأبد. ولكن إلحاح حذيفة بن اليمان على عثمان بن عفان بضرورة نسخ المصاحف وإحراق تلك المصاحف الشخصية التي انتشرت في العراق والشام واليمن وغيرها، والتي حلت محل كتاب الله، واعتمد من كتبها على الذاكرة. فجاءت خليطاً من بعض الآيات ممزوجة بعبارات أخرى ظنها الكاتب من القرآن وهي ليست منه (وسوف يطلع القارئ على أمثلة لذلك في فصل استنساخ المصاحف ـ الباب التاسع).

ولو تأخر المسلمون قليلاً عن نسخ المصحف لوجدوا السعف التي كتبت عليها الآيات القرآنية، وقد اختفت منها معالم الآيات إلى الأبد.

ويكون الفارق بين اليهود والمسلمين، أن اليهود هجروا كتاب الله «التوراة» حتى درست معالم آياته وغابت عن الوجود، واتبعوا تشريعات ابتدعوها من عند أنفسهم، بينما تدارك المسلمون آيات القرآن ونسخوها قبل أن تضيع، لكن الآيات وإن بقيت حية بينهم في المصاحف، إلا أنهم هجروا العمل بها إلى تشريعات بشرية ابتدعوها من عند أنفسهم، كما اليهود.

وقد جاء نسخ القرآن لعدة نسخ بعد أن دخل الإسلام ملايين الناس وتعاقبت الأجيال بعيداً عن تأثير كتاب الله. فكان البديل تشريعات بشرية هي خليط من كل ديانة ومعتقد كان يدين بها الناس في البلاد التي استولى عليها المسلمون في الربع الأول من القرن الهجري الأول، والتي عرفت طريقها لتكوّن التراث الإسلامي، لأن الناس لما دخلوا الإسلام ولم يعرفوا عنه سوى الشهادة والعبادات، لعدم وجود القرآن، أبقوا معتقداتهم السابقة. وجيلاً بعد جيل ظن الناس أن تلك المعتقدات إسلامية، فنسبوها إلى الإسلام على شكل أحاديث منسوبة إلى رسول الله، ولو كانت نصوصاً منقولة حرفياً من الكتاب المقدس لليهود أو المجوس أو الصابئة، أو أنها معتقدات وثنية أو خرافات وأساطير يونانية. ومع الأيام تحول ذلك التراث الهجين إلى ما يسمى بالفقه والتفسير والحديث، وتوارثه الناس على أنه شرع الله وإسلامه، وحورت معاني آيات القرآن الكريم لكي تتوافق مع التشريعات التي ابتدعها البشر.

وقد أخبرنا جلّ وعلا بما سيحل بمن فعل ذلك يوم القيامة: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ

عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتخذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ اتخذ فُلَاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإنسان خَذُولاً. وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (الفرقان: ٢٧-٣٠).

أما في الدنيا فقد سلط الله على المسلمين المحن والمصائب منذ قرون وبشكل فاق ما تعرض له بنو إسرائيل، لأن الأمتين تشابهتا في أنهما قد اختارهما الله لحمل أمانة الرسالة، وأودع فيهما كتابه. فاليهود قد أنزل عليهم الوحي على شكل توراة مكتوبة، والمسلمون على شكل قرآن مكتوب، فيما كانت الأمم السابقة ينزل عليها الوحي مشافهة ولا يكتب. وقد أخفق المسلمون كما أخفق اليهود قبلهم في حمل الأمانة. فكان لزاماً أن يصيبهم ما أصاب اليهود، من تشتت وفرقة وخذلان ومهانة، وما حل بهم من المحن والمآسي، وستبقى هذه حالهم ما لم يعودوا إلى شرع الله أو يقيض الله لشرعه من يتشرف بحمل مسؤوليته من شعوب أخرى.

هذا هو الموضوع الذي يدور حوله الكتاب، والذي يحتوي على اثني عشر باباً وخاتمة وملاحق، يتعرض الباب الأول إلى مفهوم الدين بشكل عام، وأن كل الأديان الموجودة بين الناس الآن قد تحدرت من دين واحد، حتى ما تعارفنا على نعتها بالأديان الوثنية، ليس فقط في التشريعات، بل وفي النصوص المنزلة بواسطة الوحي. لأن هناك نسخة أصلية واحدة لهذه النصوص محفوظة بآلية لا نعرفها، سماها القرآن، اللوح المحفوظ، وأم الكتاب، والكتاب المكنون، وكلما أرسل رسول من الرسل نزلت عليه نسخة من تلك النسخة الأصلية.

وفي الباب الثاني استعراض لمواقف بعض الأمم السابقة والذين ذكرهم القرآن العظيم للتدليل على أن مواقف الناس من الدين واحدة في كل مكان وزمان منذ خلق الله البشر على هذه الأرض. وبيان أن الدين كان واحداً عند بدء الخليقة ثم تحور إلى عقائد فاسدة جيلاً بعد آخر، فبعث الله الرسل تتراً لإعادة الناس إلى صافي العقيدة والدين الأول. لكن الطبائع البشرية الواحدة كانت تتشابه في مواقفها من الرسل، مهما كانت متباعدة عن بعضها في المكان والزمان، ولذلك تشابهت النتائج والنهايات.

والباب الثالث يستعرض مثالاً حياً لتحول الناس عن الدين، تحدث عنه القرآن، والمتمثل في سيرة بني إسرائيل وموقفهم من الدين أثناء حياة موسى، وبعد

رحيله عليه الصلاة والسلام، وكيف عذبهم الله بذنوبهم على مر العصور، ولم يهلكوا بحادثة واحدة كما الأمم الأخرى.

ويتحدث الباب الرابع عن شخصية محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه كان بشراً سوياً لا يختلف عمن سواه من الناس في المشاعر والأحاسيس والتصرفات والخطأ والنسيان، ولكنه أكثرهم مسؤولية حيث اختاره الله سبحانه وتعالى ليكون رسولاً له لتبليغ الدين للناس، وذلك بعد أن خضع لبرنامج إلهي للتأهيل النفسي والبدني ليكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة.

والباب الخامس يستعرض موقف الناس من دعوة محمد، في يثرب ـ اليهود والأوس والخزرج ـ وفي خيبر، ومثله الباب السادس الذي يتحدث عن موقف الناس من الدعوة في مكة والطائف وبقية قبائل جزيرة العرب، وكيف أن سنة الأولين جرت على مواقف أولئك الناس من الإسلام بشكل مطابق تماماً لمواقف الأمم السابقة من رسلهم، وكيف كانت نهايات كبراء اليهود وقريش والطائف والقبائل العربية مطابقة لنهايات تلك الأمم أيضاً، وإن اختلفت أسباب الهلاك.

والباب السابع يتطرق لحياة من أشهر إسلامه زمن رسول الله، والذين أطلق عليهم في عصور لاحقة مسمى «الصحابة». وكيف أنهم لم يكونوا على درجة واحدة من التمسك بالدين، وأن محاولة بعض المؤرخين المسلمين تنزيههم من الخطأ والقصور تجريداً لهم من إنسانيتهم، مع التدليل على ذلك بما قاله القرآن عنهم.

ويتحدث الباب الثامن عن دولة الإسلام في صورتها النهائية التي تركها عليه رسول الله عند وفاته، وبعد اكتمال التشريعات الإلهية باكتمال نزول القرآن، والركائز الأساسية التي تقوم عليها تلك الدولة، ومن ذلك طريقة الحكم التي تختلف عن كل نظم الحكم التي عرفها العالم، قديمه وحديثه. فليس لها زعيم بشري، لأن ولاءها لله وحده، والقرآن هو الدستور الذي بموجبه يحكم البشر ويحتكمون، لضمان ليس فقط نعيم الآخرة، بل ونعيم الدنيا، المتمثل في صيانة الحقوق العامة للرجل والمرأة واليتيم والطفل والمسن والعاجز والسليم، والمساواة، وحفظ الكرامة، والتكافل الاجتماعي والقضاء على الفقر والعوز، والمشاركة في صنع القرارات الاستراتيجية للدولة من قبل عموم المسلمين من الجنسين، والمحافظة على البيئة، والتعامل بإنسانية مع المسلم وغيره..الخ.

ويظهر الباب التاسع المخصص للحديث عن عصر الخلفاء الراشدين، كيف بدأت العثة تنهش في جسد الدين وتشريعاته بدءاً من اللحظة التي توفي فيها رسول الله، وكيف أن اختيار حاكم لدولة الإسلام قد هدم أول ركيزة قامت عليها دولة الإسلام. وكيف أن حروب الردة والفتح ليس فقط ساهمت بالقضاء على ضوابط الجهاد التي أقرها القرآن وأعادت الناس لعادات الحروب الجاهلية، بل وهيأت بيئة مناسبة لظهور مبادئ التشريعات البشرية على أيدي من عرف بالفقهاء فيما بعد، وتبني ثقافات متنوعة وإدخالها ضمن التراث الإسلامي، مع ابتعاد تأثير القرآن على المجتمع وانحساره في تراث المسلمين الديني.

ومما سيعرض له هذا الباب، فتنة عثمان وكيف ساهمت في تحول الناس أكثر عن الدين، ومثلها الحروب التي دارت بين علي بن أبي طالب ومعارضي توليه الحكم، وكيف فتحت الباب على مصراعيه للحكام لكي يستولوا على الحكم بقوة السلاح واستسهال قتال المسلمين وقتلهم.

كما سيتعرض هذا الباب إلى نسخ المصاحف أيام عثمان وكيف أنه تأخر كثيراً، وكيف أن هذا التأخر ساهم بشكل كبير في دخول معتقدات من الديانات الأخرى لتراث المسلمين ونسبتها إلى الإسلام. وهناك فصل خاص للحديث عن البيئة التي أوجدت المناخ المناسب لنشأة ما يعرف اليوم بالفقه والتفسير والحديث، التي بواسطتها دخلت المعتقدات الغريبة إلى التشريعات والتراث الإسلامي وانتسابها إليه. كما أن هناك فصلاً آخر يتحدث عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ونشاط الدعوة التي يقوم بها المسلمون بين المسلمين وغير المسلمين لجذبهم إلى الإسلام، وكيف أنها تروج لإسلام مذهبي وليس للدين الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي الباب العاشر يتم التعرف على عصر بني أمية، ثم التعرف على عصر صدر بني العباس في الباب الحادي عشر، لتكتمل بهما صورة أوضاع المسلمين الحالية التي استبعدت التأثير القرآني من حياتهم وتشريعاتهم، وعرفت الفقه وتقديس تشريعات الفقهاء، والحديث وتقديس الأخبار المنسوبة إلى الرسول، والتفسير وتمكين الخرافة والأسطورة كجزء من العقيدة. إضافة إلى تسلط الحكام، واستغلال تشريعات الفقهاء للقضاء على المعارضين والمنتقدين السياسيين، وتحول

المجتمع المسلم من حقل مزروع فيه نوع واحد من المزروعات، لا اختلاف بين نباتاته، كما أراد الله لهم أن يكونوا، إلى طبقية منتنة، تبوأ الحكام ومن حولهم قمتها مسيطرين على كل مداخيل الدولة، بعد أن حولوها إلى ملك شخصي لهم، وطبقة من المواطنين محرومين من أبسط حقوقهم وكرامتهم، يعيشون على التسول بالكلمة والجسد لمن يدفع لهم ما يسد رمقهم.

ويلخص الباب الثاني عشر النتائج التي ترتبت على تحول المسلمين من دين الله وكيف أثرت في حياتهم ومعاشهم وموقف الناس منهم وتعاملهم معهم.

ليأتي بعد ذلك ختام الكتاب بالتأكيد على أن ما يعيشه المسلمون من ضياع وتشتت ومهانة وضعف وفقر وجهل وتخلف، هو نتيجة حتمية لتخليهم عن دينهم إلى تشريعات ابتدعوها من عند أنفسهم. وأن خلاصهم لن يكون إلا بالرجوع إلى الإسلام، كما نزل به القرآن، إن هم رغبوا العزة في الدنيا والنجاة من النار في الآخرة.

وقد ألحقت بالكتاب ملاحق قسمت إلى قسمين: القسم الأول لإعطاء أمثلة على التشريعات الفقهية وكيف أنها تخالف ما ورد في القرآن. والقسم الثاني يعطي أمثلة على ما أدخله التفسير على دين الله من خرافات وأساطير.

هذا باختصار ما حوته صفحات سنة الأولين، مع الإشارة إلى أننا قد اعتمدنا كتاب الله ليكون كلمة الفصل في كل مناقشاتنا وتحاليلنا فيما اختلف فيه من الحق، كما ذكرنا أهم المراجع لكل باب من الكتب التي يسهل على أي قارئ في أي بلد أن يحصل عليها، وجعلنا أعدادها مختصرة ما أمكن.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الباب الأول

الدين

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣).

* الدين يسبق الخرافة والأسطورة، وليس العكس كما يقول علماء تاريخ الأديان.
* القصص والأخبار التي نسجت عن الرسول من ابتداع القصاص ولم يعلم بها الرسول.
* كتب اليهود والنصارى وإن كانت في العصر الذي بعث فيه الرسول بصفتها التي هي عليه الآن، إلا أنها لا تمت للتوراة والإنجيل بصلة، لأنها كتب تاريخية ألفها البشر، وهي تماثل كتب السير والتاريخ لدى المسلمين.
* الأديان كلها عبارة عن نسخ منقولة من النسخة الأصلية المحفوظة في اللوح المحفوظ.
* جميع الأديان الموجودة أصلها إلهي ولكنها تحورت مع الزمن.
* وحدة الأديان ليس فقط في التشريع ولكن في النصوص، ولو وجدت نصوص أصلية من أي ديانة فستبدو وكأنها آيات قرآنية مترجمة إلى لغة أخرى.
* من العدل الإلهي أن تكون الأديان كلها متماثلة في التشريع وفي نص الوحي المنزل.



لاحظ المستشرقون والمبشرون الذين قدموا للبلاد العربية والإسلامية وقرأوا القرآن، أن هناك آيات قرآنية تتحدث عن مواضيع وقصص وتشريعات وردت في كتب اليهود والنصارى المقدسة، فاتهموا محمداً بأنه قد قام بدراسة تلك الكتب ثم أعاد صياغتها بعباراته الشخصية وأضاف عليها بعض الآيات التي تخص قومه العرب وسمى كل ذلك قرآناً وادعى أنه قد أوحي إليه به من السماء.

ومما ساعد المستشرقين في ادعائهم هذا ما وجدوه من قصص في كتب الأخبار التي كتبها المسلمون، والتي تؤكد أن الرسول قد اتصل برجال دين مسيحيين في رحلاته إلى الشام عندما كان حدثاً يافعاً، ولو أن تلك القصص والحكايات يسهل الحكم على أنها مختلقة، وأن من اختلقها لم يتمكن من حبكها. ومن أشهر هذه الحكايات حكاية اجتماع محمد بالراهب المسيحي بحيرا، التي سنورد ملخصاً لها هنا كمثال على سعة خيال الإخباريين في اختلاق القصص حول شخص الرسول عليه الصلاة والسلام. والقصة تقول بأن محمداً عندما كان ابن تسع سنين صحب عمه أبا طالب في إحدى رحلاته التجارية إلى الشام. وأن الركب عندما وصل بصرى الشام، مروا عن طريق الصدفة بجوار صومعة للرهبان المسيحيين، وكان كبير أولئك الرهبان واسمه بحيرا، جالساً يتأمل في شرفة مطلة على المكان الذي أقبل منه ركب أبي طالب، فلفت نظره شيء لم يلفت نظر كل رجال الركب ولم يروه. لقد رأى سحابة صغيرة ظلها لا يزيد عن حجم جسد الطفل، محمد، الذي تلاحقه في حركاته الكثيرة التي تتناسب مع عمره، لتقيه حر الشمس، مع أن حر شمس بصرى في الصيف أبرد من حرارة شمس مكة في الشتاء. فعرف بحيرا الراهب في الحال أن هذا هو الرسول المنتظر لأن ما رآه يتوافق مع ما يجده مكتوباً في كتابه المقدس، لذلك بقي في مكانه ليتأكد من حدوث بقية التفاصيل. وبالفعل

وكما هو مدون في الكتب، توقفت قافلة الصبي ليستريح أفرادها تحت ظل شجرة تقع تحت الشرفة التي يجلس عليها الراهب، ولم يصب بحيرا بالدهشة عندما لاحظ كيف أن الشجرة قد هصرت أغصانها فوق الصبي ليستظل بها دون عمه وبقية رجال الركب الذين على ما يبدو قد أصيبوا بالإعياء الشديد من طول الرحلة ولم يلحظوا أن الظل الذي استظلوا تحته قد انحسر عنهم واجتمع فوق محمد دونهم، وإلا لاعتقدوا أن الجن تسكن تلك الشجرة، ولولوا الفرار لا يلوون على شيء، لأن الخوف من الجن عقيدة راسخة لدى أهل جزيرة العرب. وكان هذا من حسن حظ بحيرا الذي هرول منحدراً من صومعته ودعاهم إلى النزول في ضيافته، فلبوا الدعوة غير مدركين مقصد الراهب الحقيقي، الذي بادر باستجواب الصبي، بمجرد أن وجد نفسه وحيداً معه. لأن القوم حالما فرغوا من تناول الطعام آثروا التمشية قليلاً أخذاً بالقول الصحي العامي المأثور: «إتغدى وإتمشى وإتعشى وإتمدى». ولم يكتف بحيرا بأقوال محمد التي وافقت كلها وبلا استثناء صفاته المدونة في كتبه المقدسة، بل طلب منه أن يستدير إلى الخلف فلبى محمداً الطلب ورفع رداءه عن كتفيه، فلمع بريق خاتم النبوة المحفور بين كتفيه لمعاناً كاد يخطف بصر الراهب. ومع كل ما أدلى به الصبي من أقوال، فقد بقيت تفاصيل أخرى عن صفة النبي مكتوبة في كتب بحيرا يلزم التأكد منها، ولذلك بمجرد عودة أبي طالب بادره الراهب بحيرا بأسئلة كانت إجاباتها كافية لتأكيد أن الصبي هو الرسول المنتظر بلا شك ولا ريبة.

عندها أبلغ بحيرا أبا طالب، الغافل، أن هذا الصبي يجب أن يعاد إلى بلده حالاً خوفاً عليه أن يراه أحد من اليهود، الذين سيتعرفون على شخصيته بمجرد رؤية السحابة التي تظله وبقية العلامات الأخرى المدونة عنه في كتبهم، وهنا يكمن الخطر، فقد يحاولون قتله، لأن اليهود لن يرضوا أن يكون خاتم النبيين من غيرهم[1].

ومن الواضح أن مبتدع القصة وجهها إلى المسلمين ولذلك لم يكن قلقاً من أن يكتشف أحد خلو كتب اليهود والمسيحيين المقدسة التي كانت موجودة زمن

---

(١) القصة موجودة في سيرة ابن هشام ـ قصة بحيرا ج١ ص١٦٥ وفي كتب تاريخية عديدة، وقد أعيدت صياغتها هنا لتتواءم مع العرض.

رسول الله من أي إشارة إلى محمد أو إلى دعوته، لأن تلك الكتب ليست التوراة وليست الإنجيل، ولكنها كتب تاريخية كتبها أناس عاديون لم يروا موسى ولا عيسى، وعبر أجيال متتابعة.

ومن الواضح أيضاً أن قصة بحيرا وغيرها قد حاكها أناس من نسج خيالهم في عصور لاحقة لعصر صدر الإسلام ضمن العديد من القصص والحكايات والمعجزات الحسية التي تغرق بها كتب السير والأخبار الإسلامية، والتي تدعي أنها حدثت للرسول أو أنه يتمتع بها، لإضفاء نوع من القدسية على شخصية الرسول، ظناً ممن كتبها أنها تزيد من تصديق الناس دعوته. فحاولوا إظهاره في تلك الحكايات وكأنه ولد في جو محاط بظواهر غير اعتيادية، ورافقت نشأته معجزات حسية، وكان يحمل منذ ولادته صفات محسوسة لا يحملها إلا نبي، وكلها قد ذكرت في الرسالات السابقة. ولذلك فمن السهل على اليهود والنصارى التعرف عليها، بينما غفل عنها رجال قريش، القبيلة التي ينتسب إليها محمد، وكل القبائل الوثنية العربية الأخرى.

ومن هذه القصص، تلك التي تتحدث عن أن محمداً لم يعرف ما اعتراه في غار حراء إلا بعد أن أكد له ورقة بن نوفل أنه قد أصبح رسولاً لله. ولكي تؤدي القصة مغزاها في التأثير على مشاعر الناس، نُسب إلى ورقة بن نوفل المكي القرشي الوثني أنه كان قد اعتنق العقيدة النصرانية حتى يكون لديه علم بالكتاب المقدس لليهود والنصارى الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من صفات النبي المنتظر إلا أحصاها.

ومع أن بعض المستشرقين قد أعلن أن هذه الحكايات مختلقة وأن شخصيات مثل شخصية بحيرا لم يكن لها وجود على أرض الواقع، إلا أن هذا لم يمنع بعضهم من أن يستغل هذه القصص في تأييد الاعتقاد الذي ساد لدى الكثير منهم، بأن محمداً قد استقى فكرة دينه الذي أسسه من احتكاكه برجال دين مسيحيي الشام ويهود يثرب التي لا بد أنه زارها في صباه لأنها موطن أخواله بني النجار.

وطوال قرون أجهد المسلمون أنفسهم في محاولة يائسة للذود عن الإسلام وإثبات صدق رسالة محمد ونبوته السماوية عن طريق دحض كلام المستشرقين، القائل بأنه مصلح اجتماعي ثقف نفسه بقراءة الكتاب المقدس. ولم يلتفت إلا قليل

من هؤلاء المدافعين لما يقوله القرآن في هذا الشأن، وإلا لعرفوا أن كتاب الله لا ينفي أن يكون هناك توافق بينه وبين ما كان في التوراة التي زالت من الوجود بُعيد زمن موسى، ولم يبق في كتب اليهود المقدسة منها اليوم إلا خيال مشوش لبعض آياتها.

وهنا لا بد من إيراد حقيقة تخفى على بعض عامة المسلمين وبعض أهل الاختصاص منهم، تتمثل في أن كتب اليهود والنصارى المقدسة في العصر الذي بعث فيه الرسول كانت بصفتها التي هي عليها الآن، ولم يطرأ عليها أي تغيير يذكر منذ ذلك الوقت، بل ومنذ القرن الرابع الميلادي، أي قبل ولادة الرسول بثلاث مائة سنة تقريباً، وأن هذه الكتب تخلو من أي وصف للرسول محمد أو ذكر للإسلام. والسبب يعود إلى أن هذه الكتب ليست هي التوراة التي نزلت على موسى، ولكنها كتب لا تمت للتوراة بصلة.

فهي سجل إخباري بدئ في تدوينه على يد أحد كهنة اليهود، واسمه عزرا، قبل ٤٥٠ سنة من الميلاد، عندما كانوا في الأسر البابلي، وذلك في محاولة لتدوين تاريخ اليهود وما جرى لهم من أحداث، حسب وجهة نظر من قام بتدوينها. ثم تتابع كتاب آخرون على ذلك السجل يضيفون وينقحون ويحذفون ويعدلون، حتى استقر شكل الكتاب المقدس على صورته الحالية في القرن الرابع للميلاد[(١)].

وتكون كتب اليهود الحالية كتب إخبارية، احتوت القليل من الآيات التوراتية الأصلية، ولكنها ليست توراة محرفة كما يظن كثير من المسلمين، وهي بذلك كتب تاريخية كالطبري وسيرة ابن هشام عند المسلمين التي تحوي آيات قرآنية ولكنها ليست القرآن.

كما أن ما يسمى بكتب المسيحيين المقدسة، ما هي إلا كتب كتبها إخباريون بعد وفاة يسوع، بل إن أول كتب كتبت منها قد قام بكتابتها شخص يدعى «باول» والذي أصبح ملهم المسيحية الأول، مع أنه لم ير يسوع في حياته ولم يجتمع به،

---

(١) انظر على سبيل المثال للغة العربية: كتاب موريس بوكاي / القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم/ دار المعارف ـ القاهرة. وللغة الإنجليزية Who Wrote The Bilble, The World That Produced the Bible400 - 587: B.C..

وهو أول من بدأ الكتابة عن فترة حياة يسوع في فلسطين، بالطريقة التي رغبها، وذلك في الفترة ما بين ٤٠-٧٠ سنة بعد وفاة يسوع، ثم تتالى الإخباريون في تصنيف الكتب حول ما جرى في فلسطين إبان فترة وجود يسوع فيها. وقد تعرضت هذه الكتابات للتنقيح والزيادة والحذف على مدى عقود طويلة حتى استقرت على هيئتها الحالية في القرن الثالث والرابع بعد وفاة يسوع[١].

وكتب النصارى المقدسة، كتب إخبارية تخلو تماماً من أي نص من نصوص الإنجيل المنزل على عيسى ابن مريم، وكلها تتحدث عن حياة يسوع، ولا علاقة لها بعيسى ابن مريم وديانته. وهذه الحقيقة لا ينكرها دارسو تاريخ الأديان من اليهود والنصارى، بل يؤكدون ذلك في دراساتهم وبحوثهم وكتبهم التي ألفوها.

والفصل التالي يؤكد أن نصوص القرآن يجب أن تماثل النصوص الأصلية لأي ديانة سماوية سابقة، وهذا لا يعني أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد اطلع على كتب اليهود والنصارى في عصره واقتبس بعض نصوصها وأعاد صياغتها بعدما أضاف عليها نصوصاً من عنده ليخرج على الناس بدين من عند نفسه سماه الإسلام، ولكنه يعني أن نصوص أي ديانة سماوية أصلية نزل بها الوحي، يجب أن تتماثل مع نصوص أي ديانة سماوية أصلية أخرى، فالدين واحد، أنزله رب واحد، على جنس واحد من الخلق، لديهم قدرات عقلية واحدة.

---

(١) البحث عن يسوع ـ مصادر الأناجيل الأربعة.

وحدة الأديان

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: ٦٢).

الحقيقة التي لم يدركها بعض المستشرقين، ولم يرد البعض الآخر إدراكها، تتمثل في كون كل الأديان السماوية متماثلة التشريع، وهذا ما يؤكده القرآن بكل جلاء: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (الشورى: ١٣).

فالدين الذي أرسلت به جميع الرسل منذ عصر آدم حتى محمد هو دين واحد سماه الله الإسلام: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإسلام وَمَا اختلف الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فإن اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران: ١٩).

ولو جاء كل رسول بتشريعات تختلف عن التشريعات التي جاء بها غيره من الرسل، فإن هذا سيكون مدعاة للتشكيك بمصداقيته. وبناءً على ذلك، فلو وجدت نصوص أصلية من أي عقيدة قديمة في الشرق الأدنى أو الأقصى أو أوروبا أو أمريكا أو أفريقيا أو أي مكان على الأرض، فمن المستحيل أن تتعارض مع ما جاءت به التوراة التي أنزلت على موسى أو القرآن الذي نزل على محمد، لأن الله لا يمكن أن يخلق بشرا متساوين في قدراتهم العقلية والجسدية ويعدهم بجنة واحدة، ثم يكلفهم بمعتقدات متباينة، فيطلب من أناس فرائض وواجبات حرمها على آخرين. ولذلك فلا غرابة لو وجدنا في ثنايا العقائد التي نعتبرها وثنية وبدائية تعاليم سامية ووحدانية مشابهة لما دعت إليه توراة موسى والقرآن.

فالقبائل الأصلية الأسترالية تؤمن بالوحدانية، ومن صفات الإله عندهم: أنه خالد لا يفنى، لأنه لا ينشأ عن أي كائن آخر (فيلسيان شالي ـ موجز تاريخ الأديان[1] ـ ص٣٤).

وفي أقدم كتاب مقدس في العالم وهو كتاب الديانة الهندية الفيدية، وصف الإله بأنه: هو الذي يهب الحياة ويمنح القوة وظله هو الخلود وظله هو الموت.. (من النشيد ١٢١ من الكتاب العاشر من كتب الريغ ـ فيدا).

وتدين الديانة الزرداشتية لإله عظيم واحد يطلق عليه أهورا مازدا، وهو: الخالق، اللامع، الجليل، الكبير...

وكل هذه الأوصاف للخالق لا تخرج عما وصفه به القرآن: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد:٣).

وفي الأسر الفرعونية الأولى كان يجب على المسؤول أو الحاكم أن يبرئ نفسه في محكمة ما بعد الموت لينجو من العذاب بأن يقول ما يلي: إني لم أؤذ أحداً قط، بالخداع، ولم أجعل أقربائي بؤساء، ولم آت بأية دناءة في بيت الحقيقة، ولم أتواطأ مع الشر، ولم أفعل الشر، ولم أطلب كرئيس للناس أن يقوموا بأعمال أكثر من المهمة التي اتفق عليها. ولم يوجد بسببي خائف ولا فقير ولا مريض ولا بائس، ولم أعمل قط ما تكرهه الآلهة، ولم أكذب على أي إنسان، ولم أدع السيد يسيء معاملة عبده، ولم أسبب الجوع لأحد، ولم أحمل أحداً على البكاء. ولم أقتل قط، ولم آمر مطلقاً بالقتل بصورة غير مشروعة. ولم أكذب على أحد، ولم أنهب مطلقاً مخزونات المعابد. ولم أقلل من المواد المخصصة للآلهة. ولم أنهب خبز المومياوات ولا أشرطتها. ولم أزن قط، ولم أرتكب أعمالاً مخجلة مع كاهن منطقتي الدينية. ولم أغلِّ أسعار المواد التموينية ولا قللتها، ولم أضغط قط على الميزان ولم أتلاعب أو أغش في الوزن الذي أشار إليه الميزان. ولم أبعد الحليب قط عن فم الرضيع. ولم أنهب قط من الماشية في مراعيها شيئاً. ولم آخذ طيور الآلهة بالشبكة، ولم أصطد سمكاً ميتاً. ولم أدفع قط الماء أيام الفيضان، ولم أحرف الماء عن قناته... إني بريء بريء بريء (بعض ما ورد في الفصل ١٢٥

(١) ترجمة حافظ الجمالي ـ الناشر: طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق.

من كتاب الموتى الذي كتبت فصوله على أقمشة كان الفراعنة يلفون بها المومياوات، حسبما جاء في كتاب موجز تاريخ الأديان/ فيلسيان شالي ـ ص٥٥).

وهذا الاعتراف تلخيص للتشريعات المرعيّة في ذلك المجتمع والتي تتفق في عمومياتها مع أي تشريعات سماوية.

ومن تعاليم البوذية: سعيد من صبر على الأذى في سبيل الحق، وسعيد من لا يتناول بالأذى أحداً، وسعيد ذلك الذي ذهب من نفسه كل هوى، وتغلب على عناد الأنا. والبوذية دعت أيضاً إلى نبذ الطبقية باعتبار أن الناس سواسية وأن الفروق بينهم خلقها الخلق وليس الخالق.

ومما قاله بوذا: لا تؤمنوا بشيء لمجرد أنه مسموع الكلمة، ولا تؤمنوا بشيء تضعونه على ذمة التقاليد، أو لأنه مقبول منذ أجيال كثيرة، ولا تؤمنوا بشيء تبعاً لمكانة قائله، ولكن آمنوا بالذي يتواءم مع خيركم وخير الآخرين (نص منقول بتصرف من كتاب دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية لمؤلفه كريك لينكلر).

وكلام بوذا السابق يتشابه مع قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠).

ومن تشريعات البوذية الأساسية: لا تقتل، لا تستول على ملك غيرك (لا تسرق)، لا تأخذ امرأة غيرك (لا تزن)، لا تكذب، ولا تشرب شراباً مسكراً.

وهذا ما يقوله كتاب اليهود المقدس حرفياً: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق (الخروج: ٢٠: ١٣-١٥)، لا تقبل خبراً كاذباً (الخروج: ١: ٢٣) خمراً ومسكراً لا تشرب (اللاويين: ٩: ١٠).

والكونفوشيوسية تدعو إلى المبادئ والتشريعات نفسها وتشدد على برّ الوالدين وإشاعة العدل والإحسان والمساواة بين الناس. وهي المبادئ نفسها التي نادت بها رسل الله جميعاً: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل: ٩٠).

وتقول الأسطورة البوذية عن شخص بوذا: وعندما بلغ غوتاما السادسة والثلاثين انكب على التأمل، فكان يجلس تحت شجرة تين ـ سميت شجرة العلم فيما بعد ـ وفي مساء الثامن من كانون الأول انكشفت له الحقيقة (أي أتاه الوحي).

ومنذ تلك اللحظة سمي «بوذا» أي الرجل الملهم المنقذ الذي يحسن الرؤيا» أو بعبارة أخرى لقّب بالرسول. وقد بقيت تلك الليلة مقدسة عند البوذيين إلى اليوم (فيليسيان شالي ـ موجز تاريخ الأديان ـ ص٩٠).

وما حدث لبوذا مشابه لما حدث لمحمد قبيل تلقيه الوحي عندما كان يختلي بنفسه في غار حراء الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي. حسب ما ترويه لنا كتب الأخبار الإسلامية (انظر على سبيل المثال فصل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم في سيرة ابن هشام).

ومثل ذلك حدث مع زرادشت الفارسي الذي تلقى وحياً من الإله الأعظم أهورا مازدا، «انكشفت له فيه الشريعة، فقام بنشر دعوته بين أهل بلدته» (فيليسيان شالي ـ موجز تاريخ الأديان ـ ص١٣٠).

ولأن الوحي الذي نزل على كل الرسل كان واحداً، فمن البديهي أن التشريعات التي جاءت في التوراة تتكرر في القرآن ويعمل بها في الإسلام: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (المائدة: ٤٥).

وقد أزال القرآن الغموض في هذا الموضوع حيث بين أن التشابه في التشريع جاء لأن لدين الله نسخة أصلية واحدة سماها القرآن «أم الكتاب»: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف: ٣-٤).

وتلك النسخة الأصلية محفوظة بآلية معينة أطلق عليها القرآن «اللوح المحفوظ»: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج: ٢١-٢٢).

وتلك النسخة الأصلية من الكتاب لا يطلع عليها إلا ملائكة مطهرون: فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (الواقعة: ٧٥-٨٠).

والملائكة المطهرون الذين يطلعون على النسخة الأصلية لدين الله هم من يصطفيهم الله من الملائكة ليكونوا رسلاً لتبليغ الرسل من البشر بما في ذلك الكتاب: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (الحج: ٧٥).

ويتم التواصل بين رسل الله من الملائكة والرسول من البشر عن طريق الوحي: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ (النحل: ٢).

وهذا ما حدث عندما بُعِث محمد: بسم الله الرحمن الرحيم. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (سورة القدر).

وليلة القدر قد يكون معناها الليلة التي قدر الله فيها بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، فتنزلت فيها نسخة الدين، في آخر إصداراتها المحدثة والمنقحة والمزيدة، على الملائكة، الذين نقلوها للرسول وحياً على مدى ثلاث وعشرين سنة.

والملائكة الذين اختارهم الله لتوصيل الوحي مخلوقات روحانية: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (الشورى: ٥٢).

ولهم قدرات (أجنحة) متفاوتة: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فاطر: ١).

أما الوحي فهو عبارة عن قيام رسل الله من الملائكة بنسخ النصوص المطلوب تبليغها للناس، من اللوح المحفوظ إلى ذاكرة الرسول، على شكل لغة بشرية يتقنها الرسول المكلف بالتبليغ، عبر آلية لا ندركها: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (الشعراء: ١٩٢-١٩٦) ودون أن يكون للرسول خيار بحفظ ما ينسخ في ذاكرته أو رده.

ولذلك طمأن الله سبحانه رسوله محمداً في بداية نزول الوحي بأن لا يقلق فلن ينسى ما يوحى به إليه ما دام حياً، وقد كان محمداً يحاول ترديد ما يجد من آيات نسخت في ذاكرته خوفاً من نسيانها: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (القيامة: ١٦- ١٧).

وكل ما عليك يا محمد بعد حفظه في ذاكرتك هو تلاوته على الناس كما نزل: فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القيامة: ١٨).

وليس عليك يا محمد أن تفهم الناس معنى الآيات لأنه مما تكفل به من أنزله سبحانه: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة: ١٩) ولذلك لم يكن هناك تفسير للقرآن أملاه محمد صلوات الله وسلامه عليه.

والوحي المنزل على محمد كان قرآناً مجيداً يقرأه الناس في الأرض بينما نسخته الأصلية محفوظة في السماء: بل هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج: ٢١-٢٢).

واللوح المحفوظ ليس لوحاً بالمعنى الحرفي، ولم يحفظ في جبهة أحد الملائكة وهو إسرافيل كما قال المفسرون، ومن ذلك ما نقله ابن جرير الطبري في تفسيره للآية المذكورة، وهذا نصه: حدثنا عمرو بن عليّ، قال: سمعت قرة بن سليمان، قال: ثنا حرب بن سريج، قال: ثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك، في قوله: بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْح مَحْفُوظٍ قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مجيد فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ في جَبْهة إسرافيل.

ولكن اللوح المحفوظ هو طريقة وآلية لا نعلمها حفظت بموجبها نسخة الكتاب الأصلية، والتي تسمى في القرآن أيضاً بالكتاب المكنون: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (الواقعة: ٧٧-٧٨).

وفي الكتاب المكنون يتم حفظ ليس فقط وثيقة أصل الدين والتشريعات، بل وكل آية نزلت على كل رسول من الرسل تتحدث عن حدث وقع في عصر ذلك الرسول ولو لم تكن تشريعاً: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد: ٣٧-٣٩).

وبعض هذه الآيات تبقى وتضاف إلى الوثيقة الأصلية للدين (أم الكتاب) المحفوظة بآلية إلهية (اللوح المحفوظ) وقد تنزل على بعض الرسل اللاحقين، أما البعض الآخر من الآيات فيشاء الله أن لا يضمنها للوحي المنزل على رسول من الرسل، وكأنها محيت من تلك الرسالة أو استبدلت: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة: ١٠٦).

فينزل سبحانه من الآيات التي ليست من التشريعات بمقدار ما يشاء ويحتفظ

منها بما يشاء في الوثيقة الأصلية للوحي: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر: ٩)[١].

وقد يكون هناك أحداث خاصة، وليست تشريعات، وقعت زمن أمة من الأمم، فتذكر في رسالة لاحقة دون الرسالات الأخرى للاستشهاد بها في مواقف معينة. مثل قصة موسى والعبد الصالح، وقصة نوح مع ابنه الذي غرق، وقصة طالوت وجالوت.

كما قد يشتمل الوحي على نصوص تعالج أو تتحدث عن مواقف حدثت زمن الرسول، والقرآن يزخر بمثل هذه الأحداث، ومنها: بسم الله الرحمن الرحيم. عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمَّا مَنِ استغنى. فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزَّكَّى (عبس: ١-٩).

وأيضاً: بسم الله الرحمن الرحيم. تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (سورة المسد).

ومن الآيات التي نزلت على رسل سابقين لوصف وقائع حدثت مع رسل قبلهم، ثم حفظت في النسخة الأصلية وتكرر نزولها حرفياً على أكثر من رسول من الرسل الذين جاؤوا بعد ذلك، قصة عذاب قوم لوط، التي نزلت فيما نزل على موسى وليس فيها تشريع ولكن للإخبار عما حدث في زمن سابق، وتكرر نزولها على محمد حرفياً. وقد نقلها مؤلفو الكتاب المقدس لليهود ليس بنص الآيات المنزلة على موسى التي غابت بغياب التوراة من الوجود، ولكن بعبارات الإخباريين والمفسرين اليهود لتلك الآيات. حيث يذكرون أن امرأة لوط خرجت مع لوط ومن آمن معه من القرية التي سيقع عليها العذاب وأثناء سيرهم «نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» (التكوين: ٢٦: ١٩).

بينما يقول النص الأصلي للوحي والذي ورد في القرآن عن الحادثة نفسها:

---

(١) ويكون معنى الحفظ هنا هو حفظ النسخة الأصلية الموجودة في اللوح المحفوظ وليس النسخة المنزلة على الرسل في الأرض والتي ضاعت كلها بما في ذلك التوراة التي كان من ضمن آياتها هذه الآية والتي لا زال اليهود يستشهدون بها على أن ما بين أيديهم من كتب هي التوراة لأن الله ضمن حفظها بموجب هذه الآية، وهو استدلال مغلوط، لأن الآية تتحدث عن حفظ الله للنسخة الموجودة في السماء.

قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (هود: ٨١).

وهو النص نفسه الذي نزل على موسى، والذي فهم منه رجال الدين اليهود عدم الالتفات بمعناه الحرفي، بحيث إن من يلتفت إلى الوراء لينظر ما يحل بالقرية من عذاب سيهلكه الله. بينما المعنى الذي تقصده الآية من عدم الالتفات هو الإسراع بالخروج من القرية. وامرأة لوط كانت من ضمن الذين كتب عليهم الهلاك ولم تخرج مع لوط من القرية، وليس كما فهم المفسرون اليهود من أنها كانت قد خرجت مع لوط من القرية وكانت ستنجو من العذاب لولا أنها التفتت. فيكون استثناؤها من النجاة وليس من الالتفات، وتكون «إلا» في قوله تعالى: إلا امرأتك، بمعنى «أما». وهو نفس معنى «إلا» في الآية الثالثة والعشرين من سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ. إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (الغاشية: ٢١-٢٤).

ومما بقي في كتب اليهود المقدسة بنصه الذي أوحي به في التوراة: أن كل من أهلك نفساً من إسرائيل فالكتاب يحسبه كأنه أهلك العالم جميعاً. وكل من أحيا نفساً فالكتاب يحسبه كأنه أحيا العالم جميعاً (التكوين: ٤: ١٠) وقد ورد ذلك في الحديث عن قتل ابن آدم لأخيه.

وهو ما جاء بنصه في القرآن: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسرائيل أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة: ٣٢).

ومن الآيات التي جاءت بالنص نفسه في القرآن والتوراة قصة خلق السماوات والأرض التي يقول الوحي بأنها تمت في ستة أيام: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (الفرقان: ٥٩).

والمقصود باليوم هنا فترة زمنية: تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج: ٤).

ويكون اليوم في سياق الحديث عن خلق السماوات والأرض، عصر جيولوجي

متشابه السمات، وإن استمر لآلاف الملايين من السنين. وقد يتكون اليوم الواحد من عدة أيام (عصور جيولوجية) أصغر، وإن امتدت هذه الأيام الصغيرة لملايين السنين. وهو ما تتحدث بمثله الآيات (٩-١٢) من سورة فصلت: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم.

فالكون خلقه الله في ستة أيام (عصور) وليس في ثمانية، ولكن كان هناك أيام (عصور) احتوت على أيام (عصور) أصغر، كما تدل عليه هذه الآيات.

والعصر الجيولوجي مثل الأبد (Eon) الذي يمثل أطول مراحل الزمن الجيولوجي يحتوي على عصور أصغر هي الدهور (Era) وهذه تتضمن فترات أصغر هي الحقب (Period) وهكذا[١].

ولذلك فلن نجد أي تعارض بين ما جاء به الوحي من أن الخلق كان على ست فترات زمنية وبين ما اكتشفه وقد يكتشفه العلم الحديث حول الكيفية التي تم فيها الخلق، والتي امتدت عبر ملايين ومئات وآلاف الملايين من السنين.

ولكن رجال الدين اليهود فهموا نص الوحي حرفياً بما يعني أن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الأرض التي لا يعرفون غيرها، وأطلقوا لخيالهم البشري القاصر العنان لتصوير ما حدث خلال الستة أيام فقالوا: بأن النور خلق في اليوم الأول (قبل أن يكون هناك شمس يقاس بشروقها وغروبها اليوم). ثم خلق الجلد بين المياه في اليوم الثاني. وخلقت الأرض وما عليها في اليوم الثالث. وخلقت الشمس لتكون نور النهار والقمر ليكون نور الليل والنجوم لتنير الليل في اليوم الرابع. وخلقت المخلوقات الحية على الأرض في اليوم الخامس. وخلقت الوحوش والإنسان في اليوم السادس. وقد فسر اليهود استواء الله على العرش على أنه خلد إلى الراحة والسبات ولذلك سمي اليوم السابع بيوم السبت والراحة. وبما

---

(١) انظر الموسوعة البريطانية.

أن الوحي يقول بأن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والأسبوع سبعة أيام، وبما أن الوحي لم يذكر ماذا فعل الله في اليوم السابع المكمل لأيام الأسبوع، فقد تخيلوا أن الله لا بد أنه قد استراح في ذلك اليوم من عناء الخلق، قبل أن يبدأ في بداية الأسبوع التالي بإدارة ملكوته (انظر التكوين: ١).

وحيث إنه يستحيل عليهم تخيل ما يمكن أن يكون في الكون البعيد فقد أهمل رجال الدين اليهود ذكر خلقه، وأسهبوا في الحديث عن خلق الأرض وما فيها وما حولها مما يمكن للإنسان رؤيته.

وقد تكرر نص خلق الكون في القرآن حرفياً، كما ورد في التوراة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (السجدة: ٤).

مما جعل رجال الدين المسلمون من فقهاء ومفسرين يتبنون المفهوم اليهودي الحرفي للنص على أنه ستة أيام من أيام الدنيا. ولكي يخالفوا اليهود قالوا بأنها من أيام الدنيا الأولى التي كانت أطول من أيام الدنيا الحالية[١]، كما غاصوا في تفاصيل مشابهة للتفاصيل اليهودية أو منقولة عنها. فابن مسعود وابن عباس المسلمان قالا بنفس ما قاله عبدالله بن سلام، ذو الخلفية الثقافية اليهودية، ومثله ابن جريج وكعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهم، من أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات يوم الخميس والجمعة ففرغ آخر ساعة من الجمعة فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة (انظر تفسير الطبري للآية السابعة من سورة هود).

وعندما جاء الجيل الثاني والثالث من المفسرين المسلمين أمعنوا أكثر في الخيال من سابقيهم. فقد نقل ابن جرير الطبري في تفسيره للآية ٢٩ من سورة البقرة: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات. عن السدي المتوفى سنة ١٢٧ للهجرة قوله: أن الله عز وجل كان

---

(١) وبطبيعة الحال فاليوم على الأرض ومنذ خلق البشر يساوي تقريباً (٢٤) ساعة مقسمة على اليوم والليلة، ولم يكن هناك أيام طول الواحد منها بطول أسبوع أو شهر أو سنة أو أكثر، وهذا ما أكده العلم الحديث.

على عرشه فوق الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله «ن والقلم» والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرت، والجبال تفخر على الأرض[١].

انتهى كلام السدي الذي يبدو متأثراً بفلسفة جديدة غير يهودية في حديثه عن الحوت الذي يحمل الأرض، مع بقاء أسلوب كتاب اليهود المقدس واضحاً عندما نقارن بين كلام السدي السابق وبين نص الكتاب المقدس التالي: في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل بين النور والظلمة. ودعا النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. . . ودعا الله الجلد سماء. . . وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. . .ودعا الله اليابسة أرضاً (التكوين: الإصحاح الأول).

واتفق المفسرون المسلمون مع اليهود بأن الشمس والقمر والنجوم ليست أكثر مما تراها عليه العين المجردة من الأرض، فالشمس لإنارة النهار والقمر لإضاءة الليل، في تفسير الآية القرآنية: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (الفرقان: ٦١).

والنجوم أبراج وزينة للسماء، وليهتدي بها المسافر في تفسيرهم لقوله تعالى: وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (النحل: ١٦).

والمسلمون فهموا أن العرش ما هو إلا كرسيٌ للجلوس، وفهموا أن «ثم» في قوله تعالى «ثم استوى على العرش» عطف دال على أن الله استوى على عرشه مباشرة بعد انتهائه من خلق ملكوته، وكأن الله جلت قدرته كان بحاجة إلى

---

(١) ج١ ص١٤٩ ـ جامع البيان في تفسير القرآن.

الراحة، كما أنه (تعالى الله عن ذلك) لم يكن له مكان يستريح فيه قبل خلقه للسموات والأرض، وكلامهم هذا مقتبس من اليهود، إلا أنهم لم يتجرأوا على القول بأن الله استراح بنفس الطريقة التي وصفها رجال الدين اليهودي ولنفس السبب. لأن هناك آية قرآنية تنص على أنه سبحانه لم يعتره تعب جراء ما قام به: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (ق: ٣٨) ولذلك لم يكن بحاجة إلى الراحة.

ولكنهم، كما اليهود، لم يستطيعوا تصور معنى الاستواء بغير معناه الحرفي، الذي يدل على نوع من أنواع الجلوس، وأن الباعث للاستواء هو الجهد المبذول في خلق السماوات والأرض في الستة أيام الماضية. فحاولوا أن يثبتوا الاستواء بالكيفية التي يصورها الخيال البشري، ولكنهم لا يريدون أن يبدو وكأنه للراحة، فقالوا: والعرش والكرسي حق، وهو مستغن عن العرش وما دونه (العقيدة الطحاوية).

فالله جلس ولكنه ليس بحاجة إلى الجلوس، كما أن جلوسه كان بطريقة تختلف عن جلوسنا، ولم يقولوا لماذا جلس. وما قالوه أربك قائله وقارئه على حد سواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١].

وليس هناك كبير فرق بين التراث اليهودي في تفسير نصوص الوحي وتراث المسلمين، عدا أن نص الوحي قد اختفى من كتب اليهود المقدسة وبقيت تصورات رجال الدين فقط، بينما بقي النص عند المسلمين حياً ممثلاً بالقرآن، وإن توارى معناه الحقيقي خلف تصورات رجال الدين.

ويتبقى القول بأن ما حوته كتب اليهود المقدسة من النصوص التوراتية على ندرتها، تبدوا وكأنها نصوص قرآنية مترجمة للعبرية. وليس أدل على ذلك من أن الوصية الأولى من الوصايا العشر، والتي يسميها اليهود «السماع»، أي الشهادة، تقول: أدوناي إلوهيم، أدوناي إحد. وقد ترجمت في النسخة العربية للكتاب

---

(١) عبارة اشتهر مالك ابن أنس بقولها وكررها الفقهاء السنة على الدوام، انظر ترجمة مالك في سير أعلام النبلاء.

المقدس بهذه الصيغة: الرب إلهنا، رب واحد. وإلى اللغة الإنجليزية بهذه الصيغة: (The Lord our God, the Lord is one) وعلى الرغم من التراجم المتعاقبة على الكتاب المقدس من لغة إلى أخرى، والاختلاف في الثقافة والتمكن من اختيار الجمل بين مترجم وآخر وكاتب وآخر، فقد بقي هذا النص وكأنه ترجمة حرفية لجزء من الآية القرآنية: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (البقرة: ١٦٣).

ومن التعاليم التي نص القرآن على أنها كانت موجودة في التوراة: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ (البقرة: ٨٣).

وهو مطابق لما وجهه القرآن للمسلمين: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (النساء: ٣٦) وفي آية أخرى: وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفسكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ١١٠).

ومما أورده القرآن حرفياً عن الوحي النازل في الزبور، قوله تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء: ١٠٥).

ولذلك فمن البديهي أن يتحدث القرآن عن أحداث وقصص كثيرة ذكرتها كتب اليهود المقدسة مثل خلق آدم ومواقف إبليس منه، وقصة ابني آدم، ونوح، وإبراهيم ولوط، وقصة فداء إسماعيل التي حورها رجال الدين اليهود لإسحاق. وقصة يوسف، وغيرها الكثير. وأن يفرض القرآن تشريعات فرضت على اليهود وعلى كل الأمم السابقة. فالدين كما أسلفنا، مصدره واحد، وإن وجدت اختلافات بين رسالة وأخرى ففي الجوانب الفرعية من الدين حسبما يفرضه المكان والزمان والبيئة.

فمن المؤكد أن أنبياء شعوب الأمازون القدامى لم يتحدثوا عن التيمم، لوفرة المياه بسبب هطول الأمطار الاستوائية طوال العام. كما لم يطلبوا من النساء أن «يدنين عليهن من جلابيبهن». لأن البيئة حارة ورطوبتها خانقة لا يحتمل معها

الإنسان أن يغطي جسده، مما جعل مفهوم العورة عندهم يعني تغطية المنطقة الخاصة جداً للرجل والمرأة على حد سواء بما تيسر من ورق الجنة (الغابة)، لأنهم يفتقرون للمهارة اللازمة لحياكة الأقمشة.

ويمكن أن يوجد اختلاف في بعض التشريع بسبب ظرفي أو مكاني طارئ، مثلما حدث مع اليهود: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أو الْحَوَايَا أو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ (الأنعام: ١٦٤).

وهذا التحريم الاستثنائي استوجبه جرمٌ اقترفوه: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (النساء: ١٦٠-١٦١). ولذلك فهذا التحريم لم يعمم على أمم أخرى.

ومع أن الديانة اليهودية ديانة سماوية في الأصل، إلا أن كتب وتشريعات الصابئة أو مندائي كما يطلقون على أنفسهم، هي النموذج المثالي لبقايا الأديان السماوية القديمة، التي يمكن مقارنة بعض ما بقي من تشريعاتها بما جاء به الإسلام، للتدليل على أن الدين واحد، ونصوص وثيقته الأصلية المحفوظة واحدة.

ذلك أن الديانة اليهودية، وإن كانت سابقة للإسلام، إلا أنها ليست قديمة قدم ديانة الصابئة، التي تعتبر أقدم ديانة على الأرض، حسب رأي معتنقيها الذين يعتقدون أن ديانتهم هي دين آدم وحواء، وأن كتبهم لازالت تحوي نصوصاً بقيت على الصورة التي نزل بها الوحي، أكثر مما بقي في كتب اليهود من التوراة، والتي من أهمها: «سدرا أو نشماتا» الذي يعتقدون أنه نزل على آدم أبى البشر، ومنه تستمد كل تشريعاتهم. وكتاب «سدرا آدم» أي صحف آدم، وكتاب «سدرا أُيهيا» أي صحف يحيى. بجانب العديد من الكتب الإخبارية الأخرى.

وبما أن الإسلام هو الأحدث بين الأديان السماوية، وكتابه القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لازال يحتفظ بكامل نصوصه كما نزلت على محمد دون تغيير، فإن اتفاق ما تبقى من تشريعات أقدم ديانة مع ما جاء في القرآن، سيؤكد على وحدة الأديان وأنها جاءت كلها من وثيقة واحدة (أم الكتاب) المحفوظة بعلم الله بآلية (اللوح) التي علمها عند ربي.

مقارنة بين الإسلام ودين الصابئة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (المائدة: ٦٩).

لم يبق من الصابئة إلا أعداد قليلة في العراق وإيران، يحتفظون بلغتهم الدينية التي تسمى الآرامية المندائية، أي أنها إحدى لغات جنوب الجزيرة العربية القديمة. وقد يكون الصابئة قدموا من تلك المناطق بعد أن تعرضوا للاضطهاد والذبح من قبل اليهود، على اعتبار أن اليهود وجدوا في جنوب جزيرة العرب (انظر موضوع الإسراء والمعراج في الملاحق).

ومن معتقدات الصابئة وشعائرهم الدينية التي يمكن مقارنتها بالمعتقدات والشعائر الإسلامية، ما يلي[١]:

أساس العقيدة

فدين الصابئة يقوم على مبدأ أساسي هو الإيمان بالله واليوم الآخر. وهو المبدأ نفسه الذي أقره القرآن للمسلمين بعد محمد وللأديان السماوية الأخرى كل في عصر رسوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (المائدة: ٦٩).

الكعبة

الصابئة يعظمون الكعبة والبيت الحرام في مكة، والكعبة يعظمها المسلمون وهي قبلتهم: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ

---

(١) المعلومات في هذا الفصل تعتمد على ما جاء في كتاب تاريخ الصابئة المندائيين/ محمد عمر حمادة بصورة رئيسية.

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ (البقرة: ١٤٤). وتستمر الآية لتقول بأن كل الديانات كانت قبلتها الكعبة: وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

والكتاب هنا جاء بمعنى الدين، فليس المقصود بالذين أوتوا الكتاب اليهود فقط، بل كل من كان لديه دين سماوي سابق.

والصابئة يؤمنون بأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وقد بنيت في عهد آدم أو أحد أبنائه أو في عهد إدريس، وهو ما يتفق مع قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (آل عمران: ٩٦).

الغسل من الجنابة

حيث يجب عند الصابئة فيها النية المسبقة وأن يغتسل بماء جار غير راكد، أي طهور في نفسه مطهر لغيره كما وصفه رجال الدين المسلمون، وهو ما يتوافق تماماً مع التشريعات الإسلامية.

الوضوء

فلا تصح الصلاة بلا وضوء عند الصابئة. وهيئته كالتالي: يبدأ بالبسملة والتلفظ ببعض الأدعية قبل أن يلمس الماء، ثم يغسل يديه وهو يردد أدعية أخرى، بادئاً باليمين، ثم يغسل وجهه ثلاث مرات مستخدماً يده اليمنى ويمسح على صدغيه، قبل أن يغمس سبابته في الماء ثلاث مرات وينظف بها أذنيه، ثم يتمضمض ويستنشق الماء ثلاث مرات. ثم يقوم بغسل رجليه بادئاً بالركبة ونزولاً للساق ثم القدم، مستمراً في ترديد أدعية لكل حركة يقوم بها في الوضوء حتى النهاية. وصورة الوضوء التي يعتقد الصابئة أنهم توارثوها منذ عهد آدم لا تختلف عن الوضوء الإسلامي لا في الشكل ولا في الترتيب والموالاة، عدا في أمرين ثانويين:

الأول أن المضمضة والاستنشاق عند الصابئة تكون قبل غسل الرجلين، فيما جاء في الفقه الإسلامي أن غسل الوجه منه المضمضة والاستنشاق، بينما لم يأت لهما ذكر في القرآن، ويمكن أن يجوز الوضوء من دونها. فهل اعتقد فقهاء المسلمين أن المضمضة والاستنشاق لا بد أنها تتبع الوجه لأن الفم والأنف في الوجه، أم أن قدم عهد النسخة المندائية أزاحتهما لما قبل غسل الرجلين.

والثاني، أن المسلمين يكتفون بغسل القدمين إلى الكعبين كما ينص على ذلك القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَينِ (المائدة: ٦) بينما يشمل غسل القدم الساق والركبة عند الصابئة. فهل السبب يعود إلى قدم العهد بالنسبة إلى الصابئة أم أن الحاجة إلى غسل الركبة والساق انتفت في الإسلام بوجود الألبسة التي أصبحت تغطي الساق والركبة وتمنع تعرضهما للاتساخ؟

نواقض الوضوء

وهي نفسها نواقض الوضوء عند المسلمين: البول والغائط، وخروج الريح. أما لمس الحائض، والنفساء، وأكل شيء قبل الصلاة، والتي لا توجد عند المسلمين، فقد تكون من الأمور التي أضافها الفقه الصابئي لاحقاً.

ولا يجيز الصابئة الصلاة لوقتين في وضوء واحد ولو لم ينتقض. فهل هذا اجتهاد من فقهاء الصابئة أم أن هذا ما ينص عليه قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف: ٣١).

فإذا كانت الزينة تعني التزين باللبس والهيئة فلا بد أن تنظيف الجسد جزء هام من التزين. وهو ما يفسر اقتصار الوضوء على غسل الأعضاء الظاهرة، كالوجه واليدين والرجلين. وبما أن المقصود بالمسجد هو الصلاة وليس البناء الذي تقام فيه الصلاة ـ لأن الآية مكية وموجهة لمن آمن مع الرسول في مكة في بداية الدعوة حيث لم يكن موجوداً سوى مسجد واحد. فيكون الوضوء لازم لكل صلاة من الصلوات الخمس في الإسلام، لأنه داخل في الزينة اللازمة لكل صلاة على حدة. ويكون الترخيص في الصلاة بوضوء واحد لأكثر من صلاة، ترخيصاً فقهياً جاء في عصر لاحق.

عدد الصلوات في اليوم والليلة

يقول الصابئة إن الصلاة كانت في عهد آدم سبع صلوات، وهي: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وصلاتين فيما بينهما. أما الآن فيصلون في

ثلاثة أوقات فقط، هي: قبل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبيل غروبها. وينسبون هذا التخفيف إلى النبي يحيى.

ويمكن تحسس أن الصلاة عند الصابئة في الأصل لم تكن سبع بل خمس فقط، لأنهم حددوا الخمس صلوات بأسمائها وأوقاتها المعروفة في الإسلام، بينما لم يحددوا وقت الصلاتين السادسة والسابعة بنفس الدقة ولم تسميا. وقد تكون أضيفتا نتيجة لاجتهادات فقهية، قصد منها زيادة التقوى عند الناس، ومع الزمن تحولت إلى ما يشبه الفريضة. مثلما هو حادث عند المسلمين فيما يسمى بصلاة التراويح، وصلوات السنن التي يرى بعض فقهاء المسلمين أن من فاتته لزم قضاؤها، مثلها مثل الصلاة المفروضة. ويكون اسم النبي يحيى قد أُقحم في التخفيف إلى ثلاث صلوات بدل الخمس، حتى يلتزم الناس بالفتوى التي قررها رجال الدين من عند أنفسهم، والنبي يحيى منها براء.

ومما بقي في هيئة صلاة الصابئة مشابه لصلاة المسلمين الوقوف والركوع والسجود، وإن اختلفت عدد الركعات والسجدات. فهناك (٨) ركعات لصلاة الفجر، في كل ركعة (٣) سجدات. و(٥) ركعات، في كل ركعة (٣) سجدات لصلاة الظهر، ومثلها لصلاة العصر.

وعند الصابئة بقيت الإقامة للصلاة دون الأذان، وقد يكون سبب اختفاء الأذان في البداية قسرياً ثم مع الأيام اعتاد الناس الصلاة من دونه. وقد يعود اختفاء الأذان إلى ما تعرض له الصابئة من الاضطهاد والذبح في موطنهم الأصلي من قبل اليهود.

فهل كان الصابئة هم المعنيين في قصة الأخدود، عندما كانوا في موطنهم الأصلي جنوب الجزيرة وكان نزوح من بقي منهم إلى العراق للنجاة بأنفسهم: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (البروج: ٤-٩).

وكان من نتائج ذلك الاضطهاد أن اختفى الأذان بينما بقيت الإقامة، لأن الصابئة داوموا على أداء الصلاة بسرية.

والاضطهادات الدينية تحدث باستمرار قديماً وحديثاً، وقد حدث أن منع الآذان

في بداية قيام تركيا الحديثة على يد كمال أتاتورك، كما منع المسلمون الروس من أداء الصلاة والشعائر الإسلامية في بداية الثورة البلشفية، وكان كل من يثبت عليه أنه قد أدى الصلاة يحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، فكان المسلمون يصلون خفية ومن دون أذان.

الصوم

أكد ابن النديم حسبما جاء في كتاب: الصابئون في حاضرهم وماضيهم/ عبد الرزاق الحسنى، أنهم يصومون ثلاثين يوماً. وإن كانت متفرقة وليست مجتمعة على شكل شهر واحد كما هي الحال عند المسلمين.

وقد أورد محمد عمر حمادة في تاريخ الصابئة المندائيين أنهم ينسبون إلى النبي يحيى قوله: «وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريحاً، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». والعبارة الأخيرة وجدت طريقها للتراث الإسلامي، ونسبت إلى الرسول محمد.

ومن جهة أخرى، فيبدو أن كتب المسلمين الإخبارية قد استعارت الكثير من التراث الديني المندائي الذي أدخله فقهاؤهم على دين الله، ومن ذلك اعتقاد الصابئة بأن الإنسان إذا مات استقبله ملكان موكلان باستجوابه، فإن كانت أعمال المتوفى خيرة ذهبت روحه إلى النعيم ويوم القيامة توزن في الميزان الذي تشاهد نجماته في السماء. أما إذا كانت أعماله سيئة فإن روحه تعذب بحسب الذنوب المقترفة.

والملكان عند المسلمين هما المنكر والنكير، كما جاء في خبر أورده الترمذي برقم (١٠٦٥)، وهذا نصه: حدثنا أبو سَلَمَةَ يَحْيى بنُ خَلَفٍ البَصْرِيُّ حدثنا بِشْرُ بنُ الْمُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرحمنِ بنِ إسحاق، عَنْ سَعِيدِ بنِ أبي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رسُولُ الله: إذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أوْ قالَ أَحَدُكُمْ) أتَاهُ مَلَكانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ. يُقَالُ لإحَدِهِما الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكيرُ. فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. أَشْهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هذَا. ثمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سبْعُونَ ذرَاعاً في سَبْعِينَ. ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ أَرْجِعُ إلى أَهْلِي

فأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوس الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ. وَإنْ كانَ مُنَافِقاً قالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ. لاَ أدْرِي. فيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ تَقُولُ ذلِكَ. فيُقَالُ لِلأرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ. فَتَخْتَلِفُ فيها أضْلاَعُهُ. فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ.

ويقول عباس محمود العقاد: «لا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له في إحدى الشعائر»[1]. وما لم يقله العقاد أن جميع الأديان لها شعائر واحدة في الأصل، وأن الاختلاف فيما بينها صناعة بشرية تشكلت ببطء عبر الزمن.

ومن الطبيعي أن يكون الدين واحداً لأن الله واحد، وقد خلق البشر متساوين في الأسس التي تكوّن الشخصية البشرية. فهم من أب واحد وأم واحدة: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تتساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (النساء: ١).

ولدى كل البشر الأسوياء القدرات العقلية والذهنية والمشاعر والأحاسيس نفسها: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين: ٤).

وروح الإنسان أينما كان وكائناً من كان، هي جزء من روح الخالق: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (ص: ٧١-٧٢).

ولدى البشر استعدادات عقلية واحدة: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبياء: ٩٢).

فكان العدل المطلق بين الناس جزءاً دائماً من دين الله الذي جاءت به كل الرسل: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.. (الحديد: ٢٥).

---

(١) نقلاً عن كتاب المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب- عميد/ عبد الرزاق محمد أسود ـ ج١ ص١١٤- ١١٥.

وسيكون الحساب يوم القيامة لكل الناس وبصورة واحدة، وهناك جنة واحدة للمؤمنين ونار واحدة للمكذبين، فالنتيجة الطبيعية أن يكون الدين واحداً لكل الرسل.

وقد أنزل هذا الدين (الكتاب) على إبراهيم: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (النساء: ٥٤-٥٥).

وأنزل على ذريته من بعده: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (العنكبوت: ٢٧).

والكتاب نفسه نزل على موسى: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (الأنعام: ١٥٤).

وتتابعت الرسل بعد موسى بالكتاب والتشريع نفسيهما: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أنفسكُمُ استكبرتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (البقرة: ٨٧).

وإلى عيسى: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم: ٣٠) وأوتي نفس الكتاب ليحيى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (مريم: ١٢) ولما جاء محمد أوتي نفس الكتاب: ألم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين (البقرة: ١-٢).

قلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إسرائيل عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاستكبرتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيم. وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (الأحقاف: ٩-١٢).

وقد اختار الله للبشر منذ خلقهم ديناً واحداً سماه الإسلام: قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٨٤).

وكل من يتحول عن الإسلام (دين الله) كلياً إلى عقائد أخرى أو جزئياً بإضافة معتقدات إلى الدين ليست فيه، فلن يقبل منه: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران: ٨٥).

فالدين المطلوب اتّباعه هو الإسلام بصورته الناصعة الخالية من الشوائب والدنس مما قد يعلق بها من معتقدات ليست منها، ولذلك تتابعت الرسل لتجديد الدين وتنظيفه، وقد جاء محمد بآخر نسخة من دين الله وليكون ختاماً للرسل: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (الأحزاب: ٤٠).

وتكون تشريعات القرآن هي النسخة المحدثة والأخيرة المعمول بها من دين الله، منذ بعث محمد وإلى يوم القيامة، وتعطل العمل بأي نسخة قديمة من الدين كان معمولاً بها قبل ذلك.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ. (المائدة: ٤٨).

والنسخة المحمدية الجديدة نسخة محمية ضد العبث والتقليد: قُل لَّئِنِ اجتمعتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (بني إسرائيل: ٨٨).

لهذا يتعين على المسلمين أن يعودوا إلى النسخة الأصلية للإسلام المتمثلة في القرآن كلما حدث خلل في عقيدة المسلمين، لكي يعودوا إلى صافي العقيدة، ولن يكون هناك نسخة أحدث يأتي بها مسيح أو مهدي بعد محمد بن عبدالله.

وفي الباب التالي سيكون الحديث عن موقف الناس من الدين عبر العصور.

مصادر الباب

- القرآن الكريم
- سيرة ابن هشام/ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت
- تاريخ الطبري/ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت
- البداية والنهاية/ ابن كثير/ الناشر: مكتبة المعارف ـ بيروت
- البحث عن يسوع/ كمال سليمان الصليبي/ الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع ـ عمّان
- التوراة جاءت من جزيرة العرب/ كمال سليمان الصليبي ـ دار الساقي ـ بيروت.
- خفايا التوراة/ كمال سليمان الصليبي.
- موجز تاريخ الأديان/ فيليسيان شالي/ حافظ الجمالي/ طلاس للدراسات والترجمة ـ دمشق.
- تاريخ الصابئة المندائيين/ محمد عمر حمادة ـ دار قتيبة للطباعة والنشر ـ دمشق.
- كتاب: الصابئون في حاضرهم وماضيهم/ عبد الرزاق الحسني ـ مركز الأبجدية.
- من قاموس الأديان/ أسعد السحمراني ـ دار النفائس ـ بيروت.
- الصابئة المندائيون/ الليدى دراور/ ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- المندائيون الصابئة/ محمد الجزائري ـ المعهد الملكي للدراسات الدينية.
- تاريخ الأديان وفلسفتها/ طه الهاشمي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
- جامع البيان في تفسير القرآن/ ابن جرير الطبري ـ طباعة ونشر دار المعرفة ـ بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- التفسير المنسوب إلى ابن عباس/ يعقوب الفيروزأبادي ـ دار الفكر ـ بيروت.
- موطأ مالك/ الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- كتاب البخاري/ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- كتاب مسلم/ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- مسند أحمد/ الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- سنن الترمذي/ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.
- سنن أبو داوود/ الناشر: مكتبة الريان ـ بيروت.

ـ العقيدة الطحاوية/ أبو جعفر الوراق الطحاوي/ الناشر غير معروف.
ـ الإصابة في تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني/ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر القرطبي / الناشر: دار الكتب العلمية.
ـ أسد الغابة في معرفة الأصحاب / ابن الأثير الجزري / الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.
ـ سير أعلام النبلاء/ الذهبي/ دار الفكر ـ بيروت.
ـ القرآن والتوراة والإنجيل والعلم/ موريس بوكاي/ دار المعارف ـ القاهرة.
ـ الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى.
ـ النسخة الإنجليزية من الكتاب المقدس The New King James Version - Thomas Nelson, USA
ـ Who Wrote The Bilble, Richard Elliott Friedman - Summit Books- N.Y., USA.

الباب الثاني

موقف الناس
من الدين عبر العصور

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ * كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١٠-١٣).

* تقريباً كل الأديان الموجودة على وجه الأرض كانت في الأصل ديانة سماوية جاء بها رسول من رسل الله، ولكنها تحورت مع الأيام بواسطة أتباعها.
* كل البشر على مر العصور والأزمنة، السابقة واللاحقة لهم مواقف ثابتة لا تتغير من دعوات الرسل والدعوات التصحيحية للدين، سماها القرآن سنة الأولين، وتمر بأربع مراحل.
* الأغنياء والزعماء ورجال الدين يقودون بقية الناس للوقوف ضد دعوات الدين التصحيحية في كل مكان وزمان.
* كون الرسول أو الداعي للتصحيح الديني بشر من عامة الناس من أهم الأسباب التي من أجلها يرفض الناس العودة إلى صافي الدين، إضافة إلى صعوبة التصديق بالبعث وحب التمسك بالموروث وكون الدين كل لا يتجزأ وحب الشهوات والملذات.

يعتنق سكان الأرض أدياناً وعقائد متنوعة. بعضها يؤمن معتنقوها أنها أديان سماوية أنزلها الله على الرسل، وأنهم لازالوا متمسكين بها بصورتها التي نزلت عليه من السماء، وبعض المعتقدات يتمسك بها أصحابها، دون أن ينسبوها إلى السماء، ولكنها في نظرهم أصدق وأكثر صحة من أي معتقدات أخرى.

ولا يوجد أهل ديانة يعتقدون أن ديانتهم أقل شأناً، من أي ديانة أخرى، ولذلك يصعب على غيرهم إقناعهم بخلاف ذلك، مهما كانت الدعوة التي يُدعون إليها صحيحة ومهما كانت عقيدة المدعو باطلة لا تقوم على أساس.

وقد واجه الرسل كثيراً من العنت عندما دعوا أقوامهم على مر التاريخ إلى دين الله، دون أن يصغي إلى دعواتهم إلا قليل جداً من الناس، عادة ما يكون معظمهم من الطبقة المسحوقة في المجتمع، أما غالبية المجتمع فقد تمسكوا بعقائدهم الموروثة وحاربوا الدعوة الجديدة، لأنها في نظرهم، دعوة خارجية هدامة، جاءت لتشكك الناس في عقيدتهم الصحيحة التي ورثوها عن آبائهم.

ويبين القرآن أن دعوة الرسل تمر بأربع مراحل تكررت باستمرار مع جميع الأمم السابقة، على الرغم مما بينها من فوارق زمنية ومكانية واجتماعية. وهذه المراحل هي:

١ ـ استقبال الناس للدعوة

فمنذ أن يبدأ الرسول دعوته ينقسم الناس حيال الدعوة إلى فئتين:

الفئة الأولى قلة قليلة يؤمنون بالرسول ويتكون معظم أفرادها من المستضعفين والمسحوقين في المجتمع وقليل من أناس آخرين من طبقات مختلفة يكون دافعهم الأول لاعتناق الدين الجديد، سخطهم على المجتمع وبحثهم عن فرص أفضل في

ظل الدين الجديد، ونحن هنا نتحدث عن الدافع الأول وليس عن الفترة اللاحقة للمؤمن التي يقتنع فيها بصدق الدعوة، لمن يحسن إيمانه.

وتقابل الفئة المؤمنة بالاستهجان والسخرية والاضطهاد من قبل بقية أفراد المجتمع بكافة ميوله واتجاهاته وطبقاته الاجتماعية وهم الفئة الثانية الذين يبقون على معاداتهم للرسول ومن آمن معه: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (الأعراف: ١٠١-١٠٢).

٢ ـ استمرار الدعوة

مهما استمرت الدعوة فإنه لن يؤمن بالرسول إلا من آمن، وسيبقى الوضع على ما هو عليه ولو طال بقاء الرسول بينهم لمئات السنين: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (العنكبوت: ١٤).

ومع أن نوحاً بقي يدعو قومه طوال تلك المدة إلا أن قومه لم يتقبلوا دعوته: وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (هود: ٣٦-٣٧).

و على الرغم من أن نوحاً أبلغهم بأن الطوفان قادم وأنه سيهلك كل من لم يؤمن، إلا أن موقف قومه تجاه الدعوة بقي كما هو: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (هود: ٣٨-٣٩).

وما حدث لنوح مع قومه حدث لبقية الرسل الذين ذكرهم القرآن، وإن لم يبقوا في قومهم كما بقي نوح.

٣ ـ نهاية المعارضين ونجاة الرسول ومن معه

في نهاية المطاف ينجي الله الرسول ومن آمن معه ويهلك المعاندين، ليس لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الرسول ولكن لأنهم حاولوا طمس دين الله بكل السبل

ومنع غيرهم من الدخول فيه: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (يوسف: ١١٠).

فكان القضاء عليهم رأفة بغيرهم من الأجيال التالية لكي تنشأ وتتربى على التشريعات الدينية الجديدة، وتنقذ أنفسها من النار: إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس: ٤٤).

وكثيرة هي الآيات القرآنية التي توضح ذلك، ومن هذه الآيات ما ورد في سورة الذاريات: وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ. وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم. وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ. فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ. وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (الذاريات: ٣٨-٤٦)... ثم تتواصل الآيات: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (الذاريات: ٥٢-٥٣).

٤ ـ مرحلة تحول الناس عن الدين

بعد أن ينجي الله الرسول والذين آمنوا معه، تنتهي مهمة الرسول، وبعد وفاته يكون الناس هم المسؤولين عن حفظ الدين. ولكن جرت العادة أن يتحول الناس عن الدين مع الزمن إلى عقائد وتشريعات أحدثوها وأدخلوها على الدين وأصبحت جزءاً منه، بل وحلت محل التشريعات الإلهية. وبعد عدة أجيال يتمسك الناس بما استجد من تشريعات ويتوارى الدين الحقيقي عن الأنظار، فيصبح أحفاد المؤمنين بالرسول بحاجة إلى رسول آخر يعيدهم إلى الدين القويم، فيرسل الله رسولاً آخر، ليتكرر معه الموقف وتتكرر مراحل الدعوة من جديد.

والسبب المؤثر لتحول الناس عن الدين هو أنهم بعد دخولهم الدين الجديد، يحتفظون بالكثير من مظاهر ثقافتهم وتراثهم السابق المتأصل، وبعد وفاة الرسول تبدأ هذه الخلفيات الثقافية والتراثية بالعودة إلى الطفو على السطح، وبما أن الدين يحاربها، فإن الكثير منها يتم تلبيسه للدين وتحويله إلى جزء لا يتجزأ منه، فيحافظ الناس على موروثاتهم السابقة المخالفة للدين بنسبتها إليه. إضافة إلى أنه كلما

تقادم الزمن كلما دخل في الدين ما ليس فيه حتى يعود الدين غريباً بين الناس كما بدأ، فيحتاج الناس إلى رسول آخر يعيدهم إلى طريق الصواب.

وقد ذكر القرآن العديد من الأمثلة على مواقف الأمم السابقة من الرسل، وجميعها مرت بالمراحل الأربع المذكورة، وكل تلك الأقوام التي ذكرها القرآن كانت تسكن جزيرة العرب، وقد سمعت قريش بما حل بهم، وتعرف مساكنهم، لعل قريش تأخذ العبرة مما حدث لهم. ولو كانوا في مناطق بعيدة وغير معروفين لقريش فلن يكون لسرد ما حدث لهم أي تأثير أو عبرة.

ومن تلك الأمم قوم نوح: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (لأعراف: ٥٩)

ولكن دعوة نوح قوبلت من معظم أفراد المجتمع بالتكذيب: قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (الأعراف: ٥٩-٦٠).

والنتيجة نجاة الرسول والقلة الذين آمنوا معه وهلاك المكذبين: فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ (الأعراف: ٦٤).

ومثلهم قوم عاد: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتظرواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ.: فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (الأعراف: ٦٥-٧٢).

وقوم صالح: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ

فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ استكبرواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأصبحواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (الأعراف: ٧٣-٧٨).

وقوم لوط: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (الأعراف: ٨٠-٨٤).

وقوم شعيب: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (الأعراف: ٨٥-٨٨). . . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأصبحواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (الأعراف: ٩١).

هذا هو موقف الناس من الدين، وهذا ما جعل إرسال الرسل حاجة ملحة إلى العودة بالناس إلى الطريق المستقيم. أما سبب عدم قبول الناس دعوة الرسل فهو ما سنتعرض له في الأسطر المقبلة.

الدين ثورة اجتماعية لا يرحب بها الناس

قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأرض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (يونس: ٧٨)

الدعوة إلى الدين التي أرسل بها الرسل هي عبارة عن دعوة إلى ثورة اجتماعية شاملة لنسف معتقدات وعادات وتراث وشخصية المجتمع التي تشربها على مدى عشرات ومئات السنين. ويقود هذه الثورة شخص عادي مجرد من القوة والنفوذ، وليس من أهل الزعامة والسلطة والجاه، وغير مدعوم بجيش أو مال، وكل سلاحه وعود غيبية لا يمكن إثبات صدقها بأدلة محسوسة.

والناس جبلوا على عدم تقبل التغيير بسهولة، خاصة تلك التي تمس العادات والتقاليد والديانة، لأن التراث الاجتماعي هو شخصية الأمة وكيانها، والقبول بتغييره يعني اعترافاً بوجود قصور أو نقص أو عيب في تلك الشخصية، وهو نقد لا يحبذ الإنسان الاعتراف به داخل نفسه، ويكره سماعه من الغير، وبالتالي فلن يقره أو يقبل به.

والتغييرات التي تحملها الدعوة الإلهية تكون مفاجئة وليست متدرجة، وإلا فالتغيير جار في كل المجتمعات الإنسانية وباستمرار. وكل جيل يتشبث بما اعتاده من تراث وتقاليد وينفر مما أحدثه الجيل التالي من تغييرات يراها وكأنها خارجة عن الذوق العام وخالية من المسؤولية.

والتغيير في الحياة العادية مستمر، ويمكن ملاحظة أن كل جيل سيكون في بدايته ثائراً على الموروثات ويحاول فرض أسلوب حياته الجديد في طريقة التفكير والملبس والتصرف وقص الشعر والمظهر وكل جوانب الحياة الأخرى، معتبراً ما وجد الجيل السابق يفعله عتيقاً لا يتناسب مع عصره. وتمر السنين وينشأ جيل

جديد بأفكار وتصرفات ومظاهر جديدة، ويصبح الجيل السابق الذي كان ثائراً، جيلاً محافظاً يتمسك بما لديه من تراث بعضه ورثه من أجيال سابقه، وبعضه كان قد أحدثه، وهذه الصورة مستمرة في التكرار منذ نشأ البشر على الأرض وستدوم ما بقي الناس عليها.

والتغير في المجتمع يشمل كل مجالات الحياة، ومن ذلك الأساليب في إدارة الأعمال والدول، وإن كان التغيير يتم أسرع في بعض المجالات بينما يتباطأ في مجالات أخرى.

والتغيير في العقائد يتم عبر الأجيال مثل التغيير في الذوق الموسيقي أو طريقة المأكل والملبس، ولكن بطريقة مختلفة. لأن الدين يشتمل على مواضيع وجوانب كثيرة ومتشعبة، ويتم التحول في هذه المواضيع والجوانب حسب درجة التأثيرات المحيطة في كل منطقة أو مجتمع أو مجموعة على حدة. ولذلك لا تتغير هذه الجوانب كلها بنفس الوقت والسرعة والنوعية عند كل أهل المعتقد في كل مكان. وقد يحدث تغيير في جانب من جوانب العقيدة في مكان أو عند فرقة معينة دون أن يطرأ على الجانب نفسه والتغيير نفسه في مكان آخر أو فرقة أخرى، وهذا ما يفسر ظهور الفرق والمذاهب التي تختلف في المسائل الفقهية في الدين الواحد.

والتغيير في المعتقد يقابل بمعارضة اجتماعية أشد من التغير في أي مجال آخر. ولكن متى ما قبل المجتمع التغير فإن رسوخ المعتقدات تتم بصورة أعمق من رسوخ التغيرات في المجالات الأخرى، لأن المعتقدات المتبناة تصبح جزءاً من ثقافة المجتمع وشخصيته يصعب التخلي عنها.

ولذلك نجد أن التعاليم الهندوسية قبل ١٠٠٠ عام ليست هي التعاليم الهندوسية الحالية، وديانة اليهود في عصر موسى تختلف جذرياً عما يفعله ويعتقده ويؤديه الجيل الحالي من اليهود باسم تلك الديانة. وما كان مطبقاً زمن الرسول محمد باسم الإسلام يختلف عما يمارسه ويعتقده المسلمون باسم الإسلام اليوم. ومعتنقو هذه الديانات الحاليون لا يمكن أن يتقبلوا بسهولة فكرة العودة إلى الصورة الأصلية التي كانت عليها دياناتهم، لأنهم يعتقدون أن ما هم عليه هو الوجه الحقيقي والصحيح للدين.

ومنذ وجد الإنسان على الأرض والمفاهيم الدينية تتحور ويتحول الناس عن

جوهر الدين مع مرور الزمن، فيبعث الله الرسل لإعادة الناس إلى الدين الصحيح: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختلفواْ فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اختلفواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (البقرة: ٢١٣).

فجاءت الحاجة إلى أن يرسل الله الرسل تباعاً على مر التاريخ للناس لإعادتهم إلى دين الله الذي كان يوماً ديناً لأجدادهم الذين نجوا مع رسول سابق من عذاب الله الذي أهلك بقية مجتمعهم لامتناعهم عن العودة إلى جوهر الدين في وقتهم: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (بني إسرائيل: ١٧).

فقوم عاد كانوا سلالة من آمن ونجا مع نوح، ولكن التغير المستمر في العقيدة حولهم إلى عبدة أوثان، فأرسل الله هود لهدايتهم: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ... أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الأعراف: ٦٥-٦٩).

وكان قوم ثمود يتحدرون من القلة القليلة الذين آمنوا مع هود من قوم عاد ونجوا من الريح التي أهلكت بقية مجتمعهم: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ (الأعراف: ٧٣-٧٤).

كما أن قريشاً كانوا متعصبين لديانتهم التي تحورت من ديانة أسلافهم إسماعيل وأبنائه الذين كانوا يدينون بديانة أبيهم إبراهيم: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الحج: ٧٨).

وكل الأمم والمجتمعات القديمة، قد تحدرت عقائدها الوثنية عبر الزمن من دين الله الصافي الذي كان يوماً دين أسلافهم الأولين: وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (الفرقان: ٣٧-٣٨).

وعادة ما يكون التحور عن جوهر الدين مدعوماً بفتاوى واجتهادات رجال الدين ليتخذ صفة الشرعية والقبول لدى الناس: اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابن مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة: ٣١).

ويتم ذلك بدوافع الورع والحرص على حفظ الدين، ومحاربة الفساد وسد الذرائع لئلا يقع الناس في المحظورات المستجدة، وكأنهم أحرص من الله جل وعلى على دينه: وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (النحل: ١١٦).

وأحياناً بدوافع وتأثيرات مختلفة أخرى مقصودة وغير مقصودة، سياسية كانت أو اجتماعية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (البقرة: ١٥٩).

وشيئاً فشيئاً عبر الأجيال، ترسخ العقائد البديلة في المجتمع وتحل محل العقيدة الأصلية، وتصبح جزءاً من التراث الاجتماعي للأمة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠).

ويتعصب الناس للمفاهيم الجديدة لدرجة تأويل النصوص الشرعية الأصلية إلى غير معانيها لتتوافق مع عقائدهم المستحدثة. وفي ذلك يقول أبو الحسن عبدالله الكرخي: «كل آية تخالف ما عليه مذهبنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ» (الرواية وردت على لسان أبي حيان التوحيدي بتحقيق الشيخ محمد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع الإسلامي» ط٨-ص٢٩٢-القاهرة ١٩٧٥).

ويقول الله تبارك وتعالى في حق مثل هؤلاء: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

كَذِباً أو كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أنفسهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (الأعراف: ٣٧).

ويستمر التحول والتغير حتى لا يبقى من المعتقدات الأصلية سوى القليل المحاط ببدع وخرافات مستحدثة، وهو ما يمكن ملاحظته لدى بعض الديانات التي يطلق عليها وثنية. فالبقرة لدى الهندوس ليست إلهاً بذاتها ولكنها رمز للإله استوجب التقديس، لأن رجال الدين الهندوس في فترة من فترات تاريخهم اعتقدوا أن الإله أقدس من أن يعبده الناس مباشرة ومن دون وسيط، وشيئاً فشيئاً نمت فكرة الوسيط وتبلورت لاتخاذ البقر.

وفكرة الوسيط وجدت في معتقدات كثيرة، وكانت موجودة لدى قريش. فقد كانوا لا يعبدون الأوثان لذاتها ولكن لأنها الوسيط بينهم وبين الله: أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (الزمر: ٣).

وقد عرفت اليهودية هذا التحول في صلة البشر بالخالق بطريقة أخرى. حيث أصبح في فترة من فترات تاريخهم من غير اللائق أن يذكر الإنسان لفظ الجلالة مجردا، تنزيهاً له كمطلب شرعي، كما هو الحال الآن مع المسلمين الذين لا يذكرون اسم الله مجرداً ولكن مصحوباً بعبارات الإجلال والتقدير، فيقال مثلاً: الله جل جلاله، أو الله سبحانه وتعالى. ولكن اليهود مع الأيام وصل بهم الحرج من التلفظ باسم الجلالة منفرداً إلى أنهم قالوا يجب أن يشار إليه، بدل التصريح باسمه، فلا يقال الله ولكن يقال (هو).

وقد يكون هذا الضمير (هو) أصل لفظة (ياهوا أو ياهوه) التي أصبحت اسماً لله عندهم، وأصبح الآن اسماً لأحد الفرق الدينية الجديدة، التي تفرعت من المسيحية والمعروفة بشهود ياهوا (وهذا رأي شخصي قد لا يكون صحيحاً).

وهكذا تتحول التشريعات الدينية إلى الخرافة، وهذا ما يدحض رأي بعض العلماء المهتمين بدراسة الأديان، الذين يعتقدون أن فكرة الدين ولدت بشكل

بدائي، تمثّلت في تقديس الحيوانات والظواهر الطبيعية الموجودة في البيئة المحيطة بالإنسان، وتطورت حتى أصبحت ديانة توحيدية تدعو إلى عبادة إله واحد.

إذ لو كانت الخرافة سابقة للدين لتحولت الخرافة إلى دين بدل أن تتحول أسماء الرسل إلى آلهة وثنية خرافية، ولما كانت أرض مكة واليمن عند مجيء الإسلام تزخر بالآلهة، فقد كان هناك إله للخصوبة وإله للمطر وإله لكل شيء، مع أن هذه البلاد كانت مهداً لأديان سماوية متتالية عددها القرآن وذكر رسلها.

وقد ذكر الدكتور كمال سليمان الصليبي في كتابيه التوراة جاءت من جزيرة العرب وخفايا التوراة أن أسماء أنبياء الله السابقين لبني إسرائيل الذين جاء ذكرهم في كتب اليهود المقدسة تحولت إلى آلهة دينية خرافية. حيث تحول إبراهام (إبراهيم) إلى إله المطر أبي رهم، وتحول يوسف إلى الإله إساف، بل وتحول كل شخص تاريخي إلى خرافة وأسطورة وثنية.

وقبول فكرة وجود الدين أولاً هو ما يفسر وجود بعض التشابه في المعتقدات القديمة التي كانت عند الشعوب البدائية على الرغم من أنها لم تتصل ببعضها، وتشابه تلك المعتقدات مع ما جاء في القرآن الكريم والتوراة.

ويبقى الإصرار على التحول عن الدين وعدم القبول بالرجوع إلى صافي العقيدة من أهم صفات الإنسان في كل المجتمعات، حتى أطلق القرآن على هذه الصفة سنة الأولين: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (الكهف: ٥٥).

وتكون الدعوة الإصلاحية للعودة إلى جوهر الدين أصعب من الدعوة إلى دين جديد، لأن الناس يعتقدون أنهم متمسكون بالدين بأنقى صوره، وكل ما يخالف ما هم عليه خروج عن الدين يستحق من يدعو إليه العقاب.

ولذلك فلن يقتنع بعض الشيعة بأن من يسمونهم بالأئمة ليسوا بأولياء لله، لأن الله هو الولي سبحانه، ولن يقتنع البعض منهم أن النواح وإيذاء النفس في ذكرى قتل الحسين ما هو إلا بدعة خرافية، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى في الدين، ولأن دين الله لا يمثله الحسين، ولأن الحسين بشر من بين بني البشر إن أساء فلنفسه وإن أحسن فلها، وليس له تميز في ميزان الإسلام.

كما أن بعض السنة لن يقتنعوا أن تغطية المرأة لوجهها ليس من الدين، أو أن للمرأة وحدها الحق في تزويج نفسها من دون ولي.

وكلا الفريقين السني والشيعي سيواجه كل من يعارضه، بأحاديث منسوبة إلى الرسول وحجج وبراهين تؤكد صدق مواقفه، وإن لم يقتنع بها من خالفه.

ومن أمثلة تمسك الناس بالعقائد البديلة التي ترسخت في المجتمع ولو خالفت عقائدهم الأصلية، أن أهل البلاد الأصليين في أمريكا الجنوبية ومعظم سكان الفلبين اليوم يتعصبون للديانة المسيحية الدخيلة عليهم والتي فرضها عليهم الغزاة الإسبان بالقوة والبطش، ولا يرضون لها بديلاً، ولو كان البديل هو العودة إلى عقائدهم الأصلية التي كان أسلافهم يعتنقونها عندما غزاهم الإسبان، والذين مات الكثير منهم حرقاً على أيدي الغزاة في سبيل الإبقاء على معتقداتهم وعدم التحول إلى المسيحية.

ومن ذلك قصة الزعيم الهندي الأحمر الذي حكم عليه الإسبان بالموت وقبيل تنفيذ الحكم تقدم إليه قس إسباني طالباً منه أن يؤمن بيسوع لكي يدخل الجنة، فتساءل الزعيم الهندي إن كان في الجنة إسبان؟ فأجابه القس بنعم. فقال الزعيم الهندي: إذا لا أريد أن أذهب إلى جنة يدخلها الإسبان.

واليوم فإن أحفاد ذلك الزعيم متعصبون للمسيحية أكثر من الإسبان الذين أجبروهم على دخولها، ولو قام ذلك الزعيم الهندي من قبره وطلب منهم العودة إلى دينه، دين الأجداد، الذي يقول بإله واحد، لقتلوه كما قتله الإسبان.

ومثلهم الفلبينيون الذين لن يقبلوا بالرجوع إلى الإسلام الذي أرغمهم الإسبان على التحول عنه في بداية القرن السابع عشر عندما غزوا الفلبين.

ولذلك أصبحت كل المعتقدات والأديان عند تابعيها، نقل وليست عقل. لأن النقل يعني الإبقاء على آراء السابقين والموروث الديني كما هو، أما العقل فهو نقد لتلك الآراء وكشف عيوبها أو زيفها.

ويؤكد القرآن أن كل الأمم قد أرسل الله لها رسلاً، وأن كل الأمم قد تشابهت مواقفها من رسلها، على الرغم من تباعدهم في المكان والزمان: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أحاديث فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (المؤمنون: ٤٤).

والعلة وراء ذلك تعود، كما أسلفنا، إلى أن الدين يأتي به رجل واحد يحمل في دعوته ما يتعارض مع المصالح المادية والمعنوية والاتجاهات الفكرية لكافة فئات المجتمع وأجياله، فهو فرد واحد ضد الجميع، وليس جيلاً كاملاً من الناس ضد جيل آخر، مثلما يحدث مع التغيرات التي تطرأ على مجالات الحياة الأخرى. كما أن دعوة الرسل لا تشابه الانقلابات السياسية أو الاجتياحات العسكرية الأجنبية التي تسيطر على حكم البلاد وتفرض التغييرات الاجتماعية والسلوكية والعقائدية التي تريد بالقسر ودون تأخير. وحتى لو لم يقبلها الناس في حينها إلا أنهم لا يستطيعون معارضتها علناً خوفاً من البطش، فتتحول المعارضة إلى صمت، قبل أن يتبنى المجتمع شخصيته الجديدة ويتشبث بها مع توالي الأجيال. ولذا فلن يقبل الإسباني المسيحي اليوم أن يعود إلى الإسلام، دين أجداده، الذين أجبرتهم محاكم التفتيش على التحول عنه إلى المسيحية.

ودائماً لا يستجيب لدعوة الرسول سوى قلة قليلة من الناس، تكون غالبيتهم من الضعفاء والمسحوقين في المجتمع: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (الأعراف: ٧٥).

إضافة إلى قلة من الذين لديهم طموحات شخصية لم يستطيعوا تحقيقها تحت ظل الظروف المسيطرة على مجتمعهم، فيتحولون للدين الجديد أملاً في تحقيق أهدافهم تحت مظلة الوضع الاجتماعي الذي سيخلقه الدين الجديد.

أما السواد الأعظم من الناس فينظرون إلى الرسول على أنه قد بادرهم في عقر دارهم بحرب شاملة، لا هوادة فيها ولا تحفظ. فأصبح لزاماً على الأمة الدفاع عن سلطانها ونفوذها، وأموالها ومصالحها الشخصية، وطريقة حياتها ومتعها، وتراثها وعاداتها، ومعتقداتها. ومن الطبيعي أن يشترك في جيش الدفاع كل أفراد المجتمع من الحاكم وحتى أقل الناس شأناً، لأن هجوم الرسول يكون شاملاً ضد كل أحد بغض النظر عن مكانته الاجتماعية أو جنسه أو لونه، فيستبسل الجميع في الذود عن الأمة والوطن، وترخص أرواحهم في سبيل ذلك، معتبرين كل من تسوّل له نفسه التعاون مع الرسول، خائناً لأمته ويجب عليه إما أن يعود إلى رشده وإلا حكم عليه بالموت أو على الأقل الحرمان من شرف الانتماء للعشيرة أو المجتمع.

وعادة ما يبقي الناس على نظرتهم الأحادية الجانب بالنسبة إلى الرسول ودعوته، ويعتبرونها شراً لا خير فيه، ولا يسمحون لأنفسهم بالاستماع إلى وجهة نظر الرسول والنظر إلى الدعوة من تلك الزاوية، مما يعني استحالة قبولهم التعايش سلمياً مع الرسول ومن آمن معه: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ استكبرواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (الأعراف: ٨٨).

بينما يتسلح الأنبياء بالصبر ودماثة الخلق والهدوء، لأن الله قد روضهم على تفهم وجهة نظر الناس المعارضين لهم وكيف ينظرون إلى الدعوة من زاويتهم فقط. فلم تكن لغة الحرب واستخدام القوة لفرض الدين على الناس عنواناً لأي دعوة إلهية على مر العصور. بل إن غالبية الرسل الذين تحدث عنهم القرآن لم يشنوا أي حرب ضد من لم يؤمن بهم، وصبروا على كل أنواع الأذى الذي لقوه من قومهم، حتى أذن الله بهلاك معارضيهم ونجاة الرسول ومن آمن معه.

فيما اضطر رسل آخرون للدخول في حرب دفاعية ضد من لم يؤمن للإبقاء على الدعوة، ولم تكن حروباً هجومية لسحق الأعداء: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأرض وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (البقرة: ٢٤٦-٢٥١).

وفي زمن محمد خاض صلوات الله وسلامه عليه ثلاث حروب (بمعنى مواجهة حربية بين جيشين) هي: بدر وأحد وحنين.

وكانت كلها لقتال من يقف ضد قيام دولة الإسلام وليس لإجبار الناس على دخول الإسلام: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة: ١٩٠).

فكان القتال ضد من يحمل السلاح، ولا يجوز التعدي على سواهم، أو قتال من ألقى السلاح ولو لم يؤمن: فإن انتَهَوْاْ فإن اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (البقرة: ١٩٢).

لأن قتالهم كان فقط للدفاع عن الدعوة ضد من يقف في سبيل نشرها ويريد القضاء عليها، وليس لإجبار الناس على الإيمان بها: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فإن انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة: ١٩٣).

وفي العصر الحاضر على الرغم من كل ما وصل إليه الإنسان من تحضر ورقي في المفاهيم الإنسانية وحرية الفكر والرأي فلا زال متأخراً جداً في محاولة تفهم وجهة النظر الأخرى أو التعرف على الزاوية التي ينظر من خلالها من يخالفه الرأي حول موضوع معين.

نجد هذا في سلوكيات الدول والجماعات والأفراد، فالولايات المتحدة تصم آذانها عن سماع أي صوت لا يتناغم مع نوتتها الموسيقية، وتغمض عينيها عن أي نهج يختلف عن نهجها السياسي، وتعتبر أن كل ما هو أمريكي فهو مقدس وإلهي، وما سواه فهو شرير شيطاني، وتشن حروبها في طول الأرض وعرضها لمناصرة الحق الذي يراه غيرها باطلاً، وسحق الباطل الذي يراه أهله حقاً مقدساً، ولا تسمح بنظرة رمادية بين ما خلقته لها من بياض ولغيرها من سواد.

ونظرة أمريكا الأحادية هي النظرة المتبادلة نفسها بين الحكام العرب ومواطنيهم. فالحاكم ظالم لو نظر إليه من الزاوية التي ينظر بها المواطن، وعادل من الزاوية التي ينظر بها الحاكم لنفسه. والمواطن متعد وإرهابي لو نظر إليه من الزاوية التي ينظر بها الحاكم، ومظلوم مسحوق لو نظر إليه من الزاوية التي ينظر

بها المواطن إلى نفسه. وفي كلا النظرتين شيء من الحقيقة، ولكن لا يمكن رؤيتها إلا بنسبتها إلى شيء آخر، لأنها حقيقة نسبية. ويتم ذلك من خلال النظر من كلا الزاويتين في الوقت نفسه، أو من خلال نظرة محايدة، والإيمان بأنه لا وجود لحقيقة مطلقة يراها الجميع كل من زاويته على حدة.

وبما أن الرسول يتبع إرشادات إلهية ولا يتصرف من تلقاء نفسه وحسب ما تمليه عليه مشاعره، فإنه لا يجد صعوبة في التنازل والنظر من الزاوية نفسها التي ينظر بها الناس، وبالتالي تفهم موقف الناس الرافض لدعوته. أما الناس فيتصرفون حسب رغباتهم ومصالحهم الشخصية التي هي مبلغ علمهم، ولذلك فمن الصعب عليهم الارتقاء بمشاعرهم إلى مستوى يسمح لهم بالنظر من الزاوية نفسها التي ينظر بها الدين إليهم، فأعرضوا عنه ولم تجد الدعوة لديهم آذاناً صاغية.

والقرآن يصف المعارضين لدعوة الرسل بأنهم مستكبرون: وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاستكبروا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون (الأعراف: ٣٦) والاستكبار يعني الإعراض وليس التعالي، لأن الإعراض عن الدعوة يأتي من كافة فئات المجتمع حتى من المسحوقين الذين اعتادوا حياة الذل والمهانة، ولا يعرف الكِبْرُ إليهم طريقاً.

إلا أن من يقود الحملة المعادية للدعوة الدينية هم أكثر من ستتضرر مصالحه من الدين الجديد، وهؤلاء سماهم القرآن السادة والكبراء. وكلما ارتفع منصب الفرد الوظيفي ومستواه الاجتماعي كلما كان الضرر المادي الذي يلحقه من تطبيق الدين الجديد أكبر، وبالعكس. حتى نصل إلى المستويات المعدمة من المجتمع والتي تحارب الدين لكسب رضى سادتها وتبعاً لهم، وليس لأن الدين يشكل ضرراً على مصالحها لأن هذه الطبقة لا تملك من المصالح شيئاً.

الحملة المضادة للدين

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (النحل: ٢٢).

كل من يحارب دعوة الرسل سماهم القرآن بالمستكبرين، بمعنى المعرضين عن الدين، ويدخل ضمن مصطلح المستكبرين في القرآن كل الفئات الاجتماعية وبلا استثناء، مثل:

الزعماء وصناع القرار

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (يونس: ٨٣).

لأن الشرع سيطلب من الزعيم أن يتنازل عن كل سلطاته ونفوذه وسموه وعظمته وينزل ليعامل مثلما يعامل أي فرد آخر في المجتمع، بدعوى أن الناس خلقهم الله سواسيه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣).

وعليه أن يقبل بأن ميزان التفاضل بين الناس ليس الجاه والمال والسلطة والنفوذ، ولكن اتباع شرع الله.

ولن يكون هناك تعظيم للزعيم وركوع وسجود، لأن التعظيم عبادة للعظيم، ولا عظيم من البشر ولكن العظيم هو الله: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (الواقعة: ٧٤).

أما البشر فكلهم عبيد لله: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (بني إسرائيل: ١٧).

وكون الخلق عبيداً للخالق فلا يحط من قدرهم: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا (النساء: ١٧٢).

والإنسان كعبد لله لا يجوز أن يُعبد من غيره من الناس ولا يكون هو نفسه عبداً لغيره من الناس، لأن عبادة مخلوق لمخلوق مثله، وثنية من دون الله لن تحمي العبد ولا المعبود من النار يوم القيامة: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (الأعراف: ١٩٤).

القائمون على تنفيذ سياسة الزعيم تحت أي مسمى

وهؤلاء مثل:

المستشارون

قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (الأعراف: ١٠٩-١١٢).

كبار الصناع

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (غافر: ٣٦-٣٧).

الوزراء

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (يونس: ٧٩).

قادة الجيش

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا. (يونس: ٩٠).

الوجهاء والأثرياء

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ

(سبأ: ٣٤) وقوله تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (القصص: ٧٦).

رجال الدين

قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (هود: ٦٢).

ورجال الدين في أي أمة من أشد المعارضين للرسل لأنهم جاؤوا للتصحيح الديني الذي سيفقد رجال الدين مكاناتهم المقدسة، والهالة التي أحاطوا أنفسهم بها أمام الناس وأكسبتهم الجاه، وتفردهم بالتشريع، الذي أكسبهم سلطة ينقاد الناس لها وتعود عليهم بالنفع المادي والمعنوي.

وكل هؤلاء لهم مصالح شخصية ستفقد وميزات ستتأثر لو دخلوا في الدين.

وهناك مستكبرون من الطبقات الوسطى في المجتمع، مثل:

صغار التجار ورجال الأعمال

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (هود: ٨٤) لأن الدين سيفرض على الغني أن يشارك أخاه الفقير في ماله: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (البقرة: ٣) ولو أراد الفقير أن يقترض فعلى الغني أن يقرضه من دون فوائد، لأن الربا لا يقره الدين: يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: ٢٧٦).

إضافة إلى أنه على الغني أن يساهم في التكافل الاجتماعي للمجتمع المسلم للقضاء على الفقر ورفع مستوى معيشة إخوانه الفقراء دون أن يشعرهم بأن ما يعطيهم منة أو معروف منه، لأن من يفعل ذلك فكأنه لم ينفق: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (البقرة: ٢٦٤).

المفكرون

قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (هود: ٥٣).

الفلاسفة

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ (الرعد: ٥).

العقلاء وأهل الرأي

وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (الأعراف: ١٢٧).

الحكماء وأهل البصيرة

فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (هود: ٢٧).

الفئات الأخرى في المجتمع

إذ يعادي الدين كل من يقتات من فتات موائد الكبراء ومن سيفقد سلطة أو ميزة أو منفعة نتيجةً لفقدان الكبراء لمناصبهم: وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ استكبرواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (إبراهيم: ٢١).

وكل من يتمسك بالموروث من الناس العاديين الذين لا يحبون التجديد أو تغيير طريقة حياتهم: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠).

ثم هناك الطبقات السفلى من أصحاب الملكات الخاصة الذين يعتاشون من

الكبراء بواسطتها مثل الشعر أو الشعوذة والسحر أو أي مهنة مشابهة: فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (الشعراء: ٤١-٤٢).

وكل من يعمل لخدمة الكبراء بأعمال وأفعال يحرمها الدين الجديد: وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (الأحزاب: ٦٧).

أو أناس يمارسون أعمالاً غير شرعية يوفر لها الوضع القائم الغطاء اللازم لبقائها بينما لن يقرها الدين الجديد: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فإن اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (فاطر: ٨).

وهناك الطبقة الأسفل في المجتمع من الضعفاء والمسحوقين والمسخرين للخدمة والأعمال الوضيعة وغير الشريفة الذين استمرأوا العيش الذليل لخدمة ساداتهم وكبرائهم، وتبعوهم في المعتقد: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ استكبروا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (سبأ: ٣١-٣٣).

ولذلك جرت العادة أن لا يؤمن بأي دعوة دينية جديدة أو تصحيحية إلا قلة من الناس: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (يوسف: ١٠٣) حتى أصبحت طريقة متبعة ومعروفة سلفاً: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (الكهف: ٥٥).

الأسباب التي تمنع الناس من قبول الدين

فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (هود: ٢٧).

من التبريرات التي يتحجج بها الناس عن قبول الدعوة كما ذكرها القرآن، ما يلي:

اختيار الرسول من عامة الناس

فالكبراء يحتجون على بعث رجل عادي لا يتمتع بمواصفات التميز التي وضعوها لتقييم البشر، مثل المال والجاه والسلطة وغيرها: وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (الفرقان: ٢٠).

فمن يكون هذا الرسول وماهي الصفات الخاصة التي يمتلكها والتي مكنته من مخاطبة السماء، ولماذا تم اختياره من بين كل الناس: وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ (الأنعام: ١٢٤).

وإن كان يستطيع مخاطبة السماء كما يدعي، فلماذا لا تخاطب السماء وجهاء المجتمع: وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ. (البقرة:١١٨) أو على الأقل لماذا لا تأتيهم الملائكة: لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر: ٧).

وإذا كان صادقاً في إدعائه بأنه يخاطب السماء فلماذا لا يقوم بعمل بعض المعجزات، لأن من لديه القدرة على الاتصال بالله فمن السهل عليه أن يصنع

المعجزات: وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (الأنعام: ٣٧).

والناس ليسوا جادين في قولهم بأنهم سيؤمنون لو أنزلت عليهم المعجزات: وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (الأعراف: ١٣٢).

ولكنهم لا يعرفون الحق إلا بالرجال، ولذلك كان أول ما يواجهون به الرسول هو: من أنت لتغير ديانتنا، وعاداتنا وثقافة مجتمعنا؟ ولم يدر بخلدهم أن الحق ليس له رجال. كما أنهم لم يتمكنوا من تصور المعايير الإلهية التي بموجبها يختار الله من يشاء لحمل الرسالة، والتي تختلف عن معايير البشر: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (إبراهيم: ١١).

ولم يستطع الناس أيضاً تصور أن الرسول ليس لديه قدرات فوق بشرية يستطيع من خلالها الاتصال بالله، وأنه يتلقى الوحي بطريقة هو لا يستطيع شرحها، وتنسخ الآيات في ذاكرته دون أن يكون له الخيار بحفظها أو مسحها ولا يعرف كيف يحدث له ذلك، وأن دور الرسول لا يزيد عن التبليغ: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (الأنعام: ٤٨).

وموقف الناس هذا من الرسل مماثل لموقفهم من أي مصلح أو مناد بالتصحيح، والذي عادة ما يواجه بأنه نكرة، أو أنه لا يمكن أن يغير العالم. أو أن ما يدعون إليه باطل لأن كل مفكري وعلماء البلد لم يفطنوا له ولم ينادوا به.

صعوبة تصديق الإنسان بالغيب

الغيب والحياة بعد الموت، يصعب على الناس التصديق بهما، لأنهم يعتقدون أن أجسادهم ستنشأ على هيئتها الدنيوية الحالية ولم يجل بأذهانهم أن هذا الجسد وعاء بمواصفات دنيوية للبقاء واستمرار الجنس، وأن وعاء الآخرة سيتناسب مع متطلباتها الأبدية التي تختلف عن متطلبات الدنيا القابلة للزوال. كما فاتهم أن الله الذي خلق هذه الأجساد في البداية قادر على أن يعيد خلقها مرة أخرى ومرات، لو كان الناس سيبعثون يوم القيامة على هيئاتهم الحالية.

ولذلك جاء امتناع الناس سواءً كانوا حكاماً أو فئات مختلفة من الناس منتفعة

من الوضع الاجتماعي والسياسي القائم، عن الإصلاحات الدينية، ليس لأنهم ولدوا وقد كتب عليهم الضلال، أو أنهم خلقوا بميول إجرامية وتسلط، أو أنهم مختلفون عن غيرهم من البشر، ولكن لأن الظروف التي هيأت لهم الحصول على ميزات وأموال ومصالح لا تتوفر لغيرهم من الناس، مطلوب منهم تغييرها. وهو ما يعني التخلي عن الجاه والشهرة والسلطة والشرف الاجتماعي والمال وكل المواصفات السامية التي تحدد قيمة الإنسان حسب العرف البشري، إضافة إلى المتع، مقابل وعود غيبية لا يمكن التأكد حسياً من صدقها: وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. (الرعد: ٥).

ولهذا فالإيمان بالدعوات الدينية يقبل عليه المستضعفون لأنهم لا يملكون أي شيء مادي ولا معنوي يمكن أن يخسروه، فيكون الدخول في الدين بالنسبة إليهم مكسباً لا مجال فيه للخسارة. لأن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ستصير أفضل مما كانت عليه قبل الإيمان، إضافة إلى أنهم سيعيشون في راحة نفسية تامة ولن تقلقهم المصائب أو الأمراض أو الموت لأن الدنيا مجرد طريق إلى النعيم الأبدي في الآخرة.

وإذا آمن الكبراء فسيحدث لهم عكس ما حصل للمستضعفين. فأوضاعهم المادية والاجتماعية ستتراجع، إذ عليهم إشراك المستضعفين في كل الميزات المادية والمعنوية التي كانوا يتفردون بها، من دون أن يحصلوا على أي ميزة أو تقدير محسوس مقابل تضحياتهم.

فحالهم كحال إنسان تقدر مكاسبه المالية السنوية بالملايين من استثماراته الناجحة، قرر فجأة أن يستثمر كل ما يملك في مشروع جديد سمع بأنه يَعِدُ من يساهم فيه بأرباح لا يمكن تحقيقها على أرض الواقع، شريطة أن يتنازل المستثمر عن الممتلكات بموجب عقد شفهي من ممثل المشروع الجديد الذي ظهر فجأة على الساحة من دون أن يقدم ضمانات مادية أو مكتوبة سوى تأكيده الشخصي على صحة ما يقول. وكما يحدث في حياتنا اليومية، فسيسارع عدد من الناس بالمجازفة، ولكن أغلب الناس لن يقدموا على مخاطرة من هذا النوع قد تكلفهم كل ما يملكون.

ولذلك فالإيمان بالآخرة والبعث من أهم العقبات التي وقفت دون إيمان الكثير

من الناس، لأن الغيب من الأمور التي لا يمكن الاستدلال عليها بدليل محسوس: قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (هود: ٥٣).

وبحكم عدم وجود طريقة محسوسة يتأكد بموجبها الإنسان من البعث فهو لن يغامر بخسارته لما يملك من معنويات وماديات بمجرد أن رجلاً عادياً لا ينتمي لأي طبقة مميزة في المجتمع طلب منه ذلك: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (الجاثية: ٣٢).

ويكون ما يقوله الرسول حول وعود الآخرة والبعث بعد الموت كلام من يصدقه فكأنما غم على عقله: وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (الزخرف: ٣٠).

الملذات والمتع

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (آل عمران: ١٤).

وهي ملذات يقضي معظم الناس حياته حالماً بالحصول على بعضها، ولذلك يصعب على الإنسان الذي استطاع الحصول عليها أن يتخلى عنها مقابل وعود الآخرة الغيبية التي لا يمكن إيجاد دليل مادي على صحتها: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران: ١٥).

وكأن وعود الرسول لا تعدو عن مقايضة ما يتمتع به الناس من مال وجنس وقصور ولهو حقيقي ومحسوس بمال وجنس وقصور ولهو بعد الموت. هكذا يرى الناس الدعوة، ولهذا لا يلبون نداءها.

الطبقية والامتيازات الاجتماعية

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (الأحقاف: ١١).

والنظرة الطبقية الاجتماعية التي يؤمن بها الكبراء يصورها المثل العامي الذي يقول: إذا كنت أميراً وأنا أمير فمن يسوق الحمير. بمعنى أنه لا بد أن يكون هناك خادم ومخدوم وإلا لفسدت الأرض ولما صلح حال الناس.

ولكن الدين له وجهة نظر مخالفة، تتمثل في أن التأفف عن القيام بأي عمل من الأعمال الخدمية الضرورية لاستمرار الحياة اليومية، هو تكبر وغطرسة تقسم الناس إلى براهما وعمال ومنبوذين. ويجب أن يحل محلها ثقافة تقول بأن الإنسان السوي مساو لكل الناس الأسوياء، وأن الأعمال يجب أن يقوم بها الناس بناءً على تقسيم حرفي وليس تقسيم طبقي، وأن أي عمل شرف لصاحبه مادام يساهم في دفع عجلة الحياة الكريمة بغض النظر عن ماهيته. ولذلك فأي شخص يجب أن يسوق الحمير بنفسه أحياناً إذا تطلب منه الأمر ذلك ولا ينتظر غيره ليسوقها بالنيابة عنه، كما أن الشخص نفسه مؤهل لأن يمارس دور الأمير إذا اقتضت الظروف منه ذلك. وليس في الثقافة الإسلامية دور محدد طوال العمر لكل شخص لا يتعداه لغيره، بل يجب أن يتداول المسلمون الأدوار حسب الحاجة أثناء مراحل الحياة المختلفة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير (الحجرات: ١٣).

العبرة

الإنسان نادراً ما يأخذ العبرة من التاريخ وإلا لو استخدم المستكبرون عقولهم فيما حدث للأمم السابقة لآمنوا: أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (الأنعام: ٦).

وكبراء أي أمة مثلهم مثل غيرهم من الأمم لم يعتبروا بما حدث لمن سبقهم وأصروا على مواقفهم مهما اتضح خطأها: أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبراهيم وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ (التوبة: ٧٠).

الدين كلٌ لا يتجزأ

يتضح مما سبق أنه عندما يظهر رسول من رسل الله في مجتمع ما فإن كبراء

ذلك المجتمع لا يسارعون إلى محاربة ذلك الدين والوقوف ضد نشر الرسول لرسالته بين الناس، لأنهم أشرار جبلوا على الكفر بالله وحب الجريمة، ولكنهم يدافعون عن موروث اعتادوه وينظرون إليه على أنه حق، ضد ما يظهر لهم أنه باطل وخطر قادم سيقلب الموازين وسيغير الأوضاع ولن يقبل بالتعايش مع التقاليد والسلوكيات والشخصية الاجتماعية بسلام.

ولو كان هناك حد أدنى من التشريعات الدينية يلزم على جميع الناس أن يتمسكوا بها، وليس عليهم بعد ذلك من حرج بممارسة ما يتواءم مع مصالحهم الشخصية، لكان بإمكان الكثير من الكبراء أن يبقوا على موروثاتهم وميزاتهم الاجتماعية وأن يؤمنوا بدين سيضمن لهم ميزات أغلى وأعلى في الآخرة، إن هم آمنوا بوجود آخرة فعلاً.

فمجتمع مثل مجتمع قوم لوط الذي اعتاد أفراده الشذوذ الجنسي واعتبروه ممارسات شخصية لا تخل بشرف ولا كرامة ولا تنقص من شهامة، لم يكن كثير منهم ليقف ضد دعوة لوط لو أن الدين سمح لهم بالإبقاء على تلك الممارسات، ولكن الرسول لا يستطيع تجزئة الدين الذي نزل عليه من الله كوحدة لا تتجزأ: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (النحل: ٥٤-٥٨).

وقد لا يكون لدى البعض من قوم شعيب مانع من الإيمان بالله وتأدية العبادات لو سمح الدين لهم بالإبقاء على ما اعتادوه من تعاملات تجارية اعتبروها نجاحاً في مجال إدارة الأعمال: وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ.

ولكن الدين يمنع الغش التجاري في المنتج وفي التعامل وفي كل المجالات التجارية، ولا يبيح سوى الربح المعقول مع ضمان جودة المنتج: بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (هود: ٨٦).

وهذا مرفوض لأنه سيلغي تميز قوم شعيب التجاري: قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ

تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أو أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (هود: ٨٧).

وبما أن أوامر الدين ونواهيه ليس بينها هام ومهم وأهم ولا كبير وصغير وأصغر، فإن الدين إما أن يؤخذ كله ولو تعارض مع المصالح، أو يترك كله. ولذلك لم يكن من الممكن على كبراء الأمم أن يقبلوا الانضواء تحت مظلة الدين وخسارة امتيازاتهم وميزاتهم الاجتماعية مقابل وعود غيبية لحياة لا يمكن لهم التأكد من أنها ستحدث فعلاً، على الرغم من أنهم أناس لا ينقصهم الذكاء والتفكير السليم والعقلية المبدعة: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَاد (الفجر: ٦-١٠).

ومع ذلك لم تؤمن تلك الأقوام لأن التصديق بالدين عبارة عن دخول في مضاربة، مثلها مثل أي مضاربة مالية، تزداد نسبة الأرباح بازدياد نسبة المخاطرة. فقد يحصل الإنسان على أرباح تتجاوز رأس المال في مدة قصيرة، إذا أسهم في مجال نسبة ضياع كل المال المساهم به عالية. ولكن لن يحصل الإنسان إلا على أرباح متدنية، ولكنها مضمونة، إذا ضارب في مشروع نسبة بقائه حتى نهاية العام شبه مؤكدة، كأسهم البنوك الكبرى مثلاً.

وهذا ينطبق على الاعتقاد، فالإنسان كلما ارتفعت قناعاته بالآخرة لأي سبب أو أسباب كانت، انقاد للإيمان بسهولة، لأنه يكون مستعداً لأن يخسر الجاه أو المال أو النفوذ أو المتع التي كان يتمتع بها مقابل وعود الآخرة الغيبية، التي إذا حدثت فستكون أرباحه هائلة بشكل لا يمكن مقارنتها بأي أرباح دنيوية. وكلما تناقص يقين المرء بالآخرة كلما كان لدى الإنسان تحفظ حول الدخول في المضاربة الدينية.

ونتيجة لذلك، فمعظم الناس لن يقبلوا على الدين لأنهم يملكون من المتاع والمتع الدنيوية ما قد يخسرونها من دون مقابل لو كانت الدعوة الدينية غير صحيحة، وبالتالي يكونون قد ضاربوا بكل ما يملكون من ممتلكات ذات قيمة مادية ومعنوية محسوسة مقابل وعود خيالية. وهي وعود لا يمكن تحقيقها في هذه الحياة، ولا يمكن التأكد من أن هناك حياة أخرى بعد الممات، وإذا كان هناك

حياة فليس هناك طريقة للتأكد من أن وعود الرسول ستتحقق لهم، لأن الرسول نفسه لا يستطيع تقديم دليل واحد محسوس على ذلك.

لهذا فكل الدعوات العقائدية تبدأ بالانتشار بين الفقراء والمساكين والمغلوبين على أمرهم والمسحوقين في المجتمع: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (هود: ٢٢-٢٨).

لأن هؤلاء الناس مكاسبهم من الدخول في الدين مضمونة. وأقل ما سيحصلون عليه سيتمثل في الخلاص من الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها في الدنيا. ولن يعاملوا كعبيد ومسخرين للآخرين، بل سيصبح الجميع عباداً لله إخوانا. وسيقاسمهم الغير لقمة العيش والتي ستزيد عما كانوا يحصلون عليه من طعام مقابل سخرتهم في السابق. وإن كان هناك حياة آخرة وحصلوا على نعيمها فهو مكسب إضافي، وتكون مضاربتهم ناجحة بكل المقاييس، لأنهم لم يخسروا أي شيء ذي قيمة مقابل دخولهم في الدين.

فيما ستكون المضاربة لبقية أفراد المجتمع باهظة التكاليف، ولذلك يبقى الناس على عداوتهم لصوت الحق، ويقنعون أنفسهم بأن ما أبقوا عليه هو الحق: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فإن اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (فاطر: ٨).

فهم يبقون على الضلال ليس لأنهم يعلمون أنهم على ضلال ولكن لأنهم يعيشون داخل الضلال فيظنون أن ما يحيط بهم هو الحق لأنهم لا يستطيعون رؤية غيره: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام: ١٢٢).

وبطبيعة الحال يبقى باب الحق مشرعاً على الدوام لكل من يريد أن يراجع نفسه وأن يحكم عقله في معتقده وطريقة حياته من أي طبقة من طبقات المجتمع: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة: ٢٦٩).

وهذا خيار متاح للشخص نفسه: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (الإنسان: ٣).

ويستطيعه كل من يحاول أن يسمح لعقله بالتفكير الحر، وأن يتقبل الرأي الآخر والنقد من الذات ومن الآخرين مع عدم ممانعة للتغيير إن كان للأفضل: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (الرعد: ١٩).

وليس أدل على ذلك من أن القرآن يخبرنا بأن قوم يونس الذين كانت أعدادهم تزيد عن مائة ألف نسمة قد آمنوا جميعاً: وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ (الصافات: ١٤٧-١٤٨).

التمسك بالموروث

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (الزخرف: ٢٣).

وأولئك لن يسمحوا بنقد الموروث أو بيان خطئه: قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (الزخرف: ٢٤).

والملاحظ أن الموروث يتغير باستمرار، سواءً كان عادات وتقاليد اجتماعية أو عقائد وعبادات، ولكن التغير يتم تدريجياً وعبر السنين وليس فجأة، ولذلك يقبله المجتمع ويتبناه على حساب ما كان موجوداً في السابق. وهذا ما يحدث للتشريعات الدينية، التي تبدأ تتغير بمرور الزمن. فتحل تشريعات وعقائد جديدة محل العقائد والتشريعات الأصلية، وتظهر الفرق والمذاهب التي يتمسك الناس بها على أنها جوهر الدين، وبعد فترة يكون الناس قد استبدلوا الدين بدين من عند أنفسهم. ولذلك تكرر إرسال الرسل لإعادة الناس إلى الدين الصحيح، وإلا لو كان الناس لا يحدثون في الدين لبقوا على دين آدم ولما احتاجوا إلى رسالات لاحقة.

فعبادة الأصنام، مثلاً، تحول إليها الناس كبديل لدين الله عبر أجيال متتابعة وليس في يوم وليلة. بدأت بالقول بأن الإنسان بطبعه خطَّاء ويقع في المعاصي والأنجاس، فيلزم عليه عند مناجاته لربه أو الحديث عنه أن لا يذكر اسم الجلالة

مجرداً تنزيهاً له سبحانه، ثم تطورت الفكرة مع الزمن إلى اعتبار أن الإنسان النجس يجب ألا يتصل بالله سبحانه مباشرة بل يجب أن يمر ذلك عبر وسيط، وأصبحت الأصنام هي ذلك الوسيط، وبقيت كذلك عند بعض الأمم، بينما تحولت مع الأيام لآلهة تعبد لذاتها من دون الله، عند أمم أخرى.

وهناك سبب آخر يعتبر من أهم الأسباب التي تمنع الناس من قبول التصحيح والرجوع إلى الدين، والمتمثل في دور رجال الدين. ولذا فضلنا أن نتحدث عنه بتوسع أكثر في الأسطر المقبلة.

رجال الدين

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارا. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً. مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً (نوح: ٢١- ٢٥).

الظاهر من الآيات السابقة، وبعيداً عن كلام المفسرين، أنها تتحدث عن أن قوم نوح لم يطيعوه، واتبعوا ما يشرعه لهم رجال دينهم الذين عاصروا نوحاً أو بقيت تشريعاتهم حية في عصر نوح، وهم (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) والذين أدت تشريعاتهم إلى تضليل الناس وضلالهم «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً». ومما يؤكد أنهم رجال دين وأن الناس أطاعوهم، قوله «وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارا». فقد كانوا بشراً يملكون المال والولد وليسوا أصناماً كما يقول المفسرون.

وتشريعات رجال الدين في كل عصر تضل الناس عن الحق كما فعلت بقوم نوح، ولا تسمح لهم بأن يتبينوا أن الله سبحانه أمرهم أن يبنوا تشريعاتهم الدينية على نصوص إلهية يقينية فقط، وحذرهم من أن يبنوها إلى أي نصوص أخرى يقول بها رجال الدين، يقول تعالى: اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (الأعراف: ٣).

لأن أي كلام غير كلام الله لا يبنى عليه تشريع ديني، حتى ولو ثبت أن من قاله هم الملائكة أو الرسل: وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (آل عمران: ٨٠).

فالنبي عبد من عبيدالله مثله مثل غيره من الناس لا تعتبر ألفاظه تشريعاً، ولو جاءت على شكل مواعظ، أما الناس العاديون فليس لهم حق إصدار وجهات النظر في أي أمر قد يفهم منه أنه تشريع، وأكثر ما يمكنهم فعله في هذا المجال هو تعلم كتاب الله وتدريسه لمن لا يعلمه، فقط: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (آل عمران: ٧٩).

ومع ذلك فقد وصل الأمر ببعض رجال الدين في كل مجتمع وعقيدة إلى انغماس تام في تقمص دور المشرع الذي اخترعوه لأنفسهم تحت مسميات مختلفة، مثل البابا والراهب والكاهن والحبر والحاخام والفقيه والإمام وآية الله والملا والمفتي والمرجع الديني والرباني وغيرها. وصدّق رجل الدين نفسه أنه أصبح ينوب عن الله في أرضه، وأن له من القدسية ما يحوّل آراءه الشخصية إلى تشريعات دينية، لها نفس قدسية التشريع الإلهي: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (الجاثية: ٢٣).

وقد شجعهم على ذلك الناس العاديون الذين صدقوا أن دين الله يحتاج إلى ملكات خاصة لفهمه لا تتوفر إلا عند رجال الدين، فتحول رجال الدين إلى أرباب من دون الله بقصد أو من دون قصد: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فإن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤)

ولأن أسهل طريق لانقياد الناس هو الدين، فإن رجال الدين يكتسبون دوراً قيادياً يخضع له أفراد المجتمع، وحتى السلطان لا يستطيع إلا أن يمالئه ويجامله. وعادة ما يعقد الحاكم ورجل الدين حلفاً للسيطرة على الناس، بحيث يستفيد الحكام من فتاوى وتشريعات رجل الدين لتثبيت حكمه والقضاء على معارضيه باسم الدين، ويستفيد رجل الدين من الهبات والعطايا والحماية الملكية.

ويصور هذا المنطق أحد رواد أدب المرايا والوصايا[1] وهو عبد الرحمن بن

(١) ازدهر في العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي، ما يعرف بأدب المرايا=

نصر بن عبدالله الشيزري في كتابه النهج المسبوك في سياسة الملوك[1] بقوله: وحكي أن أزدشير قال لولده: يابني إن الملك والدين صنوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ولا قوام له إلا به. الدين أس والملك حارس، فما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع (ص٩٣).

وقال في الصفحة (٩٨) على لسان كسرى أنوشروان: الدولة ولاية تحرسها الشريعة، والشريعة سنة يستنها الملك. انتهى.

ولرجل الدين سلطة مطلقة يُسيّر بها الناس بطريقة سحرية تختلف عن تسيير السلطان لهم. لأن الناس تظهر الطاعة للسلطان خوفاً من البطش وأملاً بالعطايا، أما رجل الدين فإن الناس ينقادون له ويبيحون له أملاكهم ورقابهم طواعية، ويتفانون بالذود عنه، لا خوفاً منه ولا أملاً بعطاياه، ولكن اعتقاداً منهم أنهم سيحظون برضى الله والدار الآخرة: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (البقرة: ١٦٥).

فيحصل رجل الدين على كل ما يمكن أن يكون في الدنيا من متع ومال وجاه ونفوذ، مقابل بضع كلمات قدسية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اختلفواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (البقرة: ١٧٤-١٧٦).

والمتاجرة بالدين هي أكثر حرفة تدر الأرباح الدنيوية على صاحبها دون أن يكون هناك رأسمال مستثمر، ودون أن يكون هناك أي مخاطرة على الإطلاق، ودون أن يكون هناك خوف من الخسارة: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

=والوصايا الذي يحدد آداب وعادات الحكم والبروتوكولات الملكية، وعلاقة الحكام بالمحكومين، والتي فاقت كل وصايا ميكافيلي الذي جاء بعد ذلك بثلاثة قرون والذي يبدو أنه استقى وصاياه للملوك من أدب المرايا والوصايا للمسلمين.

(١) دراسة وتحقيق د. محمد أحمد دمج، وتوزيع مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع ـ بيروت.

وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٧-٧٨).

ويكون من الطبيعي أن يأتي رجال الدين على رأس قائمة المعارضين لدعوة الرسل أو للدعوات التصحيحية للعودة إلى جوهر الدين وصافي العقيدة، ويمكن بسهولة معرفة الدوافع التي صمت آذانهم عن سماع الحق وأعينهم عن رؤيته، لأنهم لو سمعوا الحق ورأوه على حقيقته فسيخسرون كل الميزات التي حصلوا عليها.

وقد نجحوا في إيهام الناس بأن هناك نصوصاً دينية إلهية يمكن الاستدلال بها على أن لهم قدسية ومكانة دينية خاصة، بعدما قاموا بتأويل معاني تلك النصوص، لتبدو وكأنها تتحدث عنهم أو عما يشرعون. مع أن رجل الدين المتبوع وتابعه من الناس لن يغني أحدهم عن الآخر يوم القيامة، وسيلقون جميعاً في النار: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أعمالهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقرة: ١٦٦-١٦٧).

وسنكتفي بإيراد ثلاثة أمثلة فقط على تأويل بعض معاني الآيات القرآنية التي قام بها رجال الدين المنتسبين إلى الإسلام، من بين أمثلة لا حصر لها يتداولها الناس ويعملون بموجبها.

المثال الأول

تجمع التفاسير الشيعية على القول بإمامة علي بن أبي طالب وخلافته نصاً ووصاية من النبي (ص) والاعتقاد أن الإمامة من بعده في ولديه الحسن والحسين والتسعة من أولاد الحسين، وأن هذه الميزة الدينية ورثها رجال الدين الشيعة. ومن الآيات التي يستدلون بها على ذلك الآية (٢٣) من سورة الشورى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى). ويقولون بأن معنى المودة في القربى يعني مودة أقرباء الرسول وهم علي بن أبي طالب وفاطمة زوجته بنت الرسول وابناهما الحسن والحسين[1]. ومن ذرية الحسين جاء التسعة الأئمة الباقين ليكملوا اثني عشر إماماً

(١) انظر على سبيل المثال التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري/ الطبعة الأولى ـ ص٧٤٦ مجلد ١ ـ=

يؤمن الشيعة أن الإيمان بهم وبعصمتهم وأنهم ورثة الشرع من الرسول، جزء هام من الدين لا يتم إلا به. ويكون الأئمة الاثنا عشر من قربى الرسول الذين نصت عليهم الآية السابقة. ورجال الدين الشيعة يؤمنون إيماناً راسخاً بهذه العقيدة، ويرجون بها وجه الله، ولا يمكنهم أن يروا ما يراه شخص آخر، لا يؤمن بنفس عقيدتهم، ما تضمنه استشهادهم من مغالطات جانبت الصواب وقولت الرسول والقرآن ما لم يقولا. ولا يمكن لرجال الشيعة أن يسلموا بأن الشيعة كفرقة وعقيدة لم تكن موجودة زمن رسول الله، وأن الله جل وعلى لم ينظر إلى علي بن أبي طالب بأكثر من كونه بشر عادي ليس له من القدسية شيء، ولم يكلف الله أحداً من البشر في عصر الرسول بمعاونته بحمل الرسالة.

والآية ٢٣ من سورة الشورى جاءت ضمن آيات السورة كلها، التي تخاطب قريش، أي عندما كان الرسول في مكة وكان علي بن أبي طالب طفلاً لم يطرق سن البلوغ بعد، ولم يكن يعرف في تلك اللحظة أنه سيلحق بالمدينة بعد مدة، وبعد ذلك بسنوات سيتزوج بفاطمة بنت رسول الله، وسيكون عديلاً لعثمان بن عفان الذي تزوج ببنتين من بنات الرسول وليست واحده، هما أم كلثوم ورقية التي ولدت لعثمان ولد اسمه عبدالله، ولهما عديل ثالث هو أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس الذي تزوج من زينب بنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه وممن أنجبت له بنت اسمها أمامة.

ولم يكن يعلم ذلك الغلام (علي) عندما نزلت الآية في سورة الشورى أنه سيولد له أولاد وسيسمي أحدهم الحسن والآخر الحسين. وأن الحسين في خلافة عمر بن الخطاب سيتسرى بإحدى السبايا القادمات إلى المدينة من فتوح فارس، وأن تلك السبي ستكون ابنة ليزدجرد أحد زعماء الفرس[1]، وأنها ستنجب له ولده

=الناشر: مؤسسة الإمام المهدي، قم، إيران ١٤٠٩. والتبيان في تفسير القرآن/ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي. ص٥٨٠٨ مجلد ١٠- تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي. الناشر/ مكتب الإعلام الإسلامي، قم، إيران ١٤٠٩. والميزان في تفسير القرآن/ سيد محمد حسين الطباطبائي - ص٨٧٦٤ مجلد ٢٠ - الطبعة الثالثة. دار الكتب الإسلامية - طهران، إيران.

(١) ذكر ابن سعد في ترجمته لعلي بن الحسين في الطبقات الكبرى، ما نصه: وأمه أم ولد اسمها غزالة، خلف عليها بعد حسين زييد مولى الحسين بن علي فولدت له عبدالله بن زييد فهو أخو علي بن حسين لأمه. ويقول سيد أمير علي في مختصر تاريخ العرب ص٩٣ أنها كانت بنت يزدجرد آخر الملوك الساسانيين.

زين العابدين الذي سيعتبره الشيعة بعد فترة من موت الحسين إمامهم الرابع. وأن ابن زين العابدين محمد الباقر سيعتبر الإمام الخامس، وأن ذريتهم ستتخذ أئمة للشيعة في القرن الثالث الهجري وما بعده.

هذا فيما يخص علي بن أبي طالب.

وفيما يخص الرسول، فيمكن أن نتساءل قائلين: كيف تنزل الآية في مكة لتنص على أن أقرباءك يا محمد ليسوا زوجتك خديجة وبناتك اللاتي يعشن معك الآن ومن هو حي من أبنائك، ولكن عليك الانتظار بضع سنين حتى تهاجر ومن ثم يتزوج علي بن أبي طالب، ويولد له أولاد. عندها فقط يكون لك يا محمد قربى هم: علي بن أبي طالب، دون بقية أبناء أعمامك مثل عبدالله بن عباس وعكرمة بن أبي جهل، وزوجته ابنتك فاطمة دون بقية بناتك الأخريات زينب ورقية وأم كلثوم، وابناهما الحسن والحسين دون بقية إخوانهم، زين العابدين وعمر وغيرهم من أبناء علي الأربعة عشر.

أما بقية نسائك وأهل بيتك يا محمد، فليسوا أقرباء لك ولو أنك عشت بينهم طوال عمرك، وإنما أقرباؤك هم علي بن أبي طالب وآل بيته الذين لن تتمتع بالعيش في بيت واحد أبداً، ولكن ستعيش بقربهم فترة لا تزيد عن ثلاث سنوات، لأن الحسين لم يولد إلا قبل وفاة الرسول بثلاث سنوات.

ويكون الرسول قد عاش طوال عمره بين زوجاته وبناته وأولاده وهم ليسوا له بقربى، بينما عاش آخر ثلاث سنوات من عمره وله قربى ولكن لم يعش معهم يوماً واحداً في بيت واحد.

ترى هل في ذلك حكمة؟ وما هي تلك الحكمة يا ترى؟

والآية المذكورة نزلت في مكة، كما أسلفنا، أي أنها نزلت لمخاطبة قريش، فلماذا يخاطبهم الله بنبوءة ستحدث لعلي بن أبي طالب بعد أن يكون معظم كبراء قريش الذين خاطبتهم الآية قد قتلوا في حروب ضد المسلمين أو ماتوا قبل أن يتزوج علي بفاطمة ولن يروا تحقق أول خطوات النبوءة. ثم ما الذي تستفيده الدعوة لدين الله من إبلاغ قريش بمثل هذه النبوءات، وكيف يمكن أن تقنعهم بدخول الإسلام؟

وما يغني عن كل افتراضاتنا السابقة هو أن معنى الآية من دون التأويل الذي

ذهب إليه رجال الدين الشيعة، واضح للعيان. حيث يقول تعالى: ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ.

فالمخاطب بهذه الآية والآيات التي قبلها والآيات التي بعدها هم قريش، والله يقول لمحمد أبلغ قريش بأنني عندما أدعوكم لدين الله لا أريد منكم أجراً دنيوياً مقابل ذلك، ولكني أفعل ذلك مودة مني للقرابة التي تربطني بكم، فأنتم عشيرتي الأقربين كما وصفكم الله في آيات أخرى من سورة الشعراء التي تشبه سورة الشورى في أنها نزلت كاملة لمخاطبة قريش: فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ. وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الشعراء: ٢١٣-٢١٥).

وتكون الآية ٢٣ من سورة الشورى لا تعني أقرباء الرسول ومن سيكون منهم عائلته ومن لن يكون، ولو كان معنى الآية كذلك فستعني أن الرسول قد طلب مقابل دعوته أجراً معنوياً، يتمثل في المودة بعلي بن أبي طالب وبعض أفراد أسرته، مع أن الرسول لا يجوز له أن يستفيد من دعوته أي أجر، مادياً كان أو معنوياً، مثله مثل أي رسول: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. وهذه الآية تكررت على لسان خمسة من رسل الله في سورة الشعراء وحدها في الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ للتدليل على أن كل الرسل لا يجوز لهم أن يستغلوا الدعوة لأي منفعة مادية أو معنوية.

والرسول محمد قد تلقى تحذيراً من الله بعدم التفكير باستغلال الجهاد لكسب غنائم لنفسه: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (آل عمران: ١٦١).

فما بالك باستغلال الدعوة لمكاسبه الخاصة، ولذلك تكرر نفي الله عن رسوله محمد أن يكون يفعل ذلك أو يفكر به: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ. وقد تكررت الآية نفسها مرتين في القرآن وكلها تتحدث عن الرسول محمد، الأولى في سورة الطور المكية وقد جاءت ضمن آيات تناقش رفض قريش لدعوة محمد: أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ. أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ.

أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ. أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُون. أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (الطور: ٣٧-٤٣).

وتكررت الآية نفسها مرة أخرى في سورة القلم المكية ضمن آيات تناقش أيضاً رفض قريش لدعوة محمد: فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ. أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (القلم: ٤٤-٤٧).

ولكن رجال الدين الشيعة الذين يؤمنون بهذا التأويل يهدفون إلى أن يكتسب الأئمة القدسية، ومن ثم يستفيدون هم منها كونهم ورثة علم أولئك الأئمة الذين انقطع نسلهم.

المثال الثاني

مصطلح «أولي الأمر» ورد مرتين فقط في القرآن، وكلاهما في سورة النساء. وقد تأول معناه كل من الشيعة والسنة، فبعض رجال الدين من الشيعة يقولون إن المقصود بأولي الأمر هم الأئمة الاثنا عشر، بينما يقول بعض رجال الدين لدى السنة إن المقصود بها الحكام، وبعضهم يقول بأن المقصود هم رجال الدين.

ولو تدبرنا الآيتين اللتين ورد فيهما اصطلاح أولي الأمر لأمكن ملاحظة الآتي:

إن الآية ٨٣ من سورة النساء موجهة للصحابة في شؤون قتالية والإعداد لحرب وشيكة الوقوع ضد قريش حدثت في عصرهم: وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (النساء: ٨٣) ويكون معنى أولي الأمر أصحاب التخصص والخبرة الذين يستطيعون الإدلاء بالآراء والخطط المناسبة لما يجب أن يفعله المسلمون ضد أعدائهم.

وموضوع قتال الكفار بدأ منذ الآية ٧١ وحتى الآية ٨٥ بصفة متواصلة، ثم ينقطع مؤقتاً ليتواصل في آيات لاحقه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَو انفِرُواْ جَمِيعًا. وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فإِن أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا. فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ

الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا. وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا. الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا. أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَو أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً. أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا. مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا. مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً. أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيرًا. وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً. فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً. مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (النساء: ٧١-٨٥).

ومعنى أولي الأمر في الآية السابقة هو نفسه في الآية ٥٩ من السورة ذاتها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً.

فأولي الأمر هنا هم أصحاب الخبرة والشأن الذين يستطيعون الاستدلال على

أنسب الخطط لمواجهة تحركات العدو والعمل على إفشال خططه والاستفادة من تحركاته، واختيار مكان المعركة ونحو ذلك، أي أنهم أهل الاختصاص في تبني التشريعات المدنية[١]. وقد جاءت الآية لتنهى المسلمين عن طلب المشورة من اليهود والاكتفاء بمشورة أهل الرأي من المسلمين، فإن لم يقتنعوا بذلك فعليهم الرجوع إلى الرسول للبحث عن حل مناسب للخلاف. وهذا هو الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات من الآية ٥١ وحتى الآية ٧٠، ومن ضمنها الآية التاسعة والخمسون: أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً. إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أنفسهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا. وَمَا أَرْسَلْنَا

---

(١) المقصود بالتشريعات المدنية هي تلك النظم والقوانين واللوائح التي تسن لتسيير العمل في المجالات المدنية التي لم ينزل بها تشريع إلهي.

مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أنفسهُمْ جَآؤُوكَ فَاستغفرواْ اللّهَ وَاستغفر لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا. فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أنفسهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا. وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أنفسكُمْ أو اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا. وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا (النساء: ٥١-٧٠).

وتكون الآيتان ٥٩ و٨٣ من سورة النساء لا تخاطبان الناس في زمان متأخر عن زمن الرسول، وليس لهما علاقة بمن سيأتون في أزمنة لاحقة ويستولون على البلاد والعباد ويسمون حكاماً، ثم يطلق عليهم فقهاء منتفعون، مصطلح ولاة الأمر، الذي وإن كان يحاكي المصطلح القرآني «أولي الأمر» في شكل بعض حروفه إلا أنه يتنافر معه في المعنى. فأولو الأمر التي وردت في القرآن لفظ لا مفرد له في اللغة العربية، وبالتالي فهو لا يعني الحكام، لأنه لا يمكن أن يتفق أكثر من حاكم بالاشتراك في حكم دولة واحدة في وقت واحد. أما ولاة الأمر المستخدمة عند الفقهاء، فلها مفرد هو ولي الأمر، وهذه لم يتحدث بها القرآن ولم يذكرها. كما أن أولي الأمر التي وردت في القرآن لا تشير إلى أئمة الشيعة ولا فقهاء السنة لا من قريب ولا من بعيد.

المثال الأخير

يقول رجال الدين السنة والشيعة على حد سواء بأنهم هم المقصودون بأهل الذكر في قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) واعتادوا في معرض حديثهم عن مكانتهم الدينية المتميزة والتي يوحون للناس بأنها هبة من الله، بالاستشهاد بـ«فاسألوا أهل الذكر» مبتورة عما حولها، ولا يتلون كامل الآية التي وردت فيها، مما يسهل عليهم إقناع بعض الناس بإدعائهم هذا.

واصطلاح «أهل الذكر» ورد في القرآن مرتين فقط، مرة في الآية ٤٣ من سورة

النحل، وأخرى في الآية السابعة من سورة الأنبياء. ولقد اعتاد معظم الناس قراءة الآيتين ٤٣ و٤٤ من سورة النحل على هذا الشكل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. ويتوقفون هنا وكأن الآية التالية ليس لها علاقة بهذه الآية. مما يقنع بعض الناس بأن أهل الذكر هم رجال الدين، وهو ما يرسخ فكرة ضرورة سؤالهم عن كل شيء مهما كان صغيراً أو خاصاً، والعمل بموجب ما يفتون (يشرعون) به، وكأن الناس غيرهم لا يستطيعون فهم الدين بمستوى فهمهم له.

ولكن لو لم يتوقف القارئ واستمر في قراءة الآية الثانية حتى قوله تعالى والزبر، بهذه الصورة: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ. فقد يشعر بأن تأويل أهل الذكر ليس بالضرورة المعني به رجال الدين.

ولو سمح القارئ لنفسه بالعودة إلى الآية ٣٣ من سورة النحل نفسها لوجد أنه يبدأ منها الحديث عن مطلب لقريش ردده الكفار دائماً على رسلهم في كل الأمم السابقة وهو أن ينزل الله عليهم ملائكة رسلاً بدل أن يرسل بشراً مثلهم: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أو يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ (النحل: ٣٣).

ولو استمر القارئ في القراءة فسيجد أن سياق الحديث عن طلب نزول الملائكة يستمر حتى الآيتين ٤٣ و٤٤: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (النحل: ٤٣-٤٤).

وذلك للتأكيد على أن كل رسل الأمم السابقة كانوا رجالاً من البشر، وإذا أراد الكفار زمن رسول الله أن يتأكدوا من صحة ذلك، فعليهم سؤال من لديهم ذكر، أي من لديهم علم وخبر بالرسالات السابقة إن كانت رسلهم بشراً أم ملائكة. ويكون على قريش في مثل هذه الحالة أن يسألوا اليهود، بصفتهم أهل ذكر وعلم بالبينات والزبر أي الرسالات السابقة، إن كانت الرسل التي أرسلت إلى أسلافهم بشراً أم ملائكة.

وفي الموضع الثاني الذي ورد فيه أهل الذكر، نجد أن الناس أيضاً تقرأ الآية السابعة من سورة الأنبياء وكأن ليس لها علاقة بما سبقها وما لحقها من آيات، فتبدو وكأنها نزلت فقط لتأمر باتّباع فتاوى وتشريعات رجال الدين: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ.

ولكن لو ابتدأ القارئ القراءة من أول السورة فسيجد أنها تتحدث عن موقف قريش في زمن الرسول من الدعوة وأنه مشابه لموقف الأمم السابقة، فقد ورد في الآية الثالثة: لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ. وهو موقف يظهر أنهم أنكروا الدعوة لأن الله قد أرسل لهم بشراً مثلهم، لتأتي الآية السابعة والثامنة للتأكيد على أن كل رسل الأمم السابقة كانوا رجالاً من البشر، وإذا أراد كبراء قريش أن يتأكدوا من صحة ذلك، فعليهم سؤال من لديهم ذكر، أي من لديهم علم وخبر بالرسالات السابقة، إن كانت رسلهم بشراً: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (الأنبياء: ٧).

ولم يكونوا ملائكة لا يستطيعون تناول الطعام البشري: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (الأنبياء: ٨).

ويكون المقصود بأهل الذكر في كلتا السورتين هم اليهود الذين توالت عليهم أعداد كبيرة من الرسل، والذين يعيشون بالقرب من قريش وبالإمكان التأكد منهم عن صفة الرسل. وليس لرجال الدين أي شأن بما ورد في هاتين الآيتين.

ورجال الدين المسلمون لم يكن لهم وجود زمن رسول الله، ولم يكن لهم وجود فترة طويلة بعده عليه الصلاة والسلام، ولكن عندما نشأ الفقه نشأت معه فكرة تبجيل المشتغلين بالفقه ومن ثم تحولوا إلى مشرعين لا تستعصي على فتاواهم أي مسألة فقهية، مع أن الله تبارك وتعالى قد أكمل دينه: ...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإسلام دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فإن اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة: ٣).

وكمال الدين جاء باكتمال نزول القرآن الذي فيه كل فتوى يريدها المسلم: إِنَّا

أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (النساء: ١٠٥).

وقد فصله الله بما يتناسب مع البشر، لأنه يعلم سبحانه ما يناسبهم بكل دقة: وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ٥٢).

وما لم يرد له تشريع في القرآن فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن السؤال عنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أصبحواْ بِهَا كَافِرِينَ (المائدة: ١٠١-١٠٢).

فإن كان النهي زمن رسول الله حيث لازال الوحي ينزل، فسيكون النهي أشد بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحي والمصدر الوحيد للتشريع.

ويكون رجال الدين في كل الأمم من أشد المعارضين لأي إصلاح ديني ولو كان على يد رسول من رسل الله، لأنه سيفقدهم مكانتهم وقدسيتهم ومنافعهم، ودورهم القيادي وانصياع الناس لهم، لذا فقد كانوا من أهم الموانع التي تقف ضد تقبل الناس للدين.

وبهذا نكون قد جئنا على ختام حديثنا عن مواقف الناس من الدين عبر العصور، وفي الباب القادم سوف نورد مثالاً من القرآن الكريم على بعض ما اقترفه بنو إسرائيل من مخالفات للدين زمن موسى عليه الصلاة والسلام وبعده، وكيف تخلوا عن دين الله إلى تشريعات رجال دينهم، وكيف أن الله جل وعلى تسامح معهم المرة تلو الأخرى، قبل أن يسلط عليهم القوى الخارجية بعد أن أصبحت عودتهم إلى الدين مستحيلة، وكيف انتهى بهم المطاف للتشرذم والتفرق في الأصقاع، كنوع من عقاب الله على تحولهم عن الدين، وذلك لتأكيد أن سنة الأولين القرآنية تسري على كل الأمم. ولكي نقارن ما حدث لليهود بسبب تركهم لكتاب الله واتباع كتب وتشريعات رجال الدين، مع ما حدث للمسلمين بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه عندما تركوا كتاب الله رويداً رويداً، وتمسكوا بتشريعات رجال الدين. وأن ما حل ويحل بالمسلمين من ويلات ومحن ومصائب وحروب وتشتت، وما عانوه من تسلط الأمم الأخرى كل ذلك بسبب تركهم كتاب

الله إلى غيره من تشريعات بشرية، سماها رجال الدين بالفقه والحديث والتفسير ونحوها، وأنهم لا بد أن يتبعوا سنن من كان قبلهم «شِبراً شبراً وذِراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا حُجْرَ ضَبٍّ تَبعتموهم»[1] وذلك بناءً على قانون سنة الأولين القرآني.

(١) جزء من حديث ورد في البخاري برقم (٧١٥٦)، وأوله: حدَّثَنا محمد بن عبدِ العزيز حدَّثَنا أبو عمرَ الصَّنعانيُّ من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيد الخدريِّ.

مصادر الباب

ـ القرآن الكريم

ـ النهج المسبوك في سياسة الملوك/ عبد الرحمن بن نصر بن عبدالله الشيزري/ دراسة وتحقيق د. محمد أحمد دمح، وتوزيع مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع ـ بيروت.

ـ التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري/ الطبعة الأولى/ الناشر: مؤسسة الإمام المهدي، قم، إيران

ـ التبيان في تفسير القرآن/ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي/ تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي/ الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، إيران.

ـ الميزان في تفسير القرآن/ سيد محمد حسين الطباطبائي/ الطبعة الثالثة/ دار الكتب الإسلامية ـ طهران، إيران.

ـ الشيعة في عقائدهم وأحكامهم/ أمير محمد الكاظمي القزويني/ دار الطليعة ـ الكويت.

ـ التوراة جاءت من جزيرة العرب/ كمال سليمان الصليبي/ دار الساقي ـ بيروت.

ـ خفايا التوراة/ كمال سليمان الصليبي.

ـ جامع البيان في تفسير القرآن/ ابن جرير الطبري ـ طباعة ونشر دار المعرفة ـ بيروت.

ـ الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت

ـ موطأ مالك / الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ كتاب البخاري / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ تاريخ التشريع الإسلامي/ محمد الخضري ـ القاهرة ١٩٧٥.

ـ مختصر تاريخ العرب/ سيد أمير علي/ ترجمة عفيف البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

ـ الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

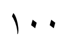
ـ الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى.

الباب الثالث

موقف بني إسرائيل من الدين

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ٧٦-٧٧)

* بنو إسرائيل ذكرهم القرآن الكريم كمثال حي على عدم بقاء الناس على الدين وتحولهم عنه إلى معتقدات من صنع البشر.
* لم يتبع موسى ويخرج معه إلا قلة قليلة منهم، أما البقية ففضلوا حياة السخرة تحت حكم فرعون على اتّباع موسى.
* غالبية من خرج مع موسى لم يؤمنوا برسالته، ولكنهم تبعوه بحثاً عن أوضاع معيشية أفضل.
* بعد نجاتهم من فرعون سرعان ما تحولوا عن دين الله وموسى بينهم.
* بعد وفاة موسى تعاظم تحولهم عن الدين إلى تشريعات ابتدعها لهم رجال دينهم.
* الأرض الموعودة لليهود كانت بُعيد خروجهم من مملكة فرعون، وكان مطلوباً منهم أن يُخرجوا أهلها الكفار منها، ولكنهم لم يفعلوا فحرمهم الله منها إلى الأبد وكتب عليهم التيه (التجوال) أربعين سنة كعقاب لهم.
* بسبب ترك كتاب الله واتباع تشريعات بشرية عاقبهم الله بعقوبات مستمرة منذ عهد موسى إلى اليوم، فسلطت عليهم القوى الخارجية، وشتتوا في بقاع الأرض وكرهتهم الشعوب، ولم يُهلكوا بحادث واحد كما حصل للأمم السابقة.



أرسل الله سبحانه وتعالى موسى بدعوتين، واحدة لبني إسرائيل تعدهم بأن كل من يؤمن منهم بالله فسيتم تخليصه من عبودية فرعون: وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إسرائيل مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (الدخان: ٣٠-٣١).

والدعوة الثانية كانت موجهة لفرعون بأن يؤمن بالله أولاً ويسمح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى ثانياً: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسرائيل (الأعراف: ١٠٤-١٠٥).

ولم يؤمن فرعون بالله، وقام بملاحقة مؤمني بني إسرائيل بقيادة موسى، قبل أن يغرقه الله: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (البقرة: ٤٩-٥٠).

سبق وذكرنا في الباب الثاني أن مواقف الناس من الدين لا تتغير في أي مكان وزمان، وأنها تمر بأربع مراحل، هي: مرحلة تصديق بعض الضعفاء وامتناع بقية الناس، ثم مرحلة استمرار الدعوة، يلي ذلك مرحلة القضاء على الكبراء، وبعدها مرحلة تحوير الدين. وفي هذا الباب سنتعرض لبعض ما ذكره القرآن عن مواقف اليهود من الدين، أثناء حياة موسى وبعد موته، وكيف أن من أعلن إيمانه بدعوة موسى ونجا معه من فرعون، مع قلتهم، سرعان ما بدأوا بالتحول عن أوامر الدين ونواهيه، مع أن رسول الله لازال حياً بينهم، ثم اتسع نطاق التحول عن الدين بعد رحيله عليه الصلاة والسلام.

وهدفنا من ذلك هو التأكيد على أن سنة الأولين جرت على كل الأمم، وعلى أن ما سنجده قد حدث للمسلمين من تحول عن الدين من اللحظة التي توفي فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام إنما هو مماثل لما حدث لليهود، وما حدث لليهود مماثل لما حدث للأمم السابقة قبلهم، كنتيجة طبيعية بناءً على تلك السنة القرآنية «سنة الأولين» التي درج البشر على تكرارها.

بنو إسرائيل زمن موسى

في البداية يلزم أن نذكر أن بني إسرائيل الذين بعث فيهم موسى عليه الصلاة والسلام، هم من نسل يوسف وإخوته الأحد عشر أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام، والذين قدموا لتلك البلاد في آخر حياة يعقوب وأقاموا فيها وتناسلوا. أي أنهم كانوا أبناء رسل وأنبياء، وعلى الرغم من ذلك ـ وبحكم قانون سنة الأولين ـ تحولوا عن الدين جيلاً بعد آخر، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم وامتحنهم بالسخرة التي فرضها عليهم فرعون.

وعندما بعث بينهم موسى لم يتبعه منهم إلا نفر قليل، واستحب أغلبهم البقاء تحت سخرة فرعون على الخروج مع موسى، وهذه شهادة القرآن الكريم: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (يونس: ٨٣).

ويحدثنا القرآن المجيد أنه بمجرد غرق فرعون ونجاة من تبع موسى من بني إسرائيل، ابتدأت سلسلة من المواقف التي تظهر بوضوح أن أغلب من خرج مع موسى لم يتمكن الإيمان من قلوبهم. فقد ساورتهم فكرة العودة إلى تراثهم الوثني السابق مباشرة بعد أن أنجاهم الله من فرعون: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف: ١٣٨). لأن تعاليم الدين التي اكتسبوها حديثاً لم تتعمق في النفوس بما يكفي لتكون بديلاً للتراث الديني المتأصل.

وأثناء ترحالهم مع موسى، أمرهم الله أن يدخلوا الأرض التي وعدهم لتكون وطناً بديلاً لهم عن البلد التي خرجوا منها: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأرض المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى

أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة: ٢٠-٢٤).

ومع أن الله قد وعدهم بالنصر والاستيلاء على تلك الأرض لتكون وطناً لهم[١]، إلا أن اليهود يريدون من الله أن يقاتل عنهم ويفعل كل شيء بالنيابة عنهم. وهو ما يتشابه مع ما يقوم به المسلمون في الوقت الحاضر عندما تحل بهم نازلة، حيث يتجهون للقنوت في الصلاة وفي خطب الجمعة طالبين من الله أن يسحق أعداءهم بالنيابة عنهم وأن يفعل بهم كل ما يشتهي المسلمون، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء اتخاذ أسباب النصر من عتاد واعتقاد.

ولم يستجب لنداء القتال سوى موسى وهارون: قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (المائدة: ٢٥).

فحرم الله بني إسرائيل من الأرض التي وعدهم وحكم عليهم بالتيه: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (المائدة: ٢٦).

والتيه لا يعني أنهم ضاعوا وسط صحراء معدومة المعالم، واستمروا في السير بها على غير هدى لمدة أربعين سنة، لأنه لو حدث هذا فلن يستطيعوا البقاء على قيد الحياة طوال هذه المدة من دون ماء أو طعام. ولكن يحتمل أن يكون المقصود بالتية هو الترحال المستمر من مكان إلى آخر.

وإذا كان التيه (الترحال) قد حدث في جنوب غرب جزيرة العرب، على اعتبار أنهم كانوا هناك بالفعل وأن فرعون لم يكن إلا حاكماً لمستعمرة مصرية في تلك البلاد، وليس في بلاد النيل[٢]، فيمكن تفهم ترحالهم الطويل هذا، لأن تلك

---

(١) ذاك هو الوطن الذي وعد الله به بني إسرائيل، وكان في ذلك الوقت الذي نجوا فيه من فرعون، وليس وطناً دائماً كما يدعون الآن، وأنه يعني دولة بحجم فلسطين، بل كان قرية لأولئك المؤمنين بموسى، وبعد ذلك فلو تفرقوا أو هلكوا أو هوجموا أو هجروا قريتهم فليس لهم عهد من الله بوطن إلى الأبد.

(٢) وهذا ما سنتبينه في فصول لاحقة.

المناطق مقسمة بين قبائل مختلفة، مستقرة تمتهن الزراعة والرعي، وكلما حط بنو إسرائيل الرحال في مكان جاءهم أهله وطلبوا منهم الرحيل، وكان يمكن أن يكون لهم وطن لو استجابوا لربهم واستولوا على الأرض التي وعدهم الله بها، بعيد نجاتهم من فرعون، ولكنهم أبوا القتال فكان الترحال المتواصل لمدة أربعين عاماً عقاباً لهم.

وهنا يمكن أن نستنتج أن من خرج مع موسى من اليهود كانوا عبارة عن ثلة قليلة من رجال ونساء وأطفال، غير مسلحين ولا يحملون معهم إلا متاعهم الشخصي الخفيف، هربوا خارج البلد التي يحكمها فرعون. فلما علم بهروبهم، لحق بهم في جيش مسلح، عدد أفراده أضعاف عدد قوم موسى الهاربين. وقد أكد القرآن الكريم قلة عددهم على لسان فرعون: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلاَء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (الشعراء: ٥٣-٥٥).

ولو كانت أعداد بني إسرائيل تقدر بستمائة ألف ماش عدا الأولاد، كما يقول الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، لاكتسحوا كل من يمرون عليه في طريقهم، ولما امتنعوا عن قتال قلة من الناس كانوا يسيطرون على تلك البلدة التي وعدهم الله بها لتكون أرضاً لهم. ولما طلب منهم أثناء ترحالهم أن يدخلوا قرية ليتزودوا منها بالطعام والمؤن: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (البقرة: ٥٨). لأن ما في قرية صغيرة من متاع لن يكفي ذلك العدد الهائل المزعوم.

ولو كانت أعدادهم بمئات الألوف لسجل التاريخ ترحالهم كواحدة من أكبر الهجرات البشرية على مر العصور، ولسجلها أهل البلاد التي مروا بها في قَصصهم الشعبي، وتوارثوها جيلاً بعد آخر.

وقد تعددت المواقف التي تظهر ضعف إيمانهم، ومن ذلك أنه أثناء تجوالهم تعرضوا لهزة أرضية، فسارعوا لموسى محتجين على ما حدث لاعتقادهم بأن الله سيهلكهم. وقد سجلت كتبهم نص الاحتجاج: وقالوا لموسى هل لأنه ليست لنا قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم

المصريين. لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية (الخروج: الإصحاح الرابع عشر: ١١ -١٢). ويظهر كلامهم مدى تغلغل حياة الذل في نفوسهم.

كما سجل القرآن ردة فعل موسى كإنسان تجاه ما حدث لقومه: وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (الأعراف: ١٥٥).

وبعد فترة، تركهم موسى لمدة أربعين ليلة فقط، لتلقي التوراة من ربه بجانب الطور، أي الجبل ذي المنحدرات الشاهقة أو كثير الأشجار، كما يقول صاحب لسان العرب، وإذا ببني إسرائيل يرتدون إلى عبادة الأصنام، وكأن بقاءهم على الدين لا يعني لهم أكثر من كونه مجاملة منهم لموسى منقذهم، وبما أنه غائب فسيعودون إلى ما اعتادوه قبله: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتخذتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (البقرة: ٥١).

ومع أنها المرة الثانية التي يظهرون فيها ردتهم، فقد عفا الله عمن تاب منهم: ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة: ٥٢). لأن الله سبحانه يعلم أن دخول الناس في الدين لا يلغي من عقولهم ومن تصرفاتهم كل ما يتعلق بموروثهم العقائدي السابق الذي يحتاج عدة أجيال متلاحقة لاجتثاثه من النفوس وتأصيل تراث جديد مكانه.

ويكون بعضهم قد عمل السوء بجهالة ليس لأنهم تعمدوا الخروج عن الدين ولكنهم عادوا لطبائع اعتادوها بحسن نية وتقليداً للغير. أما البعض الآخر فكانوا ممن تظاهر بالدين ليستفيد من الوضع الجديد المصاحب للدعوة دون اقتناع: إِنَّ الَّذِينَ اتخذواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ. وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (الأعراف: ١٥٢-١٥٣).

ومع أن بني إسرائيل كانوا شهوداً على معجزات موسى وعلى نجاتهم من فرعون ومن ثم نزول التوراة وما فيها من تشريع، إلا أن كل هذا لم يكن كافياً للبعض منهم ليؤمنوا: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (البقرة: ٥٥). فكل الوعود الغيبية بالنعيم في الآخرة يصعب أن يصدق بها الإنسان. وإذا كان موسى الذي قد عاد للتو مخاطباً ربه ويريدهم أن يؤمنوا بهذا الرب، فلماذا لا يرونه هم أيضاً؟

ولأن سؤالهم نابع من شكهم في وجود الخالق وليس لتطمئن قلوبهم كما هي الحال مع إبراهيم، فإن العذاب كاد أن يحل بهم لولا عفو الله عنهم مجدداً: ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة: ٥٦).

بل إن الله رأف بهم، حيث توفرت الظروف المناخية المناسبة لتكوّن السحب فوق المنطقة التي كانوا فيها لتحميهم من حر الشمس اللافح وهم في ترحالهم، ويسر الله لهم العثور على المن والسلوى ليأكلوا من طيبات الرزق: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ (البقرة: ٥٧)

وعلى الرغم من ذلك فقد استحب كثير منهم العمى على الهدى، فأخذهم الله بذنوبهم: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (البقرة: ٥٩).

وفي كل مرة يستجاب لمطالبهم كانوا يطلبون المزيد، وكان كفرهم يزيد. فما كان من موسى إلا أن خيرهم بالقبول بدين الله والصبر على المصاعب، أو العودة إلى مصر حيث سيجدون كل ما سألوا عنه من بقول الأرض، ولكنهم سيعودون إلى العبودية التي يبدو أنهم اعتادوها فأصبحوا أذلاء مهانين: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فإن لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُون (البقرة: ٦٠-٦١).

ومن كثرة فسقهم وعدم طاعتهم لأوامر الدين عاقبهم الله بأن حرم عليهم بعض المأكل الذي كان حلالاً لهم: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ

وَالْغَنَم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أو الْحَوَايَا أو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ (الأنعام: ١٤٦).

وكلما مر عليهم الزمن كلما زادوا طغياناً وكفراً: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أو أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (البقرة: ٧٤).

ولم يكن وجود موسى بينهم ليمنعهم من التحول عن الدين: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (الصف: ٥).

حتى إن أغلب بني إسرائيل الذين نجوا مع موسى وآمنوا بأنه رسول الله، لم يكونوا يقيمون شرع الله ولا يتبعون كل أوامره ويجتنبون كل نواهيه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ (البقرة: ٨٣).

وقد أدرك موسى حقيقتهم تلك بعد أن قضى معهم سنين طويلة خلال التيه وبعده: وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعًا فإن اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (إبراهيم: ٨).

هذه بعض جوانب الصورة التي كان عليها الرعيل الأول من مؤمني بني إسرائيل أثناء تواجد موسى بينهم، والتي كان من المفترض أن تكون حياتهم خلالها وممارساتهم اليومية تحكمها العقيدة، وأن يكونوا قدوة لمن سيأتي بعدهم. فإذا كان هذا وضعهم وموسى بين ظهرانيهم، فما الذي يمكن أن يحدث بعد رحيله عليه الصلاة والسلام.

بنو إسرائيل بعد موسى

بعد موسى بقيت قلة من بني إسرائيل على الحق، وكانوا: أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجدة: ٢٤).

إلا أن معظمهم لم يعرفوا التقوى والورع، ولم يمض وقت طويل على رحيل موسى حتى ظهرت الفرق والمذاهب التي تناحرت فيما بينها أيها كان على الحق: وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثية: ١٧).

وأصبح كل زعيم مذهب (الحبر أو الراهب) يطاع ويسمع منه أكثر مما تطاع التوراة التي تمثل شرع الله: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (الشورى: ١٤).

فتوالت الرسل إليهم ليعودوا إلى دين الله: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أنفسكُمُ استكبرتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (البقرة: ٨٧).

وكان ممن أرسل لليهود بعد موسى عيسى ابن مريم، الذي كغيره من الرسل لم يؤمن به سوى عدد قليل منهم: وَرَسُولاً إِلى بَنِي إسرائيل أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ

مَنْ أَنصَارِي إلى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٤٩-٥٢).

وبعد موته تحولت قصة ولادته بلا أب إلى أسطورة، فظنت طائفة من اليهود بأنه كان هو الله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابن مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إسرائيل اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار (المائدة: ٧٢).

وقال آخرون بل هو وأمه آلهة مع الله: قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (المائدة: ٧٣).

ووصل الغلو بطائفة من اليهود إلى اعتبار أحد أحبارهم وهو عزير (عزرا) ابناً لله، مثلما اعتقدت طائفة أخرى أن المسيح هو ابن الله: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابن اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابن اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة: ٣٠).

ويبدو أن الاعتقاد بأن لله أبناء كان من الأساطير الشائعة في ذلك الوقت وتبناها اليهود حول شخص عيسى وعزير.

وحتى العدد القليل الذين آمنوا بعيسى ابن مريم، سرعان ما عدلت الأجيال التالية منهم عن الدين، ولم يبق منهم أحد يؤمن بدين الله الخالص: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (المائدة: ١٤).

واستمر اليهود في مواقفهم المجافية للدين، فكانوا كلما جاءهم رسول بخلاف ما هم عليه من عقائد ابتدعها رجال دينهم كذبوه أو قتلوه: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أنفسهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (المائدة: ٧٠).

فكان تاريخ بني إسرائيل نموذجاً لسرعة تحول الناس عن الدين واتباع ما تمليه عليهم مصالحهم الشخصية، وإن تخلل تاريخهم فترات قصيرة رجع قليل منهم فيها إلى دين الله. ومن ذلك، تلك الفترة التي قضوها في ظل مملكة داوود، والتي صور القرآن الأحداث التي أدت لقيامها، بقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إلى الْمَلإِ مِن بَنِي

إسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأرض وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (البقرة: ٢٤٦-٢٥١).

وباستيلاء داوود على مملكة جالوت بعد أن قتله، تأسست أول مملكة لليهود في تاريخهم، وإن كانت عبارة عن مدينة مثل ممالك تلك الحقبة التي لا تقارن بالممالك الحالية من حيث المساحة والسكان. وعندما توفي داوود ورثه ابنه سليمان الذي أصبحت المملكة في عصره أكثر قوة، واشتهرت بعلمائها وصناعها ومهندسيها المهرة، كما أوتي القدرة على تسخير مخلوقات روحانية من غير جنس البشر(جن): وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سبأ: ١٢-١٣).

وكان داوود وسليمان يحكمان بشرع الله الذي أنزل على موسى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ

الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (المائدة: ١٢).

ولكن بعد موت سليمان حدثت انقسامات في المملكة وحروب أهلية بسبب تسلط بعض جبابرة اليهود وإفسادهم في الأرض: وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إسرائيل فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (بني إسرائيل: ٤).

وبكفرهم وإفسادهم سلط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم: فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (بني إسرائيل: ٥). وكأنها إشارة لحملة الملك المصري شيشانق التي كانت ما بين (٩٤٥ ـ ٩٢٤) قبل الميلاد. حيث استولى على كل بقايا دولة سليمان، بل ومناطق شاسعة مجاورة لها في جنوب غرب جزيرة العرب[1].

ثم كان هناك فترة سلام أنستهم ما حل بهم من محن حيناً من الدهر: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (بني إسرائيل: ٦) ولكن اليهود لم يتعظوا ولم يرجعوا إلى دين الله. فسلط الله عليهم الآشوريين بقيادة الملك سرجون الثاني، الذي قضى على مملكة بني إسرائيل في العام (٧٢١) قبل الميلاد.

ثم توالت عليهم المحن والمصائب فقضى الملك البابلي نبوخذ نصر على المملكة الثانية لليهود، مملكة يهوذا، في العام (٥٨٦) قبل الميلاد، وهدم معابدهم وأماكن سجودهم وخرب ديارهم، وساق كثيراً منهم أسرى إلى بابل ليبقوا هناك مستعبدين لمدة سبعين سنة: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأنفسكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا (بني إسرائيل: ٧).

فإذا كانت هذه الاجتياحات المتكررة ضد اليهود حدثت من قبل جيوش ممالك بعيدة عنهم ويفصلهم عنها بحار وقفار وفيافي لا يسلكها الناس إلا للحاجات

---

(١) رجعنا إلى الفصل ١١ مسار حملة شيشانق في كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب، للتعرف على مسار الحملة.

القصوى، فمن البداهة أن تعود أسبابها إلى عقاب الله لهم على تحولهم عن الدين.

وقد أدت حروب اليهود الأهلية بعد سليمان إلى هجرات جماعية، وتكررت هذه الهجرات أثناء الاجتياحات المتكررة لبلادهم من قبل الجيوش الأجنبية الغازية. وحتى عندما أعيدوا من سبيهم في بابل، وجدوا أكثر ديارهم خراباً وما بقي منها صالحاً استولت عليه شعوب وقبائل أخرى، ولم يبق لهم في بلادهم الأصلية مكان إقامة. فنزحلوا إما باتجاه أقصى بلاد اليمن والحبشة، أو شمالاً ليستقروا في الواحات المتناثرة على طول الطريق التجارية الموصلة بين اليمن وبلاد الشام، مثل يثرب، خيبر، العلا، تيماء، ومنهم من وصل إلى فلسطين الحالية وغيرها من بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وأبعد من ذلك. ومنهم من بقي في العراق بعدما أخذوا كسبي، ولم يعودوا إلى بلادهم، ومن هناك تفرقوا في بلاد آسيا الوسطى. وقد تسببت تلك الاضطرابات بضياع التوراة في وقت مبكر جداً من تاريخ اليهود.

وأثناء فترة السبي البابلي، قام أحد رجال الدين واسمه عزرا (عزير)، بالبدء بتأليف كتاب عن التاريخ السابق لليهود، ثم جاء من أضاف إلى ذلك الكتاب بعض الأحداث الأخرى، ثم تلا ذلك كتبة آخرون على مدى مئات السنين، من كل نوع وثقافة، منهم الراعي والحرفي ورجل الدين وغيرهم، يضيفون ويحذفون وينقحون في هذه الكتابات، ولم تتخذ كتبهم شكلها الحالي إلا في القرن الرابع الميلادي[(١)].

وقد تأثر الفقه اليهودي بالمؤثرات الاجتماعية والسياسية والدينية المحيطة، كما تأثر بالخرافات والأساطير والشعوذة المنتشرة في بلاد الرافدين وغيرها في الفترة التي عاشوها هناك: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا

(١) The World That Produced the Bible 400 587: B.C - Who Wrote the Bible

يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أنفسهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ١٠٢).

فأصبح السحر والشعوذة التي نقلوها معهم من العراق جزءاً من ديانتهم. وتحول رجال الدين إلى مشرعين حقيقيين للديانة اليهودية: اتخذواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابن مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة: ٣١).

واستساغ رجال الدين ممارسة سلطتهم الروحية، فحوروا الدين حسب ما تقتضيه المصالح الشخصية: لوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (المائدة: ٦٣).

وتمسك اليهود بما يفتي به ويشرعه رجال دينهم، واعتقدوا بأنه شرع الله وكفروا بما سواه، بل وظنوا أنهم وحدهم دون سائر الناس عباد الله المخلصون: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (المائدة: ١٨).

وأن عقائدهم وحدها دين الله: وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أو نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (البقرة: ١٣٥). وظنوا أن لن يدخل الجنة غيرهم: وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أو نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (ألبقرة: ١١١).

وقد أعطى القرآن صورة إجمالية لحال اليهود عبر التاريخ وما آلوا إليه في سور كثيرة منها قوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْم الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (الأعراف: ١٦٧-١٦٩).

حيث قطّعوا في كل أرجاء الأرض وعاشوا في جماعات صغيرة متقوقعة على

نفسها وسط مجتمعات غريبة عنها في كل قارات الدنيا. ولو أنهم تمسكوا بدين الله لاختلفت أوضاعهم في الدنيا والآخرة: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ (المائدة: ٦٥-٦٦).

ويكون ما حدث لهم هو الذي حدث لغيرهم من الأمم سابقها ولاحقها في سرعة التحول عن جوهر الدين: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (الكهف: ٥٥).

وعبر التاريخ لم تتغير العقلية الدينية اليهودية وبقوا على يقين بأن ما يشرعه رهبانهم هو دين الله دون سواه، لذلك لم يؤمن اليهود برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، بل وقفوا منها موقفاً عدائياً لم يتبدل. وحاولوا أن يضلوا المسلمين: وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أنفسهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (آل عمران: ٦٩).

وقاموا بموالاة المشركين ضد المسلمين: تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أنفسهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (المائدة: ٨٠) حتى أصبح اليهود زمن الرسول أشد الناس مع المشركين حرباً على الإسلام: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ. (المائدة: ٨٢).

وقد جاء موقفهم المعادي للإسلام، تكراراً لمواقفهم من دعوة موسى: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ٧٥) فقد انحرفوا عن الدين وموسى بينهم على الرغم من كل ما رأوه من معجزات ومن نعم الله عليهم، فكيف يطمع المسلمون أن يتبع اليهود الإسلام.

ليس لأن اليهود جبلوا على الكفر، ولكن لأن البشر بوجه عام لا يبقون على الدين طويلاً قبل أن يتحولوا عنه، إما بالرجوع إلى ما اعتادوه من موروثات جاهلية أو بالتمسك بما استحدثوه منها. فأصبح التحول عن الدين سنة متبعة في كل الأمم والمجتمعات منذ الأزل: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِم مِّن

رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (الحجر: ١٠-١٣).

أما من الناحية الإنسانية فاليهود لا يختلفون عن بقية الناس، منهم الصالح الذي يحمل الصفات الحسنة ومنهم الطالح الذي يظهر الصفات السيئة: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا. (آل عمران: ٧٥).

وهناك مثل قديم مشهور في الأدب العربي يقول: أَوْفَى مَنَ السَّمَوْأَلِ، والمضروب به المثل هو السَّمَوأل بن حيَّان بن عَادِياء اليَهُودي. ويذكر أبو الفضل الميداني في كتابه معجم الأمثال والحكم من وفاء السموأل أن امرأ القَيْس لما أراد الخُرُوجَ إلى قيصر اسْتَوْدَعَ السموألَ دُرُوعاً وأحَيْحَةَ بن الجُلاَح أيضاً دروعاً، فلما مات امرؤ القيس غَزَاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموأل، فأخذ الملك ابناً له، وكان خارجاً من الحِصْنِ، فصاح الملك بالسموأل، فأشرف عليه، فَقَالَ: هذا ابنُك في يَدَيَّ، وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي ومن عشيرتي، وأنا أحقُّ بميراثه؛ فإن دفَعْتَ إلي الدروع وإلاَ ذَبَحْتُ ابنك، فَقَالَ: أجلْني، فأجله، فَجَمعَ أهلَ بيته ونساءه، فشاوَرَهم، فكُلٌّ أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه، فلما أصبح أشْرَفَ عليه وقَالَ: ليس إلى دَفْعِ الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع، فذبَحَ الملكُ ابنه وهو مُشْرِف ينظر إليه، ثم انصرف الملك بالخيبة، فوافى السموألُ بالدروع الموسمَ فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقَالَ في ذلك قصيدة منها:

وفَيْتُ بأَدْرُعِ الكِنْدِي إنـي ... إذا ما خَانَ أقْوَام وَفِيْتُ
وَقَالُوا: إنه كَنْزٌ رَغِيبٌ ... وَلاَ وَاللـه أغْدِرُ مَا مَشَيْتُ

وهذه بعض المواقف النبيلة من إسرائيليين معاصرين مما أوردته وسائل الإعلام خلال الفترة الماضية:

* ذكرت وكالات الأنباء اليوم ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٣ أن المحامي اليهودي الفرنسي لوران ليفي يدافع عن حق ابنتيه المسلمتين في ارتداء الحجاب، ضد قرار فرنسا بتحريم لبس الفتيات المسلمات الحجاب في المدارس.
* قالت صحيفة «جارديان» البريطانية في عددها الصادر الخميس ١٨/ ٤/ ٢٠٠٢ نقلاً عن صحيفة «هتسوفيه» العبرية، إن أحد طياري مروحيات

الأباتشي الأمريكية الصنع تلقى الأسبوع الماضي أمراً من قائده العسكري بقصف منزل في قرية «دورا» الواقعة قرب الخليل بالضفة الغربية لتصفية ٥ قياديين فلسطينيين يشتبه في اختبائهم داخل المنزل، غير أن الطيار الإسرائيلي رفض الأمر لأنه سيعرض حياة أبرياء وأطفال للموت.

* في ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٣ قالت مصادر في سلاح الجو الإسرائيلي إن ٢٧ طياراً في سلاح الجو الإسرائيلي بعثوا بعريضة إلى قائد السلاح الجوي اللواء دان حَلوتس أعلنوا فيها أنهم لن ينفذوا مهمات هجومية في الضفة الغربية وقطاع غزة بهدف الاغتيال، لأنهم سيعرضون حياة الأبرياء للخطر.

وغير ذلك الكثير من مواقف إنسانية ونبيلة صدرت من يهود بحق أعداء لهم.

إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالدين فإن اليهود استمروا منذ زمن عزرا وحتى اليوم يعتبرون أنفسهم الناس الوحيدين الذين يدينون بدين الله الذي دان به إبراهيم ويعقوب وموسى، وأن كتبهم المقدسة هي روح، وإن لم تكن نص، الوحي الذي أنزله الله على موسى. ولن يقبل اليهودي العادي مثله مثل رجل الدين مجرد مناقشة إمكانية خطأ تقديراتهم تلك، كما لن يتقبلوا فكرة أن يكون هناك أي دين آخر غير عقيدتهم يمكن أن يكون ديناً سماوياً أنزله الله على رسول من عباده. ولو عاد موسى إلى الحياة الآن وأبلغهم أن ما هم عليه مختلف عما بعثه الله به من دين، لاتهموه بأنه مسيح دجال ولرموه بالكفر والكذب على الله ولما تبعه منهم أحد. ولن يدور بخلد أي منهم أن تكون عقيدتهم الحالية هي المبتدعة وأن دين الله بريء منها براءة الذئب من دم جدهم يوسف.

وقد اعتمد رجال الدين على كتب مساندة لكتابهم المقدس، شرعوا بموجبها تشريعاتهم التي يسيرون عليها اليوم، وهي، المشنا والغامارة والتلمود. والغرض من هذه الكتب هو إيضاح وتفسير ما التبس من نصوص الكتاب المقدس، وإيراد نصوص وتشريعات لم ترد في ذلك الكتاب، فهي كالتفسير والحديث والفقه عند المسلمين.

وهذا بعض ما جاء في تلك الكتب من أقوال(١):

لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط. وهو مماثل لأقوال

(١) نقلت أقوال التلمود والمشنا من مواقع للكتاب المقدس على الإنترنت.

رجال الدين المسلمين الذين يقولون بأن الحديث مكمل للقرآن، وأن القرآن لا يمكن فهمه من دون تفسير.

وجاء في التلمود: التوراة أشبه بالماء، والمشنا أشبه بالنبيذ، والغامارة أشبه بنكهة النبيذ العطرية، ولذا فالإنسان لا يستغني عن هذه الكتب الثلاثة، مثلما أن النبيذ لا يصلح من دون العناصر الثلاثة المذكورة.

وكما يحرم رجال الدين المسلمون (الفقهاء) على غيرهم أن ينقدوا أقوالهم أو يبينوا أخطاءهم، ويصفون أنفسهم بأنهم ورثة الأنبياء، لكي يعطوا فتاواهم وتشريعاتهم صفة مشابهة لصفة النصوص الإلهية، وكأن ما يصدر منهم يمثل دين الله، فإن رجال الدين اليهود لديهم أقوال مماثلة، ومن ذلك ما جاء في التلمود، ونصه: من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت.

ويشددون على تقديس تشريعات وفتاوى الحاخامات، فقد جاء في كتاب يهودي اسمه (كرافت) مطبوع في سنة ١٥٠٩ ما نصه: يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة لأن أقوالهم هي قول الله الحي فإذا قال لك الحاخام إن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله فما بالك إذا قال لك إن اليمنى هي اليمنى واليسرى هي اليسرى.

ويتسمى رجال الدين اليهود (الحاخامات) بالربانيين، ومفردها رباني، ومترجمة للإنجليزية بهذا الشكل «Rabbi» مثلما يحلو الآن لبعض رجال الدين المسلمين أن يسموا أنفسهم بالربانيين.

وقال أحد علماء اليهود المسمى (ميمانود) المتوفى في أوائل القرن الثالث عشر: مخافة الحاخامات هي مخافة لله.

ومثله ما ورد في التلمود: من يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ، وكأنه جادل العزة الإلهية. ورجال الدين المسلمون يحرمون على غيرهم أن يجادلوهم.

وقال أحد الحاخامات واسمه مناحم: إنه حتى ولو بدا أن هناك أقوالاً متناقضة لرجال الدين فإنها كلها من كلام الله مهما وجد فيها من التناقض! ومن لم يعتبرها كذلك فقد أخطأ في حقه تعالى. وهو مماثل لقول رجال الدين المسلمين إن اختلافهم رحمة، في أثر نسبوه إلى الرسول.

وذكر في كثير من كتب اليهود: إن أقوال الحاخامات المناقضة لبعضها منزلة

من السماء، ومن يحتقرها فمثواه جهنم وبئس المصير. ويمكن مقارنة ذلك مع ما يقوله رجال الدين المسلمون بأن من أخطأ منهم في فتوى أو تشريع فله أجر، ومن أصاب فله أجران، وفي كلا الحالتين ما على الإنسان العادي إلا الإتباع.

وكما وصل الغلو ببعض الشيعة في أئمتهم واعتبروهم معصومين عن الخطأ أو أنهم أفضل من الأنبياء فقد قال اليهود إن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء، وأن الحاخامات معصومون.

وسنتوقف هنا مكتفين بما ذكر من أقوال رجال الدين اليهودي.

وفي ختام الحديث عن بني إسرائيل ومواقفهم من الدين نصل إلى الحديث عن موقف الناس من دعوة محمد عليه الصلاة والسلام في حياته وبعد وفاته، وكيف كانت عاقبتهم وما آل إليه مصيرهم، مماثلة لما حدث لليهود ولغيرهم من الأمم السابقة. ولكن قبل ذلك سنتعرف على نبي الإسلام، محمد بن عبدالله القرشي، كيف أراد الناس تصويره، وكيف وصفه القرآن.

مصادر الباب

ـ القرآن الكريم.

ـ الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى.

ـ التلمود، من موقع على الإنترنت.

ـ التوراة جاءت من جزيرة العرب/ كمال سليمان الصليبي ـ دار الساقي ـ بيروت.

ـ معجم الأمثال والحكم/ أبو الفضل الميداني/ الناشر: دار ابن زيدون ـ بيروت.

ـ مقالات مقتبسة من شبكة الإنترنت.

ـ صحيفة الجارديان اللندنية / العدد الصادر يوم الخميس ١٨/٤/٢٠٠٢.

ـ Who Wrote The Bible, Richard Elliott Friedman/ Summit Books- N.Y., USA

الباب الرابع

محمد الإنسان والرسول

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف : ١١٠).

* كتب الأخبار تصور الرسول بصور خرافية متطرفة، فهو تارة لا يعرف ماذا يفعل، وتارة أخرى وكأنه خلق من طينة غير طينة البشر، بحيث يعرف من كل علم أكثر مما يعرف عنه المختصون فيه.
* بينما صوره القرآن الكريم على أنه بشر سوي لا يختلف عن الناس الأسوياء ولا يزيد عنهم بشيء، ويجري عليه كل ما يجري عليهم من مشاعر وأحاسيس إنسانية، ولكنه أكثرهم مسؤولية أمام الله بحكم كونه مسؤولاً عن تبليغ رسالة ربه للناس.
* كل رسل الله السابقين كانوا من أولي العزم، أي الصبر على شدائد التبليغ، لأنهم جميعاً قد خضعوا لبرنامج تأهيلي إلهي جعلهم قادرين على تحمل المصاعب والعنت الذي واجههم الناس به طوال فترة دعوتهم، ومحمد بن عبدالله لم يكن بدعاً من الرسل.

ما كتبه بعض الإخباريين[1] عن محمد صلوات الله وسلامه عليه، يصوره على أنه شخص فوق بشري، لدرجة أن المعجزات الحسية قد جرت على يديه، إضافة إلى أنه يحيط بكل علم أرضي أكثر من المختصين فيه، حتى إن الناس يتداوون بما عرف عندهم بالطب النبوي. والذي هو عبارة عن أقوال منسوبة إلى الرسول جمعها الناس على شكل كتب تقرأ ويتعالج الناس بما فيها. أما القرآن فقد أورد صورة للرسول ليس فيها مما نقله عنه الإخباريون شيئاً، فهو إنسان عادي جداً، بالنسبة إلى مواصفات البشر. ولم يكن طبيباً ولا صاحب معجزات ولا فيلسوفاً ولا يحمل أي صفة مميزة من الصفات التي قالتها كتب الأخبار عنه، وهذا ما سنتحدث عنه في هذا الفصل.

(١) هم كتبة الأخبار الظنية من حديث وتاريخ وسير وتفسير.

محمد في كتب الأخبار

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعًا. أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أو تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أو تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ. (بني إسرائيل: ٩٠-٩٣).

تعج كتب الأخبار بقصص خيالية عن أحداث صاحبت ولادة عبدالله، والد رسول الله، وزواجه بآمنة، أم الرسول. ومولد الرسول ورضاعته وطفولته ونشأته، وكيف أن الناس من وثنيين ونصارى ويهود قد عرفوا بولادته ونبوته قبل أن تحدث.

ومن القصص الخيالية التي حيكت حول ولادته صلى الله عليه وسلم في سيرة ابن هشام[١] أن عبد المطلب كان قد نذر إن رزقه الله بعشرة أبناء ذكور ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، أن ينحر أحدهم لله عند الكعبة، وأنه لما وصل عدد أبنائه الذكور إلى عشرة، أبلغهم بعزمه على الوفاء بنذره فلم يحتج منهم أحد. ولكي يكون الاختيار عادلاً فقد أمرهم أن يكتب كل منهم اسمه على قداح وأن توضع في جوف الكعبة عند الصنم هبل الذي اعتاد الناس أن يضربوا أقدحتهم عنده قبل قيامهم بأي أمر. وقد خرج القداح على عبدالله والد محمد، ولكن قريش منعت عبد المطلب من أن ينحر ابنه قبل أن يأتي أحد الكهنة. فأشارت عليهم كاهنة كانت في خيبر أن ينحروا عدداً من الإبل مساوياً لديّة الرجل عندهم، ومن ثم يضرب

(١) فصل ذكر نذر عبد المطلب ذبح ولده وفصل حديث حليمة عما رأته من الخير بعد تسلمها له صلى الله عليه وسلم.

القداح على عبدالله وعلى الإبل، فإن خرج القداح على عبدالله زيدت الإبل ويعاد ضرب القداح حتى يخرج على الإبل، وهو ما يعني أن الرب قد رضي بالدية، فنحرت الإبل وعاش عبدالله وبر عبد المطلب بنذره.

وعندما رجعوا إلى مكة رأت رقية بنت نوفل، عبدالله عند الكعبة فطلبت منه أن يجامعها وتهبه مثل عدد الإبل التي نحرت عنه، لأنها عرفت، من أخيها ورقة بن نوفل الذي تنصر أنه سيولد له ولد سيكون نبياً، وقد رأت نور النبوة في وجه عبدالله فرغبت أن تكون أم ذلك النبي المنتظر، ولو حملت به سفاحاً.

ولما حملت آمنة بنت وهب بن عبد مناف من زوجها عبدالله بن عبد المطلب، جاءها آت لم يعرف إن كان من الملائكة أو من الشياطين، ولكنه أبلغها بأنها حامل بسيد هذه الأمة، وأنها حين حملت به خرج من موضع في جسدها، نور عرفت وهي في مكانها أنه قد أضاء بصرى الشام.

أما إحدى النساء اللاتي حضرن مولده صلى الله عليه وسلم، فقد رأت أن البيت قد امتلأ نوراً، وأن نجوم السماء قد اقتربت من الأرض لدرجة خافت تلك المرأة أنها ستقع عليها. دون أن يلحظ ذلك أحد خارج المنزل بطبيعة الحال. وفي اللحظة التي ولد فيها محمد في مكة صرخ يهودي بالمدينة مبلغاً قومه بأن نجم أحمد الذي يولد به قد ظهر، مع أن التنجيم لا يقره الإسلام.

وقد ولد الرسول مختوناً ومقطوع السرة. وسماه جده عبد المطلب محمداً بناء على الرؤيا التي رآها قبل ولادته والتي عرف بواسطتها أنه سيولد له حفيد سيحمده أهل السماء والأرض. وغير ذلك الكثير المثير في غرابته وسطحيته مما قيل حول مولد ونشأة ونبوة محمد.

ويبدو أن كل هذه البشارات بنبوة محمد لم تعرف بها المرضعات، ومنهن حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، اللاتي قدمن من بلاد بني سعد بن بكر إلى مكة بحثاً عمن يرضعنه من أطفال قريش مقابل أجر مادي، وإلا لتقاتلن فيما بينهن لنيل شرف إرضاع رسول المستقبل.

وفي ذلك تقول حليمة: فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم. وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي. فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت

معي إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي (زوجي): والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه. قال: لاعليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. انتهى الكلام المنسوب إلى حليمة كما ورد في سيرة ابن هشام وفي غيرها من كتب التاريخ والسير.

وبمجرد أن أخذته حليمة إلى رحلها حتى تتالت البركات، فأصبحت أتانها الضعيفة العجفاء التي كانت تحبس الركب في المسير وهم قادمون لمكة، كأسرع ما يكون من الحمير، ودرت أضرع شارفهم (عنزهم الهزيلة) فشربوا وأطعموا. وعمت بركة الرسول مراعي غنم حليمة السعدية دون غيرها من بقية بلاد بني سعد المجدبة. فكانت أغنامها تروح خماصاً وتغدوا شباعاً لبّناً، حتى كان قومها يقولون لرعيانهم: ويحكم إسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. وكان من أثر ذلك الحليب المبارك أن الرسول شب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتين حتى كان غلاماً جفراً، حسب ما رواه ابن هشام وغيره من الإخباريين المسلمين عن حليمة.

ومن التطرف القصصي المؤسف والذي لا يمكن أن يكون حدث لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ما روي عن الكيفية التي تمت بها خطوبة وزواج الرسول بخديجة، ومن ذلك ما رواه أحمد في مسنده على شكل حديث برقم (٢٨٥٤)، وهذا نصه: حدثنا عبدالله حدَّثني أبي ثنا أبو كامل ثنا حماد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمّار عن ابن عباس ـ فيما يحسب حماد -: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر خديجة وكان أبوها يرغب أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أباها وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتى تملوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبدالله يخطبني فزوجني إياه، فزوجها إياه، فخلعته وألبسته حلة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سرى عنه سكره نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال: ما شأني ما هذا؟ قالت: زوّجتني محمد بن عبدالله، قال: أنا أزوج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت خديجة: أما تستحيي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش؟ تخبر الناس أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي.

وكانت أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب ودهاقنة المجوس

ومشعوذو الهند قد عرفوا أمر الرسول قبل مبعثه، سواءً بما وجدوا في كتبهم أو بالاتصال بالجن والشياطين، حسبما رواه ابن هشام في سيرته.

وعندما نزل جبرائيل على رسول الله بالوحي لم يعرف محمداً أنه أصبح رسولاً لله إلا بعد أن أخبره ورقة بن نوفل النصراني بذلك. مع أن عقيدة النصارى تنص على أن يسوع ابن الله مات على الصليب لتخليص البشر من ذنوبهم وبالتالي فليس هناك حاجة إلى بعث رسل بعده لأن ذنوب الناس قد غفرت، وكان من المفترض أن تنكر عقيدة ورقة، التي نسبه إليها الإخباريون، دعوة أي رسول بعد يسوع يدعي أنه أرسل من الله. ولم يسجل التاريخ أن ورقة بن نوفل الذي زعمت كتب الأخبار أنه كان أول من عرف بأن رسالة محمد حق قد آمن بتلك الرسالة على الرغم من افتراض أنه أدرك بعثته، ومثل نوفل لم يسلم كل من تنبأ ببعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وتظهر لنا كتب الأخبار أن خديجة، زوج محمد، قد قامت بامتحان فريد للتأكد من ماهية جبرائيل، تلخص بأمر الرسول بأن يجلس على فخذها الأيسر فالأيمن وفي حجرها وجبرائيل حاضر، فلما تحسرت وألقت بخمارها اختفى جبرائيل فجأة. لتعلن خديجة للرسول: يا ابن العم اثبت وأبشر فوالله إنه ملك لأنه لو كان شيطاناً لما اختفى عندما حسرت رأسي وألقيت خماري[1].

ومن الواضح أن هذه القصة وضعت في تاريخ متأخر بعد أن بدأ الناس في الحديث عن وجوب غطاء وجه المرأة الذي لم يكن موجوداً في أول أيام نزول الوحي على الرسول.

والقصص المذكورة تريد أن تقول بأن محمداً لم يكن ليعرف ما آل إليه أمره، لو لم يكن هناك ورقة المسيحي، ولو لم تُجر خديجة امتحانها. بل إن كتب الأخبار تؤكد فيما روته من قصص أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، كان آخر من علم بأمر بعثته، فقد سبقه لذلك كل شياطين الجن وشياطين الإنس من كهان العرب ورهبان اليهود والنصارى ودهاقنة المجوس وسحرة الهند، كما أسلفنا. وهذه القصص فيها من القدح والاستهزاء بالرسول أكثر من التقدير والإجلال.

(١) سيرة ابن هشام ـ فصل تثبت خديجة رضي الله عنها من الوحي.

وقد امتلأت كتب الإخباريين المسلمين بقصص كثيرة عن معجزات حسية للرسول بعد أن بدأت حركة الكتابة والتدوين، وصلت إلى مئات المعجزات، منها: حديث شق الصدر، وجر الشجر، والتحدث مع الجن، وحنين جذع النخلة، والتنبؤ بالمستقبل، وغيرها من معجزات صورت رسول الله على أنه شخص يعرف في كل مجال من مجالات الحياة أكثر مما يعرفه المختصون فيه.

وبلا شك فكل ما وصفت كتب الأخبار به الرسول لا يعدو كونه خيالاً جامحاً أراد من كتبه أن يضفي على شخصية الرسول هالة من القدسية والعظمة والقدرة، تظهره وكأنه خلق من طينة غير تلك الطينة التي خلق منها البشر. طينة خلطت ببعض القدسية لكي يتمكن من مخاطبة السماء والإحاطة بعلوم ومعارف لا يعلمها البشر العاديون، وفي الوقت نفسه يمكنه أن يعيش كإنسان ويتخاطب مع الناس كواحد منهم[١]. لأن الإنسان منذ الأزل يواجه صعوبة في التصديق باستطاعة إنسان عادي أن يتلقى وحياً من الله، وكان من أهم أسباب عدم قبول الناس في كل العصور دعوة الرسل: قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (يس: ١٥).

ولذلك كان الناس دائماً يطلبون من رسولهم أن يسمح لهم بالكلام مع الله، كدليل حسي يؤكد صحة ما يدعيه الرسول. لأنه (حسب زعمهم) إذا كان الله يكلم الرسول وهو إنسان عادي، فلماذا لا يكلمهم الله أيضاً وهم سادة القوم: وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أو تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (البقرة: ١١٨).

ولكي نتعرف على شخصية محمد الحقيقية لا بد من قراءة ما وصفته به الآيات القرآنية، ونبذ كل ما وصف به في كتب الأخبار.

(١) وهو غلو قريب من غلو بعض اليهود بعيسى ابن مريم عندما نظروا إليه على أنه يحمل صفات بشرية تمكنه من العيش معهم كإنسان وفي نفس الوقت يحمل صفاتاً إلهية من أبيه (الأب) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

محمد في القرآن

. . . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (بني إسرائيل: ٩٣).

يقول القرآن بأن كل الرسل الذين أرسلهم الله للناس اختارهم سبحانه من البشر العاديين: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (الأنبياء: ٧).

ولم يكونوا أنصاف ملائكة: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (الأنبياء: ٨).

لأنه وإن كان بإمكان بعض الملائكة الحضور إلى الأرض والتشكل بهيئة بدنية بما يشبه الإنسان، إلا أنهم لا يأكلون الطعام لأنهم أجسام نورانية ليس لها جهاز هضمي كما للبشر، ولذلك خاف منهم إبراهيم لما قدم لهم العجل ولم يأكلوا منه، لأن من العادات المتبعة زمن إبراهيم ولازالت باقية في بعض مجتمعات شبه الجزيرة العربية أن عدم أكل الضيف لوليمة مضيفة يعني أنه يبيت له شراً، ولو أكل فلا يجوز له إيقاع الشر بالمضيف لأن المشاركة في الطعام تبطل العداوة: وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (هود: ٦٩-٧٠).

ومحمد كغيره من الرسل كان إنساناً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى دون زيادة أو نقص، فقد كان يخطئ ويصيب ويحزن ويفرح ولم يكن يتميز عن غيره من الناس في الصفات الإنسانية بشيء، إلا أنه أكثرهم مسؤولية ومساءلة أمام الله، لأنه

مكلف بتبليغ رسالة ربه، وما عدا ذلك فهو إنسان يطرأ عليه ما يطرأ على غيره من الناس، وهذه بعض التصرفات الإنسانية التي صدرت منه وتحدث بها القرآن:

الرسول والتعامل

بسم الله الرحمن الرحيم. عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمَّا مَنِ استغنى. فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى.

فالآيات تخبرنا أنه في إحدى المرات كان الرسول منهمكاً بالحديث مع أحد كبراء قريش، عن الإسلام، عندما قاطعه أحد أوائل المسلمين، وكان أعمى من المستضعفين، يريد أن يسأله سؤالاً، فما كان من الرسول إلا أن امتعض لمقاطعة الأعمى واستدار بعيداً عنه مواصلاً حديثه مع القرشي أملاً في إسلامه. فجاءه التوبيخ السماوي على فعلته، وليقول له بأن يتعامل بكل احترام وتقدير وترحيب مع أي مسلم، وهو ما بينته آية أخرى: إِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (الأنعام: ٥٤) وأن يحرص على أن يستمع لأي شخص مسلم حتى ولو كان تساؤله ليس جوهرياً، أكثر من حرصه على مجادلة الكفار، لأن الرسول مجرد مبلغ فقط: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فإن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (النور: ٥٤) وليس على الرسول مسؤولية هدى الناس: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء. (البقرة: ٢٧٢).

ومع كل ما تلقاه الرسول من توبيخ إلهي على عدم مقابلته لرجل مقابلة تليق به كمسلم، إلا أن الطبع الإنساني تغلب على الرسول فتصرف مرة أخرى بتصرف فيه غلظة أكثر مما بدر منه تجاه الرجل الأعمى، حيث قام بطرد رجل مسلم: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام: ٥٢).

فجاءه التوبيخ السماوي يبين له بكل وضوح أن الإسلام ليس ملكاً لمحمد، وأن محمداً يجب عليه أن يقابل كل فرد مسلم بما يليق به من حسن استقبال وبشاشة، ليس تفضلاً من محمد ومجاملة، ولكنه واجب ديني، إن لم يؤده

فسيعاقبه الله عليه. فالإنسان بمجرد أن يكون مسلماً حق له أن يعامل بكل لطف وبشاشة واحترام وتبجيل، فقيراً كان أم غنياً.

ومع أن الله قد أودع في نفس الرسول الرحمة واللطف بالمسلمين من خلال تهيئته النفسية التي أخضعه الله لها في بداية الدعوة، إلا أنه سبحانه كرر على الرسول ضرورة التعامل مع المسلمين برفق وبعيداً عن الغلظة أثناء الجهاد، حتى ولو أخطأوا، لئلا يتركوه وحيداً في المعركة: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩).

الرسول لا يعلم الغيب

وكل ما نسب إليه من علم المستقبل ينفيه القرآن: قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ١٨٨) فهو لا يعرف ماذا سيحل به وما سيحل بقومه بعد وفاته ولا بالمسلمين ولا بمقتبل الأيام وما سيطرأ على تعاليم الإسلام. وكل خبر يقول بخلاف ذلك فقد خالف قول الله تبارك وتعالى.

وحتى أخبار الأمم السابقة وما مضى من الأحداث لا يعلم محمد منها إلا ما علمه الله: تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (هود: ٤٩).

وقد تلقى الرسول توبيخاً من السماء لأنه أذن لكل من اعتذر عن الخروج لغزوة تبوك، ولم يكن يعلم من الصادق منهم ومن المخادع: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (التوبة: ٤٣).

فكان الرسول كغيره من البشر بحاجة إلى توجيه: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس: ١٠٥) وإلى تحذير: وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فإن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (يونس: ١٠٦) وإلى بيان: وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (يونس: ١٠٧).

الرسول يضعف ويخطئ ويبكي

وفي بداية الدعوة كان محمد يضعف ويخطئ فيأتيه التوبيخ من السماء: وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتخذوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً. إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (بني إسرائيل: ٧٣-٧٥).

وعندما أحس بموقف قومه المتشدد ضده وطلب منه عمه أن يتخلى عن الدعوة استعبر وبكى، كما جاء في سيرة ابن هشام، في صورة يتجلى فيها الجانب الضعيف للنفس البشرية التي تحتاج إلى الحنان والعطف والرعاية والحماية، فجاء القرآن ليشد من عضده، وليبلغه أنه إن كان قومه أو عمه قد تخلّوا عنه فإن الله لن يتركه وسيبقى معه على الدوام، ولن يهجره أو ينساه: بسم الله الرحمن الرحيم. وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (الضحى: ١-٨).

وعندما يعجز محمد عن إقناع قومه بصدق رسالته كان يظن أن السبب هو عدم قدرته على الإقناع وتقصيره بإيصال رسالة ربه، فنزلت عليه الآيات تقول له بأنه ليس السبب وأنه لا يتحمل مسؤولية استمرار الناس على الكفر على الرغم من سماعهم الدعوة، وأن لا يلوم نفسه على ذلك: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (الكهف: ٦).

الرسول والنساء

وفي مواضيع الجنس اللطيف، يبدو عليه الصلاة والسلام كرجل عادي ينجذب إلى منظر المرأة الجميلة حتى لو كانت زوجة لرجل آخر، فكان القرآن ينزل لينهره: وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (طه: ١٣١).

ومع ذلك فقد كرر محمد النظر في مناسبة أخرى إلى امرأة أخرى، فتكرر النهر والتوبيخ: لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر: ٨٨).

وحتى لا يتكرر توبيخ الله له أصبح يخفي مشاعره الحقيقية لامرأة في عدة طلاقها، وتود أن تتزوجه، بعدما تنقضي عدتها من زوجها الذي طلقها: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ (الأحزاب: ٣٧).

فجاءه التوجيه من الله بأن الزواج من مطلقة رجل آخر، لم يتفقا فيما بينهما، ليست مثل اختلاس النظر إلى امرأة تعيش مع زوجها في مودة وانسجام: فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (الأحزاب: ١٧).

كما أن زواجه بمطلقة زيد الذي كان قد تبناه في الجاهلية فرصة لإلغاء التبني في الإسلام، ولإعلان أن المتبنى لا يلحق بنسب المتبني: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (الأحزاب: ٤٠).

ثم بينت الآيات اللاحقة في نفس سورة الأحزاب ما يحل الزواج به من النساء، للرسول وغيره من الرجال، ومنهن امرأة وهبت نفسها للرسول قد تكون هي زينب بنت جحش زوج زيد بن حارثة السابقة الذكر وقد لا تكون: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (الأحزاب: ٥٠).

شريطة مراعاة العدل بينهن: تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (الأحزاب: ٥١).

وبما أن الرسول كان يعيش وسط مجتمع اعتاد تعدد الزوجات منذ القدم فقد كان الرسول يتزوج ما شاء من النساء مثل غيره، ولكن الإسلام جاء بتشريعات جديدة على الإنسانية في حقل الزواج ستصلح لكل زمان ومكان، ومن ذلك اشتراط العدل لإباحة التعدد: فإِن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً (النساء: ٣).

والعدل بين النساء في كل شيء، صغير الأمور وكبيرها، ومنه تجنب ما يحزنهن كما ورد في الآية ٥١ من سورة الأحزاب التي سبق ذكرها: أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا.

فإن تعذر العدل بكل ما تعني الكلمة من معنى فلا يجوز التعدد.

وفي هذا السياق جاء النهي للرسول بعدم الزواج منذ اللحظة التي نزلت فيه الآية التالية: لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (الأحزاب: ٥٢).

مع إبقائه على من لديه من زوجات تزوجهن بحكم العادة التي كانت سارية في المجتمع، لأنهن فضلن البقاء معه والحرمان من متع الدنيا: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فإن اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

وليس من الحكمة والشهامة أن يجازين بالطلاق بعد ذلك.

فيكون الرسول في عصره تصرف كغيره تماماً من الرجال في التزوج بعدد من النساء، وكغيره من المسلمين خضع لتشريعات الإسلام التي نزلت في آخر عهد الرسالة، والتي وضعت شروطاً قاسية وتكاد تكون مستحيلة لزواج الرجل بأكثر من امرأة واحدة، بالنسبة إلى المسلمين، كما تحظر تلك التشريعات الجديدة على الرسول أن يتزوج مجدداً منذ اللحظة التي نزلت عليه الآية ٥٢ من سورة الأحزاب، كما تحظر عليه الطلاق ممن سبق وتزوج بهن، حتى لا يكون جزاؤهن على البقاء معه مثل جزاء سنمار.

الرسول لا يستطيع أن يشفع عن ذنوبه ولا ذنوب غيره من البشر

وليس لمحمد منزلة فوق البشر ولا يعزم على الله بشيء: قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا (الجن: ٢١) ولذلك فلن يكون له حق الشفاعة عند الله لأحد من الناس، بمعنى الشفاعة الشائع بين الناس.

فهو إنسان مثل بقية بني آدم، إلا أنه أكثرهم مسؤولية أمام الله لأنه حمل عبء توصيل الدعوة للناس بتلاوة ما ينزله الله عليه من قرآن دون أن يكون له حق التصرف في آياته أو معانيها أو أن يقول للناس غير ما يقوله لهم القرآن.

الرسول لم يكن له معجزات حسية

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تؤكد أن الرسول محمداً لم يعط أي معجزة حسية، ومن تلك الآيات للتدليل وليس الحصر: وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (العنكبوت: ٥٠-٥١).

وهو لا يستطيع القيام بمعجزات بنفسه: وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (الأنعام: ١٠٩).

لأنه حتى لو قام الرسول بما طلبوا منه بإذن ربه، فلن يؤمنوا: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (الأنعام: ١١٠).

ولو أنزل الله عليهم أكبر المعجزات الحسية فلن يؤمنوا: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (الأنعام: ١١١).

لأن قريش مثل غيرهم من الأمم السابقة يطلبون من الرسول القيام بمعجزة سخرية وتعجيزاً له فإذا جاءتهم المعجزة التي طلبوها نكروا ولم يؤمنوا: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (بني إسرائيل: ٥٩).

والرسول لم يعط معجزة غير القرآن: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤).

وفي آيات القرآن ما يكفي من العبر لمن يريد أن يؤمن بدين الله، أما من أعرض واستكبر فلن يؤمن مهما أوتي الرسول من معجزات: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (الأنعام: ٧).

ولذلك فلا حاجة إلى نزول المعجزات، مع أنه من اليسير على الله أن يفعل ذلك: وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (الأنعام: ٣٧).

ولذلك لم تنزل معجزة حسية واحدة زمن الرسول.

ويبقى القرآن وحده كافياً لمن يريد أن يشفي نفسه من الكفر: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا (بني إسرائيل: ٨٢).

والقرآن هو المعجز الحقيقي لمحمد ليس بالمعنى الحسي ولكن بالمعنى المعنوي لما يحمله من تعاليم وإرشادات تهدي صاحبها للنجاة من النار: قُل لَّئِنِ اجتمعتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (بني إسرائيل: ٨٨).

والتشريعات التي يحملها القرآن لو طبقت لضمنت لأهلها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، لذا لن يستطيع الإنس والجن مجتمعين من إخراج تشريعات تضمن وعوداً مماثلة لوعود القرآن: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (بني إسرائيل: ٨٩).

وليس بصف جمل مشابهة لجمل القرآن، مثل: أين من بغى وطغى وجمع فأوعى. وقال: أنا ربكم الأعلى. ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول منكم آجالاً. طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية[1]. وغيرها مما يخرج بين الفينة والأخرى على أنه محاكاة لآيات القرآن.

ولكن صدق الله سبحانه وتعالى: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعًا. أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أو تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أو تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً. أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ

(١) بعض ما ورد في كتاب ظهر أخيراً في أمريكا وترجم إلى العربية تحت اسم الفرقان الحق ويحوي سوراً تحاكي سور القرآن بطريقة سطحية.

مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً. قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا. ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا. قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُورًا. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إسرائيل إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (بني إسرائيل: ٩٠-١٠١).

وبما أن محمداً لم يبعث لقريش ولكن قريش كانت من ضمن من دعوا إلى الإسلام، فإن القرآن يؤكد أن محمداً لم يعط أي معجزة حسية واحدة ليظهرها لقريش أو لغيرهم في عصره صلوات الله وسلامه عليه، لأن الإسلام موجه لكل الناس في كل مكان وزمان حتى نهاية البشر، ولذلك حتى لو لم يسلم من قريش أو ممن عاصر الرسول أحد فسيبقى دين الله حتى قيام الساعة: ...فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام: ٨٩).

وبقاء الدين حتى نهاية البشر لا يحتاج إلى معجزات حسية آنية تحدث زمن الرسول بقدر ما يحتاج إلى حقائق مقنعة تبقى لكل الأجيال لمن أراد أن يتدبر. أما الأمم السابقة فقد كان الرسول يرسل لها فقط، وكان تحقيق المعجزة الحسية يتبع بنزول العذاب على من لم يؤمن بعد رؤيته للمعجزة الحسية، ولذا لو نزلت الملائكة في مكة ولم تؤمن قريش لحل بها العذاب: وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ (الأنعام: ٨).

لذلك لم يكن للرسول أي معجزة حسية على الإطلاق على الرغم من امتلاء كتب الأخبار بمعجزات حسية نسبت إلى الرسول ووصل عددها إلى المئات.

الرسول والمشاكل الزوجية

وكما تصرف الرسول بمثل تصرفات رجال مجتمعه في ذلك العصر، فقد كان لا يزيد عنهم بشيء في تصرفاته مع زوجاته. فكانت تحدث له مع زوجاته كل المواقف التي تحدث مع غيره من الناس، فيخطئ مرات ويصيب أخرى: يَا أَيُّهَا

النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التحريم: ١).

ولم يكن بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه مثالياً خالياً من المشاكل الزوجية.

الرسول عبد عليه ما على العبيد وله ما لهم من ثواب وعقاب

ومحمد مأمور بطاعة الله وعبادته كما أمر بقية الناس سواء بسواء: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لأن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (الزمر: ١١-١٢).

وسيتعرض للعذاب لو عصى الله أو كفر: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (الزمر: ١٣-١٤).

ويوم القيامة سيحاسب محمد مثله مثل أي إنسان آخر: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (الزمر: ٣٠-٣١).

ولن ينجو من الحساب هو ولا أي رسول آخر: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الزمر: ٦٥).

هذا باختصار هو محمد بن عبدالله الذي اختاره الله ليكون رسولاً للبشرية جمعاء، والذي بعث بين ظهراني قومه قريش، الذين وقفوا من دعوته موقفاً مشابهاً لمواقف كل الأمم التي لا تريد أن تؤمن. وليس كما ورد في كتب الأخبار من أن الرسول قد غفر له ما تأخر من ذنبه مقدماً.

وليس محمد فقط هو الذي يعتريه كل ما يعتري البشر غيره، ولكن الرسل الآخرين كانوا جميعاً مثله بشر وقد يتصرفون بما يتصرف به البشر: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (الأحقاف: ٩).

فآدم عصى أمر ربه: . . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (طه: ١٢١).

وموسى قتل نفساً: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (القصص: ١٩).

ويونس يئس من إيمان قومه فتوقف عن الدعوة، ظناً منه أن الله سيعذره،

وذهب إلى مكان آخر: وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنبياء: ٨٧).

وداوود تعدى في حكمه: قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (ص: ٢٤).

وإخوة يوسف يمثلون الإنسان بخيره وشره، حسد، إضمار الشر، الميل للعنف والجريمة، السعي للتخلص من المنافس بأي وسيلة، مع أنهم أبناء نبي: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (يوسف: ٨) إضافة إلى الكذب: قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (يوسف: ١٧).

ويوسف ضعف أمام الجنس: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف: ٢٤).

ويعقوب نفسه تطير في لحظة من اللحظات: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (يوسف: ٦٧-٦٨)

وكان يعقوب هو السبب غير المباشر فيما حدث بين أبنائه، نتيجة الزواج بأكثر من واحدة وإنجاب إخوة غير أشقاء فتولدت الضغينة بينهم، نتيجة إحساسهم بالتفرقة في المعاملة من قبل والدهم: إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (يوسف: ٩).

وإن صدقت كتب الأخبار فإن إبراهيم الخليل أبعد هاجر أم ولده إسماعيل، تعاطفاً مع زوجته سارة التي شعرت بالغيرة بعدما تقدمت بها السن ولم تنجب.

ومجمل القول أن محمداً وجميع الرسل، عليهم أفضل الصلاة والسلام، كانوا بشراً عاديين، ولم يكونوا عباقرة ولا مبدعين ولا فلاسفة ولا أطباء ولا مفكرين، وكل ما كانوا يتصفون به هو الاستقامة وكونهم من خيار رجال مجتمعاتهم في

الوسطية ومراعاة الآداب العامة والتمسك بالأخلاق الحميدة، هذا بالنسبة إلى مواصفاتهم بالميزان البشري، أما المواصفات التي بموجبها جاء تكليف الله لهم بتحمل عبء مسؤولية الدعوة لدينه فلا علم لنا بها إلا ما نقرأه عنها في كتاب الله: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران: ٢٦).

والملك هنا لا يعني التسلط الدنيوي على البلاد والعباد، ولكنه يعني النبوة لأنه نفس معنى الملك المعطى لآل إبراهيم: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (النساء: ٥٤) وإبراهيم وأبناءه كانوا عائلة تتوارث الرسالة والنبوة ولم يكونوا ورثة سلطان.

وبما أن الرسل أناس عاديون فقد أخضعوا لبرنامج تأهيل نفسي قاسٍ لكي يكون لديهم قدرة تفوق قدرة الإنسان العادي على تحمل الأذى ومواجهة المشاق التي ستواجههم أثناء دعوة الناس للدين، فسموا بأولي العزم، أي أولي الصبر والتحمل والعزيمة: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (الأحقاف: ٣٥).

فكل رسل الله كانوا من أولي العزم والصبر على الشدائد، مع التمتع بدرجة عالية من الأخلاق الفاضلة، وطول البال: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم (القلم: ٤).

والتحلي بالأمانة العلمية لنقل كل ما يوحى إليهم حرفياً إلى الناس من دون التصرف بعباراته أو إعادة صياغتها أو نقلها بالمعنى أو خلطها بكلام الرسول الشخصي: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (الشعراء: ١٧٨).

والأمانة العلمية نفسها موجودة لدى الملائكة الذين كلفهم الله بنقل نصوص الرسالة إلى الرسول: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (الشعراء: ١٩٣-١٩٤).

ولقد خضع محمد لبرنامج تأهيل نفسي، ليكون كفؤاً لحمل رسالة رب العالمين للناس أجمعين، وليختم الله به أنبياءه إلى يوم الدين. وفي الأسطر المقبة سنتعرف على ذلك البرنامج.

برنامج التأهيل النفسي والإرشاد الإلهي

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (الأحقاف: ٣٥).

القدرة على تحمل أعباء تبليغ رسالة دين الله إلى الناس والجهر بها تحتاج إلى صبر وجلد وتحمل وثقة بالنفس تفوق قدرات الإنسان العادي، ولكي يكون محمد بن عبدالله مهيئاً لتحمّل تلك الأعباء فقد خضع لبرنامج تأهيل نفسي إلهي قاس ومركز. وقد بدأ هذا البرنامج قبل فترة من تلقي الرسول الوحي، وتمثل في رغبته عليه الصلاة والسلام الاختلاء بنفسه في مناطق بعيدة عن العمران مما يلي مكة، ومنها غار حراء، الذي سيختفي من الوجود تحت زحف التقدم العمراني، إن لم يكن قد اختفى فعلاً.

فكان محمد يمكث الساعات الطوال متأملاً، بأوضاع أشبه ما تكون بجلسات اليوغا التي يقال عنها بأنها تعيد الصفاء للذهن وتساعد على التركيز، وقد تكون اليوغا أصلاً نشأت لتقليد جلسات بوذا التأملية قبل أن يوحى إليه.

وعندما أصبح محمداً قادراً نفسياً على الاتصال بالعالم الخارجي، وأثناء إحدى هذه الجلسات التأملية رأى شيئاً يسبح في الأفق، ثم اقترب منه لدرجة تبين معها كل معالمه وهيئته: ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى (النجم: ٦-٩).

وعرف بأنه ليس من مخلوقات الأرض، عندما قدّم ذلك المخلوق نفسه لمحمد على أنه الملك (بفتح اللام) المكلف بإيصال الوحي من الله إلى عبده الذي تم

اختيـاره لـيكـون رسـولاً وهـو أنـت يـا مـحـمـد: فَـأَوْحَـى إلـى عَـبْـدِهِ مَـا أَوْحَـى (النجم: ١٠).

وقد حدث هذا اللقاء فعلاً ولم يكن من تخيلات محمد كما ظن رجال قريش: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (النجم: ١١).

بل إن محمداً رأى نفس الملك مرة أخرى، قرب شجرة سدر في نهاية بقعة شجرية: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (النجم: ١٣-١٦) والسدرة شجرة أرضية وليست كما قال رجال التفسير إنها شجرة يسير بظلها الراكب مسيرة كذا عام وأنها موجودة تحت عرش الرحمن، لأن محمداً مثله مثل أي بشر لا يمكن أن يصل لعرش الرحمن[١].

وقد كانت رؤية الملك حقيقة لا ريب فيها ومن الأمور العظيمة الدالة على قدرة الله والتي لا تحدث للبشر في العادة: مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (النجم: ١٧-١٨)

وكلا اللقائين بالملك كانا في بداية البعثة، لكي يتبلغ الرسول بأن كل ما سيلقاه مسجلاً في ذاكرته من نصوص قرآنية، هو وحي من الله سبحانه. ثم ابتدأ الوحي، الذي يعتقد كثير من الإخباريين المسلمين أنه بدأ بأول خمس آيات من سورة العلق: بسم الله الرحمن الرحيم. اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإنسان مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ. وقد تكون كذلك.

وبعد فترة من تعريف الملاك بنفسه لمحمد الوارد في سورة النجم، نزلت هذه الآيات تطلب من محمد أن يبدأ القراءة: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. أي إبدأ في تلقي الوحي وتلاوته باسم ربك. والقراءة هنا تعني تلقي الوحي وتلاوته وليست القراءة العادية لأن القرأة تتطلب شخصاً يحسن القراءة، ومحمد أمي لا يقرأ ولا يكتب، كما تتطلب نصاً يُقرأ، والوحي نصوص غير مقرؤة ولكنها تحفظ في ذاكرة الرسول، والمحفوظ في الذاكرة يقرأ على شكل تلاوة ولا يقرأ بمعنى نطق الحروف المكتوبة.

(١) وقد فصلنا الحديث عن ذلك في موضوع الوحي.

فجاء الأمر لمحمد باسم ربه بأن يستعد لتلقي الوحي وتلاوته كما هو على الناس، وللتأكيد لمحمد بأن ربه هو خالق البشر وليس أي رب آخر، كتلك الآلهة التي تعرفها قريش والتي هي ذاتها مخلوقة.

وعلم بالقلم لا يعني ما تخيله بعض المفسرين من أن الله خلق قلماً وقال له أكتب، وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض... إلى آخر تلك الحكايات التي نسبت إلى الله من دون علم في كتب التفسير القديمة[1].

ولكن القلم هنا ما يستخدمه الإنسان للكتابة، ويكون معنى الآية هو أن الله ألهم الإنسان تعلم القراءة والكتابة، مثلما ألهمه تعلّم أمور حياتية كثيرة كان يجهلها.

وفي غياب تام لسجلات تسجل بالدقة تاريخ نزول كل آية على الرسول، فإن الجزم بتسلسل تاريخي لنزول آيات القرآن يقرب من الاستحالة.

ولكن، من الواضح أن الآيات السبع الأولى من سورة المدثر كانت من أول ما نزل من الوحي. لأنها تأمر الرسول بالبدء بالدعوة، أي أن الدعوة لم تكن قد بدأت قبل نزول قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وهذا بحد ذاته يخالف رأي بعض المفسرين الذين يرون أنها نزلت بعد سورة المزمل، التي يلاحظ أن الآية العاشرة والآية الحادية عشرة منها تدلان على أن الدعوة قد بدأت، والتي تقول: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. لأنه لن يكون هناك أذى للرسول وعليه أن يصبر قبل الدعوة، ولن يكون هناك مكذبون بالدعوة قبل بدئها.

ولا يعني بالضرورة أن الرسول قد بدأ دعوته سراً، كما تقول كتب السير والأخبار الإسلامية، ثم جهر بها في وقت لاحق بعد أن كثر المسلمون وقويت شوكتهم. لأن المسلمين كانوا قليلاً مستضعفين ومضطهدين، ولم تقو شوكتهم أبداً في مكة.

كما أنه لم يكن هناك داعٍ لأن تبدأ الدعوة بشكل سري، لأنها لا تدعو إلى تنظيمات خاصة تريد أن ينجذب لها أناس معينون. ولكن هذا لا يمنع من أن

---

(١) انظر على سبيل المثال تفسير القرطبي للآية الأولى من سورة نون.

الرسول قد يكون بدأ دعوته لكل فرد على حدة وليس بشكل جماعي لكل رجال قريش في وقت واحد.

فيكون نزول أول سورة المدثر على الرسول، بداية لدعوة قريش وغيرهم إلى الإسلام، بعد أن كانت كل الآيات التي نزلت على الرسول قبلها تدخل ضمن برنامج التأهيل النفسي: بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر.

والآيات تطلب من الرسول البدء بإنذار الناس بأن الله أكبر مما يعبدون من أوثان والتوجه بالعبادة له سبحانه، كما تطلب الآيات من الرسول أن يتحلى بالصبر على ما سيواجهه من شدائد ومحن أثناء دعوته.

وكجزء من التأهيل النفسي لتحمل المشاق، أمر الرسول بالصبر والصلاة والإكثار من التسبيح وذكر الله، حتى يكون جاهزاً للقيام بأعباء الدعوة وما فيها من عنت ومشقة وصعوبات وليكون قادراً على تحمل ما قد يتعرض له من استهزاء وسخرية، وأذى نفسي وبدني، وما قد يسمعه من كلام بذيء.

وبما أن أكثر ما يشحذ الهمم على الصبر هو الإيمان بصدق العقيدة، فقد أمر الرسول باللجوء لاستحضار الله في النفس كلما ضعفت المعنويات، والإكثار من ذكر الله والتسبيح له في أي وقت من الليل أو النهار حتى يبقى متذكراً على الدوام أن ما يقوم به إنما هو تكليف من الله وأنه مهما جوبه من رفض وتسلط واستهزاء فلن يؤثر على معنوياته أو يحبطه أو يوقفه عن الاستمرار في دعوته: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (الطور: ٤٨-٤٩).

كما أمر الرسول بتلاوة القرآن في الليل بجانب التسبيح، وهو ما نزلت به أول سورة المزمل: بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلً. نِصْفَهُ أو انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أو زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً. إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتخذهُ وَكِيلاً. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا.

وهذه الآيات تحمل أمراً للرسول بأن عليه تغيير روتين حياته اليومية ليتواءم مع ما كلف به من مسؤوليات عظام تحتاج إلى تركيز ذهني كبير جداً. فعليه أن يمضي ما يستطيع من ساعات الليل متيقظاً يقرأ ما سبق ونزل عليه من الآيات، لأن سكون الليل يساعد على التركيز في القراءة والتدبر، وهذا التركيز سيساعد على قوة التحمل والجلد الذي سيحتاج إليه الرسول لمواجهة المشاق والتعب الذهني والبدني المصاحب للدعوة التي ستشغل نهاره بكامله: إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً. فالسبح يعني السعي الشاق المبذول في تبليغ الناس.

وسيشعره ذكر الله وتسبيحه المستمر أن الله معه، وهذا سيمده بالطاقة النفسية اللازمة حتى لا يهن ولا يضعف أو يحس بالفشل لموقف قريش الرافض لدعوته.

لأن من أسباب نجاح توصيل الرسالة للناس هو سمو أخلاق الداعية إلى ما فوق المستوى العادي للإنسان، بحيث لا يستثار ولا يغضب ولا يكل ولا يمل ولا ييأس مهما واجهه من مصاعب وكلام بذيء أو أصابه من أذى بدني أو نفسي.

ولذلك نجد أنه في مرحلة متأخرة من حياة الرسول، جاء العفو من الله عن ذلك القيام لقراءة القرآن، لأن الأمر به في بداية الدعوة كان للتهيئة النفسية، وقد انتفى هذا الغرض بعدما قويت شوكة الإسلام: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (المزمل: ٢٠).

ومن الواضح أن هذه الآية نزلت في المدينة، لأنها تحث على الجهاد الذي لم يفرض إلا بعد الهجرة. وقد نزلت لإعفاء الرسول ومن يكون قد شاركه من المسلمين، من أهل بيته، عن قيام الليل لقراءة القرآن، مراعاة لظروف الناس في ذلك الزمان وفي كل زمان لاحق، لأنه لو فرض قيام الليل فسيكون تنفيذه صعباً على المريض وعلى كل من يطلب كسب القوت في النهار، إضافة إلى أنه سيجهد

الناس عن أداء أعمالهم الحياتية اليومية سواءً منها الأعمال الدنيوية أو الأعمال الدينية الأخرى.

والاستعاضة عن قراءة القرآن أثناء الليل، بقراءة ما تيسر من آيات ولو كانت قليلة في أي وقت فراغ في النهار، متى كان ذلك مستطاعاً، ومن دون إلزام. مع المحافظة على أداء الصلوات المفروضة، وإيتاء الزكاة والحرص على الإنفاق، الذي هو أشمل من الزكاة بمعناها المتعارف عليه، والذي يدفع لسد احتياجات المسلمين المختلفة، والذي هو عبارة عن قرض لله، وكلما زاد الإنفاق العام كلما زاد رصيد المرء من الحسنات عند الله، ويضاف لهذه الأعمال الإكثار من الاستغفار وذكر الله في أي وقت.

وبالعودة إلى برنامج التأهيل النفسي للرسول في بداية الدعوة، نجد أنه بعد الأمر السابق بقيام الليل لقراءة وتدبر القرآن، جاء أمر الرسول بالسجود في الليل، أي بأداء بعض الصلوات بجانب المداومة على ذكر الله والتسبيح: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً. فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً. إِنَّ هَؤُلاَء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (الإنسان: ٢٣-٢٧).

ثم أمر الرسول بالصلاة في النهار أيضاً: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا. وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا. وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا (بني إسرائيل: ٧٨-٨٢).

وهذه الصلوات التي أمر بها الرسول في بداية الدعوة لم تكن هي الصلوات الخمس، ولكنها صلوات تؤدى في أي وقت من الليل كما جاء في الآيات السابقة من سورة الإنسان، وفي أي وقت من الأوقات التي تمتد من دلوك الشمس، أي شروقها أو زوالها، حتى وقت الغسق بعد غياب الشمس، كما جاء في الآيات السابقة من سورة بني إسرائيل.

ومع أن هذه الأوقات تقع ضمنها أوقات الظهر والعصر والمغرب إلا أن الأمر

هنا ليس المقصود به إقامة الصلوات المفروضة، لأنها خمس صلوات وليست ثلاثاً فقط، ولأن الرسول أمر بأن يكتفي بالتهجد بتلاوة القرآن دون الصلاة في الوقت الذي صار بعد ذلك وقتاً لصلاة الفجر، ولأن هناك صلاة للعشاء بعد غسق الليل الذي ذكرت الآية أنه آخر وقت لتلك الصلوات اليومية التي طلب من الرسول أداؤها في بداية الدعوة، ولأن الصلوات الخمس فرضت على الرسول وكافة المسلمين، ولم تكن خاصة بالرسول، كهذه الصلوات.

وهكذا أمر الرسول بتأدية صلوات في الليل وصلوات في النهار، وبالصبر على الشدائد وكثرة التسبيح وذكر الله مع إرشادات أخرى ضمن برنامج التأهيل النفسي والإرشاد الإلهي: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلاَ تَرْكَنُواْ إلى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فإن اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (هود: ١١٢-١١٥).

ومن الواضح أن طرفي النهار ليس المقصود بهما صلاتي الفجر والمغرب، لأن الأولى يجب أن تؤدى قبل طلوع النهار، أي في الطرف الأخير من الليل، والثانية بعد غروب شمس النهار، أي في الطرف الأول من الليل. ولا يقصد بهما صلاة الظهر التي تؤدى في منتصف النهار، ولا صلاة العصر التي تؤدى في منتصف ما بعد الظهيرة، أي في منتصف الوقت بين وسط النهار وغروب الشمس.

أما الزلف من الليل، بصيغة الجمع، فتعني عدة صلوات في أوقات مختلفة من الليل دون تحديد لأوقاتها وركعاتها، ولا تعني صلاة العشاء لأنها صلاة جاءت في القرآن صريحة بوقت محدد: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (النور: ٥٨).

وتأكيداً على أن الصلوات المذكورة كانت وقفاً على محمد، أن الرسول عندما أمر بالاستقامة، شمل الأمر من معه من المسلمين: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ

مَعَكَ. بينما أمر بالصلاة في الآيات التي تلت لوحده: وَأَقِمِ الصَّلاَةَ. ولم يؤمر بها أولئك المسلمون الأوائل الذين آمنوا بالرسول في تلك المرحلة المتقدمة من تاريخ الإسلام.

ومن ثم في مرحلة لاحقة من بداية الدعوة، أمر الرسول وأمر أهله معه، دون بقية من كان قد أسلم، بأداء تلك الصلوات غير المحددة: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه: ١٣٢) ضمن آيات بدأت بأمره بالصبر على أذى قريش بكثرة التسبيح: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (طه: ١٣٠).

وقد تكرر أمر الرسول بالصلاة والتسبيح: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (ق: ١٣٩-١٤٠).

وعندما أصبح الرسول جاهزاً ذهنياً ونفسياً وبدنياً، جاءه الأمر الإلهي: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين (الحجر: ٩٤) ضمن آيات تدعو الرسول إلى الاستمرار في برنامج التأهيل النفسي: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (الحجر: ٨٧-٩٩).

والملاحظ أن كل سورة الحجر البالغ عدد آياتها ٩٩ آية، نزلت في سياق التأهيل النفسي ذاته للرسول، فبينت أن موقف قريش ومطالبهم مشابه لمواقف ومطالب الأمم السابقة، وأن هناك من الدلائل العقلانية ما يكفي لإيمان قريش لو أرادوا تحكيم عقولهم، ويكفيهم التفكير في أنفسهم ومم خلقوا، وكيف أن الشيطان يعمل على غواية البشر منذ خلقهم الله لأنه نفسه قد طرد من رحمة الله، وتعمل آياتها على الشد من عضد الرسول وتقوية إرادته على الصبر والصمود.

ويستمر نزول الوحي ويستمر الرسول في دعوته ويستمر البرنامج الإلهي للتأهيل النفسي ليشعره بأن الله معه. وبما أن محمداً بشر قد يطرأ عليه ما يطرأ على البشر من ضعف ويأس فقد جاءت الآيات تحثه على عدم اليأس مهما واجه من متاعب، ومهما سخر الناس من دعوته، حتى لا يفعل مثلما فعل صاحب الحوت: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (القلم:٤٨).

وقد ورد في سورة الأنبياء أن يونس في لحظة ضعف، غضب مما لقيه من تعنت قومه واستمرارهم على الكفر على الرغم من وضوح براهين الحق التي تحملها دعوته، فما كان منه إلا أن ترك الدعوة وخرج من بلاد قومه، فعاقبه الله على عدم صبره: وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (الأنبياء:٨٧-٨٨) ومعنى ظن أن لن نقدر عليه هنا، أنه ساوره شعور بأن الله لن يحاسبه على ترك دعوة أولئك القوم الذين فضلوا البقاء على الكفر على الرغم من كل البراهين التي لا يمكن إنكارها التي قدمها لهم على صحة دعوته.

وتنزل سورة الأعلى لتكرر أمر الرسول بالتسبيح والتفكر بعظمة الخالق عن طريق تأمل خلقه الذي أحسن صنعه، وأن يكون مطمئناً بأنه لن ينسى ما يوحى إليه من القرآن، لأنه سيحفر في ذاكرته بطريقة لن ينسى معها حرفاً واحداً منه مهما طال عليه الزمن، وأن الله سيعينه على ما يواجهه من متاعب أثناء دعوته، وما عليه سوى التذكير. فمن يخاف من النار فسيؤمن، ومن يصد عن الدعوة فسيشقى في جهنم، بينما سيجزى المؤمن بالجنة. وفي ختام السورة يذكّر محمداً بأن الدين الذي يدعو الناس إليه، هو نفسه الدين الذي حمله إبراهيم ومن بعده موسى: بسم الله الرحمن الرحيم. سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى. سَنُقْرِؤُكَ فَلاَ تَنسَى. إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى. وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى. فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى. سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى. ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى. قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إبراهيم وَمُوسَى.

ومثلها سورة الضحى التي لم تكن تتحدث عن أن الوحي هجر محمداً لفترة طويلة فقلق محمد من أن يكون الله قد هجره (نسيه) كما ورد في كتب التفاسير والحديث[١]. ولكنها نزلت لتشد من عضد رسول الله وتطمئنه بأن الله معه في مسيرته الصعبة لتبليغ الرسالة، وتذكره ببعض نعم الله عليه، وترشده إلى بعض الآداب والمعاملات التي يجب أن يتحلى بها: بسم الله الرحمن الرحيم. وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

وبمثل سورة الضحى نزلت سورة الشرح: بسم الله الرحمن الرحيم. أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ. فإن مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ.

وهناك الكثير من الآيات التي نزلت في سياق برنامج التأهيل النفسي ذاته للرسول، مما مكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الاستمرار في الدعوة بجهد لا يعرف الكلل، على الرغم من استمرار كبراء قريش في كفرهم، مثلهم مثل كبراء أي أمة سبقتهم أو ممن ستأتي بعدهم، فهيأ الله لدينه من ينصره من غيرهم: . . .فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام: ٨٩) وذلك على يد أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج اليمنيتي الأصل. فخرج صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى تلك المدينة التي عرفت بمدينة الرسول منذ ذلك العهد. وسوف يهيئ الله لدينه من ينصره في كل العصور.

ومع أن الرسول، وبفضل برنامج التأهيل الإلهي، قد ارتفعت حالته المعنوية باطمئنانه لمساندة الله له، وأصبح أكثر قدرة على تحمل أي مصاعب قد تواجهه في سبيل نشر الدعوة، إلا أن هذا لم يخرجه عن صفته البشرية، فبقي إنساناً بكل ما تعني الكلمة من معنى وبكل ما يعتري الإنسان من ضعف وأحاسيس: وَمَا مُحَمَّدٌ

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة الضحى على سبيل المثال.

إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران: ١٤٤).

ومحمد مثله في ذلك مثل كل الرسل السابقين، بمن فيهم عيسى ابن مريم الذي خلق من دون أب، ومع ذلك بقي بشراً يجوز عليه ما يجوز على البشر، دون زيادة أو نقص: مَا الْمَسِيحُ ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيات ثُمَّ انظر أَنَّى يُؤْفَكُونَ (المائدة: ٧٥).

وفي الباب التالي ستتعرف على موقف الناس من دعوة محمد.

مصادر الباب

- القرآن الكريم.
- موطأ مالك/ مالك بن أنس/ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- كتاب البخاري/ البخاري/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- كتاب مسلم/ مسلم/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- سيرة ابن هشام/ ابن هشام/ دار المعرفة ـ بيروت.
- تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.
- الكامل في التاريخ/ ابن الأثير/ بيت الأفكار الدولية ـ بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

الباب الخامس

موقف الناس
من دعوة محمد

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ (الفتح: ٢٨).

* اليهود قدموا إلى يثرب أولاً وقد يكونون هم من أدخل زراعة النخيل إليها، ثم قدم الأوس والخزرج وعملوا كأجراء لليهود في مزارعهم.
* أسلم الأوس والخزرج لأنهم كانوا يمثلون الضعفاء والمضطهدين، وقد تأخر بعض زعمائهم لأن لهم مصالح ظنوا أنهم سيفقدونها لو آمنوا. ودخل بعضهم الإسلام دون أن يؤمن به واستمروا على حالهم من إظهار الإيمان وإبطان الكفر حتى ماتوا.
* لم يؤمن اليهود بدين الإسلام، ولم يكن من المتوقع أن يؤمنوا، لأن اليهود كانت لهم مصالح دنيوية وكانوا يمثلون الكبراء، والكبراء لا يؤمنون بدعوات الرسل بناءً على قانون سنة الأولين الذي سارت عليه الأمم منذ وجدوا على الأرض.
* وبناء على قانون سنة الأولين أيضاً كانت الخاتمة للرسول ومن آمن معه وتم سحق اليهود ونفيهم من الأرض لأنهم شاقوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً عندما عملوا على حياكة المؤامرات ضد المسلمين والسعي للقضاء على الإسلام وليس لأنهم لم يؤمنوا.
* تم إجلاء اليهود من يثرب في ثلاث مناسبات، ولكن القرآن يخالف كتب الأخبار في تاريخ تلك المناسبات وما حدث فيها.

* نزح بعض من يهود يثرب بعد جلائهم إلى خيبر واستمروا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، مما تسبب بغزو خيبر.

* لم يحدث قتال بين اليهود والمسلمين في خيبر، لأن اليهود نزلوا على حكم المسلمين الذين حاصروها، فأجلي منها من نزح إليها من يهود يثرب، وفرض على يهودها الجزية لأنهم نقضوا عهدهم مع الرسول.

* غزوة تبوك كانت لملاحقة فلول يهود يثرب الذين استمروا في مؤامراتهم ضد المسلمين، ولم يحدث بها قتال، لأن اليهود قد غادروها قبل أن يصلها جيش المسلمين.

* المنافقون بقوا في المدينة بعد وفاة رسول الله، وإن خرست ألسنتهم في آخر أيامه عليه الصلاة والسلام.

* كتب السير والتاريخ والحديث وغيرها من كتب الإخباريين تجنت كثيراً على الرسول عليه الصلاة والسلام ونسبت إليه من الأفعال ما لا يعقل.

سبق وذكرنا في الباب الثاني ـ موقف الناس من الدين عبر العصور ـ أنه بناءً على قانون سنة الأولين الذي ذكر في القرآن الحكيم، فأي دعوة لرسول من رسل الله الكرام، كانت تمر بأربع مراحل لا تتغير أبداً، وهي: مرحلة استقبال الناس للدعوة، ومرحلة استمرار الدعوة، ومرحلة نهاية المعارضين وانتصار الرسول ومن معه، ثم مرحلة تحول الناس عن الدين. وفي الباب الثالث أخبرنا القرآن الكريم كيف تحول بنو إسرائيل عن الدين، وقد بدأ تحولهم وموسى لازال حياً بينهم، وكيف أن الله عذبهم في هذه الدنيا بالتشتت والاضطهاد وسلط عليهم الأمم، ولم يهلكهم بحادثة واحدة كما حدث للأمم السابقة، لأن الله قد اختارهم لحمل دينه وأنزل عليهم كتابه، ولكنهم لم يرعوا المسؤولية ولم يحملوا الأمانة، ورغبوا عن كتاب الله إلى تشريعات رجال دينهم. وفي هذا الباب سنرى أن مواقف الناس من دعوة محمد بن عبدالله القرشي لم تختلف عن موقف أي أمة من الأمم السابقة من رسلها، ولكنها أيضاً شابهت موقف بني إسرائيل أكثر، فقد أنزل الله على رسوله محمد كتابه القرآن ليحمله المسلمون لهداية البشر، كما نزلت التوراة على بني إسرائيل.

فهل حمل المسلمون الأمانة الإلهية، أم أنهم أخفقوا، وبالتالي تعرضوا لعقوبات مشابهة لعقوبات اليهود، لأنهم «أشبه الناس سمتًا وهديًا ببني إسرئيل، وليسلكن طريقهم حذو القذة بالقذة». كما ورد في الخبر الذي أورده ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٣١٦٧)، وأوله: حدّثنا وكيع عن سفيان عن أبي قيس عن هزيل قال: قال عبدالله. . .

وسنبدأ بالحديث عن موقف أهل يثرب، الأزد منهم واليهود، ثم موقف أهل خيبر، يلي ذلك موقف أهل مكة، فموقف أهل الطائف، ثم موقف بقية قبائل شبه جزيرة العرب. وفي نهاية هذا الباب سيتضح لنا كيف أن قانون سنة الأولين كان

وراء عدم إيمان أهل مكة والطائف ويهود يثرب وخيبر وبقية قبائل جزيرة العرب، بينما رحب مستضعفو مكة والأوس والخزرج فقط بدعوة الرسول. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (الأحزاب: ٦٢).

يثرب

كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. ذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (الدخان: ٢٥-٢٨).

يثرب قديمة التاريخ، ولكن تاريخها ليس مكتوباً، وبالتالي فلا يعرف عنه إلا أقل القليل مما ترويه كتب الأخبار التي دونت في القرن الثاني والثالث الهجري، والذي لا يمكن أن يركن إلى صحته. وعندما بعث رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، كان يقطنها يهود ويجاورهم بعضٌ من الأزد. ويتوزع اليهود على ثلاث قبائل هم، بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، كما يقول الإخباريون، يسكنون القلاع والحصون ويمتلكون مزارع النخيل التي اشتهرت بها يثرب. فيما كان يسكن خارج القلاع اليهودية وبالقرب من المزارع فخذان من قبيلة الأزد هما، الأوس والخزرج. وهذا الوضع يؤيد الرأي السائد بأن اليهود قد سكنوا يثرب أولاً، وإن كان غير معروف متى كان ذلك، ولا من أين أتوا بالتحديد.

وإذا كان من المحتمل أن موطن اليهود الأصلي هو جنوب جزيرة العرب[1]،

---

(١) وهو ما يؤيده القصص المذكورة في القرآن، مثل قصص إبراهيم الذي قام ببناء أو إعادة بناء الكعبة، وقصة سليمان والهدهد الذي يؤكد أن مملكة سليمان كانت مجاورة لمساكن سبأ، وفي نطاق قدرة الهدهد على الطيران إليها في نصف يوم أو أقل والرجوع. وكون كل الأنبياء الذين ذكروا في القرآن من شبه الجزيرة، واستقرار اليهود على طول الطريق المؤدية بين اليمن والشام، مما يعني أنهم نزحوا من اليمن باتجاه الشمال واستقر بعضهم في المدينة وخيبر والعلا حيث الماء واستزرعوها، بينما واصل البعض النزوح إلى الشام وشمال أفريقيا. والهجرات تكون من اليمن إلى الشمال وليس العكس، ولازال هناك يهود في اليمن وجنوب غرب الجويرة. وكون جنوب جزيرة العرب هو الموطن الأصلي لليهود يؤكده الدكتور كمال سليمان الصليبي في كتابيه: التوراة جاءت من جزيرة العرب وخفايا=

فقد يكون أيضاً هو الموطن الأصلي لزراعة نخيل التمور، ومنها خرجت تلك الزراعة مع الذين نزحوا من تلك المناطق إلى عُمان واليمامة والأحساء والعراق، ويثرب والعلا ومصر وشمال أفريقيا. ويكون الاحتمال أن يهود يثرب الذين نزحوا من جنوب جزيرة العرب، كانوا أول من أدخل زراعة النخيل إلى يثرب.

ولما نزح الأوس والخزرج بعد ذلك، من جنوب الجزيرة أيضاً، ووصلوا إلى يثرب، وافقوا على العمل لدى اليهود في مزارع النخيل، لأنهم كانوا مزارعين في الأصل، بحكم طبيعة جنوب غرب جزيرة العرب الزراعية.

وهكذا أصبح الأوس حلفاء وعمالاً لبني قريظة وبني النضير، والخزرج حلفاء وعمالاً لبني قينقاع، كما يقول الإخباريون. ومع مرور الوقت تزايدت أعداد الأوس والخزرج، وتزايد معها التنافس على فرص العمل المحدودة، مما أدى إلى ظهور الشحناء والنزاعات بينهم، التي تطورت إلى صدامات مسلحة، سواء بسبب التنافس على العمل كأجراء لدى اليهود، أو التنافس على امتلاك الأراضي البور القليلة التي لم يستولِ عليها اليهود والتي يمكن أن تصلح لزراعة شحيحة.

ويسجل المؤرخون عدداً من تلك النزاعات المسلحة بين الطرفين التي وقعت قبيل ظهور الإسلام، ومنها: حرب سمير، وحرب حاطب، ووقعة جحجبا، وموقعة السرارة، وموقعة الحصين بن الأسلت، وموقعة فارع، ويوم الربيع، وموقعة الفجار الأولى والثانية، وموقعة معبس ومضرس. وكان آخرها وأشرسها يوم بعاث، الذي كاد أن يدق بين الطرفين عطر منشم[1].

وفي ما يأتي سنرى كيف كان موقف الأوس والخزرج ثم موقف اليهود من الإسلام.

=التوراة، ويؤيده أيضاً خلو بلاد فلسطين من أي آثار قديمة لليهود، وخلو الكتابات المصرية من ذكر اليهود في مصر والتي كانت تسمى (طاوي) أيام الفراعنة وليس مصر، ويكون الفرعون الذي غرق، حاكماً إقليمياً مصرياً لمناطق في جنوب غرب الجزيرة كمستعمرات تابعة لمصر الفرعونية (انظر ملحق الإسراء والمعراج)

(١) يقال في المثل: أَشْأَمُ مِنْ عِطْرِ مَنْشِمَ. يضرب في الشر العظيم.

الأوس والخزرج

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ٦٣).

عندما بعث رسول الله صلوات الله وسلامه كانت النزاعات المسلحة بين الأوس والخزرج تأكل خيرة رجالهم، وتيتم أطفالهم وترمل نساءهم، ولم يستطيعوا أن يجدوا صلحاً يرضي الطرفين، لأن دوافع الشحناء تتمثل في التنافس على لقمة العيش. ولم يسجل التاريخ أن الأوس والخزرج كانوا يعيشون على النهب والسلب مثل القبائل البدوية في نجد وشرق وشمال جزيرة العرب، لأنهم في الأصل زراع مستقرون في بلادهم الأصلية جنوب غرب الجزيرة، ولما نزحوا منها لظروف قاهرة، قد تكون كوارث طبيعية أو صراعات سياسية، واستقروا في يثرب، مارسوا مهنة الفلاحة التي يجيدون.

وبالإضافة إلى الحروب في ما بينهم، كانوا يعيشون حياة فقر وبؤس وعوز، لأن مداخيلهم من العمل كأجراء في مزارع اليهود، أو من مزارعهم الشحيحة لا تدر عليهم ما يكفي لحياة كريمة.

وكانوا يلقون العنت من المعاملة الدونية والمتسلطة والقريبة من معاملتهم كعبيد من قبل اليهود الذين يملكون الأراضي الخصبة والأموال الطائلة والحياة المترفة، ولم يكن بإمكان الأوس والخزرج الثورة ضد أسيادهم ولا حتى إظهار الكراهية لهم، أو التذمر من معاملتهم، خوفاً من أن يحرمهم اليهود من العمل في مزارعهم. وهو وضع مشابه لأوضاع العمال السود الذين كانوا يعملون في مزارع الأوربيين في جنوب أفريقيا وروديسيا أيام الاستعمار.

وفي هذا السياق ينقل ابن كثير عن ابن إسحاق أن الأوس والخزرج كانوا يمنون النفس في مجيء يوم يتخلصون فيه من اليهود وتسلطهم، يقول ابن كثير: قال ابن إسحاق: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهلَ شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلّ زمانُه نتّبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرمَ (البداية والنهاية الجزء ٢ الصفحة ١٤٠).

وبطبيعة الحال لم يكن الأوس والخزرج يعلمون بظهور النبي مسبقاً، ولكن كانوا على استعداد لأن يفعلوا أي شيء ويتحالفوا مع أي أحد للتخلص من اليهود، في الوقت الذي سمعوا فيه أن هناك رجلاً من قريش يدعو إلى دين الله وتأسيس دولة للإسلام. فخرج وفد من يثرب، كما يقول الإخباريون، والتقوا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويصف ابن كثير في البداية والنهاية كيف حدث ذلك، بقوله:

باب بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيّه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟ قالوا: نعم قال: أَفَلاَ تَجْلِسُونَ أُكَلِّمْكُمْ؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. انتهى[١].

وليس بالضرورة أن ما روته كتب الأخبار قد حدث بالفعل، فقد يكون وفد أهل يثرب هم من بادر إلى لقاء رسول الله، وأنهم بعد أن استمعوا إليه، رجعوا إلى المدينة لبحث الأمر مع قومهم، وقد استقر رأيهم على أمر معين فعادوا للقاء الرسول في العام القابل لإبلاغه بموقفهم.

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص١٤٨.

وقد حضر وفد كبير منهم، يقول الإخباريون أنه مكون من امرأتين وسبعين أو ثلاثة وسبعين رجلاً. تم اختيار اثني عشر نقيباً (ممثلاً) لهم لمناقشة الرسول حول أوضاعهم فيما لو دخلوا الإسلام، وليس كما تظن كتب الأخبار أن النقباء كانوا لمبايعة الرسول على الإسلام نيابة عن المجموعة، لأن الدخول في الإسلام يجب أن يقوم به كل شخص عن نفسه، ولا يمكن أن ينوب غيره عنه.

والنقباء الاثنا عشر يمثل الأوس منهم رجلين هما عويم بن ساعدة وأَبو الهيثم مالك بن التيهان، ومن الخزرج عشرة رجال هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعَوْف بن الحارث، وأخوه مُعَاذ وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك. وذكوان بن عبد قيس بن خَلَدة بن مُخْلِد بن عامر بن زُرَيْق الزرقي، وعُبَادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وحليفهم أبو عبد الرَّحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم البلوي، والعبّاس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن يزيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج العجلاني، وعقبة بن عامر بن نابي، وقطبة بن عامر بن حديدة[١].

وقد انتهت المناقشات بما يرضي اليثربيين، ويبشرهم بمستقبل أكثر إشراقاً من وضعهم الذي هم عليه، فبايعوا رسول الله على الإسلام، بما عرف ببيعة العقبة، قبل أن يرجع الوفد إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام ويفقههم في الدين (البداية والنهاية ج٢ ص١٤٨).

وقد يكون الرسول بعث مصعب بن عمير ليؤمهم في الصلاة ويقرئهم القرآن، استجابة لطلب الوفد، وهذا ما يفهم مما نقله ابن إسحاق بقوله: فنزل مصعب على أسعد بن زرارة فكان يسمى بالمدينة المقرئ، قال ابن إسحاق: فحدَّثني

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٦٥.

عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض رضي الله عنهم أجمعين[١]. اهـ.

والأوس والخزرج في يثرب كانوا يمثلون الضعفاء والمستضعفين مقابل الكبراء اليهود، ولذلك قبل غالبيتهم الدخول في الإسلام بحثاً عن حياة أفضل. بينما تباطأ بعض المنتفعين منهم في الدخول إلى الإسلام، ولم يكونوا ممن وفد على رسول الله في مكة، لأنهم لم يكونوا متأكدين في البداية من أن وضعهم سيكون مع الإسلام أفضل مما هو عليه قبله.

ولكن الإسلام انتشر بسرعة بين الأوس والخزرج مما دفع بأولئك إلى الانضمام لركبه لاحقاً، وإن اختلفت نواياهم. ولم يعد بعض الإخباريين سعد بن عبادة، أحد زعماء الخزرج، فيمن حضر بدراً، مما قد يعني أنه لم يسلم إلا بعد تلك المعركة، والتي أثبتت عملياً أن الإسلام سيكون له اليد الطولى على قريش، وعلى كل من يعاديه.

ويظهر التاريخ أنه عندما توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ظهرت طموحات سعد بن عبادة للزعامة عندما سارع إلى سقيفة بني ساعدة لدعوة الناس لانتخابه زعيماً لدولة الإسلام بحجة أن أغلب أهل المدينة من الخزرج، وأهل المدينة هم من ناصر الرسول وعلى أكتافهم قامت دولة الإسلام، وقد كان الحباب بن المنذر من أشهر المؤيدين له، وهو الذي جادل أبا بكر في ذلك اليوم بقوله: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منّا أمير ومنكم أمير[٢].

ولكن الرياح سارت بما لا يشتهي الخزرج، وتغلب حزب المهاجرين على الخلافة، فخرج سعد مغاضباً وأقسم ألا يجتمع بهم ولا يحج بحجهم، وقد فعل حتى هلك في خلافة عمر في بلاد الشام، وقد فصلنا الحديث في هذا الموضوع في فصل سقيفة بني ساعدة.

وممن فقد زعامته السياسية بسبب الإسلام، عبدالله بن أبي بن سلول، الذي يقول عنه ابن هشام في سيرته «أن قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٦٥.
(٢) المصدر السابق ج٤ ص١٤١.

عليهم»[١]. ولكن انتشار الإسلام في يثرب حول الناس عن مناصرته، فاضطر لإشهار إسلامه بعد أن قويت شوكة الإسلام، ولم يعد يملك القدرة على مقاومته أو إظهار العداء له، ولو أنه لم يؤمن بالدين الجديد الذي حرمه الزعامة، وبقي على كفره حتى مات، يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق: وأما عبدالله بن أبي فأقام على شرفه في قومه مترددا، حتى غلبه الإسلام، فدخل فيه كارهاً[٢].

ومثل ابن سلول كان هناك رجل آخر قد كوّن لنفسه زعامة دينية، وخسرها بسبب الإسلام أيضاً، وهو جزاء بن صيفي، الذي يقول عنه ابن هشام إنه كان يسمى الراهب لكثرة تدينه، وأنه قد قابل رسول الله عندما هاجر إلى المدينة، وسأله قائلاً: ما هذا الدين الذي جئت به فقال (عليه الصلاة والسلام): جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال (ابن صيفي): فأنا عليها فقال له رسول الله: إنك لست عليها؛ قال: بلى، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية[٣].

وليس بالضرورة أن تلك المقابلة قد حدثت، ولكنها تصور حال الرجل الذي خرج مغاضباً من المدينة إلى مكة مع أتباعه، يقول ابن هشام: فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول ابن هشام: فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام (وفيها مات على الكفر)[٤].

وهكذا يكون الأوس والخزرج، الذين يمثلون المستضعفين في يثرب، قد دخلوا الإسلام ليعزهم ويرفع عنهم تسلط وسخرة اليهود، وتأخر منهم من كان له منافع في الوضع السابق في يثرب، وجاء الإسلام ليقوض تلك المنافع. وقد كانت العاقبة للمتقين في النهاية تبعاً للقاعدة المعتادة لسنة الأولين.

أما اليهود الذين يمثلون الكبراء فلم يؤمنوا لأن قاعدة سنة الأولين استثناءاتها قليلة جداً، وفي الأسطر المقبلة سنتبين ذلك.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٦٧.
(٢) المصدر السابق ج٢ ص١٦٨.
(٣) المصدر السابق ج٢ ص١٦٧.
(٤) نفس المصدر والصفحة.

اليهود

وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (الأحزاب: ٢٦-٢٧).

كان هناك ثلاث قبائل يهودية تقطن القلاع والحصون في يثرب هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وحسب القاعدة القرآنية في مواقف الأمم من الدين، فإن دين اليهود الذي كانوا يعتنقون زمن رسول الله، قد تحور من ديانة موسى إلى عقائد وتشريعات بشرية ابتدعها رجال الدين، واقتنع بها الناس على أنها دين الله الحق. وكان من المتوقع حسب هذه القاعدة ألا يتنازل اليهود عن ديانتهم التي كانوا عليها والعودة إلى صافي دين الله، ولو بعث فيهم موسى بن عمران، رسولهم السابق، مرة أخرى، وليس محمداً القرشي.

ولو آمن يهود يثرب بمحمد فإن هذا سيكون استثناءً من تلك القاعدة التي يخبرنا القرآن أنه لم يشذ عنها إلا قوم يونس. ولذلك اعتبروا ما يدعو إليه محمد عبارة عن أكاذيب لا تستحق الالتفات إليها، خاصة وأن دعوة الإسلام ستنهي كل ميزاتهم التي امتازوا بها على أهل يثرب من غير اليهود، ومنها الرفعة الاجتماعية والجاه والثروات، وسيطلب منهم أن يتساوى معهم من كانوا بالأمس عمالاً وأجراء لهم، في الحقوق والواجبات والمنزلة الاجتماعية، ويشاطروهم أموالهم. ولذلك لم يسلم اليهود، إلا نفر منهم، لدفع ضرر كاد أن يقع عليهم وليس لقناعتهم بالإسلام، ومن هؤلاء ثلاثة من بني قريظة أسلموا للاحتفاظ بأموالهم ولتسلم رقابهم، وهم: ثعلبة وأسيد ابني سعية وأسد بن عبيد، كما يزعم ابن هشام في

سيرته ج٣ ص١٤٤ نقلاً عن ابن إسحاق أن إسلامهم في الليلة التي سبقت استسلام بني قريظة للمسلمين.

ودين الله لا يجبر الناس على اعتناقه، ولا يحارب من يبقى على كفره، ولكنه يحارب من يحاربه، ويحاول القضاء على دعوته، أو يعترض سبيل الدعوة، بنشر دعاية مغرضة ومنفرة، أو تعاون مع أعداء الدين ضده فعلياً في حرب أو بالتحريض وإمداد الأعداء بالسلاح والمال، أو بطرق غير مباشرة يمكن الجزم على أنها تصرفات عدوانية.

ولذلك عندما قدم الرسول إلى يثرب عقد معاهدات حسن جوار وسلام بينه وبين قبائل اليهود في يثرب وغيرها. ومما جاء في تلك المعاهدات إقرار اليهود على دينهم وأموالهم، وأن يتناصر المسلمون واليهود في السراء والضراء وفي السلم والحرب ضد الأعداء. وأن لا يناصر بعضهم أعداء بعض. وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن الجار كالنفس غير مَضار ولا آثم، كما نقلت كتب الأخبار[١].

وكان يمكن لليهود أن يقيموا في قلاعهم وينعموا بخيراتهم ومزارعهم في يثرب إلى الأبد، لولا نقضهم تلك المعاهدات.

والمؤرخون يقولون بأن كل قبيلة من القبائل اليهودية الثلاث في يثرب قد نقضت العهد مع المسلمين تباعاً، وفي ثلاث مناسبات، ولم ينقضوا جميعهم العهد مع المسلمين في مناسبة واحدة، وسنتناول كيف حدث ذلك من وجهة نظر المؤرخين، ومما ذكره القرآن الكريم.

ما الذي حدث لليهود من وجهة نظر المؤرخين

يقول المؤرخون[٢] أن بني قينقاع كانوا أول من نقض العهد مع المسلمين، ويوردون قصة تصور كيف حدث ذلك، ملخصها: أن امرأة من العرب قدمت بحليب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا

---

(١) سيرة ابن هشام / فصل هجرة الرسول ـ الرسول صلى الله عليه وسلم يوادع اليهود ج٢ ص١٠٦.
(٢) استقينا معلوماتنا بشكل رئيسي من كتاب سيرة ابن هشام التي نشرتها دار المعرفة ـ بيروت.

يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع، وانتهى الوضع بحصار بني قينقاع ثم إرغامهم على الجلاء من حصونهم ومزارعهم، وإن سمحوا لهم بحمل ما يستطيعون من مال وعتاد، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، وبعد غزوة بدر[1].

والقصة التي ساقها الإخباريون في سبب وقوع الشر بين المسلمين وبني قينقاع، تتشابه مع قصة أخرى كانت قد حيكت لتكون سبباً لحرب في الجاهلية، ولو كانت تلك القصة قد حدثت بالفعل، لقتل القاتل أو القتلة وانتهى الأمر، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى في الإسلام، ولا يحاسب إنسان بجريرة غيره.

كما يورد الإخباريون قصة أخرى يقولون إنها تمثل غدر بني النضير بالرسول، ويرويها ابن إسحاق بهذه الصورة: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضوان الله عليهم. فانتدب اليهود أحدهم ليلقي حجراً على الرسول من فوق الجدار الذي كان يستند عليه.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء؛ بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. فحاصرهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهي عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها. وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن

---

(١) انظر على سبيل المثال سيرة ابن هشام ج٣ ص٥.

دمائهم على أَّن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. ففعل. ويقولون بأن ذلك حدث في السنة الرابعة من الهجرة[1].

وبطبيعة الحال هذه القصة كلها ثقوب كالغربال، وبالتالي لن نحاول مناقشتها هنا، ولكننا نشير إلى أن من اخترعها كان في عصر أصبح فيه نقد أي خبر كفراً وزندقة، ولذلك نسب في قصته أن الرسول عرف أن اليهود يتآمرون عليه عن طريق الوحي، فلم يعد بإمكان أحد أن يناقشه في صحة القصة، التي بقيت يتناقلها المؤرخون.

ولم يبخل الإخباريون فاخترعوا قصة لحرب بني قريظة، مثلما فعلوا مع بني قينقاع وبني النظير، وكما نسبوا إلى السماء إخبار الرسول بغدر بني النضير فقد جعلوا سبب إعلان المسلمين الحرب على بني قريظة هو أمر إلهي أرسل به جبريل ولم يطلع المسلمون على حكمته أبداً، يقول ابن هشام في سيرته: فلما كانت الظهر (أي ظهر اليوم التالي لرحيل الأحزاب)، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما حدثني الزهري، معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم؛فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وقد تقمص جبريل شخصية دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، ومر بالمسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم (أو أن القصة كلها من خيال الزهري الذي مات في نهاية القرن الثاني الهجري).

ويقول الإخباريون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١٠٨.

فأمر سعد بن معاذ، فحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناق كل من بلغ الحلم منهم ودفنوا في تلك الخنادق، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة.

هذا باختصار ما نقله ابن هشام في سيرته[١] وغيره من الإخباريين في كتبهم.

ونزول جبريل على شكل إنسان في هذه القصة أو في القصص الأخرى التي تمتلئ بها كتب الإخباريين المسلمين، ينفيها كتاب الله، في سورة النجم التي تؤكد أن الرسول لم يرى الملاك في حياته إلا مرتين وقبيل نزول الوحي أو في أوله، كما أن الوحي كان ينزل على الرسول عن طريق نسخ النصوص القرآنية في ذاكرة الرسول دون الحاجة إلى لقاء الملاك وجهاً لوجه. وقد بينا الحديث عن ذلك في فصل الوحي لمن رغب الرجوع إليه.

ما الذي حدث لليهود حسبما ذكرت الآيات القرآنية

لو تدبرنا القرآن الكريم لأمكن أن نستنتج ما حدث ليهود يثرب، أو قريب منه. فهناك سور كثيرة في القرآن تخاطب يهود يثرب وتذكرهم بأوضاعهم مع فرعون وموسى وخلال تاريخهم الطويل، وتتحدث عن علاقة يهود يثرب بالرسول والمسلمين في المدينة، وما نزل بحق أولئك اليهود من أحكام. ومن تلك السور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، التوبة، يونس، مريم، طه، الشعراء، النمل، العنكبوت، السجدة، الأحزاب، غافر، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الحديد، الحشر، الصف، والبينة.

(١) فصل غزوة بني قريظة.

ويهمنا الآيات التي تتحدث عن علاقتهم بالرسول، والأسباب التي أدت إلى ما نزل بحقهم من أحكام وإنهاء وجودهم في يثرب. ومن ذلك:

١. أنه حتى غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة لم يتم إجلاء أي قبيلة من قبائل اليهود، وهذا ينقض ما قاله المؤرخون من أن بني قينقاع قد أجلوا في السنة الثانية من الهجرة وفي الفترة التي أعقبت غزوة بدر وقبل غزوة أحد. وهذه بعض الأدلة القرآنية الدالة على ذلك:

* تتحدث سورة الأنفال في مجملها عن غزوة بدر وما حدث فيها، أي أنها نزلت بعد تلك الغزوة، ولم تذكر أن يهود يثرب قد تعاونوا مع قريش في حربهم ضد المسلمين، كما لم تذكر شيئاً عن إجلاء اليهود.

* سورة آل عمران تتحدث عن غزوة أحد التي جرت في السنة الثالثة من الهجرة، كما تتحدث عن جماعة من الصحابة كانوا يسمعون لبعض قصص اليهود وتشريعاتهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم ولم ينزل الله بها من سلطان، وهي التي يطلق عليها الإسرائيليات والتي امتلأت بها كتب المسلمين على الرغم من تحذير الله للمسلمين من الأخذ بها أو الاستماع إليها. ولا تتحدث الآيات عن أن اليهود قد حاولوا إثارة النعرات الجاهلية بين الأوس والخزرج، كما يقول المفسرون[(١)]. يقول تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصبحتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى

(١) تحدثنا عن هذه الآيات بتفصيل أكثر في فصل الحسبة.

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاختلفواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ. وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (آل عمران: ٩٨-١١٥).

والآيات تقول بأن الاستماع إلى تلك القصص وتبنيها يؤدي إلى الارتداد عن الإسلام، لأنها تضمين للإسلام ما ليس فيه، والأخذ بغير ما أنزل الله ارتداد عن دين الله: إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ.

ولعل إشاعة الإسرائيليات بين المسلمين هو أول إفساد وفساد قام به يهود يثرب ضد الإسلام والمسلمين، وجاءت هذه الآيات تحذرهم من التمادي في ذلك، وتحذر المسلمين من الاستماع إليهم.

ولكن هذه الآيات لم تأمر الرسول بقتال اليهود، ولا إخراجهم من ديارهم، ولا الحكم عليهم بأي عقوبة، وهو ما يؤكد أنه لم يصدر من اليهود أي تصرف حسي عدائي للإسلام والمسلمين حتى وقت نزول هذه الآيات التي نزلت بعد غزوة أحد.

* هناك آية أخرى في سورة آل عمران تقول بأن المسلمين سيواجهون العنت

من المشركين ومن اليهود، وهذا نص الآية: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأنفسكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فإن ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (آل عمران: ١٨٦).

وكأنها تشير إلى ما سيحدث في قادم الأيام بين المسلمين واليهود، وتنفي مرة أخرى ما ذهب إليه المؤرخون حول تاريخ محنة بني قينقاع وكيف حدثت.

* تظهر الآيات القرآنية أن إجلاء اليهود من يثرب حدث ثلاث مرات، ولكنه تم بموجب تطبيق عقوبة إلهية نزل بها الوحي على شكل آيات قرآنية. وأن أول من خرج من يهود يثرب كان بعد معركة أحد، وليس في السنة الثانية للهجرة، ثم خروج ثان بعد الأحزاب، ثم خروج ثالث بعد ذلك، وليس كما قال المؤرخون من أن أول من أخرج من يثرب كان بني قينقاع، في السنة الثانية للهجرة وقبل غزوة أحد، وتلاهم بنو النضير في السنة الرابعة، وكان آخر من أخرج بنو قريظة بعد الأحزاب في السنة الخامسة. وإليكم بيان ذلك:

الجلاء الأول

يقول الإخباريون إن سورة المائدة نزلت بعد فتح مكة، أي في آخر حياة الرسول، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كلام الإخباريين من مفسرين ومحدثين وغيرهم، على صواب، لأنه لا وجود لتسجيل مكتوب يوثق تاريخ نزول الآيات، وجاء تصنيفهم نزول السور بناءً على آراء شخصية لا يسندها برهان، بعد عقود وقرون من عصر الرسول. إضافة إلى أنه من المسلم به نزول بعض الآيات من إحدى السور في أول الوحي والبعض في مكة والبعض في المدينة والبعض الآخر في آخر حياة رسول الله. ولذلك يمكن رد تصنيفهم إذا اتضح لنا خلافه، وهذا ينطبق على آيات في سورة المائدة، والتي يبدو أنها نزلت قبل أن يتصادم المسلمون مع اليهود لأول مرة، لأنها تتحدث عن أن اليهود أهل خيانة وأنهم لا يحترمون العهود بناءً على تاريخهم، وكأنها تهيئ المسلمين للتعامل معهم فيما لو خانوا المواثيق التي بينهم وبين المسلمين، أو أنها تتحدث عنهم بعد أن بدرت منهم خيانة ضد المسلمين، لتشرع حكماً بحقهم جزاءً لما اقترفوه.

وتبدأ سورة المائدة بتذكير المسلمين بالوفاء بالعهود التي يبرمونها مع غيرهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (المائدة: ١).

وتؤكد الآية (٨) على العدل حتى مع من أظهر عداوته لكم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

وتقول الآية (١١): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

والمفسرون يقولون إنها نزلت في بني النضير عندما هموا بقتل الرسول ومن معه لما ذهبوا إليهم طلباً للمساهمة في دية رجلين قتلا خطأً، وقد لا يكون ما ذهبوا إليه صحيحاً.

والآيات التالية تؤكد خيانة اليهود للعهد الموقع مع المسلمين، وتهيئ لإنزال حكم فيهم بالتذكير أن اليهود قد نقضوا العهود مراراً خلال تاريخهم: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة: ١٣).

ثم تستمر الآيات في التذكير بما فعله اليهود مع موسى وبعده وأنهم لا يحترمون مواثيقهم، بل ويفسدون في الأرض ويحاربون الله ورسله المرسلة لهم، وقد حرم عليهم القتل ونزلت عليهم آيات الله بحد القتل العمد: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسرائيل أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأرض لَمُسْرِفُونَ (المائدة: ٣٢).

وحيث إنهم قد سعوا لحرب الله ورسوله والإفساد في الأرض، والمتمثل في محاولة القضاء على الإسلام، دين الله في الأرض، سواءً بمحاولة قتل الرسول أو بتحريض الكفار على حرب المسلمين ومعاونتهم، أو بطرق أخرى، وأنهم بذلك قد نقضوا العهود والمواثيق الموقعة في الأيام الأولى للهجرة مع المسلمين، فقد صدر بحقهم الحكم الإلهي التالي:

إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أو يُصَلَّبُواْ أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أو يُنفَوْاْ مِنَ الأرض ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (المائدة: ٣٣-٣٤).

وعلى المسلمين تنفيذ أمر الله هذا.

وتكون الآيات نزلت بسبب مؤامرة حاول اليهود حياكتها ضد المسلمين، وأن الله كف أذاهم عن المسلمين وأبطل مساعيهم. وتنسب كتب الأخبار إلى كعب الأشرف اليهودي أنه لما تيقن من قتل كبراء قريش في بدر، خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش، الذين أصيبوا ببدر. كما نقل ابن هشام.

ويبدو أن كعب الأشرف قد فعل أقبح من ذلك، مما جعل الرسول يأمر باغتياله، وقد تم له ذلك على أيدي نفر من الصحابة.

وقد يكون مما قام به كعب ومعه قبيلته، تحريض قريش على أخذ الثأر من المسلمين، ومن غير المستبعد أنهم أمدوهم بالمال والسلاح، وواعدوهم النصرة. وبعد أن انجلت غمة غزوة أحد، وهدأت الأنفس واستوعب الناس الهزيمة، نزلت هذه الآيات على الرسول تبين له أن ما حدث من اليهود شيء قد كرروا فعله في السابق ومع موسى رسولهم، وأن عليه أن يوقع بهم العقاب الذي حكم الله به عليهم، فقتل من قتل وأجلي من أجلي منهم. فنزح بعضهم إلى خيبر، وبعضهم واصل مسيره إلى بلاد الشام. ويكون المعنيون هنا قوم كعب الأشرف، بنو النضير، ويكون جلاؤهم بعد معركة أحد.

والملفت هنا أن الإخباريين من مفسرين وغيرهم، والذين يقولون بأن كل آيات سورة المائدة نزلت بعد الفتح، يناقضون أنفسهم ويقولون بأن الآيتين (٣٣: ٣٤) قد نزلتا بحق نفر من عرينة وعكل، يقول الطبري في تفسيره: حدثنا ابن بشار، قال: ثنا روح بن عبادة، قال: ثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس: أن رهطا من عُكل وعرينة أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله أنا أهل

ضَرْع ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة. فأمر لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بَذوْد وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها وأبوالها. فقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. فأتِيَ بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم في الحرّة حتى ماتوا. انتهى، ويضيف بعض الإخباريين بأن الرسول قد أمر بجثثهم فأحرقت (ويزعمون أن هذا حدث في السنة السادسة).

وهذه القصة هي التي انتشرت بين المسلمين، على عللها الكثيرة، واتهامها للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه قد انتقم لنفسه ممن سرقوا إبله وقتلوا راعيها، بكل غلظة، وبما يخالف حد القتل الذي أنزل عليه في القرآن، والذي ينص على أن القاتل يقتل ولا يمثل بحثته، وأن السارق تقطع يده ولا يمثل بباقي جسده، ثم يتجرأون على ذات الله، عندما يقولون بأن الله جل وعلا قد أنزل تلك الآيتين ليوافق الرسول على ما فعله بأولئك النفر، ويقره عليه.

بينما الرأي الثاني الذي أورده المفسرون لسبب النزول والذي يقول بأنها نزلت «في قوم من أهل الكتاب، كانوا أهل موادعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض»[1]. لم ينتشر بين الناس وتناسوه، وهو ما نظن أنه الصحيح، لأن الآيات الأخرى قبله تدعم صحته، كما بينّا.

الجلاء الثاني

بعد أن نزل الحكم الإلهي بتلك القبيلة اليهودية على خيانتهم للعهد مع المسلمين وتأليبهم الكفار عليهم في الآيتين (٣٣، ٣٤) من سورة المائدة، وتم تنفيذه عليهم، نزلت آية في آخر السورة تذكر الرسول والمسلمين من احتمال أن يواجهوا خيانات أخرى من اليهود في المستقبل، والآية تقول: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (المائدة: ٨٢).

ثم جاءت آيات في سورة الأحزاب، تتحدث عن حملة الأحزاب التي اشترك

(١) ورد ذلك في تفسير الطبري للآيتين المذكورتين وكتب تفسير أخرى.

فيها العديد من القبائل، وما آلت إليه ونتائجها على اليهود الذين كانوا وراء فكرة الأحزاب وإشعال فتيلها، يقول تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً. وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (الأحزاب: ٢٥-٢٧).

فتفرق شمل الأحزاب وفشلت حملتهم على المدينة، أما اليهود الذين ظاهروا الأحزاب، وحسب رأي المؤرخين فقد كانوا بني قريظة، فقد أوقع فيهم المسلمون حد من يحاربون الله ورسوله ومحاولة القضاء على الإسلام التي نزلت في السابق وطبقت بحق قوم (قبيلة) من اليهود قبل سنتين من غزوة الأحزاب. فقاتلهم المسلمون، وقتلوا منهم وأسروا، وانسحب البقية إلى داخل حصونهم (صياصيهم) ولكن سرعان ما دب الذعر فيهم فاستسلموا للمسلمين، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

وتكون هذه هي ثاني المصادمات بين المسلمين ويهود يثرب، وقد وقعت إثر موقعة الأحزاب وبسببها، حيث كان اليهود هم من حارب الله ورسوله عندما جاؤوا بفكرة الأحزاب، وهم من شحذ همم القبائل للتجمع ومهاجمة المدينة، وهم من أمدهم بالمال والسلاح بهدف القضاء النهائي على المسلمين والإسلام، ولولا لطف الله جل وعلا، لاقتحمت الأحزاب المدينة، ولو استطاعوا، فلن يبقوا على نفس واحدة من المسلمين.

وكما حصل في الحادثة الأولى فقد سمح لمن استسلم من اليهود بأن يجلوا من يثرب حاملين معهم ما يستطيعون من متاع ومال، فخرجوا إلى خَيْبر ومنهم من سار إلى الشام.

الجلاء الثالث

تأتي آيات في سورة الحشر التي نزلت بعد آيات سورة الأحزاب، لتتحدث عن إجلاء لليهود من يثرب، من دون أن يكون بينهم وبين المسلمين حرب أو حصار،

يقول تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعتبروا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ. وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فإن اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ. وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الحشر: ٢-٦).

ومن الواضح أن الآيات هنا لا تتحدث عما تحدثت عنه آيات سورة الأحزاب، ولا الآيات في سورة المائدة، لأن اليهود الذين تحدثت عنهم السورتان خرجوا بعد قتال وحصار، أما هنا فخرجوا من دون حرب ولا حصار، وهو ما يعني أنهم قد نقضوا العهد مع المسلمين بطريقة ما، وأنهم بمجرد معرفتهم باطلاع الرسول على ما فعلوه أرسلوا إليه يطلبون الأمان والجلاء على ما أجلي عليه بني دينهم من قبل، بحيث يحملون معهم ما يستطيعون من مال وعتاد، وقد حصل ذلك دون حرب أو حصار وهو ما يفهم من قوله تعالى «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ».

وقد خربوا حصونهم بأيديهم لحمل ما يستطيعون منها، كما خرب المسلمون ما بقي قائماً منها بعدما جلوا عنها، وما يؤيد أنه لم يكن هناك حرب ولا حصار، قوله تعالى (فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ).

وإذا كان في يثرب ثلاث قبائل يهودية كما يقول المؤرخون، فإن هؤلاء كانوا هم بني قينقاع، ويكونون آخر من أجلي من المدينة، وبعد غزوة الأحزاب، وقبل خيبر، أي في السنة السادسة للهجرة، وهو مخالف لما يقول الإخباريون من أن بني قينقاع كانوا أول من أخرج من يثرب، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة.

ويكون قد حدث بين المسلمين ويهود يثرب ثلاث مصادمات متفرقة، وإن تشابهت في الأسباب، المتمثلة في خيانة اليهود للعهد الموقع مع المسلمين، والقيام بسلوك عدائي من أجل الإضرار بالإسلام والمسلمين. كما تشابهت نتائج تلك المصادمات، حيث انتهت جميعها بجلاء من استسلم منهم من يثرب حاملين معهم ما يستطيعون من مال وعتاد. وهو ما يتوافق مع هدف الإسلام، المتمثل في

القضاء على تسلط الكفار على الدين، وليس القضاء على أشخاصهم، وسنرى ذلك يتكرر دائماً، مع أهل مكة وأهل الطائف وفي خيبر وغيرهم.

وقد استقر بعض يهود يثرب في خيبر، بينما فضل البعض النزوح إلى بلاد الشام. وتقول كتب الأخبار إن من زعماء اليهود الذين أقاموا في خيبر سلاّم بن أبي الحُقَيْق، وكِنَانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أَخْطب.

وللتدليل على أن ما كتبه الإخباريون حول ما حصل لليهود في يثرب ما هو إلا أضغاث أحلام سطرها أناس من عند أنفسهم، ولا يمكن أن يعتمد عليها كتاريخ لوصف الأحداث الحقيقية، سنورد خبراً واحداً فقط ونتوقف عند بعض ما جاء فيه.

والخبر يتلخص بأنه بعد انتهاء غزوة الأحزاب، اتجه الرسول إلى بني قريظة، وأنه صلوات الله وسلامه عليه لما نزل بحصنهم، وكانوا في أعلاه نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال: أَجِيبُوا يَا مَعْشَرَ يَهُودَ يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ والخَنَازِيرِ. فقالوا: يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً، وفي رواية أخرى: ما كنت جهولاً ولا فحاشاً (وبطبيعة الحال فرسول الله لم يكن فحاشاً بالقول ولا بالفعل).

ثم حاصر المسلمون بني قريظة، وبعد خمسة وعشرين يوماً نزل اليهود على حكم المسلمين، فأمر الرسول سعد بن معاذ أن يحكم عليهم بما يرى، وقد حكم سعد عليهم أن يقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. قال ابن إسحاق: فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرَّحمن بن عمر بن سَعْد بن مُعَاذ، عن عَلْقمة بن وقّاص الليثيّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ.

ولتنفيذ حكم سعد بن معاذ يقول ابن هشام: ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق (أي حفر بها حفراً عميقة)، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً (أي جماعات)، ويقول ابن هشام: وهم ستمائة أو سبعمائة. والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة (سيرة ابن هشام ـ فصل في غزوة بني قريظة).

وسنتطرق لموقفين تحدث عنهما الخبر، كما يلي:

الموقف الأول

يقول إن اليهود قد حكم عليهم بموجب رأي شخصي لسعد بن معاذ، وأحكام دين الله لا يستشار فيها البشر، ولا يحكم بها بموجب رأي شخصي لبشر، ولو كان الحكم على أولئك اليهود قد تم بموجب رأي سعد أو أي بشر آخر ولو كان الرسول، فإن هذا يعني أن من أصدر الحكم نيابة عن الله قد أصبح شريكاً لله في حكمه، والعياذ بالله. وتزعم كتب الأخبار أن الرسول قال لسعد: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ. وإذا كان حكم سعد الشخصي قد وافق حكم الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن تشريعات سعد أصبحت موازية لتشريعات الله، والعياذ بالله.

ولم يحكم سعد بن معاذ فيهم بما تمليه عليه نفسه، ثم يوافقه الله عليه من فوق سبع سماوات، لأن الدين لله، والحكم لله، وهو سبحانه من يحكم لخلقه أو عليهم، وليس الله جل وعلا بحاجة إلى بشر ليدله على الحكم الصحيح. ويكون مخترع القصة قد تأثر بما جاء في التلمود الذي يقول: إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء (قلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس: ١٨).

ويكون كتبة التاريخ بشراً يسطرون ما تمليه عليهم ثقافاتهم وميولهم وما يتناقله الناس من حكايات وأساطير، والمؤسف أننا ورثنا منهم كتاباتهم، دون تمحيص، وجعلناها عين الإسلام، وهو منها براء.

الموقف الثاني

يدعي الإخباريون أن مئات من اليهود المحكوم عليهم قد دفنوا في سوق المدينة، ولو سلمنا جدلاً، أن الرسول قتل مئات من اليهود صبراً[١]، كما تقول كتب الأخبار، فإنه سيكون من الغريب جداً ومن غير المألوف أن يأمر عليه الصلاة والسلام بحفر خنادق لدفن القتلى وسط سوق المدينة، وليس في مكان خلاء

(١) أي قتل الأسير.

خارجها، ولو كان المقتول منهم رجلاً واحداً، وليس مئات. إذ ليس من المعقول أن يختار الرسول دفن جثثهم في المكان الذي يدوسه الناس ليلاً ونهاراً في ذهابهم وإيابهم وتسوقهم، وليس هناك حكمة في ذلك، إلا إذا كان من اختلق هذه القصة من الإخباريين قد سمع بما حدث لنحو تسعين من بني أمية الذين أمر السفاح فضربوا بالعمد حتى أثخنوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً[1]، وأراد أن يقول بأن السفاح قد اقتدى بالرسول، وتناقل المسلمون القصة دون أن يفطنوا لمغزاها.

ولو كانت الخنادق قد حفرت وسط سوق المدينة ودفن فيها ذلك العدد الهائل من اليهود، لأصبح المكان معلماً معروفاً على مر التاريخ، ولكان بالإمكان أن يعثر على بقايا رممهم عندما نكثت أرض المدينة كلها في عمليات التوسعة لمسجد رسول الله، ولكن لم يحدث أن عثر على مقابر جماعية لا في التوسعات القديمة ولا في التوسعات الحديثة، ولن يعثر على أي مقابر جماعية لهم في المدينة، لأنه لم يحدث لبني قريظة أو لغيرهم من يهود يثرب، ما تقول كتب الأخبار أنه حدث لهم، إلا في خيال من ابتدع قصة قتلهم.

ومن الواضح أن من اخترع القصة تعمد أن يقول بأن الخنادق كانت وسط سوق المدينة وليس خارج البلدة، لأنه لو قال بأنها حفرت خارج البلدة فسيكون عليه أن يشير إلى مكانها الذي لا بد أن يبقى معلماً مشهوراً، مثلما بقيت مقابر اليهود في حش كوكب[2]، فقال بأن الخنادق حفرت وسط السوق حتى يقتنع الناس عبر الأجيال بأن معالم تلك الخنادق قد اندثرت بسبب العمران، ويصعب تحديدها بين مساكن الناس في المدينة وسوقها، ولم يدر بخلده أن الإمكانات الحضارية ستتقدم وأن المدينة التي كانت في عصر الرسول بكاملها يمكن حفرها وإخراج كل ما فيها بسهولة، كما حدث في عمليات التوسعة الأخيرة لمسجد رسول الله الذي أصبحت مساحته الحالية تفوق مساحة مدينة رسول الله ويثرب موطن اليهود بعدة أضعاف.

وبطبيعة الحال فكتب الأخبار تمتلئ بقصص وروايات خيالية، ومما أوردوه

(١) ذكرنا ذلك في مقدمة الحديث عن دولة بني العباس.
(٢) مقابر لليهود في يثرب مجاور لمقابر البقيع.

حول ما حدث لبني قريظة، قصص بعضها وضعت بموافقة أفكار يهودية لأنها تمتدحهم وتظهرهم كأحرص خلق الله على الوفاء، وكأنها تقول بشكل غير مباشر إن القرآن الذي قتلهم بدعوى نقضهم للعهد مع المسلمين كان مخطئاً. وسنورد قصة واحدة من تلك القصص كمثال ونترك الباقي للقارئ إن أراد الرجوع إليها فسيجدها في سيرة ابن هشام والبداية والنهاية وغيرها. وهذه هي القصة كما أوردها ابن هشام، تحت عنوان: قصة الزبير بن باطا.

قال ابن إسحاق: وقد كان ثابت بن قيس بن الشماس، كما ذكر لي ابن شهاب الزهري، أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى أبا عبد الرحمن- وكان الزبير قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية. ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان منّ عليه يوم بعاث، أخذه فجز ناصيته، ثم خلى سبيله ـ فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؛ قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي؛ قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إنه قد كانت للزبير عليّ منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو لك؛ فأتاه فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك، فهو لك؛ قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة قال: فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده؛ قال: هم لك. قال: فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك، فهم لك؛ قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هبني ماله؛ قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك، فهو لك. قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي، كعب بن أسد قال: قتل؛ قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب قال: قتل؛ قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزَّال بن سموأل قال: قتل؛ قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؛ قال: ذهبوا قتلوا؛ قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. فقدمه ثابت، فضرب عنقه. اهـ.

وآخر القصة يؤكد على أن من قتل من اليهود سيلتقون في الجنة، وكأنها تقول بأن من يقتل مؤمناً من أهل الجنة فمأواه جهنم، وهي تشير بذلك إلى الرسول.

وتكون تلك القصص التي يرويها الإخباريون في كتب التاريخ والتفسير والحديث عما حدث لليهود بعيدة كل البعد عما حدث على أرض الواقع، ولا يمكن التسليم بصحتها، في الوقت الذي أخبرنا القرآن بأن قبيلة من اليهود، دون ذكر لاسمها، قد نقضت العهد مع المسلمين، وحاربت الله ورسوله (شاقوا الله ورسوله) وسعت في الأرض فسادا عندما حاول أفرادها القضاء على الإسلام عن طريق المكائد والتعاون مع الكفار، فنزل بحقهم حكم الله الذي يعطي الحق للمسلمين بقتالهم وصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم، أي التعامل معهم بكل غلظة، وبلا رحمة. وقد اشتبك المسلمون معهم في قتال، ولكن اليهود سارعوا إلى الانسحاب والاحتماء بقلاعهم، فحاصرهم المسلمون، مما اضطر اليهود لطلب الأمان، على أن يتركوا يثرب، حاملين معهم ما يستطيعون من متاع، وكان ذلك قبل غزوة الأحزاب. وقد كررت قبيلة ثانية، دون ذكر لاسمها، نقض العهد مع المسلمين والمتمثل في تصرفات عدائية، حيث كانوا وراء فكرة تجمع القبائل ومهاجمة المدينة للقضاء على الإسلام والمسلمين، فطبق المسلمون بحقهم حكم الله السابق، وحاصروهم في قلاعهم، مما اضطرهم للتسليم بنفس شروط القبيلة الأولى. وكررت القبيلة اليهودية الثالثة التصرفات العدائية ونقض العهد مع المسلمين، ولكنهم لم يشتبكوا مع المسلمين في قتال كما حدث مع القبيلتين السابقتين، بل عرضوا الاستسلام بنفس شروط من سبقهم.

وتكون الأحكام على اليهود في المناسبات الثلاث التي وقع فيها صدام بينهم وبين المسلمين، قد وقعت عليهم بموجب آيات قرآنية باقية إلى اليوم، ومن ذلك الآيتان (٣٣-٣٤) من سورة المائدة.

ولم تنزل هاتان الآيتان من سورة المائدة في حق من سرق إبل أو غنم، لرسول الله أو لغيره وقتل الراعي، كما تقول الأخبار، وأن الرسول قد مثل بالفعلة وأحرق جثثهم، وصلبهم، كما يزعم الإخباريون، ومن ذلك ما أورده الطبري في تفسيره: أن رهطا من عُكل وعرينة أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله أنا أهل ضَرْع ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة. فأمر لهم

النبيّ صلى الله عليه وسلم بَذَوْد وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها وأبوالها. فقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. فأتِيَ بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم في الحرّة حتى ماتوا. فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ).

ويقول الإخباريون بأن الرسول قد أحرق جثثهم بالنار بعد أن مثل بها. ولو صدقنا حكايات الإخباريين، فإننا نحكم على الرسول بأنه يصير أحكام الشرع على ما يرغب، فهو قتل وصلب ومثل بجثث من سرق إبله وقتل الراعي، دون أن يستند في حكمه على حكم قرآني، لأن القرآن يخلو من أي حكم على البشر بالحرق والتمثيل بالجثث، أو بصلب من يقتل الراعي. ثم يورد الإخباريون أنه عليه الصلاة والسلام ينهى غيره بعدم التمثيل بالجثث أو حرقها بالنار، أعوذ بالله أن ينهى رسول الهدى عليه الصلاة والسلام عن خلق ويأتي مثله. والرسول لا يستطيع أن يعمل برأيه ولا أن يخالف القرآن، الذي يقول بأن القاتل يقتل، بنص آيات القصاص. كما أن من قتل راعي الرسول لم يحاد الله ولا رسوله ولم يسع ليعم الفساد في الأرض، المتمثل في القضاء على الإسلام، مثلما سعى اليهود في محاولاتهم القضاء على الإسلام. ويكون حد القاتل القتل فقط، سواءً قتل راعي رسول الله أو قتل راعي أبي جهل. ثم إن الآية (٣٤) تنص على أن من يتوب منهم فقد حقن دمه وماله وعرضه، وهو ما حصل لعدد من اليهود حسبما ذكرت كتب الأخبار ومنهم: ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، الذين أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خوفاً من أن يحكم عليهم بالقتل أو يجردوا من أموالهم. بينما لم يقل الإخباريون أن أحداً ممن قتل الرعاة قد تاب ولم يقتل، كما أنها ليست حداً لما يعرف اليوم بالحرابة، والذي يطبق بحق كل من يخرج على السلطان أو يسرق بعد أن يقتل. لأن القاتل يقتل بالحد الوارد في الآية (١٧٨) من سورة البقرة، وليس هناك حد في الإسلام على من يخرج على السلطان لشعوره بالظلم، ولكن هناك عقوبة لمن ينقض العهد مع دولة الإسلام، فصلنا الحديث عنها في فصل الجهاد.

وهكذا خلت يثرب من ساكنيها وخربت قلاعها وحصونها التي كانت عامرة

بيهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. ويكون يهود يثرب هم من بدأ بنقض العهد الموقع مع المسلمين وهم من حارب الله ورسوله بمحاولاتهم موالاة الكفار وتأييدهم لهم في حروبهم للمسلمين، مما ترتب عليه إجلاؤهم من يثرب وتخريب مساكنهم والاستيلاء على مزارعهم، كعقاب على ما اقترفته أيديهم.

هذا في يثرب، أما في خيبر فالتاريخ يروي لنا أن المسلمين قد بادروا بالهجوم عليها وافتتحوها دون أن يذكر المؤرخون أن يهودها قد نقضوا عهدهم مع المسلمين أو بادروهم بالعداء، وهو ما يتناقض مع القواعد الإلهية التي لا تبيح قتال الكفار لمجرد أنهم لم يؤمنوا بالإسلام، ولكن القتال يكون لمن يسعى للقضاء على الإسلام أو يوالي من يسعى للقضاء عليه.

فما الذي فعله أهل خيبر وأوجب على المسلمين الخروج لهم بعيداً عن أساطير الإخباريين؟

خيبر

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبة: ٢٩).

على الرغم من أنه قضي على اليهود في يثرب، إلا أن خطرهم بقي يهدد الإسلام والمسلمين، لأن معظم رؤوسهم نزحوا إلى خيبر واستمروا يديرون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين من هناك.

فقرر الرسول أن يقضي على بعض تلك الرؤوس عسى أن يرتدع بقية اليهود ويكفوا عن المسلمين، ومن أولئك سلام بن أبي الحقيق الذي كان من زعماء بني قريظة. وقد انتدب الرسول نفراً من المسلمين إلى خيبر لاغتياله، وتم لهم ما أرادوا بنجاح.

ولكن يبدو أن التصفيات الفردية لم تكن كافية لوقف نشاطات اليهود المعادية، فقرر الرسول عليه الصلاة والسلام القضاء على تسلطهم البتة. وهذا هو سبب خروج رسول الله إلى خيبر، والذي لم يذكره الإخباريون، بل إنهم صوروا خروجه عليه الصلاة والسلام، وكأنه يهدف لتوسيع رقعة مملكته، والحصول على ممتلكات أعدائه كغنائم، دون أن يقترف اليهود ما يوجب مهاجمتهم. ولم يفطنوا أن الرسول هو من سمح لليهود الذين استقروا في خيبر بنقل متاعهم وأموالهم معهم عندما أخرجهم من يثرب، وكان بإمكانه الاستيلاء عليها في ذلك الوقت الذي استسلموا فيه ولم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم أو حماية

أموالهم، بدل السماح لهم بالتجمع في خيبر وتوحيد الصفوف والاستعداد للحرب، ثم يقرر خوض معركة ضدهم قد ينتصرون فيها عليه.

وقد استطاع جيش المسلمين دخول خيبر وطرد يهود يثرب منها، فخرجت فلولهم باتجاه أرض الشام، وتفرق شملهم. أما يهود خيبر فقد ترك الرسول لهم أملاكهم وآمنهم على أنفسهم، وإن عاقبهم على تعاونهم مع بني عقيدتهم ونقض معاهداتهم مع الرسول وتشكيل خطر على دولة الإسلام، وذلك بفرض الجزية عليهم، تنفيذاً لحكم الله فيهم. وهذا مخالف لكلام الإخباريين الذين يقولون بأن جيش المسلمين قد هاجم قلاع خيبر وفتحها واحدة بعد الأخرى، وأن المسلمين قد استباحوها وسبوا نساءها، وأن عدداً من المسلمين قد سقط شهيداً في المواجهة مع اليهود، وقد ذكرهم بالاسم ابن هشام في سيرته.

وفي الأسطر التالية سوف نناقش مزاعم الإخباريين تلك، لإثبات أنه لم يكن هناك قتال في خيبر، ولم تُسبَ النساء، وسنبدأ بمن زعم ابن هشام أنهم قتلوا شهداء يوم خيبر، وكيف أن كل تلك الأسماء في المجمل لا وجود لها أو أنها قتلت بأسباب أخرى وليس في قتال يهود خيبر.

يقول ابن هشام أن ممن استشهد من بني أسد بن عبد العزى: عبدالله الهبيب، ويقال: ابن الهبيب، فيما قال ابن هشام، ابن أهيب بن سحيم بن غيره، من بني سعد بن ليث، حليف لبني أسد، وابن أختهم.

وليس لعبدالله الهبيب أو ابن أهيب بن سحيم أي ذكر في كتب الرجال مثل الإصابة في تمييز الصحابة أو الاستيعاب في معرفة الأصحاب أو تهذيب الكمال أو طبقات ابن سعد أو غيرها. أي أنه لا وجود لشخص حمل ذلك الاسم في الواقع.

ويقول ابن إسحاق أن ممن استشهد من الأنصار ثم من بني سلمة: بشر بن البراء بن معرور، مات من الشاة التي سم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفضيل بن النعمان. رجلان. انتهى.

وسوف نسلم جدلاً أن بشراً قد مات من السم كما يزعم ابن هشام، وهذا يعني أنه لم يقتل في قتال لفتح خيبر.

أما فضيل بن النعمان، فهذا ما قيل عنه في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الفضيل بن النعمان الأنصاري، من بني سلمة، قتل بخيبر شهيداً فيما ذكر ابن

إسحاق، قال محمد بن سعد: هكذا وجدناه في غزوة خيبر، وطلبناه في نسب بني سلمة، فلم نجده، قال، قال: ولا أحسبه إلا وهماً في الكتاب، وإنما أراد الطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان والله أعلم.

والصيغة نفسها وردت في الإصابة في تمييز الصحابة. وهذا يعني أنه لا وجود لرجل بذلك الاسم ينسب إلى بني سلمة، وبالتالي فوجوده كشخص، مجرد وهم.

ويواصل ابن هشام قائلاً: من زريق: مسعود بن سعد بن قيس بن خلده بن عامر بن زريق.

وهذا ما أورده ابن حجر العسقلاني عنه في الإصابة: مسعود بن سعد بن قيس بن خلدة بن عامر بن زريق الأنصاري الزرقي ذكره موسى بن عقبة عن بن شهاب فيمن شهد بدرا وكذا بن إسحاق وقال أبو نعيم قال بن عمارة استشهد بخيبر وخالفه الواقدي فقال قتل يوم بئر معونة وأخرجه البغوي مختصرا وكرره أبو عمر فذكره مطولا ومختصرا (أي أنه لم يستشهد في خيبر).

ويقول ابن هشام إن ممن استشهد من الأوس ثم من بني عبد الأشهل: محمود بن مسلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث، حليف لهم من بني حارثة.

وهذا الصحابي قتل بخيبر أدلى عليه حرب رحى، فأصابت رأسه فهشمت البيضة رأسه، وسقطت جلدة جبينه على وجهه. ما أورد الإخباريون. ويكون موته نتيجة سقوط الرحى عليه وليس نتيجة لمواجهة قتالية.

ويقول ابن هشام إن ممن استشهد من بني عمرو بن عوف: أبو ضياح بن ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف؛ والحارث بن حاطب؛ وعروة بن مرة بن سراقة؛ وأوس بن القائد؛ وأنيف بن حبيب؛ وثابت بن أثلة؛ وطلحة.

والاسم الأول ليس له وجود. أما الحارث بن حاطب فهذا ما يقوله عنه صاحب كتاب الإصابة: الحارث بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد الأنصاري الأوسي أخو ثعلبة بن حاطب ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرا وذكر هو وابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم رده ورد أبا لبابة من الروحاء وضرب لهما بسهميهما وأجرهما ووهم بن منده فذكر هذا القدر في ترجمة الذي قبله

وروى الطبراني بسند ضعيف أن هذا شهد صفين مع علي رضي الله عنه. وهذا يعني أنه لم يقتل في خيبر.

وعروة بن مرة بن سراقة الأنصاري الأوسي لا يعرف عنه إلا أنه استشهد بخيبر نقلاً عن ابن هشام، ولا يعرفه غيره.

وأوس بن القائد ليس له وجود، وأنيف بن حبيب من بني عمرو بن عوف ذكره ابن إسحاق فيمن استشهد يوم خيبر وعزاه أبو عمر للطبري، وما عدا ذلك فلا يعرف عنه شيء.

وثابت بن إثلة الأنصاري الأوسي من بن عمرو بن عوف ذكره ابن إسحاق فيمن استشهد بخيبر واستدركه أبو موسى عن عبدان وحرف بن عبد البر أباه. وطلحة غير معروف لأحد سوى لابن هشام.

وباستعراضنا لجميع من زعم ابن هشام أنهم قتلوا شهداء في معركة مع يهود خيبر، نجد أنه لم يذكرهم أحد غيره، مما يلقي بضلال الشك حول صحة وقوع قتال بين المسلمين ويهود خيبر.

وما يزيد في شكنا بتلك القصص التي ينقصها الحبك والتي نقلها الإخباريون عن ابن هشام عما حدث في خيبر ما نقله تحت عنوان: مصالحة الرسول أهل خيبر.

وهذا نص الخبر: وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل.

ويفهم من هذا أن المسلمين لم يشتبكوا مع اليهود في قتال، وأن الرسول قد حقن دماءهم وسيرهم أي أجلاهم عن خيبر. ولكن الخبر لا ينتهي هنا فابن هشام يواصل قائلاً: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلّوا له الأموال، ففعل ويفهم من هذا أن الرسول أجلى أهل فدك أيضاً.

ولكن لخبر ابن هشام بقية تقول: وكان فيمن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أخو بني حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها.

فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم؛ فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. انتهى كلام ابن هشام.

ويفهم هنا أن الرسول صالح خيبر وفدك ولم يكن هناك جلاء لا لأهل خيبر ولا لأهل فدك، وأنهم بقوا في مساكنهم ومزارعهم على أن يدفعوا نصف المحصول للمسلمين.

ولو كان هناك قتال واقتحم المسلمون قلاع وحصون يهود خيبر بالقوة لنفذ فيهم ما نفذ في حق قبائل يهود يثرب الثلاث، حيث أجلوا من ديارهم وسمح لهم حمل ما يستطيعون من مال ومتاع، وورث المسلمون مزارعهم.

ولم يفطن أحد من المؤرخين المتأخرين، لماذا ابتدر أهل فدك بعرض نصف محصولهم للرسول، وهو لم يهاجمهم، ولم يكن بينه وبينهم أي عداء. ولم يتساءل أحد إن كانت قصة فدك كلها مختلقة لكي يصبح لها تلك الهالة الكبيرة التي يرددها عنها الشيعة اليوم، والتي لن نتعرض لها.

ويكون ما حدث هو أن الرسول لما حاصر خيبر طلب منه أهلها أن يجلوا من فيها من يهود يثرب، فوافق الرسول على ذلك، ووافق على أن يحقن دماء أهل خيبر وأموالهم مقابل دفع الجزية، فتم إجلاء يهود يثرب وبقي أهل خيبر فيها.

والجزية طبقت بحق أهل خيبر لأنهم خانوا عهدهم مع المسلمين وآووا يهود يثرب، وحموهم وناصروهم، والجزية تفرض على من عاهد دولة الإسلام أو عاهد جماعة من المسلمين وغدر بهم، أو نقض المعاهدة. وتكون الجزية، مقابل الإبقاء على أفراده أحياء، وعدم التعرض لممتلكاتهم، يقول تعالى: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبة: ٢٩).

ولو رجعنا إلى كتب الحديث خاصة كتاب البخاري على اعتبار أنه أكثر كتب الحديث ثقة عند المسلمين، وكتاب الموطأ على اعتبار أنه أقدم كتاب للحديث بين أيدينا، لوجدنا التالي:

يورد البخاري حديثاً برقم (٤١٤٩)، هذا نصه: حدَّثنا موسى بن إسماعيل حدَّثنا جويريةُ عن نافعٍ عن عبدِالله بن عمرَ رضي الله عنه قال: أعطى النبيُّ صلى الله عليه وسلم خيبرَ اليهود أن يَعملوها ويزرعوها، ولهم شطرُ ما يخرجُ منها.

ويفهم من الحديث أن يهود خيبر لم يخرجوا منها وفرضت عليهم الجزية في ثمار مزارعهم.

ويورد البخاري حديثاً آخر برقم (٤١٤٧)، هذا نصه: حدَّثنا إسماعيل قال: حدَّثني مالكٌ عن عبدِ المجيد بن سهيلٍ عن سعيدِ بن المسيَّب عن أبي سعيد الخُدْريِّ وأبي هريرةَ: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم استعملَ رجلاً على خيبرَ، فجاءهُ بتمرٍ جَنيب. . .الخ.

ويفيد الحديث أن مزارع خيبر بقيت ملكاً ليهودها. وهناك حديث ثالث يورده البخاري برقم (٤١٤٨)، وهذا نصه: وقال عبدُ العزيز بن محمد عن عبدِ المجيد عن سعيد أنَّ أبا سعيد وأبا هريرةَ حدَّثاه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعثَ أخا بني عديّ من الأنصار إلى خيبرَ، فأمرَهُ عليها.

مما يعني أن الرسول قد كلف جابياً للجزية التي فرضت على يهود خيبر. وهذا ما يؤكده مالك في الموطأ في الحديث رقم (١٤٠١)، ونصه: وحدَّثني مَالِكٌ، عَنِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْن يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ للّهِ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ للّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إلى خَيْبَرَ، فَيُخَرِّصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ. . .الخ.

ويورد مالك حديثاً برقم (١٦٢٨) يؤكد فيه أن عمر بن الخطاب هو من أجلى يهود خيبر ويهود فدك وليس الرسول، وهذا نص الحديث: وَحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنِ ابن شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله قَال: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ ابن شِهَابٍ: فَفَحَصَ عَنْ ذلِكَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ حَتَّى أَتَاهُ الثَّلْجُ وَاليَقِينُ، أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ.

قَالَ مَالِكٌ: وَقَدْ أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَهُودَ نَجْرَانَ وَفَدَكَ. فَأَمَّا يَهُودُ خَيْبَرَ فَخَرَجُوا مِنْهَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ وَلاَ مِنَ الأرض شَيءٌ. وَأَمَّا يَهُودُ فَدَكَ فَكَانَ لَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ وَنِصْفُ الأَرْضِ. لأن رَسُولَ الله كَانَ صَالَحَهُمْ عَلَى نِصْفِ الثَّمَرِ وَنِصْف الأَرْضِ. فَأَقَامَ لَهُمْ عُمَرُ نِصْفَ الثَّمَرِ وَنِصْفَ الأَرْضِ. قِيمَةً مِنْ ذَهَبٍ وَوَرَقٍ وَإِبْلٍ وَحِبَالٍ وَأَقْتَابٍ. ثُمَّ أعْطَاهُمْ القِيمَةَ وَأَجْلاَهُمْ مِنْهَا.

مع ملاحظة أن من زعم أن الرسول قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب هو ابن شهاب الزهري، وليس الرسول، لأن الرسول وبكلام ابن شهاب نفسه، لم يجلهم، ومات عليه الصلاة والسلام وفي جزيرة العرب إسلام ويهودية ووثنية ومسيحية، على الأقل، ولم يخرج اليهود من خيبر إلا عمر بن الخطاب، إن كان قد أخرجهم بالفعل.

ومما يؤيد أن ابن شهاب لم يكن دقيقاً في خبره حول اجتماع دينين في جزيرة العرب، أن يهود نجران الذي يزعم أن عمر أجلاهم بقوا فيها على الأقل إلى أن قامت إسرائيل، إن لم يبقوا فيها إلى اليوم، مثلما بقي يهود اليمن فيها حتى الآن، واليمن جزء من جزيرة العرب بل هي قلب الجزيرة النابض.

ولتأكيد أن جل ما زعمه ابن هشام من أحداث وقعت في غزوة خيبر ما هو إلا أساطير، نورد ونناقش ثلاثة منها، وهي:

أمر الشاة المسمومة:

يقول ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها؛ فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأما بشر فأساغها. وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت؛ فقال: ما حملك على ذلك قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومات بشر من أكلته التي أكل.

ولا يمكن تصور أن يقاتل الرسول اليهود ويقتل رجالهم ثم يأمن امرأة منهم لتقدم له الطعام. وحتى لو افترضنا أن هذه القصة قد حدثت، فإن الرسول وإن سامح المرأة على محاولة قتله، فقد كان يجب أن يقيم عليها حد القصاص لأن سمها قتل بشراً، وهذا ما غفل عنه مختلق القصة.

ومثل هذه القصة ما رواه ابن هشام في قوله: مقتل غلام رفاعة الذي أهداه للرسول:

قال ابن إسحاق: فحدثني ثور بن يزيد، عن سالم، مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادي القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام له، أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، ثم الضبيني. قال ابن هشام: جذام، أخو لخم. قال: فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله؛ فقلنا: هنيئاً له الجنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه في النار، كان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر. اهـ.

ويلاحظ أن الرجل قتل بعد انصراف الناس من خيبر ووصولهم إلى وادي القرى، أي بعد أن ابتعدوا عن اليهود، ولم يكن في جيش المسلمين إلا المسلمون، ويكون السهم الذي قتل الغلام قد جاء من جيش المسلمين. فكيف لم يعرف القاتل ولم يقتل قصاصاً؟

ثم إن كان الغلام (العبد) قد سرق من غنائم خيبر، فهل هذا يكفي لكي يحكم عليه الرسول بأنه في جهنم، وكأن أمر عباد الله ومصيرهم في الآخرة، يشاور فيه الرسول أو يكون له فيه رأي، تعالى الله عن ذلك. فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما سيحل به وبأمته يوم القيامة: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (الأحقاف: ٩).

والخبر الثالث الذي أورده ابن هشام، جاء بهذا النص: عقوبة كنانة بن الربيع:

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من يهود، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت كنانة

يطوف في هذه الخربة كل غداة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟ قال: نعم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه. أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام، فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزندٍ في صدره، حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

انتهى هذا الخبر الذي من الواضح أن من اختلقه عاش في عصر تسلط السلاطين وزبانيتهم على الناس، وإلا فرسول الله لا يستطيع أن يأخذ الناس بالتهمة من دون تثبت، ولا يستطيع أن يعذب الناس ليجبرهم على الاعتراف، ولا يستطيع أن يستولي على أموال الغير ولو كانوا يهوداً، ولو فعل الرسول ذلك فإن ما يفعله شطار المباحث والاستخبارات العرب بالمسلمين سنة نبوية يثابون عليها عند أرحم الراحمين.

وإن كان في هذا الخبر أي حقيقة فهي أن هناك رجلاً يهودياً قتل محمود بن سلمة وأن أخيه محمد بن سلمة قتل اليهودي بثأر أخيه، ويكون الرسول عليه الصلاة والسلام لا ناقة له في القصة ولا جمل. ومحمود يزعم ابن هشام أنه قد أسقط عليه رحى من أحد حصون خيبر، ولكنه يقول بأن من أدلى الرحى يهودي اسمه «حرب» وليس كما يقول هذا الخبر من أن اسمه كنانة بن الربيع.

ويكون ما حدث في خيبر هو حصار واستسلام ونفي ليهود يثرب ومن عاونهم من يهود خيبر، أما بقية يهود خيبر فقد فرضت عليهم الجزية كعقاب لهم على نقض عهدهم مع المسلمين باستضافة يهود يثرب وحمايتهم، ولم يكن هناك قتال وإن قتل رجل أو اثنين من الصحابة نتيجة إسقاط رحى على أحدهم من فوق أسوار قلعة أو حصن لليهود وقتل الآخر بسهم. ويكون ما نقله ابن هشام من زعمه أو زعم ابن إسحاق أو غيره، ما هو إلا أساطير مختلقة لا تتوافق مع الواقع.

والحديث عن اليهود وعلاقتهم بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام لا ينتهي قبل الحديث عن غزوة تبوك.

غزوة تبوك

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأنفسهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (التوبة: ١٢٠).

غزوة تبوك جاء ذكرها في القرآن الكريم بتفصيل يكاد لا يماثله تفصيل آخر عن غزوة من غزوات الرسول، ومن ذلك أن سورة التوبة استمرت في الحديث عنها من الآية (٨٢) وحتى آخر آية في السورة ورقمها (١٢٩) بشكل متواصل. وقد أظهرت تلك الغزوة بوضوح أن من يعتبرون من المسلمين في ذلك الوقت، ليسوا كلهم كذلك، وبموجب موقفهم من تلك الغزوة يمكن تقسيمهم إلى عدة أقسام حسب إيمانهم، كما يلي:

* كان هناك مؤمنون صادقون، وهم أنواع:

١ ـ مؤمنو المدينة الذين بادروا بالخروج مع الرسول وساهموا بنفقات الغزوة:

قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ١٠٠).

وقال تعالى: لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ١١٧).

وهؤلاء أعد الله لهم أجراً عظيماً، يقول تعالى: لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ

جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ٨٨-٨٩).

٢ ـ مؤمنو الأعراب الذين بادروا بالخروج مع الرسول وساهموا بنفقات الغزوة، وقد ذكرتهم الآية التالية: وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ٩٩).

٣ ـ ومؤمنون فقراء لم يجدوا ما يتسلحون به، أو ينفقون منه: لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ٩١).

٤ ـ ومؤمنون لا يجدون مطية تقلهم: وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (التوبة: ٩٢).

٥ ـ ومؤمنون غلب عليهم الضعف البشري فتخلفوا، لكنهم اعترفوا بذنبهم: وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفسهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (التوبة: ١١٨).

ويقول تعالى: وَآخَرُونَ اعترفواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ١٠٢).

* كان هناك منافقون، أي من أشهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأولئك كانوا على نوعين:

١ ـ منافقون من أهل المدينة، أي ممن أعلن إسلامه من الأوس والخزرج واليهود، وفي ما يلي الآيات التي ذكرتهم:

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ. فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ. فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاستأذنوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ

عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ. وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ. وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أنفسهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ. وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ استأذنكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ. رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (التوبة: ٨١-٨٧).

٢ ـ وهناك منافقون من الأعراب الرحل حول المدينة، ومن الآيات التي ذكرتهم:

قوله تعالى: وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبة: ٩٠).

وقوله تعالى: الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٩٧) وقوله تعالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (التوبة: ١٠١).

وكلا النوعين من المنافقين قد غضب الله عليهم ووعدهم نار جهنم، يقول تعالى:

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فإِن اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبة: ٩٣-٩٦).

* وهناك نوع ليسوا من المنافقين ولا من صفوة المؤمنين، ذكروا في هذه الآية: وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ١٠٦).

وفي آخر سورة التوبة يشدد القرآن على أن الخروج لغزوة تبوك والمساهمة

بتجهيز جيشها، كان واجباً على كل من قال بأنه مسلم سواءً كان من حاضرة المدينة أو من البادية التي حولها. يقول تعالى: مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأنفسهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (التوبة: ١٢٠).

ومن طلب منه الخروج عليه أن يخرج، ومن طلب منه البقاء لحماية المدينة فليبق، ولكن ليس لأحد الخيار في رفض الذهاب من تلقاء نفسه: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة: ١٢٢).

وتقول الآية التالية بأن على كل من يخرج لخوض معركة ضد الأعداء، فعليه أن يقاتل بكل ما أوتي من شدة وغلظة لكي يرهب الأعداء جانب دولة الإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (التوبة: ١٢٣).

والآيات السابقة تظهر أن غزوة تبوك كانت في غاية الأهمية بالنسبة إلى الإسلام، لدرجة أنه قد طرد من تخلف عنها من رحمة الله، بينما وعد من خرج إليها بمغفرة من الله ورضواناً.

ومع ذلك فلا القرآن الكريم ولا كتب الأخبار تذكر أن الرسول قد التحم في قتال مع الأعداء في تبوك، وكل ما يشير إليه الإخباريون أن الرسول والمسلمين معه قد قطعوا مسافة تقارب (١٠٠٠) كيلومتر من الفيافي المقفرة والموحشة وفي فصل الصيف الملتهب، الذي تجف فيه المياه الشحيحة التي قد تكون خلفتها أمطار الشتاء، وعندما وصلوا إلى تبوك لم يقاتلوا أحداً ولم يطل بهم البقاء هناك، وقفلوا عائدين إلى المدينة قاطعين مسافة (١٠٠٠) كيلو متر أخرى.

وكل ما يورده ابن هشام، الذي يعتبر عميد المؤرخين المسلمين والمصدر الرئيسي لمن جاء بعده من المؤرخين، حول ما فعله الرسول بتبوك، هو قوله: ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة، صاحب

إيلة[1]، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتاباً فهو عندهم.

وكأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد خرج لغزوة تبوك ليوقع تلك المعاهدة ويعود، ولو استعرضنا نص تلك المعاهدة لوجدنا أنها لا تشير إلى الجزية من بعيد ولا من قريب، ولكنها عبارة عن كتاب تعاون وسلام بين المسلمين وأهل إيلة، وهذا نصها كما أوردها ابن هشام:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل إيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه، من بر أو بحر. اهـ.

وممن كتب عن غزوة تبوك بجانب ابن هشام، الطبري، والذي ينقل حرفياً من ابن هشام. وهناك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية الذي انتهى فيه إلى تسجيل حوادث سنة (٧٦٧هـ)، أي أنه يفصله عن غزوة تبوك أكثر من (٧٥٠) سنة. وابن كثير يظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان هدفه من غزوة تبوك هو غزو الروم، ولو كان هدف الرسول ما ذكره ابن كثير لواصل السير إلى بلاد الشام وهي الأرض التي يسيطر عليها الروم، ولما رجع من تبوك، التي كانت خارج سيطرتهم.

ولو كان هدف الرسول عليه الصلاة والسلام من الرحلة هو توقيع معاهدة مع صاحب إيلة أو أهل جرباء وأذرح، لكان بإمكانه أن يرسل لهم سرية وفي وقت أكثر ملاءمة، بدل أن يقود الرسول بنفسه أكبر جيش استطاع تجميعه من المسلمين، وفي وقت شحت فيه الأرزاق وندرت فيه المياه، في رحلة شاقة «غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ» فقط ليوقع تلك الاتفاقية.

وعندما لم يجد الإخباريون ما يكتبونه عن غزوة تبوك كتبوا كل ما نسجته

---

(١) هي إيلات أو العقبة الحالية.

أخيلتهم وأخيلة غيرهم مما يتداوله الناس، ومن غريب وعجيب ذلك، ما نقله ابن كثير وبعض كتبة الحديث على لسان سعيد بن غزوان عن أبيه، ما نصه في البداية والنهاية: وقال أبو داود: ثنا أَحمد بن سعيد الهمداني وسليمان بن داود. قالا: أَخْبَرَنَا ابن وهب، أخبرني معاوية عن سعيد بن غزوان، عن أبيه: أنه نزل بتبوك وهو حاج، فإذا رجل مقعد، فسألته عن أمره فقال: سأحدّثك حديثاً فلا تحدّث به ما سمعت أني حيّ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بتبوك إلى نخلة فقال: هذه قبلتنا، ثم صلّى إليها، قال: فأقبلت وأنا غلام أسعى حتى مررت بينه وبينها، فقال: قطع صلاتنا قطع الله أثره. قال: فما قمت عليها إلى يومي هذا. ثم رواه أبو داود من حديث سعيد بن عبد العزيز التنوخي، عن مولى ليزيد بن نمران، عن يزيد بن نمران. قال: رأيت بتبوك مقعداً فقال: مررت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا على حمار وهو يصلي فقال: اللهم اقطع أثره، فما مشيت عليها بعد. وفي رواية: قطع صلاتنا قطع الله أثره.

وبطبيعة الحال هذا قذف صريح للرسول بالفحش من القول، واتهام لله بمعاقبة غلام بريء لا يفقه ما يفعل فقط لكي يرضي نبيه. أعوذ بالله العلي العظيم.

وقصص وحكايات أخرى مماثلة، وما عدى ذلك فلم يذكر الإخباريون أن الرسول قد فعل شيئاً له علاقة بالجهاد في مستقره بتبوك.

فإذا كان من غير المعقول أن يتحدث القرآن عن هذه الغزوة ويظهرها بهذه الأهمية ويحشد لها الرسول كل ما أوتي من قوة ورباط الخيل، ليسافر ذلك السفر المضني، فقط لكي يمكث في تبوك لبضعة أيام ويعود إلى المدينة، فما الذي دفع بالرسول للذهاب إلى تبوك في تلك الظروف المناخية والمعيشية والتسليحية القاسية؟

الهدف من غزوة تبوك

لو تساءلنا أين ذهبت فلول يهود يثرب الذين أجبروا على الخروج منها، لوجدنا أن الإخباريين يقولون أن بعضهم كان قد واصل مسيره من يثرب إلى بلاد الشام، والبعض استقر في خيبر. ولما فتحها المسلمون أجلي يهود يثرب منها، فتوجهوا إلى بلاد الشام.

ومسيرهم باتجاه الشام منطقي جداً، ومن المؤكد أنهم قد سلكوا الطريق الرئيسية التي توصل إلى العلا، ولكنهم لم يستقروا فيها، إما لأن أهلها لم يرحبوا بهم أو لأي سبب آخر، فواصلوا المسير مروراً بتيماء، ومنها وصلوا إلى تبوك. وبما أن تبوك منطقة تتوفر فيها المياه، وطقسها أقل حدة في حرارته من يثرب، وغير مأهول في ذلك الوقت، فقد يكون من المحتمل أنهم حطوا الرحال هناك لبعض الوقت.

ونتيجة لما يحملونه من مشاعر حقد وكراهية للمسلمين الذين قتلوا ساداتهم، وأخرجوهم من ديارهم في يثرب، أولاً، ثم لاحقوهم إلى خيبر وأخرجوهم منها، فمن المتوقع أنهم عاودوا نشاطاتهم العدائية للمسلمين والإسلام، ومن ذلك تحريض الغساسنة ومن خلفهم الرومان، حكام الشام، على المسلمين.

ويكونوا قد أعادوا الكرة في محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد، فكان خروج رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على رأس جيش كبير إلى تبوك في رجب من السنة التاسعة من الهجرة، أي بعد فتح مكة وفي آخر أيام رسول الله، وقد عزم على سحق اليهود حتى لا يقفوا في وجه انتشار دعوة الإسلام في شمال جزيرة العرب وبلاد الشام.

ولكنهم على ما يبدو قد علموا بقدوم الرسول إليهم فسارعوا بالهرب من تبوك قبل وصوله إليها، ودخلوا بلاد الشام التي يسيطر عليها الرومان، ولذلك لما وصل الرسول إلى تبوك، وقد أخلاها اليهود قفل راجعاً إلى المدينة، ولم يغامر بالدخول إلى بلاد الشام، لأنه لو فعل فسيعتبر الرومان ذلك إعلاناً للحرب عليهم، وجيش المسلمين لا قبل له بهم، ولأن الرومان لم يصدر منهم أي عداء لمحمد ودعوته الإسلامية، حتى تلك اللحظة، والحرب في الإسلام لا تسن إلا على من وقف ضد انتشار الدعوة أو ابتدر الحرب ضد المسلمين، أو صدر منه أي نشاط عدائي، ولا تشن ضد الناس لأنهم لم يؤمنوا[١].

ويكون سبب غزوة بئر تبوك، هو ملاحقة فلول اليهود وإخراس أصواتهم

(١) هناك استثناء واحد حول عداء الغساسنة وليس الرومان للإسلام، والذي تمثل بقتل مرسل رسول الله إليهم والذي بسبب قتله كانت معركة مؤتة وبعث جيش أسامة وقد تحدثنا عن ذلك في فصل الجهاد.

المزعجة للإسلام إلى الأبد، ولذا أمر الرسول بالتجهز والخروج لتلك الغزوة على جناح السرعة مع أن الوقت كان صيفاً والمسلمون كانوا في عيشة ضنكاً، ولكن لم يكن بالإمكان التأخر إلى تحسن الأحوال المعيشية ونزول المطر في الشتاء، لأن كل يوم يمضي يعطي الفرصة لليهود لكي يبثوا دعايتهم المغرضة ضد الإسلام ويؤلبوا الغساسنة والرومان على المسلمين، وقد تجد تلك الدعايات صداً في نفوس الرومان فيحشدون الجيوش الجرارة ويقضون على الإسلام في مهده.

وإن لم يكن الهدف هو القضاء على فلول يهود يثرب، فليس هناك سبب واضح لقيام رسول الله عليه الصلاة والسلام بتلك الغزوة المضنية والرجوع منها بخفي حنين، كما يصور الإخباريون.

وبإسلام أغلب الأوس والخزرج والقضاء على يهود يثرب وإخضاع يهود خيبر لم يبق في المدينة من غير المسلمين سوى المنافقين، الذين سنعرض لأوضاعهم وما آل إليه حالهم، في الأسطر المقبلة.

المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم. إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (المنافقون: ١).

سبق وذكر أن دعوة الرسول يؤمن بها قليل من المستضعفين والضعفاء، ومعهم من يتطلع إلى فرص أفضل مع الوضع الجديد الذي سيخلقه الدين. وعادة ما يتعمق الضعفاء والمستضعفون في الدين ويقتنعون به مع الأيام، ويمارسوه بكل إخلاص ويقين، أما من دخل في الدين للبحث عن مستقبل أفضل، ففي الغالب أنه لا يجد ما يبحث عنه، لأنه يبحث عن غايات تتنافى وسائلها مع تعاليم الدين وتشريعاته، فيتحول بعض الباحثين عن الفرص إلى منافقين، يظهرون تمسكهم بتعاليم الدين ويبطنون خلاف ذلك، وسوف نتعرض لما قاله القرآن عنهم في فصل «المسلمون والتظاهر بالدين».

وقد كان أولئك المنافقون يظهرون جانباً من حقيقتهم عندما يكون المسلمون في ظرف حرج أو ضعيف، مثلما حدث أثناء حصار الأحزاب للمدينة، واعتقاد المنافقين أن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، بناءً على كثرة عدد المهاجمين وقوتهم، مقارنة بالمسلمين المحاصرين.

يقول تعالى عما كان يدور في أذهان المنافقين في تلك الأوقات: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً. وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ

يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً. قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَو الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أعمالهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً. يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (الأحزاب: ١٢-٢٠).

ولأن المنافقين يبحثون عن مصالحهم بأي وسيلة، فقد كان من مصلحتهم أن ينتصر اليهود على المسلمين في وقت من الأوقات، ولذلك آزروهم، وواعدوهم، وقد تحدث القرآن عن ذلك: أَلَمْ تَر إِلى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ. لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَو مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ. كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسان اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (الحشر: ١١-١٧).

ويبدو أن اليهود قد صدقوا كلام المنافقين وخرجوا لملاقاة المسلمين، ولكن المنافقين لم يحاربوا معهم كما وعدوا وتخلوا عنهم كما (الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسان اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ).

وخلال السنوات الأولى للرسول في المدينة، كان القرآن ينزل على الرسول بأفعال المنافقين، ويتوعدهم بنار جهنم: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (النساء: ١٤٥).

ولكن لم يؤمر الرسول باتخاذ أي تصرف ضدهم، إلا عندما كثر أذاهم لنساء المسلمين ونساء الرسول، فنزل أول تهديد بفرض عقوبات جسدية عليهم: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (الأحزاب: ٦٠-٦١).

ويبدو أنهم كفوا عن تلك الممارسات، خوفاً من النفي أو القتل، لأن التاريخ لم يسجل أن الرسول قد أوقع عليهم تلك العقوبة التي نصت عليها الآيات السابقة، ولكن بقيت مؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين بطرق أخرى.

وفي آخر حياة رسول الله، وبعد القضاء على يهود يثرب ومن تعاون معهم وآواهم ونصرهم من بني عقيدتهم في خيبر، ومن ثم ملاحقتهم في تبوك، وقطع دابرهم إلى الأبد، وبعدما أصبحت مكة، بيت الله الحرام، تحت سيطرة المسلمين، وكسرت شوكة كبراء قريش والطائف، واستسلمت قبائل الجزيرة لسلطة دولة الإسلام، لم يبق عدو محارب للمسلمين سوى المنافقين، والذين أرادوا أن يجربوا كمحاولة أخيرة إخراج الرسول من المدينة على الأقل، لكي تكون لهم خالصة، وتلك النوايا أخبر بها القرآن في قوله تعالى: يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (المنافقون: ٨).

فنزل الحكم عليهم من السماء: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (التوبة: ٧٣).

وتكرر نزول الآية مرة أخرى للتأكيد على الحزم في التعامل معهم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (التحريم: ٩).

ولأن المنافقين شهدوا ما حل باليهود، وكيف طبق المسلمون بحقهم ما نزل فيهم من تشريعات قرآنية، فقد تأكد لديهم أن ما نزل بحقهم هم سوف يطبق بكل صرامة، فخرست ألسنتهم ولم يعد يسمع عنهم ما يقلق المسلمين أو يزعجهم، على الأقل في الزمن الذي بقي فيه الرسول على قيد الحياة.

وهكذا قضي على أعداء دين الله بمختلف ميولهم وعقائدهم في يثرب ومن

بعدها خيبر، وحتى في المدينة[1]، وجرت عليهم سنة الأولين التي جرت على غيرهم من الأمم السابقة التي ذكرها القرآن والذين كانوا يعيشون في أماكن متفرقة وأزمنة متباعدة. ومثلما سيقضى على كبراء قريش، وهوازن في الطائف، وما يتبع ذلك من إذعان لبقية قبائل جزيرة العرب لسلطة دولة الإسلام، لكي يكون الدين كله لله، ويظهره على الدين كله: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف: ٨ ـ ٩)

وسنتحدث عن قريش وهوازن وبقية قبائل الجزيرة في الفصول المقبلة، ولكن قبل ذلك سنتوقف هنا للحظات.

وقفة مهمة

سبق وذكرنا في الحديث عن غزوة خيبر أن ما أورده الإخباريون، نقلاً عن ابن هشام أو غيره، ما هو إلا قصص وحكايات مختلقة لم تحدث على أرض الواقع، ومن الغث الذي تمتلئ به كتب المفسرين والمحدثين والمؤرخين وغيرهم من الإخباريين، ما قيل بأن جيش المسلمين سبى بنات يهود خيبر، وأن صفية بنت حيي بن أخطب اليهودي كانت من نصيب رسول الله، وأنه دخل بها مباشرة بعد قتل أبيها وفي اليوم التالي لمقتل زوجها، وقصص أخرى مشابهة. ومن يؤمن بأن الرسول لا يستطيع مخالفة الوحي المنزل عليه، وأن كل تصرفاته نابعة من ذلك الوحي، وأن خلقه القرآن، يجد أنه من المستحيل أن يصدق الإخباريين فيما سطرته أقلامهم من حكايات عن تلك السبايا لعدة أسباب هامة، منها:

* إن الإسلام جاء ليبطل عادة السبي والرق، وليقول للناس إنهم جميعاً عبيداً لله، وليس هناك بينهم سيد وعبد، لأن العبودية لله فقط. وإن من سولت له نفسه أن يستعبد الناس فقد حاول مشاركة الله جل وعلا في ملكه، وهو الذنب الوحيد الذي لا يغفر.

---

(١) يثرب تطلق في الأصل على قلاع وحصون اليهود، ولما هاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه نزلوا خارج حصون يثرب، والتي نميل إلى أن تلك المناطق التي استقروا فيها هي التي عرفت باسم المدينة، وقد خربت يثرب وأجلي اليهود منها، بينما بقيت المدينة.

* ولذلك يخلو القرآن الكريم من أي آية تجيز للمسلمين سبي نساء واسترقاق رجال الأقوام الذين يحاربونهم. وكل ما ورد في القرآن من آيات تذكر أنه كان يوجد في المجتمع «ملك اليمين» من بقايا العادات الجاهلية.

* وإن تلك العادة المقيتة جاء الإسلام ليضع لها نهاية أزلية، وذلك بتحريم السبي واسترقاق الأسرى، ولكن من دخل الإسلام من جنود الفتح أعادوا تلك العادة الجاهلية وأصبحت سمة بارزة من سمات جيوش الفتح الإسلامي على مدى قرون، وقد جاء كتبة السير والتاريخ والحديث ليخترعوا قصة سبي الرسول لصفية بنت حيي بن أخطب وغيرها لكي يضيفوا على ممارساتهم مع الجواري واستباحتهم لهن، صفة شرعية، وكأنها اقتداء بالرسول. وإلا فالسبي سلب لحرية المرأة وممارسة الجنس معها خارج حدود الشرع التي وضعت على شكل زواج، هو زنى محرم. والمسلمون نزل عليهم قرآن ينهى وبشدة عن أن تغتصب النساء أو تجبر من دون رضاها على معاشرة من لا ترغب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء: ١٩).

فهل يعقل أن يتناسى الرسول ذلك؟

* ويمكن الرجوع إلى موضوع الجهاد للتأكد من أن ضوابط الجهاد لا تبيح سبي نساء الأعداء المحاربين منهم أو المسالمين، فكيف سمح الرسول لنفسه أن يسبي صفية بنت حيي وهي امرأة لم ترفع السلاح على المسلمين، وحتى لو كان والدها ألد أعداء الله فما ذنبها هي أن تؤخذ بجريرة والدها، والقرآن يقول: وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (البقرة: ٢٨١) فإذا كان الناس سيحاسبون بما اقترفت أيديهم بمحض إرادتهم، ولن يظلموا شيئاً في الآخرة، فهل يسمح سبحانه بالظلم في الدنيا، ويبيح سلب المرأة حريتها وشرفها وكرامتها دون أن يحاسب الرجل الذي فعل بها ذلك.

* وإذا كان حيي بن أخطب والد صفية، قد قتله المسلمون، وقتلوا زوج صفية

يوم خيبر، فهل يعقل أن يتسرى بها الرسول في اليوم التالي، دون اكتراث لمشاعر الحقد والغضب التي لا بد أنها شعرت بها تجاهه؟

* والرسول لا يمكن أن يصدر منه تصرف فيه تلك الغلظة والجبروت والبعد عن الرحمة والشفقة، وقد وصفه القرآن بأنه كان رحيماً رقيق القلب: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩).

* ثم إن ضوابط الجهاد التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسوله كآيات تتلى ويعمل بها، تنهى عن سبي النساء وقتل من لم يحمل السلاح على المسلمين، والتعرض للممتلكات، وأن الأسرى لا يتم استرقاقهم بل يخيرون بين المن المجاني أو الفداء، ولا يبيح القرآن رق الرجال ولا سبي النساء. ولكنهم رجال الأخبار من حوروا الدين وحرفوه بقصصهم وحكاياتهم التي خطتها أقلامهم من نسج خيالهم وجعلوها صورة للإسلام، وتبعناهم في ذلك دون تمحيص لأقوالهم أو تفكير بشطحاتهم.

وقد بقيت عادة امتلاك الجواري عن طريق سرقة النساء، من داخل أو خارج بلاد المسلمين، وبيعهن للحكام والتجار، حتى الستينات من القرن العشرين في شبه الجزيرة العربية، وهو إكراه على البغاء توعد الله من يفعله في كتابه العزيز.

والقرآن تكرر فيه ذكر ملك اليمين، لأنه نزل في مجتمع يقر الرق، ولكنه لم يبتدعه للناس، ولم يحله لهم. ولو سئل أي فقيه سابق أو لاحق عن موقف الإسلام من الرق لقال بلا تردد: إن الإسلام يحارب الرق.

فالرق عادة جاهلية، حيث كانت العرب تمتلك الرقيق، سواءً من سرق من أهله من خارج وداخل جزيرة العرب، أو ممن يؤسرون من الرجال ومن تسبى من النساء في الحروب التي تجري بين القبائل. وكان الرجال يطلق عليهم الموالي، والنساء الجواري. والقرآن يطلق على الرقيق من الجنسين مصطلح «ما ملكت أيمانكم» ويخلو القرآن من عبارة «رق» أو «رقيق» أو «استعباد» للحديث عن الرقيق. ومما ذكره القرآن عن «ما ملكت أيمانكم» ما يلي:

* القرآن يذكر أن الرق «ما ملكت أيمانكم» كان عادة جاهلية كانت موجودة

عندما جاء الإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (النور: ٥٨).

* وهناك آيات تبدو وكأنها تبيح العلاقة الجنسية مع «ما ملكت أيمانكم» ومن ذلك: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (المعارج: ٢٩-٣١).

* ولن نتساءل إن كان للنساء الحق في ممارسة الجنس مع ملك يمينهن، لأن القرآن خاطب النساء بأنه لا جناح عليهن في ملك اليمين: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدا (الأحزاب: ٥٥).

* ولكننا سنذكر بأن هناك آيات أخرى تؤكد أن العلاقة الجنسية مع «ما ملكت أيمانكم» ليست مباحة إلا بضوابط الزواج الشرعي: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: ٢٤).

فهذه الآية تؤكد على أن العلاقة الجنسية مع ما ملكت أيمانكم خارج إطار الزواج الشرعي، تكون سفاحاً وزنى «مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ». وهذا فيه مخالفة لما كان متبعاً في الجاهلية حيث تتم المواقعة من دون زواج.

وتقول الآية التي تليها: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فإن أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النساء: ٢٥).

وهذه الآية تؤكد أنه لا يباح إقامة علاقة جنسية مع «ما ملكت أيمانكم» ولكن يتم ذلك بزواج شرعي، وما عدا ذلك فزنى.

* والآية التالية تقول إن من لم يستطع الزواج بامرأة حرة فعليه أن يتزوج بأحد «ما ملكت أيمانكم»، وأن على الأغنياء الذين يملكون الإماء تسهيل تزويجهن ومد يد العون للزوجين حتى يتمكنا من فتح بيت الزوجية. يقول تعالىَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فإن اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النور: ٣٣) وهذه الآية تصف إقامة علاقة بما ملكت اليمين خارج نطاق الزوجية على أنه بغاء.

* وتكون الآيات التي تبدو وكأنها تبيح ممارسة الجنس مع الجواري، تكملها الآيات الأخرى التي تؤكد أن العلاقة يجب أن تتم ضمن إطار الزواج الشرعي، ويكون لا اختلاف ولا تعارض بين الآيات، أو أن الآيات التي تحرم العلاقة الجنسية مع الجواري خارج إطار الزواج، نزلت بعد الآيات الأخرى. ثم جاءت آيات الجهاد تحرم السبي واسترقاق الأسرى لتجفف منابع الرق وتنهيه إلى الأبد.

والمؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تزوج بعدد من النساء، توفي اثنتان منهما في حياته عليه الصلاة والسلام، وهن: خديجة بنت خويلد، وميمونة بنت الحارث. وتوفي عن عدد منهن: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش. ولم يتزوج الرسول بأي امرأة منذ أن نزلت عليه الآية (٥٢) من سورة الأحزاب، والتي نصها: لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً. وهذه الآية نزلت في السنة الخامسة للهجرة التي

وقعت فيها غزوة الأحزاب، بينما حدثت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة، والتي يزعم الإخباريون أن الرسول سبى فيها جويرية بنت الحارث ثم تزوجها. ووقعت غزوة خيبر في السنة السابعة، والتي يزعم فيها الإخباريون أن الرسول قد سبى صفية بنت حيي، وتزوجها.

وتكون قصة سبي صفية بنت حيي وتسري الرسول بها خرافة لم تحدث على أرض الواقع، وكذلك قصة جويرية بنت الحارث. ومن المحتمل أنه لا وجود لامرأة اسمها صفية بنت حيي إلا في مخيلة مخترع القصة. ولأننا فصلنا الحديث عن الرق والسبي في فصل «الحجاب» وفي فصل «الجهاد» فيمكن الرجوع إليهما للاستزادة، مكتفين بما ذكر هنا.

ونكون قد أنهينا الحديث عن موقف الناس في يثرب من الدين، وبقي التعرف على موقف الناس من الدين في مكة والطائف وبقية شبه جزيرة العرب.

مصادر الباب

- القرآن الكريم.
- موطأ مالك/ مالك بن أنس/ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- كتاب البخاري/ البخاري/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- التوراة جاءت من جزيرة العرب/ كمال سليمان الصليبي ـ دار الساقي -بيروت.
- خفايا التوراة/ كمال سليمان الصليبي/ الناشر؟
- معجم الأمثال والحكم/ أبو الفضل الميداني/ الناشر: دار ابن زيدون ـ بيروت.
- مقالات علمية منشورة على شبكة الإنترنت.
- سيرة ابن هشام/ ابن هشام/ دار المعرفة ـ بيروت.
- تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تهذيب الكمال/ أبو الحجاج المزي/ دار الفكر ـ بيروت.
- الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

الباب السادس

قريش

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

* كان المجتمع القرشي مجتمعاً نبيلاً آمناً وعاش بعيداً عن الحروب والغزوات التي تعصف بقبائل الجزيرة العربية.
* وكان للقرشيين منزلة خاصة تقرب من التقديس في عيون سكان كل جزيرة العرب، بحكم كونهم سدنة الكعبة والقائمين على أمر الحج.
* كان القرشيون يعتبرون أنفسهم ورثة دين أبيهم إبراهيم، ويظنون أنهم يدينون بدين الله الحق.
* كان القرشيون سادة حازوا الشرف والجاه والسؤدد، وتبعاً لقانون سنة الأولين فلم يكن من المنتظر أن يؤمنوا بمحمد، حتى لا يخسروا تميزهم وميزاتهم.
* ولم يؤمن بالرسول سوى قلة من العبيد والموالي والمستضعفين.
* ولو بقي محمد في مكة (١٠٠٠) سنة فلن يؤمن به إلا من قد آمن. وإن انضم للمسلمين نفر قليل بعد ذلك، ممن كانوا يتطلعون إلى أوضاع أفضل مع المجتمع الإسلامي من أوضاعهم في قريش.
* ومثل قريش كانت هوازن، حيث سخروا من محمد لما ذهب إليهم في الطائف يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وكذلك كان موقف زعماء القبائل الذين كانوا يحضرون في المواسم إلى مكة.

* وقد أهلك الله سبحانه كبراء مكة، فبعضهم مات في الحروب مع المسلمين، وبعضهم مات ميتة طبيعية، والبقية منهم استسلموا لقوة جيش الدولة الإسلامية يوم فتح مكة، فقضي على قوة كبراء قريش إلى الأبد.
* كما قضي على قوة كبراء هوازن وثقيف بعد معركة حنين، وإذعان زعمائهم لحكم دولة الإسلام بوضع مشابه لإذعان القرشيين.
* ولما ظهرت قوة دولة الإسلام سارع زعماء القبائل في جزيرة العرب إلى الحضور للمدينة لتقديم الولاء والدخول تحت سلطتها، دون أن يلامس الإيمان قلوبهم.
* وتكون دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قد مرت بالمراحل الأربع نفسها التي مرت بها كل دعوات الرسل السابقين، وسيمر بالمسلمين بعد الرسول ما مر بمن سبقهم، فسرعان ما سيتحولون عن الدين الحق إلى تشريعات ابتدعوها من عند أنفسهم، وسيتشرذمون إلى فرق وشيع لم ينزل الله بها من سلطان، وكل فرقة تدعي أنها تدين بدين الله الخالص دون غيرها من الفرق.

لا يحتل التأريخ والتوثيق الكتابي أي أهمية عند العرب، ولم يكن للعرب تاريخ متعارف عليه يؤرخون بموجبه حوادثهم الهامة، التي كانوا يتناقلونها من جيل إلى آخر بطريقة شفهية. حتى إن أهم الحوادث الإسلامية الأولى لم تسجل تواريخها، فليس معروفاً على وجه الدقة متى ولد الرسول ومتى بدأ دعوته ومتى هاجر إلى المدينة، وحتى اليوم الذي توفي فيه ليس معروفاً بشكل مؤكد، كما أنه لا يوجد سجل مكتوب يوثق تاريخ نزول الآيات القرآنية. وكان يمكن أن تبقى كل تواريخ الأحداث الإسلامية في علم الغيب لولا أن دخل في الإسلام أناس من أمم أخرى، هم على ما يبدو من اقترح وضع تاريخ إسلامي، وكان ذلك في السنة السادسة أو السابعة عشرة للهجرة، زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

وقد بدأ ذلك التاريخ الإسلامي الهجري بداية غير دقيقةً. ذلك أن المسلمين اتفقوا على أن تكون بداية التاريخ الهجري الأول من محرم لتلك السنة التي هاجر فيها الرسول، والرسول وصل المدينة مهاجراً في شهر ربيع الأول، أي بعد أن بدأ التاريخ الهجري بشهرين ونصف الشهر تقريباً.

وحتى بعد اعتماد التاريخ الهجري بقي الناس لا يؤرخون أحداثهم، وليس أدل على ذلك من أن الطبري في تاريخه ينقل عدة تواريخ لوفاة أبي التاريخ الهجري عمر بن الخطاب، حيث يقول: ثم توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين. وبعد عدة أسطر يرد ما يلي: قال أبو جعفر: وقد قيل إن وفاته كانت في غرة محرم سنة أربع وعشرين. ويورد الطبري عدة أقوال بأنه مات لأربع ليال بقين من ذي الحجة. وهناك من قال بأن عمر طعن لسبع بقين من ذي الحجة وقال غيرهم لست. وكما اختلف في يوم طعنه ووفاته، اختلف في مدة

خلافته. فهل كانت عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة، أم عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، أم غير ذلك.

وكل أمهات كتب التاريخ لدى المسلمين مليئة بإعطاء عدة تواريخ لولادة أو وفاة أحد الأعلام، بين كل تاريخ وآخر فارق زمني بالسنوات. واستمر الحال على ما هو عليه، حتى إنه قبل عقود قليلة لم يكن يعرف بالتحديد في أي سنة ولد أو مات الشخص، فيما يطلق عليه الآن المملكة السعودية وبعض دول الخليج، ولازال الوضع موجوداً في بعض مناطق اليمن وبعض الدول العربية الأخرى.

ولو فتح القارئ أي كتاب من كتب التاريخ والسير والتراجم فسيرى أنها تورد عدة تواريخ لولادة أو موت أحد المشاهير، وهذا دارج ومعتاد، ولعل أغرب تواريخ سردها كتاب من هذه الكتب لوفاة شخص هو ما أورده شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، المشهور بالذهبي، في كتابه المعروف/ سير أعلام النبلاء/ عن وفاة أحد أشهر رواد التفسير والفقه المسلمين مجاهد بن جبر، وهذا نص ما نقله: قال أبو عمر الضرير: مات مجاهد سنة مائة. قلت: هذا قول شاذٌ، فإن مجاهداً رأى عُمَر بن عبد العزيز يموت. وقال أبو نُعيم: مات مجاهد وهو ساجد سنة اثنتين ومائة. وكذا أرَّخَهُ الهيثم بن عديّ، والمدائنيُّ، وجماعة. وقال حمَّاد الخياط، وأبو عبيد، وجماعة: مات سنة ثلاثمائة. وقال ابن المدِينيّ وغيرُه: سنة أربعمائة، وجاء عن ابن المدينيّ: سنةَ ثمانمائة. رواه عنه ابنُه عبدُالله. وعنه سنةَ سبعمائة.

ورَوى محمد بن عمر الواقديُّ، عن ابن جريج، قال: بلغ مجاهدٌ ثلاثاً وثمانين سنة، وقال يحيى القطان وغيره: مات سنة أربعمائة. انتهى كلام الذهبي.

وكل من أراد من القراء أن يتأكد بنفسه من صحة ما جاء هنا، ما عليه سوى فتح كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي على الترجمة الخاصة بمجاهد. والتي أوردناها هنا لطرافتها.

ونعود إلى قريش التي لم يكن مهماً لديها أن تعرف متى يولد الشخص أو يموت، وليس لديهم سجل تاريخي بأحداثهم التاريخية ولو الهامة منها، مثل استيلاء قصي وتفرده بحكم مكة أو حرب الفجار، وكل ما كانوا يقومون به هو

اتخاذ الأحداث الهامة ليؤرخوا بها فيقولون ولد محمد عام الفيل، ولكن لا يعرفون في أي عام كان عام الفيل بالنسبة إلى الزمن.

وفي الوقت نفسه الذي يهملون به التواريخ، نجدهم يحرصون بشكل مبالغ فيه على تذكر وحفظ تسلسل النسب القبلي وإعادته إلى أصوله القديمة. لأن التفاخر بالأنساب سمة بقيت طاغية على السكان القدامى لجزيرة العرب، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم. سواءٌ منهم من كان أهل تدوين وكتابة مثل الشعوب اليمنية القديمة، من بقي منها في مواطنها الأصلية مثل الحميريين والسبئيين، ومن هجرها إلى بلاد الرافدين مثل الكلدانيين والآشوريين والسومريين والصابئة، وإلى بلاد الشام مثل الفينيقيين والعبريين والآراميين وغيرهم، أو من كانوا أميين لم تعرف الكتابة والقراءة طريقاً لحياتهم، من بقي منهم في مواطنهم الأصلية مثل العرب ومن هجرها إلى مصر وشمال أفريقيا مثل البربر والطوارق. ولازالت القبائل الحالية في الجزيرة العربية وبعض البلاد العربية الأخرى تحتفظ بسلسلة نسب توصلها إلى أصولها من القبائل في عصر ما قبل الإسلام.

وبما أنهم يعتمدون على الحفظ الشفهي، فقد عفا الزمن على الكثير من تاريخ جزيرة العرب، لدرجة أننا لا نعرف الكثير عن قريش قبل الإسلام، حتى إن «قريش» اللقب الذي يفخر به كل من ينتسب إلى هذه القبيلة، غير معروف الدلالة، ولا يعرف من أول من تلقب به على وجه الدقة ولا السبب الذي لقب من أجله به. فليس هناك جد أعلى للقبيلة اسمه قريش، تلك القبيلة التي تعود في نسبها إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وعدنان يتصل بنسب إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) بن آزر.

وعلى الرغم من أمية القرشيين، إلا أن اتصالهم بإبراهيم خليل الله والأب الروحي للجزيرة العربية، بالنسب والتبعية الدينية، ميزهم عن بقية سكان جزيرة العرب. وحتى بعد تحولهم عبر الأجيال عن ديانتهم الحنيفية (التوحيدية) إلى وثنية أشركت عبادة الأوثان بعبادة الله، فقد بقيت بعض مكارم الأخلاق التي دعا إليها دين إبراهيم وبقي معها بعض العبادات والتعاملات الدينية الأخرى في المجتمع القرشي، ومن ذلك الإقرار لله بالألوهية والحج والعمرة والأضاحي وختان الرجل.

كما ورث القرشيون حكم مكة وخدمة بيت الله الحرام. مما أشعر رجالها بالتميز عن بقية قبائل الجزيرة العربية، وجعلهم يتبارون في إظهار الصفات المكسبة للشرف، فترصعت سلسلة النسب القرشي بنجوم بقيت ذكراها منيرة بعد رحيلها.

ولعل أهم شخصية في تاريخ قريش هو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. فهو أول من أرسى حكم مكة للقرشيين وحدهم دون سواهم من أبناء أعمامهم من بني عبد مناة (خزاعة وبني بكر) الذين كانوا يسيطرون على حكم مكة بعدما انتزعوه من قبيلة جرهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم. ولكي تبقى مكة قرشية قام قصي بتقسيم الأرض حول الكعبة على بطون قريش وأمرهم ببناء بيوت لهم من الحجر والطين، بعد أن كانوا يقيمون في الخيام وبيوت الشعر. وهو أول من فرض على قريش دفع الرفادة، وهي خرج (رسم أو ضريبة) سنوية على القرشيين يدفعونه لقصي الذي يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم. كما كان لقصي الحجابة، وهي شرف ستر الكعبة، والسقاية، أي سقاية الحاج، والسدانة، أي شرف خدمة الأصنام وتنظيف الكعبة، والعمارة، وهي صيانة البيت والكعبة، واللواء، أي عقد لواء الحرب. إضافة إلى أن قريش كانت لا تقضي أمراً من أمورها إلا في دار الندوة التي ابتناها قصي لنفسه، والتي يتخذ فيها كل قرار هام.

وجاء بعد قصي ابنه عبد مناف الذي قال فيه الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصة لعبد مناف

وكان هاشم بن عبد مناف أول من أطعم الثريد للحجاج، وعندما مات آخر أبناء عبد مناف الأربعة واسمه نوفل بكاهم مطرود بن كعب الخزاعي بقصيدة جاء فيها:

أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات

أما عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقد كان أشهر رجال قريش المتأخرين، وقد ولي أمر الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، مثل جده قصي. وعبد المطلب هو الذي أمر بحفر بئر زمزم التي كانت قد ردمت قبل أمد طويل على يد قبيلة جرهم أخوال النبي إسماعيل بن إبراهيم كما يذكر ابن هشام في سيرته. كما كان عبد المطلب سيد قريش عندما قدم أبرهة الحبشي وجيشه لغزو الكعبة بما عرف بعام الفيل.

وقد استفادت قريش من وضعها الخاص بين قبائل الجزيرة، فعقدت معاهدات وأحلافاً تضمن لها عدم الدخول في حروب معهم وتسهل على قوافلها التجارية التنقل شمالاً للشام وجنوباً لليمن دون التعرض للسلب والنهب. إضافة إلى احترام الأشهر الأربعة الحرم (رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، والمحرم) ليتمكن الناس من الحضور إلى مكة من كافة مناطق الجزيرة لأداء الحج والعمرة دون خوف ولحضور سوق عكاظ الأدبي.

كما توصلت قريش إلى نمط من الحكم فريد من نوعه يجنب رجالها، التنافس والتناحر فيما بينهم من أجل المناصب القيادية. فقد تم إلغاء منصب الزعيم الأوحد، مع توسعة قاعدة الحكم. فأقاموا ست عشرة سلطة، أسندوا إلى كل بطن من بطون قريش سلطة منها يختار لها البطن من رجاله من يشاء. وكان من ذلك مسؤولية حجابة وسدانة البيت والاعتناء به وسقاية الحاج ورفادتهم أي إطعامهم، وإجازة الناس من مزدلفة. إضافة إلى مسؤولية عقد لواء الحرب وإنشاء مجلس لفض الخصومات يعقد في دار الندوة.

ومما فعلته قريش أيضاً إقرار حلف الفضول الذي يقضي برد المظالم لكل مظلوم موجود على أرض الحرم، حتى لو لم يكن من أهل مكة أو لم يكن من بني كنانة، وحتى ولو كان الظالم شريفاً والمظلوم وضيع النسب، فجاء ذلك الحلف ليقرب المجتمع المكي من أن يصبح مجتمعاً مثالياً للعيش، خاصة وأن قريش كانت في معزل عن الحروب الدائمة التي تعصف بقبائل الجزيرة العربية للنهب والسلب والثارات أو التنافس على الماء والكلأ.

ولعل قريش لم تدخل حرباً منذ أن أسس قصي مُلكها، إلا ما كان من حرب الفجار التي خاضها بنو كنانة، وقريش من ضمنهم، ضد قيس عيلان بسبب غدر رجل خليع من كنانة اسمه البراض بن قيس بن رافع برجل من بني قيس بن عيلان يلقب بالرحال، وقد حضرها الرسول مع أعمامه ولم يبلغ سناً تؤهله للاشتراك في القتال. وقد انتهت بالصلح على أن يعدوا القتلى فأي الفريقين فضل له قتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر. فدفعت بنو كنانة ومنهم قريش دية عشرون رجلاً، وانتهت الحرب بمعاهدة عدم اعتداء.

وعندما بعث محمد كانت مكة تعج بأعلام مشهورة من رجال قريش، أمثال:

ربيعة بن عبد شمس وأبناؤه عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، أبو البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم (أبو جهل)، العاص بن وائل بن سعيد بن سهم، الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، أبو طالب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي، وعبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، والمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، حرب بن أمية بن عبد شمس، وابنه أبو سفيان صخر بن حرب، أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. وغيرهم من سادات ملكوا الشرف والسؤدد والحكمة والجاه والمال وكل ما يمكن أن يفاخر به الإنسان في ذلك الزمن.

وفي ذلك المجتمع النبيل الآمن خرج رجل من أواسط رجاله يدعوهم إلى نبذ تراثهم الاجتماعي وطريقة حياتهم وديانتهم التي ورثوها في الأصل، عن أبيهم إبراهيم من بين سائر سكان جزيرة العرب، وكل مكاسبهم المادية والمعنوية التي ملكوها وامتازوا بها، مقابل وعود بجنة بعد الموت والفناء، دون أن يقدم لهم دليلاً مادياً واحداً يؤكد صدق وعوده. فكيف كان موقفهم منه؟

موقف قريش من الدين

كان مماثلاً لمواقف الأمم السابقة من رسلها، فكما أن مستكبري الأمم السابقين لم يؤمنوا، فإن مستكبري قريش بقوا على كفرهم أيضاً. وأغلب من سارع للإيمان بالرسول كان من المستضعفين، وهو تكرار لما حدث مع كل الرسل، لدرجة أنه لم يؤمن بالرسول في بداية الدعوة إلا خمسةُ أعبُدٍ وامرأتان وأبو بكر، كما يقول البخاري في الحديث الذي رواه على لسان عمار بن ياسر برقم (٣٥٨٠).

ويروي ابن هشام في سيرته والطبري في تاريخه وغيرهم من المؤرخين، كيف تعامل كبراء قريش مع من أسلم بغلظة وعداوة، وكيف أن الرسول ومن آمن معه كانوا يخرجون إلى الشعاب القريبة من مكة لتذاكر أمر دينهم، لأنهم لم يتمكنوا من

التجمع في مكة. وكيف أن كبراء قريش حاولوا أن يمنعوا محمداً من الاستمرار في دعوته، مرة بالطلب من عمه أبي طالب أن يوقفه ومرة بالتهديد والوعيد ومرة بالإيذاء الجسدي وتوجيه الكلام المؤذي له صلى الله عليه وسلم، وبطرق مختلفة أخرى.

ولم ينج أحداً من المسلمين من أذى قريش، وإن كان الأكثر تعرضاً للاضطهاد الرقيق والموالي، فقد ماتت سمية أم عمار بن ياسر تحت التعذيب، كما اضطر عمار، نفسه، من أن يدعي النكوص عن الإسلام للحفاظ على حياته، كما تروي كتب السير.

وبقيت آثار التعذيب غائرة في نفس ياسر إلى آخر عمره، حيث نجده قد انضم إلى جيش علي بن أبي طالب ضد جيش معاوية بن أبي سفيان في تنافسهما على الحكم. لأن معاوية يمثل بالنسبة إلى ياسر الصورة المجددة لقريش التي عذبته وأزهقت روح أمه في مكة، ولم يكن من المنتظر أبداً أن ينضم ياسر لجيش معاوية تحت أي ظرف من الظروف.

ولما اشتد الأمر على المسلمين اقترح الرسول عليهم النزوح إلى الحبشة، فكان أن خرج إليها ٨٣ رجلاً، بعضهم بصحبة زوجاتهم. وكانوا يمثلون جل المسلمين حينئذ، إذ لم يبق مع الرسول في مكة إلا بضعة رجال فقط.

وقد جاءت عدة سور في مجملها لتقول للرسول بأن ما يلقاه من تعنت كبراء قريش وعدم إيمانهم بدعوته، إنما هو موقف تكرر مع الرسل السابقين، لتبث العزيمة في نفسه صلى الله عليه وسلم لمواصلة الدعوة، وحتى لا يلوم نفسه وكأنه السبب في عدم إيمانهم، ومن تلك السور سورة الشعراء: بسم الله الرحمن الرحيم. طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (الشعراء: ١-٣).

وقد بدت آيات السورة في سردها لمواقف تلك الأمم وما حصل بينهم وبين رسلهم، وكأنها مكررة. لأن ما حصل لهم كان متشابهاً: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء: ١٠٦-١٠٩).

فنفس الآيات الأربع تكررت لتروي ما حصل مع هود: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ

أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء: ١٢٤-١٢٧).

ومع صالح: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء: ١٤٢-١٤٥).

ومع لوط: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء: ١٦١- ١٦٤).

ومع شعيب: إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء: ١٧٧-١٨٠).

وجاءت مواقف الأمم متشابهة من حيث رفض الدعوة، وإن اختلفت التبريرات بين أمة وأخرى. فقوم نوح برروا عدم استجابتهم لدعوة نوح بأن من آمن معه كانوا من المستضعفين ومن الطبقات الدنيا في المجتمع: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (الشعراء: ١١١).

بينما لم تؤمن عاد، لأن هود يدعوهم إلى دين سيغير مفاهيمهم وتراثهم الذي يمثل شخصيتهم الاجتماعية، مقابل وعود غيبية، لا يملك هود على صدقها دليلاً محسوساً: قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (الشعراء: ١٣٦-١٣٨).

أما ثمود فقد أطاعوا كبراءهم وزعماءهم الذين وقفوا ضد دعوة الفلاح، لأنها ستفقدهم مكاسبهم الشخصية: وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (الشعراء: ١٥١-١٥٢).

وطلبوا من هود تحقيق معجزة ليثبت لهم صدق دعوته، ليس لأنهم سيؤمنون لو فعل، ولكن لأنهم ظنوا أنه لن يستطيع تحقيق ذلك، فتقوم لهم الحجة عليه: مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الشعراء: ١٥٤).

فلما حقق لهم هود ما طلبوه لم يؤمن منهم أحد ولم يغيروا مواقفهم من

دعوته: قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُوم. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأصبحوا نَادِمِينَ (الشعراء: ١٥٥-١٥٧).

أما قوم لوط فقد امتنعوا عن طاعة الرسول لأن الدين سيحرمهم من متعهم الشاذة التي كانت مستحكمة في مجتمعهم: قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (الشعراء: ١٦٧).

وقوم شعيب لم يؤمنوا لسببين:

- أن شعيب سيمنعهم من مزاولة نشاطهم التجاري بالطرق التي اعتادوها ونبغوا فيها، لأن الدين يعتبرها غشاً تجارياً ومرابحات غير شرعية: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ. وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (الشعراء: ١٨١-١٨٤).

فرأوا أن ما يقوله لهم شعيب إنما هو كلام خارج عن المنطق لأنه ينهاهم عن الكسب، ولو أطاعوه فسيكونون كمن فقد عقله: قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (الشعراء: ١٨٥).

- أن شعيب كان رجلاً عادياً بالنسبة إلى قومه، ولذلك لم يؤخذ ما قاله على محمل الجد، لأن الحق يعرف عند الناس بالرجال، وشعيب ليس من السادة أو من البارزين في المجتمع، من ذوي الجاه أو المال أو السلطان: وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (الشعراء: ١٨٦).

وقد تشابهت النهايات لتلك الأمم، حيث ينجي الله الرسول ومن آمن معه ويهلك الباقين، وإن جاء الهلاك بطرق متنوعة، فقوم نوح أهلكوا بالغرق: فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (الشعراء: ١١٩-١٢٠) (((حذفت هنا جملة)))

وأهلكت عاد بالريح: وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (الحاقة: ٦).

وثمود أهلكوا بالزلزال: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأصبحواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (الأعراف: ٧٨).

وقوم لوط بالزلازل والبراكين: فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (هود: ٨٢-٨٣).

وقوم شعيب أو أصحاب الأيكة عوقبوا بالزلازل والبراكين أيضاً: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الشعراء: ١٨٩).

ولم يؤمن مع كل رسول إلا القلة القليلة من الناس، ولذلك تكرر قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. بعد الحديث عن قوم نوح في الآية ١٢١، وبعد الحديث عن قوم هود في الآية ١٣٩، وقوم صالح في الآية ١٥٨، وقوم لوط في الآية ١٧٤، وبعد الحديث عن قوم شعيب في الآية ١٩٠.

وكان الحديث عن كل قوم يختم بقوله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. حيث تكررت بعد الحديث عن قوم نوح في الآية ١٢٢، وبعد قوم هود في الآية ١٤٠، وبعد قوم صالح في الآية ١٥٩، وبعد الحديث عن قوم لوط في الآية ١٧٤، وفي الآية ١٩١ بعد الحديث عن قوم شعيب، وذلك للتأكيد على أن الله يعلم بأن كل قوم سيكررون مع رسولهم موقف الأمم التي سبقتهم الرافض للدعوة، ومع ذلك فإن إرسال الرسل استمر، حتى تقوم الحجة على من يكفر، وتشمل رحمته سبحانه من يعرف طريق الهداية.

وقد ذكر في السورة موقف فرعون وموقف قوم إبراهيم بعرض اختلف عن العرض الذي ذكرت به أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وذلك لأن فرعون كان يمثل الحاكم المتسلط الذي يجبر شعبه على اتباع سياسته، والذي انعدمت في مملكته حرية الرأي والفكر والتعبير، وكل من يخالف أوامر الحاكم يتعرض للسحق. كما أن كل مواطن في المملكة كأنه خلق لكي يخدم الحاكم ومن حوله من زبانية متنفعين، ويلبي طلباتهم ويسهل لهم وحدهم سبل العيش والتمتع بالملذات والخيرات. فأصبح الناس إما طبقة حاكمة وتابعين لها، مرفهة تعيش فوق القانون، أوطبقة فقيرة كادحة مسحوقه بلا حقوق. ومثل هذا المجتمع لن تنتشر فيه حركة الإصلاحات دينية أو مدنية إلا بأحد أمرين:

إما أن يفيق الحاكم لوضعه ويعود عن غيه، وهذا يعني الاعتراف لمن كان ينظر إليهم على أنهم أناس من الدرجة الثانية، بأنهم بشر مساوون له، ظلمهم وأخطأ في حقهم وأكل حقوقهم، وهو تنازل يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة والشفافية،

يندر أن يقدم عليه حاكم مثل فرعون، وتزداد صعوبة المهمة كلما كثر أفراد الأسرة الحاكمة وكلما زاد عدد المتنفذين حولهم، لأن هذا يعني أن كل شخص من هؤلاء سيفقد مصالحه وامتيازاته الشخصية لو عاد الحاكم إلى صوابه.

والأمر الثاني يتلخص بالقضاء على ذلك الحاكم وحكمه، ولن يتم ذلك إلا بثمن باهظ تزهق فيه الأرواح وتهدر فيه الأموال والممتلكات. ولم يتحرر بنو إسرائيل من التبعية إلا بهذه الوسيلة عندما أهلك فرعون.

أما موقف إبراهيم من قومه فجاء ذكره في السورة ليبرهن على أن العقل وحده كافٍ للهداية إلى وجود الخالق والتعرف على الحق من الباطل. فإبراهيم عرف بأن عبادة الأصنام باطلة، وأن هناك خالقاً للكون هو أحق بالعبادة نتيجة سماحه لعقله بالتفكير بلا قيود، وذلك قبل أن يختاره الله ليحمل رسالته، ويصبح أحد أنبيائه.

وهو ما يعني أن بإمكان أي فرد لو سمح لعقله بالتفكير بشفافية، أن يعرف طريق الحق، وأن يتراجع عن طريق الشر. فالهداية والغواية بيد الإنسان، وهو من يختار لنفسه سلوك أي من الطريقين: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (الإنسان: ٣).

وسورة الشعراء جاءت للتدليل على أن الناس في كل زمان ومكان لا يتقبلون الدين لأسباب مختلفة، ليس منها أن الدين ليس حق أو أن ما يدعو إليه غير معقول، ولكن لأن الإنسان يتعامى عن الحق حتى لا يفرط في مكاسبه المادية أو الاجتماعية أو السلطوية.

كما جاءت السورة لتقول لمحمد إن تعنت قومك وعدم إيمانهم بك ليس لأنك لم تبلغ رسالة ربك كما يجب، فلا تلوم نفسك (باخع نفسك)، وليس لأن ما تدعوهم إليه دعوة غريبة لم يدع بها أحد من الرسل قبلك، وليس لأنك لم تدعم دعوتك بمعجزات حسية تدل على صدق ما تدعو إليه، ولكن لأن الناس جبلوا على حب ما بأيديهم من دنيا، وسيختلقون لأنفسهم التبريرات اللازمة لبقائهم على مواقفهم، ومن ذلك أن ما يُدعَون إليه غير معقول ولا مقبول.

وقريش لن تكون بدعاً من الأمم، فمن لم يؤمن بك منهم فلن يؤمن، وسيطلبون منك معجزات كما طلبها من سبقهم، وسيكفرون بها لو جئتهم بها، كما كفرت بها الأمم السابقة، ولذلك لن يظهرها الله لهم.

وفي آخر السورة تأتي الآيات لتقول لمحمد إن الوحي الذي تتلقاه منزل من الله بواسطة أحد ملائكته الأمناء: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (الشعراء: ١٩٢-١٩٤).

وأنه وإن نزل بلغتك العربية فهو نفس الدين الذي أنزل على من سبقك من الرسل: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (الشعراء: ١٩٥-١٩٦).

ولو كانت قريش تبحث عن صدق دعوتك يا محمد، فسيكفيهم أن بني إسرائيل الذين يعيشون بقربهم يعرفون أن ما يقوله محمد متطابق مع دينهم الذي ورثوه من موسى: أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إسرائيل (الشعراء: ١٩٧).

ولو نزل القرآن بلغة غير العربية لتحججوا بأنها لغة أعجمية لا يفهمونها: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (الشعراء: ١٩٨-١٩٩).

ولكن كبراء قريش مثلهم مثل كبراء الأمم السابقة: لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (الشعراء: ٢٠١).

وإلا لو حكموا عقولهم لعرفوا أنهم لو تركوا يتمتعون بحياتهم كما يشاؤون، فسيأتي اليوم الذي يلاقوا مصيرهم المحتوم ليتركوا كل ملذات الدنيا خلفهم، وهو ما يعني أن الحياة أتفه من أن تكون غاية بحد ذاتها خلق الإنسان من أجلها فقط: أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧).

ولو أرادت قريش أن تؤمن لكان من السهل عليهم أن ينظروا حولهم إلى مخلوقات الله ليستدلوا على صدق الدعوة: أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (الشعراء: ٧).

ولكنهم مصرون على الكفر مثلهم مثل الأمم السابقة، التي لم تأخذ العبر من التاريخ: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ (الأنفال: ٣٠-٣١).

وبسخرية يطلبون أن تنزل عليهم العذاب: وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أو ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (الأنفال: ٣٢).

ولن يؤمنوا حتى لو جاءتهم معجزات محسوسة: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (الأنفال: ٧).

وكقاعدة إلهية، فإن حدوث المعجزات أو نزول الملائكة على أمة هو نذير بوقوع العذاب على من لا يؤمن بعد ذلك: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أو يَأْتِيَ رَبُّكَ أو يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتظرواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (الأنعام: ١٥٨).

ولو نزلت ملائكة في مكة لوقع العذاب وانتهى أمر كبراء قريش كمن سبقهم من الأمم، ولكن هذا لم يحدث لأن الإسلام لم يأت لقريش ولا للعرب، بل لكل الناس ولكل الأجيال حتى نهاية البشر، وما قريش والعرب إلا مرحلة أولى من مراحل الدعوة إن آمنوا فلأنفسهم وإن كفروا فعليها ولن يضروا الله شيئاً، وسيبقى دينه بهم أو من دونهم.

ولو أرسل الله ملكاً ليدعو الناس فمن المؤكد أنه سيتشكل بشكل آدمي وسيتصرف ويتحدث مثلهم: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (الأنعام: ٩).

لأنه لو بقي الملك على حاله فلن يتمكنوا من التواصل معه ولا رؤيته.

ولكن طلب قريش بإنزال الملائكة كان يحمل طابع السخرية وعدم التصديق برسالة محمد، وهو موقف سجل على كل الأمم قبلهم: وَلَقَدِ استهزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (الأنعام: ١٠).

ولو كان من طبع الإنسان أخذ العبرة من التاريخ لعرفت قريش بأنها لن تستثنى من القواعد الإلهية التي مرت على من قبلهم، وأنها إن لم تؤمن فسيكون مصيرها الهلاك، سواءً بكارثة طبيعية، أو بالحروب، أو بوسيلة أخرى: أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِين (الأنعام: ٦).

وقد جاء ذكر تلك الأمم السابقة في القرآن لأن قريشاً قد سمعت بها وتداولت أخبارها وعرفت مساكنها، ولو كانت تلك الأمم مجهولة لدى قريش، فلن يكون

لذكرها أي حكمة، ولن تكترث قريش لقصص عن أقوام لم يسبق لها أن سمعت بهم: أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ (السجدة: ٢٦).

وأكدت ذلك آيات أخرى بنفس الصيغة: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (طه: ١٢٨)

كما أن قوم صالح معروفة مدائنهم لقريش وكذلك مساكن قوم لوط والقرآن يؤكد ذلك بقوله: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (الصافات: ١٣٧-١٣٨) ومثل ذلك قوله تعالى عن مساكنهم أيضاً: وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (الحجر: ٧٦).

وهذا يعني أن كل الأمم المذكورة في القرآن كانت في جزيرة العرب، وإن كانت تتحدث بلغات تختلف عن اللغة العربية التي تتحدث بها قريش. لذلك كان من أحد أسباب اختيار محمد للرسالة حتى لا يقول المتحدثون باللغة العربية مثل قريش وحواضر نجد وباديتها وأجزاء أخرى من الجزيرة في ذلك الوقت، أن الرسالات السابقة خُص بها أناس آخرون في جزيرة العرب يتكلمون بلغات لا يتقنونها، مثل اللغة العبرية، أو لغات اليمن، ولذلك من الصعب عليهم فهم ما جاء فيها: أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (الأنعام: ١٥٦).

وأيضاً لتقام الحجة على المتحدثين بالعربية ببعث رسول منهم: أو تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ (الأنعام: ١٥٧).

فمحمد: ... جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أنفسكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ١٢٨) أرسل بلغة قومه مثله مثل من سبقه من الرسل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (إبراهيم: ٤).

كما أن من حكمة إرسال رسول زمن قريش حتى لا يتحججوا بأنهم ماتوا قبل

الرسول، ولو بعث فيهم لآمنوا به: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (طه: ١٣٤).

ولا يظن رجال قريش أن الله لن يعذبهم لأنك يا محمد منهم وبينهم، أو لأنهم يذكرون الله في الحرم: وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الأنفال: ٣٣).

فإن كانوا يعتقدون ذلك فإن هذا لن يمنع عنهم عذاب الله لأنهم وإن رددوا ما يعتقدون بأنه دعاء لله في بيته الحرام فلن يجعلهم ذلك أولياءه لأن أولياء الله من يتبع الرسول: وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (الأنفال: ٣٤).

ولأن صلاتهم التي يؤدونها في الحرم ماهي إلا صلوات وثنية تصد عن الدين وليست منه، ولن يثيبهم الله عليها إلا بالنار: وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (الأنفال: ٣٥).

ولن ينفع قريش ما ينفقونه في الحرم ظناً منهم أنهم يخدمون الله وبيت الله، بل سيكون حسرات عليهم: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (الأنفال: ٣٦).

وتبين آيات سورة الشعراء كيف أن من لم يؤمن من قريش في بداية الدعوة فلن يؤمن حتى ولو جاءهم محمد بكل معجزة طلبوها منه: إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (الشعراء: ٤-٦) مثلهم في ذلك مثل كل كبراء الأمم التي ورد ذكرها في السورة.

ولذلك وردت آيات قرآنية عديدة موجهة لأشخاص معروفين من كبراء قريش تخبرهم فيها أن مصيرهم النار، أي أنهم سيبقون على كفرهم وسيموتون وهم كفار، ليس من قبيل التنبؤ بالمستقبل، أو أن هؤلاء لن يؤمنوا لأن الله قد حكم عليهم بأنهم من أصحاب النار منذ الأزل، ولكن من باب ما يعرف بالعادة، وهو ما أطلق عليه القرآن اصطلاح سنة الأولين: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (الحجر: ١٠-١٣).

وهو ما انطبق على كبراء قريش حيث بقوا على كفرهم إلى النهاية ولم يؤمنوا. وهذه أمثلة فقط لمن تحدثت عنهم الآيات:

* ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآِيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاستكبر. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (المدثر: ١١-٢٦).

يقول ابن هشام في سيرته أنها نزلت في الوليد بن المغيرة في السنة الأولى التي بعث فيها محمد، وقرأها الرسول عليه. ومع ذلك بقي على كفره طوال الثلاث عشرة سنة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، ومات في السنة الأولى من الهجرة في مكة حسب ما رواه ابن كثير: قال ابن جرير: وفي هذه السنة ـ يعني الأولى من الهجرة ـ مات أبو أحيحة بماله بالطائف ومات الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي فيها بمكة. قلت: وهؤلاء ماتوا على شِرْكِهِم لم يُسْلِموا لله عزّ وجلّ (ج٤ ص٣٦ من البداية والنهاية).

* ومثل ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (سورة المسد).

وقد نزلت السورة في أوائل دعوة الرسول، واسم أبو لهب كما ينقل ابن كثير هو: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتيبة وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وهو عم الرسول، وزوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان (ج٨ ص٤٨٥ من تفسير ابن كثير).

ولم يمت أبو لهب إلا في السنة الثانية للهجرة وبعد موقعة بدر بأيام، أي بعد نزول تلك الآيات بنحو أربع عشرة سنة.

* ومثل ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (سورة الهمزة).

والتي نزلت في أحد رجالات قريش، سواءً كان جميل بن عامر الجُمَحيّ، أو الأحنس بن شريق أو غيرهما. وهناك العديد من الآيات التي نزلت في رجال من قريش تبشرهم بالنار، وكلهم ماتوا أو قتلوا بعد حين من سماعهم لتلك الآيات، على كفرهم.

وتكون دعوة الرسول في مكة قد مرت بالمراحل التي مرت بها كل دعوات الرسل السابقين، فلم يؤمن إلا قلة معظمهم من الضعفاء والمسحوقين، وجوبهت الدعوة من بقية المجتمع القرشي بالتكذيب، واستمر المستكبرون من قريش على كفرهم على الرغم من أن الرسول مكث فيهم (١٣) عاماً يدعوهم إلى الإيمان دون أن يجد منهم آذاناً صاغية.

وبعد هجرة محمد للمدينة وإسلام معظم الأوس والخزرج، حدثت بين المسلمين وكفار قريش معركتان حاسمتان هما بدر وأحد. وقد قتل في بدر قرابة السبعين من خيرة سادة قريش، وفي أحد والتي وإن انهزم فيها الجيش المسلم، إلا أن قريشاً فقدت (١٤) من خيرة من بقي من رجالها، إضافة إلى موت ستة آخرين موتاً طبيعياً خلال تلك الفترة. ليكون مجموع من قتل من قريش في الحربين ضد المسلمين ومن مات إلى السنة الثالثة للهجرة، قرابة التسعين. وهو ما يعني أن سادة وكبراء وصفوة المجتمع القرشي قد قضي عليهم، وفي ذلك يقول الأسود بن عبد المطلب في رثاء أولاده الذين قتلوا في بدر، بعد أن سمع امرأة تبكي ضياع بعيرها[(١)]:

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهودُ

فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٠٩.

عــلــى بــدر ســراة بــنــي هــصــيــص	ومــخــزوم ورهــط أبــي الــولــيــد
فــبــكّــي إن بــكــيــت عــلــى عــقــيــل	وبــكّــي حــارثــا أســد الأســود
وبــكــيــهــم ولا تــســمــي جــمــيــعــا	ومــا لأبــي حــكــيــمــة مــنــهــم نــديــد
ألا قــد ســاد بــعــدهــم رجــال	ولــولا يــوم بــدر لــم يــســودوا

وبما أن المجتمع القرشي محدود العدد، فإن قتل وموت (٩٠) من صفوة سادته وكبرائه بنهاية العام الثالث للهجرة، يعني قرب نهاية كبراء قريش الذين ناصبوا دعوة الرسول العداء، بينما كان المجتمع المسلم ينمو ويتكاثر في المدينة بقبول أعداد من الناس من كافة جهات جزيرة العرب لدعوته.

وبقي كبراء قريش على كفرهم ولم يسلم منهم بعد هجرة الرسول أحد إلا من أحس أن أيام قريش قد أصبحت معدودة، وأراد أن ينضم للمسلمين خوفاً من النهاية المتوقعة وطمعاً في وضع أفضل مع مجتمع يبدو مستقبله مشرقاً. ومن هؤلاء مخرمة بن نوفل وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدالله بن أمية، وغيرهم.

ومن أشهر هذه الفئة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، اللذان سنتحدث عنهما في الأسطر المقبلة كمثال، دون أن يكون ما نسرده للحكم على ما في صدريهما من صدق عقيدة وإيمان لأن هذا مآله إلى الله وحده. ودون أن يكون استشهادنا بكتب الأخبار فيما أوردته عن هذين الرجلين معناه أننا نعتقد بصدق هذه الأخبار، ولكننا أوردناها لأنها المصادر الأقدم التي تزعم أنها تنقل ما حدث للشخص الذي يدور حوله الحديث. ولذلك فنحن نورد الخبر دون أن نتبناه أو نصدقه، كما أننا لا نبحث في التفاصيل إلا فيما قل، ونحاول، ما أمكن، تتبع الخطوط العريضة للأحداث التي تمثل الحقائق، وليس فيها مجال لكتبة الأخبار لدس آرائهم الخاصة أو تلك الآراء التي يميلون إليها.

ولن يضير إذا ما خرجنا بتصور أو استشفينا بعض الحقائق من بين سطور الخبر، أو وضعنا بعض الفرضيات حتى لو أخطأنا، ما دام القصد هو عرض لواقع الشخصية التي نتحدث عنها، وليس إظهاراً لعيوبها ومثالبها، والحكم عليها بالصلاح أو الفسق نيابة عن الله، استغفر الله.

قصة إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

الوليد بن المغيرة، والد خالد، والعاص بن وائل، والد عمرو، كانا من أكابر قريش وساداتها، ومن أكثر المناوئين للدعوة الإسلامية، وكلاهما نزلت فيه آيات قرآنية تبشره بمصيره المشؤوم في النار، وكلاهما مات ميتة طبيعية في مكة بعد الهجرة على الكفر.

وعمرو بن العاص ذو شخصية قيادية، كان يحلم بزعامة سياسية. وكأي قائد سياسي ناجح، فقد كان يتمتع بالصفتين اللازمتين للنجاح السياسي والملازمتين له، الدهاء والفطنة.

وكان أحد وجهاء قريش ومن أكثرهم حماساً لحرب المسلمين، ولما خرجت قريش لملاقاة المسلمين في أحد: بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم الظعن، التماس الحفيظة، وألا يفروا. فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة، بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمر بن عمير الثقفية، وهي أم عبدالله بن صفوان بن أمية.

قال ابن إسحاق: وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبدالله بن عمرو (نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام في حديثه عن غزوة أحد).

وكان عمرو من ضمن جيش قريش الذي شارك في غزوة الأحزاب، وعندما انصرفوا منها قرر عمرو أن يذهب إلى الحبشة عله يقنع النجاشي بتسليم من لديه من المسلمين، في محاولة أخيرة ليسجل لنفسه نصراً سياسياً قد يعيد لقومه عزتهم، ولكن مساعيه لم تنجح فعاد إلى مكة. وليس صحيحاً أن النجاشي أقنعه بالإسلام، إذ لو كان أسلم على يدي النجاشي، كما يقول ابن هشام وبعض كتب الأخبار الأخرى، لتوجه إلى المدينة للانضمام للمسلمين، في تلك السنة، الخامسة من الهجرة، بدلاً من الرجوع إلى مشركي مكة والبقاء بينهم حتى قبيل فتح مكة.

ومع تتابع الأحداث رأى عمرو المحنك بعينه البصيرة، وهو أحد دهاة العرب الأربعة، أن الإسلام هو الذي سينتصر في النهاية وأن موقف قريش يضعف باستمرار، وهو ما لاحظه القائد العسكري الفذ خالد بن الوليد أيضاً، بنفسه أو

بمساعدة من عمرو. المهم أن الرجلين تأكد لديهما أن عز قريش الاجتماعي، الذي هو في الطريق إلى الزوال، لم يعد يضمن طموحات الزعامة العريضة لعمرو، ولم يعد جيش قريش المنهار يرضي طموحات خالد العسكرية اللامحدودة، بينما يبدو مستقبلهما مشرقاً مع الطرف الآخر، الإسلام.

لذلك قررا الإسلام قبيل فتح مكة الذي أصبح وشيكاً بتوقعات الجميع، لأنه لو فتحت مكة قبل دخولهما الإسلام، فلا أحد يمكنه توقع ماذا سيحدث لهما، وحتى لو بقيا على قيد الحياة فإن فرص تحقيق أحلامهما بلعب أداور هامة ستكون أقل مما لو أسلما مختارين.

يقول ابن كثير على لسان عمرو بن العاص: ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة؛ فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسِم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم (سيرة ابن هشام ـ فصل خالد وعمرو يجتمعان على الإسلام).

ومن اليسير قراءة القصة الحقيقية من بين سطور ما أورده ابن هشام والتي تتمثل فيما سبق وذكرناه من أن كلا الرجلين قد اتفقا مسبقاً على الخروج معاً من مكة إلى المدينة لإعلان إسلامهما، ولم يكن لقاؤهما صدفة في مكان يبدو أنه لم يكن له وجود ولذلك صعب على الراوي تسميته.

يقول ابن الأثير الجرزي في كتابه أسد الغابة وفي ترجمته لخالد بن الوليد، إن الرسول لما رأى خالداً وعمرو قادمين قال لأصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها (في إشارة واضحة إلى سوء الوضع الذي وصلت إليه قريش).

عمرو بن العاص في الإسلام

في السنة التي أسلم فيها، يروي عمرو ما حدث له مع الرسول، فيما نقله أحمد في مسنده: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا عبد الرحمن حدثنا موسى بن علي عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعث إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته وهو يتوضأ، فصعد فيّ النظر ثم طأطأه، فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك

وأرغب لك من المال رغبة صالحة، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح (مسند أحمد: ١٧٤٣٢).

فبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أرض بلي وعذره في الأطراف الشمالية لجزيرة العرب، لأن أم العاص بن وائل كانت من قبيلة بلي، فتألفهم الرسول بذلك، كما يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ. وقد بعث له الرسول مدداً بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب. فلما وصله المدد بادر عمرو بتذكير أبي عبيدة بأنه مدد له وأن القيادة ستبقى بيد عمرو، وهو ما يظهر جانباً من شخصيته، التي كان الرسول فطن لها فاستعمله على عُمان حال رجوعه من ذات السلاسل، وبقي والياً فيها حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم كان من أمراء الأجناد في بداية فتوح الشام في زمن عمر بن الخطاب، وهو الذي افتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين.

وقد افتتح مصر في عهد عمر وتولى إمرتها ومارس فيها نوعاً من الحكم الذاتي طوال فترة خلافة عمر، فلما جاء عثمان عزله وولى عبدالله بن أبي سرح، الذي كان أخا لعثمان من الرضاعة. فغضب لذلك عمرو ودخل على عثمان وقد لبس جبة محشوة قطناً استنكاراً لما اتهم به من أنه قد تفرد بخراج مصر لنفسه، كما ذكر ذلك الطبري في أحداث سنة (٢٧). ويبدو أن عمراً قد أسر في نفسه لعثمان شيئاً بسبب عزله.

فعندما حوصر عثمان خرج عمرو من المدينة باتجاه الشام دون أن ينقطع عن متابعة أحداث المدينة. ويورد ابن الأثير في الكامل في التاريخ قصة لا يبدو أنها حقيقية ولكنها ترمز لموقف عمرو من الأحداث التي أحاطت بعثمان، ومتابعته لها. يقول ابن الأثير عن عمرو: فسكن فلسطين، فمر به راكب من المدينة، فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال حصيرة. قال عمرو: حصر الرجل! فما الخبر؟ قال: تركت عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر بعد أيام، فقال له عمرو: ما اسمك؟ قال: قتال. قال: قتل الرجل! فما الخبر؟ قال قتل عثمان، ولم يكن شيء إلا أن سرت. ثم مر به راكب من المدينة، فقال عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب. قال عمرو: يكون حرب، وقال له ما الخبر؟ فقال: بايع الناس علياً. انتهى.

ويبدو أن عمراً لم يكن متابعاً فقط لما يحدث لعثمان بل كان محركاً للأحداث أيضاً، على ذمة الطبري فيما نقله، كما يلي: وأما الواقدي فإنه فيما حدثه موسى بن يعقوب عن عمه قال لما بلغ عمرا قتْل عثمان رضي الله عنه قال أنا أبو عبدالله! قتلته وأنا بوادي السباع. انتهى (الطبري في الحديث عن أحداث سنة ٣٦).

ووادي السباع يقع بطريق الرقة من بلاد الشام، حسب ما ورد في معجم البلدان. وهو ما يشير إلى تدخل عمرو بتحريك الأحداث التي كانت جارية في المدينة خلال فتنة عثمان.

ويقول ابن الأثير وغيره من كتب الأخبار أنه لما قتل عثمان قال سلم بن زنباع[1]: يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا باباً غيره. فقال عمرو: ذلك الذي نريده. والباب المذكور هو العهد بملازمة الخلافة وعدم الخروج عليها أما وقد كسر الباب فيمكن لأي أحد أن يتولى من السلطة ما يقدر عليه، وبالوسيلة التي تمكنه من مراده. ولذلك لما بايع بعض المسلمين لعلي بن أبي طالب بالخلافة اشتد الأمر على عمرو بن العاص وتربص أياما ينظر ما يصنع الناس فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة قال استأني وانظر ما يصنعون فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قتلا فارتج عليه أمره. وما كان من عمرو إلا أن سارع إلى معاوية بن أبي سفيان، ويبدو أنه هو من أوحى بفكرة قميص عثمان. وهذا ما يمكن استنتاجه مما نقلته كتب الأخبار، ومن ذلك: ثم ارتحل عمرو راجلاً ومعه ابناه، يبكي كما تبكي المرأة وهو يقول: واعثماناه! أنعي الحياء والدين! حتى قدم دمشق. وبطبيعة الحال فإن البكاء على قتل عثمان من الشخص الذي شارك في تدبير قتله تحتمه الظروف التي يحاول عمرو استغلالها لتحقيق أهدافه.

ولكي يبرر كتبة الأخبار تصرف عمرو نسبوا إليه أنه لجأ لمعاوية وناصره لأنه هو الذي سيجتمع عليه الناس في النهاية، وقد عرف عمرو ذلك أثناء ولايته لعُمان

---

(١) قد يكون إسمه روح ابن زنباع الذي كان مصاحباً لعبد الملك بن مروان لا يكاد يغيب عنه، كما أمّره يزيد بن معاوية على جند فلسطين وشهد مرج راهط مع مروان. وكان عنده حُميدة بنت النعمان بن بشير فهجته بأبيات منها:

وَهَلْ أنا إلاّ مُهرةٌ عربيّةٌ　　　سليلةُ أفراس تحلّلها بَغْلُ

زمن رسول الله حيث التقى بحبر من أحبار عُمان وعرف مصداقه، فسأله عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن يكون بعده، فأخبره بأبي بكر وأن مدته قصيرة، ثم يلي بعده رجل من قومه مثله تطول مدته ويقتل غيلة، ثم يلي بعده رجل من قومه تطول مدته ويقتل عن ملاء، ثم يلي بعده رجل من قومه ينتشر الناس عليه ويكون على رأسه حرب شديدة، ثم يقتل قبل أن يجتمع الناس عليه، ثم يلي بعده أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه وتجتمع عليه أهل تلك الفرقة. انتهى (هذا النص موجود في عدد من كتب الأخبار منها الطبري والكامل في التاريخ).

وقد عرف عمرو بن العاص بأن مستقبل الحكم سيكون لمعاوية، ليس عن طريق الحبر العماني، ولكن من قراءته الفاحصة للأحداث، التي أوضحت له ضعف موقف علي بن أبي طالب وعدم اتفاق الناس على خلافته «انتشار الناس عنه» كما وصفت ذلك كتب الأخبار، ففضل أن يناصر معاوية ويجني نتيجة ذلك لاحقاً. وهو ما حدث.

وكان معاوية متردداً في إعلان الحرب على علي بن أبي طالب، كما يستشف من كتب الأخبار، حتى أقنعه عمرو بن العاص بذلك، يقول ابن الأثير: فدخل عمرو على معاوية وقال له: والله لعجب لك! إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني (أما والله) إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها، حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه. انتهى.

ونحن هنا لا نأخذ هذه الأخبار على أنها قيلت بالفعل، ولكنها تؤخذ كمؤشرات لما حدث. فهي مؤشر على أن معاوية دخل في نفسه أن يتولى الحكم بعد مقتل عثمان أو على أقل تقدير الاستقلال بحكم الشام التي كان يتمتع بحكم ذاتي فيها طوال سنوات خلافة عثمان ولا يريد أن يسلمها لعلي أو يعزل عنها، وجاءت أفكار عمرو بن العاص لتمهد له الطريق.

وليس بمستبعد أن يكون الرجلان قد اتفقا على وثيقة تعاون شفوية يقوم بموجبها عمرو بن العاص بمعاونة معاوية بالخطط والأفكار مقابل وعود من معاوية بمكافأة عمرو لاحقاً وبعد استتباب الأمر.

ومن الأفكار العمروية اتخاذ مقتل عثمان ذريعة لعدم الدخول في طاعة علي بن

أبي طالب، ولاستمالة أهل الشام لكي لا يقبلوا بخلافة علي، عن طريق استقدام النعمان بن بشير[1] من المدينة بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بالدم ومعه أصابع زوجته نائلة وجزء من كفها التي قطعت عندما حاولت الدفاع بيدها عن عثمان. وقد وضع القميص والأصابع على منبر المسجد وجمع الأجناد ليروه. والنتيجة أن معاوية كسب تضامن أهل الشام معه وصار باستطاعته رفض عرض علي بن أبي طالب الدخول تحت إمرته.

وكان أن نشبت الحرب بين أهل العراق بقيادة علي وأهل الشام بقيادة معاوية ومشورة عمرو بن العاص. ونشبت معركة صفين التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من القتلى المسلمين في سبيل أن يتغلب علي بن أبي طالب أو معاوية بن أبي سفيان على الحكم ويقضي على صاحبه.

وفي كل الحروب هناك مكائد، وكان لعمرو بن العاص في صفين نصيب من مكائد تلك المعركة، حسب ما روته كتب الأخبار، منها رفع المصاحف.

وبعد توقف الحرب حصل عمرو على أغلى مكاسبه السياسية، عندما جهزه معاوية بجيش إلى مصر، فقتل ذلك الجيش محمد بن أبي بكر وحشي جسده في جوف حمار ميت، وأرسل إلى معاوية. واستعاد عمرو سلطة مصر بعد أكثر من عشر سنوات من عزله عنها من قبل عثمان، ودانت له السلطة حتى مات عن عمر يناهز التسعين، سنة اثنتين وأربعين للهجرة، كان خلالها مستقلاً استقلالاً ذاتياً في مصر عن معاوية في الشام الذي أصبح حاكماً عاماً لكل دولة المسلمين بعد مقتل علي بن أبي طالب.

هذا هو عمرو بن العاص الذي هيأ له انضواؤه تحت راية الإسلام أن يجد المناخ المناسب لأن يلعب أدوار القيادة السياسية التي لم تتح له ظروف قريش المنهارة أن يلعبها في الجاهلية.

خالد بن الوليد في الإسلام

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي

(١) أول مولود في الإسلام من الأنصار، وولد بعد الهجرة بأربعة عشر شهرا، وقد خرج على بني أمية فقتله مروان ابن الحكم سنة ٦٥ للهجرة، كما ذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة.

المخزومي. كان قائداً عسكرياً فريداً من نوعه، وعقدت له أعنة خيل قريش في حروبها ضد المسلمين حتى صلح الحديبية، كما يقول ابن هشام وغيره من كتبة السير.

وفي معركة أحد كان خالد على طليعة خيل قريش، وهو السبب وراء تحويل نصر المسلمين في المعركة إلى هزيمة، عندما لاحظ تخلي الرماة المسلمين عن مواقعهم التي كانت على مرتفع يشرف على أرض المعركة، فالتف وهاجم المسلمين من نفس الموقع. وكانت النتيجة أن قتل من المسلمين قرابة السبعين وأصيب الرسول بجروح بليغة جعلته يصلي بالناس بعد المعركة وهو جالس، كما ذكر ابن هشام في سيرته في حديثه عن غزوة أحد.

وعندما شعر خالد بأفول نجم قريش، قرر مع عمرو بن العاص أن يدخل الإسلام، كما ذكرنا سابقاً.

ولقد أبلى خالد بن الوليد في حروب المسلمين بلاء منقطع النظير، وتجلت خبرته ودرايته في كل المعارك الكثيرة التي خاضها. ويمكن القول أن «الفتوح» الإسلامية، بل والمعارك البشرية القديمة كلها، لم تشهد قائداً عسكرياً مظفراً مثل خالد بن الوليد. فقد كان من أكثر القواد العسكريين خوضاً للمعارك في التاريخ البشري إن لم يكن هو الأكثر على الإطلاق، إذا ما قيس عدد المعارك التي خاضها بالفترة الزمنية التي قضاها في تلك الحروب.

وكان يتمتع بقدرات تكتيكية قتالية خاصة تعينه على الانتصار في كل معركة يخوضها، أو في القدرة على تفويت النصر على العدو إذا كان يفوقه في العدد والعتاد.

وفي السنة التي أعلن فيها خالد إسلامه، خرج في غزوة مؤتة ضد الغساسنة. وكان سبب إرسال الرسول الجيش لمحاربة الغساسنة أن شرحبيل بن عمرو الغساني، الحاكم المنصب من قبل الروم على الشام، قد قتل مرسل رسول الله، الحارث بن عمير الأزدي، الذي حمل دعوة رسول الله إلى الغساسنة للدخول في الإسلام[١].

وكان قوام جيش المسلمين ثلاثة آلاف رجل، فيما تلقاهم الغساسنة بجيش

(١) حسبما ذكر ابن حجر في ترجمته للحارث في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة.

خليط من الروم والعرب يزيد عدة أضعاف عن جيش المسلمين، حسب رواية الإخباريين المسلمين. وقد أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس في مؤتة زيد بن حارثة، فلما قتل خلفه جعفر بن أبي طالب، فلما قتل خلفه عبدالله بن رواحة، فلما قتل، تولى القيادة خالد بن الوليد. واستطاع أن ينقذ جيش المسلمين بأقل الخسائر، ولم يزد القتلى من المسلمين عن اثني عشر رجلاً، كما زعمت كتب الأخبار.

وعاد خالد بالجيش إلى المدينة، فلما عايرهم الناس بأنهم الفُرّار، قيل إن الرسول قال بل هم الكُرّار. وهو ما حدث فعلاً فقد كر المسلمون على الشام وانتزعوها من الروم وقضوا على حكم الغساسنة إلى الأبد، واستلم عمر بن الخطاب مفتاح إيليا (القدس الحالية) بعد أقل من عشر سنوات على غزوة مؤتة، أول نجاحات خالد العسكرية الباهرة في الإسلام، والتي توالت بعد ذلك.

ولم تمض سنة على إسلام خالد حتى فتحت مكة، وقد ولى الرسول خالد بن الوليد على أحد جيوش الفتح، وأمره أن يدخل من أسفل مكة. ومع أن الرسول قد أمر كل أمراء (قادة) جيوش الفتح ألا يقاتلوا أحداً إلا دفاعاً عن النفس، إلا أن خالد بن الوليد كان الوحيد الذي دخل مكة عنوة، أي بعد قتال، وهو ما يعكس تلذذ خالد في ممارسة هوايته في ملاعبة الأسنة.

وبعد الفتح بعث الرسول عدداً من السرايا إلى الناس حول مكة يدعوهم إلى الإسلام، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، الذي توجه مباشرة إلى ماء (بئر) يقال لها الغميصاء، لبني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة. فقتل منهم من قتل، مع أن الهدف من إرساله وغيره كان لدعوة الناس للدخول في الإسلام بالحسنى ومن دون قتال. وكانت جذيمة قد أصابت في الجاهلية عوف بن عبد عوف، أبا عبد الرحمن بن عوف، والفاكه بن المغيرة، عم خالد بن الوليد، فجاء تصرف خالد بمنطقٍ عسكري يؤمن بتحين الفرص للثأر، وليس بمنطق الزهد والورع.

يقول ابن الأثير: فلما انتهى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. انتهى. وقد ودى الرسول لبني جذيمة الدماء والأموال، كما تروي كتب الأخبار[1].

---

(١) وقد ذكر القصة الطبري في تاريخه في أحداث سنة ثمان للهجرة.

وكان بين عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد تلاسن في ذلك، ومما قاله عبد الرحمن بن عوف لخالد: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فرد عليه خالد: إنما ثأرت بأبيك. فقال عبد الرحمن: كذبت إنما ثأرت بعمك الفاكه. وبلغ الرسول ما حدث بينهما فوبخ خالد قائلاً: مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة أحدهم ولا روحته. وهذا هو أصل الحديث الذي رواه الإخباريون ومنهم البخاري الذي جاء نصه في كتابه كما يلي: حدَّثنا آدمُ بن أبي إياسٍ حدَّثنا شُعبةُ عنِ الأعمشِ قال: سمعتُ ذَكوانَ يُحدِّثُ عن أبي سعيد الخُدريِّ رضيَ اللَّهُ عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا تَسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهَباً ما بَلغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه. تابعَهُ جريرٌ وعبدُاللَّهِ بن داودَ وأبو مُعاويَة ومُحاضرٌ عن الأعمش (البخاري: ٣٥٩١)[1].

وفي السنة نفسها أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدم صنم العزى ببطن نخلة، وكانت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها. وفي السنة ذاتها وبناءً على أمر الرسول، هدم عمرو بن العاص، زميل درب خالد، صنم سواع الذي برهاط، وكانت تعظمه هذيل.

ولما ارتدت العرب عن الإسلام ساهم خالد بشكل فعال في قتال المرتدين، إلا أن التاريخ يسجل عليه أنه على الرغم من أن مالك بن نويرة وقومه أعلنوا إسلامهم لجيش خالد، وممن شهد تلك الموقعة ضمن جيش خالد، وشهد بإسلام مالك بن نويرة، أبو قتادة الحارث بن ربعي من بني سليم، والذي عاهد الله ألا يشهد مع خالد بن الوليد حرباً أبداً بعدها.

ولم يكن هناك قتال بين جيش خالد ورجال مالك بن نويرة، ومع ذلك فقد أمر خالد بأسر مالك وبعض رجاله ثم قتل بعضهم ومنهم مالك بن نويرة، الذي نزا خالد بامرأته في تلك الليلة. وسبي نساء العدو المحارب ومضاجعتهن سلوك اجتماعي كان موجوداً في الجاهلية، جاء الإسلام ليبطله.

وقد حاولت كتب التاريخ تبرير فعل خالد بأنه قال لرجاله أدفئوا أسراكم،

(١) وقد حوّر الفقهاء هذا الخبر ليستشهدوا به على فضل عصر الصحابة.

ففهموها على أنها تعني اقتلوهم. فقتلوهم. ولكن حتى على افتراض ذلك، فلماذا أسر القوم وقد شهدوا بلا إله إلا الله، وحتى لو قتل الرجال خطأ، فإن هذا لا يبرر لخالد مضاجعة زوجة رجل قتل للتو صبراً (أي وهو أسير).

وكتب التاريخ التي حاولت تبرير ما فعله خالد أوردت خبراً مفاده أن هناك اثنين من أبناء أخ لخالد بن الوليد قد قتلا في البطاح، المكان الذي قتل فيه مالك بن نويرة ونزا خالد فيه على امرأته. ومن ذلك ما ورد في أسد الغابة في معرفة الأصحاب لابن الأثير الجزري، كترجمة للوليد بن عمارة بن الوليد بن المغيرة، حيث يقول: الوَلِيدُ بنُ عُمَارة بن الوليد بن المُغِيرة بن عبدالله بن عُمَر بن مخزوم القُرَشي المخزومي. وهو ابن أخي خالد بن الوليد، وقتل هو وأخوه أبو عبيدة بن عُمَارة مع خالد بن الوليد بالبُطَاح. وكانت واقعة البُطَاح سنة إحدى عشرة في قتال أهل الردة. انتهى. وقد ورد الخبر في كتب إخبارية أخرى.

وهذا يعني أنه قد حدث شيء ما بين ابني عمارة بن الوليد وبين مالك بن نويرة ورجاله أدى لقتل الأخوين، مما حدا بعمهما خالد بن الوليد لأن يشد وثاق مالك وبعض رجاله ثم يقتلهم كثأر لابني أخيه، ويدخل بامرأة مالك في نفس اليوم زيادة في الانتقام(١).

ثم شارك خالد في قتال مسيلمة وأهل اليمامة التي كانت من أشد المعارك التي قابلت المسلمين في حروب الردة وقتل فيها خلق كثير من الصحابة وحفظة القرآن، فكان ذلك سبباً في أن يأمر أبا بكر بالتأكد من اكتمال القرآن الذي كتب زمن الرسول، خوفاً من أن تقتل البقية القليلة الباقية ممن يجيدون القراءة والكتابة، وينسى الناس بعض دينهم لو كان هناك آيات مفقودة من مصحف رسول الله. في الوقت نفسه الذي كانت فيه مشاركة خالد في حروب اليمامة سبباً لانتصار جيوش المسلمين وقتل مسيلمة.

وبعد اليمامة أمر أبا بكر خالداً بالتوجه إلى العراق لنصرة المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان قد بدأ حربه ضد الفرس. ومن المعارك النى خاضها خالد

(١) شخصياً لا أظن أن خالد بن الوليد قد نزا بامرأة مالك ابن نويرة، لأنه لو فعل فسيقيم عليه الرسول صلوات الله وسلامه حد الزنى، وهذا لم يحدث، ويكون ما فعله خالد هو قتل مالك ابن نويرة، أما حكاية امرأته فقد زيدت في عصور لاحقة للقصة.

هناك، ذات السلاسل، الثني، الولجة، أليس، أمغيشيا، فرات بادقلي، فتح الحيرة، على التوالي. وقد خاض كل هذه المواقع في أقل من ثلاثة أشهر، حيث ابتدأ في المحرم سنة اثنتي عشرة للهجرة وفتحت الحيرة في ربيع الأول من السنة نفسها. وقتل في هذه المعارك الآلاف من الفرس ومن عاونهم من العرب وأهل تلك الثغور، كما سبيت النساء والأطفال، وكان من السبي في وقعة الثني أبو الحسن البصري الذي كان نصرانياً، حسب ما ورد في الكامل في التاريخ لابن الأثير. والحسن هو أول قاص وفقيه في الإسلام.

ثم فتح خالد الأنبار، وعين التمر، قبل أن يتوجه إلى دومة الجندل لنجدة عياض بن غنم الذي كان يناوش الغساسنة هناك. وقد أسر خالد الجودي بن ربيعة أحد رؤساء دومة الجندل ثم قتله وسبى ابنته وكانت موصوفة بجمالها.

ثم عاد خالد إلى العراق وانضم إلى جيوش المسلمين هناك في الغارة على الهذيل بن عمران الذي كان قد تحصن في المصيخ هو ورجاله. وقد قتل في تلك الغارة رجلين كانا قد أسلما ومعهما كتاب بذلك من أبي بكر، فوداهما أبو بكر وأوصى بأولادهما.

ثم واصل خالد انتصاراته وزحفه الذي لا يمكن إيقافه، فكانت وقعة الثني، للمرة الثانية، وموقعة الزميل قبل أن يصل إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، حيث انتصر على جيش مكون من الروم والفرس والعرب، وكان ذلك في رمضان من السنة الثانية عشرة للهجرة.

وأصبح خالد بن الوليد الرجل الخارق (Superman) المنقذ لأي جيش من جيوش المسلمين يواجه موقفاً مستعصياً للانتصار في معركته ضد العدو. فبعد تخليصه جيش المسلمين من الإبادة في مؤتة، ونجدته جيوش المسلمين في اليمامة ضد مسيلمة ونجدته المثنى بن حارثة في العراق ونجدته عياض بن غنم في دومة الجندل، استنجد به المسلمون في اليرموك بعد أن واجهوا جيوش الروم لعدة أشهر دون أن يستطيعوا تحقيق انتصار يذكر عليهم.

وفي طريقه من العراق لنجدة جيوش المسلمين في اليرموك، وعلى الرغم من أنه كان في عجلة من أمره، فقد كان خط سيره كما وصفه لنا ابن الأثير في الكامل في التاريخ كما يلي: أغار على كلب في ماء لهم، ثم سوى، ثم أتى أرك وصالحه

أهلها، ووصل إلى تدمر التي صالحه أهلها، ثم أتى القريتين وحوارين ووصل إلى ثنية العقاب عند دمشق. ومنها إلى مرج راهط حيث أغار على الغساسنة في يوم فصحهم فقتل وسبى، وأرسل سرية إلى كنيسة في الغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال إلى خالد. ثم سار حتى وصل إلى بصرى فقاتل من بها وظفر بهم وصالحهم. ثم سار فطلع على المسلمين (في اليرموك) في ربيع الآخر سنة (١٣). انتهى.

ولما وصل خالد إلى اليرموك جمع المسلمين على جيش واحد، وكانوا قبله يقاتل كل جيش بمفرده. ثم بدأت المعركة في شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، والتي قيل إن تعداد المسلمين فيها ما بين ستة وعشرين وستة وأربعين ألفاً، والروم ما بين مائة ومائتين وأربعين ألفاً، باختلاف الروايات. ومع ذلك فقد كانت الغلبة لجيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد الذي عبر عن عبقريته ابن الأثير بقوله: فخرج جرجه (أحد قواد الروم) إلى بين الصفين وطلب خالداً. . . وقال له: هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ انتهى. ولهذا سمي خالد سيف الله المسلول.

وأثناء معركة اليرموك جاء البريد من المدينة يحمل نبأ وفاة أبي بكر وولاية عمر، كما حمل نفس البريد خطاباً من عمر لأبي عبيدة بن الجراح بعزل خالد بن الوليد ونزع عمامته من رأسه، كعقاب معنوي فيه إذلال لمن يوقع عليه في ذلك الوقت.

ويبدو أن أبا عبيدة بن الجراح قد عزل خالد فقط عن القيادة العامة للجيش ولكنه أبقاه ضمن جيش المسلمين، لأن الفضل يعود إلى خالد وفرقته التي كان فيها القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي في فتح دمشق، التي جرت بعد اليرموك، عندما نجحوا بتسلق السور وقتل الحراس الذين على أحد أبواب دمشق وفتحه لتدخله فرقة خالد ويضطر الروم إلى الاستسلام وطلب الصلح.

ولما بلغ عمر بن الخطاب ذلك، أرسل إلى أبي عبيدة يأمره بطرد خالد نهائياً من الجيش الإسلامي ومنعه من المشاركة ولو على شكل جندي عادي، ومنذ تلك اللحظة طويت صفحة خالد بن الوليد من التاريخ ولم يسمع عنه حتى وفاته.

ومن السهل معرفة الأسباب التي حدت بعمر بن الخطاب للاستغناء عن

خدمات واحد من أعظم قادة الجيوش في التاريخ، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، فالمتتبع لسيرة خالد الحربية في «الفتوح» يلاحظ أنه كان يمارس العادات التي كانت شائعة في الجاهلية والتي أبطلها الإسلام، من إسراف في القتل حتى لو تجاوز المحاربين، وأخذ كل ما تطاله يده كغنيمة حرب، فكان يسبي النساء والأطفال ويستحل الدخول بالسبايا. كما كان يتصرف في البلاد المفتوحة كيفما يشاء، وبلغة الجيش المنتصر، وكان يوجه جيشه حسبما يراه، ويقسم الغنائم بين أفراد جيشه بالطريقة التي يراها دون مراعاة لضوابط الدين، وغير ذلك من تجاوزات كثيرة، تقول كتب التاريخ إن خالداً قد اقترفها، وغض الطرف عنها أبو بكر نظير ما فعله خالد بجيوش المرتدين.

ولكن عندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة كان أول ما تكلم به هو عزل خالد، وقال: لا يلي لي عملاً أبداً. كما نقل ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ.

وخالد القائد العسكري كانت أعذب أمنية لديه ما نقله ابن حجر العسقلاني في الإصابة: روى أبو يعلى من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: قال خالد ما ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب وأبشر فيها بغلام، أحب إلي من ليلة شديدة الجليد أصبح بها العدو. انتهى.

ولذلك تصرف بمنطق ومفهوم القائد العسكري الذي يريد أن يكتسح بلاداً شاسعة سكانها يفوقون تعداد كل المسلمين بأضعاف مضاعفة، وبجيش صغير وعتاد قليل.

ومن يريد كسب الحرب لا يفكر بعاطفة وشفقة، ولذلك فقد كان فظاً غليظاً في حروبه ومسرفاً في القتل والسبي وتخريب البلاد لبث الرعب في نفوس غيرهم، كحرب نفسية تدمر معنويات الأعداء قبل وصوله إليهم، وقد نجح أسلوبه وتغلب على أعدائه بأسرع الطرق وأقلها خسارة، ولم يتعرض لهزيمة واحدة، فكان هو من نصر بالرعب من مسيرة شهر، وليس رسول الله الذي لم يخض سوى ثلاث معارك حربية في حياته، كلها دفاعية. اثنتان منها ضد قريش الذين سعوا للقضاء عليه وعلى دعوته، والثالثة ضد أهل الطائف الذين كانوا قد عزموا مهاجمته والقضاء عليه بعد أن سمعوا أنه استولى على مكة.

ولما وصل عمر إلى الخلافة، نظر إلى الجهاد من منظور إسلامي، يجهله خالد، يحرم قتل غير المحارب، ويفضل أسر المقاتل على قتله، وينهى عن سبي النساء والأطفال، ونهب مدخرات الناس، ما عدا أسلاب المحارب المقتول، وعدم التعرض للممتلكات، وغير ذلك مما نهى عنه الله في الضوابط التي يجب أن يقوم عليها الجهاد، والتي سنتحدث عنها عند الحديث عن الجهاد بإذن الله.

ومع أن سيرة خالد قد ملأت الدنيا وشغلت الناس إلا أنه بعدما منع من الالتحاق بجيوش المسلمين انصرف التاريخ عنه وتجاهله ولم يسجل له ما يذكر بعد ذلك، إلا تحسره على وضعه الذي آل إليه في آخر عمره ونسيان التاريخ له عندما قال وهو على فراش الموت: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العَيْر.

ولا يعرف كم كان عمره عند وفاته، ولا أوضاعه المالية والاجتماعية، ولم يتفق الإخباريون على المكان الذي مات فيه. فمنهم من قال إنه مات في المدينة وآخرون قالوا في حمص، وكما اختلفوا في مكان وفاته، فقد اختلفوا في تاريخها. فقال البعض إنها كانت سنة إحدى وعشرين، وقيل سنة ثلاث وعشرين، وقيل غير ذلك.

ويبدو أن بعض الإخباريين قد شعر بالأسى والأسف على موقف التاريخ من خالد فأراد أن يكتب ما يعتقد أنه سيساهم في إنصافه ولو بالقليل، ومن ذلك ما ورد في أسد الغابة في معرفة الأصحاب: إنه مات في المدينة وإن عمر لما بلغه أن نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد، قال: ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نَقْعٌ أو لَقْلَقة؛ قيل: لم تبق امرأة من بني المغيرة إلا وضعت لِمَّتها على قبر خالد؛ يعني حلقت رأسها. ولما حضرته الوفاة حبس فرسه وسلاحه في سبيل الله.

قال الزبير بن أبي بكر: وقد انقرض ولد خالد بن الوليد، فلم يبق منهم أحد، وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة. انتهى.

وهذا عزاء لم يشفع لصاحبه ولكن زاد في تأكيد تجاهل التاريخ وجهله حتى في مكان موت خالد بن الوليد، الذي كان في حمص وليس بالمدينة التي غادرها في المحرم من السنة الحادية عشرة متوجهاً لنجدة المثنى بن حارثة الشيباني في العراق

ولم يرها بعد ذلك، إلا لبضعة أيام عندما توجه إليها لمناقشة عمر بن الخطاب عن أسباب طرده من الجيش الإسلامي، ومن ثم عاد إلى الشام واستقر في حمص حتى وافاه الأجل، وقبره معروف فيها حتى اليوم.

رحم الله خالد بن الوليد فلقد «شغله الجهاد عن تعلم القرآن» كما ذكر ذلك صاحب كتاب الإصابة في تمييز الصحابة على لسان خالد وهو يتحدث عن نفسه ضمن ترجمته له.

نهاية كبراء قريش

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (الفتح: ٢٨).

لم تمض سنوات خمس على معركة أحد، إلا والرسول وجيشه المسلم يتمكنون من فتح مكة والقضاء نهائياً وإلى الأبد على حكومة الملاء ممن بقي من كبراء قريش. وحاق بهم ما حاق بكبراء كل الأمم السابقة، وقد حدث ذلك في السنة الثامنة للهجرة.

وبطبيعة الحال لم يكن دين الله الذي جاء به محمد أو أي رسول قبله، يهدف في حربه للمخالفين أن يجبرهم على الدخول في الإسلام، ولكن كان الهدف هو درء خطرهم عن دولة الإسلام، ومنعهم من الوقوف ضد انتشار الدعوة، ولو وقفت قريش موقفاً متسامحاً مع الرسول لما كان هناك حروب بينهم في بدر وأحد، ولما اضطر محمد لفتح مكة.

وحتى عندما فتحت مكة لم يأت الرسول لإجبار أهلها على الدخول في الإسلام، ولكنه جاء لكي يلغي حكم كبراء قريش الذين ناصبوا الدين العداء، ومن أراد بعد ذلك أن يسلم ولو صورياً فأهلاً وسهلاً، ومن لم يرد وفضل البقاء على عقيدته فلن يعترض الرسول على ذلك طالما أنه لن يحمل السلاح على الإسلام، ولن يعمل ضده ولو بالدعايات المغرضة ومحاولة صد الناس عن الدخول فيه.

ولذلك أمر الرسول جيش الفتح بعدم رفع السلاح على أحد أو التعرض لأي شخص لا يبدأهم بالقتال، ودخلت كل فرق الجيش المسلم مكة بشكل سلمي عدا ما كان من الفرقة التي يقودها خالد بن الوليد، لأن خالداً كان يجد نفسه في

الحرب. يقول ابن هشام: وقد أصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ثم انهزموا.

أما بقية فرق جيش المسلمين فدخلوا مكة بسلام ودون حرب.

ولذلك قال لهم الرسول بأنه من دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ولم تكن هذه المقولة لتميز أبا سفيان عن غيره من الناس بل كانت لكل الناس بمن فيهم أبو سفيان الذي إن دخل داره وبقي فيها ولم يحمل السلاح فهو آمن، مثله مثل أي قرشي آخر.

وقد قبل الرسول كل من يود أن ينطق بالشهادتين، لأنه ليس معنياً بالقلوب ومدى تصديقها، ولأن مجرد النطق بالشهادتين تعني أن من قالها قد قبل حكم الإسلام والعيش ضمن الدولة الإسلامية بقوانينها ودستورها، ولو لم يؤمن برسالتها. ولذلك طلب الرسول من امرأة عكرمة بن أبي جهل أن تلحقه وتخبره بأن يعود، وكان قد هرب باتجاه البحر وقد صمم على التوجه إلى اليمن، فلحقته زوجته كما يقول ابن هشام وأبلغته أن كل ما عليه للحفاظ على حياته هو النطق بالشهادتين أمام الرسول، وهو ما تم بالفعل. وكذلك أقنع العباس صديقه أبا سفيان أن يفعل، وهو ما قامت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية التي كانت من أشد أعداء الدين مع زوجها، والتي مضغت قطعة من كبد حمزة بعدما قتل في أحد، لتشفي غليلها منه، لأنه قتل أباها عتبة بن ربيعة وأحد إخوتها وعمها، ومما نسب إليها من شعر في مقتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه البكري

شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفَيتَ وحشيٌ غليل صدري

فشكرُ وحشي عليَّ عمري ... حتى ترمَّ أعظمي في قبري

ولو لم يكن محمد رسولاً لله، أو كان بإمكانه التصرف بما تمليه عليه مشاعره البشرية ولو في بعض المواقف، لما فوت الفرصة بالتشفي من هند بنت عتبة وغيرها ممن آذوه، ولكنه مرسل فقط لا يستطيع إلا اتباع ما تمليه عليه المصلحة العامة للدعوة الإسلامية، والتي تسعى لتمكين الدين ودولته، وهذا يتم بقبول

استسلام الناس للحكم الإسلامي ولو لم يسلموا، وكل ما يعني محمداً في مثل ذلك الموقف هو أن يقضي على تسلط كبراء قريش، وليس على الكبراء أنفسهم، حتى لا يقفوا حجر عثرة لانتشار الدين، ويمنعوه أن يصل إلى غيرهم من الناس، وإلى أبنائهم وأبناء أبنائهم، لأن الإسلام جاء لكل الناس وليبقى حتى نهاية البشر الحاليين، وليس فقط لقريش أو لجزيرة العرب.

ومن أراد من قريش أن يبقى على الكفر فله ذلك، لكن ليس له أن يبقي الأصنام في الكعبة، لأن الكعبة بيت الله. ومن أراد منهم أن يبقى على كفره فله ذلك ولكن ليس له أن يسعى لصد الناس عن الإسلام. ومن أراد منهم أن يبقى على كفره فله ذلك ولكن عليه أن يقبل بحكم دولة الإسلام.

وقد بقي كبراء قريش على ميولهم القديمة، والتي كانت تظهر بوضوح في بعض المواقف، وسنكتفي بإيراد موقفين ذكرهما ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ.

فعندما انهزم المسلمون في حنين كان هناك من يرقب المعركة ولم يشارك فيها من كبراء قريش، يقول ابن كثير: ولما انهزم الناس (المسلمون) تكلم رجال من أهل مكة بما في نفوسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، والأزلام معه. وقال كلدة بن الحنبل، وهو أخو صفوان بن أمية لأمه، وكان صفوان بن أمية يومئذ مشركاً (أي أنه حتى لم ينطق الشهادتين أمام الرسول يوم فتح مكة، وبقي مجاهراً بكفره ومع ذلك لم يعترضه الرسول بسوء أو يخضعه للمساءلة).

يقول ابن كثير بأن كلدة بن الحنبل قال: الآن بطل السحر(يقصد دعوة الرسول).

وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قتل بأحد.

والموقف الثاني كان أثناء معركة اليرموك التي وقعت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، أي بعد فتح مكة بخمس سنين، يقول ابن كثير: قال عبدالله بن الزبير: كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون، فركبت فذهبت إليهم، وإذ أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح، فرأوني حدثاً فلم يتقوني. قال: فجعلوا والله إذا مال المسلمون

وركبتهم الروم يقولون: إيه بني الأصفر! فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا: ويح بني الأصفر! فلما هزم الله الروم أخبرت أبي فضحك فقال: قاتلهم الله! أبوا إلا ضغناء، لنحن خير لهم من الروم. انتهى كلام ابن الأثير والذي يمكن للقارئ أن يجده في الصفحة (٢٦١) والصفحة (٣٠٣) لمن لديه نسخة الكامل الذي نشرته بيت الأفكار الدولية.

ومع أن هذه الحكايات يجوز عليها الصدق والكذب كأي خبر آخر، إلا أنها تحكي صورة للواقع، فمن لم يؤمن طوال فترة دعوة محمد من تلقاء نفسه ونتيجة قناعته بصدق الدعوة، فلن يؤمن بها يوم الفتح وبعد أن فقد القدرة على المقاومة. وحتى من نطق بالشهادة فسيبقى في بعض تصرفاته وأفكاره بقايا مما اعتاده في حياته التي سبقت إسلامه، فالموروثات الاجتماعية لا تمحى بسرعة وتحتاج إلى تتابع الأجيال لكي تتغير وتحل محلها موروثات إسلامية.

وكان هناك عدد من كفار قريش بقوا على كفرهم ولم يتلفظوا بالشهادتين ومن هؤلاء صفوان بن أمية كما جاء ذكره في القصة السابقة، ومنهم هبيرة بن أبي وهب المخزومي الذي بقي في مكة حتى مات على كفره بعد وفاة الرسول، وعندما أسلمت زوجته أم هاني ابنة أبي طالب، واسمها هند، قال فيها شعراً، ومنه:

أشاقتك هند أم أتاك سؤالها — كذاك النوى أسبابها وانفتالها

حتى يقول:

فإن كنت قد تابعت دين محمد — وقطّعتِ الأرحام منك حبالها

فكوني على أعلى سحيق بهضبة — ململمة غبراء يبسٍ بلالها

وغيرهم الكثير من الناس، ومن أولئك أمية بن الأسكر الجندعي الذي كان قد شارك في حرب الفجار، وهو من أهل الطائف. وأثناء خلافة عمر وتوسع «الفتوح»، انضم ابنه واسمه كلاب إلى جيوش المسلمين في العراق، طلباً للغنائم على ما يبدو كحال الكثيرين ممن اشتركوا مع جيوش «الفتوح»، ولم يسلموا، وسنتطرق لذلك عند الحديث عن جيوش «الفتوح» بإذن الله.

وعلى ما يبدو فإن أمية كان بحاجة إلى ابنه ليخدمه، لأنه قد هرم وضعفت حاله، وكان هو وأم كلاب زوجته قد واجها صعوبة في العيش بعد أن تركهما كلاب، فتحسر أمية على فراق ابنه بأبيات كثيرة مؤثرة منها:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله لو قبل الكتابا
تركت أباك مرعشة يداه وأمك ما تسيغ لها شرابا
إذا نعب الحمام ببطن وج على بيضاته ذكرا كلابا
أبراً بعد ضيعة والديه فلا وأبي كلابٌ ما أصابا[1]

فلما سمع عمر بذلك أجبر كلاب على العودة من العراق والبقاء بجانب والديه الكافرين لخدمتهما.

وهكذا مرت بقريش المراحل التي مرت بها الأمم السابقة مع دعوة الرسل، فلم يؤمن من قريش إلا بعض من عبيدها وبعض من مستضعفيها ونفر ممن كان يبحث عن فرص أفضل مما تيسر له في مجتمعه، واستمر بقية القرشيين على كفرهم، فمنهم من قتل في بدر وأحد ومنهم من مات على الفراش، دون أن يسلموا. وفي النهاية فتحت مكة لسببين: الأول أن فيها بيت الله الحرام وقبلة المسلمين ومحجهم، ولن يكون للمسلمين دولة من دون أن تكون مكة من ضمن أراضيها. والسبب الثاني يتمثل في القضاء على سلطة وجبروت كبراء قريش الذين ناصبوا الدين العداء وحاولوا القضاء عليه، متبعين سنن من كان قبلهم من الأمم، وإن أبقى المسلمون على أشخاص القرشيين، الذين بقوا على نفورهم من الدين وإن أعلنوا استسلامهم لدولته ونطق بعضهم بشهادة التوحيد. وكان لهوازن، جيران قريش في الطائف، موقف مشابه لموقف القرشيين من الإسلام، ونهاية مشابهة أيضاً.

---

(١) انظر ترجمة أمية بن الأسكر الجندعي في الإصابة، والقصة ذكرها الطبري في تاريخه، وذكرها غيره من المؤرخين.

الطائف

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (التوبة: ٢٥)

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد ذهب إلى الطائف قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام، وينقل ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق، قوله: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه؛ فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.

ويقول ابن هشام: أن أهل الطائف أغروا بالرسول سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط. انتهى.

وسواءً كان هذا ما حدث أم غيره، فإن من المؤكد أن أهل الطائف لم يرحبوا

بدعوة الرسول وأظهروا له الجفاء، وليس من المستبعد أن يكونوا قد أخرجوه من الطائف.

وعندما تأكد لزعيم هوازن، مالك بن عوف النّصْري، أن مكة قد خضعت لحكم دولة الإسلام، جمع قبائل هوازن وما جاورها، وعزم على مهاجمة جيش المسلمين والقضاء عليه في مكة إن هو بقي فيها أو مهاجمة المدينة.

ولأن هوازن أعلنت الحرب على الرسول فقد أصبحت عدواً للإسلام والمسلمين، يجب القضاء على جبروتها، ولو أنهم بقوا على كفرهم ومسالمتهم للمسلمين لما تعرض لهم جيش المسلمين، لأن من ضوابط الجهاد، أن كل من يعادي المسلمين، فإن عليه أن يختار بين الحرب، أو الدخول في طاعة دولة الإسلام، والرضى بالاحتكام لقوانينها، ولو لم يسلم.

وقد فضل الرسول مهاجمتهم ونقل المعركة إلى ديارهم، فتوجه إلى الطائف بجيش عرمرم، بمقياس ذلك العصر. حيث ضم الجيش الذي جاء به الرسول من المدينة وافتتح به مكة، إضافة إلى من انضم لهم من طلقاء مكة ومجموعات أخرى من القبائل المجاورة ممن يتطلعون للحصول على الغنائم.

ومع أن جيش المسلمين كان يفوق جيش أعدائهم إلا أن معظم ذلك الجيش انهزم في بداية معركة حنين، ووصلت فلوله إلى مكة، كما تذكر كتب التاريخ، ولم يصمد إلا الرسول والمؤمنون الأوائل من المهاجرين والأنصار[١]، الذين استطاعوا على الرغم من قلة عددهم أن يحولوا مسار المعركة وينتصروا على جيوش هوازن، في معركتين هما حنين، وأوطاس، وأن يحاصروا الطائف التي تحصن فيها المهزومون لمدة، دون أن يستطيعوا اقتحامها، فقرر رسول الله الرحيل عائداً إلى المدينة بعد أن استاق عيرهم ومواشيهم كغنائم.

ولم يكن هناك سبي للنساء، كما زعم الإخباريون، الذين قالوا إن بعض السبي كن متزوجات ومع ذلك فقد سمح الرسول للمسلمين بمواقعتهن، ومن ذلك ما نقله ابن كثير في البداية والنهاية، ونصه: وقال الإمام أَحمد: حدّثنا عبد الرزَّاق، أَنبأ سفيان ـ هو الثوري ـ عن عثمان البتي، عن أبي الخليل، عن أبي سعيد

(١) انظر فصل الصحابة وغزوة حنين.

الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس ولهنّ أزواج، فكرهنا أن نقع عليهنّ ولهن أزواج، فسألنا النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿وَالمُحْصنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (سورة النساء ٢٤) قال: فاستحللنا بها فروجهنّ. انتهى.

ولكي نبين أن كل تلك القصص مختلقة في عصور لاحقة، عندما كتب التاريخ، نقول بأن الآية (٢٤) من سورة النساء، قد نزلت ضمن الآيات الست والثلاثين الأولى من سورة النساء والتي تتحدث عن أوضاع النكاح والطلاق ومعاملة المرأة واليتيم ووضع قوانين وتشريعات لتلك الأحوال. وقد نزلت تلك الآيات في السنوات الأولى للهجرة، وقبل غزوة حنين وأوطاس التابعة لها، بسنوات، ولم تنزل لتسيغ للناس أن يسلبوا النساء من أزواجهن وينكحوهن، كما يدعي الإخباريون ذلك على الله بغير علم.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أنه لم يكن هناك سبي، أن كتب الأخبار تذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعتق عبيد أهل الطائف الذين يخرجون إليه، وهم رقيق في الأصل، وكان من أشهر أولئك أبو بكرة الذي سيتردد اسمه كثيراً في كتب الإخباريين في الأحداث التالية لعصر رسول الله، فكيف يسمح عليه الصلاة والسلام بسبي واسترقاق النساء والرجال الأحرار؟

ومما ذكر في كتب الأخبار يمكن استنتاج أن رسول الله قد ساق بعض مواشي وأموال هوازن كغنائم، وأن مجموعة من الأعراب الذين انضموا لجيش المسلمين طلباً للغنائم قد استعجلوا الرسول وألحوا عليه بتقسيم تلك الغنائم وإعطائهم منها، لدرجة أنهم انتزعوا رداء الرسول الذي كان يلبسه. ومما ذكر في هذا المجال ما نقله ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: وروى البخاري من حديث الزهري: أخبرني عمر بن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أخبره جبير بن مطعم أنه بينما هو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين، علقت الأعراب برسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كَانَ عَدَدَ هَذِهِ العَضَاهِ نِعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ؛ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذُوباً وَلاَ جَبَاناً. تفرّد به البخاري.

وقد تم توزيع بعض تلك الغنائم، وخص بها في الجملة الأعراب وحديثي العهد بالإسلام، ولما وجد أهل المدينة في أنفسهم من ذلك، بين لهم الرسول الحكمة من توزيعها على حديثي العهد بالكفر لأجل تأليف قلوبهم، ومما قاله لهم، حسبما نقله الإخباريون: «أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ حَتَّى تُدْخِلُوهُ بُيُوتَكُمْ؟» قالوا: رضينا يا رسول الله.

ولما توقف جيش المسلمين في الجعرانة، موضع بين مكة والطائف، لحق بهم بعض سادة هوازن، معلنين النطق بشهادة التوحيد، بعدما تأكد لديهم أن النطق بها كاف لإعادة أموالهم إليهم، وقد يكون طلقاء قريش هم من أكد لهم ذلك. وقد طلب رسول الله من الناس رد ما أعطاهم من الغنائم، ويورد ابن كثير أن الرسول قال: أَمَّا بَعْدُ فإن إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاؤُوا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ (سَبْيَهُمْ)، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيهِ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَالٍ يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ.

وعلينا أن نلاحظ أنه من السهل تغيير عبارة «أموالهم» إلى عبارة «سبيهم» في قوله «أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ».

ولم يوافق بعض الأعراب على رد ما حصلوا عليه من الغنائم، يقول ابن كثير في ذلك: وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا.

وقد يكون حضور زعماء هوازن للرسول حصل أثناء حصار الطائف، وهو ما جعل الرسول يتراجع عن الحصار ويعود أدراجه بالجيش.

وفي السنة التالية، أي التاسعة من الهجرة، حضر وفد من ثقيف إلى رسول الله في المدينة يعلنون دخولهم في طاعة دولة الإسلام، وقد يعود ذلك إلى أحد أمرين:

چأ- إما أن زعماء هوازن الذين قابلوا الرسول وأقنعوه برد أموالهم قد وافقهم الرسول على طلبهم شريطة أن يخضعوا لسلطة دولة الإسلام، وقد وافقوا على ذلك، وكان قدوم وفدهم تنفيذاً لما اتفقوا عليه مع الرسول.

چب- أو أن رجال قريش كان لهم تأثير مباشر وتأثير غير مباشر في استسلام الطائف. والتأثير غير المباشر تمثل في أن ثقيف رأت كيف أن مكة قد استسلمت

لدولة الإسلام، وأنه قد قضي على يهود يثرب واستسلمت خيبر، وبالتالي فلن يكون بمقدور الطائف أن تستمر في إعلان الحرب على الإسلام لوحدها. أما تأثير قريش المباشر فتمثل في أن من بقي من كبراء قريش الذين استسلموا للإسلام يوم فتح مكة، قد اتصلوا بزعماء ثقيف ونصحوهم بالاستسلام لسلطة الدولة الإسلامية لكي يأمنوا على أنفسهم وأموالهم ولو لم يؤمنوا بالدين كعقيدة، وهو ما يفسر تأخر قدوم وفد ثقيف إلى رسول الله سنة كاملة بعد غزوتي حنين وأوطاس.

ولأن الرسول قد قبل استسلام كبراء قريش للإسلام، ولو لم يؤمنوا بدعوته، وقبل استسلام وفد هوازن المماثل، فقد انتشر بين القبائل أن محمداً يتسامح مع كل من ينطق بالشهادتين ولا يحاسب على أي فعل قبلها ولو كان ضد محمد نفسه. فتسابق الناس زرافات ووحداناً إلى المدينة ليعلنوا ولاءهم لدولة الإسلام، ومن الأشخاص الذين استفادوا من تسامح الرسول مع كل من ينطق بالشهادتين أو يعلن إذعانه لدولة الإسلام، الشاعر كعب بن زهير الذي سبق وأهدر الرسول دمه. فما كان منه إلا أن توجه إلى المدينة والتقى الرسول ونطق بالشهادة أمامه، فأصبح من الطلقاء، وقد نسب إليه أنه قال قصيدة طويلة رائعة من البحر البسيط في مدح الرسول، والتي مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ عِنْدَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

والتي يقول فيها:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

وبعد وفد ثقيف تتالت وفود قبائل العرب على المدينة لإعلان ولائها، بما عرف بعام الوفود.

قبائل جزيرة العرب

بسم الله الرحمن الرحيم. إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاستغفرهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (النصر).

في بداية البعثة كان الرسول يعرض دعوته على وفود قبائل العرب الذين يحضرون إلى مكة في مواسم الحج والتجارة، ومن ذلك ما نقله ابن هشام في سيرته، تحت عنوان: عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل. وهذا نصه: قال ابن إسحاق: حدثنا ابن شهاب الزهري: أنه أتى كندة في منازلهم، وفيهم سيد لهم يقال له: مُليح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.

ومثله: قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن حصين: أنه أتى كلباً في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبدالله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبدالله، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

ومثله: قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا عن عبدالله بن كعب بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليهم رداً منهم.

وقد عرض الرسول دعوته على كل وفد من وفود القبائل في كل موسم ولكن كان موقفهم منه ثابتاً، ولم يتغير، يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء

به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعا إلى الله، وعرض عليه ما عنده. اهـ.

وبقي حال قبائل جزيرة العرب كما هو حتى بعد أن أسلمت الأوس والخزرج، وهجرة الرسول ومن آمن معه إلى المدينة. وفجأة تنقلب أحوال القبائل، بعد أن استسلمت قريش وثقيف، وتتدافع وفودهم التي كانت لا تعير دعوة الرسول اهتمامها، لإعلان الدخول في حوزة دولة الإسلام. ويصف ذلك ابن هشام بقوله: قال ابن إسحاق: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

أما سبب استسلام زعماء القبائل لسلطة دولة الإسلام بهذه الصورة فيوضحه ابن إسحاق بقوله: وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك. وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجاً يضربون إليه من كل وجه.

فكان يحضر عدد من وجهاء كل قبيلة إلى المدينة ويعلنون له انضواءهم تحت لواء دولة الإسلام ويقرون بالشهادتين ثم يعودون إلى بلادهم في ظرف أيام قلائل.

وبطبيعة الحال لم يتمكن الإيمان من قلوب جموع الأعراب الذين تقاطرت وفودهم على رسول الله ليعلنوا انضمامهم تحت راية دولة الإسلام، لأن تعمق الإيمان في النفوس سيحتاج إلى وقت حتى يصبح تراثاً تتوارثه الأجيال، ولذلك وصف القرآن تلك الوفود بأنهم لم يؤمنوا ولكن أسلموا، أو استسلموا للإسلام: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الحجرات: ١٤).

وقد أوردت كتب الأخبار قصصاً ووقائع تصور كيف كانت تلك الوفود تأتي إلى الرسول وتعاهده على الولاء لدولة الإسلام ثم تعود ولم تعرف من الإسلام إلا الشهادة والصلاة والصوم، لأن اجتماعهم بالرسول لم يكن ليزيد عن بضعة أيام لم تكن كافية حتى لتعلم بعض آيات القرآن الكريم، وهذا عمرو بن سلمة الجرمي يخبرنا أنه كان إماماً لقومه في الصلاة وهو ابن ست أو سبع سنين لأنه لم يكن من بينهم من يحفظ شيئاً من القرآن سواه، على الرغم من أن والده كان على رأس وفد القوم الذين ذهبوا إلى المدينة وأعلنوا دخلوهم ضمن إمرة دولة الإسلام.

يقول البخاري في حديث رواه برقم (٤٢٠٢)، وهذا نصه: حدَّثَنا سليمانُ بن حرب حدَّثَنا حمَّادُ بن زيد عن أيوب عن أبي قِلابةَ عن عمرو بن سَلِمَةَ قال: قال لي أبو قِلابةَ ألا تَلقاهُ فتسألَهُ؟ قال: فلقيتُهُ فسألتُهُ فقال: كنّا بماءٍ ممرِّ الناسِ، وكان يَمرُّ بنا الرُّكبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجلُ؟ فيقولون: يَزعمُ أنَّ الله أرسلَهُ، أوحى إليه، أو أوحى اللَّهُ بكذا، فكنتُ أحفظُ ذلِكَ الكلام فكأنما يقرُّ في صدري، وكانتِ العربُ تَلوَّمُ بإسلامهم الفتحَ فيقولون اتركوهُ وقومهُ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق. فلما كانت وقعة أهلِ الفتح بادرَ كلُّ قوم بإسلامهم، وبدَرَ أبي قَومي بإسلامهم، فلما قَدِمَ قال: جِئتُكم واللَّهِ من عندِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حقّاً، فقال: صلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا، وصلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضَرَت الصلاةُ فلْيُؤذنْ أحدُكم، وليؤُمُّكم أكثرُكم قرآناً، فنظَروا، فلم يكن أحدٌ أكثرَ قرآناً مني، لِما كنتُ أتلقَّى منَ الرُّكبانِ، فقدَّموني بينَ أيديهم وأنا ابن ستٍّ أو سبع سنينَ، وكانت عليَّ بُردةٌ كنتُ إذا سجدتُ تَقلَصت عني، وفي رواية فتكشفت عورتي، فقالتِ امرأةٌ منَ الحيّ: ألا تَغطّون عنّا اسْتَ قارِئكم، فاشتَروا، فقطعوا لي قميصاً، فما فرِحتُ بشيءٍ فرَحي بذلكَ القميص.

وهذا الحديث يظهر أن قبائل الجزيرة الذين دخلوا الإسلام لم يعرفوا من الإسلام إلا التوحيد، وأن عليهم أن يصلوا الصلوات المفروضة، ولكن لم يكن بينهم من يقرأ القرآن، لدرجة أن هؤلاء الجرميين لم يكن منهم من يحفظ شيئاً من القرآن سوى غلام يبلغ من العمر ست أو سبع سنوات، ادعى أنه حفظ القليل مما كان يسمعه من الركبان الذين يمرون عليهم قادمين من المدينة، والله وحده يعلم ما الذي حفظه ذلك الغلام، وهل كان فعلاً آيات متتابعة أم أنه بعض عبارات من آيات مختلفة متداخلة ومعها غيرها من عبارات بشرية.

أو أن ما كان يقرأه الغلام على أنه قرآن هو مثل ما كان يقرأه أبو موسى الأشعري ظناً منه أنه قرآن وهو ليس منه، فيما رواه مسلم في حديث برقم (٢٣٧٢)، وهذا نصه: حدَّثني سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ دَاوُدَ عَنْ أبي حَرْبِ بْنِ أبي الأَسْوَدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاَثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ. فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ. فَاتْلُوهُ. وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً. كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِسُورَةِ بَرَاءَةَ. فَأُنْسِيتُهَا. غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: لَوْ كَانَ لابن آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِياً ثَالِثاً. وَلاَ يَمْلأَ جَوْفَ ابن آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ. فَأُنْسِيتُهَا. غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ. فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ. فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فأبو موسى الذي أصبح من الفقهاء وتفقه على يديه الكثير، كان يحفظ عبارات يعتقد أنها آيات قرآنية، ولذلك استغرب لما لم يجدها في المصحف الذي كتب في عهد الرسول ونسخ منه عثمان بن عفان نسخاً وزعت على الأمصار.

ويبدو أن الجهل بالقرآن وآياته استمر عبر القرون، لأن كتب الأخبار مليئة بمثل هذه الآيات الأعرابية المضحكة من طرافتها والمبكية لأنها تظهر المفهوم الأعرابي للإسلام الذي ساد بين قبائل جزيرة العرب الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة والطائف، والذين كانوا قادة وعماداً للجيوش التي استولت على العراق وفارس والسند وشمال أفريقيا والشام وغيرها، والتي نشرت ذلك الإسلام الذي عرفته وليس الإسلام الذي جاء به الرسول.

ولا بأس من إيراد موقف طريف واحد بهذا المعنى، من كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، حيث يقول في الباب السادس عشر في ذكر المغفلين من الأئمة: عن محمد بن خلف قال: مر رجل بإمام يصلي بقوم فقرأ: آلم. غلبت الترك، فلما فرغ قلت له يا هذا إنما هو «غلبت الروم» فقال: كلهم أعداء لا نبالي من ذكر منهم. انتهى.

وهي وإن كانت طرفة إلا أنها تحكي لسان حال ذلك الزمن، مثلما تحكي حال

الزمن إلى وقت قريب جداً تلك القصص والنوادر عن قراءات أئمة البادية للقرآن والتي تدل على جهلهم بكتاب الله الذي استمر منذ دخل آباؤهم الأولون الإسلام في آخر عهد الرسول، وارتدوا عنه بعد موته ثم عادوا لحظيرة دولة الإسلام دون أن يعرفوا من الدين إلا الشهادة وهيئة الصلاة والصوم، ومع ذلك كانوا قادة «الفتوح» وجنود جيوشه الذين أعطوا للبلاد المفتوحة صورة للإسلام يحملونها هم ولا يعرفون غيرها.

وتكون قبائل جزيرة العرب بالكامل قد دخلت تحت إمرة الإسلام واستسلموا لدولته، دون أن يؤمن بدين الإسلام سوى قلة قليلة، لا تتجاوز بضع مئات، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ١٠٠).

ويكون الإسلام قد مر بالمراحل التي يمر بها كل دين أرسلت به الرسل إلى الأمم السابقة. فقد بعث محمد عليه الصلاة والسلام في مكة وبين قريش، فلم يؤمن به سوى القلة من الضعفاء وأقل منهم من يبحث عن فرص أفضل، واستمر الكبراء وبقية الناس على كفرهم به، ولو بقي الرسول في مكة ألف عام فلن يؤمن به إلا من آمن، لأن كبراء قريش لهم مصالح دنيوية لن يفرطوا بها من أجل وعود غيبية وعدهم بها رجل عادي منهم.

وقد ذهب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى الطائف ليعرض دعوته على أهلها، ولكن الطائف، مثل مكة، لكبرائها منافع دنيوية لن يفرطوا فيها، فرفضوا دعوة محمد «وأغروا سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس» كما ذكر ابن هشام وغيره.

فحاول عليه الصلاة والسلام دعوة وفود القبائل الذين يحضرون إلى مكة في موسم الحج، ولكن دعوته رفضت، ليس لأن كبراء قريش كانوا يتابعون الرسول ويسخرون منه أمام زعماء الوفود ويحاولون أن ينفروهم من قبول دعوته، فقط، ولكن لأن من يحضر للحج هم زعماء، وكبراء القبائل، ولهم مصالح دنيوية لا يتوافق معها الإسلام، ولذلك فلم يكن لديهم الاستعداد للتنازل عنها، مقابل وعود الرسول في الآخرة.

وكما أنه من المتوقع ألا يصغي القرشيون وأهل الطائف وزعماء القبائل الأخرى لدعوة محمد، حسب قانون سنة الأولين، فإنه وحسب القانون نفسه، قد حضر وفد من الأوس والخزرج للرسول وناقشوه فيما سيحصلون عليه من منافع لو أسلموا، ومن ثم أعلن غالبية الأوس والخزرج الدخول في الإسلام، لأنهم كانوا يمثلون المستضعفين والضعفاء في يثرب، والذين عانوا الأمرين من سخرة اليهود لهم، فكان الإسلام مخلصهم الذي يتمنون أن يحصلوا على حياة أفضل بالانتماء إليه، وهو ما حدث بالفعل.

ولم يسلم اليهود في يثرب أو خيبر أو تيماء أو العلا، لأنهم كانوا أصحاب أملاك ومصالح دنيوية، مثل قريش وأهل الطائف وزعماء القبائل، ولو أسلموا لكانوا استثناءً لسنة الأولين التي درج على اتباعها الناس في كل زمان ومكان.

وجاء القضاء على اليهود وكبراء قريش والطائف واستسلام القبائل عندما وصلت دعوة الرسول إلى المرحلة التي ينصر الله فيها الرسول ومن آمن معه ويقضي على الكبراء، فقضي على سلطة أولئك الكبراء وخضعوا لسلطة دولة الإسلام، ولو لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

وكما مر بالإسلام المراحل الثلاث التي مرت بالأمم السابقة، فسوف يمر به أيضاً المرحلة الرابعة كما مرت بهم، حيث ستبتعد الأجيال التالية لعصر الرسول عن الدين، وسيتمسكون بالمعتقدات المستحدثة والدخيلة على الإسلام على أنها هي صحيح الإسلام ولن يقبلوا بالتصحيح والعودة إلى جوهر الدين إلا بنفس الطريقة التي اتبعها الرسل مع قومهم على مر التاريخ.

مع فارق واحد هو أنه لن يأتي رسول على شكل مسيح، أو غير رسول على شكل مهدي ليعيد البشر لدين الله، لأن الله قد ترك للناس القرآن ليسد مسد الرسول كمرجع إلهي موجود على الدوام لمن أراد العودة إلى الدين القويم. وسيكون بإمكان أي مسلم (من أي شعب من شعوب الدنيا المختلفة) التسلح بالقرآن لقيادة دعوة الناس للعودة إلى الدين إذا ما وجد لديه قوة العزيمة على ما سيواجهه من تعنت الناس.

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً» (الكهف: ٥٥).

وفي الباب المقبل سنتناول وضع من تسموا بالمسلمين زمن رسول الله، من منظور قرآني، وهل كانوا جميعاً مؤمنين برسالة محمد، أم أن أغلبهم كانوا أقرب للشك من اليقين.

الباب السابع

المسلمون زمن الرسول

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧).

* المغالاة في مدح أو قدح الصحابة غلو يتعارض مع دين الله.
* الصحابة خلق من خلق الله لهم ما على بقية البشر وعليهم ما عليهم دون زيادة أو نقصان، ودون تميز. من آمن فقد أنقذ نفسه من النار، ومن أخطأ فسيحاسب كما يحاسب بقية الناس.
* الحديث عن تشريعات الإسلام لا يتم بالحديث عن مواقف الصحابة، والحديث عن الصحابة لا يعني الحديث عن الإسلام.
* الصحابي هو كل من اعتنق الإسلام وعاش بما يكفي لكي يتعمق الإيمان في قلبه وجاهد من أجل إقامة دولته وأنفق من ماله على تلك الدولة، وليس من عايش الرسول ورآه.
* في عصر الرسول كان هناك المنافق وكان هناك من يتشكك من صدق الدعوة، ومنهم من يؤول القرآن ليتماشى مع مصالحه، ومنهم من أسلم ثم ارتد، ومنهم من امتنع عن الإنفاق، ومنهم من داوم على الغش التجاري، ومنهم من تعامل بالربا، ومنهم من اتخذ الكفار واليهود أولياء، ومنهم من بدت بينهم الشحناء والبغضاء، ومنهم من لم يؤمن لدرجة الإقدام على الجهاد. ومنهم من حاول تضليل الرسول عن الحق، ومنهم من لم يؤمن بالقرآن على أنه منزل من الله، ومنهم من آذى الرسول ومنهم من آذى نساء الرسول والمسلمين، ومنهم من فضل التجارة على الصلاة، وكل هؤلاء عدوا من الصحابة، مع أن الله توعد من لم يتب منهم بعذاب أليم.
* أما من آمن وعمل صالحاً ورضي الله ورسوله عنهم فقد كانت أعدادهم قليلة لم تتجاوز بضع مئات عندما توفي رسول الله.

تمتلئ كتب الأخبار (الحديث والتفسير والسير والتاريخ) بقصص عن الصحابة تمتد من أقصى اليمين في مدحهم وإظهار كرامات خارقة للعادة لهم وتقديسهم وتصويرهم على أنهم ليسوا بشراً ولا يجري عليهم ما يجري على البشر من الصح والخطأ والنسيان، والتصديق والعصيان. ويقابل ذلك تطرف من الجهة الأخرى تسعى للنيل منهم وتنسب إليهم قصصاً لا يمكن تخيل صدورها من السفهاء أو عتاة المجرمين.

وعندما اصطدم الفريق الذي يقدس الصحابة بما وجدوه قد وقع بينهم من أحداث تتعارض مع قدسيتهم التي رسموها لهم، تبنوا أحاديث نسبت إلى الرسول تنهى الناس عن الخوض فيما صدر منهم، والنظر إليهم جميعاً (مخطئهم ومصيبهم، برّهم وفاجرهم) على أنهم بررة أخيار لا يحكم عليهم بنفس المقياس الذي يحكم به على بقية خلق الله، معتقدين أنهم يخدمون الإسلام إن هم أخفوا حقيقة مجتمع الصحابة.

وهذا تصرف عربي لا زال منتشراً بين العرب، فالعرب لا يعترفون بمشاكلهم ولا يتحدثون عنها، وإن تحدث عنها غيرهم أنكروا وجودها، لأن الاعتراف بوجود الخطأ عيب، والعربي لا يعاب. وحل المشكلة ليس بالاعتراف بها، عندهم، ولكن بعدم الخوض فيها أو التحدث عنها وتجاهلها حتى يتكفل الزمن بنسيانها.

وبما أن الفقهاء والمحدثين من الشعوب الأخرى تشربوا الثقافة العربية بعد أن تحول آباؤهم للإسلام وولدوا فيه، فإن فقهاء السنة منهم يرون أن الصحابة كلهم عدول، ولا يسأل عن عدالة أحد منهم، وإن قالوا بفضل أبي بكر وعمر على سائر الصحابة وفضل الأربعة الخلفاء على من سواهم. واعتبروا أن فتنة عثمان التي أدت

لقتله، والحروب التي دارت بين علي ومعارضيه في معركة الجمل والنهروان وغيرهما، وفي صفين بينه وبين معاوية، وبين معاوية وعدد من الصحابة وأبنائهم، اجتهادات من أخطأ فيها فله أجر واحد ومن أصاب فله أجران، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء بيان من سيصرف لهم هذا الأجر وهذان الأجران، فالله لن يصرفها لهم، فهو سبحانه لم يقل بتلك الأجور ولكن الفقهاء هم من قال بها. لأن الأحاديث المنسوبة إلى الرسول والتي تقول بأن للمجتهد أجرين، المعني بها الحاكم وليس الصحابة، فهي تقول: إذا حكَمَ الحاكمُ فاجتهد ثم أصابَ فله أجران، وإذا حكمَ فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. وهذا النص موجود في كتب البخاري برقم (٧١٨٧) ومسلم برقم (٤٤٤١) والترمذي برقم (١٣٢٤) وغيرهم من المحدثين. وهذه الأحاديث لا يمكن أن يكون الرسول قد قالها لأنه لم يكن في عصره حكام، ولأنه لو كان يعلم الغيب، لوضع مواصفات للحاكم، حتى يقطع الطريق على من جاء بعده من حكام وسلاطين ساموا الناس سوء العذاب باسم الدين.

أما فقهاء الشيعة، فيعتقدون بأن العدالة لا تجوز إلا لعلي بن أبي طالب ونسله، فهم وحدهم الذين لا يجوز عليهم الخطأ من الصحابة، وهم وحدهم المعصومون، لأنهم امتداد لنور الرسالة المحمدية لا يتم الدين إلا بهم. ويعتبرون أن الصحابة الذين ناصروا علياً هم أهل الفضل، بينما يرون أن بقية الصحابة ليس لهم من الفضل والعدل شيء، بل إن بعضهم قد اعتدى وظلم مثل أبي بكر وعمر وغيرهم، لأنهم لم يمكنوا علي بن أبي طالب بأن يكون (الزعيم) بعد رسول الله.

وسواءً كان من سموا بالصحابة طاهرين مطهرين كالملائكة أو كانوا فسقة كالشياطين، فلن ينتفع الإسلام بمدحهم ولن يتضرر الإسلام بإظهار مساوئهم. لأن الإسلام ليس الصحابة والصحابة ليسوا هم الإسلام. ويكون من غالى في مديحهم وتقديسهم قد وقع فيما نهى الله عنه من تقديس غير الله، وكل من حاول النيل منهم فقد وقع في غيبة نهى الدين عنها، سواءً كانت موجهة لأحد الصحابة أو لشخص آخر من غيرهم.

ومن الأجدى عند الحديث عن الإسلام ألا يتم الحديث عن الصحابة وكأنه حديث عن الإسلام أو الحديث عن الإسلام وكأنه حديث عن الصحابة، أو

الاستشهاد على تشريعات الإسلام بمواقف الصحابة. فلا تسرد مواقف عدل عمر للاستدلال بأن الإسلام عادل، ولا يوصف الإسلام بالنقص لأن علي بن أبي طالب لم يستطع الوصول إلى الملك. ومن يرد أن يحكم على الإسلام فليحكم عليه من تشريعاته وما يأمر به، وليس من تصرفات من انتسب إليه من بشر، من أحسن منهم فلنفسه ومن أساء فعليها. لأن الحكم على الإسلام من تصرفات أهله يؤدي إلى نحر دين الله بسبب الجور والفسق الذي يتصف به المسلمون.

تعريف الصحابي في كتب الأخبار

يُعرّف الإخباريون المسلمون الصحابي بأنه: كل من دخل في الإسلام ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أو لقيه، دون تحديد لمدة معينة أو عمر.

وعلى هذا الأساس قدّر عددهم عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري في كتابه المشهور أسد الغابة في معرفة الصحابة بأكثر من ستة آلاف، بينما قدرهم أحمد بن علي بن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة بأكثر من عشرة آلاف بما فيهم النساء.

وهذه الأعداد لا تقتصر على المسلمين الأوائل في مكة والأنصار في المدينة ومن كان لهم الشرف بمصاحبة الرسول مدة كافية والمشاركة في أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وبناء دولة الإسلام، بل ضمت كل من أعلن دخوله في الإسلام في حياة رسول الله.

بما في ذلك وفود قبائل شبه الجزيرة العربية الذين قدموا على رسول الله وبايعوه على الإسلام في السنة التاسعة من الهجرة وما بعدها وعادوا لبلادهم مباشرة، وتوفي الرسول، وأكثرهم لم يره أو يجتمع به بعد ذلك.

كما اعتبر الطلقاء من الصحابة، وهم سكان مكة الذين أعلنوا خضوعهم للإسلام يوم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة أي قبل سنتين من وفاة الرسول، وبقوا في مكة ولم يلازموا الرسول، ومثلهم أهل الطائف.

كذلك كان ممن حُسِب من الصحابة كل من ولد على الإسلام زمن الرسول ومات الرسول قبل بلوغهم الحلم، وأشهر هؤلاء عبدالله بن عباس الذي ولد في مكة وبقي فيها مع والده العباس الذي انضوى تحت راية الإسلام بعد فتح مكة

وبقي فيها ولم يهاجر إلى المدينة لمصاحبة الرسول. وقد كان عبدالله بن عباس حين وفاة النبي ابن ثماني سنوات وقيل تسع وقيل عشر وقيل اثنتي عشرة.

ومن هؤلاء الحسن بن علي بن أبي طالب الذي لا يمكن أن يكون قد تجاوز الست سنوات على أكثر الاحتمالات حين وفاة الرسول، وكذلك الحسين بن علي الذي لا يمكن أن يتجاوز الأربع سنوات من عمره حين توفي رسول الله. ومنهم أيضاً عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرهم.

كما عد من الصحابة بعض من لم يدخلوا الإسلام ومنهم عبدالله بن جدعان القرشي الذي ذكر الحاكم في المستدرك بأن الرسول قد تناول مأدبة في داره، على ما يبدو أنها كانت قبل الإسلام. ومنهم عبدالله بن أريقط الذي قيل بأنه دليل الرسول وأبو بكر لما هاجرا للمدينة، ولم يسلم.

وحمل رقم (١٠٨) في أسد الغابة ورقم (٥٢٤) في الإصابة اسم أسقف نجران الذي قدم على رسول الله في المدينة في وفد، وناظر رسول الله ثم عاد لبلاده ولم يسلم.

وكذلك عد من الصحابة مجهولون لم تتأكد شخصياتهم، ومنهم رجل اسمه عبدالله بن بديل روي عنه حديث المسح على الخفين، وهو غير عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي الذي أسلم يوم الفتح وشهد حنين وتبوك وقتل في صفين.

كما عد من الصحابة أناس لم تثبت صحبتهم. وأناس دخلوا الإسلام أيام الخلفاء الراشدين وبعد زمن الرسول، وأناس ماتوا في الجاهلية، وآخرون عاصروا الإسلام ولم يسلموا، وغيرهم ممن أسلم وارتد.

وهناك عدد كبير ممن تكررت أسماؤهم أكثر من مرة، كأن يذكروا في باب الكنى ويعاد ذكرهم مرة أخرى بأسمائهم، أو يذكر اسمه في مكان ويكتب تحته بأنه سيتم الحديث عنه في مكان آخر أو عند الحديث عن شخص آخر، أو أنه سبق الحديث عنه.

وممن عد من الصحابة رهط من الجن، سموا بأسماء مثل: سليط وشاطر وخاضر وحسا ومسا ولحقم والأرقم والأرس وحاصر، وهي الأسماء التي نسب إلى ابن عباس أنه ذكرها في تفسيره، وقال بأنهم الذين تحدثت عنهم سورة الجن في قوله تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا

(الجن: ١) مع أن الرسول لم يعلم بوجودهم إلا بعد أن نزل عليه الوحي ولم يعرف هوياتهم وأين استمعوا إليه، ومتى كان ذلك أبداً.

فإذا كان الرسول لم يعرف أسماءهم فكيف عرف بها غيره؟

ولكي نعرف من الذي يمكن أن يوصف بالصحابي، فلا بد من إيجاد تعريف محدد للصحابي، ولن نبحث عن أي تعريف قال به بشر لأننا سندخل في دوامة من التناقضات والاختلافات لا تنتهي، ولأن التعريف البشري لا يزيد عن كونه يعبر عن رأي قائله، ومن السهل معارضته، لذا سنحاول أن نجد تعريفاً للصحابة من القرآن الكريم.

مفهوم الصحبة في القرآن

هناك عشرات الآيات التي تبين ماذا يجب أن يتصف به الإنسان لكي يطلق عليه مؤمن، وسنكتفي بصورة مختصرة جداً للمؤمن جاءت في بداية سورة الأنفال، يقول تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (الآيات: ١-٤).

فيكون المؤمن هو من يتقي الله، وتقوى الله يمكن تلخيصها بمراعاة الإنسان لكل ما يصدر منه من قول أو فعل أو تعامل أو عبادة وكأنه قد تم بين يدي الله وأنه سبحانه يراه ويراقبه، وطاعة الله في كل أمر جاء به الرسول في القرآن، واجتناب كل نهي نهى عنه القرآن بلا استثناء «وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

لأن المؤمن هو من يستحضر الله في قلبه دائماً وعند أي فعل أو تصرف يقوم به، ويتبع كل ما جاء به القرآن ونهى عنه «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

ومن التقوى السعي بالصلح بين المسلمين «وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ».

والمؤمن هو من يؤدي فروض العبادات كالصلاة «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ».

والذي ينفق بقدر استطاعته ليساهم في بناء دولة الإسلام واستمرارها «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

هذا هو المؤمن الحقيقي الذي سيكسب رضى الله وجناته «أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

وهناك (٨٩) آية في القرآن تبدأ بقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا» وكلها تخاطب المؤمنين زمن رسول الله، وأولئك المؤمنون هم من يجب أن يسموا بالصحابة دون غيرهم ممن رأى الرسول أو اجتمع به.

وتكون الصفات التي ذكرتها آيات سورة الأنفال السابقة تخاطب وتصف بعض من عاصر الرسول وآمن به، وتلك الصفات لا تتوفر إلا لمن سبق للإسلام وحسن إسلامه ولزم الرسول من بدايات الدعوة، وتشرب الثقافة الإسلامية الجديدة، وأنفق على مصروفات دولة الإسلام، وساهم في بنائها وحارب في سبيل الله، وهذا يحتاج إلى وقت وسنين لم تتوفر إلا للرعيل الأول من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا وحسن إسلامهم وبقوا مع الرسول حتى مات، أو ماتوا في حياته. وهم الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ١٠٠).

وهو ما يتوافق مع صحابة كل رسول سابق مثل أنصار عيسى ابن مريم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إلى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسرائيل وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأصبحوا ظَاهِرِينَ (الصف: ١٤).

وهذه الصورة لا تنطبق على من لم يسلم طوال دعوة الرسول إلا يوم الفتح أو حنين أو بعده من الوفود، أو من شابههم، لأن هؤلاء ممن قال الله فيهم: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أعمالكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الحجرات: ١٤).

ولا تنطبق على من كان يسكن المدينة من غير المؤمنين، مثل اليهود الذين بقوا على ديانتهم، ومنهم بعض اليهود الذين دخلوا الإسلام للحفاظ على حياتهم والإبقاء على ممتلكاتهم. ولا من أعلن إسلامه لظروف خاصة ولم يؤمن. ولا يدخل فيهم من ولد في الإسلام ومات الرسول وهم أطفال لم يبلغوا الحلم، لأن هؤلاء لم تسعفهم سنهم المبكرة لكي يصحبوا الرسول، ولا من نزل بحقهم آيات تحذير أو وعيد وتهديد، ولا المخلفون عن الجهاد بلا عذر، ولم يتب عليهم ربهم.

ويكون عدد المؤمنين بالرسول والذين يمكن وصفهم بالصحابة قليل من بين الأعداد التي ادعت الإسلام، هاجر جزء منهم من مكة إلى الحبشة ومنها إلى المدينة، والبعض هاجر مباشرة من مكة إلى المدينة، إضافة إلى من أسلم بدعوة الرسول من الأوس والخزرج الذين سماهم القرآن بالأنصار.

وهؤلاء لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة جداً ممن حوتهم كتب تراجم الصحابة، ولكي نقرب هذه الصورة من ذهن القارئ، نقول بأننا لو أخذنا على سبيل المثال (٢٠٠) اسم ذكرت في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، لوجدنا أن هناك (٣٤) أسماء فقط من المائتين يمكن تصنيفهم، بشيء من التجاوز، على أنهم من الصحابة، أما بقية الأسماء فمنهم من لم تثبت لهم صحبة، أو مشكوك في شخصياتهم واحتمال أنه ليس لهم وجود، أو من الوفود، أو من الطلقاء، أو ممن لم يدركوا الإسلام وماتوا في الجاهلية، أو ممن أدرك الإسلام ولم يسلم، أو أنه تكرر ذكرهم عدة مرات، أو أنهم ممن مات من الأطفال مثل إبراهيم بن رسول الله، أو أنهم من الجن الذين ذكروا في تفسير ابن عباس وغيره.

ويكون الصحابي هو كل من آمن بالرسول في بداية دعوته، وآزره، وداوم على صحبته، وحسن إسلامه وعمل صالحاً، وبقي على إيمانه حتى مات.

وليس كل من سكن المدينة وعايش رسول الله وأعلن إسلامه قد اطمأن قلبه بالإيمان، والآيات القرآنية تتحدث عن أخلاقيات تتعارض مع الإيمان لكثير ممن انتسبوا إلى الإسلام في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما يلي:

المسلمون والتظاهر بالدين

عندما آمن معظم سكان المدينة من الأوس والخزرج وهاجر الرسول إليها وقويت شوكة الدين، أعلن بعض كبراء المدينة دخولهم الإسلام دون يقين ولكن لأنهم لا يستطيعون معاداة الإسلام بعد أن أصبح الأقوى في يثرب، طمعاً في أن يحصلوا على ميزات ومكاسب شخصية، وهذا ما تتحدث عنه أول سورة نزلت في المدينة بدءاً من الآية الثامنة: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أنفسهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (البقرة: ٨-٩).

فإعلانهم الإسلام لم يكن يعني أنهم على يقين من صحة دعوة محمد: فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (البقرة: ١٠).

ولذلك استمروا في ممارسة بعض الأعمال التي اعتادوها والتي تعتبر في عرف الشرع مفاسد: وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (البقرة: ١١-١٢).

وآمنوا بطريقتهم الخاصة والتي لن تسمح للمستضعفين من الناس والذين يعتبرونهم سفهاء بمساواتهم وهم ذوو الجاه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُون (البقرة: ١٣)

والتصنيف الذي وضعوه للناس بين سفيه مستضعف، ووجيه ذي نفوذ، هو تصنيف بشري لا يتناسب مع طبيعة البشر التي خلقهم الله عليها وجعلهم متساوين في الملكات والقدرات وإن اختلفوا في الغنى والفقر، ولذلك فالمؤمن بالله ولو كان فقيراً هو الوجيه أمام الله والكافر بالله أو ببعض أوامره هو السفيه أمام الله ولو كان غنياً أو ذي نفوذ وسلطة.

وهم أعلنوا الإيمان فقط ولكن لم يلتزموا بأوامره، والدين كل لا يتجزأ، فإما الإيمان والعمل بكل أوامر الشرع، واجتناب كل نواهيه، أو لا إيمان ولو نطق المرء بالشهادة وأدى بعض أوامر الدين وقام بالعبادات. لأن تأدية بعض الأوامر دون غيرها، أو الامتناع عن بعض الأوامر الشرعية دون غيرها يتساوى مع عدم تأدية الأوامر كلها أو عدم الامتناع عن كل النواهي.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ. اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (البقرة: ١٤-١٦).

وكان كلامهم ومظاهرهم تدل على أنهم مؤمنين، ولكنهم يعملون بخلاف ذلك ويفسدون في الأرض: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥).

وهؤلاء لا يمكن أن يستمعوا لوعظ الرسول، ويثور أحدهم عندما ينتقد وكأنه أكبر من أن يخطئ: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (البقرة: ٢٠٦).

فزينت لهم أنفسهم ما هم فيه وعموا عن رؤية تجاوزاتهم: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (البقرة: ١٧-١٨).

وقد جاء ذكر هذه الفئة المحسوبة على الصحابة في سورة التوبة أيضاً والتي هي من آخر السور التي نزلت على الرسول: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكَذِبُونَ (التوبة: ٧٥-٧٧).

والسورة الثالثة والستون في القرآن تسمى سورة «المنافقون» لأنها تتحدث عن هذا النوع من الصحابة الذين يظهرون الإيمان ولم يؤمنوا: بسم الله الرحمن الرحيم. إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (الآية: ١).

ولكي يصدقهم الناس في كلامهم كانوا يكثرون من الحلف: اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (المنافقون: ٢-٣).

وكانوا يتفننون بالظهور بمظاهر توحي بالصلاح ويجيدون التنظير في المواعظ والتشدق بترديد كلمات التقوى: وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (المنافقون: ٤).

ولكن عندما يمتحنون في إيمانهم يظهرون بخلاف مظاهرهم الخارجية: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ. سَوَاء عَلَيْهِمْ استغفرتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون: ٥-٦).

ويتسارون في جلساتهم الخاصة بما تكنه صدورهم ضد الإسلام والرسول: هُمُ

الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (المنافقون: ٧-٨).

وهم من تحدثت عنهم الآيتان (٨-٩) من سورة المجادلة: أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أنفسهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. فكلامهم وتحيتهم فيها من المبالغة في إظهار التقى والتشدق بترديد عبارات التقوى.

وكذلك الآيات (١٤-١٩) من نفس السورة: أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ. اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

كما تحدثت عنهم الآيتان (١١، ١٢) من سورة الحشر: أَلَمْ تَر إلى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ.

وغيرها من الآيات التي تظهر أن هناك منافقين، منذ اللحظة التي دخل فيها الإسلام المدينة وحتى توفي رسول الهدى.

المسلمون والشك وعدم تصديق الدعوة

هناك فريق من المحسوبين على الصحابة كان يساورهم شكوك حول صحة الدعوة الإسلامية، وكانوا يودون سؤال محمد أن يريهم الله في موقف مشابه لما حدث بين اليهود وموسى: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (البقرة:١٠٨).

وقد كان هذا بتأثير من يهود المدينة، الذين يخالطهم هؤلاء الصحابة ويستمعون لأحاديثهم: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أنفسهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة:١٠٩).

وهؤلاء درجة إيمانهم بمستوى إيمان بني إسرائيل الذين سبقوهم بطلب رؤية الله: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ (البقرة:٢١٠).

وهؤلاء لو رأوا من المعجزات ما رآه بنو إسرائيل زمن موسى، فسيستمر موقفهم من الدين مشابهاً لمواقف بني إسرائيل قبلهم ولن يدخل الإيمان في قلوبهم: سَلْ بَنِي إسرائيل كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فإن اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (البقرة:٢١١).

ولذلك حذر الله هؤلاء الصحابة من الاستماع لليهود لأنهم يبحثون عن الضلالة ويودون لو ضل المسلمون مثلهم: أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ. وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا (آل عمران: ٤٤-٤٥).

المسلمون وتأويل القرآن لخدمة مصالحهم

وهناك نوع ممن سموا صحابة يحاولون تأويل معاني القرآن لخدمة مصالح شخصية. وقد حذرهم القرآن وحذر من سيأتي بعدهم ويقوم بالفعل نفسه: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (البقرة:١٥٩).

وبما أنهم بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من الخطأ وارتكاب المعاصي

فقد ذكرهم الله بأن باب التوبة مفتوح لكل من يود الرجوع عن خطئه: إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة: ١٦٠).

أما من استمر على فعله فهو كافر، ولو مات قبل أن يتوب فمأواه النار: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (البقرة: ١٦١).

المسلمون والردة

بعض من صنف من الصحابة آمن ثم كفر ثم عاد فآمن ثم كفر مرة ثانية: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازدادواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (النساء: ١٣٧).

وبعضهم أعلن ردته بعد أن كان يتظاهر بالإسلام: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (المائدة: ٤١).

ومثل هؤلاء بعض اليهود الذين أعلنوا إيمانهم ولكنهم لم يكونوا مؤمنين حقاً: إِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ. وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (المائدة: ٦١-٦٢).

ولو ارتد الصحابة كلهم فلن يضر دين الله شيئاً وسيوجد أناس غيرهم يؤمنون به ويخدمونه لأن الله أنزل القرآن ليبقى مرجعاً للدين الصحيح حتى يوم القيامة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (المائدة: ٥٤).

فالإسلام ليس للعرب ولا للصحابة ولكن الصحابة وجدوا في عصر بعث فيه الرسول، فمن آمن منهم نجا وأنقذ نفسه، أما لو كفروا فسيوكل الله لدينه من لا

يكفر به: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فإن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام: ٨٩).

المسلمون والإنفاق

الإنفاق هو أعم من الزكاة المعروفة حالياً والصدقة والإحسان، لأن الصدقة بمعناها الحالي ترجع إلى كرم الشخص وتقديره، والزكاة المعروفة حالياً لها نصاب معلوم تخرج بموجبه. بينما الإنفاق العام يخضع لاحتياجات بيت مال دولة الإسلام، ويتمثل في دفع كل مسلم نسبة معينة تتناسب مع دخله، حسب حاجة بيت المال، وميزانية الدولة.

ويأتي الإنفاق في القرآن بعدة مسميات منها الصدقات والتي تستخدم لحل المشاكل الآنية للمجتمع المسلم مثل الفقر: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (الإنسان: ٨).

وهو الزكاة التي تهدف لتحقيق التكافل الاجتماعي: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: ٢٧٧).

والإنفاق يكون للصرف على الخطط طويلة المدى لدولة الإسلام، وللصرف على الميزانية العامة والمشاريع الإنمائية والخدمية والبنية التحتية والتكافل الاجتماعي وتسليح الجيش، وفي مجال التكافل الاجتماعي وحل المشاكل الآنية والمستعجلة في المجتمع (وسنتناول ذلك في الحديث عن الزكاة والإنفاق والربا).

ولما للإنفاق من منزلة عظيمة جداً في الإسلام، فهو يذكر عادة مقترناً بالإيمان: وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (النساء: ٣٩) .

،لا يمكن للإيمان أن يكتمل ما لم يقترن بالإنفاق: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (الحديد: ٧).

ومن يرد الآخرة فلا بد أن يراعي أموراً هامة من بينها الإنفاق: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (فاطر: ٢٩).

بل إن القرآن يؤكد أن من لا ينفق فقد ألقى بيده إلى التهلكة، أي حكم على نفسه بدخول النار، حتى لو أقر بالشهادتين وأدى العبادات والمعاملات الشرعية وتجنب المعاصي: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة: ١٩٥).

ومع ذلك فقد كان هناك بعض (الصحابة) ممن ألقى بنفسه للتهلكة ولم ينفق: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (البقرة: ٢٥٤).

كما كان بعضهم ينفق من أردى أنواع النفقات مخالفاً أمر الله بأن الإنفاق إن كان عينياً فلا بد أن يكون من أطيب الموجود وأنفس البضائع: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة: ٢٦٧).

ومع أن الصحابة يسمعون كلام الله وحثه لهم على الإنفاق إلا أن بعضهم مصر على رفضه، ولذلك جاء الخطاب لمحمد بألا يجزع من مواقفهم تلك لأن دوره فقط نقل رسالة ربه دون أن يكون مسؤولاً عن هداية الصحابة وإقناعهم بجدوى الإنفاق، فهذا ينبع من ذات الشخص. فمن ينفق فلنفسه ومن يبخل فعليها: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفسكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (البقرة: ٢٧٢).

بينما كان هناك صحابة ينفقون كما أمرهم الله: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: ٢٧٤).

كما كان هناك بعض الصحابة الذين ينفقون القليل لأنهم لا يجدون غيره: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبة: ٧٩).

وعلى الرغم من أنه قليل وجودته ليست عالية لدرجة أن بعض من رآه سخر منه، إلا أن الله قبله منهم لأنهم لا يجدون غيره وفضلوا أن يجودوا به لوجه الله على أن ينفقوه على أنفسهم.

وفي المقابل هناك بعض الصحابة إن أعطاهم الرسول من الصدقات رضوا وإن لم يعطوا أظهروا امتعاضهم: وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فإن أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إلى اللّهِ رَاغِبُونَ (التوبة: ٥٧-٥٨).

مع أن الإنفاق فرض للتكافل الاجتماعي وسد حاجات المجتمع وليس لمن يلح بالحصول عليه: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٥٩).

وفي سورة النجم تتحدث الآيات عن موقف آخر للصحابة من الإنفاق: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى. أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى. أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإبراهيم الَّذِي وَفَّى. أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى. وَأَن لَّيْسَ لِلْإنسان إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (النجم: ٣٣-٤١).

يقول ابن عباس في تفسيره أنها نزلت في عثمان بن عفان الذي كان كثير النفقة على أصحاب الرسول فلقيه أخوه لأمه عبدالله بن أبي السرح فقال له أراك تنفق على هؤلاء مالاً كثيراً فأخاف أن تبقى بلاشيء! فقال عثمان لي خطايا وذنوب كثيرة أريد تكفيرها ورضا الرب فقال ابن السرح أعطني زمام ناقتك أحمل عنك ما يكون عليك من الذنوب والخطايا في الدنيا والآخرة فأعطاه زمام ناقته واقتصر عن نفقته فنزلت الآيات.

ونحن لا نقول بما قالته كتب التفاسير والأخبار عن سبب نزول هذه الآيات، ولكن يمكن أن يستشف من الآيات أنها نزلت في بعض الصحابة، وليس مهماً من هم، لأنهم اعتقدوا أن الإنفاق يكون لمرة واحدة أو مرات محدودة أو بقيمة محدودة، ولما طلب منهم تكرار الإنفاق كلما دعت الحاجة في دولة الإسلام، توقفوا عن الإنفاق. لذلك نزلت هذه الآيات وغيرها لتبين أن الإنفاق في الإسلام يكون حسب حاجة دولة الإسلام وحاجة المسلمين وليس فقط لمرة واحدة، كما أنه ليس منة من الغني يتصدق بها على الفقير أو على جيش أو دولة الإسلام بل هو حق واجب على كل مسلم حسب استطاعته إن كان يؤمن بالله ورسوله (وقد فصلنا الحديث عن الإنفاق والزكاة والصدقة في الحديث عن الركيزة الثالثة ـ الإنفاق).

المسلمون والغش التجاري

كان هناك بعض من يصنفون بالمسلمين زمن رسول الله يتعاطون الغش التجاري سواءً بإظهار البضاعة المباعة بأفضل مما هي عليه فعلاً أو بالغبن أو بالتحايل، أو بطرق أخرى. وكانوا يظلمون بعضهم[1] لدرجة وصف القرآن ظلمهم بالقتل (أي القتل المعنوي وليس القتل الفعلي): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أنفسكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا. إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (النساء: ٢٩-٣١).

وقد توعد من استمر منهم بالنار ولو شهدوا بالتوحيد وأدوا العبادات.

المسلمون والتعامل بالربا

بعضٌ من (الصحابة) كانوا يتعاملون بالربا: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتهى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إلى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٢٧٥).

والحكم جاء لهم بأن من تاب مباشرة بعد تبلغه هذه الآية فله ما سلف من مال ولا يحق له التعامل بالربا بعد ذلك، ومن تعامل به حتى وهو ينطق بالشهادتين ويؤدي العبادات فجزاؤه جهنم خالداً فيها. فالتعامل بالربا مخالف للإيمان بالله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (البقرة: ٢٧٨).

ومن لم يتوقف عن التعامل بالربا بعد أن تبلغ التهديد الإلهي فقد أعلن الحرب على الله ودينه الذي أنزل على محمد: فإن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (البقرة: ٢٧٩).

ومن تاب فله ما سبق وجمعه من مال قبل نزول هذه الآيات، وهذا حكم نهائي للتعامل بالربا، لأن الهدف كان قطع التعامل بالربا البتة، وإحلال التعامل بالإنفاق

---

(١) بعضهم هنا تعني ظلمهم لغيرهم من المسلمين على اعتبار أن المسلمين كل، بعضه لبعض.

الذي يضمن التكافل الاجتماعي بين المسلمين وعدم استغلال ظروف العوز والحاجة إلى بعض الناس من قبل البعض الآخر لتحقيق مكاسب مادية. فالدين جاء ليقيم دولته على أساس التعامل بين الناس بالعفو والمودة.

المسلمون واتخاذ الكفار أولياء

كان هناك بعض (الصحابة) يوالون الكفار: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ (آل عمران: ٢٨).

وكانوا يخفون ذلك عن الرسول والمسلمين: قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران: ٢٩).

وحتى لو لم يكتشف أمرهم فإن الله سيحاسبهم عليه يوم القيامة: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ (آل عمران: ٣٠).

وقد دعوا إلى التوبة واتباع الله والرسول وترك موالاة الكفار: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإن تَوَلَّوْاْ فإن اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (آل عمران: ٣١-٣٢).

وكان من أسباب موالاة الكفار، طلب العزة: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فإن العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا (النساء: ١٣٩).

وكيف يوالون من يستهزئ بآيات الله مع أن مجرد الجلوس معهم أثناء استهزائهم بآيات الله ولو لم يوالوهم، يخرج المسلم من دينه: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (النساء: ١٤٠).

وكانوا يوالون الكفار حتى يكون لهم خط رجعة في حال انتصروا على المسلمين، وقضوا على دولة الإسلام: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فإن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ

وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (النساء: ١٤١).

ومع أن هؤلاء (الصحابة) يعلمون أن رسالة الإسلام مقنعة إلا أنهم غير واثقين من صحة وعود الآخرة، فهم ليسوا كفاراً ولا مؤمنين: مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (النساء: ١٤٣).

ويريدون أن يمسكوا العصا من الوسط، فيؤدون بعض الفرائض الدينية ولكن لا يريدون أن يقطعوا حبل المودة بقومهم الذين لم يؤمنوا، وهذه مخادعة مكشوفة لله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (النساء: ١٤٢).

فالإيمان وموالاة الكفار لا يجتمعان، وهم بالخيار. إما أن يبقوا على موالاة الكفار فيكونوا منافقين في الدرك الأسفل من النار، أو يتوبوا فيتوب الله عليهم ويكتبهم من المؤمنين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (النساء: ١٤٤-١٤٦).

وكان هناك آخرون يوالون اليهود والنصارى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (المائدة: ٥١).

وموالاة غير المسلمين تأتي عندما يحس المسلمون بالضعف بالعدة والعتاد ومعه ضعف في العقيدة، فيوالون الكفار طمعاً في النجاة ولو على حساب كراماتهم ودينهم وهو ما يشاهد شبيه له الآن: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَو أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أنفسهِمْ نَادِمِينَ (المائدة: ٥٢).

فجاء القرآن يحذر الصحابة من موالاة غير المؤمنين، سواءً كانوا أهل ديانات سابقة، أو مشركين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتخذواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا

مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (المائدة: ٥٧) لأن الاعتزاز بالتبعية للدين مطلوبة.

وكيف يوالي المؤمن من يستهزئ بعبادة الله: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلى الصَّلاَةِ اتخذوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (المائدة: ٥٨).

وكان من نتائج فرض الجهاد معرفة مَن مِن الصحابة اتخذ من دون الله ورسوله أولياء (وليجة): أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (التوبة: ١٦).

المسلمون مشاحنات وفرقة

بعض (الصحابة) كانوا يستمعون لما يقصه عليهم اليهود من قصص من كتبهم، فحذرهم القرآن من ذلك لأنه نوع من الكفر وأمرهم بالتمسك بحبل الله أي البقاء ضمن جماعة المسلمين الواحدة. وليكن المسلمون قدوة لغيرهم، وهو معنى الأمر بالمعروف. والبعد عن الشحناء والبغضاء والتفرق وهو المنكر. وعدم الاستماع لما يقوله لهم اليهود، الذين يهدفون إلى إفساد عقيدة المسلمين، خاصة وأنهم أذلاء ولن يستطيعوا محاربة المسلمين، ولذلك فليس لهم سبيل لإيذاء المسلمين غير طريق بث الأساطير والخرافات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصبحتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاختلفواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ. وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَإِلَى

اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (آل عمران: ١٠٠-١١٢).

المسلمون والجهاد

تتحدث سورة محمد من الآية (٢٠) وحتى آخر السورة عن بعض الصحابة الذين كانوا يتمنون أن يسمح لهم بقتال غير المسلمين من الذين ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم، ولكن لما فرض الجهاد، أصيبوا بالذعر: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ. فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأرض وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (محمد: ٢٠-٢٢).

واتضح أنه ليس كل ما قالوه سيقومون به فعلاً: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (الصف: ٢-٣).

لأن المطلوب الوقوف صفاً واحداً في الحرب: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ (الصف: ٤).

ولكن ما حصل هو أن بعض الصحابة قد تولى عن القتال فاعتبرهم القرآن في عداد الكفار: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا. إِنَّ الَّذِينَ ارتدوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ. فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أعمالهُمْ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أعمالكُمْ. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُم. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أعمالهُمْ (محمد: ٢٣-٣٢).

وحذر القرآن بقية المسلمين من مغبة التراخي عن الجهاد للتمتع بالملذات الدنيوية، وبما أن المال هو نقطة ضعف كبيرة في الإنسان فقد وعد الله الصحابة بأن لا يسألهم إنفاق كل أموالهم في سبيل الله ويكتفى منهم بالبعض مع الإيمان، حتى لا يظهر الجانب السلبي من الإنسان فيهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أعمالكُمْ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ. فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْم وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أعمالكُمْ. إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (محمد: ٣٣-٣٧).

ومع أن المطلوب كان الإنفاق الجزئي فإن بعض الصحابة لم ينفق، وهو بذلك يبخل على نفسه أجر الآخرة الذي لا يقارن بما في الدنيا، وإلا فالله غني عن العالمين، وحتى لو كفر الصحابة كلهم فسينصر دينه بغيرهم ممن سيخلصون له: هَاأَنتُمْ هَؤُلاَء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (محمد: ٣٨).

المسلمون وغزوة بدر

بدر أول معركة للمسلمين ضد قريش الذين أخرجوا الرسول والمسلمين الأوائل من مكة، وكانت في السنة الثانية للهجرة. ومع أنها كانت معركة فاصلة لبقاء الإسلام إضافة إلى أنها مناسبة ليشفي المسلمون غيضهم من كفار قريش الذين عذبوهم ومارسوا كل أشكال الاضطهاد ضدهم طوال ثلاثة عشر عاماً في مكة، إلا أن مجموعتين من المسلمين كادتا أن تتركا أرض المعركة هرباً: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (آل عمران: ١٢١-١٢٢).

بل واختلفت آراء بعض الصحابة وتشاحنوا وكاد بعضهم ينشق: وَأَطِيعُواْ اللّهَ

وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال: ٤٦).

ومع كل العوامل النفسية التي أضفاها الله على المسلمين بواسطة الملائكة والتي ذكرتها الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦ من سورة آل عمران، ومع كل عوامل النجاح المتوفرة لهم لكسب معركة بدر، فإن هناك بعض الصحابة كانت حالتهم النفسية منهارة ويفكرون بالهرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الأنفال: ١٥-١٦).

كل هذا على الرغم من تحذير الله لهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (الأنفال: ٤٥).

وتوعدهم بألا يكونوا مثل أمم سابقة خرجت للقتال ليس لنصرة دين الله ولكن لعوامل دنيوية أخرى: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعمالهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الأنفال: ٤٧-٤٨).

وأثناء المعركة حرص بعض الصحابة على أسر القرشيين طمعاً في مقابل مادي لفدائهم، وهي مكاسب شخصية من الحرب وليست أهدافاً إسلامية استراتيجية: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ٦٧)

وإلا فالمطلوب في تلك المرحلة المتقدمة من بناء دولة الإسلام هو تقوية شوكة الإسلام (يثخن في الأرض) حتى يرهبه أعداؤه والمتربصون به عندما يسحق من يجابهونه في المعارك، ولذلك كان يجب قتل الأعداء وليس أسرهم في تلك المرحلة من أيام الإسلام.

وبعض الصحابة كان يتباطأ عن الاشتراك في المعركة حتى تنتهي قبل أن يشترك فيها، فإن هزم المسلمون فرح بأنه لم يكن معهم فيقتل وإن ربحوا تحسر على عدم التحاقه بهم ليغنم بعض الغنائم: وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فإن أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ

أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (النساء: ٧٢-٧٣).

وكل هذه الأصناف من الصحابة ليسوا من جند الله الذين يعتمد عليهم في تأسيس دولة الإسلام، مع أنهم يعلنون الإسلام ويقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة، لأن الدين ليس عبادات فقط.

وعندما فرض الجهاد ارتعبوا من قوة الأعداء ومن الخوف من الموت لأنهم يودون لو بقوا أحياء للتمتع بأموالهم ومتعهم الدنيوية: أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَو أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (النساء: ٧٧).

فخوفهم من الجهاد يعني أنهم ليسوا متيقنين من وعود الآخرة، وإلا لما انزعجوا من الموت إن جاء قريباً أو بعد حين، لأن الموت آت لا محالة وهو بالنسبة إلى المسلم بداية لحياة الآخرة التي وعد فيها بالجنة، ولذلك كان يجب ألا يثنيه الخوف من الموت عن الاشتراك في القتال: أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا. وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (النساء: ٧٨-٨١).

أما الذين يعتمد عليهم الإسلام في جيوشه وتأسيس دولته فهم من تصل درجة تقواه لأن يبيع دنياه بالآخرة ولا يمانع الموت في سبيل الله: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (النساء: ٧٤).

المسلمون وغزوة الخندق

عندما حوصرت المدينة من قبل الأحزاب من قريش ومن تعاطف معهم من اليهود والقبائل العربية أملاً في القضاء على الإسلام في السنة الخامسة من الهجرة،

أصيب فريق من الصحابة بدرجة من الرعب والهلع جراء الحصار. وقد صور القرآن هذا الرعب في قوله تعالى: إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (الأحزاب: ١٠).

وكان الحصار امتحاناً لمدى عمق إيمان الصحابة: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (الأحزاب: ١١).

فالبعض أيقن أن كل ما كسبه من إعلانه الإسلام هو هذه النهاية المتوقعة على أيدي الأحزاب: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (الأحزاب: ١٢).

لذلك حاولوا النجاة بأنفسهم: وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (الأحزاب: ١٣-١٤٩).

ونسوا أنهم قد قطعوا عهداً أمام الله على الجهاد: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً (الأحزاب: ١٥).

ولو أنهم كانوا يؤمنون بالآخرة لما هربوا لأن الموت سيأتيهم ولو بعد حين ثم يردون إلى الله: قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أو الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (الأحزاب: ١٦-١٧).

كما كان هناك صحابة آخرون قاموا بتثبيط عزائم غيرهم: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أعمالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (الأحزاب: ١٨-١٩).

وهذا النوع تمنوا لو كانوا في البادية عندما حاصر الأحزاب المدينة يتابعون أخبار الحملة عن بعد، فأي فريق ينتصر فهم معه: يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (الأحزاب: ٢٠).

بينما كان هناك فئة مؤمنة من الصحابة اتخذت من ثبات الرسول قدوة لها: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا. وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (الأحزاب: ٢١-٢٥).

المسلمون وصلح الحديبية

في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، خرج رسول الله مع جمع من الصحابة بنية العمرة، فلما بلغوا الحديبية القريبة من مكة بلغهم أن قريش قد استعدت لحربهم، فبعث الرسول أحد الصحابة ليبلغ قريش بأن الرسول قد جاء معتمراً في شهر حرام لا قتال فيه، كما طلب الرسول من أصحابه أن يبايعوه على الثبات والنصرة لأنه عقد العزم على محاربة قريش إن أرادوا منعه من العمرة (وقد جاء في كتب الأخبار أن سبب البيعة تأخر مبعوث رسول الله إلى قريش في العودة وإشاعة أنه قتل، وهذا لا يتواءم مع السرد القرآني، لذا يرجى قراءة سورة الفتح بتمعن).

وأياً كان سبب البيعة فقد تمت تحت شجرة سمر في الحديبية. وكانت البيعة عبارة عن تعهد شخصي من الصحابة للثبات في سبيل الله، ولم يبايعوا الرسول ليكون حاكماً عليهم ويتحكم بمصائرهم، وكل الدور الذي أداه الرسول هو أن يكون الشاهد على ما تعهد به الصحابة على أنفسهم لله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ. (الفتح: ١٠).

وقد أظهرت البيعة التي فرضتها ظروف طارئة أن بعض الصحابة لم يصل إيمانهم بالإسلام لدرجة اليقين ولذلك نكثوا بتلك البيعة التي قطعوها على أنفسهم: فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (الآية السابقة نفسها).

كما تخلف عن الخروج للحديبية بعض الأعراب الذين أعلنوا إسلامهم:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاستغفر لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أو أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (الفتح: ١١).

لأنهم خافوا أن يكون هناك حرب وهم لا يرون أن الإسلام يستحق أن يموت الإنسان من أجله لأنهم لم يؤمنوا بما يدعو إليه: بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا. وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (الفتح: ١٢-١٣).

وهؤلاء سيسارعون للانضمام إلى جيش المسلمين إذا كان هناك غنائم من دون قتال: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطلقتُمْ إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (الفتح: ١٤).

ولكي يمتحن الله صدقهم فقد اشترط عليهم أن يقاتلوا في سبيل الله كبرهان على صدق إيمانهم، لأن الجهاد في بداية عهد الإسلام كان ضرورياً لبقاء الإسلام من جهة وتأسيس دولته من جهة أخرى: قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أو يُسْلِمُونَ فإن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (الفتح: ١٦) فإن هم وافقوا فهو دليل على صدق توبتهم.

وفي المقابل كان هناك فئة صدقت في إيمانها من الصحابة، وبايعت بنية صادقة: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (الفتح: ١٨).

المسلمون وغزوة حنين

على الرغم من كثرة عدد جيش المسلمين في حنين التي وقعت ضد أهل الطائف وبعد فتح مكة والتي تقول عنها كتب الأخبار أن عدد جيش المسلمين كان عشرة آلاف مقاتل وكان يفوق عدد جيش أعدائهم هوازن إلا أنهم وبعيد بدء المعركة انهزموا وولوا الأدبار لأن معظمهم من طلقاء مكة أي القرشيين الذين

استسلموا للدين ولو لم يتعمق الإيمان في قلوبهم، بعد أن قويت شوكة دولة الإسلام وفتحت مكة ولم يعد لهم قبل بمواجهتها.

كما كان جيش المسلمين يضم عدداً من الأعراب ورجال بعض القبائل العربية حديثي عهد بكفر، والذين وفدوا على الرسول في آخر سنواته عندما أصبحت المدينة الدولة الأقوى على مستوى الجزيرة العربية.

وكل هذا الخليط لم يحضر للمعركة احتساباً للأجر أو جهاداً في سبيل الله وإنما حضروا لكسب الغنائم لاعتقادهم بأن ثقيف سيولون الأدبار بمجرد معاينتهم لكثرة عدد جيش المسلمين. ولكن ثقيف حاربت باستماتة مما جعل تلك الجموع المحسوبة على جيش المسلمين تفر من الموت الذي لم يحضروا ليحصل لهم، ولم يبق مع الرسول إلا عدد قليل كانوا يمثلون المؤمنين حقاً، والذين حولوا مسار المعركة لصالحهم على الرغم من قلة عددهم مقارنة بعدد جيش ثقيف: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (التوبة: ٢٥-٢٦).

المسلمون وغزوة تبوك

غزوة تبوك كانت في السنة التاسعة للهجرة أي قبل وفاة الرسول بسنة وبضعة أشهر، وبعد أن عايش الصحابة كل فترة دعوة الرسول، وتطبعوا بطباع الإسلام. ومع ذلك أظهرت الغزوة مواقف للصحابة تدل بوضوح على أنه ليس كل من دخل في الإسلام كان مسلماً وأن الصحابة بشر سوي مثل غيرهم ممن سبقهم من البشر ومن سيلحق بهم، وأن الدين شيء والصحابة شيء آخر.

ولقد كان الشعور العام بين الصحابة هو الرهبة من الخروج إلى تبوك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلى الأرض أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (التوبة: ٣٨).

وكادت قلوب بعضهم أن تزيغ عن الحق: لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ١١٧).

فجاء تحذير الله لهم: إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التوبة: ٣٩).

ولم تظهر الآيات أي تعاطف مع الصحابة أو تميز لهم عن غيرهم، بل ذكرتهم بأن دين الله سيستمر بهم أو من دونهم: إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثنين إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٤٠).

وسينصر الله رسوله كما نصره في بداية دعوته عندما لم يؤمن به من الناس سوى صاحبه أبي بكر، وبعون من الله وتأييده انتشرت الدعوة وآمن بها الكثير وأصبح المسلمون أعزة.

فمن آمن بالله من الصحابة فعليه أن يتبع ما يأمره الله به استعداداً لهذه الغزوة: انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأنفسكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة: ٤١).

فكان أن تباينت مواقف الصحابة من الخروج إلى تبوك كما أوضح ذلك القرآن وتحدثنا عنه في فصل غزوة تبوك.

المسلمون وتضليل العدالة

مسلم سرق درع مسلم آخر وأراد إلصاق التهمة بيهودي بمعاونة قومه من المسلمين. وكاد الرسول أن يصدق ذلك أو أنه صدقه فعلاً (وردت القصة كاملة في الطبري وكتب تاريخ وسيرة أخرى، وفي كتب أسباب النزول).

فنزل الوحي: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا. وَاستغفر اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (النساء: ١٠٥-١٠٦) واستغفار الرسول لأنه كاد أن يظلم اليهودي بتصديقه ما قاله المسلمون له.

وأمر الرسول بعدم الدفاع عن شخص فقط لأنه مسلم ضد شخص آخر لأنه

كافر، فقد يكذب المسلم ويصدق الكافر: وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أنفسهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (النساء: ١٠٧).

وهو ما حدث للسارق المسلم عندما حلف بأنه لم يفعل: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (النساء: ١٠٨).

ولو وقفت يا محمد مع المسلم في الدنيا واتهم اليهودي بالسرقة وهو لم يفعل فمن سيجادل عن السارق الحقيقي في الآخرة أمام الله الذي سيحصي كل صغيرة وكبيرة على الناس: هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (النساء: ١٠٩).

وكان المفترض بالمسلم عندما سولت له نفسه بالسرقة، أو حتى بعد أن سرق، أن يستغفر ويتوب، وعندها سيجد أن الله غفور رحيم: وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (النساء: ١١٠).

وكل إنسان يرتكب إثما فسيسجل ويحاسب عليه يوم القيامة حتى لو حكم له في الدنيا بالبراءة: وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (النساء: ١١١).

والصحابي الذي سرق قد احتمل بهتاناً عظيماً عندما حاول إلصاق التهمة باليهودي البريء: وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أو إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (النساء: ١١٢).

واشترك بالإثم أهل السارق الذين حاولوا إقناع الرسول ببراءة السارق وإلصاق التهمة باليهودي وكادوا يقنعون الرسول بذلك، فهو بشر يجوز عليه ما يجوز على أي بشر، وقد أنقذ الوحي اليهودي من الظلم الذي كاد أن يقع عليه: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أنفسهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء: ١١٣).

وجاء أهل وعشيرة المسلم لمجادلة الرسول حول تبرئة يهودي واتهام مسلم،

وفي هذا الموقف رائحة عنصرية يبغضها الإسلام. فالحق في الإسلام لا لون ولا قبيلة ولا دين له: وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا (النساء: ١١٥).

ثم بين الله أن الوقوع في المعصية تمحوها التوبة الصادقة ما لم تكن شركاً بالله: إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (النساء: ١١٦).

وقد ظن أهل الصحابي السارق أن مجرد كونه مسلماً سيجعل له ميزة خاصة عند الله يتمكن بموجبها من ظلم غير المسلمين أو التجني عليهم دون أن تطاله يد العدالة الإلهية، وهذا الظن مشابه لظن اليهود الذين اعتقدوا أن كونهم يهوداً آمنوا يوماً بالله في زمن كان من حولهم من الأمم كفاراً، يخولهم أن يكونوا شعباً مختاراً لله يفعلون بغير اليهود ما يشاؤون ويتعاملون معهم بكل وسيلة ولو كانت غير نزيهة لأنهم ليسوا يهوداً: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٥).

ولكن دين الله يسير بالعدل وليس بأماني الناس: لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (النساء: ١٢٣).

وسيكون هناك حساب دقيق وسيؤخذ حق كل بشر ممن له عنده حق، مسلماً كان أو يهودياً أو غيره. ومن كان مؤمناً وعمل صالحاً فسيدخل الجنة أما من كان غير مؤمن فسيؤخذ له حقه ممن ظلمه، ولو كان مسلماً، وإن لم يدخل الجنة: وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (النساء: ١٢٤).

المسلمون والقرآن

نوع آخر من (الصحابة) كانوا لا يعيرون الاستماع للقرآن اهتمامهم: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ (محمد: ١٦).

فحذرهم الله من أنهم بهذا يشبهون الكفار الذين لا يسمحون لأنفسهم بسماع آيات الله وأنهم كالأنعام الصماء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (الأنفال: ٢٠-٢٦).

وعندما ينزل الوحي على محمد بالآيات يظهر بوضوح مدى تباين الصحابة من قبول الدعوة: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ. أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَو مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ. وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون (التوبة: ١٢٤-١٢٧).

المسلمون والحج

يبدأ البخاري كتابه بحديث ينسب إلى الرسول هذا نصه: حدَّثنا الحُمَيْديُّ عبدُاللّهِ بنُ الزُّبَيرِ قال: حدَّثنا سُفْيَانُ قال: حدَّثَنا يحيى بنُ سَعيدٍ الأنْصاريُّ قال: أَخبرَني محمدُ بنُ إبراهيم التَّيْمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بنَ وقَّاصٍ اللَّيْثيَّ يقولُ: سمعتُ عمرَ بنَ الخَطّابِ رضي اللّهُ عنه على المِنْبَرِ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ إِنَّما الأعمال بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصِيبُها، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إِلَيه.

وهذا انطبق على الصحابة تماماً، فبعضهم قدم للحج لأمور دنيوية دون أن يعير اهتماماً لأمور الآخرة التي من أجلها شرع الحج: فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أو أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَق (البقرة: ٢٠٠)

أما البعض الآخر فقد جاء ليحج استجابة لأمر الله: وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (البقرة: ٢٠١-٢٠٢).

مع أن الحج حصل في أواخر حياة رسول الله، وفي وقت كان من المفترض أن يكون الإيمان قد تغلغل في قلوب كل المسلمين.

المسلمون والرسول

كان هناك (صحابة) يتكلمون عن الرسول ويصفونه بأنه يغير رأيه حسب ما يملي عليه بعض الناس: وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ. أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فإن لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (التوبة: ٦١-٦٣).

كما كانوا يتحدثون عن الرسول بما يسوؤه ويؤذيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (الأحزاب: ٦٩).

فنهاهم الله وأمرهم بتوخي القول السديد عندما يتحدثون عن الرسول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (الأحزاب: ٧٠).

المسلمون ونساء المدينة

كان هناك بعض من حسب على الصحابة يطاردون النساء في المدينة طلباً للفاحشة، وكان ممن يلاحقون زوجات الرسول ونساء المسلمين: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا. وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (الأحزاب: ٥٨-٥٩).

ولذلك أمرت نساء الرسول بقواعد معينة لتصرفاتهن وهن يسرن في الشوارع: يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (الأحزاب: ٣٢).

ليس لأنهن خلقن أفضل من غيرهن ولكن بما صرنه من زوجات للرسول. وبما

أنه ليس لائقاً للرجل العادي أن يشاع بأن زوجاته يلاحقهن رجال في قلوبهم مرض، فما بالك بنساء النبي. ولذلك أمرن ألا يتبسطن في الحديث مع الرجال الذين يتحينون الفرص للإيقاع بالنساء حتى لو كن أمهات المؤمنين. لأنهن لو فعلن ذلك فسيشاع عنهن أنهن لا يمانعن ما عرض عليهن، حتى ولو لم يكن كذلك، وفي هذا إيذاء لسمعة رسول الله الذي كلف بالدعوة لدينه، ومدخل لأعدائه للنيل من شخصه، مما قد يؤثر على سير دعوته.

من أجل ذلك فإن اقتراف زوجة الرسول للفاحشة يعاقب الله عليه بضعف عقوبة المرأة العادية: يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا. وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (الأحزاب: ٣٠-٣١).

ولكي يقطعن دابر كل وسيلة على المتحرشين بالنساء في المدينة فقد أمرن بالبقاء في بيوتهن ما أمكن، وإن خرجن فليلتزمن أقصى درجات الحشمة لصد من يتعرض لهن بسوء: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (الأحزاب: ٣٣).

وحتى لا يتململن من كثرة البقاء في المنزل أمرن أن يكثرن من تلاوة القرآن: وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (الأحزاب: ٣٤).

فمن يرد البقاء مع الرسول منهن، فليلتزم بهذه الشروط وسيعوضه الله خيراً في الآخرة، ومن لم يلتزم فقد اختار متاع الحياة الدنيا ولن يمانع الرسول طلاقهن ليفعلن بأنفسهن ما يرغبن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فإن اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

كما أمرن ومعهن نساء المسلمين في المدينة في ذلك الوقت بأن يتخذن احتياطات أخرى حتى لا يؤذيهن أولئك الرجال، ومن ذلك التستر الكامل حتى يعطين إشارة واضحة بأنهن لسن من النوع الذي يقبل بتحرش الأوغاد الطالبين للمتعة الجنسية: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (الأحزاب: ٥٩) ولم تنزل هذه الآية لتوجب غطاء الوجه كما يستدل بها بعض الفقهاء.

أما الرجال الذين كانوا يطاردون نساء الرسول ونساء الصحابة في المدينة فقد كانوا محسوبين على أنهم من المؤمنين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (الأحزاب: ٦٩).

ومع ذلك فقد وجه القرآن لهم تحذيراً بأنهم سيطردون خارج المدينة إن لم ينتهوا، بل قد يصل بهم الأمر إلى القتل: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (الأحزاب: ٦٠-٦١).

المسلمون والصلاة

في بلاد الحرمين بمجرد سماع الأذان معلناً دخول وقت أحد الصلوات اليومية الخمس، يسارع أفراد من الشرطة الدينية (الذين يسمون أنفسهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بالتجول في الشوارع للتأكد من أن الناس قد أوقفوا أي نشاط يزاولونه. فتغلق المحلات التجارية في الأسواق ويتوقف العمل في البنوك والمؤسسات الخاصة والحكومية وكل النشاطات بما في ذلك المستشفيات والصيدليات ومحطات الوقود حتى ينتهي المصلون من صلاتهم. ولو قدر لهذه الهيئات أن تتمكن من منع السيارات من التحرك في الشوارع أثناء الصلوات لفعلوا. ويتم معاقبة المخالف بالسجن والغرامة المالية وإن تكرر فقد يغلق المحل ويمنع صاحبه من مزاولة العمل. ويكفي أن يتأخر صاحب المحل في قفل محله لثوان قليلة بعد رفع الأذان ليعتبر مخالفاً.

كل هذا يحدث باسم الإسلام مع أن التشريعات السماوية الإسلامية لا تدعو إلى توقف النشاطات المختلفة أو التجارية أثناء أداء الصلوات الخمس، عدا صلاة الجمعة. بل إن وقت الصلاة الواحدة قد يمتد إلى ساعتين أو أكثر، ويمكن للمسلم أن يصلي في أي لحظة خلال هاتين الساعتين.

وتحديد وقت الأذان بالدقيقة والثانية وأن تقام الصلاة بعد الأذان بعدة دقائق ما

هو إلا تنظيم حكومي ألزمت الدولة به أئمة المساجد ليتقيدوا به لدوافع ليس منها أي دافع ديني.

أما زمن الرسول فقد كان بعض الصحابة يمارسون البيع والشراء في سوق المدينة المحاذي لمسجد رسول الله ولم يكونوا يتوقفون لمشاركة الرسول أداء صلاة الجمعة التي تعتبر الصلاة الجامعة للمسلمين في يوم عيدهم الأسبوعي الديني. فجاء الأمر الإلهي بحظر كل النشاطات التجارية بعد سماع المؤذن ينادي لصلاة الجمعة، وبعد انقضاء الصلاة يباح للناس معاودة نشاطاتهم لمن رغب في ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. إِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتشروا فِي الأرض وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الجمعة: ٩-١٠).

ولكن أثناء إحدى الجمع بعد ذلك، تسامع الناس عن وصول قافلة تجارية، فتدافعوا خارج المسجد للظفر بما تحمله القافلة من متاع، تاركين الرسول وصلاة الجمعة لمن بقي معه من الناس وهم قلة: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أو لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (الجمعة١١).

وكأن النواهي الإلهية لا تعنيهم، على الرغم من تحذير الله لهم قبل ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (المنافقون: ٩).

المسلمون إيمان وهجرة وجهاد

وبطبيعة الحال هناك نوع مختلف من الصحابة آمن وهاجر وجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله وبناء دولة الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (البقرة: ٢١٨).

فَاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ.

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ استجابواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (آل عمران: ١٦٩-١٧٤).

بينما قعد بعض المحسوبين على الصحابة أو تباطأ عن القتال مع أنهم أنفقوا من أموالهم على تمويل جيش المسلمين: لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (النساء: ٩٥).

الصحابة ليس لهم ميزات خاصة

ومما سبق ذكره من آيات يتضح أنه ليس هناك ميزة للصحابة على غيرهم من الناس وما طلب منهم طلب من غيرهم وسيحاسبون بالطريقة نفسها التي سيحاسب بها غيرهم: مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفسهِمْ يَمْهَدُونَ (الروم: ٤٤).

فالإسلام لم يأت من أجل قريش أو الصحابة ولكنه جاء لكل الناس وفي كل العصور حتى قيام الساعة، لذلك فليس للصحابة ميزات وعصمة تميزهم عن الناس ولن يكون لهم حساب مختلف، فالمنة لله عليهم أن عاشوا في تلك الفترة التي ظهر فيها الإسلام فاهتدوا للإسلام بعدما كانوا في ضلال مبين: لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أنفسهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (آل عمران: ١٦١).

وصفة المؤمن واحدة لكل العصور، وليس هناك صفة إيمان للصحابي تختلف عن صفة إيمان لمن سيأتي بعده: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (الحجرات: ١٥).

ومن اعتقد من الصحابة أن له وضعاً خاصاً فقد أخطأ: قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحجرات: ١٦).

وليس للصحابي أي فضل على الإسلام، ولكن الفضل عليهم من الله أن عاشوا في زمن الرسول وكانت فرصتهم للنجاة من النار: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إسلامكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (الحجرات: ١٧-١٨).

ولو كفر الصحابة كلهم فلن يضير دين الله شيء: لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أنفسكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. فإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم (التوبة: ١٢٨-١٢٩)

ولذلك فمن الطبيعي أن يتكون مجتمع الصحابة من فئات مختلفة من الناس بالنسبة إلى التصديق بالرسالة وبالنسبة إلى كل الصفات البشرية الأخرى، مثلهم مثل أي مجتمع آخر:

فهناك ذوو الشرف الأعلى في الدين: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ١٠٠).

وهؤلاء هم خيار الصحابة يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله كهدف معلن وخفي في نفوسهم لا تشوبه شائبة نفاق أو شك: إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنفسهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (الآية: ١١١).

إضافة إلى صفات أخرى: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة: ١١٢).

وهناك من خلط عملاً صالحاً بعمل سيئ: وَآخَرُونَ اعترفواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ

عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ١٠٢).

وهؤلاء يمكن تطهير ذنوبهم بالتوبة والإنفاق: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (التوبة: ١٠٣-١٠٤).

ولو أنفقوا فسيرى الله ذلك ورسوله والمؤمنون: وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة: ١٠٥).

والبعض من الصحابة سيدخل النار والبعض سيدخل الجنة: وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ١٠٦).

والبعض من الصحابة أراد تشتيت جمع المسلمين وتفريق كلمتهم تحت مسمى ديني: وَالَّذِينَ اتخذواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (التوبة: ١٠٧-١٠٨).

لأنه حتى بناء المساجد قد يجلب الإثم لصاحبه إذا كانت نيته غير سليمة: أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ١٠٩-١١٠).

وقد بنى المسجد فئة من الصحابة يعتبرون أنفسهم من ذوي الجاه حسب التصنيف البشري الذي ألغاه الإسلام، وأرادوا أن يصلوا فيه لوحدهم بعيداً عن مسجد رسول الله الذي يجتمع فيه المسلمون وجلهم من الفقراء والمحتاجين والموالي السابقين والأرقاء المعتقين حديثاً وغيرهم من ذوي الطبقات الدنيا حسب نفس التصنيف.

وبما أن من أهم أسس دولة الإسلام التعامل مع الناس بنفس المستوى

والنظرة، والبعد عن الكبر، فقد اعتبر ما قام به أولئك ضرراً بليغاً للإسلام، وكفر بتعاليمه التي تنادي بوحدة المسلمين ومساواتهم المطلقة بغض النظر عن الغنى والفقر. فالمقياس هو الإيمان الذي يمنح صاحبه شرف الانتماء إلى دولة الإسلام والتمتع بموجب ذلك بكل الحقوق التي يتمتع بها أي فرد آخر في تلك الدولة بشكل متساو تماماً. لذلك جاءت أوامر السماء صارمة لمحمد: لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا. (التوبة: ١٠٧- ١١٠).

هذه كانت بعض الصور التي كان عليها المسلمون الأوائل زمن رسول الله وهذا ما قال القرآن عن إيمانهم، أما أعدادهم فقد كان لها شأن آخر.

أعداد الصحابة

وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (الأنفال: ٢٦).

لقد كانوا في مكة قلة ضعفاء من الفقراء والمساكين والرقيق وقلة من بقية أفراد المجتمع المكي بمختلف طبقاته. وكان عدد من هاجر إلى الحبشة (٨٣) رجلاً مع نسائهم وأطفالهم (حسبما جاء في سيرة ابن هشام) وأولئك كانوا يمثلون غالبية المسلمين، أي أن المسلمين في مكة لم يزيدوا على المائة من الرجال وأقل منهم عدداً من النساء.

وحتى عندما آمن جل الأوس والخزرج وبعد سنتين من هجرة الرسول مع من آمن من أهل مكة، كان كل من حضر معركة بدر من المسلمين حسبما جاء في سيرة ابن هشام (٣١٤) رجلاً، منهم (٨٣) من المهاجرين، ومن الأوس (٦١) رجلاً ومن الخزرج (١٧٠) رجلاً. وهذا يتناسب مع ما أورده ابن إسحاق لأسماء من كان مسلماً قبل هجرة الرسول للمدينة وقد حاولت عدهم فوجدتهم نحو (٢٦٠) رجلاً وامرأة، هاجر منهم إلى الحبشة (٨٣) حسب ما قال ابن هشام.

وهو ما يشير إلى قلة العدد الإجمالي لكل من نطق بالشهادة في المدينة في ذلك الوقت والذي لا يمكن أن يزيد عن (٤٠٠) رجل.

وفي السنة الثالثة للهجرة حدثت معركة أحد، وقد روى ابن هشام أن جيش المسلمين كان يتكون من (٧٠٠) رجل وأن جيش قريش كان (٣٠٠٠) وهذا مستبعد جداً.

على الرغم من أن قريش قد طلبت العون من حلفائها وأصدقائها من القبائل

الأخرى في حربها على المسلمين في أحد، كما يذكر ابن هشام: فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تهامة.

ويبدو أن كتّاب السير أرادوا تصوير هزيمة المسلمين بأنها جاءت من جيش يفوق جيش المسلمين بأضعاف مضاعفة، فقالوا إن الجيش القرشي كان بذلك العدد، وزادوا جيش المسلمين من ما يقارب (٤٠٠) رجل إلى (٧٠٠) حتى يكون هناك توازن مقبول.

ولو افترضنا أن عدد من استعانت بهم قريش كان ألفي رجل، وكان القرشيون ألف رجل، فإن هذا يعني أن سكان مكة على أقل تقدير كان ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف نسمة، ولكانت مكة من أكبر مدن العالم في ذلك الوقت، ولامتدت على مساحة أكبر من أن يطبق عليها الأخشبان (وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها من الجنوب أبو قبيس ومن الشمال زر).

كما أن المسلمين في المدينة لم يزيدوا خلال سنة بمقدار الضعف عما كانوا عليه في السنة الثانية للهجرة، وبالتالي فمن خرج لمعركة أحد لم يزد كثيراً عمن خرجوا لغزوة بدر، وإن أجاز الرسول تجنيد بعض صغار السن ممن هم في الخامسة عشرة مثل سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج، لتعويض المسلمين الذين قتلوا في بدر.

وفي السنة السادسة من الهجرة خرج رسول الله إلى العمرة والتي انتهت بصلح الحديبية، يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق: واستنفر العربَ ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذين صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب (فصل استنفاره صلى الله عليه وسلم العرب).

ويورد ابن هشام في سيرته عدد من خرج مع الرسول بقوله: قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين

بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة نفر (فصل عدد من خرج للعمرة).

فإذا كان تقدير عدد من خرج مع الرسول عام الحديبية جاء على اعتبار أن البدنة الواحدة لعشر أنفس، حسب زعم كتب الأخبار، فهذا التقدير مخالف لما درج عليه فقهاء المسلمين من اعتبار أن البدنة لسبع أنفس وليس لعشر، ويكون تقدير من خرج مع الرسول (٤٩٠) رجلاً وليس (٧٠٠)، على اعتبار أن البدنة لسبع أنفس كما يقول الفقهاء.

وكان من خرج عام الحديبية مع الرسول يمثلون جُلّ مسلمي المدينة ومعهم بعض الأعراب، ويكون عدد الصحابة منهم مقارباً لما كانوا عليه في معركة أحد، وما زاد عن ذلك فمن الأعراب الذين رافقوهم.

والدليل الأقوى والأوضح على أن أعداد من صحب الرسول إلى الحديبية كان قليلاً جاء من القرآن الكريم، حيث يقول بأن المسلمين يوم الحديبية قد اجتمعوا مع الرسول تحت ظل شجرة واحدة ليبايعوه على النصرة، يقول تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (الفتح:١٨).

والشجر الذي ينمو في المناطق التي بين مكة والمدينة هو السمر أو الطلح أو السدر، وكلها شجر صحراوي لا يتجاوز ظل الشجرة المعمرة منها دائرة نصف قطرها ٣ ـ ٤ أمتار، ويمكن تقدير عدد الذين يمكن أن يستضلوا في تلك المساحة المحدودة، سواءً وقوفاً أو قاعدين.

وقد ورد في البخاري حديث برقم (٤٥٥) عن حذيفة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لي من تلفّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، قلنا أنخاف ونحن ألف وخمسمائة، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلّي وحده وهو خائف.

وفي رواية أخرى: فوجدناهم خمسمائة وقيل ما بين ستمائة إلى سبعمائة قيل: إنَّ هذا القول (فقلنا) عند حفر الخندق، والمراد بالابتلاء. انتهى.

ومن المحتمل أن يكون العدد خمسمائة، كما في الرواية الثانية، وأنه قد زيدت عبارة «ألف» على الخمسمائة في الرواية الأولى لاحقاً. ويكون عدد المسلمين في

المدينة بنهاية السنة السادسة للهجرة لم يتجاوز المئات، ومن بين هؤلاء كل أصناف الصحابة الذين وردت أوصافهم في الآيات التي بدأنا بها حديثنا عنهم. ومن بينهم عدد قليل صدق عليه قوله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (الأحزاب: ٢٣).

وفي السنة السابعة للهجرة تم إخضاع المسلمين لخيبر، وهي كما وصفها ابن هشام في سيرته: أنها قرية الحجاز، ريفاً ومنعة ورجالاً (جاء ذلك في الحديث عن أمر الحجاج بن علاط السلمي) وهو ما يعني أن قوة دولة الإسلام أصبحت المسيطرة ولم يعد لها منافس، مما جعل الناس يتسارعون بالدخول في الإسلام، إن لم يكن إيماناً بوعود الآخرة فطلباً للمغانم الدنيوية حيث سمعوا بما حصل عليه جيش المسلمين من غنائم من خيبر، وما حصل عليه حتى من حضر القسمة ممن لم يسلموا بعد، مثل أبان بن سعيد الذي أجار عثمان بن عفان رسول رسول الله لأهل مكة زمن الحديبية، وقد حضر أبان بن سعيد قسمة غنائم خيبر، وكان ممن حضر من اليمن أبو موسى الأشعري وأبو هريرة ولم يسلما بعد. ولما أراد أن يقسم الرسول لأبان حصل بينه وبين أبي هريرة موقف شحناء ذكره الإخباريون ومنهم البخاري في الحديث رقم (٤١٤٣).

ثم كان قدوم كل من بقي في الحبشة على قيد الحياة من المسلمين إلى المدينة بعد خيبر، ولم تكن أعدادهم تصل إلى المائة.

ولما كانت السنة السابعة بعث رسول الله جيش مؤتة، والذي زعمت كتب الأخبار أن عدده كان (٣٠٠٠) لملاقاة جيش الغساسنة المكون من مائة ألف. وللتدليل على أن كلا الرقمين مبالغ فيه لدرجة كبيرة جداً نقول بأن ابن هشام قد أورد في سيرته أسماء كل من قتل في تلك المعركة من المسلمين، وكانوا (١٢) رجلاً فقط. وهو ما يعني أن عدد الجيش كان قليلاً، وكان عبارة عن سرية أقرب من كونه جيشاً. وأن عدد جيش الغساسنة كان قليلاً أيضاً وإن فاق جيش المسلمين في العدد، لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن لجيش المسلمين وزن وهيبة لدرجة تخيف الغساسنة وتجعلهم يستنجدون بالحاكم الروماني على الشام ويجتمع ذلك الجيش الجرار الذي لم يجتمع لمحاربة جيوش الفرس التي كانت بينها وبين الروم حروب متبادلة قبل الإسلام. ولو كان جيش الغساسنة (١٠٠) ألف والتحم مع

جيش المسلمين المكون من (٣٠٠٠) لكان القتلى بالمئات، إن لم يبيدوهم عن بكرة أبيهم. ولكن يبدو أن الإخباريين المسلمين أرادوا أن يصوروا جيش الغساسنة بهذه الكثرة ليعطوا الانطباع بأن الجيش المسلم لا يمكن أن ينهزم من جيش يماثله في العدد أو يزيد عنه بضعف أو ضعفين. ولما قالوا بأن جيش الروم كان مائة ألف كان لا بد أن يجعلوا جيش المسلمين (٣٠٠٠)، إذ لن يكون من المقبول أن يكون بضع مئات أو بضع عشرات.

ومن الملاحظ أن المسلمين الذين اشتركوا في جيش مؤتة لم يذكر الإخباريون أسماءهم، أو أنهم حذفوا فيما بعد حتى لا ينكشف عددهم الحقيقي.

ويصف ابن هشام ملاقاة الناس لذلك الجيش عند عودته للمدينة بقوله: وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله! قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى[1]. ولو كانوا ثلاثة آلاف فستكون أعدادهم أكثر من كل من بقي من الصحابة رجالاً ونساءً وأطفالاً بأضعاف مضاعفة لدرجة سيتهيبون حثو التراب عليهم.

ولو كانوا (٣٠٠٠) وقاتلوا (١٠٠) ألف لما عيرهم أحد بتلك الألقاب، حتى ولو فروا، ولما قعدوا فترة عن الصلاة مع الجماعة خوفاً من أن يعيرهم الناس، ولما كان بوسع المدينة كلها أن تسعهم بمساحتها في تلك الأيام، فما بالك بمسجد رسول الله.

وفي السنة الثامنة عندما عزم رسول الله على فتح مكة، لحقت به جموع من الأعراب من القبائل المحيطة بمكة والمدينة، لأنهم سمعوا بما أصاب كل من التحق بالرسول من غنائم في خيبر، فكانوا يمنون النفس في أن يحصلوا على غنائم مماثلة من فتح مكة، ولذلك فلا عجب لو كان جيش الفتح كبيراَ جداً بمقاييس ذلك الزمان، ولو لم يبلغ عشرة آلاف كما تزعم كتب الأخبار. ومن ذلك ما نقله ابن هشام تحت عنوان: عدة من فتح مكة.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف.

ولكنه لم يستطع إثبات ذلك، عندما عددهم بالتفصيل كما يلي: من بني سليم

---

(١) ورد هذا في الحديث عن غزوة مؤتة ـ فصل «الرسول يلتقي بالأبطال».

سبع مائة. ويقول بعضهم: ألف؛ ومن بني غفار: أربع مائة، ومن أسلم: أربع مائة، ومن مزينة: ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم، وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد. انتهى.

ولو صحت هذه الأعداد فسيكون مجموع من حضر من القبائل طلباً للغنيمة، ما بين (٢٥٠٣ إلى ٢٨٠٣)، ولا بد أنه رقم مبالغ فيه جداً، فهو عدد هائل بلغة أرقام ذلك العصر. إضافة إلى أعداد المسلمين الذين كانوا في المدينة والذين لم يزيدوا كثيراً عما كانوا عليه في السنة الثالثة للهجرة وبعد معركة أحد، أي أنهم قرابة الأربعمائة رجل. وحتى لو أخذنا بهذه الأرقام المبالغ فيها فسيكون مجموع جيش الفتح يتراوح ما بين (٢٩٠٠ إلى ٣٢٠٠) رجل.

وللتدليل على أن اجتماع ألف رجل في ذلك العصر يعتبر عدداً هائلاً، نورد جزءاً من مقابلة وفد بني شيبان بن ثعلبة، للرسول ومعه أبو بكر، أو لأبي بكر وحده، يقول ابن كثير: وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قُبَيْصة، والمثنّى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو، وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بياناً ولساناً... فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة (البداية والنهاية ج٣ ص٢٨٣).

ومن دون شك فإن (٣٠٠٠) رجل يعتبرون جيشاً جراراً في نظر القرشيين، لأنه يزيد على كل سكان مكة بعدة أضعاف، وقد نقل ابن هشام صورة لعظم شأن ذلك الجيش في نفوس أهل مكة، عندما نسب إلى أبي سفيان عند رؤيته لجيش الفتح، قوله للعباس: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً[1].

ويستحيل أن يكون تم بالفعل تعداد تلك الجيوش، وإنما تم تقدير أعدادهم من قبل العرب الذين لا يقيمون للعدد ولا للدقة وزناً.

ونعود إلى جيش الفتح للتدليل على أن معظم أفراده جاؤوا للغنيمة، ولا يمثلون المسلمين الحقيقيين، ونورد ما حدث لبنت أبي قحافة، أخت أبي بكر، من

(١) ذكر الأسباب الموجبة للسير إلى مكة وذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان ـ فصل كتيبته صلى الله عليه وسلم في فتح مكة ج٤ ص٣٤.

أحد عسكر جند الفتح. يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه، عن جدته أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى قال أبو قحافة لابنته من أصغر ولده: أي بنية، اظهري بي على أبي قبيس؛ قالت: وقد كف بصره؛ قالت: فأشرفت به عليه، فقال: أي بنية، ماذا ترين.

قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل؛ قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك مقبلاً ومدبراً، قال: أي بنية، ذلك الوازع، يعني: الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها؛ ثم قالت: قد والله انتشر السواد.

قالت: فقال: قد والله إذن دفعت الخيل، فاسرعي بي إلى بيتي، فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، قالت: وفي عنق الجارية طوق من ورق (فضة)، فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

وبعد أن تم الفتح، يخبرنا الراوي أن أبا بكر قام فأخذ بيد أخته، وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد؛ قالت: فقال: أي أخيه، احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل (فصل إسلام أبي قحافة).

فإذا كانت أمانة جيش المسلمين لفتح مكة قليلة، فهل كانت تلك الجموع تمثل صحيح الإسلام، وما الذي ستكون عليه بعد وفاة رسول الله؟

ويكون جيش فتح مكة في معظمه من طلاب الغنائم، وبضع مئات من الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار.

وقد استسلمت قريش لجيش محمد لأنه لا قبل لهم به، ولأنهم لو حاربوه ودخل مكة عنوة فسيقضي على قريش عن بكرة أبيها، كما استشعر ذلك العباس بن عبد المطلب عندما رأى كثرة عدد جيش الفتح، فيما نقله عنه ابن هشام، فصرخ يقول: واصباح قريش، والله لئن دخلها محمد عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر (فصل إسلام أبي سفيان على يدي العباس بن عبد المطلب).

وهو ما جعله يسارع إلى مقابلة الرسول ويعلن إسلامه، ثم يطلب من أبي سفيان وبقية من بقي من وجهاء قريش الإسراع للنطق بالشهادتين أمام الرسول قبل أن يدخل مكة، لحقن دمائهم والإبقاء على ممتلكات قريش، وقد حدث ذلك بالفعل.

ويصف الطبري الموقف عندما أحضر العباس أبا سفيان لمحمد، بقوله: فلما أصبح غدا به على رسول الله فلما رآه قال ويحك أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله فقال بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً. فقال ويحك يا أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أني رسول الله فقال بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك أما هذه ففي النفس منها شيء فقال العباس فقلت له ويلك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك قال فتشهد (ذكر أحداث سنة ثمان للهجرة).

فأبو سفيان لم يؤمن بالدعوة التي كانت تردد على مسامعه قرابة ٢٣ عاماً، مثله مثل كبراء قريش، ومثل كل كبراء الأمم السابقة واللاحقة: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (بني إسرائيل: ٧٧).

ولكنه نطق بالشهادة حتى يأمن على رأسه من القتل. والرسول في تلك اللحظة لم يأت لينتقم من قريش بل جاء ليقضي على تسلطها وجبروتها، ووقوفها ضد نشر دعوة الإسلام. وقد بقي قرشيون على كفرهم ولم يقتلهم محمد أو يضر بهم لأنهم وضعوا السلاح ولم يعودوا حرباً على الإسلام.

ولقد سمي من نطق بالشهادتين من قريش يوم فتح مكة بالطلقاء، أي المعتقين من القتل أو الأذى، وبقوا على حالهم من عدم التصديق. وسجلت كتب الأخبار بعض المواقف التي تؤكد ذلك، ومنه ما أوردنا عندما تحدثنا عن موقف قريش من الدعوة.

ومثل جيش فتح مكة كان جيش المسلمين في حنين في العدد والدوافع. وقد هزموا وهرب كل من جاء لأجل الغنيمة ولم يصمد ويصبر إلا المؤمنون حقاً وكان عددهم قليلاً جداً: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (التوبة: ٢٥-٢٦).

وقد أسلم أهل الطائف لكي يستردوا حلالهم الذي استولى عليه جيش دولة الإسلام، ولو انتصروا في تلك المعركة فإن الله وحده يعلم إن كانوا سيدخلون الإسلام أم لا.

وكان إسلامهم مشابهاً لإسلام قريش، فهو استسلام لقوة دولة الإسلام وليس إيماناً بدعوتها.

وهناك دليل قرآني يثبت أن من يمكن وصفهم بالمؤمنين من بين من تسمى بالإسلام في آخر عصر الرسول هم مؤمنو أهل المدينة فقط، وهذا الدليل جاء ضمن الحديث عن غزوة تبوك التي وقعت في السنة التاسعة من الهجرة، أي قبل وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بسنة وبضعة أشهر، حيث أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من أهل المدينة وحدهم بالخروج لغزوة تبوك، على الرغم من أنها حدثت بعد فتح مكة والطائف، يقول تعالى: مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأنفسهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (التوبة: ١٢٠).

وقد صورت آيات في سورة الحديد التي نزلت بعد فتح مكة والطائف، حال الناس من الدين في أواخر أيام الرسول، وهي نفس الصورة التي توفي عنها رسول الله عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ. يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظرونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أنفسكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم. اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ. سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم. مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي أنفسكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فإن اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحيم. لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم (الحديد: ٧-٢٩).

صدق الله العظيم.

وعندما مات الرسول كان المسلمون الأوائل من المهاجرين والأنصار، الذين يمكن أن يطلق عليهم صحابة مؤمنين، يعيشون في المدينة فقط، بجانب أعداد أخرى من المتأسلمين. وكان أولئك الصحابة أقلية لهم وضع الأفضلية بين كل من تسمى بالمسلمين في دولة الإسلام، التي كانت تسيطر على كامل تراب شبه جزيرة العرب.

والباب المقبل سيتناول دولة الإسلام التي مات الرسول عنها، والركائز التي قامت عليها.

مصادر الباب

ـ القرآن الكريم.

ـ سيرة ابن هشام/ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.

ـ تاريخ الطبري / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ البداية والنهاية / ابن كثير/ الناشر: مكتبة المعارف ـ بيروت.

ـ التفسير المنسوب إلى ابن عباس/ يعقوب الفيروزأبادي ـ دار الفكر ـ بيروت.

ـ جامع البيان في تفسير القرآن/ ابن جرير الطبري ـ طباعة ونشر دار المعرفة ـ بيروت.

ـ الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ موطأ مالك / الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ كتاب البخاري / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ كتاب مسلم / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ مسند أحمد / الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ سنن الترمذي / الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.

ـ سنن أبو داوود / الناشر: مكتبة الريان ـ بيروت.

ـ الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب / ابن عبد البر القرطبي / الناشر: دار الكتب العلمية.

ـ أسد الغابة في معرفة الأصحاب / ابن الأثير الجزري / الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.

الباب الثامن

دولة الإسلام

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

* الإسلام نظام سياسي وحقوقي واجتماعي وأخلاقي وديني وأسلوب حياة متكامل، يختلف عن كل الأنظمة والدساتير التي عرفها العالم.
* لن يكون للإسلام وجود حي إلا بوجود دولة تقوم على تطبيق أنظمته وأحكامه وتنفيذها في الحياة اليومية.
* إنشاء الدولة الإسلامية، واجب ديني جوهري، وليس للمسلمين خيار إلا القيام به.
* دولة الإسلام تقوم على ركائز منها: أن الحكومة الإسلامية الملك فيها لله وحده، وليس لها ملك أو سلطان بشري تحت أي مسمى. لذا لم يشر القرآن إلى من سيتولى حكم الدولة بعد رسول الله، ولم يستخلف رسول الله أحداً من بعده.
* دولة الإسلام تحكم بثلاثة مستويات من القوانين.
* العدل في كل شيء من تعامل وآداب وحقوق بين المسلمين وبينهم وبين غير المسلمين ومنهم تجاه جميع مخلوقات الله الحية.
* الإنفاق بمفهومه القرآني الأشمل من مصطلح الزكاة المعروف.
* المحافظة على البيئة وإعمار الأرض.
* الجهاد. ومفهوم الجهاد في القرآن الكريم مختلف جذرياً عن مفهومه الدارج الذي ورثناه عن الفقهاء.

* الفضائل والتعامل والآداب، ركيزة من ركائز الإسلام كالإقرار لله بالربوبية.
* الحدود والتشريع.
* العبادات ثلاث، ولكن ممارستها فيها الكثير من المحاذير.
* العقل ينفي الركون للنقل دون تمحيص، ولكن الفقهاء حاربوا العقل وتمسكوا بالنقل لحماية مواقفهم. حيث أصبح الحديث المنسوب إلى الرسول يجب أن يصدق ليس لأن الفقيه الذي عاش في القرن الثاني أو الثالث من الهجرة قد تأكد بنفسه من سماعه من الرسول أو من الشخص الذي سمعه من الرسول مباشرة، ولكن لأنه سمعه من شخص يعيش في عصره هو، ويتوافق معه في المنهج. والتشكيك بمصداقية الراوي تشكيك بمنهج الفقيه نفسه.
* واعتبر نقد متن حديث واحد نقداً لكل الأحاديث، ونقد الأحاديث نقداً لرسالة محمد، وتشكيكاً بدين الله. لأن نقد متن الحديث أو سنده أو أقوال السابقين ستعري منهج الفقيه. وقبول نقد الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو إلى الرسول سيجعل نقد وترك أقوال الفقهاء أسهل، وبالتالي تسقط قيمة كلام الفقهاء، وتنقشع الهالة القدسية التي أحاطوا أنفسهم بها.
* الركيزة الأسمى: الإيمان بالله وعبادته وحده. واتباع تشريعات البشر عبادة لهم مع الله.

لو كان الإسلام طقوساً تعبدية وإقراراً بالوحدانية فقط، لما كان هناك داع لإنشاء دولة إسلامية، ولأصبح من اليسير أن يعيش المسلم في ظل أي حكم ونظام سياسي، ولكن الإسلام نظام سياسي وحقوقي واجتماعي وأخلاقي وديني وأسلوب حياة متكامل، يختلف عن كل الأنظمة والدساتير التي عرفها العالم. ولذلك فهو يحتاج إلى دولة تطبق هذه الأنظمة المتميزة والتي لن يتسنى للمسلم أن يعيشها في ظل أي نظام سياسي آخر.

ولأن وجود دولة الإسلام يعني تطبيق القوانين والنظم الإسلامية كما أمر الله، فإن وجود هذه الدولة الإسلامية، واجب ديني جوهري، وليس للمسلمين خيار إلا القيام به، لأنه لن يكون للإسلام وجود حي إلا بوجود دولة تقوم على تطبيق أنظمته وأحكامه وتنفيذها في الحياة اليومية. ولذلك قام الرسول صلوات الله وسلامه عليه بتأسيس دولة الإسلام التي كان يجب أن يحافظ المسلمون على بقائها ما بقي الإسلام حياً في قلوبهم.

وعندما حانت وفاة رسول الله، كانت كل أراضي شبه جزيرة العرب تخضع لدولة الإسلام، التي تخضع لحكم الله سبحانه وتعالى وحده من دون شريك. وهذا لا يعني أن كل قاطنيها مسلمون في ذلك الوقت، بل يعني أنهم قبلوا بالعيش تحت حكم دولة الإسلام. ولم يكن محمد يمثل فيها سوى العبد الوفي المكلف بتوصيل رسالة ربه وتأسيس دولته سبحانه، وتوثيق دستورها، القرآن، كما نزل عليه، دون زيادة أو نقصان.

ولما انتهى دور الرسول ومسؤوليته المناطة به، توفاه الله كأي بشر، له نهاية محتومة: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ

عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران: ١٤٤).

وبعد محمد تحولت مسؤولية تطبيق شرع الله ودستوره في دولته سبحانه إلى الناس، ولا يسأل الرسول عما يفعل بدين الله بعد موته: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (يونس: ١٠٨).

ولذلك لم يُحِط الرسول بما سيحدث لأمته بعده لأن مسؤوليته انتهت بنهاية حياته وتبليغه كل ما أوحي به إليه، وما سيحدث بعد ذلك فليس من شأنه ولا يتحمل وزره: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (الأحقاف: ٩)

وقد قامت دولة الإسلام التي أسسها رسول الله عليه الصلاة والسلام على ركائز أساسية، وهذه بعض منها:

الركيزة الأولى: الحكومة الإسلامية

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة: ٤٤).

أول ركيزة تقوم عليها دولة الإسلام تتمثل في أن الملك فيها لله وحده، وليس لها ملك أو سلطان بشري تحت أي مسمى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم (المؤمنون: ١١٦).

لأن الملك في أي مكان من الكون، بما في ذلك الأرض التي يعيش عليها البشر، لا يكون إلا لله وحده: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (الفرقان: ٢).

وأي ملك تحت أي مسمى، هو محاولة للاشتراك مع الله فيما يختص به وحده سبحانه: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (بني إسرائيل: ١١١).

ويكون مَلِك دولة الإسلام هو الله سبحانه وتعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (الحشر: ٢٣).

ومع ذلك يصر المسلمون بمختلف فرقهم ومذاهبهم على أنه يجب أن يكون لدولة الإسلام رئيس وحاكم وإن اختلفوا على تسمية المنصب، هل هو إمام أو ملك أو خليفة أو سلطان أو غيرها من تسميات مدلولها واحد يتمثل في وجود شخص يدير تلك الدولة بالطريقة التي كانت تدار بها الدولة الرومانية أو الفارسية أو العشائرية القبلية العربية.

ولكن تدبر الآيات القرآنية والواقع الذي كانت عليه دولة الإسلام أثناء حياة محمد صلوات الله وسلامه عليه يظهران بوضوح أن دولة الإسلام لم يكن لها حاكم أو رئيس أو سلطان، ولا يجب أن يكون لها حاكم أو رئيس، لأنها ببساطة دولة دين الله، الذي يحكمها سبحانه بواسطة دستوره المنزل على نبيه على شكل قرآن. ولذلك لم يكن الرسول حاكماً لتلك الدولة، ولم يتعد دور الوسيط الذي بلغ الناس دستور الله الذي يجب أن يطبق في دولته على الأرض.

فكانت دولة الإسلام، زمن رسول الله، ويجب أن تكون في كل زمن، دولة بشرية يحكمها الله جل جلاله فعلياً، وتدار بموجب قوانينه الإلهية: . . .فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة: ٤٤).

وقانون دولة الله يقوم على العدل والكمال المطلق، القسط: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ. (الحديد: ٢٥).

مثله مثل كل ما قدره الله وخلقه: شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران: ١٨).

وهذا الكمال المثالي المطلق لا يتحقق إلا بتطبيق دستور الدولة الإلهي، الممثل بالقرآن، الذي هو دستور مثالي مطلق لكل المسائل والأحكام: . . .وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (النحل: ٨٩).

وليس لدولة الإسلام مواطنون ولا شعب ولكنهم عبيد كما وصفهم الله في القرآن، يحتكمون لقانون واحد فوق الجميع بلا تفرقة ولا تمييز ولا ظلم: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (فصلت: ٤٦).

ولا يستطيع البشر تحقيق ذلك العدل والكمال المطلق أو قريباً منه بواسطة دساتير هم يضعونها، ومن ادعى ذلك فقد ظلم نفسه وضل عن الصواب: وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أو قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أنفسكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (ألأنعام: ٩٣).

ومن اعتقد أن الله لم ينزل دستوراً لحكم دولة الإسلام، أو اعتقد أن ذلك الدستور ليس تاماً أو لا يمكن أن يصلح لكل حال وزمان ومكان، فلم يقدر الله حق قدره: وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام: ٩١).

وقد جاءت دولة الإسلام من دون رئيس أو حاكم لأن البشر عبيد لله، كلهم خلقوا من نفس واحدة وقدرات واحدة. وليس بالإمكان أن يتميز أحدهم عن الآخرين أو حتى جماعة عن البقية. وإذا ما انتصب أحدهم كرأس للدولة فكأنه اعتبر نفسه أقدر من غيره على إصدار القرارات والتشريعات والنظم، واعتبره من ائتمر بأمره أنه كذلك.

وإذا كان للدولة رأس، فهذا يعني تميز عبد على العبيد الآخرين، وحصوله على ميزات أكثر مما يحصل عليها غيره، وهو ما يعني أن الناس ليسوا متساوين، ليس فقط في الحقوق والواجبات، بل إن الله عندما خلقهم خلقهم بعاطفة، فشرف البعض وجعلهم ملوكاً، واحتقر البعض وجعلهم مماليك، ويكون الاختلاف بين الناس طبقياً، سُنّة إلهية، ويكون الله قد خلق أناساً بدم أزرق وآخرين بدم أحمر، وأصفر وكل لون.

وهذا يتنافى مع أحد بنود الدستور الإلهي، الذي يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣).

ويتنافى مع قانون إلهي آخر: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (الأعراف: ١٨٩).

فالناس جميعاً خلقوا من المواصفات الإنسانية نفسها (نفس واحدة) وجعل الأنثى من المواصفات نفسها التي خلق بموجبها الذكر بلا اختلاف (وجعل منها زوجها).

ووجود رئيس لدولة الإسلام يتنافى مع قانون إلهي ثالث: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسان مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (السجدة: ٧-٩).

فكل الناس خلقوا من التركيبات نفسها التي يتكون منها تراب الأرض، وكلهم خلقوا بواسطة ماء مهين، وكلهم شرفهم الله بأن نفخ في كل واحد منهم من روحه سبحانه. وكل إهانة لبشر، فهي إهانة لله سبحانه وتعالى، لأن روح ذلك البشر أوجدها الخالق، ولذلك حرم التمييز بين الناس أو أن يطغى أحد على أحد.

ووجود رئيس لدولة الإسلام يتنافى مع كل قوانين الله التي يجب أن تدار بها دولة الإسلام. فلا يمكن تحقيق العدل والكمال المطلق ولا المساواة في الحقوق والواجبات دينية ودنيوية وغيرها إذا كان هناك رئيس ومرؤوس وحاكم ومحكوم وعبيد وسادة.

والآيات التي تتحدث عن أن دولة الإسلام يحكمها الله سبحانه وتعالى وليس البشر، كثيرة، وسنورد عدداً منها هنا للتدليل فقط:

فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً (النساء: ٦٥).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (آل عمران : ٢٣).

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً (النساء : ١٠٥).

فالحكم بين الناس بما أنزل الله من الوحي وليس بآراء شخصية بشرية، ومن يحكم البشر ويترك وحي الله فقد وصفه الله بالفاسق:

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (المائدة : ٤٧).

ووصفه بالظالم:

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (المائدة : ٤٥).

ووصف بالكافر:

إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة : ٤٤).

ودولة الله يحكمها الله بقوانين منزلة بالحق:

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (المائدة : ٤٨).

وليس لمحمد وهو رسول الله أن يحكم في دولة الإسلام برأيه، فما بالك بغيره:

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة : ٤٩).

وكل حكم بغير ما أنزل الله فهو حكم جاهلي:

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (المائدة : ٥٠).

وإذا كان الله خالق البشر لا تكفي قوانينه التي أنزلها في القرآن لتحقيق سعادة

البشر والعدل والمساواة في الحقوق بينهم فهل يمكن للأحكام البشرية أن تفعل ذلك؟

أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (الأنعام : ١١٤)

واتباع القوانين البشرية يعني أن ننظر لمن سنها على أنه مشارك لله في حكمه لدولة الإسلام:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (يونس : ٣٥).

وكل من رغب عن قوانين لله إلى قوانين أخرى فلن يجد له من الله من واق:

كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ (الرعد : ٣٧).

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (النور : ٤٨).

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (النور : ٥١).

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (الشورى : ١٠).

وبعد كل هذا هل يمكن لآراء بشرية أن تقوّم حياة الناس مثلما تفعل قوانين الله وحكمه:

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ. (التين: ٧ - ٨)

والدارس لواقع حياة الرسول يجد أنه لم يكن سوى عبد من عبيدالله الآخرين، ولم يكن ملكاً أو سلطاناً لدولة الإسلام: أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (بني إسرائيل: ٩٣).

والرسول مثله مثل عيسى وكل الرسل والملائكة لا يستنكف أحد منهم أن

يكون عبداً متبعاً لأحكام الله: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً (النساء: ١٧٢).

ويكون من باب أولى أن لا يستنكف بقية الناس من أن لا يتميزوا عن غيرهم ويترفعوا عنهم.

والقرآن، دستور دولة الإسلام، يخلو تماماً من أي إشارة إلى تميز الرسول عن بقية الناس في المنزلة الاجتماعية، وليس هناك أي تلميح بأن الرسول كان حاكماً، أو أن الدولة تسير بمرئيات وقرارات الرسول، لأن حكم الرسول أو أي عبد آخر مهما تحرى العدل والصواب فلن يكون بصواب وعدل حكم الدستور الإلهي، لسبب بسيط وهو أن الله خلق البشر ويعلم ما يتناسب معهم ولذلك فصلت بنود الدستور الإلهي بالأحكام الأصوب والأعدل لهم: وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ٥٢)

أما عدل البشر فهو نسبي بين شخص وآخر، وليست له معايير ثابتة وواضحة، ويتأثر بالمؤثرات المحيطة، وبالعمر والجنس والمكان والزمان.

والرسول يدخل ضمن هذا التعريف، ولذلك حذره الله من أن ينسى في لحظة من اللحظات ويتصرف بملوكية من عند نفسه، ويميل ولو قليلاً عما جاء في القرآن: وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة: ٤٩).

وكل من يعترض بعد ذلك على حكم القرآن في صغير أو كبير، فقد كفر بالله: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أنفسهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً (النساء: ٦٥).

ويجب على المسلمين أن يختاروا من هم على أعلى المستويات في التخصص في اللغة العربية لاستنباط القوانين القرآنية، والاستعانة بالمختصين بكتابة الدساتير، لكتابة تلك القوانين والتشريعات القرآنية وأوامره ونواهيه على شكل مواد قانونية، بعيداً عن التأثيرات المذهبية والطائفية.

هذا بالنسبة إلى الأحكام الشرعية، أما الأحكام الدنيوية، والتي لم يرد في

القرآن لها حكم أو لا يمكن أن يقاس لها حكم بما ورد في القرآن من أحكام، فهي على نوعين:

١- أحكام وقوانين ونظم استراتيجية. وهي التي تعنى بالنظم والقوانين التي على مستوى الدولة والقوانين التي تنظم علاقة دولة الإسلام بالدول الأخرى. فهذه القوانين تسن عن طريق اشتراك كل مسلم ومسلمة عاقل بالغ في دولة الإسلام، أو يتبع أنظمة دولة الإسلام ولو عاش بعيداً عنها، باقتراح تلك القوانين أو تعديلها أو إلغائها. ولا يتفرد شخص أو مجموعة باتخاذ القرار دون بقية المواطنين، وهذا التصويت الجماعي سماه القرآن الشورى: وَالَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (الشورى:٣٨).

وهذا مما تختلف فيه الحكومة الإسلامية عن الحكم الديمقراطي، الذي يسمح للناس بأن ينتخبوا مرشحيهم، ولكنه لا يسمح لهم بعد ذلك أن يناقشوا المرشحين أو يقترحوا عليهم ما يرغبون فيه، ولكن المرشحين وحدهم يقومون باتخاذ القرارات والإجراءات التي يريدون بما تمليه عليه أنفسهم ولو خالفت رأي من رشحهم.

أما في دولة الإسلام فكل تشريع من هذه التشريعات الوطنية والدولية والتي ليست بتشريعات دينية، ولم يأت بها نص في القرآن الكريم، فهي من أمور الناس (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ). مثل رسم وإقرار سياسات الدولة المالية وغير المالية، وإعداد وإقرار خطط التنمية والخطط الاستراتيجية، وأي مشروع أو نظام وطني، صغيراً كان أو كبيراً، استراتيجياً مثل السياسات الخارجية لدولة الإسلام، وعلاقاتها بالدول، أو محدوداً مثل زيادة أو إنقاص إنتاج مورد من الموارد الطبيعية.

ويتم إقرار تلك السياسات والمشاريع وصياغة القوانين الخاصة بها من قبل جميع أفراد الدولة الراشدين العاقلين من الجنسين بلا استثناء، كما ذكر، وذلك بالتصويت عليها في لغة العصر الحالي، دون أن يكون هناك فئة تمثل بقية الناس، بل يجب أن يباشر كل فرد حقه في الإدلاء برأيه وصوته.

وهكذا في كل مشروع أو قرار أو نظام استراتيجي على مستوى الأمة، تود دولة الإسلام تنفيذه أو تعديله، أو تعديل الآلية التي توصل إلى تنفيذ أمر من أوامر الله أو تجنب نواهيه، لأن تغير الزمن جعل من الضرورة تعديلها. مثل أن يتم تعديل

النظم التي بموجبها يتحقق العدل بين الناس، لتتماشى مع العصر، دون المساس بتحقيق العدل ذاته، أو تعديل آلية تنفيذ القصاص، وغيره.

واشتراك كل مسلمي دولة الإسلام في صناعة القرارات هو ما تعنيه آية الشورى السابقة، والتي جاءت ضمن أربع آيات تتحدث عن بعض صفات المجتمع المسلم، تبدأ بالآية ٣٦ وتنتهي بالآية ٣٩ من سورة الشورى، وهذه هي الآيات وما تشتمل عليه من صفات للمسلمين: فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ. وَالَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (الشورى: ٣٦-٣٩).

وكل أمر ليس فيه أمر أو نهي إلهي فهو يدخل ضمن مسؤوليات المجتمع المسلم للتشاور والاقتراح ثم التصويت والإقرار، ولا يجوز تمكين فرد أو جماعة باتخاذه نيابة عن الباقين. وحتى الرسول لا يستطيع الحكم برأيه في هذه القوانين والتشريعات، لأنه متبع لتشريع الله وليس مشرعاً: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً (النساء: ١٠٥).

٢- الأحكام المدنية التي تنظم العمل في الإدارات والهيئات المحلية. وهذه يتم إقرار السياسات وصياغة القوانين الخاصة بها وتعديلها بموجب ما يقترحه أهل الخبرة والرأي والدراية وهم الذين سماهم القرآن «أولي الأمر» في موضعين من سورة النساء، أحدهما قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (النساء: ٥٩).

والموضع الثاني قوله تعالى: وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (النساء: ٨٣).

واصطلاح «أولي الأمر» الذي لا مفرد له في لغة الضاد، لا يعني الحكام ولا رجال الدين كما يتوهم البعض، وإنما يعني أهل الدراية والاختصاص في الأمور المدنية. وقد ورد في القرآن في الآية الأولى لمخاطبة الصحابة زمن رسول الله

عندما لم يكن هناك حكام، وفي أمور دون أمور تصريف الدولة ولم يأت ذكر لها في القرآن الكريم، وكانت حول إدارة المعارك وتنظيم الجيش ومواجهة العدو.

والآية الثانية التي ورد فيها مصطلح «أولي الأمر» هي الآية رقم ٨٣ من السورة نفسها، وبالمعنى نفسه الذي تحدثت عنه الآية السابقة، ولذلك فمشاورة أولي الأمر تعني الرجوع إلى أولي الرأي والمشورة والخبرة، أي أهل الاختصاص والمعرفة. ويمكن أن يقاس على ذلك سن الأنظمة المدنية في الإدارات والهيئات المحلية. ولكنها لا تعني الحكام الذين سيأتون بعد عصر الرسول.

أما الاصطلاح السائد حالياً وهو «ولاة الأمر» فمفرده ولي الأمر، ويمكن لأي أحد أن يكون ولياً لأي أمر يتحكم فيه، وهذا الاصطلاح لا علاقة له بالاصطلاح الذي ورد في القرآن وهو «أولي الأمر» لا من قريب ولا من بعيد (وقد تحدثنا بإفاضة عن هذا الموضوع في فصل رجال الدين ـ المثال الثالث).

وتكون دولة الإسلام تحكم بثلاثة مستويات من القوانين، هي:

١- القوانين والأحكام الإلهية التي نص عليها القرآن، وهذه ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ولا يجوز أن تعدل أو تبدل أو تزاد أو تنقص بواسطة البشر، ولكن يجب على المسلمين أن يكتبوها على شكل قوانين ومواد دستورية تفصيلية.

٢- القوانين والأحكام الشورية: وهي التي لها علاقة بواقع الأمة وخططها الاستراتيجية، مما لم يرد فيه نص بالقرآن. كما تشمل هذه القوانين الآليات الخاصة بتنفيذ القوانين الإلهية، مثل آلية تنفيذ إحدى فقرات قانون الحقوق، أو أي آلية أخرى. وهذه يمكن تعديلها أو إلغاؤها بتصويت جماعي يشترك فيه كل المسلمين البالغين والعاقلين من الجنسين.

٣- القوانين والأحكام المدنية، والتي لم يرد فيها نص قرآني، فيمكن تعديلها أو إلغاؤها بواسطة (أولي الأمر) أي أهل الخبرة والدراية في كل هيئة وإدارة، كلما اقتضت الحاجة، وقد تحول إلى قوانين وأحكام شورية.

ويكون المسلم موظفاً في دولة الإسلام، وتكون جميع الوظائف تنفيذية تكليفية، ليس بينها تشريعي، وليس بين أصحابها تمايز، وليس فيها رأس وذنب. جميعهم جند لدولة الإسلام، يقوم كل واحد بما يخصه في مجال عمله، بتنفيذ

سياسة الدولة المكتوبة على شكل دستور شامل لكل القوانين في مجالات الحياة المختلفة: أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (الأنعام: ١١٤).

ويستمر كل شخص في أداء مهامه المناطة به حسب نظام وظيفي ثابت، حتى سن معينه للتقاعد، أو تستدعي الحاجة انتقاله إلى وظيفة أخرى، أو يعجز عن أداء مهام وظيفته بسبب المرض أو أي سبب عضوي أو ذهني آخر، أو يصدر منه ما يخالف صلاحيته، وذلك حسب قوانين تم سنها بواسطة القوانين المدنية والشورية ولا تتعارض مع القوانين والأحكام الإلهية.

وعندما تحكم دولة الإسلام بهذه القوانين سيصبح الناس في دولة الإسلام كما أراد الله لهم أن يكونوا، حيث شبههم بحقلٍ من المزروعات، كل نباته متساو في الطول والشكل والثمر: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاستغلظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الفتح: ٢٩).

ولو كان هناك ملك ومملوك، وأمير وحمير، ووزير وحقير، لما أمكن أن يكون الناس كزرع أخرج شطأه.

لهذا لم يذكر القرآن الكريم أي إشارة إلى أن محمداً كان حاكماً أو يمثل السلطة في دولة الإسلام، وإنما اقتصر دوره على تبليغ الرسالة وليس زعامة الدولة: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (البقرة: ١٥١).

ولم يشر القرآن إلى أي حاكم أو طريقة بشرية لحكم دولة الإسلام بعد محمد. والآية ٢٦ من سورة آل عمران لا تعني ملك دولة وشعب، وهي قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

لأن معنى الملك هنا هو نفس معنى الملك الذي أعطي إبراهيم وذريته في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ. (البقرة:٢٥٨).

وهو الملك نفسه الذي ورد في قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (النساء: ٥٤).

فالملك يعني النبوة، لأن إبراهيم وأبناءه لم يكونوا حكاماً بل أنبياءً ورسل.

ويكون من الطبيعي ألا يوصي الرسول بولي عهد يتولى قيادة دولة الإسلام بعده، ولكن الناس لم يتقبلوا أو يتصوروا أن تسير دولة الإسلام من دون زعيم، وأن الحكومة الإسلامية جاءت بمفهوم جديد لإدارة البلاد يختلف عن المفاهيم السائدة، ليس في عصر الرسول وحسب، بل وحتى في عصر الديمقراطيات الحالي. ولكن الناس لم يفهموا رسالة الله بعد وفاة الرسول، فحدث بينهم ذلك الخلاف الحاد في سقيفة بني ساعدة على من يتولى حكم المسلمين.

وفي عصور لاحقة حاول كثير من رجال الأخبار المسلمين أن يثبتوا أن الرسول قد منح أبا بكر ولاية العهد لحكم المسلمين عن طريق بعض ما نسب إليه صلى الله عليه وسلم من تلميحات، وكان أكثرها تداولاً بين الناس إنابته صلى الله عليه وسلم أبا بكر للصلاة بالناس. ونسوا بأن الرسول كان إماماً للناس في المسجد ـ كما هو في كل أمور الشرع ـ لأنه هو معلمهم لأمور الدين كلها، وليس لأنه رأس الدولة وحاكمها.

ولقد كان في المدينة زمن رسول الله مسجد آخر على الأقل غير مسجد رسول الله وهو مسجد قباء، إضافة إلى مساجد أخرى في مكة والطائف واليمن والبحرين ونجد وعمان، وكل المناطق التي كان الإسلام قد انتشر فيها قبل وفاته عليه الصلاة والسلام. ولو كانت إمامة الناس في الصلاة تعني استخلافهم، لدل هذا على أن كل من كان إماماً في قومه وقت حياة الرسول فهو خليفة لرسول الله (حاكماً) في قومه بعد وفاته، وهو ما لم يقو على القول به أحد على الإطلاق.

وكما المذاهب السنية، فلدى الشيعة قناعة بحق إلهي لعلي ونسله في الحكم بعد الرسول، ويستدلون بتلميحات مماثلة نسبت إليه صلى الله عليه وسلم، وكذبها الواقع، لأنها كانت تقول بضرورة أن يكون حاكم المسلمين من الأئمة الذين هم

من نسل علي بن أبي طالب، ومن أدلتهم في ذلك حديث عامر بن الطفيل مع الرسول عندما قال له: يا محمد! ما لي إن أسلمت؟ قال صلى الله عليه وسلم: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. فقال ابن الطفيل: تجعل لي الأمر بعدك! فقال الرسول: لا. ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء.

وبدل أن يفهم الناس المعنى الواضح للنص «ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء» وهو أن حكم دولة الإسلام لله وحده وليس لي يا محمد، ولكنهم فهموه أن حكم دولة الإسلام سيوكله الله لعلي بن أبي طالب ونسله، والذين لم يتمكنوا منه أبداً. ولو أراد الله لمملكته في الأرض أن يرث حكمها علي أو غير علي فلن يستطيع معاوية أو غيره زحزحته عنه.

ويقول الشيعة بأن الله قد جعل الملك في علي بن أبي طالب بناءً على أحاديث نسبت إلى الرسول، منها قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، ومنها حديث الغدير، ومنها الأحاديث التي تقول بوجوب أن يستمر حكم الدولة الإسلامية في نسل علي بن أبي طالب حتى قيام الساعة.

والغريب أن علياً لم يعلم بهذا الحق على الإطلاق. ولو علم به لأبلغ أبا بكر وكل من كان في سقيفة بني ساعدة، ولو فعل فلن يتهدده عمر ويتهمه بأنه يسعى للحكم وتفريق كلمة المسلمين ويتوعد بحرق منزله عليه. ولو أبلغ علي أبا بكر بحقه الإلهي فسيجد أن أبا بكر سيطلب منه أن يحضر معه شاهداً آخر (كما فعل مع المغيرة بن شعبة عندما ادعى أن الجدة ترث) ولو حدث هذا فسيتنازل أبا بكر له عن الخلافة ويطلب منه الصفح. وإن لم يقبل أبا بكر بالتنازل قام عليه الناس وأرغموه، وإن لم يفعلوا فسوف يسجل التاريخ ذلك على الأقل.

كما أن عمر بن الخطاب لم يكن يعلم بهذا الحق وإلا لما جعل علياً من بين ستة يتشاورون في ما بينهم لاختيار من يلي حكم المسلمين، لأنه إن كان عمر يعلم بحق علي في الملك ولم يمكنه منه، كما تزعم الشيعة، فلماذا جعله من بين الستة المرشحين.

وبعد مقتل عثمان لم يصرح علي بهذا الحق، في وقت كان في أمس الحاجة إلى جمع مؤيدين له للحصول على الحكم، والذي كان سيكفيه مشقة الحروب التي خاضها وقتل قبل أن يحصل على مراده منها.

ولو كان لعلي حق إلهي في حكم دولة الإسلام ولم يطالب به بعد وفاة رسول الله، فقد خان الله وخان عهده لعدم مطالبته بذلك الحق الذي وهبه الله له، ولسقطت عنه تلك القدسية التي ألبسها إياه الناس. ولكن هذا كله أضغاث أحلام بشرية كبرت وتوسعت مع الأيام، ولم ينزل الله بها من سلطان.

هذا واقع، والواقع الآخر والمتمثل في ادعاء أن الخلافة لا بد أن تكون في أئمة من نسل علي إلى يوم القيامة قد انتهى لسبب بسيط وهو أن الدولة الإسلامية قد تشرذمت، وهؤلاء الأئمة قد انقرضوا ولم يعد لهم وجود، دون أن يستولي واحد منهم على الحكم طوال القرون الماضية.

ولو كان ادعاء أن حكم دولة الإسلام يجب أن يكون في نسل علي صحيحاً فهذا يعني أن آل علي شركاء مع الله في ملكه على الأرض، والله سبحانه وتعالى ليس له شريك في الملك لا في الأرض ولا في السماء، أو أنهم أوصياء على دينه، على الأقل، ودين الله لا يحتاج إلى وصاية بشرية.

ولو كانت مشيئة الله سبحانه تتمثل في إبقاء الخلافة في نسل علي لما تمكن غيره من تولي زعامة الدولة المسلمة بعد الرسول، ولما استطاع الأمويون محاربتهم، ولما استطاع العباسيون أو غيرهم القضاء عليهم. ولكن بما أن كل هذا الادعاء من صنع الناس، فقد وقع من صنعه في حرج حاولوا الخروج منه بادعاء فكرة الإمام الغائب الخرافية، عندما مات الإمام الحادي عشر ولم يخلف إلا طفلاً واحداً مات في الخامسة من العمر. فاعتبروا أن ذلك الطفل هو الإمام الثاني عشر، وأنه لم يمت ولكنه غاب وسيعود ليعيد الخلافة الحقيقية ويصحح الدين. وهي خرافة قال بها السنة أيضاً بطريقة أخرى عندما قالوا بخروج المهدي مرة وخروج المسيح مرة أخرى لتصحيح الدين أيضاً، مع أن الدين صحيح متعاف ولا يحتاج إلى مصحح، لأن محمداً كان أميناً بتبليغه، وكل ما يحتاجه الدين هو تابعين مخلصين يخلصونه مما لحق به من تشريعات ليست منه ممن سموا أنفسهم مسلمين.

المهم أن نسل علي انقرض، ولم يتولَّ واحد منه الحكم في دولة المسلمين، وإن حاول علي ومن بعده ابنه الحسين الاستيلاء على الحكم لبعض الوقت قبل أن يقتلا.

ولازال الحكام الشيعة يستغلون هذه العقيدة للتمتع بالحكم والتحكم بمصائر الناس والتلاعب بحقوقهم باسم النيابة عن الإمام الغائب حتى يعود، وبطبيعة الحال فالإمام الغائب لن يعود أبداً، وهم يعلمون قبل غيرهم بأنه لن يعود.

ولو كانت القرابة من الرسول تعني خلافته فإن هناك من هو أقرب من علي للرسول، وهناك من يماثله في قرابته. كما أن قرابة الرسول لا تضمن الصلاح لصاحبها، ولا لمن يكون من نسل الرسول وليس من نسل بناته فقط. فليس بالضرورة أن تكون ذرية الرسول صالحة ولا ضير في أن يكون منها كفرة، فالإيمان لا يورَّث.

وقد كان أحد أبناء نوح كافراً، ولم تشفع له قرابته: وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (هود: ٤٥-٤٦).

وكل أبناء الرسل والأنبياء منهم الصالح ومنهم دون ذلك، قال تعالى في الحديث عن نبي الله يعقوب: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسحاق نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إسحاق وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (الصافات: ١١٢-١١٣).

وكان بنو إسرائيل من نسل نبي الله يعقوب ومع ذلك سجل القرآن كفرهم، لأن كل شخص عبارة عن روح مستقلة عن روح والديه، وهو ليس جزءاً من أبيه ولا من أمه، ولا يضير الدين أن يكون ابن رسول الله كافراً بالله، لأن من كان أبوه رسولاً فلا يعني أنه سيرسل مثله.

ومع أن دولة الإسلام لا يمكن أن يكون لها زعيم، بنص القرآن، ولأن واقع عصر الرسول أثبت ذلك، إلا أن كتب الأخبار التي كتبت في القرون اللاحقة لعصر صدر الإسلام، قد امتلأت بأحاديث نسبت إلى الرسول عن السلاطين والحكام وطاعتهم وعدم الخروج عليهم، على الرغم من النصوص القرآنية الكثيرة التي تؤكد أن الرسول لا يعلم الغيب ولا يعرف ماذا سيحل بالأمة من بعده، ومنها: قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (الأحقاف: ٩).

فالرسول لا يعلم ما سيحل به غداً ولا بمشركي قريش ولا بأصحابه، من

سيبدل منهم دينه، ومن سيقتل، ومن سيموت شهيداً، ومن سيدخل الجنة. وبالتالي فهو لم يكن يعلم ماذا سيحل بدولة الإسلام من بعده، ولا نوع الحكومات التي ستستولي عليها، ويكون كل ما نسب إلى الرسول من أحاديث تتكلم عن الحكام والسلاطين سلباً أو إيجاباً هي أحاديث مكذوبة ولا شك.

ولو كانت دولة الإسلام تحتاج إلى رجل من البشر يشرف على إدارتها ولو لم يحكمها بالمعنى الحرفي، للحكم والزعامة، فسيكون من الطبيعي أن يأمر القرآن بذلك، أو كان بإمكان الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي جهر بالحق عند بدء الوحي وسط صناديد قريش دون وجل، أن يصرح باسم من يراه أهلاً لأن يكون ذلك الشخص من بين أصحابه، أو على الأقل وضع مواصفات لمن يتولى إدارة الدولة الإسلامية دون ذكر للاسم. ولكنه لم يفعل، ولم يتحدث بذلك طوال فترة دعوته التي امتدت قرابة ربع قرن. وهذه النقطة الواضحة الساطعة عميت عنها أعين المفكرين والكتاب أو تعاموا عنها حتى يبقوا الباب مفتوحاً للقول بالإمامة أو الخلافة.

ولأن الحقيقة دائماً بسيطة فإن وجود قائد لدولة الإسلام تحت أي مسمى، يعني تميزه عن بقية الناس، حيث سيكون الأعلى منصباً وميزات. وسيستفيد معنوياً ومادياً أكثر من غيره بسبب منصبه، وسيتفرد بقرار يملى على الناس مع أنه رأيه الشخصي. وكل هذه الأمور الثلاثة فيها خرق صريح وواضح لمفهوم المساواة التي دعا إليها الإسلام، كما أسلفنا، ومعها لن يكون المسلمون كحقل من المزروعات المتشابهة في الحجم والشكل.

وتكون دولة الإسلام قد سبقت أحدث النظريات الحديثة إلى إدارة شؤون الدولة، وذلك بجعل دستور الدولة هو الحاكم، وليس شخصاً بعينه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن قريش كانوا يمارسون في مكة نوعاً من الحكم مشابهاً لما يعرف حالياً بنظرية الطاولة المستديرة في الإدارة، وذلك أنه لم يكن هناك زعيم أوحد لقريش، بل وزعت المهام على ستة عشر منصباً، بعدد بطون قريش، وأوكلت مهمة تولي المنصب لاختيار أفراد البطن نفسه (كما يقول ابن هشام في سيرته).

ويحتمل أن يكون هذا النوع من الحكم مما توارثته قريش من بقايا الإسلام

القديم الذي كان يدين به جدهم الأعلى إبراهيم، ولذلك جاء القرآن ليؤكد أن دولة الإسلام لا حاكم بشرياً لها وأن المهام الوظيفية تقوم على تنفيذ دستور الله في الأمور الدينية وعلى الشورى الجماعية في الأمور الدنيوية، عبر قوانين مكتوبة، بحيث لا يترك شيء للاجتهاد الشخصي.

وتكون دولة الإسلام مؤلفة من موظفين يقومون جميعاً، كل بما يخصه، بتنفيذ سياسة الدولة، كما يقومون بكل الخدمات والأعمال الخاصة والعامة، ويصل كل شخص لوظيفته حسب نظام وظيفي ثابت أو نظام يقوم على تدوير المهام، بحيث يمكن لشخص واحد التنقل بين وظائف متباينة خلال مدة حياته العملية.

ومما سبق يتضح أن دولة الإسلام تقوم على ثلاثة مصادر للتشريع هي: القرآن الكريم والشورى العامة وشورى أهل الاختصاص والخبرة، وهذا يلغي الصلاحيات التشريعية التي أوجدها الفقهاء لأنفسهم، ويجردهم مما سموه «الاجتهاد» في استنباط الأحكام والتشريعات ونسبتها إلى دين الله، وما شابهها مما يدعى الفتاوى. كما يلغي أن يكون ما سماه الفقهاء بالحديث مصدراً للتشريع في الإسلام، لأن دولة الإسلام دولة لدين الله، والله جل جلاله هو من يحكم تلك الدولة بواسطة دستوره الإلهي، وكل ما نسب إلى الرسول من حديث، وإن ثبت عنه، لا يمثل كلام الله ولا دين الله، ولكنه يمثل كلام رسول الله الذي ليس له من أمر الإسلام ودولته شيء، وذلك بنص القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (آل عمران: ١٢٨).

الركيزة الثانية: العدل

شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران: ١٨).

أساس حكم الله في دولة الإسلام في الدنيا وفي محاكمة الناس في الآخرة هو العدل. وكل خلق الله يقوم على القسط، والقسط هو أعلى درجات العدل، بل هو العدل المثالي المطلق. وهو مما يستحيل صدوره من بشر، في أي موقف أو حكم، لأن الإنسان تتأثر أحكامه بنظرته ومشاعره وعمره وجنسه وبكل ما يحيط به من مؤثرات مكانية وزمانية.

والعدل أحد ركائز دين الله، ويجب أن يراعى في كل تصرف وفعل وقول في دولة الإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أنفسكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أو فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أو تُعْرِضُواْ فإن اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء: ١٣٥).

وفي كل تعامل ومعاملات وآداب عامة وخاصة: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل: ٩٠).

وهذا بين المسلمين، وبينهم وبين غيرهم من غير المسلمين: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (النساء: ٥٨).

فالعدل المطلق يجب أن يسود علاقاتنا مع الناس دون النظر إلى عقائدهم: لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الممتحنة: ٨).

إذ يوجب الإسلام أن يتمتع كل من يعيش في ظل دولة الإسلام بالعدل، بغض النظر عن دينه: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أعمالنَا وَلَكُمْ أعمالكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (الشورى: ١٥).

وحتى لو قوبل المسلمون كأفراد أو كدولة بالظلم فيجب عليهم العدل وعدم مقابلة الظلم بالظلم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة: ٨).

ومثل هذا العدل المطلق لا يمكن أن يسود إذا ما وجد لدولة الإسلام رأس من البشر، مهما حاول ذلك الحاكم أن يكون عادلاً، لأن عدل البشر نسبي وناقص. يتأثر بالمؤثرات المحيطة وبالعمر وبالجنس وبالمواقف المختلفة، ويعكس وجهة نظر واحدة. ولذلك سمي الحاكم الفرد طاغية. ليس لأنه مولع بالطغيان، بل لأن صوته لا بد أن يطغى على صوت الأغلبية، في جميع الأوقات (كما يقول الصادق النيهوم في كتابه صوت الناس ص٦٨).

الركيزة الثالثة: الإنفاق

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً (بني إسرائيل: ١٠٠).

الإنفاق والإيمان صنوان لا يتم الإسلام بواحد منهما دون الآخر، إذ لا يمكن أن يكون المسلم مؤمناً بدين الإسلام ما لم يؤمن وينفق. والمسلمون اليوم يعرفون الإنفاق بشكل مشوش سماه الفقهاء الزكاة، وشكل مشوش آخر سماه الفقهاء الصدقة، أما الإنفاق الذي يتحدث عنه القرآن فقد حجب عنهم منذ الأيام الأولى للإسلام بعد عصر الرسول.

والمتدبر للقرآن الحكيم يجد أنه يخلو من ذكر أي من التفاصيل والتعريفات التي وضعها الفقهاء للزكاة والصدقة كما يعرفهما المسلمون اليوم، وأن الإنفاق الذي نص عليه كتاب الله ورده وأكد عليه، والذي يختلف عن زكاة الفقهاء وصدقتهم قد اختفى من حياة المسلمين.

وقد ذكر القرآن العزيز أربعة ألفاظ لها علاقة بالإنفاق، هي: الإحسان، الصدقة، الزكاة، والإنفاق، وحدد معانيها بكل وضوح، كما يلي:

الإحسان

يأتي الإحسان في القرآن بمعنى التعامل الإنساني مع عون مالي أو عيني. والتعامل الإنساني هو المقصود بقوله تعالى (وقولوا للناس حسناً) في الآية التالية: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ (البقرة: ٨٣).

ومثل ذلك قوله تعالى: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء: ٣٦).

فقد أمر الله سبحانه بالإحسان، بالمادة والمعاملة، بنفس مستوى الأمر بعبادة الله والبعد عن الشرك، لأن كل أمر إلهي في القرآن لا يحمل إلا معنىً واحداً هو

الوجوب، وليس هناك أمر إلهي في القرآن يعطي للناس الخيار في اتباعه أو رفضه حسب رغبتهم.

والآية توضح أن الإحسان يكون لكل الناس تقريباً، كل بما يحتاج. فالغني يحتاج الإحسان بالتعامل الإنساني، والفقير يحتاج التعامل الإنساني والدعم المادي.

والدليل على أنه لكل الناس أن الآية المذكورة تقول إنه للوالدين، ولكل من للشخص به قرابة ولو من بعيد، ولليتامى نعرفهم أو لا نعرفهم، وللمساكين نعرفهم أو لا نعرفهم، والجار ذي القربى أي الملاصق، والجار بالجنب أي الجار الذي يحيط بنا من كل الجهات ولو لم يكن ملاصقاً، والصاحب بالجنب، قد تعني بلغة العصر أهل الحي. والإحسان يكون لابن السبيل حتى ولو لم نعرفه، والإحسان يجب للرقيق، بالمعاملة الإنسانية والمادية، عندما كان هناك رقيق.

وإذا نحن أحسنا لهؤلاء نكون قد أحسنا لكل الناس بلا استثناء، لأنه لن يتبقى أحد من الناس لا يدخل ضمن من ذكر في هذه الآية.

ويكون معنى الإحسان في القرآن ليس الصدقة ولا الزكاة بتعريفهما الفقهي المتداول.

ومع أن كمية الإحسان العيني والمالي متروكة للشخص المحسن إلا أن أداء الإحسان بشقيه (التعامل الإنساني والأداء العيني والمالي) واجب ديني. ولذا فهو يختلف عن معنى الصدقة الشائع، لأن الفقهاء عرفوا الصدقة، بما يخرجه الإنسان مختاراً على وجه القربة من الله، وليس لها نصاب أو وقت معين. فهي لفظ دال على التفضل بالهبة المالية أو العينية لمن يختاره المتفضل متى شاء لمن يشاء، ويقولون بأن من يقدم الصدقة يثاب ومن يمتنع عن أدائها لا يعاقب. أما الإحسان فهو تعامل حسن وإنفاق مادي لمن نعرف ومن لا نعرف، يجب فعله ويحرم تركه، يهدف لإشاعة الألفة والتواد بين الناس، فيدخل فيه الهبات والهدايا.

الزكاة

ليس في القرآن تصريحٌ ولا تلميحٌ، لنصاب زكاة الأنعام (الإبل والبقر والغنم) الذي قال به الفقهاء. وليس في القرآن تصريحٌ ولا تلميحٌ لزكاة النقد، وليس في القرآن تصريحٌ ولا تلميحٌ لنصاب أي نوع مما أطلق عليه الفقهاء الزكاة، والتي

يعرفها المسلمون اليوم. وليس في القرآن تصريحٌ ولا تلميحٌ أن الزكاة لا تجب إلا فيما حال عليه الحول، وليس في القرآن أي من التفاصيل التي ذكرها الفقهاء عن الزكاة المعروفة اليوم على الإطلاق.

والفقهاء لا يجيزون صرف الزكاة في أعمال الخير العامة التي يستفيد منها المسلمون على المدى الطويل والاستراتيجي، فلا تنشأ بها طريق أو مصنع أو مدرسة أو مسجد أو قنطرة أو ساقية، وبرروا ذلك أنه لا تمليك في هذه الأشياء، أما القرآن فلم يقل بذلك.

وقد حصر الفقهاءُ المستفيدين من الزكاة بالثمانية أصناف المذكورين في الآية الستين من سورة التوبة، مع أن هناك آيات تدعو إلى أن يستفيد من العطايا أصناف أخرى، ومن ذلك: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء: ٣٦).

والإحسان هنا يشمل الهبة المالية والعينية كما ذكرنا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإن اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة: ٢١٥).

وهاتان الآيتان تؤكدان أن اليتامى يجب أن يعطوا، ولكن الفقهاء لم يدخلوهم ضمن الأصناف الذين يعطون من الزكاة، في الوقت نفسه الذي قالوا فيه إن الزكاة تجب للعاملين عليها، ولو كان غنياً، مبررين ذلك بأن عطاءه مقابل عمله وليس لأنه فقير. فأوجبوا أن يعطى العامل على الزكاة (الجابي) ولو لم يكن بحاجتها، بينما جعلوا إعطاء اليتيم الذي لا معيل له يندرج تحت ما سموه بالصدقة، والتي تعني أنه يكون تحت رحمة الغني إن شاء أعطاه وله الشكر والتفضل والعرفان في الدنيا، والأجر من الله في الآخرة، وإن شاء تركه يتضور جوعاً، دون أن يكون الغني عرضة لأي عقاب من الله، على الرغم من حاجة اليتيم الماسة إلى حياة كريمة تخفف عنه مشاعر اليتم وفقد الوالدين.

وجاء حصر الفقهاء للمستفيدين من الزكاة على الثمانية أصناف التي وردت في الآية الستين من سورة التوبة، لأنهم فهموا الآية على أنها تتحدث عن الزكاة

بمعناها الفقهي الذي عرفوه هم بها. مع أن الآية تنص على أن الصدقات، وليس الزكوات، التي تعطى لهذه الأصناف الثمانية.

والفقهاء يفرقون بشكل مبالغ فيه بين الصدقة بمعناها المتعارف عليه عندهم، والتي يقولون بندب دفعها، وبين الزكاة التي يجب دفعها بموجب نصاب معين. فكيف أجاز الفقهاء استعارة لفظ الصدقات هنا لتعني الزكاة، بينما لم يفعلوا ذلك في الآيات الكثيرة الأخرى التي وردت في القرآن، ومن ذلك على سبيل المثال: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة: ٢٧١).

إذ ليس هناك أحد من الفقهاء يقول بأن الصدقات هنا تعني الزكاة.

وتكون الصدقات التي ذكرت في الآية (٦٠) من سورة التوبة ليست الزكاة بمعناها الفقهي المعروف اليوم، ولكنها الصدقات نفسها التي ذكرت في الآية (٢٧١) من سورة البقرة. وهي الصدقات نفسها التي وردت في الآية (٧٩) من سورة التوبة نفسها، والتي تعني الإنفاق لبناء دولة الإسلام وتغذية ميزانيتها وتجهيز جيوشها، من المال والعين، ونصها: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

لأن هذه الآية تتحدث عن بعض الصحابة الذين أرادوا المساهمة في الإنفاق على تجهيز جيش المسلمين، ولكنهم فقراء، فأنفقوا مما يملكون من العين، وكان عبارة عن حاجيات وأغراض مستهلكة، فسخر منها بعض المنافقين.

وهذه الصدقات (الإنفاق العيني والنقدي) هي نفسها التي وردت في الآيتين (١٠٣، ١٠٤) من سورة التوبة: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وتكون الزكاة المذكورة في القرآن غير تلك التي شرعها الفقهاء والتي يعرفها المسلمون اليوم، وسيتضح ذلك أكثر في ما يأتي.

الصدقة

الصدقة بتعريف الفقهاء، والمعروفة لدى المسلمين حالياً، لا تساعد على حل مشاكل المسلمين الاقتصادية، ولا تلغي ظاهرة الفقر، ولا تسد حاجات الفقراء، ولكنها تعمل على تأصيل الطبقية بين الناس، وتساهم في امتهان كرامة الفقير، وإذلاله وإشعاره بالدونية والضعة، عندما تضطره ظروفه المعيشية الصعبة على ترويض نفسه على قبول التفضل من الغني ويتولد لديه شعور بالمهانة وكأنه قدر عليه أن يقبلها كجزء من حياته، وبالتالي يحس بأنه ممنون للغني بمعروف. وهذا النوع من العلاقة بين الناس حرمه الإسلام، لأن فيه إذلالاً للمسلم. والمسلمون جميعاً يجب أن يكونوا أعزة بكرامات محفوظة: . . .وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (المنافقون:٨).

وخلال تاريخ الإسلام لم تستطع الصدقة بمعناها الفقهي أن تحل مشاكل الفقراء، ولكنها أدت بهم لأن يخسروا كراماتهم وأن يمدوا أيديهم وأن يتقاتلوا عند أبواب الموسرين، خاصة في رمضان، لكي يحصلوا على التحقير ويرمى لهم فتات ودريهمات تبقي أحوالهم على ما هي عليه من البؤس. فيما يشعر الموسر بالنشوة وهو يرى ما يحدث، ويخالجه شعور بالزهو. وهذا ما نهت عنه الآية التالية التي تأمر بالإنفاق والإحسان للناس كواجب يجب على الموسر، وليس تفضلاً أو منة، لأن التفضل والمن يولد الزهو والغطرسة والخيلاء: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء:٣٦).

والخيلاء والكبر مخالف لمبادئ دولة الإسلام التي تقوم على خلق مجتمع أخوة وموالاة: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:٧١).

وأوامر الشرع دائماً ملزمة للمسلمين، وليس هناك أمر إلهي يخير الناس بأن يفعلوا ما أمروا به أو يتركوه بناءً على ما تمليه عليهم أنفسهم. والصدقة بالمعنى الذي عرفها الفقهاء، فيها تخيير للموسر بأن يدفع ما يشاء لمن يشاء إن شاء. وليس

في القرآن أمر تشريعي واحد يجيز للناس أن ينفذوه إن هم رغبوا في ذلك، ولهم أجر، وإن لم يرغبوا فليس عليهم حرج ولا ذنب. وحتى التساؤل الذي ورد في تحريم الخمر لم يكن للتخيير بل للحسم بالتوقف عن تناول الخمر، وهذا نص الآية: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدة: ٩١).

وتكون الصدقة في القرآن بمعنى الإنفاق على دولة الإسلام، ومن ذلك الصدقة المذكورة في الآيات الثلاث (٥٨، ٥٩، ٦٠) من سورة التوبة. والتي تتحدث عن نوع من الصحابة، كانوا ميسوري الحال وليسوا بحاجة إلى أن يعطوا من الإنفاق ولكنهم كانوا يلحون على رسول الله بأن يعطيهم، فنزلت هذه الآيات لتتحدث عنهم ولتبلغهم أن الإنفاق الموجه لحل المشاكل الاقتصادية في دولة الإسلام يكون لمن يحتاجه مثل الأصناف المذكورين في الآية رقم (٦٠)، وهذا نص الآيات الثلاث: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فإن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إلى اللّهِ رَاغِبُونَ. إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٥٨-٦٠).

فإذا لم يكن في الإسلام زكاة ولا صدقة بمعناهما الفقهي المتداول بين الناس، فعلينا التعرف على الإنفاق الذي يزكي الأموال وينجي من عذاب النار الذي توعد الله بها من يبخل ولا ينفق.

الإنفاق

لو كان في أوامر الله هام ومهم وأهم، فإن الإنفاق سيأتي ضمن الأوامر الأهم في تشريعات الإسلام، لأن الإيمان بالله لا يتم من دونه، ولأن دولة الإسلام تقوم ميزانياتها المختلفة عليه.

ويمكن تعريفه حسبما جاء في القرآن الكريم، كما يلي:

هو صفة لازمة من صفات المسلم: الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (آل عمران: ١٧).

والإيمان بدين الله لا يتم إلا به: ومن تركه فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة وأوجب على نفسه النار: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة: ١٩٥).

ولن ينال المؤمن البر حتى ينفق ما أمره الله به وليس ما تجود به نفسه: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: ١٧٧).

وهذه النفقات يأخذها الله (معنوياً)، ولذلك فقد أطلقت عليها آيات أخرى أنها قرض حسن لله، سيسدده الله بفوائد يوم القيامة: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد: ١١).

والإنفاق في القرآن يشمل الإنفاق النقدي والعيني على دولة الإسلام، بميزانياتها المختلفة، متى ما اقتضت الحاجة ذلك، دون تقيد بمرور الحول، أو اكتمال نصاب، ومن ذلك تجهيز الجيوش ومحاربة الفقر وتنفيذ المشاريع الإنمائية والاقتصادية المختلفة، والنجدة في الأزمات والكوارث، وفي العصر الحاضر هو الممول لميزانية دولة الإسلام العامة.

وهذا الإنفاق ليس فيه خيار للمسلم إن أراد تفضل وأنفق، ويؤجر، وإن أراد امتنع، دون أن يصيبه غضب من الله على ذلك، بل إن الامتناع مخالف للإيمان: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

وتكون الصدقة في القرآن هي الزكاة التي تطهر الأموال: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (التوبة: ١٠٣).

والزكاة هي الصدقة التي تزكي وتطهر الأموال: وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (الشمس: ١٧- ١٨).

وتكون الصدقة والزكاة هما الإنفاق بمفهومه العام، الذي هو صنوٌ للإيمان لا يتم إلا به، سواءً سميناه صدقة: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد: ١٨).

أو سميناه زكاة: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (النمل: ٣).

أو سميناه إنفاقاً: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (البقرة: ٣).

وفي بعض الأحيان يمكن أن يشمل الإحسان: الَّذِينَ استجابوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران: ١٧٢).

طريقة أداء (إيتاء) الإنفاق

الإنفاق بمعناه القرآني، يدفع بلغة العصر لتمويل ميزانية دولة الإسلام السنوية، بنسبة مئوية ثابتة من الدخل لكل شخص قادر: لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (الطلاق: ٧).

بحيث تغطي هذه الميزانية جميع تكاليف المشاريع الإنمائية الكفيلة بتوفير حياة كريمة لكل من يعيش في دولة الإسلام، وتغطي تكاليف كل مشاريع البنى التحتية والخطط الاستراتيجية للدولة، والتصنيع، الحربي لتجهيز الجيش المسلم، والمدني لتغطية الاحتياجات العامة. وبهذا يكون الإنفاق قد ذهب إلى من يستحقه بلغة عصرية تتوافق مع حكمة فرض الإنفاق في الآيات القرآنية، وبعيداً عن تعريفات واستنتاجات الفقهاء.

ومن ليس لديه دخل يفيض عن حاجته فليس عليه جناح: لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (التوبة: ٩١).

بل إنه سيستفيد من مشاريع الدولة الإنمائية والبرامج التنموية التي تقدم إلى المحتاجين.

وفي الحالات الطارئة والكوارث الطبيعية التي تزيد نفقاتها عما رصد لها في

الميزانية السنوية، يتوجب على المسلمين أن يدفعوا المال والعين لمواجهة تلك الحالات الاستثنائية، كل بما تجود به نفسه، فإن بقيت حاجة إلى المزيد، يفرض على كل فرد نسبة تتناسب مع دخله، كما في الصرف على الميزانيات العامة لدولة الإسلام. وفي العصر الحالي، يجب أن يتم تخصيص بنود في الميزانية لهذه الحالات يصرف منها على الكوارث بطريقة رسمية عن طريق أجهزة دولة الإسلام المختصة.

وكل ما يدفعه المرء لأشخاص بطريقة شخصية مهما كثر فهو إحسان وليس إنفاقاً، بلغة القرآن، ولو جاوز قيمة الإنفاق. أما الإنفاق فهو واجب الدفع وأعظم أجراً من الإحسان، ودفعه يكون حسب حاجات دولة الإسلام.

ولن ينال المسلم البر إلا إذا أنفق من أفخر ما يحبه من السلع والمنتجات، إن كان الإنفاق عينياً، وذلك في حالات الأزمات والكوارث مثلاً: لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فإن اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (آل عمران: ٩٢).

ولا يجوز بما دون ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة: ٢٦٧).

ويكون الإنفاق هو الصدقة وهو الزكاة، لأن الزكاة تزكية وتطهير للأموال: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (التوبة: ١٠٣).

وتصرف ميزانية الدولة المجموعة من الإنفاق في كل مجالات الحياة، ومن أهمها:

الصرف على كل ما يتعلق بالتسلح وتجهيز الجيوش لدولة الإسلام: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة: ١٩٥).

مثل الصناعات الحربية وتصنيع السلاح وتدريب المحاربين: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (الأنفال: ٦٠).

الصرف على علاج المشاكل الآنية والسريعة للفقر والعوز والحاجات العاجلة والطارئة لأفراد المجتمع المسلم الذين هم أهلنا وأيتامنا ومساكيننا وغيرهم: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: ١٧٧).

ولذلك يقبل في هذا المجال كل ما يمكن أن يستفيد منه المحتاج: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة: ٢١٥).

فيكون مالاً: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٦١).

ويكون عيناً، مثل المنتجات الزراعية والصناعية، والتي يجب أن تكون من أطايب ما نملك وليست مما فسد أو كان قديماً أو انتهت صلاحيته أو من الأنواع الرديئة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة: ٢٦٧).

ثم هناك مجالات أخرى أشمل يصرف فيها الإنفاق (أو ميزانية الدولة)، ومنها:

الصرف على الضمان الاجتماعي للعجزة والمقعدين وكبار السن والمتقاعدين ومن لم يجد عملاً: لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٧٣).

الصرف بوجه عام على كل ميزانيات الدولة الإسلامية المختلفة، وعلى كل المشاريع الإنمائية والبنية التحتية والخطط المستقبلية للدولة، الآني منها وقصير ومتوسط وطويل المدى. بكل ما تحتاجه من مصروفات. على اعتبار أن دولة الإسلام ليست دولة تسلط وتملك، ولكنها جاءت لتشرع للناس كيف يسيرون

حياتهم، وبالتالي فلن تستولي على الثروات القومية، بل ستتركها مشاعة بين الناس، ومن ثم على كل فرد في المجتمع أن يساهم بكل نفقات الدولة، بنسبة من الدخل تطبق على الجميع: لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (الطلاق: ٧).

حتى يتم ضمان التكافل الاجتماعي عبر برامج علمية تتيح لكل أفراد المجتمع المسلم الخدمات والضروريات وكل ما ييسر لهم مستوى من الحياة الكريمة، ولا يكون أي شخص دولة بين الأغنياء يرى ما لديهم ولا يستطيع امتلاكه: مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الحشر: ٧).

وأجر الإنفاق لن يكون على شكل ربح دنيوي فقط عما ساهم فيه لدفع عجلة اقتصاد الدولة، ولكنه قرض حسن من المسلم لله سيحصل على فوائده الأعظم في الآخرة: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد: ١٨).

ولذلك قرن الإنفاق بالإيمان: وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً (النساء: ٣٩).

لأن الله خلق الخلق ويعلم ما في أنفسهم ويعلم أن الإنسان محب للشهوات المادية: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (آل عمران: ١٤).

وأن من لم يستطع الحصول عليها بالحلال ويجد أمامه طريق آخر للحصول عليها فمن المرجح أنه سيسلكه.

ولذلك جعل من أهم الطرق التي يصرف فيها الإنفاق هو تأليف القلوب: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٦٠).

وكل شخص مسلم إذا احتاج عرضاً مباحاً من الدنيا متوفراً عند كثير من الناس

غيره ولم يستطع الحصول عليه فهو من المؤلفة قلوبهم ويجب أن توفر حاجته من بيت المال حتى لا توسوس له نفسه بالحصول عليه من طريق غير شرعي. وبطبيعة الحال توفير هذه الحاجات والاحتياجات يكون بشكل منظم وعبر قوانين عادلة وعلى مستوى الدولة.

وليس من الإسلام أن يقال للمعدم أن يبقى معدماً، وأن ليس بالضرورة أن يأكل فاكهة الموز إذا لم يجد قيمتها، أو يرضى بدخل شهري ضئيل لا يكفي معيشة عائلته ليوم واحد، فيما يتمرغ بعض الفقهاء بالمتع الدنيوية ويطوفون الدنيا شرقاً وغرباً بهبات وعطايا ثم يقول أحدهم بأن على الفقير الذي لا يجد ما يكفي للسفر أن يقضي الصيف في بيته، رداً على سؤال وجه إليه في برنامج تلفزيوني، سأله فيه رجل فقير كيف يمكن له أن يستمتع بالصيف كما يفعل بعض الناس وهو لا يملك ما يكفي لقوت يومه.

ودولة الإسلام لا تحتكر الثروات الوطنية ولكنها تكون للمواطنين على شكل شركات مساهمة يمتلك المسلمون أسهمها.

ويكون في دولة الإسلام برامج عملية فعالة للقضاء على الفقر، وإبقاء دخل الفرد على مستوى يفي بتأمين حياة كريمة لصاحبه ومن يعول.

وهكذا يصل المجتمع المسلم إلى الصورة التي رسمها الله لهم ليكونوا عليها: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاستغلظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الفتح: ٢٩).

وسيصبح شطأ دولة الإسلام في هذه الحالة غليظاً اقتصادياً، لأن توفر السيولة المالية وتدوير المال بين الناس يقوي حركة الشراء ويرفع من مستوى المعيشة، وإذا زاد المال المتوفر بين أيدي الناس زادت مساهماتهم فيما يدفع لحاجات الدولة من جهة وما يشترونه من سلع من جهة أخرى، وبالتالي أمكن للتاجر الذي ساهم بالإنفاق من أن يستعيد كل ما دفعه للمساهمة بميزانية الدولة عن طريق حركة البيع

النشطة أكثر وسيعوض كل ما خسره عن طريق الإنفاق، حتى ولو كان مجال الربح في بضائعه قليلاً، لأن مبيعاته ستكون كبيرة، ولن يحتاج إلى أن يصل مجال ربحه لدائرة الجشع الممنوعة شرعاً. ولن يكون هناك موطئ قدم في دولة الإسلام للربا: يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: ٢٧٦).

كما سيصبح شطأ الدولة غليظاً عسكرياً وعلمياً لأنه سيكون لدى الدولة المال الكافي للعلم والبحوث والتصنيع. وسوف يغيظ الكفار وضع المسلمين في دولتهم، وسيحسدونهم على ما هم فيه.

ويكون المسلمون قد توصلوا، بإرشاد من الله، إلى أهمية تدوير المال عبر الإنفاق فساهموا في التكافل الاجتماعي من جهة وزادت مبيعات التجار من جهة أخرى ومكاسبهم، وهذه فطنة وذكاء وحكمة في الدنيا ونجاة من النار في الآخرة، دلنا عليها القرآن قبل أن تظهر للوجود جميع النظريات الإدارية والمالية الحديثة، وقال بأنها تغني الفقير وتكسب التاجر وتحمي المجتمع من الربا، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (البقرة: ٢٦٧-٢٦٩).

ولكن المسلمين وللأسف الشديد أطاعوا الشيطان، وقالوا بأن الربا يمكن أن يحل المشاكل الاقتصادية، وهذا لم يحصل لهم. فعم الفقر مجتمعاتهم على الرغم من الأموال الهائلة والثروات التي تنعم بها بلادهم: . . .ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتهى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إلى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. البقرة: ٢٧٥).

ولم يفطنوا لعرض القرآن بأن الإنفاق وحده ينشط البيع ويحقق الأرباح على المدى الطويل للمنفق والمستفيد: يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: ٢٧٦).

ولن يكون المسلمون بحاجة إلى أي تعامل ربوي على الإطلاق، لأن المحتاج ستكفله الدولة ولن يضطر للاستدانة والتعرض للربا. وهذا يتحقق فعلياً على أرض

الواقع لأن من قاله هو الله، فصدق الله العظيم فيما قال عن الإنفاق، وصدق الله في كل آية: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (الجاثية: ٦).

ويكون الإنفاق طارداً للربا من المجتمع، وإن وجد الربا في أي مجتمع فهذا يعني أن الإنفاق قد طرد.

ولكن المسلمين تبنوا النظام الرأسمالي، والذي لا يقوم على حماية الفقير ورفع مستواه الاقتصادي والتكافل الاجتماعي بين الناس، ولكنه يقوم على استغلال الفرص للربح المادي، وكل من عانده الحظ مادياً فليس له الحق بالخدمات العامة التي يحصل عليها الغني أو الحياة الميسرة التي يعيشها، فالدنيا مصالح وشطارة وليس في التجارة الرأسمالية أي مجال لمشاعر الرحمة.

ولذلك جاء التعامل بالربا في تلك المجتمعات، وكانت النتيجة أن أصبح إحدى الوسائل لتنافس الأغنياء على سحب ما بقي بأيدي الفقراء من مال، فازداد الفقير فقراً، ولم يجد في دول المسلمين من يحميه ويسد حاجته، وازداد الغني غنى ولم يستطع الوصول إلى القناعة، بل زاد جشعه أكثر مع كل درهم يجنيه.

الركيزة الرابعة: عمارة الأرض والحفاظ على البيئة

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (يونس: ١٤).

سعي الإنسان لإشباع حاجاته أحدث ضغطاً متزايداً على كل المظاهر البيئية من خلال سوء استغلال ما تجود به الطبيعة من موارد، وإنتاج كميات هائلة من الملوثات التي تجاوزت قدرة الطبيعة للتخلص منها. إضافة للصيد الجائر والزحف البشري الذي أدى الى إختفاء العديد من الكائنات البرية، وإحداث خلل في التوازن البيئي. كما أن التوسع في التصنيع أدى للتلوث الكبير الذي يحدث في الانهار والبحار والمحيطات نتيجة لإستخدام هذه المناطق كأماكن للتخلص من المياه العادمة والصناعية والنووية. ومثل ذلك الاستخدام الغير منظم للمبيدات الحشرية لمكافحة الأفات، الذي أدى الى القضاء على العديد من الكائنات الحية الدقيقة.

ولأن دولة الإسلام لا تسيرها الرغبات الشخصية، ولكن سياساتها نابعة مما رسمه لها كتاب الله، فكان يجب أن تكون الحامي الأول للتوازن البيئي: وَالأَرْضَ

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. (الحجر: ١٩-٢٠) فالشيئ الموزون المقصود به ما يعرف الآن بالتوازن الفطري البيئي، والذي يجب الحفاظ عليه وعدم الإخلال به. والمخلوقات التي لسنا لها برازقين هي كل الحيوانات والطيور في البر والبحر بالإضافة للحياة الفطرية النباتية والحشرية.

وكان من المفترض أن تكون دولة الإسلام هي الحامي الرسمي للبيئة، لأنه لا يمكن أن يكون هناك إسلام بدون دولة قوية تحمي الأرض من سفهائها الذين إن ترك لهم المجال فسيقضون على الحياة فيها: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. (الأنبياء: ١٠٥) لأن الله جعل من أهم مسئوليات المسلم هو وراثة الآرض والمحافظة عليها وليس استنزافها: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. (الأنعام: ١٦٥) وأمر بأن تستغل موارد الأرض الطبيعية بصورة متوازنة تكفل العيش الكريم للناس وفي نفس الوقت لا تدمر البيئة: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. (القصص: ٧٧)

ومن أهم ما يجب على الإنسان المحافظة عليه هو الحياة الفطرية والحيوانية والنباتية، لأن هذه العوالم خلقت لغاية إلهية، كما الإنسان: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. (الأنعام: ٣٨)

وقد أوجد الله في الارض ما يكفي لكل العوالم من أرزاق، فليس من حق الإنسان أن يقضي على تلك العوالم مباشرة بالقتل أو بطريق غير مباشر بتدمير بيئاتها: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ. (هود: ٦)

وحذر الإسلام من كل من يسعى لإفساد في البيئة واختراع ما يضر بالإنسان أو الحيوان والحياة النباتية والفطرية بأي وسيلة: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي

الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ. (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥) وإذا لم يرتدع فيجب أن يعاقب: إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. (المائدة: ٣٣)

فالإنسان خليفة الله في الأرض، والمحافظة على الأرض أول مسئولياته: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. (يونس: ١٤)

ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً ما لم يكون مسئولاً كفرد وكدولة عن المحافظة على ما استخلفه الله عليه، فكان كل من يفسد في الأرض أو يسمح بفسادها فليس بمسلم: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ. (ص: ٢٨)

وبما أن الديموقراطيات الحديثة تهدف إلى خدمة الرأس مالية، بأي وسيلة، والغاية عندها تبرر الوسيلة، فإن خرق الأوزون وكل الملوثات البيئية نتاج صناعي ديمواقراطي، يسبب السعي وراء الربح المادي بغض النظر عما ينتج عنه من أضرار بيئية أو بشرية، ولذلك لم تتخذ الإحتياطات اللازمة للحفاظ على البيئة وللقضاء على التلوث لأنه يحد من مكاسب الشركات الصناعية العملاقة في الدول الديموقراطية. ولو كان هناك دولة إسلامية صناعية لوجب عليها أن تحافظ على البيئة والإنسان والحياة الفطرية على الأرض كواجب ديني وليس إلتزاماً أدبياً.

الركيزة الخامسة: الجهاد

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (الحج: ٣٩).

يعرف الفقهاء الجهاد بأنه: قتال مسلم لكافر غير ذي عهد، بعد دعوته للإسلام وإبائه (أي رفضه الدعوة)، إعلاءً لكلمة الله.

ويعتبر الحنابلة أن الجهاد في البحر أفضل من الجهاد في البر، لحديث أم حرام أن النبي نام عندها، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة (البخاري: ٦٨٥٠).

ويقول الفقهاء إن الحكمة من تشريع الجهاد تكمن في دعوة غير المسلمين للإسلام أو الدخول في ذمة المسلمين ودفع الجزية لهم وسريان أحكام الإسلام عليهم. وبذلك ينتهي تعرضهم للمسلمين واعتداؤهم على بلادهم، ووقوفهم في طريق نشر الدعوة الإسلامية، وينقطع دابر الفساد.

ويقول الفقهاء إن حكم الجهاد فرض في الجملة، وقال ابن عبد البر هو فرض كفاية مع الخوف، ونافلة مع الأمن.

ويكون فرض عين إذا التقى الجمعان، وإذا هجم العدو على قوم بغتة. وكل شخص يأمره الإمام بالنفير يلزمه الخروج، إلا من له عذر قاطع.

وقال الفقهاء بأنه لا يجوز الجهاد من دون إذن الوالدين، أو إذن الدائن، أو إذن الإمام، بينما يجوز الجهاد مع سلطان جائر أو ظالم أو فاسق.

ويجيز بعض الفقهاء الاستعانة بغير المسلم في الجهاد، إذا كان عددهم قليل ويمكن السيطرة عليهم فيما لو حاولوا خيانة المسلمين، أو في الأعمال المساندة (اللوجستية) شريطة أن يخالفوا معتقد من يحاربهم المسلمون.

واشترط الفقهاء الذكورة في الحالات العادية للجهاد، حتى لا يفتتن بهن الرجال، والخوف من ظفر العدو بهن واستحلالهن، ولأنهن قد يتعرضن للضياع، ولأنهن لسن من أهل القتال لاستيلاء الخور والجبن عليهن.

ولكن الحنابلة يستثنون امرأة الأمير لحاجته إليها، أو امرأة طاعنة في السن لمصلحة فقط.

لا يجب الجهاد على خنثى مشكل لأنه لا يعلم إن كان ذكراً أم أنثى.

ويقول الفقهاء إن كل شخص في بلاد الكفار المحاربين للمسلمين يجوز قتله ما عدا النساء والصبيان والشيوخ، بينما قال البعض الآخر يجوز قتل الشيوخ. وكلا الفريقين أورد أحاديث منسوبة إلى الرسول تؤيد ما ذهب إليه.

ولا يقتل الراهب في صومعته، ولا أهل الكنائس الذين لا يخالطون الناس.

أما ما عدا ذلك فيقتل كل من يخالط الناس، فيقتل حتى المجنون إذا فاق، والمريض لأنه لو برؤ كان قادراً على القتال، ويجهز على الجريح. وحتى غير المحارب، مثل الفلاح فيقتل عند الشافعية، لدخوله في عموم المشركين.

وكل من قتل من لا يحل قتله من الكفار، فعليه التوبة والاستغفار فقط كسائر المعاصي.

أما الأسر فيجوز أسر النساء والصبيان، وسبيهم، والأسرى يختار إمام المسلمين فيهم بأربعة أمور: القتل، الفداء، الاسترقاق، والمن.

ويجوز إتلاف أموال البلاد المحاربة وقتل حيواناتهم وقطع أشجارهم بحجة عدم الانتفاع بها. وحتى في حالة عدم الحرب، فيجيز الحنفية والمالكية عقر دوابهم لأن فيه غيظاً لهم وإضعافاً لقوتهم.

ولا ينتهي قتال غير المسلمين إلا في الحالات التالية:

بالنسبة إلى اليهود والنصارى والمجوس فلهم خيار الدخول في الإسلام أو إعطاء الجزية للمسلمين. أما من سواهم من الكفار فليس لهم خيار إلا الإسلام، ولا تقبل منهم جزية.

هذا باختصار ما يقوله الفقهاء في الجهاد، حسبما ورد في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، أما الذي يقوله القرآن عن الجهاد فشيء مختلف!

الجهاد في القرآن

كلمة جهاد في القرآن تأتي وكأنها مرادفة للقتال الدفاعي عن النفس، بمعنى أن المسلم لا يبدأ قتال الناس، ولكن عندما يحاربه الناس يجب أن يدافع عن نفسه بقتال هجومي لا رحمة فيه ولا هوادة. مثل الرياضات الدفاعية التي تعلم الإنسان صد الهجوم من الغير، وذلك بإصابة المهاجم إصابة بليغة أو قاتلة.

ومتى ما ناصبت الإسلام العداء، دولة أو مجموعة أو مجتمع أو أفراد، سواءً بشن حرب فعلية عليه أو منعت انتشار دعوته أو نشرت دعايات مضادة له أو أظهرت أي تصرف محسوس من العداء، فقد وجب قتالها حتى القضاء عليها أو قبولها بوقف الحرب الحسية أو النفسية أو الإعلامية على الإسلام ودعوته بأي شكل من الأشكال. فإن هي نقضت العهد بعد إبرامه فيجب محاربتها وعدم قبول الهدنة مرة أخرى حتى تستسلم لدولة الإسلام. وإذا ما استسلمت وجب فرض الجزية عليها، وهي ضريبة إذلال لها لأنها غدرت بعهدها مع الله المتمثل في دولة الإسلام. وهذا ما سيتم إيراد الأدلة القرآنية عليه في الأسطر المقبلة.

الأسباب المؤدية لإعلان الجهاد

١- في الأحوال العادية يجب على دولة الإسلام أن يسود علاقاتها كدولة بالدول الأخرى، وعلاقة أفرادها بكل الناس العدل والسلام والاحترام المتبادل والإحسان في التعامل: لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الممتحنة: ٨).

وإذا ما سار نشر دعوة الإسلام بين الناس وفي كل الدول بطرق سلمية فلن يكون هناك داع لأن تقع الحرب بين دولة الإسلام وغيرها، بل إن التعاون وتبادل المنافع والخبرات يجب أن يتم بين الناس في دولة الإسلام وغيرهم في المجتمعات الأخرى بغض النظر عن العقائد.

ولكن هذا الوضع يختلف مع من يعادي دولة الإسلام لأنها مسلمة أو يقف دون نشر الدعوة في مجتمعه: إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (الممتحنة: ٩).

فيكون الدفاع عن إنشاء وبقاء دولة الإسلام أول أسباب إعلان الجهاد.

وهذا ما تبينه أول آية فرض فيها الجهاد: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (الحج: ٣٩).

لأن المسلمين عذبوا وضيق عليهم في مكة ولما هاجروا إلى المدينة لم تكف قريش عنهم، وسعت بكل الطرق لحربهم، معنوياً بإشاعة الأكاذيب حولهم في مواسم الحج وغيرها، وفي العمل مع يهود المدينة والأعراب والقبائل الأخرى للتضييق عليهم فعلياً، في محاولة للقضاء عليهم. فجاء الوحي بفرض الجهاد على المسلمين للذود عن دين الله وضمان بقائه.

ولو لم يقف المشركون ضد نشر الدعوة فلن يقاتلوا ولو بقوا على كفرهم: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج: ٤٠) وهذا السبب باق إلى يوم القيامة.

٢- ومن أسباب فرض الجهاد كسر شوكة المحاربين لدين الله. لأن بناء دولة الإسلام لن يتم إلا بدحر جنود الشيطان الذين يحاولون القضاء على الدين في مهده: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (النساء: ٧٦).

لذلك فحرب كهذه دفاع عن دين الله والتخلف عنها تخلف عن دين الله يوجب العقاب الإلهي: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (النساء: ٨٤).

٣- ومن الأسباب الموجبة للجهاد محاربة كل من يقف ضد انتشار دعوة الإسلام: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ (إبراهيم: ٣).

وذلك بمطاردة المسلمين أو التضييق عليهم أو الحد من نشاط المسلمين وممارساتهم الدينية بأي شكل من الأشكال. سواءً في دولة الإسلام أو ضد المسلمين في دول كافرة. لأن دولة الإسلام معنية بكل شخص مسلم في أي مكان من الأرض: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنفسهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الأنفال: ٧٢).

ومنع انتشار الإسلام أو محاولة القضاء عليه فيه ظلم لبقية الناس الذين قد يسلموا لو وصلتهم الدعوة، وينقذوا أنفسهم من نار جهنم. ولذلك وجبت محاربة كل من يقف بوجه نشر الدعوة بلا هوادة: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً. إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا (النساء: ١٦٧- ١٦٩).

وكان بعض الصحابة غير مدركين للمغزى الحقيقي وراء فرض الجهاد، وهو السماح بنشر الإسلام والقضاء على أعدائه الذين يحاولون القضاء عليه، ولذلك فضلوا الحصول على الغنائم المادية: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (الأنفال: ٧).

وحتى الرسول حذره الله من أن يستغل الحرب للكسب الشخصي: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (آل عمران: ١٦١).

فالحرب ليست لأي دافع دنيوي بل لنصرة الدين ونشره، رغم أنف من يقف ضده: وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال: ٧-٨).

٤- ومن أهم أسباب فرض القتال على المسلمين زمن الرسول هو إنقاذ المسلمين المستضعفين الذين بقوا في مكة تحت رحمة كفار قريش ويودون الخروج منها: وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (النساء: ٧٥).

وهو ما يعني أن الجهاد في كل زمان يكون لتخليص المسلمين من هيمنة الكفار أو المتسلطين، وإنشاء دولة إسلامية مهيبة الجانب. وضمان أن يعيش المسلم في أي مكان ولو كان خارج حدود دولة الإسلام حراً في كل ممارساته الدينية وفي نشاطه الدعوي للإسلام، وكل من يتعرض له فعلى دولة الإسلام الدفاع عنه وحمايته، ولو أدى لنشوب حرب بينها وبين تلك الدولة التي يعيش فيها بعض المسلمين المتضررين أو المضطهدين، ولو كان شخصاً واحداً.

وكان السبب وراء محاربة الرسول للغساسنة ـ الحكام المُنصّبون من قبل روما، لحكم العرب في الشام ـ هو قتلهم الرسول الذي بعثه صلى الله عليه وسلم لدعوتهم للإسلام. فكانت معركة مؤتة، تلاها جيش أسامة بن زيد الذي جهزه الرسول قبل موته، وكان يضم جل الصحابة من قدماء المهاجرين والأنصار. ثم تتالت الجيوش الإسلامية حتى قضي على الغساسنة وساداتهم الرومان في كل بلاد المشرق العربي. ومبعوث رسول الله كان الحارث بن عمير الأزدي (حسبما ذكر ابن حجر في ترجمته للحارث في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة).

فالجهاد يجب أن يقوم من أجل مقتل مسلم واحد، أو اضطهاده أو تعرضه

للأذى، مثلما يقوم الجهاد من أجل عامة المسلمين. لأن شخص مسلم واحد له من الأهمية ما لكل المسلمين مجتمعين، وإيذاء فرد مسلم واحد يوازي إيذاء كل المسلمين.

وفي حال عجز دولة الإسلام عن حماية المسلمين في أي دولة كافرة، تضيق عليهم وتسعى لتفتنهم في دينهم، فإن البقاء تحت ذلك الحكم معصية كبرى في حق المسلم، وعليه إما محاربة ذلك الطاغية فإن لم يستطع فليهاجر إلى بلد آخر: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أنفسهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (النساء: ٩٧).

٥- ومن أهداف فرض الجهاد، القضاء على تسلط الكفار على دين الله، وإبقاء دولة الإسلام عزيزة مهيبة الجانب: لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (الأنفال: ٣٧).

٦- ومن أهم أهداف فرض الجهاد تحقيق السعادتين للمسلمين، الجنة في الآخرة: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (الصف: ١٢).

والنصر والتمكين لدولة الإسلام في الدنيا: وَأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (الصف: ١٣) لتفرض دستورها الذي سيضمن المنعة والعزة والسعادة الدنيوية للمسلم: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور: ٥٥).

ضوابط وأخلاقيات الجهاد

جاء التأكيد في القرآن على أن القتال يوجه فقط لمن يحارب دولة الإسلام أو يمنع انتشار الدين: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فإن اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (الأنفال: ١٣-١٤).

ولا يحارب الناس لأنهم لم يدخلوا الإسلام: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (الدخان: ١٧-٢١).

فليس مهماً أن يؤمنوا ولكن من المهم أن يفسحوا المجال لانتشار الدعوة ولا يقفوا حائلاً دون ذلك.

فالقتال يكون لمن يقف ضد قيام دولة الإسلام، ولا يجوز أن نقاتل من لا يحارب دولة الإسلام ولا يقف ضد قيامها ولو كان كافراً: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة: ١٩٠).

ويكون الجهاد فرض لقتال غير المسلمين، ليس لأنهم لم يؤمنوا بدعوة الإسلام، ولكن لأنهم لا يريدون أن تنتشر الدعوة وتصل لأناس قد يؤمنوا بها، أو لا يريدون أن تقوم دولة للإسلام.

لأن الدين ليس حكراً على أحد بل هو دين الله ويجب أن يصل إلى الناس أجمعين وبعد ذلك لكل شخص كامل الحرية في الإيمان أو البقاء على الكفر مادام لم يقف ضد انتشار الدعوة: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فإِن انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة: ١٩٣).

وهذا يشمل حماية المسلم ولو كان فرداً واحداً يعيش في بلاد غير مسلمة، وتمكينه من أن يمارس كل ما يأمره الإسلام به بكل حرية، على أن يكون التشريع الإسلامي قطعي الثبوت. فلا تقاتل دولة لأنها أصدرت قانوناً بحلق اللحى، ولزم المسلم فيها أن يحلق لحيته، أو أن تلك الدولة أصدرت قانوناً بمنع غطاء المرأة لوجهها، فلزم المرأة المسلمة هناك أن لا تغطي وجهها. لأن حلق اللحى، وغطاء وجه المرأة اختلف الفقهاء في تشريعاتهم حولها، بينما يخلو المصدر القطعي الثبوت للتشريعات الإسلامية، القرآن، من أي حكم لها، مما يعني إباحة حلق اللحية وكشف الوجه. ويكون كل ما لم يرد فيه حكم شرعي من القرآن فلا يوجب الجهاد.

كما أنه لو منع مسلمون في بلاد غير إسلامية من إقامة الصلاة في مسجد لم يُبنَ بتصريح رسمي من تلك الدولة، فإن هذا لا يستوجب إعلان الجهاد على تلك

الدولة بل يجب توجيه اللوم للمسلمين لأنهم خالفوا قاعدة إيمانية ثابتة وهي الأمر بالمعروف عن طريق القدوة الحسنة، والتحايل على الأنظمة أو مخالفتها يعني نقضاً للعهود وهو محرم شرعاً.

وإذا ما منع داعية إسلامي من الدعوة لأنه استغل مهنته لتجاوزات غير أخلاقية أو منافية للنظم والقوانين المعمول بها في تلك الدولة، فيجب معاقبة ذلك الداعية من قبل دولة الإسلام ومنعه من تمثيل الإسلام لأنه ليس بمسلم.

بينما لو منع الناس من الصلاة في مسجد بني حسب الأنظمة المعمول بها في تلك الدولة، ولم يستغل المسجد لأي نشاط مخالف لأنظمة البلد، وجاء المنع تعسفاً أو لأنهم مسلمون، أو منع إعطاء تصاريح لإقامة مسجد للمسلمين في بلاد غير مسلمة، على الرغم من استيفاء الشروط اللازمة لاستخراج التصريح، أو منع الداعية المتمسك بكل مكارم الأخلاق والمتقيد بكل القوانين من أن يدعو إلى دين الله، عندها يجب إعلان الجهاد وإجبار تلك الدولة على احترام المسلمين وشعائرهم وإفساح المجال لهم لعبادة الله والدعوة لدينه بحرية.

والحديث عن حماية الأشخاص المسلمين الذين يعيشون في دول كافرة يقودنا لضرورة وضع أسس واضحة من واقع الكتاب تحدد شخصية المسلم الذي يحق له أن يحمل تعريف «مسلم» والذي يحق له الحماية من دولة الإسلام، وبالتالي إعلان الجهاد لو تمت مضايقته، وهذا فيه تطهير للإسلام ممن يدعون الانتساب إليه ويعطون انطباعات سيئة ليست من الإسلام، في سلوكهم ومظاهرهم وتعاملهم وعباداتهم، وكل شيء. مما يؤدي لكراهية الناس للإسلام وعدم قبولهم الدخول فيه.

الذين يجب قتلهم وقتالهم إذا قامت الحرب

عدم إيمان الناس بالإسلام ليس سبباً كافياً لمحاربتهم، ولم يفرض الجهاد لقتالهم، ولكن الجهاد فرض على كل من أعلن الحرب على الدين علناً وبالجيوش، أو بالدسائس والدعايات المغرضة. أما بقية الناس المسالمون، والذين لم يمنعوا انتشار الإسلام، فيجب معاملتهم بالحسنى والإحسان والإنسانية ولو لم يؤمنوا بالإسلام. مع ضرورة احترام المواثيق الموقعة ولو مع العدو المحارب، ولا يجوز للمسلمين نقضها: إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أو جَآؤُوكُمْ

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أو يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فإن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (النساء: ٩٠).

وإذا نشبت الحرب بين المسلمين والعدو فلا يجوز أن يقاتل المسلمون إلا من يحمل السلاح عليهم، أما من لم يحمل السلاح فلا يجوز قتله أو أذاه بحجة أنه ليس مسلماً، لأن الحرب ليست لفرض الإسلام على الناس بالقوة، بل لدفع أذى الناس عن الإسلام والسماح بقيام دولته وانتشار دعوته: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء: ٩٤).

ويكون من الواجب عدم التعرض لأملاك الناس في حال اجتياح المسلمين لدولة العدو ولا سبي نسائهم وأطفالهم.

وإذا أبدى الكفار المحاربون للمسلمين رغبة صادقة في وقف الحرب وإبرام معاهدة سلام دائم مع المسلمين يتعهدون بموجبها باحترام الإسلام وعدم التعرض له ولا لدولته بسوء مع السماح للدعوة بالانتشار عبر ديارهم وعدم التعرض لمن رغب الدخول في الإسلام منهم، والموافقة على حماية دولة الإسلام لكل مسلم يعيش في بلادهم، فيجب على دولة الإسلام قبول العرض والتوقف الفوري عن القتال: فإن انتَهَوْاْ فإن اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (البقرة: ١٩٢)

لأن مشركي مكة أو غيرهم ممن شابههم في أي وقت لو ظهروا على المسلمين سيجبرونهم على ترك دينهم، وهذه فتنة أشد من قتل المسلمين. فقتل المسلم خسارة للدنيا ولكنه مكسب للآخرة، بينما ضياع الدين فتنة فيها خسارة للآخرة: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فإن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (البقرة: ١٩١).

وإذا تم الاتفاق على هدنة فلا يجوز لدولة الإسلام نقض الهدنة: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (براءة: ٤).

فإذا انتهت فترة الهدنة، فيجب العودة إلى قتال الأعداء بكل غلظة وشدة واستخدام كل السبل للتضييق عليهم اقتصادياً وعسكرياً وفي كل المجالات، فإن أذعنوا للإسلام فخلوا سبيلهم وارفعوا عنهم الحصار: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فإن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (براءة: ٥).

ولكن لو استغل الأعداء احترام المسلمين للمعاهدات والمناسبات الدولية ضد الإسلام، فإن على المسلمين قتالهم، ولو كان في ذلك تعد على تلك المعاهدات أو المناسبات.

فوقف القتال خلال الأشهر الحرم كان مناسبة دولية في شبه الجزيرة العربية، والمطلوب من المسلمين عدم القتال أثناءها، ولكن لو استغل الأعداء تلك المناسبة ضدهم فيجب أن يحاربوا: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أنفسكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (براءة: ٣٦).

وعلى المسلمين أن يحاولوا دائماً دعوة العدو المحارب للسلم ووقف الحرب والدخول مع دولة الإسلام في معاهدة سلام، ولذلك أمر الله رسوله بعد معركة بدر أن يعاود مناشدة قريش بالدخول في الإسلام: قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ (الأنفال: ٣٨).

فإن آمنوا فسيغفر الله لهم سالف أعمالهم، وإن بقوا على عنادهم وعدائهم للإسلام، فيجب على المسلمين حربهم لحماية الإسلام ممن يسعون للقضاء عليه: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فإن انتَهَوْاْ فإن اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الأنفال: ٣٩).

وليعلم المسلمون أن الله مولاهم: وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الأنفال: ٤٠)

وحتى إن أعلن غير المسلمين أنهم سيتوقفون عن محاربة الإسلام، ولو لم يسلموا، فيجب على المسلمين التوقف عن قتالهم، لأن الحرب شرعها الله لحماية الدين وليس للتهجم على غير المسلمين، أو إجبارهم على الدخول في الإسلام،

أو الخضوع لدولة الإسلام: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنفال: ٦١).

ولكن إن أعلنوا الهدنة لكسب الوقت وإعادة ترتيب صفوفهم أو لأي خدعة أخرى، فيجب عدم الاستجابة لهم ومواصلة حربهم: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (الأنفال: ٦٢).

لغة الحرب

قتل الكفار وسحق قوتهم إنما جاء بإرادة الله ومشيئته، والمسلمون قاموا بدور الأداة المنفذة فقط لتلك الإرادة، لأن الدين دين الله وليس دين المسلمين، وتوصيله للناس جاء من الله، وليس بناءً على رغبة المسلمين: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (الأنفال: ١٧-١٨).

وإذا نشب القتال مع الذين يحاربون دولة الإسلام ويقفون ضد قيامها، فإن للحرب لغتها، حيث يجب أن يقاتلوا بكل غلظة، فليس في الحرب مجال للمشاعر. بل يجب أن يفعل بالعدو ما كان يرنو لفعله بالمسلمين.

وإذا كانت قريش قد أخرجت المسلمين من مكة فعلى المسلمين السعي لإخراج قريش منها. وبما أن مكة بلد حرام فيجب على المسلمين ألا يبدأوا فيها القتال، ولكن لو قاتلهم المشركون فيها فعليهم قتالهم.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (البقرة: ١٩١).

وهذا يقاس عليه كل وضع في كل زمان.

والتعامل بقسوة في الحرب يؤدي إلى أن يرهب الأعداء جانب المسلمين، ولذلك نص عليه القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (براءة: ٧٣).

وتكرر ذلك في الآية ٩ من سورة التحريم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

وتكون الحرب شرسة وبلا هوادة أو رحمة، ولا يجوز موالاة أحد من العدو أو إظهار المودة له، سواءً اشترك في الحرب ضد المسلمين أم لم يشترك. فدولته أو قومه محاربون لله ويسعون لسحق دينه، وهو منهم. وكل من يحارب الله فلا يستحق أقل من أن يسحق: وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (النساء: ٨٩).

وقد جاءت الدعوة لقتال الأعداء بكل شراسة وغلظة لأن الكافر الذي يمنع انتشار الإسلام أو يحاول القضاء عليه يكون لم يظلم نفسه فقط بل ظلم غيره من الناس الذين قد يسلموا لو وصلتهم الدعوة، ولذلك وجب إزاحته من الطريق لكي تصل غيره دعوة الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً. إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا (النساء: ١٦٧-١٦٩).

ويجب ألا تقف القسوة عند حد ضد من يحارب المسلمين، ومن ذلك الحرب الاقتصادية والحظر التجاري، وضرب المصالح الاستراتيجية، وكل ما يشل قوة العدو، وبكل الأساليب والسبل: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (براءة: ٥).

وإذا نقض الأعداء المحاربون المواثيق الموقعة مع دولة الإسلام، سواءً المواثيق الخاصة بوقف الحرب، أو أي مواثيق أخرى، فيجب قتالهم بكل قسوة، ولا يبرم معهم أي معاهدة مستقبلاً، ولا توقف الحرب معهم حتى يتم كسر شوكتهم والقضاء عليهم: وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (براءة: ١٢).

والتعامل بمثل هذه القسوة مع ناقضي العهد يأتي لأنهم لو كانوا في موقع أقوى من المسلمين فلن يراعوا فيهم عهداً ولا ذمة: كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (براءة: ٨).

وفي حال تم التغلب على ناقضي العهد فيجب أن تفرض عليهم الجزية كنوع من الإذلال لهم.

قانون الجزية

كما سبق فإن ضوابط الجزية تتلخص في أنها تفرض على من عاهد دولة الإسلام أو عاهد جماعة من المسلمين وغدر بهم، أو نقض المعاهدة، هنا يوجب الإسلام الحرب عليه حتى يستسلم، وعدم قبول أي حل سلمي، أو وقف للحرب. وإذا استسلم فيجب أن تفرض عليه الجزية، مقابل الإبقاء على أفراده أحياء، وعدم التعرض لممتلكاتهم، فإن أبوا فبلادهم حل لجنود المسلمين.

ولا تفرض الجزية على أي عدو آخر ولو حارب المسلمين، لأن الجزية يقصد بها إذلال العدو الذي لا يحترم عهده وينقض ما تعهد به مع المسلمين ودولة الإسلام.

وسورة براءة بدءاً من الآية السابعة لا تتحدث عن مشركي قريش، بل عن اليهود، كما بينا في الحديث عن يهود خيبر. وتكون الآية (٢٩) من سورة براءة الآية الوحيدة في القرآن التي تذكر الجزية، تقول الآية: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

ويهود يثرب نقضوا العهد مع المسلمين في يثرب، فأخرجهم المسلمون منها، فلجأ بعضهم إلى خيبر، حيث آواهم اليهود هناك، وقد واصل يهود يثرب التآمر على المسلمين، دون أن يمنعهم يهود خيبر، فيكون يهود خيبر بموالاتهم ليهود يثرب ومعاونتهم لهم ضد المسلمين قد نقضوا العهد مع المسلمين. فجاء الحكم عليهم بالخيار بين أمرين، هما: القتال، أو دفع الجزية والإبقاء على حياتهم وممتلكاتهم.

والهدف من الجزية إذلالهم، لأنهم نقضوا المعاهدة التي ابرموها مع المسلمين، فتكون الجزية على كل من ينقض العهد مع المسلمين، وليس على كل من يحارب المسلمين.

وفي المقابل يجب على المسلمين احترام المعاهدات الدولية القائمة، إلا في حال أن فيها جوراً على المسلمين أو مناصرة لأعدائهم أو منفعة لهم ضد المسلمين، أو ضرراً على نشر الإسلام أو قيام دولته: . . .إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا استقاموا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (براءة: ٧).

ولقد أمر المسلمون في عصر الرسول باحترام المعاهدات التي كانت موجودةً بين القبائل العربية بوقف الحرب خلال الأشهر الحرم. ولكن لو حارب كفار مكة المسلمين أثناء الأشهر الحرم[١]، أو حاولوا أن يستغلوا توقف القتال لتأليب القبائل الأخرى على المسلمين، فعلى المسلمين محاربتهم.

أما لو لم يحاربوا المسلمين، ولم يقوموا بنشاط معاد لأهل الإسلام، فلا يجوز للمسلمين بدء الحرب في الأشهر الحرم حتى ولو كانوا في حال حرب مع قريش، لأن معاهدة وقف الحرب في الأشهر الحرم تتيح لكل سكان الجزيرة التنقل بسلام وأمن، وهي معاهدة دولية يجب على دولة الإسلام احترامها، واحترام أي معاهدات دولية أخرى: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (البقرة: ١٩٤).

وفي حال نقض الأعداء معاهدة مع دولة الإسلام أو مجموعة من المسلمين فإن هذا يعتبر إعلاناً للحرب على المسلمين، ويجب البدء بحربهم، ولو لم يهاجموا المسلمين ولا دولة الإسلام: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (الأنفال: ٥٦-٥٧).

وقد نزلت الآية في اليهود ولكنها قاعدة عامة لكل العصور.

وإذا اتضح أن العدو يسعى لخيانة معاهداتهم مع المسلمين، فيجب أن يسارع المسلمون بالاتصال بهم وتحذيرهم مغبة نقض المعاهدات، وأنه لو حدث، فسوف يعتبر إعلاناً للحرب على المسلمين، وسيقوم المسلمون بمهاجمتهم، ولن يقبل منهم أي عرض لوقف الحرب أو عقد معاهدات جديدة، وأن الحرب ستستمر حتى يستسلموا، وإذا ما استسلموا فسيفقدون استقلالهم وسيصبحون تحت الحكم الإسلامي، وسيدفع كل شخص جزية سنوية، علهم يرتدعون عن نقض المعاهدة وتجنب وقوع الحرب: وَإِمَّا تَخَافَنَّ

(١) الأشهر الحرم سماها القرآن كذلك لأنها محرمة عند العرب في الجاهلية، حيث تعاهدوا أن يتوقف فيها القتال بين قبائل جزيرة العرب، واحترام المسلمين لها جاء بناءً على ذلك، وإلا فليس لها أي قدسية أو ميزة خاصة في الإسلام، ولو صادف أن أحدها هو شهر ذي الحجة الذي يتم فيها الحج.

مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ. وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ (الأنفال: ٥٨-٥٩).

ومتى ما نقض العدو العهد فيجب التعامل معه بكل قسوة، لأنهم لو كانوا في موقع أقوى من المسلمين فلن يراعوا فيهم عهداً ولا ذمة: كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (براءة: ٨).

ولأنهم يهدفون لصد الناس عن دين الله: اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (براءة: ٩).

ولذلك فلن يراعوا العهد مع المسلمين ولن يحترموا لهم ذمة أو عهداً لو ظفروا بهم: لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (براءة: ١٠)

قوانين الأسرى

إذا كانت دولة الإسلام تحارب عدواً يمثل خطراً عليها، فيجب أن لا يحصل الجيش المسلم على أسرى، بل المطلوب هو قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء لإضعاف قدرة العدو المحارب وبث الرعب في نفوس جنده وإضعاف حالاتهم المعنوية.

ولأن أسر المحاربين وإطلاق سراحهم بعد ذلك لن يؤدي لإضعافهم لأنهم سيعاودون الحرب على المسلمين مرة أخرى. لذا فعندما قام بعض المسلمين بأسر بعض مقاتلي قريش في معركة بدر، كانوا يهدفون للربح الدنيوي والحصول على بعض المال مقابل إطلاق سراحهم، فنزلت هذه الآية: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ٦٧).

وبما أن الله عليم بخفايا النفس البشرية الضعيفة فقد بين للصحابة أهداف الحرب الاستراتيجية وتفضيل قتل المشركين على أسرهم في تلك المرحلة، وذلك للاستفادة من الدرس للمرات المقبلة. وفي الوقت نفسه تسامح مع ما حدث وأحل لهم الاستفادة من الغنائم والفداء مع أنه استمرار لما كان يحدث في حروب الجاهلية، التي تختلف في أسبابها وأهدافها عن الجهاد: فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الأنفال: ٦٩).

فكان السماح للمسلمين في بدر بفداء الأسرى استثناء لا يسمح بتكراره، وليس قاعدة. وبما أنه قد أصبح لدى المسلمين أسرى، فلتكن فرصة لدعوتهم إلى الإسلام مقابل تعويضهم ما فقد منهم وأكثر لتأليف قلوبهم للإسلام: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الأنفال: ٧٠).

لأن هدف الإسلام ليس الحرب بل نشر الدعوة. وإن حاولوا خداعكم فقد حاولوا خداع الله قبل ذلك: وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ٧١) ولذلك فيجب قتلهم (أمكن منهم).

أما إذا كانت دولة الإسلام ليست في بداية تأسيسها، وكانت قوية ومرهوبة الجانب، فيسمح بالأسرى، بل ويفضل الأسر على القتل، عسى أن يؤمن بعضهم أو يعجبهم التعامل الإنساني من المسلمين فيؤثرونه على ما يلقونه في دولهم ومن قومهم فيتوقفون عن حرب المسلمين، أو يدخلون الإسلام: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أعمالهُمْ (محمد: ٤) وهذه الآية نزلت على محمد بعد أن قويت شوكة دولة الإسلام.

وإذا حصل المسلمون على أسرى وانتهت الحرب، فيكون لدى المسلمين خياران لا ثالث لهما للتصرف مع الأسرى: إما أن يطلق سراحهم من دون مقابل، لتحقيق كسب إعلامي ودعائي للتعامل الإسلامي الإنساني، أو يطلق سراحهم مقابل فدية محددة. ويتم اختيار أحدهما حسب ما تقتضيه مصلحة دولة الإسلام في ذلك الوقت.

ولا يجوز استرقاق الأسرى أو التعامل معهم بأي طريقة غير إنسانية، أو إذلالهم.

اللجوء السياسي

اللجوء السياسي لأشخاص من دولة بينها وبين المسلمين حرب يقبل بشرط عرض الإسلام على اللاجئ فإن أسلم فله الحصانة الإسلامية، أينما ذهب وعاش،

وعلى دولة الإسلام حمايته والدفاع عنه في أي مكان، ولو كان في دولة كافرة، مثله مثل أي مسلم آخر أو مسلمة: فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (براءة: ١١).

وإن لم يسلم فتكون مدة اللجوء محدودة، بعدها يتم توصيله إلى أي مكان آمن يختاره، ولا يسلم إلى دولته حرصاً على سلامته. ولا يبقى في دولة الإسلام، لأنه كان من الذين أرادوا القضاء على الإسلام، ولم يسلم عندما عرض عليه الإسلام، فكيف يعطى عهداً بالبقاء والحماية وهو عدو لله ولرسوله: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ. كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ (براءة: ٦-٧).

التجنيد في الإسلام

لقد ابتدع الرومان فكرة الجيش النظامي المحترف، وذلك عندما أصبح لروما مستعمرات أجنبية بعيدة، ويتم توفير تكاليف ذلك الجيش من خيرات البلدان المستعمرة. ويكون وجود الجيش المحترف في وطن ما، لا يعني في لغة الإدارة، سوى أن الوطن نفسه يحتله نوع من الرومان (حسب ما يقوله الصادق النيهوم في كتابه صوت الناس ـ أين ذهب الجامع).

ويقول بأن الجندي المحترف ليس مقاتلاً بل حارس مسلح، إنه سيف معروض للإيجار، بموجب عقد صاغه الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد.

ويعمل العسكري حسب العقد الروماني بناءً على ثلاثة بنود، هي:

١- أن يقسم بالولاء لروما وليس للرومان. فهو سلاح في يد الإدارة ضد الناس.

٢- أن يتعهد بالعمل في الجيش لمدة خمس وعشرين سنة، مقابل مرتب شهري، ويحصل بعد تقاعده على بيت ومزرعة.

٣- أن لا يستخدم الجيش سلاحه إلا بأمر من الإمبراطور.

وكل الدول الإسلامية اليوم تتبع هذا النظام الروماني.

أما الفرق بين المجاهد المسلم في دولة الإسلام والجندي الروماني فيتمثل في التالي:

* أن المجاهد لا يدين بالولاء للحاكم ولا لأوامره ولكن لله وحماية دينه. فالحرب فريضة وليست مهنة.

* أن قرار الحرب في الجهاد لا يتخذه الإمبراطور بل الناس، والحرب تنشب بعلمهم وبقرارهم.

* أن الجيش النظامي يستمر حتى في حالات السلم، بينما يتم تسريح المجاهدين حال انتهاء المعركة في دولة الإسلام.

وعندما جاء الإسلام، لم يعمل بمنطق الرومان العسكري، فالجيش المسلم لا يتكون من جنود بمرتبات، ولا مرتزقة، ولكن يتكون من المسلمين الذين تصل درجة تقواهم إلى أن يبيعوا دنياهم بالآخرة ولا يمانع أحدهم أن يموت في سبيل الله: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (النساء: ٧٤).

فجاء الإسلام ليقول بأن على الجميع واجب الاشتراك في الجهاد: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٤٤).

فعلياً وإعلامياً ومساندة وتهيئة نفسية وفي كل مجال، رجالاً ونساء، كل بما يناسبه.

ويفهم من هذا أن دولة الإسلام ليس لها جيش نظامي ثابت، ينخرط فيه المرء منذ بداية حياته ولا يخرج منه إلا إذا تقاعد عن العمل، بل يجب تدريب كل أفراد المجتمع على المشاركة في الجهاد. وفي كل المجالات التي تحتاجها المعركة وليس فقط حمل واستخدام السلاح.

وفي هذا العصر يكون ذلك بشكل دوري، مثل أن يمارس كل مسلم ومسلمة قادر عاقل الأعمال التي يحتاجها القتال لعدد محدود من السنين، ولتكن بعد المرحلة الجامعية، بحيث يكون لدولة الإسلام جيش جاهز على الدوام من الشباب من الجنسين فيما بين الثانية والعشرين والسابعة والعشرين، يعملون في كل المجالات اللوجستية وإنتاج السلاح واستخدامه وكل المجالات الأخرى، ثم يستبدلون بالجيل الذي يليهم، ويعملون بمهن مختلفة مع بقائهم كجند احتياطيين في حالة احتياج جيش الإسلام لقوة أكبر. يقول تعالى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ

كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة: ١٢٢).

مع استمرار تدريب بقية الناس على أي أسلحة حديثة، بحيث يكون كل فرد مسلم عبارة عن جيش احتياطي يمكن الاستفادة منه في القتال لو دعت الحاجة: انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأنفسكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة: ٤١).

وفي أي وقت وزمان اضطر المسلمون للقتال، فإن عليهم القتال بكل ما أوتوا من قوة ووسيلة، ولا يتخاذلون لأي سبب من الأسباب، كالخوف من قوة العدو، حتى لا يكونون مثل بني إسرائيل الذين كانوا يطالبون بالسماح لهم بالجهاد فلما كتب عليهم تولوا إلا قليلاً منهم. أَلَمْ تَرَ إِلى الْمَلإِ مِن بَنِي إسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين (البقرة: ٢٤٦).

وإذا ما تحتم عليهم القتال فعليهم الاستعداد المعنوي والنفسي للمعركة، لأنه قد يكون هو العامل الحاسم لكسب معركة ضد عدو يتفوق عدداً وعتادا، وهو يوازي في أهميته الاستعداد في العتاد وفي الخطط العسكرية الاستراتيجية. لذا انتصر المسلمون بجيش مكون من ثلاثمائة رجل على جيش قريش الذي يزيد عليهم بأكثر من الضعف، لأن استعدادهم النفسي كان عالياً، وقد أمدهم الله بالملائكة الذين كان دورهم في المعركة نفسياً لرفع الحالة المعنوية للمسلم والعمل على انهيار معنويات كفار قريش، وسيحدث هذا لكل جيش مسلم يهدف للدفاع عن دولة الإسلام وحماية دين الله ودولته والمسلمين: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران: ١٢٣-١٢٦).

الاستعداد للحرب

دخول المسلمين الحرب ضد الكفار لا يعني ضمان النصر في كل معركة يخوضونها ضدهم. وهذا ما اعتقده بعض الصحابة الذين أصابهم الإحباط بعد هزيمة أحد: وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (آل عمران: ١٣٩).

لأن الإيمان وصدق القضية وحدهما ليسا كفيلين بكسب المعركة، ولكنهما كفيلان بكسب الحرب إجمالاً والنتيجة النهائية. وإذا قتل للمسلمين أهل وأصحاب أو خسروا معركة من المعارك فقد حصل لأعدائهم مثل ما حصل لهم، ولا يعني هذا هزيمة المسلمين، لأن النصر والهزيمة شيء متوقع في الحروب المستمرة، حيث من كان اليوم له فقد يكون الغد عليه، ولكن حروب المسلمين ضد من يحاربهم ستكون فيها الغلبة النهائية لهم، وستقوم دولة الإسلام: إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران: ١٤٠).

ومن فوائد مداولة الحرب بين المسلمين وأعدائهم أنها تمحص المسلمين، وتظهر من هو على درجة عالية من اليقين والإيمان، ممن يعتري إيمانه الشك: وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (آل عمران: ١٤١-١٤٢).

وقد كان من بين الصحابة من تمنى أن يقاتل الكفار، فلما فرض عليه القتال، وأصبح حقيقة، تراخى اندفاعه، وتمنى لو لم يكن هناك قتال، لأن القتال يعني الموت: وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (آل عمران: ١٤٣) وهذا الشعور قد يوجد في كل زمان بين بعض الناس.

ولكن لو فكر هؤلاء بأن الموت نتيجة حتمية على كل حي، وأن من لم يمت اليوم فسيموت غداً، وأن الموت إن تعجل في المعركة ففيه ضمان للشهادة الموجبة للجنة، أما البقاء لمدة إضافية في الدنيا فلن ينجي من الموت، ولكن الفرق أن من يمت على الكفر أو الشك بصدق الدعوة، فمصيره النار، أما من يمت وهو على يقين بوعد الله فهو في الجنة: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (آل عمران: ١٤٥).

ولذلك وجه القرآن دعوة للصحابة ولكل مسلم يقاتل في سبيل الله، بأن يكونوا مثل المؤمنين في أمم سابقة تعرضوا مع رسلهم لحروب ضد قوى الكفر وقاتلوا وقتلوا فما وهنوا وما ضعفوا: وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (آل عمران: ١٤٦).

وكان شعارهم الذي يجب أن يكون شعاراً لكل مقاتل في سبيل الله هو: وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (آل عمران: ١٤٧).

فجزى الله من بقي منهم في الدنيا خيراً ومن مات الشهادة: فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران: ١٤٨).

وليكن المؤمنون على ثقة بأن كل من يقاتل للدفاع عن قيام دولة الإسلام أو لإزالة كل ما يمنع نشر الدعوة، فإن الله يضمن لهم الفوز النهائي على أعدائهم، وهذا وحده عامل نفسي قوي التأثير على معنويات المسلمين: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (آل عمران: ١٥١).

وتدويل المعارك تدريب نفسي لتحمل الخسارة عندما تحدث وتقبلها على أنها واقع دنيوي، يستفاد منها لتفادي الأخطاء لتحقيق النصر في المعارك القادمة، وليست نهاية المطاف ولا خسارة للحرب.

ويجب على المسلمين أن يكونوا مستعدين نفسياً وبدنياً وتدريباً وإعلاماً، وفي التسلح والتجهيز والعتاد والخطط والتموين وكل ما يلزم لكسب الحرب، فإن فعلوا فسينصرهم الله، وهذا النصر شهادة للمقتول وعزة لمن يبقى على قيد الحياة، ولولا أن الله أرسل رسوله بالدين وأمره بإقامة دولة للإسلام ونشر الدعوة، لما كان هناك جهاد واستشهاد وغنائم.

أما الهزيمة في المعركة فلم يقدرها الله على المسلمين، ولكنها تعود إلى أسباب بشرية، إما لسوء العتاد والإعداد أو لسوء الاستعداد النفسي وقلة الإيمان أو غيرها من أسباب كان يجب على المسلمين التأكد من توفرها قبل خوض المعركة:

مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا (النساء: ٧٩).

والاستعداد النفسي بكل السبل الممكنة وبأحدث الأساليب المؤثرة ليس فقط هاماً في معركة واحدة بل هو أحد الأسس التي تحقق الانتصار في الحرب، ولذلك أوجبه الإسلام، وإذا استعد المؤمنون نفسياً بكل ما يستطيعون، فالله سبحانه سيتولى تشجيعهم معنوياً أثناء المعركة: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (الأنفال: ٩).

لأن ارتفاع الحالة المعنوية عامل جوهري للنصر في المعارك: وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ١٠).

وإلا فلم تشارك الملائكة فعلياً في القتال مع المسلمين في أي من معاركهم، بل كان دورهم نفسياً لرفع معنويات المسلمين وإحباط المعنويات لأعدائهم. ونتيجة لذلك غلب المسلمون النعاس قبيل معركة بدر كدليل على ارتفاع درجة الارتياح النفسي الكبير لديهم: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (الأنفال: ١١).

فكان على الملائكة الدور النفسي في المعركة: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ (الأنفال: ١٢).

وعلى المسلمين الدور العسكري: فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (الآية السابقة نفسها).

ومن التهيئة النفسية لمعركة بدر، ما ذكر في الآيتين ٤٣، ٤٤ من سورة الأنفال: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ.

وبجانب الإعداد النفسي يكون الإعداد والاستعداد في الخطط والتسلح والتموين، بأفضل ما يتناسب مع العصر. وعلى دولة الإسلام الاعتماد على ذاتها في التسلح وبناء ترسانتها الحربية على أحدث ما توصل إليه العلم، ولن ينصرنا الله

لو أهملنا هذه العوامل مهما كانت درجة إيماننا: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (الأنفال: ٦٠).

وهناك الاستعداد الخططي، فيما يتعلق بإعلان الحرب والطريقة التي يجب أن تسير عليها، وكل ما يتعلق بتمويل الجيش، وهذا يجب أن يتشاور المسلمون المختصون في شؤون الحرب ويصوتوا عليه، فإذا وصلوا إلى قرارات نهائية فلينفذوها وليتوكلوا على الله: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩).

وإذا ما فرضت الحرب على المسلمين فإن قلة العدد أو العدة ليست سبباً كافياً لتجنبها، أو حتى تأجيلها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (الأنفال: ٦٥).

وهذا لا يلغي حقيقة أن الاستعداد بالعتاد والرجال هام لكسب المعركة: الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال: ٦٦).

وهو ما يعني أن المسلمين يأثمون إذا تأخروا عن تصنيع عتادهم الحربي وتجهيز جيوشهم بكل ما يجعلها جاهزة على الدوام. ومن ذلك التدريب المتواصل لجنود الإسلام، وتطوير الخطط الحربية.

والتفوق في العدد والتزود بأحدث التقنيات العسكرية والتدريب والتموين والخطط الحربية، كل هذه لا تكفي لكسب المعركة، إذا لم يصاحبها إرادة وقوة إيمان بالقضية.

فقد هزم جيش المسلمين في حنين على الرغم من أنهم كانوا أكثر من أهل الطائف وأقوى عتاداً، لأن معظم الجيش المسلم ممن انضوى تحت راية الإسلام حديثاً ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وقد جاؤوا طلباً للغنائم كما تعودوا في

جاهليتهم: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (براءة: ٢٥).

ولم يثبت في أرض المعركة إلا القلة المؤمنة حقاً، وتغلبوا على عدوهم على الرغم من أن عددهم وعتادهم كان أقل من عدوهم: وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (براءة: ٢٦).

والاستعداد للجهاد يشمل التوعية بالجهاد لكل أفراد المجتمع، وفي كل مكان، في المدارس على شكل مواد تدرس، وفي المؤسسات والمنظمات والهيئات، وفي وسائل الإعلام المختلفة، وتكون التوعية للجهاد بكل جوانبه، وباستمرار دون تراخٍ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ (الصف: ٤).

لأن شحذ الهمم نفسياً، وكون الجهاد يتحول إلى قضية وطنية الكل يتحدث عنها والكل يعمل لأجلها والكل يسندها ويدعمها جهداً ومالاً ومعنويات، سيحول دولة الإسلام إلى ما يشبه البناء المرصوص الذي لا يمكن اختراقه.

وإذا تم ذلك فإن المسلمين قد استعدوا معنوياً وعتاداً وعدة وأخلصوا النية لله ونصروه، فأصبح حقاً على الله نصرهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (محمد: ٧).

ميزانية الجيش

ميزانية الجيش مثلها مثل كل الميزانيات الأخرى في دولة الإسلام، يساهم فيها كل مسلم ومسلمة لديه دخل، بنسبة محددة من دخله: وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (الأنفال: ٦٠) كما سبق وفصلنا في موضوع الإنفاق.

الركيزة السادسة: البراء من الكفار وموالاة المؤمنين

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتخذوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (الأعراف: ٢٩-٣٠).

الموالاة هي التواد والتوافق والتعاون والتكافل ودفع الأذى وحماية المصالح، ولا يمكن أن يكون المرء مؤمناً بدين الإسلام ما لم تتوفر في نفسه هذه الخصال

ويمارسها في حياته مع إخوانه المسلمين: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (التوبة: ٧١).

وليس للمؤمن أن يبحث عن مولى له غير الله: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (البقرة: ١٠٧).

لأنه لا ولي أقدر من الله سبحانه على النصرة والتأييد والرعاية: وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً (النساء: ٤٥).

ولأن المولى هو الناصر والمؤيد والراعي والحامي وصاحب النعمة والفضل، وبهذا المعنى فليس للمؤمن مولى غير الله سبحانه: اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٢٥٧).

ومن يتولى الكفار أو يواليهم ضد (دون) المؤمنين فهو منافق خارج عن الدين ولو تظاهر بالتدين، وقد بشره الله بعذاب أليم: بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (النساء: ١٣٨).

ولا يوجد أي مبرر لاتخاذ الكفار أولياء، مهما كانت أوضاع المسلمين ضعيفة ومهما كان الكفار أقوياء، ومن أقدم على موالاة الكفار طلباً للعزة فلن تتحقق له بل سيهينه الناس وسيهينه الله: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فإن العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً (النساء: ١٣٩)

ليس هذا فحسب بل إن موالاة الكفار على المؤمنين مخرج من ذمة الله ودينه (ليس من الله في شيء)، يقول تعالى: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ (آل عمران: ٢٨).

لأن موالاة الكفار تعني أن يقبل من طلب موالاتهم بأن يهان المسلمون أو تستباح أراضيهم ويستهزأ بدين الله من أولئك الكفار تحت سمعه وبصره، وهذا يعني عون الكافر على محاربة دين الله، وكل من رضي بفعل فقد اشترك مع الفاعل بالإثم: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (النساء: ١٤٠).

ولو تمسك المسلمون بكراماتهم وعزتهم مهما كانت أوضاعهم ضعيفة وطلبوا العون من الله وبحثوا عن الأسباب ولم يهنوا للكفار ولم يوالوهم فسيجدون أن الله سيعينهم ولن يجعل للكفار عليهم سبيلاً: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (النساء: ١٤١).

والإيمان بدين الله لا يعني التظاهر بالإيمان، ومن ثم موالاة الكفار، وكل من فعل ذلك فهو منافق، يود أن ينتسب إلى الإسلام تارة ولكنه يخشى قوة الكفار فيواليهم تارة أخرى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً. مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (النساء: ١٤٢-١٤٣).

وهؤلاء المنافقون أعد الله لهم أشد أنواع العذاب في الدرك الأسفل من النار: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (النساء: ١٤٥).

أما المؤمن فلا يمكن أن يوالي الكفار تحت أي ظرف ولأي سبب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً (النساء: ١٤٤).

وهؤلاء أعد الله لهم أجراً عظيماً: إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (النساء: ١٤٦) (إلا في هذه الآية بمعنى أما).

وكل من يوالي الكفار تحت أي ظرف، أو تحت تبرير أنهم أقوياء والمسلمون ضعفاء، فليس بمؤمن بدين الله ومآله جهنم مع الذين طلب موالاتهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَو أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أنفسهِمْ نَادِمِينَ (المائدة: ٥١-٥٢).

لأن موالاة الكفار ارتداد عن الدين وكفر بالله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (المائدة: ٥٤).

ويجب على المؤمنين أن يعتصموا بالله فهو وليهم، ويعملوا على توفر أسباب القوة وسيجدون أن الله سيعينهم وسينصرهم: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فإن حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (المائدة: ٥٥-٥٦).

وكل من يوالي الكفار فقد وافقهم على الاستهزاء بدين الله وحربهم له: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتخذوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتخذوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (المائدة: ٥٧-٥٨).

وكل من اتخذ الكفار أولياء خوفاً من قوتهم فكأنه حمى نفسه باتخاذ درع واقٍ من الرصاص مصنوع من خيوط العنكبوت: مَثَلُ الَّذِينَ اتخذوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتخذتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت: ٤١).

وليس هناك تبرير واحد يمكن قبوله أمام الله لاتخاذ الكفار أولياء، ولكن تبريراتهم تؤكد أنهم منافقون يدعون الإيمان وقد كفروا بالله: لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ. اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (المجادلة: ١٤-٢١).

ولا يمكن أن يوجد أحد يوالي الكفار ويبقى على إيمانه، حتى ولو كانت تربطه بهم علاقة قربى: أَلاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أو أَبْنَاءهُمْ أو إِخْوَانَهُمْ أو عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة: ٢٢).

ويكون كل من والى الكفار فهو كافر بالله مثلهم، وسيلقى العذاب نفسه الذي يلقون، وهذا مجمل موقف القرآن من موالاة الكفار: بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ. إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ. لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لِأَبِيهِ لأَستغفرنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فإن اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (الممتحنة: ١- ٩).

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء: ٣٦)

من أهم العهود التي يجب أن يتعهد بها المسلم على نفسه لله، إتباع أوامره ونواهيه في المعاملات كما في العبادات. وقد وعد الله بغفران الذنوب الخاصة بالعبادات جميعاً، بما في ذلك الشرك، إذا تاب المرء وعاد عنها. أما المعاملات فيلزم أن يتجاوز عنها المظلوم ويصفح عن الظالم قبل الموت، وإلا فإن الله سبحانه لا يغفر لمرتكبها مهما صغرت، وتوعد الظالم بعذاب أليم.

ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب (١٦٥) البقرة.

إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (١٠) النساء.

ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون (٥٢) يونس.

وسواءً كان المرء مسلماً أو غير مسلم، فالإسلام ينص على تحريم وتجريم معاملته بما يتعارض مع خلقه الذي خلقه الله عليه.

وحتى جثة الكافر بالله، يحرم أن يمثل بها، احتراماً لروح الله التي احتوتها تلك الجثة يوماً.

وهناك حديث ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه عندما مرت به جنازة قام واقفاً احتراماً لها حتى تجاوزته، فلما قيل له بأنها ليهودي قال: ولكنها روح (من روح الله).

وحفظ الحقوق والكرامة شرع إلهي في الإسلام وليس تفضلاً أو تعاملاً إنسانياً وحضارياً، يقول تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا (الحجرات: ١٣) فلا فرق بين شخص وآخر أو عائلة وأخرى، بل هم جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا فضل ولا تفوق لواحد على الآخر إلا بالتقوى وليس بالجاه أو الجنس.

ذلك أن جميع البشر على اختلاف ألوانهم وألسنتهم خلقوا بقدرات عقلية واحدة: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تتساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (النساء: ١).

فكل إنسان خلق بنفس المواصفات العقلية والقدرات التي خلق منها بقية الناس (من نفس واحدة). وحتى الاختلاف الجسدي بين الرجل والمرأة لا يعني التفاوت في القدرات العقلية والإنسانية، لأن الله خلق المرأة بنفس المواصفات التي خلق بموجبها الرجل، وهذا هو معنى (وخلق منه زوجها) وليس المعنى كما نقل المفسرون عن التراث اليهودي من أن حواء خلقت من ضلع أعوج لآدم، وبالتالي فهي عوجاء هوجاء في تصرفاتها وعقلها.

وبما أن الناس جميعاً أبناء عائلة واحدة ومن رحم واحد، فقد حرم ليس فقط تكبر الأخ على أخيه بل حرم أن يسخر منه: ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم (الحجرات: ١١).

لأن كل إنسان مساوٍ للإنسان الآخر في كل شيء. ومن سخر من تصرف صدر من غيره، فقد يكون الساخر قد صدر منه نفس التصرف فيما مضى أو من الممكن أن يصدر منه في أي لحظة، فكيف يسخر من تصرف قد يصدر منه هو.

وقد خلق الله هذا الإنسان (كل الناس) فأحسن خلقهم: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين: ٤).

والخلق يشمل المشاعر والكبرياء والأنفة والأحاسيس، التي يتساوى الناس في امتلاكها بدرجة واحدة متساوية في الأصل.

كما أنهم جميعاً قد كرمهم الله بدرجة واحدة متساوية بما لم يكرم به أحداً من خلقه على الأرض. قال سبحانه: ونفخت فيه من روحي (ص: ٧٢).

فروحي وروح أخي الإنسان أينما كان وكائناً من كان، هي جزء من روح الخالق، فلا يعقل أن نستهزئ بمشاعره وندنس كرامته التي أودعها الله فيه عندما نفخ فيه من روحه.

ويكون تحقير أو هدر كرامة إنسان تعدياً وتهجماً ليس على ذلك المخلوق،

ولكن تعد على روح الله التي فيه، فالجسد عبارة عن وعاء لحمل الإنسان المتمثل في الروح، التي هي من روح الله.

وقد حرم الإسلام معتقداً كان منتشراً قبل مجيئه يقسم الناس لطبقات متفاوتة في الحقوق. قال تعالى: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (الفتح: ٣٦).

فليس هناك من يجري فيه دم أزرق لأنه من هذه الطبقة أو العائلة.

وحذر سبحانه وتعالى من نسيان ذلك والعود إلى حمية الجاهلية والتي تؤدي إلى تكبّر إنسان على آخر وهذا مما لا يحبه الله: ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور (لقمان: ١٨).

فأنت كغيرك من البشر دون زيادة أو نقصان، فلماذا تعتقد أن بإمكانك أن تختال أو تتكبر عليهم أو تعاملهم بكبرياء، مع أن الله خلقكم بالتساوي: وَلا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرض وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (بني إسرائيل: ٣٧).

ولذلك فإن من يتعالى ويتكبر أو يشعر بالخيلاء أو التميز عن بقية الناس فليس له نصيب من الجنة: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (القصص: ٨٣).

لأنه اعتدى على صفة من الصفات الخاصة بالذات الإلهية والتي لا تجوز إلا له سبحانه: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الحشر: ٢٣).

فهو سبحانه وحده من يحق له التجبر والتكبر والخيلاء، وهو وحده من يحق له كل الصفات الأخرى في هذه الآية، وكل بشر نسب إلى نفسه صفة من هذه الصفات فقد حق عليه غضب الله لأنه تجرأ على صفاته.

هذا هو الإنسان في عرف القرآن ذكراً كان أم أنثى، فقيراً كان أو غنياً.

واحترام الإنسان ومراعاة مشاعره والحرص على كبريائه وصون كرامته والمحافظة على حقوقه، مادية أو معنوية، ليست فقط شعارات أخلاقية وأعراف

ينادى بتطبيقها، ولكنها تمثل جزءاً من الإسلام لا يكتمل من دونه مهما حرصنا على أداء العبادات. يقول تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: ١٧٧).

ولذلك صور القرآن المجتمع المسلم وكأنه حقل من نوع واحد من المزروعات، من ينظر إليه فكأنه ينظر إلى حقل قمح بسنابله التي تبدو متساوية في كل شيء، وليس بينها أي تفاوت. فلا يوجد من بينها سنبلة طويلة وأخرى قصيرة، أو سنبلة قوية وأخرى هزيلة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأَنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاستغلظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الفتح: ٢٩).

ولكي تبدو صورة المجتمع المسلم بهذا الشكل القرآني فلا بد من سن القوانين اللازمة لضمان العدل والمساواة وحفظ الكرامة وغيرها من أسس، ولا تترك كفضائل ينادى بها في المساجد عل وعسى أن يجود بعض الناس بها على بعض، لأن هذه مبادئ أوجبها الله على الناس ولذلك وجب عليهم ليس فقط سن القوانين التي تضمن تطبيقها بكل دقة كما أمر الله، بل وحماية تلك القوانين ومتابعة تطبيقها حتى يحترمها الناس ويعملون ويتصرفون بموجبها.

ومتى ما بدت صورة المجتمع على شكل سنابل متفاوتة في الحجم والقوة، فمن المؤكد أن دستور دولة الإسلام غير مطبق في ذلك المجتمع.

الركيزة الثامنة: الحدود والتشريع

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (النساء: ١٣).

على المسلمين في دولة الإسلام سن القوانين الخاصة بكل حد ورد في القرآن

حتى يمكن للناس التعرف عليها بكل دقة، وحتى يمكن للقضاة الرجوع إليها وتطبيقها، وللقضاء على كل حكم اجتهادي أو شخصي، لأن دين الله يخضع فقط للأحكام الصادرة من الله وحده، ولا مجال لتطبيق أحكام بشرية، واجتهاداتهم الشخصية باسم الإسلام.

أما الأحكام الدنيوية والتي لم يرد في القرآن لها أحكام، فكما ذكر في الحديث عن الركيزة الأولى «الحكومة الإسلامية» تطرح التشريعات لمشاورة (استفتاء) كل المسلمين في دولة الإسلام، ممن بلغ السن القانونية وهو عاقل من ذكر وأنثى، ونتيجة التصويت تقرر تعديل أو إلغاء أو إقرار القانون للتشريعات الجديدة.

الركيزة التاسعة: العبادات

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (النمل: ٩١).

نص القرآن على ثلاثة أنواع من العبادات، هي:

١- عبادة يومية، عبارة عن صلاة يومية مجموع كل ركعاتها ١٧ ركعة في اليوم والليلة تؤدى على خمسة أوقات، هي:

الفجر، ووقتها من بزوغ الفجر وحتى شروق الشمس، وعدد ركعاتها اثنتان.

الظهر، ووقتها يبدأ من وقت الظهر وهو تعامد الشمس، وحتى دخول وقت العصر، وعدد ركعاتها أربع ركعات.

العصر، ووقتها يبدأ من منتصف الوقت ما بين الظهر ومغيب الشمس، وينتهي بمغيب الشمس، وعدد ركعاتها أربع.

المغرب، ووقتها من غروب الشمس وحتى مغيب الشفق، وعدد ركعاتها ثلاث ركعات.

العشاء، ووقتها من مغيب الشفق وحتى منتصف الليل، وعدد ركعاتها أربع.

وهذه الصلوات تؤدى كل يوم من أيام الأسبوع على وتيرة واحدة، إلا يوم الجمعة، حيث تستبدل صلاة الظهر بصلاة الجمعة التي هي عبارة عن خطبة يتم الحديث فيها عن شؤون المسلمين، وبعدها تقام الصلاة ركعتين ويجهر فيهما بالقراءة. ولأن صلاة الجمعة جامعة للمسلمين ويناقش في خطبتها ما يهم قضاياهم

الهامة فقد أوجب الله على كل مسلم ومسلمة أداءها في المسجد، بينما يجوز في الصلوات الأخرى أن تؤدى في المسجد أو في غيره.

والملاحظ على صلاة الجمعة اليوم ما يلي:

* أنها أصبحت عبارة عن إمام يتكلم بما يحلو له من غث الكلام وسمينه، وأناس صامتون لا يقوون حتى على الاعتراض على ما يطرق آذانهم، لأن الفقهاء قالوا بأن من قاطع الخطيب فلا صلاة له.

* أن الخطبة تقوم في الغالب على إيراد أحاديث وتشريعات لم ينزل الله بها من سلطان وتسوق على أنها من عين دين الله.

* اعتاد أئمة المساجد في بلاد الحرمين في كل جمعة قراءة سورة الأعلى في الركعة الأولى والغاشية في الركعة الثانية، معتمدين على أحاديث ظنية أن الرسول قد قرأهما في صلاة الجمعة، فاعتقد الناس أن من تمام الجمعة القراءة بهما وعدم تجاوزهما إلى غيرهما من السور، وكأن هناك تشريع إلهي ينص على ذلك، لدرجة أنني حضرت صلاة الجمعة في أحد المساجد لأحد عشر أسبوعاً قرأ الإمام في عشرة أسابيع متتالية سورتي الأعلى والغاشية، قبل أن يقرأ غيرهما في الأسبوع الحادي عشر، ثم عاد لقراءة الأعلى والغاشية في الأسبوع الثاني عشر.

* أن النساء اليوم لا يحضرن صلاة الجمعة ولا غيرها في المسجد كالرجال، مع أن حضور صلاة الجمعة واجب نص عليه القرآن دون تفريق بين رجل وامرأة، كما هو الحال في كل أوامر ونواهي الشرع التي صدرت بحق الرجل والمرأة على حد سواء. وهذا يعني أن المرأة المسلمة قد أسقطت واجباً دينياً من حياتها منذ قرون، دون أن يكلف أحد من رجال الدين نفسه بتذكر ذلك.

٢ - عبادة سنوية، عبارة عن صوم شهر رمضان. والصوم ينعقد منذ بداية طلوع أشعة الفجر، وحتى غروب الشمس، يكون المرء خلال هذه المدة صائماً حكماً. ويفطر الصائم، حكماً أيضاً، بعد انتهاء المدة بغروب الشمس ولو لم يأكل أو يشرب.

أي أن المرء يباح له الأكل والشرب بعد غروب الشمس وحتى طلوع الفجر،

ولكن لو لم يأكل برغبته أو من دونها فلا يعتبر صائماً، ولذلك فليس هناك ما يمكن تسميته مواصلة الصيام لليوم التالي، وليس هناك داعٍ لكسر الصوم بالأكل ليعتبر المرء قد أفطر فعلاً. فالصيام يبدأ وينتهي بانتهاء الوقت المحدد له حكماً، ولو لم يمارس المرء حقه في الأكل خلال وقت السماح بالأكل فهو مفطر حكماً رغب أم لم يرغب.

ولكن الناس فهمت الأمر على أنه يجب أن يكسر الصوم بتناول أي طعام أو شراب، بمجرد غروب الشمس دون تأخير وإلا أثم من يؤخر الفطور، هذا عند السنة. أما الشيعة فإنهم يفضلون أن يمتنع الصائم عن الأكل أو الشرب حتى غياب الشفق. وكلا الفريقين يفطر حكماً، بمجرد غياب الشمس، سواءً أكلوا وشربوا أم امتنعوا.

والناس في فهمهم لمعنى الإفطار والصوم يتبعون ما يحدثهم به فقهاؤهم الذين يعتمدون في فتاواهم على أدلة إخبارية، ومن تلك الأدلة ما ورد في مسند أحمد، ونصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا موسى بن داود حدثنا داود حدثنا ابن لهيعة عن سالم بن غيلان عن سليمان بن أبي عثمان عن عدي بن حاتم الحمصي عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار، وأخروا السحور (أحمد: ٢٠٩٣٣).

وهذا الحديث له روايات أخرى في مسند أحمد تظهر السبب في قوله، ومن ذلك الحديث رقم (٢٣١٥٠)، وهذا نصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا إسماعيل أنبانا محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبدالله اليزني قال: قدم علينا أبو أيوب غازياً، وعقبة بن عامر يومئذٍ على مصر، فأخّر المغرب، فقام إليه أبو أيوب، فقال: ما هذه الصلاة يا عقبة؟ فقال: شغلنا، قال: أما والله ما بي إلا أن يظن الناس أنك رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع هذا، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تزال أمتي بخير ـ أو على الفطرة ـ ما لم يؤخروا المغرب إلى أن يشتبك النجوم.

فيكون أصل الخبر هو الحث على صلاة المغرب في وقتها دون تأخير، ومن ثم حورت صيغة الخبر لحث الناس على التسريع في الأكل في رمضان بعد غياب الشمس دون تأخير.

ويؤيد ذلك أن مسلم أورد خبراً يفيد معنى الصوم حكماً، دون أن يقرنه بالأكل والشرب، والحديث برقم (٢٥١١) وهذا نصه: حدّثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وأَبُو كُرَيْب وابْنُ نُمَيْرٍ. وَاتفقوا فِي اللَّفْظِ قَالَ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا أبو مُعَاوِيَةَ. وَقَالَ ابن نُمَيْرٍ: حَدَّثَنَا أَبِي. وَقَالَ أبو كُرَيْبٍ: حَدَّثَنَا أبو أسامة جَمِيعاً عَنْ هِشَام بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ رَضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ، وَأَدْبَرَ النَّهارُ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ (سواءً أكل وشرب أم لا). وهو نفس المعنى الذي تحمله آيات الصوم في سورة البقرة، أي أن الصائم يباح له الأكل والشرب بمجرد غروب الشمس، لأنه قد أصبح مفطراً ولو لم يأكل أو يشرب.

كما أورد مالك خبراً يفيد بأن عمر وعثمان كانا يصليان المغرب قبل أن يتناولا أي طعام أوشراب، وهذا نص الخبر الذي يحمل الرقم (٦٤٠) في الموطأ: وحدَّثني عَنْ مَالِكٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ كَانَا يُصَلِّيَانِ الْمَغْرِبَ حِينَ يَنْظُرَانِ إلى اللَّيْلِ الأَسْوَدِ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَا (أي يتناولا الطعام والشرب)، ثُمَّ يُفْطِرَانِ بَعْدَ الصَّلاَةِ وذلكَ فِي رَمَضَانِ. انتهى.

والحديث عن رمضان لا يتم دون التطرق لما درج عليه الناس من عادات أصبحت ملازمة للشهر، وحرص الناس على ممارستها ولو كان فيها مساس بالصوم ذاته، ومن أهم هذه العادات هو تحويل الليل إلى نهار والنهار إلى ليل طوال شهر رمضان.

مع أن الصوم لا يعني تعطيل الأعمال في النهار أو تقصير عدد ساعات الإنتاج، ولكنه صوم عن الأكل والشرب مع عدم الامتناع عن ممارسة الأعمال المعتادة طوال النهار كأي شهر آخر. وليس أدل على ذلك من أن الرسول خاض أهم معركة حاسمة في تاريخ الإسلام في نهار رمضان، وهي معركة بدر الكبرى، كما أن الصوم عن الأكل والشرب في النهار والسهر على الموبقات في الليل، مشاهدة أو ممارسة، يلغي الصيام. وعلى دولة الإسلام تغيير هذه العادة التي درج عليها الناس.

٣- عبادة تؤدى مرة واحدة في العمر، لمن يستطيعها بدنياً ومادياً ونفسياً ومن كل الجوانب، وهي الحج والعمرة.

وما عدا هذه الثلاث عبادات فلم يأمر الله سبحانه عباده بغيرها في القرآن المجيد، وكل ما ورد في كتب الأخبار عما سماه الفقهاء بالنوافل، أي صلوات وصيام وحج يزيد عما ذكر في القرآن فهو ليس من الدين، وقد فصلنا الحديث عنه في ملحق النوافل.

والعبادات مثلها مثل أي ركيزة تقوم عليها دولة الإسلام، يجب أن توضع لها قوانين تفصيلية تعنى بشرح معانيها، وكيفية أدائها، ولا يترك شيء للاجتهادات الشخصية على الإطلاق.

ففي الصلاة مثلاً تسن القوانين التي تبين الوضوء وتبين كل حركة في الصلاة، وكل وضع، وما يقال فيه. ومعنى ما يقال ولماذا يقال في ذلك الوضع بالذات، وهكذا حتى انتهائها، ومثل الصلاة هناك الحج والصوم، اعتماداً على ما ذكر في القرآن الكريم، وليس ما قال به الفقهاء وتشريعاتهم المختلفة.

الركيزة العاشرة: العقل

حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (الجاثية: ١-٦).

إن أي شخص يقرأ القرآن سيجد أنه مليء بالمفردات الدالة على ضرورة أعمال العقل، فعلى سبيل المثال هناك (٤٩) كلمة مشتقة من الجذر عقل، وهناك (١٩) كلمة مشتقة من الجذر فكر (٢٠) كلمة مشتقة من الجذر فقه. والكلمات المشتقة من الجذر نظر تكررت (١٠٢) مرة، وذكر لفظ أولو الألباب (١٦) مرة. إضافة إلى العديد من الآيات الأخرى التي تحث على ضرورة السماح للعقل بالتفكير الحر واللامحدود والتي كان من المفترض معها أن يكون المسلمون رواداً للعقلانية وليس أعداءً لها.

وقد بدأ ظهور الفرق والشيع المختلفة الإسلامية منذ القرن الأول الهجري، ولم يبق منها الآن إلا عدد قليل جداً مقارنة بأعدادها الكبيرة في العصور الأولى. بل

إنها تكاد تنحصر حالياً في الفرق السنية التي يتبعها جل المسلمين في العالم، والفرق الشيعية التي يتبعها بقية مسلمي العالم، إضافة إلى نسبة صغيرة تتوزعها بقية الفرق الأخرى التي تنتسب إلى الإسلام (وليس هناك أرقام دقيقة لأتباع الفرق الإسلامية المختلفة).

وكل الفرق التي بقيت إلى عصرنا هذا بلا استثناء تعتمد في معتقداتها على نقل واتباع أقوال الفقهاء، دون إشراك أو تحكيم للعقل في هذه المعتقدات، أو حتى استخدام العقل في نقدها والتعرف على ما فيها من عوج.

فالشيعة لا يمكن أن يسمح فقهاؤهم بتحكيم العقل في مسألة الإمام الغائب منذ القرن الثالث الهجري أو التشكيك بعودته. أو التفكير بتلك النصوص التي تعطي قدسية لعلي بن أبي طالب ونسله، ولا يمكن أن يعقل الشيعي أن الإسلام بريء من هذا التقديس.

ومثل الشيعي هناك السني الذي يقرأ في كتاب الله قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أنفسكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (الشورى: ١١) ثم يؤمن بصحة الأحاديث التي تقول بأن لله أصابع (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) بناءً على أخبار ظنية مثل ما جاء في الحديث رقم (٧٣٤٧) في البخاري، والذي نصه: حدَّثَنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جريرٌ عن منصورٍ عن إبراهيم عن عُبيدةَ عن عبداللَّهِ رضي اللَّه عنه قال: جاء حَبْر من اليهودِ فقال: إنه إذا كان يومُ القيامة جعل اللَّهُ السمواتِ على إصبعٍ والأرضين على إصبعٍ والماء والثرى على إصبعٍ والخلائقَ على إصبعٍ ثم يَهزُّهُنَّ ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فلقد رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بَدَت نواجذُه تعجُّباً وتصديقاً لقوله، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: وما قَدَروا اللَّه حقَّ قدرِهِ ـ إلى قوله ـ يشركون (الزمر: ٦٧).

ويعتبر بعض المسلمين أن هذا الحديث دليل لا يقبل الشك بأن الرسول أمن ووافق على كلام اليهودي، بتلاوته الآية الواردة في سورة الزمر، مع أن تلاوتها تدل على أن الرسول ينفي ما زعمه اليهودي: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر: ٦٧) أي أن الله سبحانه أقدر وأعظم من أن يحتاج إلى أن يكون كما قال

اليهودي، وأنه يملك من القدرة سبحانه لخلق الكون أو نسفه بمجرد قوله: كن فيكون، ودون الحاجة إلى تحريكه فعلياً بيد أو أصبع (تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً).

وقد جاء إنكار الله سبحانه لكلام مماثل لليهود أيضاً وبنفس نص «وما قدروا الله حق قدره»، وذلك في قوله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام: ٩١).

ويؤمن المسلم بصحة الأحاديث التي تقول بأن الله يضحك ويعجب، مثل هذا الحديث الذي أورده البخاري برقم (٤٧٦٩)، والذي نصه: حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيم بن كثير حدَّثَنا أبو أسامة حدثنا فُضَيْلُ بن غَزوان حدَّثنا أبو حازمٍ الأشجعيُّ عن أبي هريرة رضيَ الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجَهدُ. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجلٌ يُضيفُهُ الليلة يرحمُهُ الله؟ فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأتِهِ: ضيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تَدَّخريه شيئاً. فقالت: واللَّهِ ما عندي إلاّ قُوتُ الصِّبْيَة. قال: فإذا أراد الصِّبية العَشاءَ فَنَوِّميهم، وتعالَيْ فأطفِئي السِّراجَ ونَطْوي بُطونَنا الليلةَ. ففَعلَتْ. ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد عَجِبَ اللَّهُ عزَّ وجل ـ أو ضَحِكَ ـ من فلانٍ وفلانَةٍ. فأنزَلَ اللَّهُ عز وجل: ويُؤْثرونَ على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة.

ويقرأ المسلم: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الأنعام: ١٠٣) ثم يؤمن بأن الناس سيرون الله، وأن له ساق لأن هناك أحاديث نسبت إلى الرسول تقول بذلك، ومنها: حدَّثَنا يحيى بن بُكَير حدثنا الليثُ بن سعدٍ عن خالد بن يزيدَ عن سعيدِ بن أبي هلال عن زيدٍ عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قلنا: يا رسول اللَّهِ هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارُّون في رؤية الشمس والقَمر إذا كان صَحواً؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا

تضارُّون في رؤية ربِّكم يومئذٍ إلا كما تضارُّون في رؤيتهما. . . قال: فيأتيهمُ الجبَّارُ في صورةٍ غير صورته التي رأوْه فيها أوَّلَ مرة، فيقولُ: أنا ربكم فيقولون أنت ربُّنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينَهُ آية تعرفونَه؟ فيقولون السَّاق. فيكشف عن ساقه، فيسجدُ له كل مؤمن، ويبقى مَن كان يسجُدُ للَّه رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجدَ فيعودُ ظهُرُه طَبَقاً واحِداً. . . إلى آخر الحديث (البخاري: ٧٢٧٣).

ويؤمن المسلم بأن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا في كلّ ليلة، لكي يستمع إلى من يستغفره فيغفر له، وكأنه سبحانه يحتاج إلى الدنو لسماع مناجاة عباده، ويضع قدمه في النار فتمتلئ، وغير ذلك من الرّوايات التي تجعل من الله جسماً متحركاً وله دار يقطن فيها (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

وغالبية المسلمين بمختلف فرقهم متفقون على عدم الاعتراف بالعقل لنقد عيوب معتقداتهم، مع أنهم يرون أن نقد المعتقدات الأخرى بواسطة العقل من أعمال الخير الواجبة في سبيل الدفاع عن صافي العقيدة.

ولقد أبيدت كل الفرق التي كانت تعتقد بضرورة أن يحتكم للعقل في المسائل الظنية أو الغيبية التي لا يتوفر لها دليل قطعي. في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه فكرة تقديس النقل، وأصبح الحديث المنسوب إلى الرسول يجب أن يصدق ليس لأن الفقيه الذي عاش في القرن الثاني أو الثالث من الهجرة قد تأكد بنفسه من سماعه من الرسول أو من الشخص الذي سمعه من الرسول مباشرة، ولكن لأنه سمعه من شخص يعيش في عصره هو، ويتوافق معه في المنهج والفكر. والتشكيك بمصداقية الراوي تشكيك بمنهج الفقيه نفسه.

واعتبر نقد متن حديث واحد نقد لكل الأحاديث، ونقد الأحاديث نقد لرسالة محمد، وتشكيك بدين الله. لأن نقد متن الحديث أو أقوال السابقين ستعري منهج الفقيه وفكره. وقبول نقد الأقوال المنسوبة إلى الصحابة سيجعل نقد وترك أقوال الفقهاء أسهل، وبالتالي تسقط قيمة كلام الفقهاء، وتنقشع الهالة القدسية التي أحاطوا أنفسهم بها.

فمنعوا على أنفسهم وعلى أتباعهم الاعتراف بأن الدين ليس قول فقيه ولا صحابي ولا حتى قول محمد بن عبدالله الإنسان، ولكن قول العزيز الحكيم وحده. وما محمد إلا عبد لله ورسوله، مكلف بنقل رسالة ربه للناس المتمثلة في

الآيات القرآنية التي يتلقاها وحياً، بكل حرفية وأمانة، دون أن يكون له الخيار بالإضافة عليها أو الحذف منها حتى ولو جاءت الآيات بتوبيخ للرسول نفسه أو نقد لتصرفاته.

ونتيجة لذلك توسع الناس بالأخذ بالأحاديث وأقوال من سبقهم من الناس، لدرجة لم يعد ممكناً حذف أو تجاهل أو نقد أي نص منها حتى ولو كان مشكوكاً في مصدره أو كان مخالفاً لعقل أو حتى آية قرآنية.

وفي العصور الإسلامية الأولى وجد من استخدم العقل لمجادلة أهل الملل غير الإسلامية في محاولة لإثبات صدق رسالة الإسلام، لأن من لا يؤمن بالقرآن لن يقتنع بما جاء فيه. ولكن مع الأيام تعمق أولئك في فلسفة أقوالهم مما جعلهم يبتعدون كثيراً عن أصل فكرتهم العقلانية المطلوبة في الدين.

واتجهت مجادلاتهم إلى المسلمين الذين يقدسون التمسك بالنصوص المنقولة، وتحول الجدل بين الفريقين إلى حرب، حاول كل فريق أن يكسبها على الآخر. فتشعبت الأقوال وتداخلت مع الأهواء، وبعد كل فريق عن الفكرة الأساسية التي نادى بها.

وقد ساهمت السياسة في غلو كل فريق بما لديه، وتقلبت الأوضاع والأحوال بكل فريق حسب موقف الخليفة. فكان كلما مال خليفة لرأي فريق فإن الفريق الآخر سيكتب عليه الاضطهاد والتكفير والمحاكمة والقهر والتعذيب والسجن، حتى يأتي خليفة آخر يميل للرأي المخالف ليفسح المجال لأهل ذلك الفريق بأخذ ثاراتهم وتجريع منافسيهم من الكأس نفسها التي تجرعوها من قبل.

وبطبيعة الحال فقد جاءت آراء كل فريق نتيجة للعصر الذي عاشوا فيه وما وفره لهم من معارف شحيحة، ولو قدر لهم وعاشوا في عصر ينتشر فيه العلم كالعصر الحاضر لما تقاتلوا حول مسألة خلق القرآن على سبيل المثال. لأنهم في ذلك العصر لم يتصوروا غير احتمالين فقط للمسألة، فإما أن يكون القرآن مخلوقاً (أي أن الله قال له كن فكان على شكل آيات وسور، مثلما قال للكون كن فكان على شكل نجوم وكواكب ومخلوقات حية) أو أنه منطوقاً (أي أن الله تحدث به على شكل عبارات منطوقه) فتقاتل الفريقان كل يحاول أن ينزه الله سبحانه فيما يعتقد بأنه منزه عنه من وجهة نظره.

ولم تسعف معارف الفريقين في ذلك الزمن أن يتصوروا أن هناك طرقاً أخرى يتم بها الاتصال ونقل المعلومة دون أن تكون المعلومة مخلوقة أو منطوقة، وأن الاتصال بين الله جل جلاله وبين ملائكته المكلفين بإيصال الوحي إلى الرسل من البشر، تم بآلية غير معروفة لدينا ولكنها لم تكن الكلام الشفهي، ودون أن تكون آيات الله مخلوقة، كما بين الله عز وجل ذلك في كتابه العزيز عندما وصف كيف يتم نسخ الوحي في ذاكرة الرسول من قبل الملائكة المكلفين بذلك، دون حاجة إلى الكلام، وعلى شكل لغة بشرية يتقنها الرسول المكلف بالتبليغ وبآلية لا ندركها: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (الشعراء: ١٩٢-١٩٦).

فالرسول لا يخاطبه الملك (بفتح اللام) ولا يلقنه الوحي تلقيناً، وكل ما يشعر به الرسول يتمثل في أن هناك آيات جديدة قد نسخت في ذاكرته (قلبه). ولما كانت تلك الآلية غير معتادة بالنسبة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه فقد حاول في بداية الوحي أن يردد كل ما يجده قد نسخ في ذاكرته من آيات خوفاً من أن ينساها، فجاء تطمين الله سبحانه له بأنه لن ينسى أي آية نزلت عليه مهما طال الزمن لأنها حفرت في الذاكرة بصورة تبقيها إلى الأبد: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة: ١٦-١٩).

وهكذا حولت قلة المعارف وشح العلوم، مسائل سطحية يمكن فهمها ببساطة، إلى مسائل جوهرية يتوقف عليها إثبات أو نفي الإيمان بالله من شخص إلى آخر، واضطهد الناس بعضهم البعض، كل يحاول أن ينتصر لفكرته التي يعتقد أنها الركيزة الصحيحة التي يقوم عليها دين الله.

ومع أن العصر قد تغير وأن العلم قد انتشر إلا أن الفقه بقيت تتوارثه الأجيال بالصورة الأولى نفسها التي وجد عليها، وبقي الفقهاء لا يعرفون من العلم إلا حفظ نصوص الأحاديث وأقوال من سبقهم من فقهاء القرون الأولى. ومثلهم المفسرون الذين لم يعرفوا من العلم إلا ما اطلعوا عليه من كتب اليهود والنصارى والأمم الأخرى التي ألفها أناس في عصور متحجرة تسيطر عليها الخرافات والأساطير. فبقي تقديس النص، وبقي العقل محارباً، فيما اكتسب الفقهاء ورجال الدين حصانة وعصمة تزداد سماكتها كل يوم.

ومع توالي الخلفاء الذين جنحوا لرأي الفريق المؤمن بالنقل، تسمى فريق بالمتمسكين بالنص بأهل السنة والجماعة، وتسمى غيرهم بالشيعة، وأصبح الدين نقلاً فقط لا عقل فيه، وأصبح كل من تمنطق (أي حكم عقله في نص) فقد تزندق (أي مرق من الدين وحل قتله). فتخلصت تلك الفرق، بهذه الطريقة من أتباع الفرق الأخرى التي تؤمن بتحكيم العقل، والذين أصبحوا كفرة يجب مطاردتهم والقضاء عليهم. مما ساهم في تشتت آراء أهل الكلام واختلافها في محاولة لإيجاد عقيدة تجمع بين ما يقولون به من عقلانية وبين إقناع معارضيهم الأقوياء المؤيدين بالسلاطين بأنهم ليسوا زنادقة.

فتراجع بعضهم عن أقواله، وغير البعض الآخر ما كان يؤمن به، بينما توارى البعض عن الأنظار واعتزلوا الحياة العامة، محتفظين بعقيدتهم التي دفنت معهم عندما ماتوا.

ولم يبق في الساحة إلا العقائد الناقلة التي وجد فيها السلاطين ضالتهم في تثبيت وإرساء قواعد حكمهم والقضاء على أعدائهم السياسيين باسم الدين، عبر ما يصدره فقهاء تلك العقائد من فتاوى تحرم نقد السلطان أو معارضته وتبيح دم كل من ينتقده أو يطلب منه العمل بكتاب الله، مستدلين بتأويل آية عن معناها أو خبر منسوب إلى الرسول ولو لم تثبت نسبته، أو بقول فقيه من عصر سبقهم يتوافق مع ما يعتقدون.

وهكذا من بين مئات المذاهب والفرق، لم يبق في العالم الإسلامي إلا قطبان كبيران هما من تسموا بالسنة بمذاهبهم الأربعة، ومن نعتوا أنفسهم بالشيعة، وإن بقي غيرهم فمذاهب صغيرة وغير مؤثرة، بقيت لأنها استطاعت التوفيق بين آرائها الأصلية وبين آراء السنة أو الشيعة الأقوياء بدعم السلاطين بطريقة أو بأخرى، بينما لم يبق كتاب واحد يظهر معتقدات من سموا بالمعتزلة أو بأولئك الموحدين الأوائل الذين خالفوا علي بن أبي طالب في قبول الهدنة مع معاوية، ولا غيرهم من الفرق. بل واستخدمت مصطلحات الخوارج والمعتزلة لإلصاق تهم الكفر والمروق عن الدين ولم يعد يسمح بالتحدث عن أصل مبادئهم قبل أن تنحرف.

وأصبح فقهاء السنة وفقهاء الشيعة والفرق الأخرى التي بقيت حتى هذا العصر ينظرون إلى علوم الدين على أنها حرم مقدس لا يدخله غيرهم، وأنهم وحدهم من

له الحق بإخراج كلمة الله لأتباعهم، ولا حق لغيرهم بنقاشهم، لأنهم وحدهم الذين يقولون ما يريد الله قوله، وعلى غيرهم أن يسمعوا ويطيعوا، وكل من خالفهم فقد حقت عليه لعنة الله والملوك والناس أجمعين.

وتم وأد العقل وتغييبه عن المسائل الدينية لدى كل من بقي من المذاهب والفرق الإسلامية، لأنهم يزعمون أن العقل لا يمكن أن يكون ميزاناً للتشريع، بحجة أن ما هو معقول عند شخص قد يكون غير معقول عند شخص آخر، وأن الدين يجب أن يعتمد على النقل من النصوص، حتى في إثبات وجود الله والتصديق بيوم القيامة وكل الأمور الغيبية الأخرى.

ومنع الاعتماد على أعمال العقل للتعرف على حقيقة التأويل والتفسير للآية، أو صحة متن الحديث أو ثبوت نسبته إلى الرسول أو توافقه مع الحقائق العلمية التي أودعها الله في كونه، أو حتى مناقشة خبر منسوب إلى صحابي أو رأي فقيه سالف، في مسألة لم يأت لها ذكر في كتاب الله أو قال بها رسوله يقيناً.

وغابت عن الساحة الإسلامية كل الفرق والمذاهب التي تقول بإن العلم بالعقائد الدينية يتم عن طريق الأدلة اليقينية، وأن العقل هو أحد هذه الأدلة في كل ما لا يتوفر فيه نص شرعي يقيني. فالغيبيات لا يمكن إثباتها لمن لا يؤمن بالإسلام عن طريق النقل وقراءة النصوص الدينية، ولكنها تثبت بالعقل، كما أن وجود الخالق والتصديق بيوم القيامة قد ثبتا بالعقل وليس بالنقل.

وغاب عن معارضيهم أن كل نص يقيني الثبوت لا يمكن أن يخالف نصاً آخر يقيني الثبوت، ولذلك فليس هناك خوف من أن يتعارض القرآن، وهو اليقيني الثبوت، مع العقل، وهو اليقيني الثبوت أيضاً.

كما غاب عنهم أن الاعتماد على الأقوال الظنية في الحديث عن صفات الله يقود لتشبيه الله سبحانه بخلقه من حيث إن له ساقاً ويداً ووجهاً وغيرها (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

ولو سمح الناس لعقولهم بالعمل لوجدوا أن الدين نقل كله. لأنه لو لم ينقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ما كان ينزل عليه من الوحي لما عرفنا الدين.

وأن الدين عقل كله. فلو أننا لم نحكم عقولنا باحتمال صدق رسالة محمد ودعوته للإيمان بالله الذي لا نراه ولا يمكن أن نتأكد من وجوده بطرق محسوسة،

لما أصبحنا مسلمين نعمل للآخرة التي لا يمكن لنا أن نتأكد من وجودها بطرق محسوسة أو منقولة.

والدين بعضه نقل. فلو لم ينقل لنا عن رسول الله هيئة الصلاة والحج لما عرفنا كيف نؤدي شعائرهما.

والدين بعضه عقل. فنحن نعرف بالعقل أن دين الله المنزل على موسى وعيسى وإبراهيم وبقية الرسل هو نفس الدين الذي أنزل على محمد، لأنه من غير المعقول أن يخلق الله الناس بنفس الاستعدادات العقلية، ويفرض على بعضهم أحكاماً لا تفرض على الباقين، أو يطلب من البعض عبادات لا تطلب من الآخرين، أو يعذب الله أناساً بأفعال يبيحها لآخرين.

أما ما يشرعه رجال الدين مما لا يوجد في كتاب الله ويشرع رجال دين آخرون بخلافه وينقل عن كل فريق رجال دين لاحقون، ويطلب من الناس أن يقبلوا بهذه التشريعات دون نقاش ولا نقد، فهذا ليس نقلاً لدين الله، ولا عقلاً بدين الله.

بل هو إبقاء لموروث فقهي بشري قد يخطئ، وحتى لو أصاب فلم يأمرنا الله باتباعه. وهو شبيه بموروث الأمم السابقة الذين وجدهم الرسل يتبعون. ولم يوافق الناس على تركه واتباع ما دعتهم إليه الرسل، لأنهم اعتقدوا أن دين الحق هو الذي نقل لهم عن رجال دين سابقين، وأن الرسل يريدون منهم تحكيم عقولهم فيما لا يجب أن يحكم فيه العقل، بل يقبل به كما نقل.

وفات على كثير من الناس، ولم يرغب بعضهم الاعتراف بأن كل نص ديني يقيني الثبوت فهو الذي يجب نقله كما هو والعمل بمقتضاه إن كان أمراً أو نهياً: قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ. (الأنعام: ١٩).

وكل نص ظني الثبوت، أي يجوز عليه الصدق أو الكذب، فليس بدين، لأن دين الله أعز عنده سبحانه من أن تكون نصوصه مشكوكاً في صحتها.

وليس من العقل أن نؤمن بأن كلام الله المنزل على محمد لا يكفي بمفرده ليقود الناس لسعادة الدنيا والآخرة، ويحتاج إلى رأي فقيه وإلى إضافات وجدل بشري: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (الكهف: ٥٤).

كما أنه ليس من النقل أن نشرك كلام محمد مع كلام الله ونقول بأن كلاهما دين يجب أن يتبع، مع أن لفظة «الرسول» تعني الناقل للرسالة بحذافيرها ومن دون أن يكون له حق بإضافة أو حذف أو إخفاء بعض ما في الرسالة المنقوله: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: ١٥).

ولا يستطيع الرسول التحدث باسم الدين بخلاف ما في القرآن: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧).

ولن يكون من النقل أن ينقل فقهاء المسلمين عدة تشريعات فقهية متخالفة ومتعارضة حول مسألة واحدة وكل فريق اعتمد على أحاديث منسوبة إلى الرسول أو آراء فقهية سابقة ويعتقدون أنها (كلها) من عند الله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إلى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (الأنعام: ١٥٩).

أما الإسلام فدين واحد وشريعة واحدة لا اختلاف ولا خلاف فيها، وكل ما فيه اختلاف أو خلاف فليس من الإسلام. لذا فهناك قاعدة إلهية للحكم على أي تشريع إن كان من عند الله أم لا: أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافاً كَثِيراً (النساء: ٨٢).

ويكون من العقل أن نتساءل كيف سمح رجال الدين لأنفسهم بإصدار تشريعات لم ينزل بها قرآن، مع أن الله حرم ومنع الناس من التطرق لأي مسألة فقهية لم يتعرض لها القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة: ١٠١).

ومن العقل أيضاً أن نتساءل إن كان عدم التفكير بما قد يكون أصاب عقيدتنا من دنس عبر السنين هو ما أمر به الدين، بينما سمح إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لعقله أن يتساءل عمن يكون الخالق وكيف يمكن أن يكون، ثم وبعد أن أصبح نبياً لله، سمح لعقله بأن يفكر كيف يحيي الله الموتى؟

الى غير ذلك من الأسئلة التي لو صرح بها إبراهيم لبني البشر لحاكموه وعاقبوه عليها بحجة أنها هرطقة وزندقة وتجن على ذات الله، مع أن الله لم ينصب أحداً من خلقه للدفاع عن دينه أو محاكمة البشر بالنيابة عنه: وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام: ٧٥).

ومع أن كل بشر يملك العقل الكافي ليرى ملكوت السموات والأرض متمثلاً في النجوم والشمس والقمر ونزول المطر ونمو النباتات... الخ. إلا أنه ليس كل أحد تساعده هذه الرؤيا للوصول إلى حقيقة عظمة الخالق، كما حدث لإبراهيم: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (الأنعام: ٧٦).

وقد بدأت رحلة اليقين لإبراهيم بشك في من يكون الخالق وأين هو. وبعد تمعن وتفكير أيقن أنه لا يمكن أن يكون أحد هذه النجوم ولو كان أكبرها، لأن النجم غاب والخالق لا يمكن أن يغيب عن خلقه.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (الأنعام: ٧٧) وحدث للقمر ما حدث للنجم.

ومع يقين إبراهيم بأنه لا يمكن لهذا الكون أن يخلق نفسه، فقد استمر في أعمال عقله لمعرفة ما يكون ذلك الخالق وأين هو.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (الأنعام: ٧٨) وحتى الشمس، أكبر جرم سماوي رآه إبراهيم وأكثرها تأثيراً على الأرض، لم تكن هي الإله، لأنها كما القمر والنجوم مخلوق مسير ولا تسير نفسها، فهي كما الصنم ذلك الجماد المخلوق. والخالق لا بد أن يكون هو المسير لخلقه والمتحكم في الكون كله، وإن لم نستطع رؤيته فلا يعني أنه غير موجود، بل هو دلالة على عظمته التي لا يحيطها البشر، ولذلك آمن إبراهيم بمن ابتدع الكون دون أن يراه وهداه تفكيره إلى أنه لا بد أن يكون إله واحد لا شريك له: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩).

وعندما حاول قومه أن يقنعوه بأن إيمانه بمعبود غير أصنامهم ضرب من البدعة، أجابهم بأن الخالق الذي اهتدى لوجوده وعظمته عن طريق التفكر

بمخلوقاته أحق بالعبادة والخوف من جماد لا يستطيع نفع ذاته ولا درء الخطر عنها: وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (الأنعام: ٨٠).

ولو احتكم الناس للعقل والمنطق لظهر أن الخوف من الله له ما يبرره وليس الخوف من الحجر: وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (الأنعام: ٨١).

وكان إبراهيم قد توصل أولاً إلى أن عبادة الأصنام غير معقولة وبالتالي فلا يمكن أن تكون صحيحة: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (الأنبياء: ٥٢).

ودين الله لا يقر الإبقاء على عادة أو عبادة بحجة أنها موروثة وجزء من التراث الاجتماعي، إذا كانت تتعارض مع ما جاء به الدين من تشريعات حديثة: قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (الأنبياء: ٥٤-٦٣).

فانتصر صوت العقل على النقل والتقاليد البالية: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام: ٨٣).

والسماح للعقل بالتفكير بحرية وشفافية وبلا حدود نوع من الحكمة التي أودعها الله في كل شخص، ولكن ممارسة تلك الحكمة تعود إلى الشخص نفسه: وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (الأنبياء: ٥١) فالراشد من يستخدم عقله لا من يحمله.

ولم يتوقف إبراهيم عن تساؤلاته العقلانية بعد معرفته للخالق وبطلان عقائد قومه، وبعد أن أصبح رسولاً لله: وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ

ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة: ٢٦٠).

لقد أراد أن يقطع الشك باليقين في أمر خاص من أمور الخالق التي لا يتحقق الإيمان إلا بالتسليم به غيبياً، وهو قدرته سبحانه على بعث الموتى للحياة مرة أخرى، وهي عقلانية تنسجم مع محدودية عقل الإنسان الذي يصعب عليه الاقتناع بالغيبيات دون دليل مادي محسوس، وقد استجاب الله لإبراهيم وحقق رغبته، لأن سؤاله لم يكن لتبرير عدم إيمانه بالغيب، لأنه مؤمن، ولم يكن سؤاله مثل أسئلة مماثلة طرحها كفار كل الأمم السابقة على رسلهم للتعجيز وليس للإيمان واليقين، كطلب رؤية الله أو مخاطبته أو تنزيل ملائكة.

وهكذا أصبح إبراهيم رمزاً للعقلانية على مر العصور، وقد كافأه الله على تفكيره الحر، بأوسمة ونياشين إلهية لم يحصل عليها أي بشر ورد ذكره في القرآن الكريم.

فقد شرف الله إبراهيم ببناء، أو إعادة بناء، أول بيت لعبادة الله، في أرض الجزيرة على الأقل: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فإن الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

وأصبحت الطريقة التي تعبد إبراهيم بها ربه ملة لدين الله بعده: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل: ١٢٣).

ومن المظاهر الواضحة لتلك الطريقة الإبراهيمية التي بقيت من بعده على مر العصور: أداء شعائر الحج التي لم تتغير عن الطريقة التي أداها إبراهيم، وختان الصبي، والأضحية.

وعندما تسمى إبراهيم بالمسلم: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقرة: ١٣١) سمى الله كل من يتبع دينه مسلماً: وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (البقرة: ١٣٢).

وليستمر الإسلام كاسم لدين الله بعد ذلك: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى

النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الحج: ٧٨).

وباستخدامه العقل بكل شفافية وبلا حدود صار إبراهيم يعدل أمة كاملة: إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل: ١٢٠).

واستحق أن يختاره الله ليكون خليلاً له، مع أنه بشر: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَاتخذ اللّهُ إبراهيم خَلِيلاً (النساء: ١٢٥).

ومما سبق يتضح أن القرآن يمثل الكتاب الأول وبلا منازع، الذي يحث على استخدام العقل بلا حدود، وأن كل الآيات التي نزلت على كل الرسل كانت تحث الناس على تحكيم عقولهم للاهتداء إلى أن دعوة الرسل صحيحة، وأن دين الله حجر ألماس أصلي لا يخدشه أي حجر آخر، فلا خوف على الدين من العقل، كما أن أي نص يخالف هذا الحجر الكريم الأصلي سيتعرض للخدش دون أن يصاب الإسلام بأي أذى. وأن أي نص نظن أنه من الدين إذا ما خدشه نص آخر أو موقف عقلاني أو حقيقة علمية فلا يمكن أن يكون من الدين، وأن علينا تخليص دين الله منه. وأن علينا أن نتيقن أن أي آية قرآنية لا يمكن أن تخدش، ليس لأننا نتكلم بعاطفة كمسلمين، ولكن لأن الله الذي صدر منه القرآن يقول: قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ لْأنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (بني إسرائيل: ٨٨).

كما أن علينا أن نعقل أن أي نصوص قرآنية لا يمكن أن تتعارض مع بعضها، وإن بدت لنا كذلك فهو دليل على أن تفسيرنا لأحد الآيتين أو كلاهما كان خاطئاً.

وعلينا أن نعقل أن أي نص يعارض آية في كتاب الله فليس من الدين، وأن أي نصوص ليست قرآنية وتتعارض مع بعضها فليست من الدين: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً (النساء: ٨٢).

وعلى الرغم من كل ما تقدم، يستمر بعض رجال الدين على الإصرار بأن دين الله لا علاقة له بالعقل وأنه دين نقل، في جدال عقيم، ظاهره الدفاع عن دين الله، وحقيقته الدفاع عن أنفسهم حتى لا يطال النقد بروجهم العاجية التي بنوها لأنفسهم من عند أنفسهم وتحصنوا بها من دون أن يأتيهم بها كتاب من الله.

فنصبوا أنفسهم بأنفسهم أولياء لله في أرضه بحجج واهية لا يدعمها عقل ولا يسندها منطق وستتهاوى بمجرد توجيه أول نقد عقلاني لها». وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (الحج: ٥-٦).

ونحن مسلمون، والمسلم من تبع دين الله كما نزل على إبراهيم ومن بعده من الرسل حتى محمد، فإذا كان إبراهيم رائد العقلانية على مستوى البشرية، فهل من المعقول أن يحرم من التفكير أتباع محمد ويقبلون كمسلمين؟

وبعد كل ما تقدم، هل يعقل أن يبقى مكان لغير العقل في الإسلام؟

الركيزة الحادية عشرة: العمل الصالح

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (النحل: ٩٧).

جميع الركائز العشر التي ذكرناها هي من العمل الصالح، وفيما يلي مزيد من الآيات القرآنية التي تشير للأعمال الصالحة:

* العدل والتعامل الحسن بالقول والفعل والتواصل المادي والمعنوي بين الناس وعدم إقرار تفشي الفحشاء والمنكرات والبغي ومحاربتها: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل: ٩٠).

* عدم استخدام الأيمان الكاذبة للحصول على ما ليس بحق: وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (النحل: ٩٤-٩٧).

* التواضع والبعد عن الكبر والخيلاء والفحش من القول: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ

يَـمْـشُـونَ عَـلَـى الأرض هَـوْنـاً وَإِذَا خَـاطَـبَـهُـمُ الْـجَـاهِـلُـونَ قَـالُـوا سَـلاَمـاً (الفرقان: ٦٣).

* البعد عن تبذير الأموال والمصالح والثروات: وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (الفرقان: ٦٧).

* عبادة الله وحده، والبعد عن القتل والزنى: وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (الفرقان: ٦٨-٦٩).

* الابتعاد عن شهادة الزور والتزوير وأكل مال الغير، وفحش القول: وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (الفرقان: ٧٢).

* ذكر الله وتلاوة آياته وعدم هجر كتابه: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (الفرقان: ٧٣).

* الحرص الجاد على المحافظة على الأهل وتربية الأولاد: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً. أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (الفرقان: ٧٤-٧٦).

* عدم اتباع تشريعات غير تشريعات الله وحده سبحانه: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ (القصص: ٦٢-٦٦).

ويكون العمل الصالح إجمالاً هو الالتزام بكل أمر والابتعاد عن كل نهي ورد في القرآن الكريم.

الركيزة الأسمى: الإيمان بالله

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ

بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤).

الإيمان بالله كإله واحد أحد، تعني عدم إشراك غيره معه في العبادة، وهذا يعني عدم اتباع تشريعات غير التشريعات الإلهية التي صدرت من الله يقيناً وبلا شك أو ريب. والمشرع هو من تجب عبادته، وهذا يعني أن كل من تبع تشريعاً فقد عبد مشرعه. فمن عبد تشريعاً إلهياً فهو عبد لله، ومن تبع تشريعاً بشرياً فقد عبد المعبود وأشركه في العبادة مع الله. سواءً كان ذلك المعبود فقيهاً أو رسولاً، ولن يغني التابع عن المتبوع شيئاً يوم القيامة، يقول تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أعمالهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقرة: ١٦٥-١٦٧).

ولذلك جاءت الشهادة على هذا النحو: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبدالله ورسوله، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يزيد عن كونه عبداً لله ورسولاً له.

وهكذا بنى الله دولة الإسلام بواسطة رسوله محمداً، وترك فيها دستوره الإلهي الذي أنزله على شكل قرآن، ليحكمها إلى الأبد، وبين في ذلك القرآن الركائز الأساسية التي لا تقوم دولة الإسلام إلا بها، وضمن الله للمسلمين السعادتين في الدنيا والآخرة إن هم تمسكوا بتطبيق قوانينه. وكان دور محمد كرسول ناقل لرسالة ربه فقط، فإذا احتاج الناس أو موقف من المواقف حكماً رجع الرسول إلى ما لديه من القرآن وقرأه عليهم. وعندما اكتمل نزول القرآن، ومات رسول الله، أصبح القرآن هو المرجع.

وهذا ما كان من المفترض أن يستمر بعد وفاة رسول الله، فالله هو المشرع، وقد أنزل شرعه على الناس، وما على الناس إلا وضع القوانين التي يرونها تتناسب مع زمانهم وتحقق أهداف وغايات دستور الله من عدل ومساواة وحقوق ومعاملات وآداب وعبادات، دون أن يكون هناك ضرورة لوجود زعيم للدولة، لأن الزعيم لا بد أن يكون له رأي يفرض على غيره، وهذا يتنافى مع أبسط مبادئ العدل

والمساواة، ثم إن مجرد وجود رأس للدولة يعني أن لها ذيلاً، وهذا تمييز عنصري وطبقي جاء الإسلام بتحريمه. إضافة إلى أن أي تشريعات يصدرها الحاكم ويتبعها الناس فهي تعني أن الحاكم قد أصبح شريكاً لله، ودولة الإسلام لاحاكم لها إلا الله، ولا تشريعات تصدر فيها من غير الله. وكان الإسلام صريحاً في دستوره، فالتشريعات الدينية وكثير من التشريعات الدنيوية التي ذكرت في القرآن لا يجوز الأخذ بحكم غيرها. أما التشريعات الدنيوية الأخرى التي لم تذكر في القرآن فقد بين الإسلام أن على كل المسلمين وبلا استثناء التصويت على سن تشريعاتها أو تعديلها متى دعت الضرورة بذلك: وَالَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (الشورى:٣٨) وذلك حتى لا يتفرد شخص أو مجموعة من الناس بتشريعها، حتى لا يكون في ذلك شرك مع الله، أما لو اشترك الناس كلهم في تشريعها فلن يكون هناك مشرِّع ومشرَّع له، وحاكم ومحكوم.

وعندما مات الرسول كان موالي الجاهلية مثل بلال وعمار وصهيب وسلمان يوازون في العزة والمنعة والحقوق أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان، ولم يكن في المجتمع المؤمن في المدينة أحد يشكو من الفقر أو الحاجة أو الجوع على الرغم من الإمكانات الضئيلة لدى المسلمين بوجه عام في ذلك الوقت، ولكن نظام التكافل الاجتماعي والإنفاق كان مطبقاً بشكل صحيح. وكان آخر جيش للمسلمين عقده الرسول لحرب الغساسنة لأنهم قتلوا مسلماً، وليس لأنهم لم يقبلوا الإسلام. فالدخول في الإسلام خيار شخصي لكل الناس، أما قتل مسلم أو النيل من كرامته أو تعريضه لأي أذى جسدي أو معنوي أو نفسي فواجب على دولة الإسلام كلها أن تقف معه وتأخذ له حقه، لأن من قتل مسلماً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن آذى مسلماً فكأنما آذى الناس جميعاً. وقد كان ذلك الجيش بقيادة أسامة بن زيد ابن الثمانية عشر ربيعاً والذي كان أبوه أحد الرقيق قبل الإسلام. وكان الجيش مؤلفاً من كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعلي وسعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة وغيرهم ممن كانوا يوصفون بالسادة حسب المعايير البشرية قبل الإسلام، وذلك كتطبيق عملي للمساواة في الإسلام، لا طبقية أو تميز اجتماعي لأي سبب أو تحت أي مسمى، كما سبق وذكر في حديثنا عن الأسباب التي تمنع الناس من قبول الدعوة، وكيف أن مفهوم الخادم والمخدوم في الإسلام يقوم على «أن الأعمال يجب أن يقوم بها الناس بناءً على تقسيم حرفي وليس على تقسيم طبقي، وأن أي

عمل شرف لصاحبه ما دام يساهم في دفع عجلة الحياة الكريمة بغض النظر عن ماهيته. ولذلك فأي شخص يجب أن يسوق الحمير بنفسه أحياناً إذا تطلب منه الأمر ذلك ولا ينتظر غيره ليسوقها بالنيابة عنه، كما أن الشخص نفسه مؤهل لأن يمارس دور الأمير إذا اقتضت الظروف منه ذلك». أي أن تولي المناصب في دولة الإسلام يكون بالتدوير، ومن دون أن يكون هناك رأس أو زعيم دائم ومرؤوس دائم، ولذلك قاد الجيش أسامة وكان فيه كبار الصحابة، ثم انضوى أسامة تحت جيش آخر كان قائده واحد ممن كان تحت إمرة أسامة، وهكذا يجب أن تدار كل المناصب في دولة الإسلام.

ويضاف لعبادة الله وحده العمل الصالح، والعمل الصالح في القرآن يعني القيام بكل أمر والابتعاد عن كل نهي جاء ذكره في كتاب الله، لأن الدين كل لا يتجزأ. فلن يكون هناك عمل صالح لشخص يخالف أمراً واحداً أو نهياً إلهياً واحداً، ولو تبع كل ما عدا ذلك من أوامر قرآنية وانتهى عن كل النواهي، ما لم يَتُبْ وينب إلى ربه عن تلك المخالفة وجميع المخالفات توبة نصوحاً لا رجعة فيها (وقد تناولنا ذلك في ملحق التوبة).

ونختم هذا الفصل قائلين بأن حكم الله لدولة الإسلام عبر قوانين القرآن هو حكم على الأرض لا يمكن أن يجاريه أو يقترب منه أي حكم بشري على الإطلاق، ولكي يتضح ذلك أكثر، نورد تعريفاً مختصراً للديمقراطية بصورتها الأمريكية لأنها الأشهر بين كل الديمقراطيات الحديثة، لكي يتسنى للقراء إجراء نوع من المقارنة بينها وبين ما تم عرضه عن نوع الحكم الإسلامي الفريد.

الديمقراطية[1]

التعريف

الديمقراطية بكل بساطة تعني اختياراً حراً لمن يحق له الترشيح من المواطنين (المحكومين) لترشيح حاكم يتبع لحزب سياسي ينتمي إليه المواطن، وذلك لكي يتمتع الحاكم بممارسة الحكم لفترة محددة.

أما واقع الحال في الولايات المتحدة الأمريكية فيظهر التالي:

ليس كل الأمريكيين يحق لهم الانتخاب. ومن هؤلاء (٣٥) مليون مشرد، وفئات أخرى في المجتمع الأمريكي، مثل السكان الأصليين للبلاد.

وفي الولايات المتحدة ليس كل من يحق له الانتخاب يمارس حقه في الانتخاب.

وحتى من يرغب في ممارسة حقه في الانتخاب من المواطنين فسيجد أن لديه حرية محدودة جداً تتمثل في التصويت لترشيح ممثل الحزب الديمقراطي أو الجمهوري، الذي لم يرشحه أصلاً للوصول إلى الحزب، ولا يستطيع الفرد ترشيح من يراه خارج دائرة المرشحين الذين يتم ترشيحهم من دون موافقته. وبالتالي فكل الحرية التي لدى الناخب الأمريكي هي أن يختار من سيكون حاكمه من بين مرشحين مفروضين عليه ولم يخترهم.

واستمالة الناخبين للتصويت لصالح مرشح منافس على الرئاسة يتم عن طريق حملة دعائية، حيث يقاس نجاح الحملة الانتخابية بقدرتها على جذب المرشحين

---

(١) اعتمدنا في معلوماتنا هنا على كتابين هما: من يحكم أمريكا فعلاً/ يحيى العريضي ـ دار الرشيد ـ دمشق. وما هي الديمقراطية/ آلان تورين/ ترجمة حسن قبيسي ـ دار الساقي ـ بيروت.

للتصويت، عبر وعود بتحقيق بعض المطالب. أي أن المنصب الرئاسي يفوز به الأكثر ثراءً ودهاءً وبلاغة وتنظيماً بغض النظر عن أهلية المرشح للمنصب.

ولو أخذنا مثالاً على ترشيح الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش لرئاسة الولايات المتحدة في فترته الثانية لوجدنا أنه قد صوّت له عدد لم يزد عن ٢٠٪ من الشعب في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك فقد تولى الرئاسة وسير البلاد بسياسة رسمها كما يحلو له شخصياً بمشاركة مجموعة قليلة من المنتفعين حوله، ولم تحكم البلاد بالمشورة الشعبية.

شروط الديمقراطية المعلنة والفعلية

من شروط الديمقراطية التعددية، فلا تقوم في مجتمع يفترض وجود مؤسسات أو أخلاقيات أصلح من غيرها.

ولكن السياسة الأمريكية تفرض أخلاقيات محددة تعتبرها الأصلح ولا تسمح لغيرها بمجاراتها. فعلى سبيل المثال لم تسمح الولايات المتحدة بوجود أحزاب شيوعية في الخمسينيات وقامت بقمع كل من لديه ميول شيوعية.

ومن شروط الديمقراطية على الورق أن يكون هناك إيمان تام بالمواطنة، فلا تقوم في مجتمع لم يبن وحدته القومية، ولازالت الفروقات العرقية والمذهبية والمناطقية سائدة فيه.

والمجتمع الأمريكي، وإن كان يتغنى بقوة وحدته القومية، فهو في الواقع من أكثر المجتمعات التي مارست العنصرية العرقية، وإن كانت هذه المظاهر غير طافية على السطح الآن، إلا أنها موجودة، وتغلي تحت غطاء واه من التصنع الكاذب القابل للانفجار في أية لحظة.

أهداف الديمقراطية المعلنة، وما يطبق باسمها على أرض الواقع

من أهدافها المعلنة ما يلي:

ضمان الحرية الشخصية وإلغاء كل الضغوط السياسية والفكرية حتى يكون الإنسان مالكاً لمصيره قولاً وفعلاً.

فهل حصل حامل الجنسية الأمريكية على ذلك؟ أم أن الواقع يقول بأن المواطن الأمريكي أصبح عبداً لأجهزة السلطة السياسية والاقتصادية والعسكرية، التي غلبت

مصالحها على مصالحه، وليس له من الحرية إلا مالا يتعارض مع تلك المصالح، ولا يستطيع الحديث إلا في المواضيع التي تختارها له السلطة الإعلامية الرسمية للدولة وتوجهه لها.

ولعل مداهمات أفراد CIA وتعاملها الذي فاق كل قسوة وجبروت المباحث العربية، مع كل من يفكر بخلاف السياسة الحكومية شاهد على ما نقول.

ضمان العدل

لكن واقع الديمقراطية الأمريكية يظهر أنها لا تهتم بكل المواطنين على حد سواء، فهناك الكثير منهم يشعرون بأنهم مهمشون ولا تتاح لهم المشاركة في شؤون المجتمع، لأسباب اقتصادية (لأنهم فقراء)، أو أسباب سياسية (معارضين لسياسة الدولة العامة)، أو أسباب عرقية (مثل الهنود الحمر الذين لا حقوق لهم من دون ذنب اقترفوه إلا لأنهم أهل البلاد الأصليون).

ضمان حقوق الإنسان

وكل بنود هذه الحقوق قد تعرضت للاعتداء من قبل الحكومة الأمريكية التي اعتمدتها، وعومل بعض من يحمل الجنسية الأمريكية بتعسف واضطهاد فقط لأن أصله ودينه مختلف، ومن ذلك ما حدث للأمريكيين من أصل ياباني أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية حيث كانوا يحشرون في معسكرات تشبه أقفاص الحيوانات، مع معاملة فضة، على الرغم من أن ولاءهم كمواطنين لأمريكا لم يكن موضع نقاش. وكما حدث ولازال يحدث للمسلمين الأمريكان منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

كما تم سحق المعارضة السياسية والفكرية على الدوام ومخالفة أبسط وأهم بنود حقوق الإنسان، التي اتضح أنه يتم مراعاتها للجميع في الحالات العادية ما أمكن ذلك، ولكنها تصبح حكراً على الأمريكان الأنجلوساكسون، إذا لم تمس تصرفاتهم وآراؤهم مصالح السياسيين وصناع القرار. وحتى هؤلاء يتعرضون لأشد العقوبات إذا ما تجاوزوا الخطوط الحمر السياسية، مثلما حدث لجماعة ديفيد كورش الدينية في باكو، ولاية تكساس عام ١٩٨٦ عندما أحرقوا أحياء في قلعتهم التي تحصنوا فيها مع أطفالهم ونسائهم.

أن تحول الديمقراطية دون التعسف والسرية

ومع ذلك فليس كل ما يعد به الرئيس أثناء حملته الانتخابية يحققه، وكأن الديمقراطية الأمريكية مجرد منظمات سياسية مستبدة، وهي بذلك لم تختلف كثيراً عن الحكم الفردي المستبد إلا بكونها تتكون من حزبين، وإلا فهناك أعمال سرية لا يمكن أن يطلع عليها المواطن، وتصادر حريات الفكر والكتابة والإعلام، إذا تعارضت مع السياسة العامة للحكام.

أن تستجيب لمطالب الأكثرية

وليس لمطالب كل الناس وهذا في حد ذاته ظلم للباقين. ومع ذلك فليس هناك رئيس قد حاز أصوات أغلبية الشعب الأمريكي ولو بنسبة ٥٠.١٪، ولكن الرئيس يحوز أغلبية الذين قاموا بممارسة حق الاقتراع، من الذين يحق لهم الاقتراع أصلاً، والرئيس الحالي لم يحصل إلا على نسبة لا تزيد على ٢٧٪ من أصوات الناخبين الأمريكان في فترة رئاسته الأولى التي بموجبها أصبح رئيساً في العام ٢٠٠١.

وإذا ما فاز أحد المرشحين بمنصب الرئاسة، فإن المنصب يصبح شرفياً لصاحبه، كونه رئيساً لأقوى دولة في العالم، وبالتالي يحصل على ميزات سلطوية متعددة. فكل القرارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدستورية لا بد أن يوافق عليها الرئيس كشرط أساسي لدخولها حيز التنفيذ. ويكون الرئيس هو الشخص الفعلي المتفرد بإصدار القرارات الاستراتيجية للدولة، وليس هناك قرار استراتيجي يتم إصداره ما لم يصادق عليه الرئيس، حتى ولو وافق عليه كل أعضاء الكونجرس والشيوخ. أما الشعب فليس له رأي ولا يشارك في صنع هذه القرارات، وليس مطلوباً موافقته أو حتى تصويته، لأنه معزول عن التأثير في مثل تلك القرارات، فيما تبقى مهمة الإعلام التطبيل لأي قرار حكومي يتخذ، وإن وجد من وسائل أو رجال الإعلام من يعارض القرار، فسيسكت عنه ما لم يسبب صداعاً لصناع القرار، عندها سيحارب بضراوة لا حدود لها حتى يسكت.

ويستفيد الرئيس من ميزات معنوية ومالية هائلة نظير ممارسته لمنصبه، ليس مباشرة أو كرشوة، ولكن بتسيير أعماله التجارية الخاصة. كما يتمتع بحصانة دبلوماسية، وسياسية، تقف حائلاً دون سريان بعض القوانين والأحكام عليه. لأنه بمعنى آخر فوق هذه القوانين.

الدستور الديمقراطي

مستمد من قوانين مكتوبة وضعها مختصون على مر العصور، وموادها الأصلية غير ثابتة حيث يمكن أن تعدل أو تغير حسب الظروف أو السياسات. وقد شاهد العالم أجمع كيف غيرت وبدلت وتعامل معها الرئيس الأمريكي الحالي وكأنه زعيم عشيرة، يغير ما يريد من القوانين ويسن ما يريد ويلغي ما يريد، والجميع ينفذ.

الحريات

ليست مطلقة ولكنها تمارس حسب ما ينص عليه الدستور، ويمكن أن تتغير باختلاف الزمن والظروف وسياسة الحكومة الحالية. وللرئيس صلاحية تعطيل أو تعديل أي بند من بنود قوانين الحريات حسبما يراه ضرورياً.

الحقوق

ينص القانون على تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اللون والجنس والدين. ولكن لم يحدث في الواقع أن طبقت هذه المساواة حسب نص القانون منذ ولدت الديمقراطية الأمريكية وإلى اليوم.

السياسة العامة والمالية للبلاد

يشترك في رسمها مجموعة منتخبة هم أعضاء الكونجرس والشيوخ دون باقي الشعب الأمريكي. ويشترط تصديق الرئيس عليها، أي أن له تميزاً رئاسياً. فمثلاً أعلنت الحرب على أفغانستان والعراق بمجرد موافقة هؤلاء الأعضاء وتصديق الرئيس، وليس مطلوباً موافقة ولو بعض الشعب الأمريكي أو حتى التصويت على مثل هذه السياسة.

هذه باختصار أهم الخطوط العريضة للديمقراطية الأمريكية.

وفي الفصول المقبلة ستتضح الرؤيا حول الكيفية التي تحول فيها الناس من حكومة إسلامية لا مثيل لها في التاريخ البشري تنشر العدل والسلام والطمأنينة وتضمن الحقوق والمساواة وحرية الفكر بين الناس دون تفرقة جنسية أو قبلية أو لغوية، وتحث على العلم والمحافظة على البيئة الإنسانية من انتشار الفواحش، والبيئة الطبيعية والحيوانية وإبقاء توازنها، إلى الوضع الذي عليه المسلمون اليوم،

حيث أصبحوا أضحوكة للعالم الذي تتمتع شعوبه برفاهيات ومبادلات اقتصادية وخبرات صناعية، فيما لا يمثل العالم الإسلامي كله من الاقتصاد العالمي سوى ٣٪ أي أقل مما يساهم به أربعة ملايين سنغافوري يعيشون في دولة لا تزيد طول أراضيها في أقصى نقطة لها عن (٣٥) كيلومتراً.

وأصبح المسلم فقيراً، معدماً، جاهلاً، في زمن التقنيات وغزو الفضاء، مضطهداً من قبل حكوماته، ومطارداً من قبل الغير، إن دافع عن نفسه أو طالب بحقوقه فهو إرهابي وإن قتل فدمه مهدر وحلال، وإن عاش فليس له ذمة ولا يؤمن له عهد. وأصبح المسلم أبعد ما يكون عن سعادة الدنيا التي وعده الله بها كدليل على رضاه عنه، ومع ذلك يصر على أنه هو وحده من يمثل الله في أرضه وأن الجنة ستكون له خالصة من دون الناس.

مصادر الباب

- القرآن الكريم.
- الموسوعة الفقهية ـ إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة الكويت.
- الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- كتاب البخاري / الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- صوت الناس/ الصادق النيهوم/ الناشر: دار الريس ـ بيروت.
- من يحكم أمريكا فعلاً/ يحيى العريضي ـ دار الرشيد ـ دمشق.
- ما هي الديمقراطية/ ألان تورين/ ترجمة حسن قبيسي ـ دار الساقي ـ بيروت.
- حقوق الإنسان في الشريعة والقانون/ إسماعيل أحمد الأسطل.
- مقالات وتحقيقات منشورة في شبكة الإنترنت.

-

الباب التاسع

الخلفاء الراشدون

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا﴾ (مريم: ٥٩-٦٠).

* التحول عن الإسلام وإن بدأ منذ وفاة رسول الله، فليس المتسبب فيه الخلفاء، ولكنه كان سيحدث في كل الأحوال، كسنة كونية درجت عليها كل الأمم، من سبق منها ومن سيلحق.
* عصر الخلفاء الراشدين نظرنا إليه على أنه فترة زمنية حصل فيها تحول عن الإسلام، ولا يعني اتهاماً لهم أو محاكمتهم على ما حدث.
* من الحقائق التي لا يرغب الناس سماعها والتي حدثت بعد وفاة رسول الهدى أن الناس قد تحزبوا خلف ثلاثة أحزاب، كل حزب كان يتطلع إلى الحكم.
* لقد فاز أبو بكر بالزعامة ليس فقط لأنه كان من قريش بل ولأنه كان أقرب الناس إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.
* أبو بكر قبل بالمنصب مع أنه يعلم أن دولة الإسلام لا يجب أن يكون لها زعيم بشري.
* الخلافة في عصر أبي بكر وعمر كانت تعني نيابة الرسول في تنفيذ أوامر الشرع حرفياً دون اجتهاد أو عمل بالرأي. والخليفة من أواسط الناس له ما لهم وعليه ما عليهم دون تميز.
* قادة جيوش حرب المرتدين الأحد عشر كانوا ممن أسلم حديثاً وليس منهم أحد من قدامى المسلمين من المهاجرين والأنصار.

* جيوش حروب الردة والفتوح كانت مكونة من حديثي الإسلام ووثنيين ونصارى ومجوس وأديان أخرى، وقلة قليلة من المهاجرين والأنصار.

* حروب الردة، وإن كانت مبررة شرعاً، كان لها دور أساسي في تناسي الناس ضوابط الجهاد التي جاء بها الإسلام، والعودة بالحروب إلى المفهوم الجاهلي، إضافة إلى ابتعاد القرآن عن ثقافة المسلمين الجدد، وعلى نفس النهج سارت حروب المسلمين بعد ذلك.

* الأجيال التي دخلت الإسلام في عصور الفتوح الأولى، كانت لا تعرف من الإسلام إلا الشهادة والصلاة، ولم تستمد ثقافتها الدينية من القرآن الذي كانت تجهله.

* غياب القرآن الكريم عن ثقافة المسلمين الجدد كان السبب في محافظتهم على ثقافات متنوعة من أديانهم السابقة وتبنيها كثقافة إسلامية.

* تقسيم الجيش في الفتوح إلى عدة ألوية، كل لواء يضم أفراداً من قبيلة معينة، ساهم في إحياء القبلية العصبية بعدما كانت تحتضر بسبب محاربة الإسلام لها، فعادت أقوى مما كانت عليه في الجاهلية.

* البلاد المفتوحة لم ترحب بجيوش المسلمين، بل حاولت باستمرار الثورة عليها والعودة إلى سالف عهدها، لأنها لم تر من جنود تلك الجيوش سوى الغلظة وسبي النساء واسترقاق الرجال ونهب الخيرات والاستيلاء على الممتلكات.

* على الرغم من تقوى أبي بكر وعدل عمر فقد طرأ في عهدهما بدايات للتحول عن الدين في مجالات شتى، توسعت فيما بعدهما من عصور.

* اعتبرت الخلافة زعامة، وحقاً إلهياً عندما تمسك عثمان بها ولم يقبل بالتنازل بسبب تجاوزاته.

* عرفت الحروب الأهلية والصراعات الدموية من أجل الحكم لأول مرة في الإسلام في عهد علي بن أبي طالب.

* وفي ذلك العهد عرف السجن لأول مرة في الإسلام، وهو الذي يمثل درجة قصوى من النيل من حرية وكرامة الإنسان التي صانها الإسلام، ومهد الطريق لما يعرف اليوم بالاعتقالات السياسية وتجاوزات الاستخبارات والمباحث اللاإنسانية التي يئن تحت وطأتها المسلمون.

* وهناك العديد من التحولات التي طرأت على الدين تم تلخيصها في نهاية الباب.

لا بد من التأكيد أن موضوعنا ليس تاريخياً، وليس لدراسة عصر من عصور الصحابة أو غيرهم، ولا بحثاً في شخص أحد الخلفاء أو من عاصرهم أو جاء بعدهم، ولكن الحديث عنهم جاء في السياق أساساً لضرورة التعرف على الكيفية التي بموجبها تحولت دولة الإسلام التي ليس لها حاكم إلا الله وليس لها زعيم بشري، إلى دولة خلافة، وكيف تحولت دولة الخلافة مع الأيام إلى ملك عشائري وراثي، وتزامن ذلك مع تحور كل المفاهيم والتشريعات الإسلامية الإلهية إلى تشريعات بشرية متخالفة ومتفاوتة، أجبر المسلمون على ممارستها على أنها الإسلام، وعرفها غير المسلمين على أنه لا يوجد إسلام غيرها.

فجاء استعراضنا لعصور الصحابة كزمن، وليس للصحابة كأشخاص، ولم نعين أنفسنا قضاة على الأحداث لمحاكمة من قام بها، لأننا أقل من أن نكون كذلك، ولأن مجالنا هو فقط معرفة ما جرى وقبوله كما جرى. فكان لا بد من استعراض كيف بدأ التحول عن الإسلام، والذي كان حدوثه متوقعاً، كسنة قرآنية في كل الأمم، وكان تحوّل المسلمين عن الإسلام بموجب تلك السنة. وبدأ التحول منذ اللحظة التي توفي فيها رسول الله، وقد يكون بدأ والرسول لازال على قيد الحياة. وإذا كانت الأحداث التي وقعت زمن الخلفاء الأربعة استغلها الناس للتحول عن الإسلام، فهذا لا يعني أن الخلفاء متهمون بتحويل الناس عن الإسلام أو خلق الأجواء المناسبة لذلك. ولكن الأحداث لا بد أن تحدث، والتحول لا بد أن يكون، ولو لم يقاتل علي بن أبي طالب في صفين والجمل والنهروان، ولو لم يحدث ما حدث في سقيفة بني ساعدة، ولو لم تحصل تجاوزات في حروب الردة والعراق والشام وما بعدها، من سبي واسترقاق، ولو نسخ القرآن منذ وفاة الرسول وأرسلت النسخ للأمصار، ولو لم تحدث هذه الأحداث وغيرها في عصر الخلفاء

الأربعة، والتي كانت سبباً في استغلال الناس لها في التحول عن الدين، لوجد الناس أسباباً أخرى ولتحولوا بموجبها عن الدين، ليتبعوا سنن من كان قبلهم.

ويكون تناولنا للأحداث التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين، ضرورة لفهم كيف بدأ الناس تحولهم عن الدين حتى وصل المسلمون إلى ما هم عليه الآن، ونكون كأننا نظرنا إلى فترة أولئك الخلفاء على أنها عصر وزمن وليس على أنها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

ولأننا لن نتمكن من استعراض الأحداث دون ذكر الأشخاص، فقد جاء ذكر الأشخاص ليس من قبيل الاتهام، ولكن للضرورة. مع تسليمنا بأن بعض الأحداث قد تتعارض مع مسلمات سمعناها ودرسناها وحفظناها منذ نعومة أظفارنا، معتبرينها الحقيقة المطلقة، لأن ثقاتنا قد اعتبروها كذلك.

وسنحاول قدر الإمكان البعد عن الخوض في التفاصيل الدقيقة، لأن التفاصيل لا تحمل أهمية لبحثنا، ولأنها مجال للمؤرخ أو الراوي أن يسرب عبرها أفكاره وميوله الشخصية، التي لا تعنينا ولا تعيننا في شيء.

فكل ما يهمنا هو كيف كانت الخلافة؟ وكيف كان وضع المسلمين في ظلها؟ وكيف تحولت إلى ملك وممالك؟ وكيف أصبح حال الناس فيها؟ وبما أن التحول بدأ منذ توفي رسول الله، ومروراً بعهد الخلفاء الأربعة، وترسخ في عهد بني أمية واكتمل هذا التحول في العصر العباسي، فسنستمر في استعراض هذه العصور لمعرفة كيف حدث ذلك، مع الابتعاد ما أمكن عن العاطفة المسبقة التي حفرت صوراً ناصعة وخالية من النقص أو العيب لأشخاص الصحابة والخلفاء.

سقيفة بني ساعدة

يروي ابن الأثير في الكامل في التاريخ والطبري في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية كما في كتب السير الأخرى وغيرها من كتب الأخبار، أنه لما توفي رسول الله كان أبو بكر بمنزله بالسنح (خارج بلدة المدينة)، ولما بلغه خبر وفاة رسول الله أقبل حتى نزل على باب المسجد ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة، ورسول الله مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ثم رد البرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج[1].

وعندما خرج أبو بكر من بيت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان بعض الناس مجتمعين خارج البيت، فقام فيهم خطيباً، ومما قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين[2] (آل عمران: ١٤٤).

وفي تلك الأثناء كان الناس في هرج ومرج حول ما سيؤول إليه حال المسلمين بعد وفاة رسول الله. وقد تُرك جسده مسجى عند أهله، ولم يوارَ جثمانه في الثرى إلا فجر اليوم الثالث من الوفاة، على اعتبار أنه عليه الصلاة والسلام قد توفي ضحى يوم الاثنين، ودفن فجر يوم الأربعاء، حسب ما ورد في سيرة ابن هشام

(١) البداية والنهاية ـ فصل في كيفية احتضاره (ص) ـ ج٣ ص٢٣٧.

(٢) انظر المصدر السابق نفسه.

تحت عنوان: الصلاة عليه ودفنه صلى الله عليه وسلم. بينما سارع الناس منذ اللحظة التي انتشر فيها خبر الوفاة إلى التجمع على شكل ثلاثة أحزاب، كل حزب يطلب زعامة الدولة الفتية.

الحزب الأول، كان يضم بنو هاشم بزعامة علي ومعه الزبير وطلحة وخالد بن سعيد بن العاص ومن بقي من زعماء طلقاء مكة وعلى رأسهم العباس وأبو سفيان بن حرب. وقد اجتمعوا في بيت علي بن أبي طالب.

الحزب الثاني، ضم جمهرة من الخزرج، الذين تجمعوا في سقيفة بني ساعدة بزعامة سعد بن عبادة والحباب بن المنذر الذي قال للرسول عندما عسكر بجيش المسلمين في غزوة بدر: يا رسول الله هذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه أم هو الرأي والحرب فقال بل هو الرأي والحرب فقال الحباب كلا ليس هذا بمنزل.

والحزب الثالث، لبقية المهاجرين بزعامة أبي بكر وعمر ومعهم الأوس بزعامة فارسهم يوم بعاث أسيد بن حضير، وقد اجتمعوا في بني عبد الأشهل.

وإلى تجمع هذا الحزب سارع عويم بن ساعدة الأوسي ومعن بن عدي حليفهم، منذرين بأن الخزرج على وشك أن يعلنوا سعد بن عبادة زعيماً للمسلمين في تجمعهم الذي يجري في سقيفة بني ساعدة، وأن عليهم أن يسرعوا إلى هناك إن كان لديهم أي توجه في الحصول على الحكم.

يقول ابن إسحاق: ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله (ومعهم العباس) في بيت فاطمة[1]، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير، في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبي بكر انطلق بنا إلى

---

(١) هو بيت علي بن أبي طالب.

إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه. انتهى كلام ابن هشام في السيرة[1].

وقد سارع فعلاً أبو بكر وعمر وبقية أفراد الحزب إلى السقيفة، واستمعا إلى خطبة سعد بن عبادة التي حث فيها قومه على التمسك بحقهم في تولي (هذا الأمر) أي زعامة الدولة، ومما قاله حسبما نقله ابن الأثير في الكامل: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل وكان ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت ونوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا.

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية، نقلاً عن عمر بن الخطاب في حديث له عن ذلك الموقف قوله: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر (أي أن سعد وقومه يريدون أن يستولوا على الحكم الذي يراه عمر أنه من حق حزبه) والدليل على ذلك هو ما أورده ابن كثير على لسان عمر في نفس السياق، حيث يقول: فلما سكت (أي سعد) أردت أن أتكلم (والكلام على لسان عمر)، وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه،

---

(١) فصل سقيفة بني ساعدة ـ الاختلاف بين المهاجرين والأنصار ج٤ ص٢٢٥.

فتكلم وهو كان أعلم مني، وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها قي بديهته، أو مثلها أو أفضل حتى سكت.

قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قاله غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك إلى أثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. فقام الحباب بن المنذر فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة فقال عمر إذا يقتلك الله قال بل إياك يقتل. انتهى.

وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، ولكن الأمر حسم في النهاية بترشيح أبي بكر للزعامة، نتيجة لسببين هما:

١- قبول الأوس مبايعة أبي بكر وكان ذلك بقيادة رجلين من أهم رجالهم وهما بشير بن سعد وأسيد بن حضير، وذلك لقطع الطريق على تولي الخزرج الأمر دونهم. ويقول الطبري في حديثه عما حصل في السقيفة أن الأوس قالت: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا...

٢- عدم حضور أفراد حزب تحالف الهاشميين والطلقاء للسقيفة والدخول في المناظرة الرئاسية والتأثير على سير التصويت، وبالتالي فقد حصل أبو بكر على أغلبية أصوات من كان موجوداً في السقيفة، وأصبح أول زعيم لدولة المسلمين.

وقد بقي سعد بن عبادة وحزبه من الخزرج معارضين لتولي حزب أبي بكر الزعامة، ويقول الطبري: فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يُجمِع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم.

كما عارض حكومة أبي بكر أيضاً الحزب الثالث المكون من بني هاشم وعلى

رأسهم العباس والفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب، ومعهم طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص وكبار طلقاء مكة مثل أبي سفيان بن حرب.

ومن الطبيعي أن لا يقبل هذين الحزبين بتولي الحزب الثالث الزعامة، لأن كل حزب كان يتطلع للوصول إلى الحكم، ولذلك لم ينضم الحزب الهاشمي لمؤازرة سعد بن عبادة ضد أبي بكر، ولا لمؤازرة أبي بكر ضد سعد، ولم ينضم أي حزب مع حزب آخر ضد الحزب الثالث.

ومع أن حزب الخزرج بقي معارضاً، إلا أنه انسحب من الساحة السياسية بصمت وإلى الأبد، فلم يسجل تاريخ المسلمين أي ثورات داخلية على الحكام قام بها الأنصار أو نسلهم، ولم يطالب أحد منهم بالحكم، ومن اليسير إرجاع ذلك إلى أنهم مجتمع تعود الانقياد لحكم الغير، منذ أن كانوا تحت سيطرة اليهود لمئات السنين قبل مجيء الإسلام.

أما حزب الهاشميين والطلقاء فقد فضلوا عدم الحضور إلى ساحة الصراع المكشوف على الحكم في السقيفة، وانتظار ما ستتمخض عنه الأوضاع، فلما عرفوا أن أبا بكر هو من فاز بالرئاسة، كان هناك ميول من بعض أفراد الحزب للثورة العسكرية والاستيلاء على الحكم، ولكن بقية الأفراد لم يحبذوا الفكرة، وهذا ما يؤكده الطبري في حديثه عن السقيفة، حيث يقول: وقيل لما اجتمع الناس على أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر في أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟ ثم قال لعلي ابسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً. اهـ.

وعلى الرغم من أن أمنية أبي سفيان لم تتحقق، إلا أن التطلع للوصول إلى الحكم بقي هاجس أفراد هذا الحزب، ويلاحظ أنه ما عدا خالد بن سعيد بن العاص الذي كان رابع أو خامس من أسلم برسول الله[1]، فإن كل من عارض

---

(١) كما ورد في ترجمته التي في الإصابة في تمييز الصحابة.

حكومة أبي بكر من الحزب الهاشمي ومؤيديهم قد طالب هو أو بنوه بالحكم بعد ذلك، فمنهم من استطاع الحصول عليه ومنهم من مات دون ذلك.

وحسب ما تطالعنا به كتب التاريخ، فإن علي بن أبي طالب قاتل ردحاً من الزمن كل من نافسه على الحكم، وأخيراً قتل قبل أن يحصل عليه، ثم جاء بعد ذلك ابنه الحسين وحاول الثورة ضد بني أمية ولكنه قتل. وقد قتل طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام في معركة الجمل التي قادتها عائشة أم المؤمنين ضد علي بن أبي طالب، وهو ما يعني أن هذا الحزب قد انقسم على نفسه بعد مقتل عثمان بن عفان. وبعد ذلك جاء عبدالله بن الزبير واستقل بمكة لبعض الوقت قبل أن يقضي عليه الحجاج قائد جيش الأمويين في العام (٧٣) للهجرة. وأول من نجح في الوصول إلى السلطة ودانت له دولة المسلمين من ذلك الحزب كان معاوية بن أبي سفيان.

والتطلع للحكم من قبل أفراد هذا الحزب يعود إلى ما قبل وفاة رسول الله، وهو ما يظهره الحديث الذي دار بينهم أثناء مرض الرسول الأخير وقبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه، حسب ما نقل ابن هشام في سيرته، حيث يقول: قال ابن إسحاق: قال الزهري وحدثني عبدالله بن كعب بن مالك، عن عبدالله بن عباس، قال: خرج يومئذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أصبح بحمد الله بارئاً، قال: فأخذ العباس بيده، ثم قال: يا علي، أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس. قال: فقال له علي: إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده.

فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أشتد الضحاء من ذلك اليوم. انتهى[١].

---

(١) سيرة ابن هشام ـ فصل تمريض رسول الله في بيت عائشة/ شأن علي والعباس قبل وفاته ج٤ ص٢٢٣.

ومن أهم ما يلاحظ على هذا الخبر ما يلي:

* أن العباس الذي لم يدخل الإسلام إلا يوم فتح مكة كأحد الطلقاء، ولم يهاجر إلى المدينة لأن الهجرة قد انتفت بعد الفتح، يبدو أن وجوده في المدينة، كان بعد أن علم بمرض الرسول، حرصاً منه وأملاً في أن يؤول حكم المسلمين إلى عشيرته.

* وأن علي بن أبي طالب لم يمتنع عن الموافقة على اقتراح العباس بالذهاب إلى الرسول والاستفسار منه عن مصير الحكم، إلا لخوفه أن لا يعطيه إياه الرسول، ويتعالم الناس بذلك وبالتالي لن يكون بإمكانه المطالبة به في وقت لاحق أبداً، وهذا ما يعنيه بقوله «إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده». فامتنع عن الذهاب لكي يترك لنفسه الفرصة للمطالبة بالحكم فيما بعد.

* وأن علياً كان يطمع للارتقاء إلى سدة الحكم منذ وفاة رسول الله، سواءً كان هذا بتحريض العباس له أو أنه كان هو من أخبر العباس وبعض بني هاشم برغبته تلك، ولقي منهم آذاناً صاغية.

وهنا يجب أن نشير إلى أن كل ما يرد في كتب الأخبار وبلا استثناء هو قصص وأحاديث ظنية الثبوت، يصدق عليها كلاً أو جزءاً الصدق والكذب، وقد يتداخل في القصة الواحدة الصدق مع الكذب والخيال مع الحقيقة، وأن أخذ هذه الأخبار بتفاصيلها والاستدلال بها على وقائع تاريخية قد يظلم الواقع ويجافي حقيقة ما حدث. لذا فإننا وإن أوردنا بعضاً من هذه الأحاديث والقصص إلا أننا لا نصدق تفاصيلها، ولكننا نأخذ بخطوطها العريضة فقط، والتي يؤيدها الواقع. فمثلاً الواقع يقول بأن أبا بكر أصبح أول زعيم للدولة الإسلامية، ولكن هل تم هذا حسب ما روته كتب الأخبار بتفاصيله، والتي أوردنا نزراً يسيراً منها أم لا؟

وهل قال أبو سفيان والعباس ما قالت كتب الأخبار أنهما قالا لعلي؟ لا ندري!

ولكن المؤشرات التاريخية تؤيد أن علياً وبعض قريش كانوا يتطلعون للوصول إلى الحكم ولذلك لم يقبلوا حكم أبا بكر، كما أن من تحزب مع سعد بن عبادة من أهل المدينة وخاصة بعض قومه الخزرج، لم يوافقوا على زعامة أبي بكر أيضاً.

وما يهمنا هنا هو أن فوز حزب المهاجرين بالحكم جاء لأن زعيمهم كان أبا بكر، الذي يمتاز بميزتين هامتين لم تجتمعا معاً في أي زعيم حزب منافس، وهما:

١. أنه قرشي في المقام الأول.

٢. وأنه أقرب القرشيين إلى رسول الله، فقد كان صديق صباه وأول من آمن به وسانده في دعوته، بجهده وماله، وكان رفيقه في الهجرة: إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثنين إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٤٠).

وقد تسبب فرض زعيم للدولة ومن قريش بسن العديد من السنن التي خالفت ما جاء به الإسلام، لعل من أهمها:

الخروج على مفهوم الحكم الإسلامي المتمثل في تحكيم كتاب الله، من دون زعامة بشرية. حيث أن الناس فهموا دولة الإسلام على أنها كأي دولة أخرى: زعامة زعيم، وشعب من المواطنين. وأن تطبيق العدل بين الناس يأتي من عدل الحاكم. فاختاروا زعامة أبي بكر ظناً منهم أنه أفضل من سيحكم بعدل.

ويحتمل أن يكون الزمن الذي عاش فيه المسلمون الأوائل لم يساعدهم على تسيير دولة الإسلام بموجب دستورها القرآن وصياغة قوانينها بموجب ذلك الدستور، وجعل تلك القوانين هي الحاكم الفعلي للدولة، فيما نزل فيه حكم في القرآن، وسن القوانين الخاصة بالأمور الدنيوية بموجب استشارة كل المسلمين، ومن دون رأي أحادي لزعيم عشائري. فاعتقدوا أنه لا بد من وجود قائد للدولة، يشترط أن يتصف بصفات فاضلة دينية وأخلاقية وهي ما تتوفر في أبي بكر أكثر من غيره، وفي الواقع لو أن دولة الإسلام تحتاج إلى زعيم بشري بعد الرسول فلن تجد من هو أفضل من أبي بكر من وجهة نظر غالبية الصحابة.

وقد نقل ابن هشام في سيرته أن أبا بكر نفسه كان يعلم بأن دولة الإسلام ليس فيها شخص حاكم ومواطنون محكومون، وليس فيها حتى رئيس ومرؤوس في كل الأحوال والأعمال اليومية العادية التي هي أقل من منصب الحكم، ولكن أبا بكر مع ذلك قبل منصب الزعامة ظناً منه أنه درءٌ لمفاسد أعظم.

يقول ابن هشام في سيرته تحت عنوان: **وصية أبي بكر رافع بن أبي رافع**[1].

قال: وكان من الحديث في هذه الغزوة، أن رافع بن أبي رافع الطائي، وهو رافع بن عميرة، كان يحدث ـ فيما بلغني ـ عن نفسه، قال: كنت امرأً نصرانياً وسميت سرجس، فكنت أدل الناس وأهداهم بهذا الرمل، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية، ثم أغير على إبل الناس فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه، حتى أمر بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام فأستخرجه، فأشرب منه، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل؛ قال: فقلت: والله لأختارن لنفسي صاحباً، قال: فصحبت أبا بكر، قال: فكنت معه في رحله، قال: وكانت عليه عباءة له فدكية، فكان إذا نزلنا بسطها، وإذا ركبنا لبسها، ثم شكها عليه بخلال له، قال: وذلك الذي له يقول أهل نجد حين ارتدوا كفاراً: نحن نبايع ذا العباءة!.

قال: فلما دنونا من المدينة قافلين، قال: قلت: يا أبا بكر، إنما صحبتك لينفعني الله بك، فانصحني، وعلمني، قال: لو لم تسألني ذلك لفعلت. قال: آمرك أن توحد الله، ولا تشرك به شيئاً، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتغتسل من الجنابة، ولا تتآمر على رجل من المسلمين أبداً. قال: قلت: يا أبا بكر، أما أنا والله فأني أرجو أن لا أشرك بالله أحداً أبداً، وأما الصلاة فلن أتركها أبداً إن شاء الله وأما الزكاة فإن يك لي مال أؤدها إن شاء الله، وأما رمضان فلن أتركه أبداً إن شاء الله، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله تعالى، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله. وأما الإمارة، فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يشرفون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بها، فلم تنهاني عنها قال: إنك إنما استجهدتني لأجهد لك، وسأخبرك عن ذلك: إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا الدين، فجاهد عليه حتى دخل الناس فيه طوعاً وكرهاً، فلما دخلوا فيه كانوا عواذ الله وجيرانه، وفي ذمته،

(١) وقد وردت القصة في طبقات ابن سعد الكبرى ج٦ ص١٣١، وفي الاستيعاب وفي الإصابة وغيرهما من كتب التاريخ والسير.

فإياك لا تخفر الله في جيرانه، فيتبعك الله في خفرته، فإن أحدكم يخفر جاره، فيظل ناتئاً عضله، غضباً لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير، فالله أشد غضباً لجاره، قال: ففارقته على ذلك.

قال: فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر أبو بكر على الناس، قال: قدمت عليه، فقلت له: يا أبا بكر ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين؟ قال: بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك؛ قال: فقلت له: فما حملك على أن تلي أمر الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بداً، خشيت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الفرقة. انتهى كلام ابن هشام.

ومما تسبب فيه فرض زعيم لدولة الإسلام، الظن بأن الحكم يجب أن يكون في قريش، بعد الرسول، وقد أدى ذلك فيما بعد إلى القول بالحق الإلهي لحكومات قريش، الأمويين منهم أو العلويين من نسل علي أو العباسيين من نسل العباس، مما أدى إلى فرض سيطرة هذه القبيلة على التحكم بدولة المسلمين لمئات السنين دون أن يستطيع الناس التحرر منهم، لأنهم اعتقدوا أن طاعتهم من طاعة الله وأن نقدهم أو الخروج عليهم خروج على الدين. وتولّد اعتقاد بأنهم جاؤوا بمشيئة الله وبقوا بحفظ الله. ثم تحول هذا الاعتقاد إلى كل من يتولى حكم دولة من دول المسلمين إلى اليوم ولو لم يكن من قريش. وقد دان حكم المسلمين للقرشيين حتى انتهت حكومة العباسيين في القرن السابع على يد التتار، وحكومة بني أمية في الأندلس على يد الإسبان في آخر القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري).

وهكذا تم تولي أبي بكر السلطة، فكيف كانت أهم ملامح سياسته.

أبو بكر
«لم يرد الدنيا ولم ترده»[١]

أهم ما ميز سيرة أبي بكر في خلافته، حسب ما فهمناه من كتب الأخبار، ما يلي:

* أن أبا بكر نفسه فهم أن منصب الخلافة لا يعني السلطة، ولذلك حاول ألا يتميز عمن سواه بأي شيء. فلم يقبل أن يطلق عليه أي لقب تشريفي معروف، ولم يكن ملكاً ولا سلطاناً ولا حاكماً ولا والياً ولا زعيماً. لقد كان واحداً من الناس، ولم يكن متميزاً بأي ميزة تزيده عن أي فرد في تلك الدولة، إلا أنه أكثرهم تكليفاً وأقلهم راحة. فهو يعتبر نفسه نائباً عن رسول الله ـ الذي غيبه الموت ـ لتنفيذ شرع الله بين العباد.
ولقد قال في أولى خطبه[٢]: فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم (أي أنني إنسان من أوسطكم، فهناك من هو خير مني في أمور، وهناك من أنا خير منه في أمور).
وزعيم العشيرة ينظر إليه وينظر هو إلى نفسه على أنه لا يجارى في الحكمة، وأن رأيه السديد لا يدانيه رأي آخر.

* أن أبا بكر فهم الخلافة على أنها ليست منصباً تشريفياً لكسب الجاه، بل منصباً تكليفياً لتنفيذ شرع الله. فحاول تطبيق قول الله تعالى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

(١) هذه العبارة والعبارات الثلاث الأخرى التي وصف بها الخلفاء الراشدون الثلاثة الآخرون، نقلتها كتب التاريخ، وقد تمثل بها معاوية ابن أبي سفيان بعد توليه الملك، حسبما ذكر الطبري في تاريخه ضمن حديثه عن أحداث سنة ستين.

(٢) سيرة ابن هشام ـ فصل خطبة أبي بكر بعد البيعة.

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (النور: ٥١) على الناس جميعاً وأول من بدأ به نفسه وأهل بيته. ويوضح ذلك قوله في ختام خطبته الأولى: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله (أي أنني سأجري عليكم ما قرره الله ورسوله من أحكام دون تبديل) فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم (أي فإن بدلت أوامر الله ورسوله فلا أستحق أن أبقى في موقعي وعليكم التخلص مني وتولية من ينفذ شرع الله ورسوله).

* لم يحط أبا بكر نفسه بحصانة أو ميزات خاصة. فكل فرد في المجتمع يمكن أن يحاسبه ويراقبه، إذ يقول: فإن أحسنت فأعينوني (بكل ما تعنيه الكلمة من معنى العون) وإن أسأت فقوموني (بكل ما أوتيتم من وسيلة).
وهذا يعني أنه لم يرد أن يكون رأيه فوق رأي الجميع، بل هو رأي من بين الآراء بلا زيادة أو تميز. فإن كان اختياره صواباً فعلى الجميع بلا استثناء أن يساندوه لأنه صواب، لا لأنه رأي أبي بكر. وإن أساء عن قصد أو من دون قصد فيجب على الجميع من دون استثناء أن يقوموه ويعيدوه للصواب وبكل وسيلة ممكنه، فإن لم ينفع معه التقويم لزم بتره كالعضو المصاب بالمرض العضال إن لم يبتر استشرى في الجسد كله.
وهذا يظهر وعي أبي بكر بالمساواة التي فرضها الإسلام، فهو قد رضي أن يكون خليفة، ظناً منه أن هذا سيدرأ الفرقة عن المسلمين، كما جاء في وصيته لرافع بن أبي رافع المتقدمة، ولكنه لم يعتبر أن للخليفة أي تميز، فهو يحاسب على كل صغيرة وكبيرة ويطبق عليه العقاب والثواب مثله مثل كل شخص في الدولة المسلمة ومن دون حصانة. فالناس في نظر الله واحد، مطالبون بالواجبات نفسها، ولهم الحقوق نفسها.

* كان يرى نفسه مكلفاً بتوصيل الحقوق إلى الناس بالتساوي، حيث يقول: الضعيف فيكم عندي قوي حتى أريح عليه حقه إنشاء الله، والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إنشاء الله. فهو يطبق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. فالناس يحكم بينهم بالتساوي دون اعتبار لمن يكونوا، ولا وجود لأسرة حاكمة لها ميزات ملكية.

* كان يرى أنه إن أحسن فله أجره وإن أساء فعليه وزره، وليس له مقابل عمله كخليفة أي أجر دنيوي أو معنوي. فهو فقط ينوب عن رسول الله في تطبيق شرع الله، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسل لتبليغ شرع الله وتحكيمه في الناس من دون أن يسألهم عليه أجراً، لأن أجره على الله رب العالمين، ولو طلب أجراً، فما بلغ رسالة ربه، ولتحول إلى تاجر. لذا فقد أعاد أبو بكر كل المبالغ التي صرفها له أمين بيت المال أبو عبيدة مقابل قيامه بأعباء الخلافة، قبل وفاته.

* كان يرى أن الخلافة تعني نيابة الرسول في تنفيذ أوامر الشرع حرفياً دون اجتهاد أو عمل بالرأي، فهو ليس بمشرع، وإنما أمين على تنفيذ أمر الله، نيابة عن رسوله، الذي كان ينوب عن ربه. ومن هذا المفهوم بادر بتجهيز جيش أسامة بن زيد والذي ضم جل صحابة رسول الله في ظرف، وصفه هشام بن عروة عن أبيه أنه جاء في وقت ارتدت العرب... ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، لفقد نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وقلتهم، وكثرة عدوهم. فقال له الناس: إن هؤلاء (أي الذين في جيش أسامة) جل المسلمين. والعرب على ما ترى قد انتقضت عنك (بالردة)، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين (وأنت بحاجتهم). فقال أبو بكر: والذي نفس أبو بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله (ص)، ولو لم يبق في القرى غيري (مسلم) لأنفذته (أي لذهبت لتلك الغزوة وحدي)، فلا يهم تحت أي ظرف يكون التنفيذ. فهو لا يستطيع أن يكون مبتدعاً فيرى أن يستعين بجيش أسامة لحرب المرتدين وحماية المدينة، مع أنه بحاجة إلى ذلك، لأن الرسول أمره بتنفيذه ولم يعطه خياراً آخر أو صلاحية بالعمل برأيه. وللسبب نفسه احتد على من حاول أن يثنيه عن محاربة الذين بقوا على إسلامهم ولكنهم امتنعوا عن المستحقات المالية لبيت مال المسلمين في المدينة قائلاً: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه. لأنه لو سمح لهم بعدم دفع العقال على حقارته، فسيتحول إلى مبتدع يسير بما يراه، وليس بما كان متبعاً وقت الرسول، وهو لم يخلف الرسول ليخالفه وليس مهماً إن كان هذا

الاختلاف كبيراً أو صغيراً بقدر العقال، لأن الإنفاق يجب أن يصل إلى بيت المال ويصرف منه على دولة المسلمين وحاجاتهم (كما سبق وبين في الكلام عن الإنفاق).

* طبق مبدأ العدل بين المسلمين دون تمييز، بالطريقة التي ظنها أنجع الطرق لتحقيق ذلك، لأن العدل أساس الحكم الإسلامي، والخليفة واحد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم. فحكم بين الناس بالحق وبعيداً عن العاطفة. فلم يكن هناك محاباة لأحد، ولو كان بنت الرسول، لأن الناس جميعاً سواء في نظر الشرع. قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً (النساء: ١٣٥).

* كان أبو بكر أول خليفة بعد الرسول، الذي كان صلى الله عليه وسلم يبايع الناس (أي يشهد على إسلامهم) كما جاء في الآية ١٢ الممتحنة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاستغفر لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الممتحنة: ١٢).

أو كان يعاهدهم على الثبات في محاربة قريش لتحرير مندوب رسول الله الذي بعثه لهم يوم الحديبية، وأشيع أنهم أسروه أو قتلوه، وهو ما نص عليه قوله تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (الفتح: ١٨).

ولم يعاهد الرسول الناس على أنه حاكم يسمعون له ويطيعون ولو أخذ أموالهم أو اغتصب حقوقهم أو جلد ظهورهم.

أما أبو بكر فقد عاهد الناس على أن ينفذ مهمته الجديدة الثقيلة بمساعدتهم. ولم يكن هناك بيعة ولاء منهم له لأن واليهم الله، وليس هناك ما يجبرهم على السمع والطاعة العمياء له، ولذلك قال ساعدوني إن أصبت وقوموني إن أخطأت. ولم تعرف صيغ البيعة التي تعني الخنوع والطاعة العمياء

للسلطان والتعهد بعدم الحنث، إلا لاحقاً عندما أصبح هناك من اعتقد بأنه ملك البلاد والعباد، أما أبو بكر فقال في أول خطبة له: لقد وليت عليكم ولست بخيركم (ولم يقل: لقد بايعتموني، على السمع والطاعة وعدم مفارقة الجماعة، أي عصيان السلطان).

* اعتمد القرآن أصلاً وحيداً لدستور الدولة، تصديقاً لما جاء في قوله تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً (النساء: ١٠٥) وفي آيات كثيرة منها الآيات ٤٤-٤٩ من سورة المائدة، والآية ٥٢ من سورة الأعراف، والآية ٤٥ من سورة العنكبوت، والآية ٩٢ من سورة النمل والآية ٤٥ من ق.

وكان من أول ما قام به بعد محاربة المرتدين هو تكليف زيد بن ثابت بمراجعة المصحف الذي كتب ورتبت آياته بإشراف رسول الله، والتأكد من أنه كامل، وآياته مقروءة، ومن ثم قام بحفظه عنده، حتى يمكن الرجوع إليه وقت الحاجة.

وبما أن الحياة بسيطة ولم تعرف التعقيدات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي نعرفها الآن، إضافة إلى أن العرب ليسوا أهل دول ولا يعرفون كتابة القوانين، فإن أبا بكر لم يقم بكتابة دستور للدولة على شكل فقرات وبنود ومواد، واكتفى بقدرته على استنباط الأحكام من القرآن مباشرة. ولم يسمح بأن يخلط كتاب الله بما سواه ولو كان تحديثاً عن أخبار رسول الله وأقواله، وقد جمع الناس، كما جاء في تذكرة الحافظ، وقال: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً. فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه.

ولم يعتمد بجانب القرآن أي مصدر آخر، خاصة وأن من آخر ما سمعه عن رسول الله في مرضه الذي مات فيه قوله صلى الله عليه وسلم: إني والله ما تمسكوا علي بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن، كما ورد في سيرة ابن هشام، فصل اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يعرف عن أبي بكر أنه حكم بموجب حديث لفظي منسوب إلى

الرسول، وكان مقلاً جداً في الرواية عن الرسول مع أنه لم يصحب أحد رسول الله مثلما صحبه أبو بكر.

* كان حذراً جداً من الاقتراب من الكبر والخيلاء اللذين هما من نواقض الإسلام. فعاش حياة بسيطة، على الرغم من أنه كان ميسور الحال. ولم يتخذ إلا بيتاً متواضعاً لسكناه، كما كان مأكله مثل عامة الناس، وكان يقضي حاجة جيرانه بيديه ومن ذلك أنه استمر في حلب أغنام الحي الذي عاش فيه (السنح) حتى بعد خلافته، كما نقل الطبري في تاريخه وغيره.
وفي هذا العصر نقرأ هذه التصرفات بعين غير مصدقة، لأننا اعتدنا على الطبقية والتفاوت الاجتماعي بين الناس، بينما كان أبو بكر يتصرف بعفوية وبما تمليه عليه الثقافة الإسلامية السائدة التي لا تقر أي فروق بين البشر.

* طبق السياسة الإسلامية التي تقول بأن المال العام حق متساو لكل الناس، والسياسة المالية يجب أن تسير بناءً على ذلك. فلم ييسر لنفسه أو أهله الحق في أخذ أو تلقي أجر على خلافته من بيت المال. وكان بيت المال يوقف لحاجات الدولة ومساعدة المحتاجين ويصرف منه على تجهيز جيوش الجهاد، ويوزع فائضه على بقية المسلمين بالتساوي أو حسب سبقهم للإسلام. وكان هذا أفضل سبيل توصل إليه أبو بكر لتطبيق مفهوم التكافل الاجتماعي، لضمان استفادة جميع المسلمين من المال العام بكل عدل ومساواة، فلم يكن هناك سياسة مالية مكتوبة للدولة، لافتقار الناس إلى الخبرة في مجال السياسات المالية والسياسات الأخرى، لأن العرب لم يكونوا منتسبين إلى دول دستورية قبل الإسلام.

ومع كل تلك المثاليات المتوفرة في شخص أبي بكر، والتي لم تجتمع في خليفة مسلم بعده على الإطلاق، فقد حدثت في عصره أحداث غرست بذوراً خطيرة أثمرت في عصور لاحقة، ولا زال الإسلام والمسلمون يضرسون من حصرمها إلى اليوم، ومن ذلك ما يلي:

* أنه على الرغم من ورعه وحرصه الشديد على أن يدير دولة الإسلام بما يرضي الله ويتماشى مع سياستها ويحقق أهدافها، إلا أنه بشر يعتريه ما

يعتري البشر، ولذلك تصرف بمنطق الزعيم العشائري الذي يمثل رأس العشيرة والحاكم بأمره ورأيه، وإليه تعود كل الأحكام النهائية، وإذا أمر فلا أحد يستطيع أن يعصى له أمراً، حتى وإن استشار من حوله. لذا فإن أبا بكر على الرغم من حرصه وتجرده وتواضعه وتطبيقه لكل ما فهمه من كتاب الله، فقد تفرد بإدارة الدولة وإصدار القرارات الحازمة والعليا وتوجيه الجيوش. ولم يسمح للمسلم العادي بالاشتراك في صياغة السياسات الاستراتيجية للدولة، كما لم يكن هناك مجلس حكم استشاري على الأقل لصياغة مثل هذه الاستراتيجيات.

وهذا التصرف رسم الخطوة الأولى التي أدت إلى ترسيخ فكرة أن الحاكم له وحده الحق بصياغة سياسات الدولة الإدارية والمالية وكل السياسات الأخرى. وهو مناف لحكومة دولة الإسلام التي يكون الحكم فيها لله في كل ما قال به القرآن، واستشارة المسلمين فيما دون ذلك، بحيث لا يوجد رأي أوحد أو مفضل على آراء الآخرين بغض النظر عن المنزلة الاجتماعية أو الوظيفية.

وقد تكون ظروف ذلك العصر التي لم تساعد المسلمين على تصور أن الدولة يمكن أن تدار من دون زعيم، وهم الذين اعتادوا الانقياد للزعامات العشائرية طوال تاريخهم، فغاب عنهم أن الحاكم الواحد مهما كان محباً للعدل، لا يستطيع أن يكون عادلاً حقاً، لأن مفهوم العدل يختلف باختلاف الجنس والعمر والزمان والمؤثرات المحيطة.

ويقول الصادق النيهوم في كتابه صوت الناس في الصفحة (٦٨): فالحاكم الفرد، اسمه طاغية. ليس لأنه مولع بالطغيان، بل لأن صوته لا بد أن يطغى على صوت الأغلبية، في جميع الأوقات، مهما توفر له من حسن النية وحب العدل. إنه مقيد دائماً إلى وجهة نظر واحدة، وحل واحد، بموجب عمره وجنسه. وهذا قد ينجم عنه قيام إمبراطوريات واسعة، أو انهيار إمبراطوريات واسعة، لكنه لا يستطيع أبداً أن يقيم دولة للأغلبية. انتهى.

* أنه على الرغم من حرصه على تطبيق مبادئ الجهاد، والتي منها عدم البدء بحرب الناس، ما لم يقفوا في وجه الدعوة الإسلامية أو يعقدوا العزم على حرب أهلها (راجع موضوع الجهاد)، إلا أنه بادر البلاد المجاورة للجزيرة

بالحرب، فيما أطلق عليه «الفتوح» سواء كان استجابة لاقتراحات من المثنى بن حارثة أو تنفيذاً لرغبته الشخصية.

وإن كان الإخباريون يجدون في «الفتوح» لفارس بعض التبرير بسبب تمزيق كسرى خطاب الرسول الذي دعاه فيه للإسلام، كما يزعمون، إلا أن الإخباريين لم يستطيعوا تبرير شن الحرب على بلاد ما وراء النهرين وشمال أفريقيا أو حتى مصر التي تعامل مقوقسها مع رسل محمد، عليه الصلاة والسلام، بكل لطف، ولم يكن لديه مانع في أن ينتشر الإسلام في بلاده بالطرق السلمية. وقد أدت «الفتوح» إلى فتح الباب للسلاطين فيما بعد لشن الحروب طلباً للغنائم باسم الإسلام، والتعامل مع البلاد المغلوبة بمنطق المنتصر وبعيداً عن روح الإسلام المتسامحة.

ويكون قد وقع في خلافة أبي بكر حادثان هامان ساهما في رسم مسار تاريخ الإسلام والمسلمين، هما: حروب الردة وبدء «الفتوح».

حروب الردة

بمجرد موت الرسول عليه الصلاة والسلام نكصت العرب وكل القبائل في الجزيرة العربية عن الخضوع لدولة الإسلام، معتبرين أن دخولهم الطاعة كان لوجود محمد، أما بعد موته فلن يقبلوا أن تسودهم قريش التي انتقلت إليها السلطة.

وقد ارتدت قبائل الجزيرة العربية التي لم يمض على حضور وفودها وزعمائها إلى الرسول لإعلان الدخول في ظل دولة الإسلام سوى أشهر، ذلك أن الوفود تقاطرت على المدينة بدءاً من أواخر السنة التاسعة للهجرة وخلال السنة العاشرة، فيما توفي رسول الله في الشهر الثالث من السنة الحادية عشرة. ولم تكن هذه الأشهر كافية لأن يتمكن الإيمان من قلوب أفراد تلك القبائل التي اعتادت عقائد وطريقة معيشة جاء الإسلام لمحاربتها، ولذلك سارعوا إلى الترحيب بالعودة إلى حياتهم السابقة والتراجع عن الإسلام الذي لم يعرفوا منه إلا التبعية لسلطة المدينة.

وتصف أم المؤمنين عائشة وضع دولة الإسلام في تلك الفترة، بقولها: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق، والله لقد نزل بي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد صلى الله

عليه وسلم كأنهم معزى في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة (روي هذا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، ومن حديث القاسم وعمرة عن عائشة، كما جاء في البداية والنهاية).

وتنقل كتب الأخبار أنه لم يبق إلا المدينة على الإسلام، بينما كاد أهل مكة أن ينتفضوا على واليهم. ويصف ابن هشام في سيرته ذلك بقوله: حدثني أبو عبيدة، وغيره من أهل العلم، أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هموا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم (والي رسول الله على النفقات في مكة) عتاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو (وأنذرهم سوء العاقبة) فتثاقلوا.

وكان المرتدون على قسمين، قسم خلع ربقة الإسلام وعاد إلى وثنيته، وقسم أرسلوا إلى أبي بكر وفودهم يعرضون عليه أن يبقوا على شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة، شريطة أن يتوقفوا عن دفع الزكاة بمعناها العام الذي ذكر في القرآن والذي يعني الإنفاق على ميزانية دولة الإسلام، وليس فقط الزكاة التي عرفها الفقهاء في القرون اللاحقة، كما تقول كتب الأخبار، لأن أبا بكر أجابهم بقوله: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه. والعقال لا يمكن أن يكون من الزكاة التي عرفها الفقهاء، لأن الزكاة تكون نقداً أو عيناً في الماشية وبعض الأشياء الأخرى، ولكن لا يمكن أن يخرج عقال كزكاة لمجموعة من العقل، بينما يمكن إخراج عقال ضمن الإنفاق الذي يقبل فيه المال والعين ولو على شكل عقال (الرجاء الرجوع إلى موضوع الإنفاق).

وتكون مطالبة أبي بكر لهم بدفع الإنفاق كشرط لقبول عودتهم لحظيرة الدين لها ما يبررها، لأن الإنفاق كانت تقوم عليه دولة الإسلام زمن الرسول، وجاء في القرآن على أنه صنو للإيمان، لا يقوم الإسلام من دونه. وبما أن الدين كلٌ لا يتجزأ، وترك بعضه، كتركه كله، فلا يمكن أن يكون المسلم مسلماً ما لم يدفع الإنفاق ويقوم بكل ما أمر الله ويمتنع عن كل ما حرم الله. فليس هناك إيمان ونصف إيمان، بل هناك إما إيمان أو لا إيمان.

ومن المهم أن نشير إلى أن المرتدين لم يرتدوا عن الإسلام فقط، بل أرادوا

القضاء عليه، عندما قامت مجموعة منهم بالهجوم على دولة الإسلام في المدينة، بعد ثلاث ليال من مغادرة جيش أسامة بن زيد لأطراف الشام، معتقدين أنها فرصة سانحة للقضاء على من بقي من المسلمين في المدينة، ولكن أبا بكر ومن بقي من المسلمين استطاعوا هزيمة المهاجمين وتشتيت شملهم.

كما أن طليحة بن خويلد الأسدي أحد أكبر ثلاثة زعماء ممن ارتد في جزيرة العرب قد جمع قبائل أسد وغطفان وطي وفزارة وعبس وثعلبة ومرة وبعض كنانة وغيرهم من القبائل البدوية، وكان يريد مهاجمة المدينة.

وهذا ما كان ينوي القيام به الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة في بني حنيفة ومن جاورهم، وقرة بن هبيرة على كعب من بني عامر وعلقمة بن علاثة في كلاب من بني عامر، وأم زمل سلمى بنت مالك على هوازن وفلول غطفان وطي، وسجاح على بني تميم. وباختصار كانت كل قبائل الجزيرة قد نقضت عهد الإسلام وتخطط لمهاجمة المدينة وسحق من فيها من المسلمين.

فكان أن نقل أبو بكر المعركة إلى بلاد المرتدين بدل أن ينتظر قدومهم لمهاجمة المدينة، فعقد عدة ألوية لحربهم. وفي أقل من عام واحد استطاعت جيوش المسلمين إعادة كامل شبه جزيرة العرب لحظيرة دولة المسلمين، وإن لم يدخل كل سكان الجزيرة إلى الإسلام.

فكانت حروب الردة مشابهة في أسبابها ونتائجها لغزوة حنين التي حدثت بعد فتح مكة والتي كانت ثقيف ومن جاورها قد جمعت عدتها وخيلها ورجلها للقضاء على محمد ودولته بعدما علموا باستيلائه على مكة، وقد نقل الرسول المعركة إلى ديارهم وهاجمهم قبل أن يتحركوا صوب مكة أو المدينة.

والملفت أن كل قادة جيوش حرب المرتدين الأحد عشر كانوا ممن أسلم حديثاً وليس منهم أحد من قدامى المسلمين من المهاجرين والأنصار. فقد كان من قادة جيوش الردة خالد بن الوليد، الذي دخل الإسلام قبيل فتح مكة، وعكرمة بن أبي جهل، الذي كان أحد أربعة أهدر الرسول دماءهم يوم فتح مكة، حسبما جاء في حديث أخرجه أبو داود والنسائي وابن أبي شيبة والدارقطني والحاكم من طريق السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله

صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة أنفس عكرمة بن أبي جهل وعبدالله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبدالله بن سعد بن أبي سرح[(١)].

وقد هرب عكرمة باتجاه الجنوب (اليمن) فلحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هاشم، وأقنعته بأن نطقه بالشهادتين كفيل بحقن دمه عند رسول الله، فأتت به النبي صلى الله عليه وسلّم وأعلن إسلامه.

ومن قادة الفتح حذيفة بن محصن القَلْعَانِي. والذي يقول صاحب أسد الغابة في معرفة الأصحاب: لا أعرفه بأكثر من أن أبا بكر عزل عكرمة بن أبي جهل عن عُمَان، وسيره إلى اليمن، واستعمل على عمان حذيفة القلعاني، فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي أبو بكر.

ومنهم طرفة بن حاجب وقيل اسمه طريفة بن حاجز. قال سيف بن عمر في كتابه «الفتوح»: هو الذي كتب إليه أبو بكر رضي الله عنه في قتال الفجاءة السلمي. ولا يعرف عنه غير ذلك.

ومنهم سويد بن مقرن أخو النعمان بن مقرن، قدم وإخوته السبعة ضمن وفد مزينة على الرسول وأسلموا عام الوفود، وعاد لبلاده حتى استدعاه أبو بكر للاشتراك في حروب الردة.

ومنهم المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة القرشي المخزومي، أخو أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلّم لأبيها وأمها. أسلم متأخراً، وذكر سيف في «الفتوح» أن المهاجر كان ممن تخلف عن غزوة تبوك.

ويقول ابن الأثير الجزري في أسد الغابة في معرفة الأصحاب بأنه تزوج بامرأة كان رسول الله قد دخل بها، ثم طلقها وكان ذلك في خلافة عمر، وهذا هو النص الذي ذكره ابن الأثير: خلف على أسماء بنت النعمان المهاجر بن أبي أمية فأراد عمر أن يعاقبها فقالت والله ما ضرب عليّ حجاب (تعني رسول الله) ولا سميت بأم المؤمنين فكف عنها.

ويقال بأن رسول الله قد استعمله على صدقات كِنْدَةَ والصَّدف، وهذا غير

(١) انظر البداية والنهاية ج٣ ص٣١٤ ـ فصل ذكر خروج أبي بكر إلى ذي القصعة.

صحيح لأن الرسول توفي ولم يسر إليها، كما يؤكد ذلك ابن الأثير في أسد الغابة في معرفة الأصحاب.

ومع أن حروب الردة من حيث المبدأ مبررة شرعاً وأخلاقاً، إلا أن قادة جيوش الردة لم يكونوا من المسلمين الأوائل الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ومعظمهم لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، ولم يتخلصوا من الكثير من عادات وأعراف عهدوها قبل الإسلام. وهذا يفسر ما حدث في تلك الحروب من تجاوزات تتنافى مع تعاليم الإسلام من بعض قادة وجنود الجيوش الإسلامية، ومن ذلك ما حدث من خالد بن الوليد وقتله مالك بن نويرة والدخول بزوجته في الليلة التي قتل فيها مالك.

ولم تكن تلك هي الحادثة الوحيدة بل تكرر سبي نساء المرتدين واسترقاق الأسرى منهم، حتى أضحى صفة ملازمة لجيوش الردة، مع أن هذه العادات الجاهلية جاء الإسلام ليبطلها[١].

وإن كان السبي والاستيلاء على ممتلكات المهزومين هو العامل الأول الذي ساعد المسلمين على كسبهم حروب المرتدين، ذلك أن جيوش المسلمين كانت تتنامى بسرعة نتيجة لانضمام أعداد كبيرة إليها من الناس الذين أعلنوا للتو عودتهم للانصياع للإسلام طلباً للغنائم. ولو اقتصرت جيوش المسلمين على مسلمي المهاجرين والأنصار، فإن معارك اليمامة وحدها ضد جيوش بني حنيفة ومسيلمة، ستكون كفيلة بالقضاء على الغالبية العظمى منهم.

نتائج حروب الردة

لقد نتج عن حروب الردة أمران أدّيا إلى نتائج في غاية الخطورة على مفاهيم الإسلام، تفاقمت مع الأيام وكان لها أثر سلبي سيئ على الدين وتشريعاته على مر الزمن، وهما:

الأمر الأول

قتل معظم الصحابة الأوائل الأخيار الذين قال الله فيهم: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ

---

(١) الرجاء الرجوع إلى موضوع الجهاد.

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: ١٠٠).

وقد أدى ذلك إلى خلو الساحة الإسلامية منهم كقادة فكر ودين يحتاجهم المجتمع المسلم كقدوة حسنة لكي يبني دولته الإسلامية الفتية على أسس صحيحة كما أمر الله بها رسوله محمد. وقد فطن أبا بكر إلى أن فناءهم قبل مراجعة النسخة الوحيدة للقرآن والتأكد من سلامة كتابة آياتها. فقام بتكليف عدد ممن بقي من حفظة القرآن من الصحابة، بمراجعة مصحف رسول الله الذي أملاه على كتبة الوحي، لأنه خشي أن تكون بعض الآيات القرآنية قد تعرضت للتلف أو الضياع، ثم أمر بحفظ تلك النسخة الوحيدة لتكون مرجعاً للمسلمين، ولم يدر بخلده أن ينسخ منها عدة نسخ، وترسل إلى مناطق الدولة المختلفة. وسلمها إلى عمر عند وفاته، وقام عمر بتسليمها لابنته حفصة لما حضرته الوفاة، وبقيت عند حفصة حتى طلبها منها عثمان لكي ينسخ منها عدة نسخ لترسل إلى مناطق الدولة الإسلامية في العام ٣٣ من الهجرة.

وقد تسبب تناقص أعداد الصحابة الأخيار بسبب حروب الردة إلى فتح المجال لأن تعود إلى المجتمع الإسلامي الأفكار والعادات والعقائد الجاهلية، لأن معظم من دخل الإسلام وتسمى بالمسلمين في تلك الفترة لم يتطبعوا بطباع الرسول ولم يعرفوا القرآن، وكل ما عرفوه من الإسلام لا يكفي إلا للصلاة والنطق بالشهادتين.

وبما أن من عاش في تلك الفترة سيعتبر لمن سيأتي بعده من أجيال قدوة حسنة في الدين والتعامل والقول والفعل، ظناً منهم أن جيل حروب الردة كانوا قريبين من عهد النبوة، وبالتالي لا بد أنهم نهلوا من مناهل النبوة كل ما هو صحيح الإسلام، ويكون كل ما صدر منهم من قول أو فعل أو تقرير، وكأنه صادر من الرسول، وبالتالي فكأنه عين الإسلام.

ولم يفطن كثير من المسلمين أن جيل حروب الردة وبدايات «الفتوح» كان جيلاً أبعد ما يكون عن تعاليم الإسلام، عدا النفر القليل ممن بقي من كبار الصحابة، والذين غرقت أصواتهم في بحر متلاطم من البشر الذين أُدخلوا في الإسلام وأبقوا على عاداتهم الوثنية أو المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو غيرها حية حتى بعد

انضمامهم إلى جيوش «الفتوح»، فارضين على أهالي البلاد المغلوبة ما تمليه عليهم ثقافاتهم تلك، على أنها الإسلام، والجهاد.

فكانت الفترة التي تلت وفاة الرسول وفترة «الفتوح» الأولى في عهد الخلفاء الراشدين، فترة تحور فيها الدين الإسلامي الفتي بسرعة وعادت الأفكار والعادات والمعتقدات والخرافات إلى حظيرة الدين، ليس كعدو له كما كانت عند مبعث رسول الله، ولكن كجزء من الإسلام بعدما اتخذت شكلاً إسلامياً وانتسبت إليه من قبل من يعتقدها.

الأمر الثاني

الذي نتج عن حروب الردة أن ساحة المسلمين قد خلت من قائدها ودستورها الإلهي، القرآن، لأن جل من دخل الإسلام في تلك الفترة، لم يعرفوا القرآن ولم يهتدوا بهديه، لأن القرآن الذي كان في صدور الحفظة من الصحابة قد غاب بتغييب الموت لهم، ولأن النسخة الوحيدة من القرآن لم يستفد منها أحد، لأن تلك النسخة ظلت مسجاة في المدينة وفي معزل عن المسلمين في حروبهم ولم يتطبع بخلقها المسلمون الجدد.

فخلت ساحة القتال من هدي القرآن، وأصبح الجندي المسلم في عصر الردة وبدايات «الفتوح» يسير بما تمليه عليه قياداته العسكرية، وظروف المعارك التي يخوضها، والتي يكون الهدف منها هو تحقيق النصر بأي سبيل وطريقة. إضافة إلى أن هدف السواد الأعظم من الجند كان كسب الغنائم والسبي، كما كان متعارفاً عليه في الجاهلية، وهما العاملان اللذان أصبحا يحركان كل جيوش «الفتوح» بعد ذلك.

فكانت النتيجة أن ضوابط الجهاد لم يعمل بها جنود المسلمين ولم يراعوها منذ توفي رسول الله وإلى الأبد، إلا فيما ندر، وبمبادرات شخصية لبعض القادة في بعض المعارك، ولم تكن مؤثرة. ويصف ابن خلدون في مقدمته من نزل في العراق والشام ومصر من جند الفتح بقوله: كانوا جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ارتضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان (ص ٢١٥ فصل البيعة).

وقد أدى انتصار جيوش المسلمين في حروب الردة، إلى فتح شهيتهم للتوجه إلى البلاد المجاورة، بدءاً بالعراق ثم الشام، بالصرامة والسرعة نفسيهما اللتين تم فيهما القضاء على كل المرتدين في شبه جزيرة العرب. واشترك في تلك «الفتوح» الكثير ممن كانوا من المرتدين بعد أن دحرت جيوشهم وقتل زعماؤهم، كما اشترك فيها الكثير ممن لم يسلموا بعد من النصارى ومن العرب الوثنيين ومن ديانات أخرى.

وبما أن النسخة الوحيدة من القرآن محفوظة في المدينة بلا حراك، فقد اجتهد بعض المسلمين من تلقاء أنفسهم لكتابة ما يحفظونه على أنه من القرآن المنزل على رسول الله، وبطريقتهم الخاصة، مثل عبدالله بن مسعود الذي نزح إلى العراق مع بداية «الفتوح» وأصبح يعلم القرآن من مصحفه الشخصي، ومثله كعب الذي نزح إلى الشام مع بداية «الفتوح» وأصبح يعلم القرآن من مصحفه الشخصي. ونتج عن ذلك تبعات خطيرة جداً كادت تعصف بالقرآن كله، لولا عناية الله سبحانه، ومشورة حذيفة بن اليمان الملحة على عثمان بضرورة نسخ مصحف رسول الله عدة نسخ وإرسالها للأمصار وحرق كل ما سواها. وسنتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بكتابة القرآن وجمعه.

الفتوح ونتائجها[١]

جاءت «الفتوح» امتداداً لحروب الردة، وبالدوافع نفسها المتمثلة في تحقيق الغنائم العينية والمالية وسبي نساء البلاد المفتوحة واسترقاق من يقع في الأسر منهم، تماماً كما كان معمولاً به في الجاهلية، ومخالفاً لما شرعه الإسلام من ضوابط للجهاد حسب ما جاء في القرآن، والتي فصلنا الحديث عنها في موضوع الجهاد.

أما كيف ولدت فكرة البدء في «الفتوح» فيعود الفضل فيها إلى المثنى بن حارثة

---

(١) أطلق المؤرخون المسلمون لفظ «الفتوح» على الحروب التي شنتها جيوش المسلمين على البلاد المجاورة لجزيرة العرب في عصر الخلفاء الراشدين، ثم أصبحت تطلق على كل الحروب التي تلت والموجهة للبلاد التي استولى عليها المسلمون في عصور الخلافات التالية: الأموية، العباسية، وحتى العثمانية.

الشيباني، أحد الأعراب من بني بكر بن وائل الذي كان معتاداً على قيادة مجموعة من فرسان قبيلته والإغارة على أطراف أراضي العراق الجنوبية والقيام بالاستيلاء على ما يقع في أيديهم من غنائم، فإذا طاردهم أهلها سارعوا بالعودة إلى مواطنهم في صحراء شمال شرق جزيرة العرب، وكان هذا قبل الإسلام.

فلما كان عهد أبي بكر وتوسعه في حروب الردة طلب المثنى من أبي بكر أن يمده بالرجال ويعده بأن يستولي على مناطق شاسعة من العراق، لأنه فهم أن حروب الردة كانت حروباً توسعية لدولة المسلمين. يقول الطبري: قال هشام قال أبو مخنف فحدثني أبو الخطاب حمزة بن علي عن رجل من بكر بن وائل أن المثنى بن حارثة الشيباني سار حتى قدم على أبي بكر رحمه الله فقال أمرني على من قبلي من قومي أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك ناحيتي.

أو أن المثنى لم يقابل أبا بكر بل راسله، وكان خبر مناوشته لأطراف بلاد الرافدين قد تواتر، كما نقل البلاذري في كتابه فتوح البلدان، والذي يقول: وكان المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم الشيباني يغير على السواد في رجال من قومه، فبلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه خبره فسأل عنه، فقال له: قيس بن عاصم بن سنان المنقري، هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني.

عندها وافق أبو بكر على السماح للمثنى بغزو أطراف بلاد الفرس، وأمده بالرجال، وكان المدد الفعلي للمثنى عندما أمر أبو بكر خالد بن الوليد صاحب السيف المسلول دائماً والذي ليس له غمد، بالتوجه لنجدته، معلناً بدء «الفتوح» التي سرعان ما انتشرت في أرجاء العالم القديم بسرعة النار في الهشيم، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها. وكان شعارها تخيير أهل الديار التي يقدمون عليها بأحد ثلاثة: إما الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب. وكانت كل الخيارات الثلاثة تعود على الفاتحين بالغنائم.

وعلاقة المثنى بن حارثة، بأرض السواد قديمة، بدأت قبل الإسلام. يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ في حديثه عن يوم من أيام العرب في الجاهلية، هو يوم الفرات: قال أبو عبيدة: أغار المثنى بن حارثة الشيباني، وهو ابن أخت عمران بن مرة، على بني تغلب، وهم عند الفرات، وذلك قبيل الإسلام، فظفر

بهم فقتل من أخذ من مقاتليهم وغرق منهم ناس كثير في الفرات، وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه... إلى آخر الخبر.

وكانت هناك أيام أخرى بين قوم المثنى، بني بكر بن وائل، وبني تغلب وتميم وغيرهم ممن سكنوا أرض السواد، كما ذكر ابن الأثير. ومن ذلك يوم بارق، ويوم النباح ويوم ثيتل الذي كانت الغلبة فيه لبني تميم على بني بكر بن وائل قوم المثنى، ثم يوم فلج والذي كانت فيه الغلبة لبني بكر بن وائل على بني تميم، وغيرها من المواقع التي كان مسرحها أرض العراق، مما يدل على أن المثنى كانت له دوافع ثأرية قديمة في تلك الأنحاء إضافة إلى دوافع الغنائم، وهذه الدوافع كانت وراء اندفاعه إلى إقناع أبي بكر بإمكانية التغلب على الفرس والاستيلاء على أرض السواد المليئة بالخيرات.

وكان جيش المثنى في «الفتوح» يتكون من خليط من العرب الوثنيين والنصارى، يقول ابن الأثير في الكامل في وصف وقعة الجسر التي وقعت بين جيش المسلمين وجيش من الفرس، والتي شارك فيها المثنى: وقاتل أبو زبيد الطائي حمية للعربية وكان نصرانياً.

وفي حديثه عن وقعة البويب يقول ابن الأثير: وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا إليه في جمع عظيم. وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من نمر، نصارى، وقالوا: نقاتل مع قومنا. انتهى.

كما كان جيش خالد مؤلفاً في معظمه ممن عاد عن الردة وتلفظ للتو بشهادة الإسلام، وكلا الجيشين كان يحدوه الأمل بالحصول على الغنائم. وليس أدل على ذلك أن معركة الجسر قتل فيها من جيش المسلمين ٤٠٠٠ كما يقول ابن الأثير، منهم أقل من عشرة أشخاص من الصحابة ذكروا بأسمائهم، والبقية ممن نطق بعضهم بشهادة الإسلام للتو، أو ممن بقوا على دياناتهم.

ويكون من الطبيعي أن تتصرف جنود الفتح بنفس الأساليب التي كانت سائدة في الحروب الجاهلية، ويتحدث ابن الأثير عما حدث في معركة الثني التي وقعت في السنة الثانية عشرة للهجرة فيقول: وكانت الغنيمة عظيمة وسبي عيلات المقاتلة، وأخذت الجزية من الفلاحين.

ويقول ابن الأثير عن موقعة أمغيشيا التي وقعت في العام نفسه: فلما فرغ

(خالد) من أليس سار إلى أمغيشيا، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله (من الغنائم) لأن أهلها أعجلهم المسلمون أن ينقلوا أموالهم وأثاثهم وكراعهم وغير ذلك. وأرسل (خالد) إلى أبي بكر بالفتح ومبلغ الغنائم والسبي، وأخرب أمغيشيا.

ويقول ابن الأثير في وصف ما حدث في موقعة أليس الموجودة على نهر الفرات، بأن خالد بن الوليد أزعجه ثبات جيش الأعداء فقال: اللهم إن هزمتهم فعلي أن لا أستبقي منهم من أقدر عليه حتى أجري من دمائهم نهرهم.

فلما انهزمت فارس نادى منادي خالد: الأسراء الأسراء إلا من امتنع فاقتلوه. فأقبل بهم المسلمون أسراء ووكل بهم من يضرب أعناقهم يوماً وليلة، فقال له القعقاع وغيره: لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماءهم، فأرسل عليها الماء تبر بيمينك. ففعل. وسمي نهر الدم... وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً وكانت الوقعة في صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة. أي لم يمض على وفاة رسول الله سوى أقل من عام.

وكان لمثل هذه المجازر والخراب والسبي وسلب الناس أملاكهم وفرض الجزية على من بقي منهم، تأثيرها القوي في بث الرعب في نفوس من سيلاقي جيوش المسلمين، كما أدت النجاحات الساحقة في بداية مشوار «الفتوح» في العراق إلى الالتفات إلى فتح بلاد الشام، فوجه أبو بكر أربعة جيوش. أحدها كان إلى حمص بقيادة أبو عبيدة عامر بن الجراح الصحابي الجليل، أما الجيش الثاني فقد توجه إلى دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وكان هناك جيش ثالث متوجه للأردن بقيادة شرحبيل بن حسنة، والجيش الرابع كان بقيادة عمرو بن العاص.

وكل جند الجيوش الأربعة كانوا خليطاً من طلقاء مكة وثقيف ومن بعض من عاد للإسلام من المرتدين من جنوب الجزيرة، ومعهم نفر قليل من الصحابة السابقين في الإسلام. ويصف البلاذري في كتابه فتوح البلدان أولئك الجند الذين شاركوا في فتوح بلاد الشام بقوله: قالوا: لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة، والطائف، واليمن، وجميع العرب بنجد، والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه، وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب. انتهى.

ولم تستمر هذه الجيوش متفرقة بل اجتمعت في معركة اليرموك وتغيرت مساراتها وقوادها بعد ذلك.

وهكذا ألغت حروب الردة و«الفتوح» كل ضوابط الجهاد الفتية التي جاء بها الإسلام، والتي ذكرناها عند الحديث عن الجهاد. كما بدأت مع خلافة أبي بكر بوادر التحور الأولى في المفاهيم والتشريعات الإسلامية، والتي تفاقمت بعده بشكل أكبر حتى تحول الإسلام والمسلمون لمثل ما نراهم عليه الآن، منذ العصر العباسي الأول.

عمر بن الخطاب
«أرادته الدنيا ولم يردها»

اختلفت ظروف الحياة في زمن عمر بن الخطاب عنها في عهد أبي بكر بسبب توسع «الفتوح». ونتيجة لذلك امتلأ بيت المال بغنائم لاحصر لها، ودخل خلق كثير الإسلام من أبناء البلاد المفتوحة. وكان لهذين العاملين جوانبهما الإيجابية التي أفاد منها المسلمون، وجوانبهما السلبية التي ألقت بظلالها على الإسلام، وعانى من نتائجها ولا زال يعاني، ومن ذلك ما يلي:

ـ في عهد عمر احتاجت جيوش الفتح ـ التي فتحت جبهات قتال في كل الاتجاهات ـ إلى مزيد من المحاربين، مما يعني التوسع بالسماح لكل من يود الانضمام إلى جيوش المسلمين ولو لم ينطق بالشهادتين من الانخراط في تلك الجيوش. فضمت الجيوش في عهد عمر أكثرية ساحقة ممن اعتبروا «الفتوح» مغانم دنيوية. وقد فطن عمر في آخر حياته لمغبة ذلك، فأمر جماعة بحفظ القرآن ثم قام بإرسالهم إلى العراق بهدف تفقيه الناس الجدد في الدين، إلا أن ظروف «الفتوح» المتتابعة بسرعة لم تسمح بوقت كاف للجند بأن يعوا ما يلقى عليهم من دروس دينية ومواعظ. فسمحوا لأنفسهم باغتصاب الأراضي والأموال، وسبي النساء وبيعهن كرقيق، وقاموا بتجاوزات صورت الجيوش الإسلامية كقطيع من الهمج الذين لا تعرف قلوبهم الرأفة، يقاتلون بضراوة من أجل السبي والنهب دون مراعاة لحرمة أو عهد.

والنتيجة: طمس صورة الإسلام الحقيقي المتسامح الناشر للعدل والقادم لتخليص الناس من العبودية بشتى أنواعها، ولم يتذكر الناس من الإسلام سوى تلك الصورة التي رسمها جنود الحرب، والتي كانت السبب فيما بعد بطرد المسلمين غير مأسوف عليهم من بقاع كثيرة في أوروبا وآسيا وغيرها، وبقيت

صورة المسلمين تلك في أذهان الناس على مر الأزمنة، فالإنسان لا يتذكر من عدوه محاسنه ولكنه لا ينسى أبداً مساوئه.

كما أن سبي نساء البلاد المغلوبة عمل على انتشار أسواق النخاسة في طول بلاد الإسلام وعرضها في العصور التالية، وتبارى السلاطين والأغنياء في الحصول على أجمل الجواري من كل بقاع الدنيا المعروفة، وأصبحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية أكبر سوق نخاسة في العالم، على الرغم من أن الإسلام جاء ليقضي على الرق، وليتعامل الناس مع الناس بالتساوي.

ـ في عهد عمر كان يتم تقسيم الجيش الواحد إلى ألوية، يتكون كل لواء من أفراد من قبيلة واحده، فكأن الجيش الواحد عبارة عن عدة جيوش متنافرة قبلياً.

وهو ما جعل العصبية القبلية تنهض من غفوتها التي أصيبت بها عندما جاء الإسلام، الذي حاربها وكانت على وشك الزوال إلى الأبد. وكان المحاربون عندما يفتتحون بلاداً جديدة يستقرون فيها على شكل تجمعات قبلية تقسم المناطق المفتوحة بين القبائل، والتي سرعان ما تتصارع فيما بينها. فغدت الأندلس وشمال أفريقيا وخراسان والعراق والشام وغيرها مسرحاً لصراعات قيسية يمنية مضرية خزاعية وتميمية، مفسحة المجال لأعدائهم بالتغلب عليهم وزوال كل أثر للدولة الإسلامية وللإسلام من مناطق شاسعة في غرب أوروبا (الأندلس وجنوب فرنسا)، وشرقها (دول البلقان)، وجزر البحر الأبيض المتوسط، وفي آسيا الوسطى والهند وغيرها. لأن تلك الشعوب لم تر في الإسلام إلا عصبية جاهلية اعتبر العرب بموجبها أنفسهم شعباً فوق كل شعوب الأرض، ليس لأنهم الأكثر علماً أو معرفة أو حضارة أو إنسانية أو تعاملاً بمكارم الأخلاق، ولكن لأنهم ينتسبون إلى عبس وذبيان. وقد بقي هذا الشعور حياً حتى اليوم.

ـ لم يرحب سكان البلاد المفتوحة بجيوش الفتح كما تصور ذلك لنا كتب الأخبار، وإنما كان ترحيباً يشبه ترحيب الورود بالجيوش الأمريكية عند اجتياحها العراق في العام ٢٠٠٣.

ولم ير من بقي من سكان البلاد المفتوحة على قيد الحياة أياً من الصور الخيالية للحرية والعدل التي رسمتها كتب الأخبار لجيوش الفتح وصورتهم وقد أخرجوا الناس في الشام ومصر والعراق وفارس من ظلم حاق بهم من حكوماتهم السابقة

إلى عدل وتسامح حمله المسلمون الفاتحون معهم في غمد سيف كل واحد منهم. بل إن ما حدث هو أنه على الرغم من الجبروت والقسوة التي تعامل بها جنود الفتح مع أهل البلاد المفتوحة، فإن أهل تلك البلاد قد أشعلوا الثورات الواحدة تلو الأخرى في محاولات يائسة وانتحارية للتخلص من حكم المسلمين، منذ اللحظة الأولى للفتح. وما على القارئ إلا أن يتصفح كتباً مثل تاريخ الطبري ويقرأ ما كتب عن أحداث كل سنة هجرية، ليتأكد بنفسه مما ذكر هنا. وهذه بعض الصور المبسطة والسريعة للوضع السائد أثناء فترة «الفتوح» الأولى:

يقول ابن الأثير في حديثه عن فتح الحيرة الذي وقع في شهر ربيع الأول من السنة الثانية عشرة للهجرة، بأن خالداً اتفق مع أهلها على دفع جزية تبلغ مائة ألف وتسعين ألفاً، وقيل مائتي ألف وتسعين ألفاً، وكتب لهم خالد (بذلك) كتاباً، فلما كفر أهل السواد ضيعوا الكتاب (كفروا أي ثاروا على الحكم الإسلامي) فلما افتتحها المثنى ثانية عاد بشرط آخر (أي بمبلغ آخر)، فلما عادوا كفروا، وافتتحها سعد بن أبي وقاص وضع عليهم أربعمائة ألف. انتهى.

وتكون الحيرة قد ثارت على الحكم ثلاث مرات في أول سنة استولى فيها المسلمون عليها.

وفي موضع آخر يصف ابن الأثير كيف أن جيوش الفتح لم تكن تفرق بين المدني والمحارب، ومن ذلك ما أورده ضمن أخبار معركة القادسية فيقول: وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص: أني ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان عندهم أماناً، فأجروا له ذلك مجرى الأمان والوفاء. فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة.

ووصية عمر هذه تشدد على أن يحترم جنود الفتح كل ما قد يفهم منه أنه طلب أمان وترك للحرب، وبالتالي الحفاظ على أموال وأنفس أولئك الناس وعدم المساس بها، ولو كان بإشارة لاختلاف لغة الفرس عن العربية، ولو كانت الإشارة غير مفهومه أو تحمل احتمالات متعددة فيجب أن تحمل على أنها لطلب السلم، لأن الخطأ بالحفاظ على أموال الناس وممتلكاتهم أفضل من الخطأ بالغدر. وهي وصية متوافقة مع ضوابط الجهاد في الإسلام التي أوردها القرآن، والتي تنص على

أن الحرب تكون فقط لمن يحمل السلاح على المسلمين أو على من يقف ضد نشر الدعوة سلماً، وأنه لو قامت الحرب فإن كل من لا يحمل السلاح من غير المسلمين، حرام الدم والمال والعرض.

ولكن يبدو أن عمر وضوابط الجهاد في واد، وجيوش «الفتوح» في واد آخر، ففي ذلك المساء الذي استلم فيه سعد رسالة عمر، أرسل سرية في ثلاثين رجلاً وأمرهم بالغارة على الحيرة. فلما جازوا السيلحين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوهم، وإذا أخت أزادمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصنين... فحمل بكير بن عبدالله الليثي، أمير السرية، على شيرزاد بن أزاذبه فدق صلبه وطارت الخيل على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم ما لا يدرى قيمته، فاستاق ذلك ورجع. فصبّح سعداً بعذيب الهجانات، فقسم ذلك (أي الغنائم) على المسلمين، وترك الحريم بالعذيب ومعها خيل تحوطها (أي تحرسها).

ويستمر ابن الأثير في وصف كيف كان جند الفتح يؤمنون حاجاتهم من اللحم، فيقول: فأرسل سعد، عاصم بن عمرو إلى ميسان، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر عليها وتحصن منه من هناك. فأصاب عاصم رجلاً بجانب أجمة، فسأله عن البقر والغنم، فقال: ما أعلم. فصاح ثور من الأجمة (وكأنه يقول) كذب عدو الله، هانحن! فدخل فاستاق البقر فأتى المعسكر فقسمها سعد على الناس فأخصبوا أياماً.

ويقول في فقرة أخرى: وبث سعد الغارات والنهب بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما استكفوا به زماناً... حتى يقول: فاستغاث أهل السواد إلى يزدجرد وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شيء، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات، ونهبوا الدواب والأطعمة. انتهى.

وما ذكر هنا هو بعض ما جاء في صفحة أو اثنتين من كتاب الكامل في التاريخ، بدءً من الصفحة ٣١٥، ولن أتتبع كل ما ذكره الكتاب عن تجاوزات جند الفتح لضوابط الجهاد التي أرساها الله سبحانه في كتابه والتي لم تجف أحبارها التي كتبت بها زمن رسول الله الذي لم يمض على وفاته سوى بضع سنين (راجع الركيزة الإسلامية الخامسة: الجهاد).

ويجب أن يلاحظ القارئ أن هذه القصص المفرطة في التجاوزات لضوابط الجهاد وللأعراف والقيم الإنسانية القويمة، هي ما سمح بنقلها كتبة التاريخ الإسلامي المشهورين، وهم مسلمون، وبالتالي فهذه الوقائع يعتبرونها من أبهى الصور عن المسلمين، ولنا أن نتساءل عن الحوادث التي لم ينقلوها لنا لأنهم وجدوها تسيء إلى سمعة الجند أو للإسلام، من وجهة نظرهم.

وهذه الممارسات لم تحدث في العراق فقط بل في كل بقعة وصلها جند الفتح، فهذا ما فعله خالد بن الوليد وهو في عجلة من أمره عندما كان في طريقه من العراق لنجدة المسلمين في اليرموك، يقول الطبري ضمن أحداث سنة ثلاث عشرة: فشخص خالد من الحيرة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثمانمائة ويقال في خمسمائة واستخلف على عمله المثنى بن حارثة فلقيه عدو بصندوداء فظفر بهم وخلف بها ابن حرام الأنصاري ولقي جمعاً بالمضيح والحصيد عليهم ربيعة بن بجير التغلبي فهزمهم وسبى وغنم وسار من قراقر إلى سوى فأغار على أهل سوى واكتسح أموالهم وقتل حرقوص بن النعمان البهراني ثم أتى أرك فصالحوه وأتى تدمر فتحصنوا ثم صالحوه ثم أتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم وغنم وأتى حوارين فقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة وأتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم فقتل وسبى ووجه بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة إلى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العيال إلى خالد قال فوافى خالدا كتاب أبي بكر بالحيرة منصرفه من حجه أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. انتهى.

ومثل هذه الممارسات جعلت أهل البلاد المفتوحة يستمرون في الثورة على حكم المسلمين ونقض العهود التي أجبروا على توقيعها مع جيوش الفتح، إلى درجة أن عمر بن الخطاب سأل أحد الوفود القادمين من أرض العراق عن سبب ثورات (انتقاض) أهل البلاد المفتوحة قائلاً: لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة فلهذا ينتقضون بكم؟

قال الوفد: ما نعلم إلا وفاء. قال عمر: فكيف هذا؟ (أي فلماذا تحدث هذه الثورات إذاً).

فلم يشفه أحد منهم (أي فلم يجبه أحد منهم).

وقد حاول الأحنف بن قيس، وهو أحد أفراد الوفد، أن يوحي لعمر أن سبب تلك الثورات هو بقاء ملك الفرس على قيد الحياة، وهو من يحث الناس على الثورة ضد المسلمين، ولو سمح عمر لجيوش المسلمين بالانسياح في بلاد فارس والاستيلاء عليها وقتل ملكهم فستتوقف الثورات.

وسمح عمر بذلك، ظناً منه أن الأحنف قد صدقه، فقتل المسلمون يزدجرد وكل ملوك فارس وأمرائهم واستولوا على فارس وما وراء فارس من بلاد، ولكن الثورات لم تتوقف، لأن الناس لم يروا في المسلمين عدلاً ولا حرية ولا تكافلاً اجتماعياً ولا معاملة بالحسنى. وكل ما خبروه هو غزو لبلادهم من قبل أجلاف حفاة عراة رعاء الشاء، يقتلون رجالهم ويسترقون أسرارهم ويسبون نساءهم وينهبون خيراتهم ويخربون بلدانهم، ثم يفرضون الجزية والأتاوات على من بقي منهم على قيد الحياة.

وأصبحت كل البلاد المفتوحة في الشرق والغرب والشمال والجنوب مسرحاً للنزاعات بين أهلها وبين الفاتحين، فهمذان تفتح في سنة إحدى وعشرين للهجرة ولكنها تثور على الحكم الإسلامي، فيعاد فتحها في السنة التالية، وسجستان وكرمان وما حولهما من بلاد، تفتح في سنة ثلاث وعشرين بعد معركة واحدة وبسهولة، ولكن لما عرف أهلها نوع الحكم العربي وما فعله بهم جند الفتح، ثاروا عليهم ولم يتمكن الفاتحون من السيطرة عليها إلا في سنة إحدى وثلاثين، أي بعد ثماني سنوات من المعارك المتواصلة.

وتكرر هذا المشهد في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس وكل مكان وطئته أرجل جند الفتح، الذين كانوا لا يسأمون تكرار فتح البلدان مرة أخرى ومرات لأنهم في كل مرة يعيدون فتح بلد يكررون جني الغنائم والسبي والرقيق منه، وكأنه فتح جديد لبلاد جديدة.

سيرته

لقد شابهت سيرة عمر في خلافته سيرة أبا بكر في كثير من السمات، فقد اعتمد في تصرفاته على هدي القرآن، وكان أشد في منع الناس عن التحديث عن رسول الله من سلفه، نتيجة لأن التحديث انتشر أكثر مما كان عليه في خلافة أبي بكر.

يروي ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن إسحاق قال: أخبرني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، عبدالله بن حذيفة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ قالوا: تنهانا؟ قال: أقيموا عندي (يقصد في المدينة) لا والله لا تفارقونني ما عشت. فنحن أعلم نأخذ منكم ونرد عليكم. فما فارقوه حتى مات.

ومثل ذلك: عن ابن عيسى، أنبأ مالك، عن عبدالله بن إدريس عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، أن عمر حبس ثلاثة (أي منعهم من مغادرة المدينة): ابن مسعود وأبو الدرداء وأبو مسعود الأنصاري فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأرسل إلى الأمصار يطالب كل من لديه أحاديث عن الرسول أن يمحوها، كما ذكر ابن سعد في طبقاته عن يحيى ابن أبي جعدة.

بل لقد روي عن عمر أنه ضرب عدداً من الصحابة لأنهم كانوا يحدثون، وتهدد غيرهم بالنفي وبعقوبات أشد قسوة لو عادوا إلى الحديث عن الرسول.

ومن ذلك ما روى ابن عساكر عن السائب بن سويد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس. وبمثل ذلك هدد كعب الأحبار.

ولذلك فلم يكن أبو هريرة يحدث زمن عمر، كما أكد الذهبي ذلك في تذكرة الحفاظ، في قوله: عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة وقلت له: أكنت تحدث في زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته.

وما تقدم ينفي أن يكون عمر قد فكر في كتابة الحديث واستخار شهراً ثم ترك ذلك قائلاَ: لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً، فيما أورده ابن عبد البر والبيهقي. لأن من يفكر بكتابة الحديث لا يضرب من يحدث ولا يأمر كل مسلم في أي مكان من دولة الإسلام أن يحرق ما لديه من أحاديث قد يكون كتبها، وأن لا يحدث بما يحفظه منها.

ويعتبر عمر أكثر الخلفاء والحكام المسلمين عدلاً على الإطلاق، ولو كان عدل

الحاكم كافياً لتحقيق العدل والمساواة والحقوق بين الناس كما أرادها القرآن، لنجح عمر في جعل مجتمع دولة الإسلام في عهده الذي امتد لعشر سنوات، مجتمعاً مثالياً في تحقيق تلك الفضائل.

وقد قام عمر بأعمال إصلاحية كثيرة منها:

تم تطوير السياسة المالية عما كانت عليه في عهد أبي بكر، فعرفت الاستثمارات طويلة الأمد، عندما منع عمر بيع أراضي الصوافي في العراق (وهي الأراضي التي استولى عليها المسلمون من ملوك الفرس) وفضل استغلالها حتى تستثمر في تغذية بيت مال المسلمين للأجيال القادمة.

وهذا يظهر وعي عمر بأن من أهم واجبات السياسة المالية، استثمارات طويلة المدى لأجيال المسلمين القادمة وحفظ ثروات البلاد. ولكن وفي الوقت نفسه لم يقم بالتأكد مما إذا كان من حق المسلمين الاستيلاء على تلك الأراضي واغتصابها من أهلها أم لا.

كما عرف في عهد عمر ما سمي بالدواوين والتي تعنى بوضع سجل كامل لواردات ومصروفات الدولة. وهو ما يظهر أيضاً أن عمر كان مؤمناً بضرورة استخدام أحدث ما توصل إليه العلم في إدارة شؤون الدولة.

وكان عمر بصدد وضع قانون مساءلة لمعرفة مشروعية طرق الثراء لكل فرد في المجتمع المسلم، وهل روعيت فيها حقوق الله. وقد أطلق على هذا القانون «من أين لك هذا».

وعلى ما يبدو فإن هذا القانون قد تسبب في قتله قبل تعميم تنفيذه على كافة مناطق الدولة الإسلامية، لأن المساءلة كانت ستطال الكثيرين.

وهذا يعني أن عمر كان يؤمن بضرورة تحديث مواد الدستور بما يتواءم مع ظروف الحياة المتغيرة، وضرورة تطوير نظم المحاسبة والإدارة باستمرار، ومراقبة صرف المال العام. وغير ذلك الكثير مما قام به عمر، والذي لن نتطرق إليه.

ما طرأ على الدين من تحوير في عصر أبي بكر وعمر

على الرغم من تقوى أبي بكر وعدل عمر فقد عادت خلال عهديهما عدة مفاهيم جاهلية جاء الإسلام لمحاربتها والتخلص منها، وبدأت تحل محل مفاهيم

إسلامية جاء بها القرآن، فعطلت مفاهيم القرآن وصبغ الإسلام بما لا يجب أن يكون فيه، وكان من أهمها ما يلي:

١- إن اختيار خليفة بعد الرسول لحكم الدولة الإسلامية كان فيه أول خروج عن تشريع القرآن الذي جاء ليقول بأن دولة الإسلام تحكم بكتاب الله، ومن دون زعامة بشرية. وقد كان أبو بكر يعي ذلك، ولكنه قبل أن يكون خليفة ظناً منه أنه سيخدم الدولة، كما أقر بذلك في خبر رافع بن أبي رافع الذي ذكرناه في الحديث عن سيرة أبي بكر.

٢- إن اختيار الحاكم (أبو بكر) من قريش ليس فقط خروجاً على مفهوم الحكم الإسلامي الذي يقول بأن الحكم لله، بل إنه سن شريعة جديدة تبلورت فيما بعد، تقول بأن حكم دولة الإسلام من قبل قريش إنما هو حق إلهي لا ينازعهم عليه إلا ظالم، مما جعل المسلمين يرزحون تحت الاستعمار القرشي قروناً طويلة قبل أن يأتي المغول ويخلصوهم من ذلك الاستعمار في القرن السابع الهجري، ولكن بعد أن ترسخ الاعتقاد بأن من يستولي على الحكم فهو حق إلهي له. فذهب القرشيون، وبقيت مبادئ حكمهم تحكم المسلمين إلى اليوم، وأصبح كل حاكم للمسلمين عبارة عن قرشي، ولو لم يكن من قريش، له حق إلهي في الحكم، من خرج عليه أو انتقده فقد عصى الله وخرج عن دينه.

٣- ومما أفرزته حروب الردة و«الفتوح» تسلط الجنس العربي على بقية شعوب الأرض باسم الإسلام، وبحكم أن الخلافة فيهم، وأن ولاة الأقاليم كانوا منهم، أو ممن تطبع بطباعهم، فقد تفشت العصبية القبلية، وأصبح المجتمع ينقسم إلى عرب وموالٍ. مما أرسى كراهية الشعوب الأخرى للعرب، فولدت الضغائن من التسلط العربي، ما عرف بالشعوبية في العصر العباسي. وهي حركات ثورية معادية للعرب قام بها سكان البلاد الإسلامية ضد العنصر العربي، ومثلها ثورات الزنج.

وأصبح المجتمع ينقسم إلى سادة (عرب) وموالٍ (رقيق) من غير العرب. واستمر هذا التقسيم حياً إلى يومنا هذا، في كل العالم العربي، ويرى بوضوح في جزيرة العرب، حيث هناك القبيلي، أي الذي له أصول عربية وينتسب إلى قبيلة عربية، والخضيري وألقاب رديفة أخرى، ممن ليس له أصول عربية، أو ممن تحدر من الموالي الأوائل. وبقيت العنصرية قائمة بين الفريقين، بحيث لا يمكن

أن يسمح القبيلي لابنته أو أي قريبة له بالزواج بخضيري. وحتى في المحاكم التي تسمى المحاكم الشرعية، لا يسمح القاضي بإتمام مثل هذا الزواج، وأحياناً يأمر القاضي بإنهاء زواج تم بالفعل بين خضيري وقبيلية، بداعي الخوف من إثارة الفتن. وهم بهذا يؤصلون هذه الفكرة، ويساعدون على استمرارها.

٤- إن أبا بكر عندما أوصى بأن يكون عمر هو الخليفة بعده، كان أول من قال بوراثة الحكم في الإسلام. وبذلك سنت سُنّتان مخالفتان لمفهوم حكم دولة الإسلام، هما:

الأولى أن الناس فهموا أن أبا بكر كان حاكماً للدولة بمعنى التملك، أي أن الدولة ملك خاص يهبه لمن يشاء.

والثانية أن استخلاف أبي بكر لعمر أحدث ما عرف بولاية العهد في الحكومات التي توالت على المسلمين فيما بعد وإلى اليوم.

٥- إن حروب الردة، وإن تكن من حيث المبدأ مبررة شرعاً وأخلاقاً، إلا أن الممارسات التي مورست باسمها من الجند أفرزت تجاوزات لضوابط الجهاد الإسلامي كما جاء في القرآن، ومن أهمها السبي والاستيلاء على ممتلكات المهزومين. وهي عوامل كانت وراء اكتساح المرتدين بسرعة قلما عرف التاريخ القديم مثيلاً لها، إلا أنها أرجعت العادات الجاهلية إلى حروب المسلمين، على الرغم من أن الإسلام حرمها.

٦- إن انتصار جيوش المسلمين في حروب الردة، فتح شهية الجند لفتح البلاد المجاورة بدءاً بالعراق والشام بالصرامة والسرعة ذاتهما اللتين تم فيهما القضاء على كل المرتدين في شبه جزيرة العرب، وبالدوافع نفسها المتمثلة في الغنائم والسبي والتي أصبحت الصبغة العامة لكل «فتوح» المسلمين.

وتكون حروب الردة ومن بعدها «الفتوح» قد حولت الجهاد إلى حرب توسعية لضم بلاد جديدة إلى دولة الإسلام بالقوة، وللاستيلاء على أراضي وممتلكات البلاد المفتوحة بالقسر، وفرصة لكسب الغنائم للأفراد من جنود الفتح، وتجار الحروب.

فلم يكن هناك خيار للمغلوبين إلا في ثلاث، أحدها أن ينطقوا بالشهادتين كدليل على إسلامهم الذي لا يمكن أن يتجاوز حناجرهم ويصل لقلوبهم، لأن

تغلغل الإيمان في النفوس يحتاج إلى وقت وقناعات لا يمكن أن توجد لدى من يخير بين أن ينطق بها أو يدفع الجزية كخيار ثانٍ أو يقاتل كخيار أخير.

وكان الخيار الثاني لأهل البلاد المفتوحة أن يقبلوا بحكم دولة المسلمين ويدفعوا لها الجزية، وكان تقدير الجزية الواجب دفعها يتم من قبل جنود الغزو الإسلامي، وكلما كان المدفوع كبيراً كلما زادت حصتهم التي سيحصلون عليها منه. ولم تكن هناك نسبة محددة وثابتة من الدخل للجزية.

وإذا اختار أحدٌ القتال وهزم فإن نساءه وماله حلال لجنود الفتح، وفي هذا عود للعادات الجاهلية التي جاء الإسلام لمحاربتها (يرجى الرجوع إلى موضوع الجهاد).

وهذه التجاوزات ساهمت في جعل عواصم الخلافات الإسلامية أكبر أسواق بيع الرقيق والجواري في العالم، وأصبح الخلفاء والقضاة وكل علية القوم في دولة المسلمين يملكون الآلاف من الغلمان والعبيد والجواري.

ولم يكن السبي وأخذ الجزية واسترقاق الأسرى هو ما يقع بعد كل معركة فقط، بل كان يقع ما هو أكثر قسوة، ومن ذلك ما أوردناه سابقاً عما حدث في موقعة أليس والتي حاول فيها جيش المسلمين أن يجري الدم من دماء الأسرى، وكيف كان المسلمون ينهبون مواشي مزارعي البلاد المفتوحة ولو لم يشتركوا في القتال، وغير ذلك الكثير مما تمتلئ به كتب التاريخ المشهورة، وبتفاصيل تقشعر لها الأبدان.

وهذا يعني أن «الفتوح» صحبها ما يصحب أي غزو من تعامل فظ وإذلال للشعوب المغلوبة، وكانت الحروب تدار بما يراه القائد وليس حسب ضوابط الجهاد التي فرضها الله. وإلا فحكم أسير الحرب في الإسلام إما المن من دون مقابل أو بفدية. وفي كل حروب الرسول على مدى عشر سنوات أطلق سراح جميع الأسرى في تلك الحروب، بفدية أو من دون فدية، عدا اثنين قتلا لجرائم أخرى.

وعند فتح مكة، تعامل الرسول بكل إنسانية مع أهلها الذين أذاقوه ومن معه كل أنواع الأذى وأخرجوه من بلدته، وقتلوا أصحابه وأقرباءه، لأنه كان يتبع أمر الشرع الإلهي في ضوابط الجهاد. فالهدف من فتح مكة كان القضاء على تسلط الكبراء،

وليس على أشخاصهم، لمنعهم من الوقوف ضد انتشار الإسلام أو قيام دولته، وليس لإجبارهم على الدخول في الدين أو فرض الجزية عليهم أو سبي نسائهم. ومثل ما حدث في مكة حدث مع أهل الطائف، بل ولم يسب المسلمون نساء اليهود في يثرب وخيبر وغيرها، ولم يسترقوا رجالهم وسمحوا لهم بنقل ما يشاؤون من مالهم ومتاعهم، على الرغم من خيانتهم لمعاهداتهم مع المسلمين، وكان من المفروض أن يحدث هذا مع كل من حارب الإسلام والمسلمين.

٧- وكان مما ابتدع، أن الجيش يتكون من عدة ألوية، كل لواء يضم جنوداً من قبيلة معينة، وقائدهم من القبيلة نفسها، وكأن الجيش عبارة عن عدة جيوش متنافرة في جيش واحد، وربما كان الدافع لذلك هو أن يتقبل الجنود قيادة من هو من قبيلتهم. وإذا استقر أولئك في البلاد المفتوحة وزعت بينهم الأراضي على أساس قبلي بحيث يتجمع كل أفراد قبيلة في ناحية، مما جعل العصبية القبلية تنهض من إغماءتها التي أصابها بها الإسلام والذي كان سيقضي عليها إلى الأبد لو لم يتم إيقاظها. مما تسبب بحروب عصبية في دولة المسلمين الجديدة بين العرب أنفسهم، سنتطرق إليها عند الحديث عن العصر الأموي.

يقول ابن خلدون في مقدمته: . . .وإنما نسي ذلك (أي العصبية القبلية) أول الإسلام. . . فأغفلوا (أي المسلمون) أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع، ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها محكم والعادة معزولة. حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة وتراجع الحكم بعض الشيء للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت. انتهى (الفصل الثلاثون في ولاية العهد).

٨- وقد صاحب «الفتوح» غياب التأثير الديني عن الجنود، لعاملين هامين، هما: ندرة الصحابة، وعدم تدبر القرآن.

ندرة الصحابة

بالعودة إلى كتب اهتمت بالترجمة للصحابة مثل الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، أو الاستيعاب في معرفة الصحاب لابن عبد البر القرطبي، أو أسد الغابة في معرفة الأصحاب لابن الأثير الجزري أو غيرها نجد أن ما أوردته من الأسماء ممن ثبتت صحبته الطويلة للرسول أو ممن أسلم قديماً وتمكن الإسلام

من قلبه، لا يزيدون عن بضع مئات، عندما مات رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهم من بقوا على إسلامهم عندما ارتدت قبائل الجزيرة (انظر فصل الصحابة).

خرج كثير منهم في جيش أسامة بن زيد الذي بعثه أبو بكر إلى الشام بعد ثلاثة أيام من وفاة الرسول، ولم يبق في المدينة غيرهم من المسلمين إلا قلة قليلة، لدرجة أن أبا بكر أمرهم في التواجد في مسجد رسول الله على صغر مساحته، ليكونوا على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة وحتى لا يؤخذوا على غفلة من قبل المرتدين الذين تواترت الأخبار عن عزمهم على مهاجمة المدينة. يقول ابن الأثير: وألزم (أبو بكر) أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو. انتهى.

ومما يؤكد قلة أعداد الصحابة الأخيار الحديث الذي أورده البخاري برقم (٤٥٥)، ونصه: عن حذيفة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل، قلنا أنخاف ونحن ألف وخمسمائة، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلّي وحده وهو خائف.

وفي رواية أخرى: فوجدناهم خمسمائة وقيل ما بين ستمائة إلى سبعمائة، قيل: إنَّ هذا القول (فقلنا) عند حفر الخندق.

ويكون عدد المسلمين الذين دخل الإيمان قلوبهم لا يزيد فعلاً عن بضع مئات، ليس في غزوة الخندق، بل وفي آخر حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويكون الرقم ١٥٠٠ مبالغاً فيه. ولذا انطبق على المسلمين الوصف الذي وصفتهم به كتب الأخبار بعد وفاة الرسول وردة الناس، ومن ذلك قول ابن الأثير في الكامل: وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق، واشرأبت يهود والنصرانية، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد بنيهم وقلتهم وكثرة عدوهم. انتهى.

وأصبح كل من بقي على قيد الحياة بعد حروب الردة من أصحاب رسول الله المشهود لهم بالصحبة والتقوى والتعمق في الدين لا يمثلون إلا ندرة نادرة في خضم بحر هائج من جنود الفتح في العراق والشام. ولم يكن لهم القدرة على غرس المفاهيم الإسلامية في نفوس عشرات الآلاف من الناس الذين شاركوا في جيوش «الفتوح» والذين كان المسلم منهم لا يعرف من الإسلام إلا الشهادتين والصلاة التي لم تمنعهم من نبذ عاداتهم وعصبيتهم وتقاليدهم وعقائدهم وخرافاتهم.

تدبر القرآن

لم يكن كل الصحابة يحفظون القرآن، وقد تم الاستيلاء على بلاد الشام ومصر والعراق وبلاد فارس ولم يكن مع المسلمين نسخة واحدة من القرآن الكريم، كمرجع ديني. والسبب أن القرآن وإن كان قد كتب كله ورتبت آياته زمن رسول الله، وتأكد أبو بكر من اكتماله في مصحف واحد، إلا أن هذه النسخة بقيت في المدينة، ولم يتم كتابة عدة نسخ منها وإرسالها إلى مناطق مختلفة من دولة المسلمين إلا في خلافة عثمان، وفي العام ٣٣ للهجرة تحديداً. أي بعد أن استولت دولة المسلمين على مساحة تمتد من حدود الصين شرقاً إلى شمال أفريقيا غرباً، وبعد أن تكونت لدى أجيال المسلمين الجدد ثقافة دينية ضحلة ليس للقرآن عليها تأثير يذكر، وتبنت الكثير من ثقافات ومعتقدات الشعوب التي انضوت تحت الحكم الإسلامي.

وقد فطن عمر لما أصاب الإسلام من ضرر بالغ نتيجة للتوسع في «الفتوح» دون أن يصاحبه تثقيف الناس ثقافة إسلامية مناسبة، فقام بتكليف عدد من الناس بحفظ القرآن، وألحقهم بجيوش الفتح في العراق وفارس، علهم يفقهون الناس في دينهم، ولكن هذا لم يحدث، لقلة عددهم ولأنهم وإن كانوا حفظة للقرآن إلا أنهم من حديثي العهد بالدين الإسلامي، ولانشغال الناس بالدنيا والغنائم عن الالتفات إلى الدين وتدبر القرآن وتدارسه. مما ولد أجيالاً مفرغة من العقيدة، لا تعرف من الإسلام إلا القشور، ولديها المال والجواري والممتلكات والضياع والأراضي الزراعية الشاسعة التي يعمل فيها أهلها السابقون كأجراء أو رقيق.

وأصبح كل من دخل حديثاً في الإسلام من موالي السبي لا يعرف من الدين إلا ما يعرفه سيده العربي وهو قليل جداً، لذلك أبقى على معتقداته السابقة بعد أن ألبسها حلة إسلامية، سواءً كانت تلك المعتقدات نصرانية أو مجوسية أو هندية أو يونانية أو وثنية، فأثرت تراث المسلمين وأصبحت جزءاً من دينهم الإسلامي، ولم تدخل هذه المعتقدات إلى الإسلام بقصد تخريبه أو الإساءة إليه بالضرورة، كما يظن بعض الباحثين المسلمين.

وكان من نتيجة غياب القرآن، والحرص على تلقين المسلمين الجدد الشهادتين وتعليمهم الصلاة لأنها ممارسة يومية، إضافة إلى الصيام، أن تنامى الحرص

الشديد على العبادات التي أمر بها الإسلام، واعتبرت هي عماد الدين وأساسه، بينما اعتبرت كل التصرفات الشخصية الأخرى لا تضير الإسلام في شيء. فأصبح الدين عبادات فقط، ولم يعد للمعاملات والآداب مكان عند المسلمين.

٩- إن ممارسة السبي وحيازة الجواري أعادت للأذهان العادات التي كانت تحكم نظرة الرجل إلى المرأة، وكونها مجرد مخلوق للمتعة، ولكنها في الوقت نفسه جالبة للعار على أهلها لو استولى عليها العدو، ولذلك يجب حفظها، وعدم السماح لها بالتصرف كإنسان قادر على تقرير مصيره بنفسه. مما أعاد تكوين الصورة السلبية لمعاملة المرأة التي تعاني منها النساء المسلمات حتى اليوم.

١٠- إنه على الرغم من أن أبا بكر شن حروب الردة بسبب امتناع الناس عن دفع النفقة لبيت المال، لأنه ركيزة أساسية في دولة الإسلام شرعها الله في القرآن، إلا أن «الفتوح» التي بدأها أبو بكر قد ألغت تلك الركيزة فيما بعد.

ذلك أن غنائم «الفتوح» قد ملأت خزينة الدولة المسلمة بما فاض عن حاجاتها وحاجة مواطنيها، فلم يعد الناس مطالبين بالإنفاق، فتوقف الناس عن إخراجه لفترة من الزمن عندما كانت أموال البلاد المفتوحة كافية لإشباع الدولة والناس على حد سواء.

وقد أدى ذلك إلى نتيجتين سلبيتين على الإسلام والمسلمين في عصور لاحقة، هما:

أ ـ تحوير معنى الإنفاق

فبعد أن ظهرت بوادر الفقه والتفسير والحديث بجهود مسلمي «الفتوح»، تحول مفهوم الصدقات والزكاة والإنفاق التي وردت في القرآن بمعنى واحد، إلى ثلاثة أشياء مختلفة، هي:

الصدقة: وتعني الإحسان على المحتاج بما تجود به نفس المحسن. ووضع لها حكم شرعي يتلخص بأن من قام بها فله أجر ومن امتنع فليس عليه وزر. وقد ساهمت في تفشي الطبقية وتقسيم الناس إلى أغنياء بكرمة وحقوق وفقراء مسحوقين وبكرامات مهانة يستجدون لكسب قوتهم.

الزكاة: ووضع لها الفقهاء شروطاً ومقادير وأزمنة، بحيث يجب أن تكون

بمقدار معين ويحول على هذه المقادير سنة كاملة، وفي هذه الحالة يجب على مالكها أن يخرج نسبة معينة من تلك الممتلكات، سواءً كانت نقداً أو أنعاماً أو عقاراً أو حلياً، بتفاصيل متشعبة ومختلفة، لا تعتمد على أدلة من القرآن الكريم.

الإنفاق: ولم يضع له الفقهاء تعريفاً ولا حكماً، على الرغم من أنه تكرر في القرآن بتصريفات مختلفة أكثر من ٧٠ مرة، ويكون دائماً مقترناً بالإيمان.

وهكذا أصبح الإنفاق الذي يزكي ويطهر أموال المسلمين من جهة، ويضمن التكافل الاجتماعي للمجتمع الإسلامي من جهة ثانية، ويقوم على تغذية ميزانية دولة الإسلام وإمدادها بالمال والعين اللازمين من جهة ثالثة، أصبح هذا الركن الهام في الإسلام، عبارة عن مبلغ أو عين يدفع سنوياً بنسبة ثابتة، سواءً غطت مصروفات دولة الإسلام وساهمت بتوفير حياة كريمة لكل المسلمين في الدولة أم لا. إضافة إلى ما عرف بالصدقة والتي أصبحت تعني منة من الغني للفقير ومعروفاً، وليس واجباً إسلامياً يودي بمن تركه في نار جهنم. فساهمت الصدقة بإذلال الفقير وسحق كرامته لاضطراره التسول، وتكبر الغني وتجبره وإحساسه بالعظمة والكبرياء.

كما أن تغييب الإنفاق أفسح المجال لتفشي الربا، لأن الناس إذا لم يجدوا برامج للتكافل الاجتماعي تضمن لهم حياة كريمة، كما الإنفاق، فسوف يلجأون إلى الربا لسد حاجاتهم المعيشية (ويمكن الاستزادة من هذا الموضوع بالرجوع إلى موضوع الركيزة الثالثة من ركائز الدولة الإسلامية، الإنفاق).

ب ـ المساهمة في ظهور الطبقية

فبعد أن توقفت حروب الفتح، توقف معها مصدر رزق المحاربين وعائلاتهم. وكان الإنفاق قد ألغي من حياة المسلمين قبل ذلك، ولكن الخراج والجزية، إضافة إلى ما سمي بالزكاة، بقيت تصل لبيت المال، الذي أصبح ملكاً خالصاً للحاكم، دون المسلمين. فأصبح الحكام ومن حولهم يعيشون حياة بذخ لا يمكن تصورها ولا بالخيال، بينما افتقر عامة مجتمع دولة المسلمين.

١١- لعل أهم نتيجة بادية للعيان للفتوح الأولى تمثلت في ظهور بوادر الفقه والتفسير والحديث، والتي ساهمت أكثر من أي نتيجة أخرى بتحوير التشريعات

الإسلامية وظهور الفرق والمذاهب واستبدال دين الله الواحد المستمد من القرآن إلى معتقدات وعقائد مختلفة ومتفاوتة تعتمد على تشريعات الزعماء الدينيين لكل فرقة ومذهب، ولم يعد القرآن هو الموجه الديني للمسلمين. وسنتعرف بشكل أكثر تفصيلاً على ولادة هذه العلوم وكيف ساهمت بهدم الدين، في نهاية باب «الخلفاء الراشدون».

وهكذا وفي خلال عشر سنوات من وفاة رسول الله، تغيرت ثقافة المجتمع المسلم الفتي، عما اختاره الله لدولة الإسلام والمسلمين، ولعل السبب وراء تلك الممارسات وعودة تلك العادات الجاهلية إلى أن أبا بكر وعمر في حروب الردة وفي «الفتوح» لا يعلمان بما تجري عليه الأحوال في ساحات القتال، أو أن حاجة أبي بكر إلى هزيمة المرتدين جعلته يتغاضى عن بعض التجاوزات التي قد تكون بدأت بسيطة وفردية، ولكنها أصبحت سمة لحروب المرتدين فيما بعد، مما جعلها تجتذب أعداداً هائلة من المرتدين أنفسهم للعودة إلى الإسلام والاشتراك في جيوشه، لكي يحموا قومهم من المسلمين ويحفظوا نساءهم من السبي، من جهة، ومن جهة أخرى للحصول على الغنائم والسبي من القبائل الأخرى.

ولم تتمكن القلة القليلة المتبقية من المؤمنين الأوائل من منع أو السيطرة على التجاوزات التي أصبحت سمة لحروب الفتح أيضاً، بعد موافقة أبي بكر للبدء بمحاربة الفرس والروم في العراق والشام بجيوش مكونة من المرتدين السابقين وممن دخل الإسلام للتو، إضافة إلى أعداد هائلة ممن لم يسلموا من النصارى والوثنيين.

وعندما جاء عمر كان التوسع أكثر في «الفتوح» وقبول انضمام كل من يرغب في جيوش المسلمين، وأصبح وكأن المسلمين اقتنعوا بأن التجاوزات في تلك الحروب، وإن كانت مخالفة لقوانين الجهاد، إلا أن لها منافع على دولة الإسلام. فقد زلزلت عروش فارس والروم، بل وقضت عليهم وإلى الأبد في بلاد العراق وفارس والشام، وحولت كل تلك البلاد إلى سيطرة المسلمين. وقد يكون المسلمون الأتقياء قد اقتنعوا بأنه وبمجرد الانتهاء من تلك الحروب والسيطرة على تلك البلاد، ولو بجنود غير مسلمين أو لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، سيتمكنون من إعادة تعميق التشريعات والمبادئ الإسلامية الصحيحة في النفوس،

وبالتالي خلق مجتمع إسلامي مثالي في كل تلك البلاد الشاسعة، يحاكي المجتمع الإسلامي الذي أمر الله به في كتابه.

ولكن استعادة الإسلام لهيبته لم تحدث لأنه يستحيل أن تحدث في مجتمع يقدر بالملايين، لا يعرفون من الإسلام شيئاً سوى الصلاة والصوم والشهادتين، في ظل غياب القرآن، الموجه الحقيقي لمبادئ الإسلام، عن الساحة الإسلامية فعلياً.

ويمكن افتراض أن أبا بكر لو لم يرتد الناس عن الإسلام مباشرة بعد وفاة الرسول، وانشغاله بحربهم، لأنهم كانوا يهددون بقاء الدعوة، لكان سيقوم بما قام به عثمان من نسخ القرآن لعدة نسخ وإرسالها إلى الأمصار لتكون مرجعاً ينسخون منه النسخ التي يحتاجون، مباشرة بعد وفاة الرسول.

كما كان سيعمل على نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، بتروٍّ وتؤدة، ومن دون تسرع، والابتعاد عن استخدام السيف، إلا ضد من يهدد أمن دولة الإسلام. ويكون انتشار الدعوة مصحوباً بتفقيه المسلمين الجدد بكل مبادئ الإسلام. ولو تم هذا فسيصحبه نشر للتعليم بين الناس للحاجة إلى كتابة وقراءة ونسخ المصاحف. عندها سيكون اتساع دولة الإسلام أبطأ، ولكن المفاهيم الدينية في النفوس ستكون أعمق، وستقل السلبيات التي يمارسها المسلمون ضد بعضهم وضد غيرهم.

وكان من الممكن وبعد أن انتهى أبا بكر من حروب الردة، وعادت جزيرة العرب إلى حظيرة دولة الإسلام، أن لا يتوجه للفتح، بل يعمل على تثقيف المسلمين الجدد دينياً، ويقوم بنسخ القرآن ونشره في كل المناطق، ويسن القوانين والتشريعات الإسلامية بموجب آيات القرآن، والتي تحكم العلاقات بين الناس وتضمن لهم حقوقهم وترسي مبادئ العدل والمساواة وكل المبادئ الإنسانية والتعبدية والتعامل التي جاء بها الدين.

ولكن كما سبق وذكر، فإن جهل العرب بالحكومات الدستورية، وقيمة التعليم وكتابة القوانين، كان وراء تأخر كتابة ونشر المصاحف بين المسلمين، وحتى عندما نسخ منها عدد قليل من النسخ وأرسلت إلى الأقاليم والأمصار، زمن عثمان، كانت عبارة عن مخطوطات حفظت لفترات طويلة قبل أن يتسع التعليم ويتمكن الناس من الاطلاع عليها ونسخ المزيد منها، ليتمكن الإنسان العادي من التعرف عليها. وعندما

حدث ذلك كان المسلمون قد تكون لديهم تراث عميق وثقافات متأصلة تختلف عن ثقافة القرآن وتشريعاته، فحوروا وأولوا معاني الآيات لتتواءم مع تلك الثقافات، ولم يحوروا تلك الثقافات لتتواءم مع الآيات. يقول أبو الحسن عبدالله الكرخي أحد رجال الدين السنة: «كل آية تخالف ما عليه مذهبنا فهي مؤولة أو منسوخة»[١].

وذلك لأن توفر نسخ من القرآن قد تأخر كثيراً، وبعد أن ضربت الفرقة أطنابها بين المسلمين، ودخلت البدع والخرافات والأفكار المقتبسة من الأديان والمعتقدات الأخرى إلى تراث المسلمين وأصبحت جزءاً منه، وبعد أن اعتاد الناس اعتبار الدين هو ما يتناقلونه مشافهة من أقوال قال بها أناس تحولوا إلى رموز لدين الله في الأرض، ولم يعد كتاب الله المرجع الرئيسي لدين الله بين الناس. فجاء تداول القرآن بين الناس بعدما غاب تأثيره في النفوس، فبقي حاضراً بينهم ككتاب وغائباً عن حياتهم كتشريع.

ولأن جيوش المسلمين اكتسحت مناطق شاسعة من البلاد، بسرعة هائلة، متسلحة بالسيف، وجاهلة بالقرآن، فقد كانت دولة المسلمين تضم مجتمعات متنافرة ومتباينة في العادات والمعتقدات، وفي كل شيء، وليس بينها رابط سوى أنها تشترك في أنه تم السيطرة عليها من قبل جيوش أعرابية، استولت على أراضيها وسلبت خيراتها وسبت نساءها واسترقت رجالها، دون أن تقدم لها مقابل ذلك شيئاً يذكر، سوى تغيير عقيدة المجوسي من السجود للنار إلى السجود لشيء لا يراه، وعقيدة المسيحي من الاعتقاد بوجود ابن لله إلى أن الله لا ابن له، والوثني من السجود للصنم إلى السجود للخالق، ولا شيء غير ذلك. ومن لا يرغب في تغيير دينه فعليه أن يدفع ضريبة من دخله للمحتل.

ولم ير الناس في الإسلام الذي قدمه لهم الفاتحون سوى نسخة مكررة من أي جيش غاز، إلا أن الغزاة كانوا ولأول مرة في التاريخ، من العرب، الذين لا يعرفون حياة المدن والحضارة، ولا يعرفون من سبل العيش سوى السلب والنهب، ولو لم يجدوا من يسلبونه إلا أبناء عمومتهم. فكان الغزاة أقل حضارة ووعياً من الشعوب التي تغلبوا عليها في مناطق كثيرة، وهو ما جعل تلك المجتمعات تتحرك

---

(١) الرواية وردت على لسان أبي حيان التوحيدي بتحقيق الشيخ محمد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع الإسلامي» ط٨ ص٢٩٢ القاهرة ١٩٧٥.

للتخلص من جلافة الأعراب وحكمهم العشائري والعودة إلى نظمهم ودساتيرهم القديمة والتي كانت أرقى من نظام الحكم العشائري العربي المستبد.

فخسر المسلمون كل الأراضي التي يعيش فيها شعوب أكثر حضارة من العرب، مثل إسبانيا والبرتغال في غرب أوروبا، واليونان والمجر وبلغاريا في شرقها، وجميع جزر البحر المتوسط، وأجزاء من روسيا، وسقطت حكومة الهند المسلمة على أيدي الإنجليز، وسحل المسلمون في الفلبين على أيدي الإسبان، ولم يبق المسلمون إلا في البلاد العربية ومن هم أقل ثقافة من العرب، مثل بلاد جنوب شرق آسيا وأجزاء من الهند (باكستان وبنجلاديش) وفي أفريقيا، وإن كانت كل هذه المناطق بدأت تتخلص من الإسلام العربي شيئاً فشيئاً، بما في ذلك بعض أجزاء البلاد العربية، بعد أن ثبت لديها وعلى مدى أكثر من أربعة عشر قرناً أن العرب ليسوا أهل إصلاح ولا تقوى ولا ريادة ولا علم ولا نظام ولا تنظيم ولا إدارة، ولا يعرفون إلا التسلط، وبما أنهم يمثلون الإسلام، أو هكذا شبه لهم، فلا يريدون العرب ولا دينهم. فكان العرب قديماً وحديثاً منفرين للإسلام، وليسوا دعاة له، وأصبح من حق دين الله على الجنس البشري أن يخلص الإسلام (دين الله) من هيمنة العرب عليه.

يقول ابن خلدون: أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلة، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة (أي عدم احترام القوانين والانقياد للأنظمة، وهو ما يميز العرب إلى اليوم).

ويقول ابن خلدون في الفصل نفسه، موضحاً: فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة (الترحال) والتغلب (الفوضى).

ويقول عن جهلهم: فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها (من أجل ذلك، ولا يمكن أن يروا أن الحجر يمكن أن يكون تمثالاً للجمال مثلاً، أو أداة للإعمار) ويستمر ابن خلدون قائلاً: والخشب إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد، فيخربون السقف عليه لذلك (ولو كان ما خربوه بناءً تاريخياً أو له أهمية أخرى لا يرونها).

يقول ابن خلدون فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران (أي الحضارة).

ويقول: وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، ويرون رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه (وهذا ما يفسر الكثير من عاداتهم الحالية خاصة وعامة).

ويقول ابن خلدون إن العرب يحتقرون الصناعات والأعمال الحرفية: أيضاً فلأنهم يكلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، ولا يرون لها قيمة (ولهذا لم يدخلوا عالم الصناعة والعلم، متخلفين عن العالم أجمع).

ويقول ابن خلدون إنهم لا يعرفون صياغة الأحكام والنظم والإدارة، وكل همهم أن يستولوا على أكبر قدر مما يستطيعون من أموال الناس نهباً أو غرامة، فإذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوال الناس والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد، فتبقى الرعايا في مملكتهم فوضى كأنها دون حكم، والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران (وقد صدق ابن خلدون، إذ لا توجد دولة عربية، قديماً وحديثاً، إلا وهي بؤرة للفوضى والفساد الإداري وقلة الأمن وعدم احترام الحقوق وانعدام القوانين).

ويقول ابن خلدون: وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض (وهو ما ينطبق على الحكام العرب اليوم مثلما انطبق عليهم أمس، وسينطبق عليهم غداً).

ويصف ابن خلدون ما أصاب الأمصار من العرب بعد استيلائهم عليها فيقول: فاليمن خراب إلا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد، كذلك أفريقية والمغرب لما جاء إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين، قد لحق بها وعادت بسائطها خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان (أفريقيا السوداء) والبحر الرومي (الأبيض المتوسط) كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن، والله يرث الأرض ومن عليها والله خير الوارثين. انتهى.

عثمان بن عفان
«أراد الدنيا وأرادته»

سيرته والتغيرات التي حدثت في عهده

لعل المتتبع لما ذكر في كتب السير والتاريخ المشهورة ومنها تاريخ الطبري الذي اعتمدنا عليه في معظم ما أوردنا هنا، سيلاحظ أن من أهم ما طرأ من تغيرات في عهد عثمان ما يلي:

أصبحت الخلافة منصب جاه وسلطان، فتصرف بهذا المفهوم. ولعل موقفه من أمين بيت مال الكوفة عبدالله بن مسعود يظهر مدى اعتبار عثمان الخلافة على أنها ملك. فقد اقترض عامل عثمان على الكوفة مبلغاً من بيت المال وتأخر في سداده، فطالبه ابن مسعود، القائم على بيت المال، بالسداد، فراجع العامل عثمان في الأمر. فما كان من عثمان إلا أن كتب إلى عبدالله بن مسعود قائلاً: «إنما أنت خازن لنا». فاستاء ابن مسعود ورد على عثمان بأنه كان يعتقد أنه خازن المسلمين وليس خازناً لعثمان وعائلته. ورمى بالمفاتيح وترك منصبه.

والنتيجة: استبدلت الخلافة بالملك، وأصبحت دولة الإسلام ملكاً خالصاً للملك.

حابا عشيرته وأقربائه. فعينهم ولاة في الأمصار وأجرى لهم العطايا والهبات. ومن ذلك توليته لأخيه من أمه الوليد بن عقبة على الكوفة مع أنه كان من الطلقاء، وولى البصرة ابن خاله عبدالله بن عامر وكان حدث السن، كما أعطى ولاية مصر لأخيه من الرضاع عبدالله بن سعد بن أبي السرح، أول من ارتد في الإسلام، والذي كان الرسول قد أهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة. وضم كل الشام لمعاوية بن أبي سفيان.

والنتيجة: أصبحت الوظائف تشغر بالواسطة، وليس بالكفاءة.

لم يكن متبعاً. فقد سمح لعمه الحكم من العودة إلى المدينة مع أن الرسول قد نفاه وأولاده منها لأنه كان يستهزئ بالرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد الفتح وهجرته للمدينة. ووهب له صدقات قضاعة، وأعطى الحارث بن الحكم من بيت المال مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وخمس خمس الغنائم لمروان بن الحكم، وخمس خمس غنائم أفريقيا لأخيه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبي السرح.

والنتيجة: أصبحت الدولة الإسلامية مملكة خالصة للملك يفعل بها ما يشاء، وقضى على فكرة أن بيت المال لكافة المسلمين واستبدلت بمفهوم أن للحاكم الحق بالتصرف بهذا المال كما يتصرف بماله الخاص.

كان مبتدعاً. فقد ألغى حمى المدينة الذي حماه الرسول صلى الله عليه وسلم، ومد يده لبيت مال المسلمين. فأخذ ووهب وأقرض أبناء عشيرته والمقربين منه. وأقطعهم الإقطاعات في البلاد المفتوحة ووزع أراضي الصوافي التي وقفها عمر لبيت المال.

والنتيجة: أن الحاكم أصبح من حقه أن يحكم برأيه ولو خالف أمر رسول الهدى أو أوامر الشرع.

ألغى قانون عمر «من أين لك هذا». عندما سمح لكبار الصحابة الذين احتجزهم عمر في المدينة للاستقرار في البلاد المفتوحة والاستفادة من الأراضي والغنائم هناك. كما لم يهتم بمساءلة الناس عن طرق ثرائهم، بل على العكس أصدر قانوناً يشجع على الثراء، وهو عبارة عن مبادلة كل من لديه أرض في جزيرة العرب بأرض غنية في البلاد المفتوحة. فتكونت ثروات وصلت إلى أرقام فلكية حتى بحساب هذا الوقت خلال سنوات قليلة. ولعل ما تركه عدد من الصحابة من مال أكبر دليل على ذلك، ومنهم الزبير بن العوام، وطلحة، وعبدالله بن عباس، وغيرهم.

والنتيجة: أنه قضى على بذرة عمر في تطوير أجهزة المحاسبة والإدارة وجعل ذلك يرجع إلى مرئيات الحاكم الشخصية التي فوق النظام وقواعد المحاسبة.

لم يتعامل مع الناس بحسن النية كما فعل أبو بكر. بل عاقب كل من عارضه. ولعل ما حدث لعمار بن ياسر خير دليل على ذلك. فقد أخذ عثمان بعض الحلي

والمجوهرات من بيت المال وأعطاها لعائلته، فغضب الناس لذلك وتكلموا في عثمان وكان من بين من تكلم وبصوت عال عمار. فأمر به عثمان فنكل به بشدة حتى أشرف على الموت، لدرجة أن بني مخزوم، الذي كان عمار حليفهم وعتيقهم، قد هددوا عثمان إن هو مات. وقد غضب الصحابة مما حدث، وقامت أم المؤمنين عائشة بإخراج شعر الرسول ونعليه ولتعلن بأن سنته قد استبيحت وهو لم يبرد جثمانه بعد. وممن عارض سياسة عثمان ومعاوية المالية بشدة أبو ذر وابن مسعود وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف الذي كان أول من جهر من الصحابة بنقد عثمان (مع أنه هو الذي أعلنه خليفة على الملأ).

والنتيجة: أن اعتبر نقد تصرفات الحاكم عقوقاً له، يستوجب العقاب، وحل ذلك محل أن الخليفة بشر مثل غيره، وأنه لا عصمة له أو حصانة من أي نوع، وأن نقد تصرفه مساو لنقد تصرف أي شخص يخطئ بحق الإسلام ودولته.

لم يعمل بمشاورة المسلمين. ولم يسمح بالنقد، وتكونت في عصره نواة الطبقية، حيث كان خاصته والمقربون منه يعلو شأنهم عمن سواهم، وحتى وصل الأمر إلى حمايتهم ولو أخطأوا بحق الأمة. مثل موقفه من ابن عمه مروان بن الحكم وعدم تسليمه إلى وفود الأمصار ليحاكموه على تزويره للخطاب الذي أرسله إلى عامل مصر باسم عثمان ليقتل رؤساء الوفد المصري الذين حضروا لمناقشة عثمان عند رجوعهم إلى مصر، وقد كان اتفق عثمان معهم على أن يعزل والي مصر ويولي مكانه من اختاروه.

والنتيجة: أن سياسة الدولة العامة لم تعد مجموعة مرئيات كل أفراد المجتمع، بل أصبحت رأياً شخصياً للحاكم وحده.

كان عثمان أول من بنى القصور من الخلفاء. ولم يعش حياة بسيطة كما فعل عمر أو عادية كما فعل أبو بكر بل قام ببناء منزل من الحجر والخشب الثمين جعله يتميز عن كل من سواه من أهل المدينة قاطبة، إضافة إلى قطعان الماشية من الخيل والجمال وأراض في وادي القرى وحنين والأملاك الأخرى.

والنتيجة: أن الحاكم ميز نفسه عمن سواه من الناس لأنه الحاكم والمتصرف والزعيم، وهو ما يخالف أحد أهم قواعد التعامل الإسلامي الذي نص على أن

الناس سواسية كأسنان المشط وأنه لا وجود لمنصب تشريفي في دولة الإسلام يميز صاحبه عن بقية المسلمين ويشعره بالكبر، ولم تعد المناصب تكليفية لخدمة الناس ودولة الإسلام.

ومع كل هذه التجاوزات فقد خيره المسلمون الذين حاصروه في المدينة بثلاثة خيارات، تتلخص بالتالي:

١- إما الإفادة منه، أي محاكمته في كل ما صدر منه ويحاسب عليها مع استمراره خليفة.

٢- أو أن يبرأ من الإمارة، أي يتنازل عن الخلافة بإرادته، أي بتقديم استقالته بنفسه.

٣- أو أن يتبرأ منه الأجناد وأهل المدينة، أي تتم إقالته من منصبه بإرادة الناس.

ولكن رده الذي أوردته كتب الأخبار ومنها الطبري سن سنناً لم تكن في دولة الإسلام، وسار عليها الحكام بعده، وهي:

منع نقد الحاكم. عندما أجاب على الطلب الأول بقوله: أما إقادتي من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطئ وتصيب فلم يستقد من أحد منهم وقد علمت إنما يريدون نفسي.

وهذا يعني أنه اعتبر المنصب حقاً إلهياً. فقد فهم معنى الخلافة وكأنه مرادف لملك أعطاه الله إياه، وهذا نص ما أورده الطبري عن إجابته عن الطلب الثاني: وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته. وفي نص آخر أورده الطبري في تاريخه: قالوا فليس مثلك يلي، اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه قال لا أنزع قميصا ألبسنيه الله عز وجل.

والنتيجة: تحول معنى الخلافة عند الخليفة نفسه، من تكليف مرهق وشاق لشخص عادي لينوب عن الرسول في تنفيذ شرع الله، كما كان يعتقد عمر وأبو بكر، إلى اعتقاد لدى عثمان بأن الخلافة مُلْكٌ، ومنصب تشريفي، وهبه الله لمن يحصل عليه ليتصرف فيه كيفما يشاء.

أصبحت الخلافة منصباً مدى الحياة، وقد كرس ذلك المفهوم عندما رفض

التخلي عن المنصب نتيجة لما أحدثه من تصرفات، اعتبرها معاصروه تجاوزات، وأصر على الاستمرار وهو يرى أن الناس قد أحاطوا بمنزله ثم بدأوا يضيقون عليه شيئاً فشيئاً حتى منعوا الماء عنه، ومع ذلك بقي متشبثاً بالمنصب، وهذا رده على الطلب الثالث، كما أورده الطبري: وأما قولكم يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرؤون من طاعتي فلست عليكم بوكيل.

والنتيجة: لم يعد هناك سبب مهما كان يجعل الخليفة يتنحى عن الكرسي، حتى ولو غير وبدل. مخالفاً بذلك ماكان عليه سلفه، حيث كان شرط بقاء الخليفة هو أن ينفذ ما كلف به، فإن أحسن أعين من جميع المسلمين، وإن أساء التنفيذ أو خالفه، قوم من جميع المسلمين ولو بالإبعاد.

وهكذا كان عهد عثمان مسرحاً لتحولات جوهرية لمعنى الخلافة، وبيت المال، ومحاباة الأقارب، والتصرف بالمنصب حسب الرغبات الشخصية. كما كان مسرحاً لتغير أوضاع المسلمين، وحرياتهم الفكرية، وحقوقهم.

علي بن أبي طالب
«أراد الدنيا ولم ترده»

ورد في كتب الإخباريين المسلمين مناقب لعلي بن أبي طالب أكثر من أي صحابي آخر، وكتب عنه أكثر مما كتب عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووصف علي بكثير من الصفات الخارقة للعادة، ومن ذلك أن الإخباريين يقولون بأن قتلى المشركين في بدر كانوا قرابة السبعين، قتل منهم علياً أربعة عشر رجلاً لوحده أو بمشاركة غيره، فيما قتل بقية جند جيش المسلمين خمسة وخمسين رجلاً فقط، في معركة التحم فيها الطرفان[١]. وفي خيبر يقول ابن هشام[٢] وغيره من الإخباريين إن الرسول أعطى الراية في البداية لأبي بكر وأمره بالهجوم فحاول حتى أجهد ولم يك فتحاً، وتكرر المشهد مع عمر، وكان في عين علي رمد فتفل فيهما رسول الله وأعطاه الراية، يقول ابن هشام على لسان أبي رافع: فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علي عليه السلام باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه.

وقد يكون ابن حجر العسقلاني قد أصاب فيما نقله في الإصابة في ترجمته لعلي، عن سبب كثرة ما ابتدعه الإخباريون له من المناقب والصفات بقوله: وكان سبب ذلك بغض بني أمية له فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته وكلما أرادوا إخماده وهددوا من حدث بمناقبه لا يزداد إلا انتشاراً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ـ عدد من قتل من المشركين يوم بدر.

(٢) سيرة ابن هشام ـ شأن علي يوم خيبر.

وقد ولد له الرافضة مناقب موضوعة هو غني عنها. وتتبع النسائي ما خص به من دون الصحابة فجمع من ذلك شيئاً كثيراً. انتهى.

ويكون كل من أراد أن ينتقص معاوية ويخاف من العقاب، يختلق مناقب لعلي، ولكل من أراد سب بني أمية المتسلطين امتدح علياً بما ليس فيه، وهكذا تناقل الناس مناقب لعلي ليست فيه، لا حباً به ولكن بغضاً بمعاوية[١].

توليه الخلافة

بعد مقتل عثمان ووفاة عبد الرحمن بن عوف قبل ذلك، بقي ممن رشحهم عمر للخلافة من بعده أربعة أنفار، هم: علي بن أبي طالب، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام. وقد اعتزل سعد بن أبي وقاص العمل السياسي ومثله عدد من الصحابة لما طفت رائحة الفتن على السطح، أما الزبير وطلحة فقد خرجا على حكم علي بن أبي طالب في ثورة مسلحة بقيادة أم المؤمنين عائشة، مع أنهم كانوا قد تحزبوا مع علي في حزب واحد بعيد وفاة الرسول أملاً بالحصول على الحكم.

ويكون كل من بقي من المرشحين للخلافة لم يوافقوا على تولي علي بن أبي طالب، مثلهم مثل كثير من المسلمين، ومنهم عدد من صغار الصحابة مثل عبدالله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن سلمة. ولم يرحب بتولي علي بن أبي طالب إلا وفد الكوفة الذين قدموا لمساءلة عثمان مثل بقية وفود الأمصار الأخرى، ووفد الكوفة ممن اتهم بقتل عثمان، وهؤلاء سوف يخرجون على علي لاحقاً بحجة أنهم وافقوا على توليه الخلافة ظناً منهم أنه سيقوم بتحكيم كتاب الله، وأنه لما تبين لهم خلاف ذلك أثناء نزاعه مع معاوية، خرجوا عليه واعتبروه في خندق واحد مع معاوية كطالبَي حكم، وليسا محكمين لكتاب الله، حسب زعمهم.

وقد رضي بولاية علي عدد من أهل المدينة واليمن. ولم يبايعه أهل البصرة ولا الشام ولا عدد آخر من الأمصار. وأخرجت عن طاعته مصر في وقت لاحق، وقد دخل علي في حروب مع منافسيه للحصول على الملك، ولكنه لم يفلح، ومات مقتولاً.

(١) وقد ذهبت هذه العبارة مثلاً.

نتائج الأحداث التي وقعت في عهده

في عصره حدثت أول حرب أهلية من أجل تولي الحكم، وإن كنا لا نعلم بالأجواء المحيطة بتلك الظروف، إلا أن مجرد حدوث حرب بين رجلين مسلمين للوصول إلى الحكم، مهد للسلاطين الذين جاؤوا بعد ذلك التجرؤ على محاربة معارضيهم والاستيلاء على الحكم بالقوة، وعدم تحرجهم من قتل المسلمين وقتالهم في سبيل ذلك. وهو مفهوم بعيد كل البعد، بل ويتنافى مع مفاهيم إسلامية أساسية، لأسباب كثيرة جداً، منها:

* سبق وذكرنا أنه لا وجود لمنصب الحاكم في دولة الإسلام، وأنه حتى عندما قبل أبو بكر بإيجاد ما سمي بالخلافة، كان يظن أنه ضروري في فترة من فترات المسلمين حتى تتقوى دولتهم ويسنوا دساتيرهم المستمدة من القرآن والكفيلة بإدارة الدولة من دون زعيم بشري. وقد اعتبر أبو بكر وكذلك عمر بن الخطاب (على الرغم مما وقع في عصريهما من تجاوزات) أن الخلافة ليست منصباً للزعامة الشخصية، بل هي تكليف شرعي لرجل كفء وقادر على تنفيذ شرع الله في كل أمور الدين من دون أن يكون له رأي مخالف. وفي حال عدم قدرته أو مخالفته لشروط المنصب يجب عزله. ولذلك فلا يمكن إجبار الناس على شخص الخليفة، كما لا يمكن أن تكون الخلافة منصباً يتنافس عليه الناس، لأنها منصب ديني وليس لها أجر في الدنيا. ومحاربة الناس وقتل المسلمين للحصول عليها يحولها إلى ملك شخصي دنيوي.

* إن قتل مسلم واحد كقتل الناس جميعاً، وهو فعل يعاقب الإسلام فاعله بالقتل، ولا تقبل له شهادة، فكيف يمكن أن يقبل من فعل ذلك أن يكون زعيماً للمسلمين ولدولة الله في الأرض التي يحكمها الله بموجب كتابه القرآن، والتي من أهم مبادئها المحافظة على أرواح الناس وحقوقهم والعدل بينهم، وقتالهم يتنافى مع كل ما ذكر.

* إن الإسلام يحكم ولا يُحكم، فشرع الله هو من يسير الخليفة لتنفيذه، وليس العكس. ومادام الأمر كذلك فلماذا تجيش الجيوش المسلمة لتتناحر فيما بينها لحد الإبادة حتى يحصل أحدهم على الحكم، بدل أن تركز

الجهود لخدمة الإسلام من أي موقع يكون فيه المسلم، سواء كخليفة أو إنسان عادي، لأن أي مسلم يمكنه خدمة الدين مهما كان موقعه. والمحافظة على أرواح الناس من أكرم الأعمال عند الله، ولو حقنت دماء المسلمين الذين قتلوا في صفين والجمل والنهروان، ولو بتخلي علي بن أبي طالب عن الحكم، لكان في ذلك خدمة للإسلام، أكثر من أن يتولى علي أو غيره السلطة، ولأصبح من الصعب أن يتجرأ أحد على قتال الناس لكي يفوز بالحكم، ولو إلى حين.

* كان بالإمكان حفظ حياة عشرات الآلاف من أرواح المسلمين ومن بينهم عدد كبير من الصحابة لخدمة الدين في كل مجال، مثل كتابة الدستور الإسلامي، عوضاً عن قتلهم في الحروب التي دارت فيما بينهم.

* إن الحروب الأهلية قد أدت للتنافر والتناحر بين المسلمين وحولت جهودهم من المحافظة على دولة الإسلام ونشر دين الله بين الناس إلى عصبيات قبلية ومكانية وتنافس على نهب خيرات الأمة والتحكم في مصائر الناس ومعايشهم، فكان الخزي في الدنيا، أما يوم الدين، فالقاتل والمقتول في النار.

* أنها عمقت الصورة القاتمة البغيضة عن المسلمين لدى غيرهم، فإذا كانوا يتطاحنون بهذه الصورة الشرسة بينهم فما الذي سيفعلونه بغير المسلمين لو حاربوهم وقدروا عليهم.

* أصبح يصرف من بيت المال العام للمسلمين على تجهيز الجيش لمحاربة جيش آخر من المسلمين الذين يقودهم زعيم آخر منافس على الحكم.

* أصبح الصرف من بيت المال بموجب أمر شخصي للزعيم، وأصبح الولاء للزعيم هو المقياس للعطاء.

* لم يوافق علي بن أبي طالب على من أشار عليه بالتخلي عن المطالبة بالحكم بعد مقتل عثمان، والكف عن هدر دماء المسلمين، وكان ممن أشار عليه بذلك ابن عمه عبدالله بن عباس وابنه الحسن بن علي فيما نقله الطبري في تاريخه وغيره. وهذا ما جعل الخلفاء بعد ذلك يتفردون بالرأي ويسيرون الدولة برأيهم الشخصي دون مشورة، وشيئاً فشيئاً أصبح الزعيم

يتصرف من منطق أن الحاكم هو صاحب المكانة الأميز والرأي الأصوب والأوحد، وليس هناك في رعيته من يقارعه في الحكمة.

* أصبحت علاقة الزعيم بالناس علاقة راع له مطلق التصرف برعية عليها واجب الخضوع والسمع والطاعة. ولم يقبل علي معارضة من أحد، بل ووصل به الأمر إلى جعل الناس بين خيارين اثنين فقط: إما معه وعليهم حرب أعدائه ومعارضيه، أو ضده وهم أعداؤه. فقد كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يقول: أما بعد فقد بلغك الذي كان من مصاب عثمان، واجتماع الناس علي ومبايعتهم لي، فادخل بالسلم أو إذن بحرب، ولا مجال لخيار ثالث.

* وممن انسحب من موالاة علي بعد التحكيم جماعة أطلقوا على أنفسهم «أهل الحق» وهم من حفظة القرآن الذين أطلق عليهم «القراء» الذين كان يرسلهم عمر بن الخطاب لمرافقة جيوش الفتح لتفقيه الناس في دينهم، وقد أصبح أولئك القراء من أشد المعارضين لسياسات عثمان، التي رأوا فيها حكماً شخصياً وخروجاً عن العمل بالقرآن، وكان منهم وفد الكوفة الذي حضر إلى المدينة مع من حضر لمساءلة عثمان عن التجاوزات، وهو الدافع نفسه الذي جعلهم يسارعون لترشيح علي بن أبي طالب للخلافة، ومن ثم مناصرته، ولكن عندما تبين لهم أن علياً قد حاد عما اعتبروه تحكيماً لشرع الله وكتابه، تخلوا عن نصرته ضد منافسيه، فلحق بهم علي بن أبي طالب وأباد قرابة أربعة آلاف رجل منهم قرب النهروان، واستمر في تعقب فلولهم حتى مات.

ولأنهم معارضون له سماهم خوارج عن الدين، ومنذ تلك اللحظة اعتبر السلاطين كل من يخالف سياساتهم أو ينتقدها خارجاً عن الدين، يجب قتله، ولا يسمح له بمناقشة الحاكم الذي قد يكون هو من خرج على الدين (بطبيعة الحال أولئك الذين خرجوا على علي بن أبي طالب تحورت عقيدتهم مع الأيام، وأصابها الكثير من الخلل كما أصاب فرق المسلمين الأخرى).

وعندما قتل علي بن أبي طالب بعد ربع قرن فقط من وفاة رسول الهدى، كانت الأوضاع على الشكل التالي:

* تحولت الخلافة من منصب تكليفي شاق ومتعب لصاحبه من دون مقابل مادي، لتنفيذ شرع الله بدقة وبحرفية ومن دون تصرف من الخليفة، إلى ملك يشرّف صاحبه، ويفتح له خزائن بيت المال على مصراعيه من دون رقيب ولا حسيب. فأصبح الناس فيما بعد يتناحرون للوصول إلى المنصب.
* كان الناس جميعاً مسؤولين عن تقييم الخليفة ومحاسبته ومراقبته، فأصبحوا رعية تسمع وتطيع، وتحرص على رضى السلطان، ولو بمعصية الله وقتل الأبرياء لينالوا حظوته، ومن اعترض منهم فيعاقب ويسحق.
* كان الناس جميعاً مسؤولين عن إعانة الخليفة، فأصبحوا رعاعاً لا يمكن أن يخرج منهم من يوازي رجاحة عقل الملك.
* كان الخليفة من عامة الناس له ما لهم وعليه أكثر مما عليهم، فأصبح لا يسمح بمقارنته بهم، له كل الصلاحيات وعليه القليل من الواجبات.
* كان الناس بمن فيهم الخليفة مسؤولين عن رسم سياسة الدولة بما يتوافق مع مصلحة العباد والبلاد، فأصبح الحاكم يرسم ما يريد حسب ما تقتضيه مصالحه (طبعاً حتى في زمن أبي بكر وعمر تفرد الخليفة برسم السياسة العليا ليس من باب التسلط الذي أصبح سائداً فيما بعد، ولكن من باب أن الناس اعتبروا الخليفة الأرجح رأياً، نتيجة لاعتيادهم تمجيد زعيم العشيرة).
* أصبح المسلمون يتحاربون فيما بينهم لكي يصل أحدهم للحكم. ويزعم الإخباريون أنه قد هلك من الصحابة وغيرهم من المسلمين ما بين ٧٠،٠٠٠ ـ ١٢٠،٠٠٠ مسلم في موقعة صفين لوحدها، والتي كانت بين جيوش علي ومعاوية. وما بين ٧،٠٠٠ إلى قرابة ١٥،٠٠٠ من بينهم عدد كبير من خيرة الصحابة في موقعة الجمل، والتي كانت بين جيش طلحة والزبير وقيادة أم المؤمنين عائشة ضد جيش علي بن أبي طالب. وأباد جيش علي في موقعة النهروان قرابة ٤،٠٠٠ من حفظة القرآن الذين كانت مهمتهم زمن عمر تفقيه المجاهدين في دينهم، ومن تبعهم. ونحن نعلم أن تلك الأرقام مبالغ فيها، ولكن العبرة بالفعل واستسهال قتل المسلمين، وليس العدد. ولو كان القتلى عشرة أشخاص. بل إنه لو لم يقتل في تلك الحروب كلها سوى طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام لكان قتلهما في صفين من قبل جند جيش

علي بن أبي طالب مصيبة عظمى ونقطة سوداء في تاريخ المسلمين سهلت لمن جاء بعدها من الحكام أن يستحلوا سفك دماء المعارضين. وطلحة والزبير كانا من السابقين الأولين للإسلام ومن المهاجرين، وقد شهدا الملاحم الكبرى مع الرسول وكانا ممن أبلى في غزوة أحد بلاءً حسناً، وممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت حين انهزم المسلمون، مع عصابة منهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف وأبو دجانة، كما يقول ابن هشام في سيرته في حديثه عن غزوة أحد. وقد اتقى طلحة النبل عن الرسول بيده حتى شلت أصبعه، إضافة إلى ذلك فقد كان الزبير بن العوام، ابن صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله، ومهاجر الهجرتين[١].

* كان هناك بيت مال للمسلمين لا يستطيع الخليفة المساس به أو الحصول منه على أكثر من حقه، المساوي لمن هم مثله من المسلمين، فأصبح بيت المال هو مال الحاكم، إن شاء تفضل ببعضه على غيره وإن شاء امتنع.

* أصبحت بيعة السمع والطاعة للحاكم ضرورية لمعرفة من مع الحاكم فيتجند لخدمته، ومن ضده فيجند من يحاربه.

* كان الخليفة يعمل على ضمان حقوق الناس جميعاً بشكل متساو، فأصبح الحاكم يصادر حتى حق التعبير ممن يعارض سياسته.

* كان الخليفة يحاول الحكم بين الناس بالحق وبعيداً عن الميول الشخصية ما استطاع، فأصبحت هذه الميول هي المسير للحكم.

* لم يعد الوصول إلى المنصب عن طريق ترشيح الغير، بل أصبح يتم عبر مقارعة الخصوم والمنافسين والدخول معهم بحروب شرسة لا تبقي ولا تذر. وكان الخليفة يتعامل مع الناس بحسن النية، فأصبح الحاكم يعاقب على الظن.

* كان الخليفة لا يتميز عن غيره إن لم يقل عنهم من حيث الملبس والمأكل والمسكن، لكن عثمان كان أول من تميز في البناء عن كافة أهل المدينة، ثم

---

(١) استقينا هذه المعلومات عن طلحة والزبير من ترجمتهما في الإصابة لتمييز الصحابة.

ابتنى معاوية قصر الخضراء في دمشق، مما جرأ المنصور على بناء قصوره في بغداد.

* كان من المفترض أن الشورى مسؤولية يشترك فيها جميع أفراد الدولة الراشدين العاقلين من الجنسين بلا استثناء، لإقرار السياسة العامة للدولة أو مشروع أو نظام معين لكل شأن لم يأت به نص في القرآن الكريم، فأصبح رأي الحاكم هو ما يجب أن يوافق عليه من حوله ليتحول إلى سياسة للدولة.

* جاء الإسلام ليجيش الجيوش لقتال من يريد القضاء على دولة الإسلام أو يناصبها العداء أو يوالي من يعاديها أو يسعى لوقف نشاط الدعوة وانتشارها، فتحول إلى تجييش الجيوش للاستيلاء على بلاد الغير بالقوة وسلبهم حرياتهم وأراضيهم وأملاكهم وسبي نسائهم، ثم تحولت تلك الجيوش لقتال بعضها البعض من أجل التنافس على السلطة.

* بدأ علم الحديث عن الرسول ينتشر، وكانت بداياته لكسب ود السلطان، والدفاع عن وجهة نظره، فسمع حديث ما أفلح قوم ولو عليهم امرأة الذي رواه أبو بكرة أحد جند جيش علي بن أبي طالب المعادي لجيش طلحة والزبير الذي تقوده عائشة أم المؤمنين، وكان يهدف لإسباغ الشرعية لجيش علي ضد جيش أم المؤمنين، مع أن أبا بكرة كان من رقيق هوازن ولم ينطق بالشهادة إلا يوم حنين، ولم يكن له صحبة تذكر مع الرسول لكي يسر له بذلك الحديث الذي لم يروه أحد غيره[١].

* عرف المسلمون الحبس والسجن أول ما عرفوه في عصر علي بن أبي طالب، كما يقول العسكري في الأوائل، ليكون نواة للمعتقلات السياسية التي عرفها المسلمون فيما بعد ومورست ضدهم فيها أنواع من التعذيب لم يمارسها جلادو محاكم التفتيش، وقد أسس عبد الملك بن مروان أول مستشفى للأمراض العقلية لمعالجة سجناء الرأي الذين فقدوا عقولهم في السجن.

---

(١) واسمه نفيع بن مسروح من عبيد الطائف الذين أطلقهم رسول الله وانظر سيرة ابن هشام وحديثه عن غزوة حنين.

وهكذا تسارعت الأحداث وتتابعت التغيرات وتولدت ثقافات وأعراف جديدة حلت محل الثقافات التي أوجدها الإسلام، مع أنه لم يمض على وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام سوى ثلاثة عقود من الزمن أو أقل. وهذا إجمال لما طرأ على المفهوم الديني من تغير خلال عصر الخلفاء الراشدين.

ملخص ما طرأ على المفهوم الديني من تحوير في عصر الخلفاء الراشدين

لقد قتل عمر بن الخطاب لأن ملوك الفرس ودهاقينها إما قتلوا أو أصبحوا عبيداً للعرب، فتآمر من استعبد منهم في المدينة مع بعض أهل المدينة ممن في نفسه شيء من عمر، إما لعزله من منصب كان يدر عليه الأموال، أو لمنعه من الخروج من المدينة والالتحاق بجيوش الفتح التي أصبحت مصدر ثراء فاحش لمن يشترك فيها أو يتاجر بما تجود به من رقيق وجوارٍ وأراضٍ وغنائم، ولأن عمر أراد أن يؤطر الناس على الحق أطراً، ويجبرهم على التعفف عن مباهج الدنيا وزخرفها التي كانت غاية العيش للغالبية الساحقة ممن ضمتهم دولة الإسلام في ذلك الوقت.

وقتل عثمان لأنه مد يده لبيت المال العام، ولم يعامل الناس كما أمره الله بأن يعاملوا سواسية بلا تمييز، بل وضرب وعاقب كل من عارضه أو انتقده، فتحول مفهوم الخلافة إلى ملك ألبسه إياه الله. ثم جاء علي بن أبي طالب، فخسر الملك بالطريقة التي ابتدعها هو للحصول عليه، وهي قتال الناس، فقتله الناس.

وقد صاحب تبدل المفاهيم حول معنى الخلافة فناء غالبية كبار الصحابة وتقاتهم، ودخول أعداد هائلة من الناس للإسلام من دون تعمق فيه، بحيث أصبح السابقون للإسلام قلة قليلة بين أناس لا يعرفون من الإسلام إلا ما يتحصلون به على الغنائم. فكما أن الخلافة لم تعد كما كانت، فإن الدين لم يعد كما كان أيضاً. فكان عصر الردة و«الفتوح» ومن بعده الفتنة، عصر وبال على الإسلام. فاستحل القتل والتعذيب والتمثيل بالناس أحياءً وأمواتاً، وهضمت الحقوق وأهينت الكرامات. وأصبح علم الحديث الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والتزم بمحاربته أبو بكر وعمر، هو الذي يسير حياة الناس وأهواءهم. واستخدم مطية للوصول إلى الغايات، فركبه السلطان ليثبت حكمه ويسحق معارضيه، واستخدمه البعض ليتقربوا من السلطان ويحظوا منه بالهبات. وتسارع الناس إلى

علم الحديث لكل غرض وغاية، فمنهم من حدث ليرهب غيره من عمل الموبقات علهم يرتدعون، ومنهم من حدث ليرغب في فعل الخيرات لعلهم يهتدون، ومنهم من أراد أن يشرع ما لم يشرع الله ورسوله، ومنهم من أراد أن يهدم ما شرع الله ورسوله. وأصبح علم الحديث يدرس ويعتنى به، ومنه أخذت شرائع وأحكام، وبه تسلط الظلمة والحكام، وبه أهين المسلم وهضمت حقوقه وخفت صوته. فيما كان التحديث بواسطة الصحابة ممنوعاً، وكان الصحابي الذي يتجرأ ويحدث، يجد درة عمر تعلو ظهره. ولكن الزمن تغير، وتغيرت معه الأنفس والنوايا، فما اعتبره أبو بكر وعمر جريمة، أصبح لمن جاء بعدهم عقيدة وشريعة.

وشمل التغيّر كل نواحي الفكر والعقيدة، فتحول القراء الذين كان يرسلهم عمر برفقة جيوش الجهاد لتوعية الناس بأمور دينهم إلى مناصرين لعلي في البداية ثم تخلوا عنه. فطاردهم لأنهم انتقدوه وطالبوه بالعودة إلى جادة الحق، حسب رأيهم، ورفضوا قتال المسلمين معه، فسحقهم، وسماهم الخوارج عن الدين مع أنهم خرجوا عن طاعته لأنهم اعتقدوا أنه هو من تخلى عن بعض أوامر الدين. ومن بقي منهم تحولت مع الأيام أفكارهم وابتعدوا عن الصراط المستقيم. وقسم بقي مع علي لا حباً به ولكن كرهاً بمعاوية الذي عقد العزم على تصفيتهم بحجة قتل عثمان، حتى لا يثيروا القلاقل في مملكته. وقد تحولت معارضتهم السياسية مع الأيام إلى عقيدة غلت بكل ما له علاقة بعلي وأبنائه واختلفت عن دين الله الذي جاء به محمد. فكانت الأحداث التي جرت في عصر الخلفاء الأربعة قد كوّنت بيئة مناسبة لظهور بدايات الفرق والمذاهب التي عرف بها الإسلام ولم يعرف دين غيره مثل كثرتها وتنافرها.

وكما أضاعت الخلافة مفهوم حكومة دولة الإسلام، فقد أضاع المُلك مفهوم الخلافة، وضاع الدين كعقيدة. فكانت «الفتوح» الأولى حقبة تاريخية وصل فيها الشعور بالتقوى إلى الحضيض، ولم يعد الدين يحرك مشاعر الناس أو ينهاهم عن تصرف أو قول. وفي تلك الأجواء نمت بوادر علم الحديث والفقه والتفسير. ولم يتم ذلك على أيدي من بقي من الصحابة الأوائل بل تم على أيدي من دخل الإسلام من الأمم التي أخضعت بلدانها لحكم المسلمين، والذين لم يعرفوا عن الإسلام إلا أنه عبارة عن عبادات (خاصة الصلاة والصوم)، لذلك سمحوا لأنفسهم

بأسلمة معتقداتهم السابقة من أديانهم القديمة، سواءً كانت وثنية أو مجوسية أو يهودية أو نصرانية أو يونانية أو غيرها. ثم توالت الأحداث في العصور اللاحقة، وكل حدث كان يتسبب في ولادة بدعة جديدة في الدين.

وقبل الانتقال إلى عصر بني أمية لا بد من التوقف عند حدثين هامين، أحدهما يتمثل في تأخر نسخ عدد من المصاحف إلى عهد عثمان بن عفان، والآخر ظهور بوادر الفقه في عهد عمر بن الخطاب، ومن ثم الحديث والتفسير فيما بعد، لأن هذين الحدثين كان لهما أثر عميق جداً في تحول المسلمين عن الإسلام.

كتابة القرآن وجمعه

قُل لَّئِنِ اجتمعتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (بني إسرائيل: ٨٨-٨٩).

تروي كتب الأخبار، من حديث وتفسير وتاريخ وسير، أن القرآن قد كتب كله زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان متوفراً من مواد تصلح للكتابة، ضمت كل ما نزل من القرآن. كما أن الرسول قد قام بنفسه بترتيب الآيات لكل سورة، وإن لم ترقم آيات السور وتضاف لها المدات وعلامات الوقف إلا في عصور لاحقة.

ولعل من المهم مناقشة ما أوردته كتب الأخبار عن وضع القرآن في عصر رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووضعه في عصر أبي بكر، ووضعه في عصر عمر، ثم الحديث عن نسخ عثمان للمصاحف، وما ترتب على غياب القرآن الكريم عن «الفتوح» الأولى من آثار سلبية على علاقة الناس بالإسلام.

المصحف في عهد رسول الله

من المعروف أن المجتمع العربي الذي بعث فيه الرسول مجتمع أمي، لم يكن يقدر قيمة التوثيق الكتابي ولا يتصور أهميته. لذا كان عدد من يعرف القراءة والكتابة من العرب عموماً قليلاً جداً. وقد درج الناس على تناقل الأخبار والأحداث عن طريق المشافهة، وعرفت كل أخبار الجاهلية عن طريق التناقل الشفهي. وحتى المعاهدات لم تكن تكتب بل يتفق على بنودها مشافهة، ومن الأمثلة على ذلك حلف الفضول الذي دعت إليه بعض بطون قريش، والذي ينص

على «أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته» (كما جاء في سيرة ابن هشام).

ولما جاء الإسلام كان لا بد من اعتبار شهادة الشهود وسيلة للتوثيق، في ذلك المجتمع الأمي، سواءً لإحقاق الحقوق المالية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أو ضَعِيفاً أو لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فإن لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأخرى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أو كَبِيراً إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٨٢).

أو لحفظ الحقوق بوجه عام: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فإن آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (النساء: ٦).

أو لتسجيل الزواج والطلاق والأحوال الاجتماعية: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أو فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (الطلاق: ٢).

أو لإثبات المخالفات الجنائية: ارْجِعُوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (يوسف: ٨١).

أو إثبات ارتكاب المعاصي والمخالفات: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (النساء: ١٥).

ولكل الحوادث والأحوال الأخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أنفسكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإن اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء: ١٣٥).

وهذا يعني أن على الشهود في كل الحالات والحوادث الحضور والإدلاء بشهاداتهم وقت المحاكمة وإلا ضاع الحق وصعب إثبات الحوادث، في حال وفاة الشهود أو سفرهم أو اختفائهم.

بينما لو كان هناك توثيق كتابي مأمون، فسيكتفى بتسجيل المعنيين بالحدث دون الحاجة إلى شهود في حالات معينة مثل الطلاق والنكاح وما شابه من الأحداث التي لا تستدعي إنكار الطرف المعني للحدث، ويكون دور الشهود فيها فقط لإثبات حدوث الحدث في تاريخ معين.

وسيكتفى، في حالات كثيرة، بتسجيل شهادة الشهود مرة واحدة ولا حاجة إلى حضورهم شخصياً إلى المحكمة عند النظر في القضية، وإن بقيت حالات قليلة تستوجب حضور الشهود إلى المحكمة بالإضافة إلى التوثيق الكتابي.

كما صور القرآن تسجيل الأعمال وعرضها يوم القيامة للحساب بصورة مشابهة لما يعتبره العرب الطريقة المثلى لإثبات أو نفي الأحداث، وهي شهادة الشهود، لكي يتمكنوا من فهمها: حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (فصلت: ٢٠-٢٢).

وإلا فالأعمال تسجل وتعرض يوم القيامة بآلية مختلفة لا نحيط بها علماً.

ولأن شهادة الشهود هي الوسيلة الأنجح زمن الرسول في ذلك المجتمع العربي الأمي، فقد جاء التشديد والتأكيد على تحريم وتجريم شهادة الزور، لأن شهادة الشهود تعتمد على شهادة لفظية. ولو قال الشهود غير الحق أو حوروه فإنه سيضيع على صاحبه، أو قد يشهد على بريء بجرم لم يفعله ويدان: وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (الفرقان: ٧٢).

ولو كان ذلك المجتمع يعرف القراءة والكتابة لما اعتمد على الشهادة اللفظية، بل على التوثيق الكتابي وأخذ صورة منه من قبل الأطراف المعنية والأطراف ذات الشأن وحفظت النسخة الأصلية لدى مرجع رسمي للعودة إليها وقت الحاجة، هذا قبل التوثيق الحاسوبي الحالي وقاعدة البيانات والتي يفترض أن توثق فيها كل المعاملات والحقوق وشهادة الشهود، وبالتالي لا حاجة ليس فقط إلى الشهود، بل ولا إلى الورق.

وكان يمكن التحول بكل سلاسة وبشكل اعتيادي من شهادة الشهود إلى التسجيل الكتابي عندما تطورت الأوضاع وتعلم الناس وبدأ العرب يعرفون الكتابة والقراءة، ولكن الفقهاء ورجال الدين المسلمين فهموا أن شهادة الشهود مطلب شرعي لا يجوز أن تستبدل بالتوثيق الكتابي، واعتبروا شهادة الشهود جزءاً من الشرع لها حكمتها، وليست مجرد وسيلة لإثبات الحق متى ما وجد وسيلة أكثر فاعلية منها فيلزم الأخذ بها وترك تلك الوسيلة القديمة.

وما سبق يظهر بوضوح مدى اعتماد المجتمع المسلم الأول كلياً على التوثيق الشفهي والحفظ، ومع ذلك، وعلى الرغم من صغر المجتمع وقلة عدد المسلمين، إلا أن الرسول حرص، ومنذ اليوم الأول لنزول الوحي، أن يسجل ما يوحى إليه مباشرة بعد تلقيه، تسجيلاً كتابياً، ويتأكد بأنه كتب بالطريقة نفسها التي أملي بها. ولم يعتمد ولو جزئياً على الحفظ، مخالفاً بذلك العرف التوثيقي السائد، ومبتدعاً نوعاً من التوثيق لم يألفه العرب ولم يعرفوه.

وكتابة القرآن تعني أن المصدر الوحيد للوحي المتاح للناس زمن الرسول كان تلك النسخة المكتوبة من القرآن بأمر الرسول، وليس القرآن الذي في صدور الرجال، الذي يكون عرضة للضياع والنسيان والاختلاف والتحور والتغيير.

وحِرصُ الرسول على إملاء الوحي لم يكن اجتهاداً من عند نفسه صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه امتداد لمسؤولية تبليغ الرسالة. ولو بقيت آية واحدة لم يتأكد الرسول من توثيقها وحفظها ووصولها إلى الناس لكان الرسول متهماً بعدم تبليغ الرسالة كاملة، ولانطبق عليه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧).

ولذلك لم يكن الرسول يستطيع أن يترك القرآن من دون كتابة، ولم يعتمد في بقاءه على حفظ الناس، الذي يعرّض ولو قليلاً من الآيات للضياع والاختلاف في عباراتها بين حافظ وآخر، ولو اعتمد في حفظ كتاب الله على صدور الرجال لحدث للقرآن ما حدث لكتب الأديان السابقة، من ضياع لبعض الآيات ونقل مشوه لآيات أخرى، وبالتالي فلن يكون الإسلام آخر دين للبشرية، وسيحتاج الناس إلى رسول آخر يوثق لهم رسالة ربهم في كتاب مكتوب يحفظ بينهم حتى فناء آخر رجل منهم.

وبما أن الإسلام هو النسخة الأخيرة المعدلة والمنقحة والمزيدة لدين الله، والرسول هو خاتم النبيين، فقد كان من واجب الرسول، كجزء من تبليغ رسالة ربه، أن يتأكد من كتابة القرآن وتوثيقه كاملاً قبل أن يحين أجله. ولو أنقص آية واحدة من القرآن لم يكتبها أو كتبها وضاعت، فسيكون كأنه لم يبلغ شيئاً من القرآن.

وتروي كتب الحديث أن الرسول كان يراجع القرآن مع جبريل كل عام مرة وأنه راجعه معه مرتين في السنة التي توفي فيها، وهذه إحدى رواياته: حدّثنا خالدُ بنُ يزيدَ حدَّثنا أبو بكر عن أبي حَصِين عن أبي صالح عن أبي هُريرةَ قال: «كان يَعرِضُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم القرآنُ كلَّ عام مرَّةً، فعرض عليه مرَّتَين في العام الذي قُبِضَ فيه، وكان يعتكِفُ في كلِّ عامٍ عشراً، فاعتكَف عِشرين في العام الذي قُبض فيه (البخاري: ٤٨٧٨).

وبما أن جبريل أو غيره من الملائكة لم يكن يحضر إلى الرسول ويحادثه وجهاً لوجه، بشهادة القرآن الكريم التي أثبتت رؤية الرسول للملاك مرتين فقط في حياته، وكانتا في بداية البعثة، وذلك لتؤكد للرسول أن ما يلقى في ذاكرته من وحي إنما هو من الله. وبما أن الوحي وبشهادة القرآن أيضاً كان يتم بطريقة لا يعلمها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وأن نصوص القرآن كانت تنسخ في ذاكرته، دون مقابلة الملاك وجهاً لوجه، فإن الحديث السابق ربما كان في الأصل يتحدث عن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، كان يراجع القرآن المكتوب، مع كتبة الوحي كل عام مرة، وأنه راجعه معهم مرتين في السنة التي توفي فيها، ولكن النص تحور مع الأيام ليصبح وكأن الرسول كان يراجع القرآن مع جبريل.

ومراجعة الرسول القرآن مع جبريل ليس لها أي فائدة مرجوة، لأن القرآن كان ينسخ في ذاكرة الرسول بطريقة لا يمكن معها أن ينسى، بشهادة القرآن التي أكدت للرسول في بداية الوحي ألا يردد ما يجده قد نسخ في ذاكرته من آيات ولا يقلق فلن ينساها: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (أي حفظه جميعه في ذاكرتك). فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (فإذا اكتمل نسخ الآيات المنزلة في ذاكرتك فاقرأها على الناس كما نزلت)(القيامة:١٦-١٨).

ولأن مراجعة القرآن مع كتبة الوحي هي المهمة للتأكد من أن كل الآيات المكتوبة سابقاً لازالت محفوظة وبطريقة مقروءة، ولم تطمس أو تبهت مع مرور الوقت.

ويكون القرآن وإن كتب على الرقاع وجلود الحيوانات وغيرها من أدوات لا يتوفر أفضل منها للكتابة في ذلك المجتمع، فقد حفظ بمعرفة الرسول، ولن يكون هناك مكان أكثر أمناً من حفظه عنده صلوات الله وسلامه عليه، ولما مات كان ذلك المصحف (الإمام) كما كان يطلق عليه، عند رسول الله.

وقد كان المجتمع المسلم صغيراً ومحدوداً، معظم عصر الرسول، وهذا ما جعل الرسول يكتفي بنسخة واحدة من القرآن، ولم يأمر بنسخ غيرها.

وبعد فتح مكة والطائف واستسلام قبائل جزيرة العرب لحكم دولة الإسلام، لم يستنسخ الرسول نسخاً من المصحف الإمام لأن الوحي استمر في النزول، ولم يكن بإمكان الرسول معرفة متى سيكتمل نزول الوحي، حتى يتمكن من استنساخ نسخ إضافية كاملة من القرآن. لذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر حياته لما دخلت قبائل جزيرة العرب تحت لواء دولة الإسلام، كان يرسل من يثق بحفظهم للقرآن، أو بعضه، إلى تلك المناطق لتعليم الناس دينهم بواسطة القرآن. وممن أرسلهم عليه الصلاة والسلام للأمصار معاذ بن جبل إلى اليمن والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين. وكان عمال رسول الله يكلفون أيضاً بجمع الزكاة، بمعناها القرآني، وصرفها على احتياجات البلاد والعباد، كما أمر الله.

وعندما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام ترك خلفه كتاباً كاملاً بكل ما نزل به عليه الوحي على شكل قرآن. وكان مجموعاً في مصحف واحد، سمي بالمصحف الإمام، حتى ولو كانت صفحاته عبارة عن قطع من الجلد أو الرقاع أو

العظام أو غيرها مما توفره تلك البيئة من مواد تصلح للكتابة عليها. ويكون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد أدى الأمانة التي كلفه الله بها كمرسل يبلغ الناس كتاب ربهم كما نزل.

المصحف في عهد أبو بكر

يقول الإخباريون بأن الرسول عندما توفاه الله ترك القرآن مكتوباً، ولكن بطريقة مفرقة، وغير مجموعة في مصحف واحد أو مكان واحد. فكان هناك آيات في مكان كتبت على رقعة، وآيات أخرى في مكان آخر كتبت على عظام، وآيات أخرى في مكان آخر كتبت على سعف النخيل، وهكذا. فهل يعقل أن تبلغ اللامبالاة بحفظ القرآن عند الرسول هذا المبلغ الذي صوره عليه المؤرخون؟

ويكون ما حدث هو أن أبا بكر لما تولى زعامة دولة المسلمين بعد وفاة الرسول وجد القرآن محفوظاً في مصحف واحد ومكان واحد، ولا يستبعد أن يكون بيت رسول الله، وعند أم المؤمنين حفصة بنت عمر تحديداً، لأنه حفظ عندها بعد وفاة عمر مرة أخرى. ومن الممكن التكهن أن أبا بكر قد انشغل بحرب المرتدين، بحيث لم يطلب الحصول على ذلك المصحف الإمام، لبعض الوقت، وقد فطن لذلك بعد أن استحر القتل في صفوف الصحابة، خاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة. وقد ارتأى أن يراجع ذلك المصحف الإمام ويتأكد من أنه كامل لم يسقط منه أو يضيع شيء، وأن آياته كلها لازالت مقروءة.

فكلف بهذه المهمة، زيد بن ثابت ورجالاً معه، كما تقول كتب الأخبار، لمراجعة المصحف الإمام، فإن وجدت آية شحبت حروفها مع الوقت بحيث يصعب قراءتها أعيدت كتابتها في مكانها.

وهذا لا يعني أن المصحف الإمام قد وجد فيه نقص في بعض آياته أو حروفه، كما تزعم كتب الحديث والتاريخ، ومن ذلك ما أورده البخاري في الحديث رقم (٤٥٦١)، والذي جاء فيه على لسان زيد بن ثابت، ما نصه: فقمتُ فتتبَّعتُ القرآنَ أجمعُهُ منَ الرِّقاع والأكتاف والعُسُب وصُدورِ الرجال، حتى وَجدتُ من سورةِ التوبةِ آيَتين مَعَ خُزَيمةَ الأنصاريِّ لم أجدْهما مَعَ أحدٍ غيره ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حَريصٌ عليكم﴾ إلى آخِرهما. انتهى.

لأننا لو سلمنا بما نقله البخاري وغيره من الإخباريين، فهذا يعني أننا نرمي الرسول بتهمة الإهمال، وهذا يستحيل عليه كما بينا في سطور سابقة. ومن الأجدر نبذ ما قاله البخاري والإخباريون، والأخذ بما قاله القرآن عن أمانة محمد في تبليغ الوحي.

ونتيجة لتلك المراجعة فقد تأكد أبو بكر بشكل قاطع، وفي السنة التي توفي فيها رسول الله، أن المصحف الإمام كامل كما نزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه. ويبدو أن تسارع الأحداث لم تمكن أبا بكر من توفير العدد الكافي من حفظة القرآن لإرسالهم إلى كل إقليم يتم استرجاعه لدولة المسلمين أو فتحه، وبالتالي فقد توسعت دولة المسلمين، دون أن يصحب ذلك تفقيه للمسلمين الجدد بدينهم بواسطة القرآن.

المصحف في عهد عمر بن الخطاب

وكما عهد أبو بكر لعمر بن الخطاب بتولي زعامة دولة المسلمين، فقد عهد له بحفظ المصحف الإمام. وخلال خلافة عمر توسعت الدولة الإسلامية لتشمل كل البلاد الواقعة ما بين الصين غرباً وحتى حدود تونس الشرقية حالياً، ومن البحر العربي جنوباً وحتى مضيق البوسفور والبحر الأسود شمالاً. وصاحب ذلك دخول معظم أهلها في الإسلام.

وقد فطن عمر لما أصاب الإسلام من ضرر بالغ نتيجة للتوسع في «الفتوح» دون أن يصاحبه توسع مناسب لتفقيه الناس بدينهم بواسطة القرآن، فقام بتكليف عدد ممن دخلوا الإسلام حديثاً بحفظ القرآن، وألحقهم بجيوش الفتح في العراق وفارس، علهم يتمكنون من رأب الصدع. ولكن هذا لم يحدث، لقلة عددهم ولأنهم وإن كانوا حفظة للقرآن إلا أنهم من حديثي العهد بالدين الإسلامي، ولأن تلك المحاولة كانت قد تأخرت كثيراً، حيث انشغل الناس بالدنيا والغنائم عن الالتفات للدين وتدبر القرآن وتدارسه. مما ولد أجيالاً مفرغة من العقيدة، لا تعرف من الإسلام إلا القشور، ولديها المال والجواري والممتلكات والضياع والأراضي الزراعية الشاسعة التي يعمل فيها أهلها السابقون كأجراء أو رقيق.

وأصبح كل من دخل حديثاً في الإسلام من موالي السبي لا يعرف من الدين إلا ما يعرِّفه به سيده، الجندي المسلم، الذي لم يعرف من الإسلام إلا القليل. لذلك

كان المسلم الجديد يبقي على معتقداته السابقة بعد أن يلبسها حلة إسلامية، سواءً كانت تلك المعتقدات نصرانية أو مجوسية أو هندية أو يونانية أو وثنية، فأثرت تراث المسلمين وأصبحت جزءاً من دينهم الإسلامي، ولم تدخل هذه المعتقدات للإسلام بقصد تخريبه أو الإساءة إليه بالضرورة، كما يظن بعض الباحثين المسلمين.

وكان من نتيجة غياب القرآن، أن المسلم الجديد لا يعرف من الإسلام إلا النطق بالشهادتين وتعلم الصلاة لأنها ممارسة يومية، إضافة إلى الصيام. فتنامى الحرص الشديد على العبادات التي أمر بها الإسلام، واعتبرت هي عماد الدين وأساسه، بينما اعتبرت كل التصرفات الشخصية الأخرى لا تضير الإسلام في شيء. فأصبح الدين عبادات فقط، ولم يعد للمعاملات والآداب مكان عند المسلمين، وفصلت إدارة الدولة عن الدين.

ولا نحيط علماً بالأسباب التي منعت عمر من استنساخ المصحف وتوزيعه على الأمصار، مع أن خلافته طالت، وكان حريصاً على الحق. ولم يرد في كتب الأخبار أن عمر قد فكر باستنساخ القرآن، ولكن ورد أن عمر فكر جدياً في كتابة أقوال الرسول حسبما أورد ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله (ج١ ص٦٥) وأنه عدل عن ذلك خوفاً من أن يكب عليه الناس ويتركوا كتاب الله، كما فعلت الأمم السابقة. ثم أمر كل من عنده شيء من الحديث مكتوب أن يمحوه، وكتب بذلك للأمصار. وإن كان من المستبعد أن يكون عمر قد فكر في كتابة أقوال الرسول والأحداث التي وقعت في عصره، والتي نهى الرسول وبشدة عن كتابتها، ولم تكن قد عرفت باسم «الحديث» بعد.

ويكون من المحتمل أن تفكير عمر بكتابة «الحديث» هو في الواقع تفكير باستنساخ نسخ من القرآن، وأن عمر عدل عن ذلك بعد شهر بحجة أن الرسول لم يأمر بذلك، وأن أبا بكر لم يفعله. ويكون «الحديث» الذي أراد عمر كتابته هو القرآن على اعتبار أن القرآن هو ما يطلق عليه الحديث في ذلك العصر، يقول تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الزمر: ٢٣).

كما أن عمر بن الخطاب عرف عنه التشدد في رواية أقوال الرسول. وقد روى ابن عساكر عن محمد بن إسحاق قال: أخبرني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، عبدالله بن حذيفة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت، فنحن أعلم، نأخذ منكم ونرد عليكم. فما فارقوا المدينة حتى مات، وسمح لهم عثمان بالتوجه إلى الأمصار.

وهذا بعض ما أورده الذهبي في ترجمته لأبي هريرة في كتابه سير أعلام النبلاء: قال سعيد بن عبد العزيز، عن إسماعيل بن عبيدالله، عن السائب بنِ يزيد: سمع عُمَرَ يقول لأبي هريرة: لَتَتْرِكَنَّ الحديثَ عن رسول الله، أو لألْحِقَنَّكَ بأرض دَوس وقال لكعب: لَتَتْركنَّ الحديثَ، أو لألْحِقَنَّكَ بِأَرْضِ القِرَدة.

وحدث يحيى بن أيوب، عن ابن عَجْلان: أن أبا هريرة كان يقول: إني لأُحَدِّثُ أحاديث، لو تكلمتُ بها في زمن عمر، لشجَّ رأسي. انتهى.

فكيف يحارب عمر التحديث بهذه الصورة الحازمة، ثم يفكر بكتابة الأحاديث وجمعها في كتاب سيصبح منافساً لكتاب الله؟

المصحف في عهد عثمان

لم يعهد عمر لشخص بعينه أن يكون زعيماً لدولة الإسلام، ولكنه رشح ستة لاختيار من يرون منهم أو من غيرهم للزعامة، وقد آل الآمر في نهاية المطاف إلى عثمان بن عفان، وذلك بعد أيام من وفاة عمر بن الخطاب. وقد كان المصحف الإمام محفوظاً عند عمر، فلما طعن عهد به إلى ابنته أم المؤمنين حفصة لتحتفظ به[١]، أو لتسلمه لمن يستقر أمر زعامة دولة المسلمين عليه. وقد تأخر عثمان قرابة العشر سنوات بعد توليه الحكم، قبل أن يطلب المصحف الإمام من أم المؤمنين حفصة.

(١) ولعل أم المؤمنين حفصة قد احتفظت بالمصحف الإمام بعد موت عمر ليس لأنها ابنته بل لأن المصحف نفسه كان محفوظاً عندها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد يكون محفوظاً في بيتها عندما كان رسول الله على قيد الحياة.

استنساخ المصاحف

ذكرنا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، عندما توسعت دولة الإسلام في آخر أيامه، أرسل عدداً من ثقات الصحابة الذين يحفظون بعض القرآن لعدد من المناطق لتفقيه من دخل من الناس في الإسلام بدينهم الجديد، لأنه لم يكن هناك إمكانية لنسخ المصحف لضيق الوقت، وتعذر الكتبة وشح المواد التي يمكن أن يكتب عليها. ولا نجزم إن كان أبو بكر قد فعل الشيء نفسه، ولعل ذلك راجع لتتابع الأحداث بسرعة أثناء حروب الردة وبدء «الفتوح».

ولما فطن عمر إلى ضرورة مصاحبة القرآن لجيوش الفتح، كان قد تأخر كثيراً، حيث توسعت رقعة البلاد المفتوحة ودخل الملايين من الناس في الإسلام بطريقة سطحية، ولم يكن هناك عدد كاف من المؤمنين الأوائل الحفظة للقرآن لتفقيه تلك الأمم الحديثة العهد بالكفر. ولأن من حفظوا القرآن وأرسلهم عمر للأمصار كانوا ممن دخل الإسلام حديثاً ولم يتطبع بطباعه بعد. إضافة إلى استحالة أن تكفي أعدادهم لتفقيه من أصبحوا يعرفون بالمسلمين من سكان البلاد المفتوحة الكثيري العدد.

والتوسع في «الفتوح» واكبه نزوح غالبية من بقي من الصحابة واستقرارهم في تلك البلاد المفتوحة، ولأن البعض من أولئك يحفظ شيئاً من القرآن، ولأن البلاد المفتوحة يتوفر فيها مواد صالحة للكتابة، فقد قام بعض أولئك الصحابة بكتابة ما كانوا يحفظونه على أنه من القرآن على شكل مصاحف شخصية. ولأنه لا وجود لمصاحف غيرها فقد انتشرت تلك المصاحف الشخصية بين الناس في تلك الأماكن. فعرف مصحف ابن مسعود في العراق ومصحف أبيّ بن كعب في الشام ومصحف أبو موسى ومصاحف أخرى في بلاد غيرها. وأصبح ما يقرأه المسلم في الشام من القرآن لا يتطابق مع ما يقرأه العراقي أو الخراساني أو المصري أو الحجازي أو اليمني.

وممن لاحظ تلك الاختلافات حذيفة بن اليمان أثناء تنقله من مصر إلى آخر، فسافر إلى المدينة وشرح لعثمان خطورة الوضع، وأشار عليه بإلحاح أن يستنسخ عدة نسخ من المصحف الإمام ويوزعها في الأمصار، ثم يقوم بإحراق كل المصاحف الشخصية، كعلاج جذري لاختلاف الناس في كتاب الله.

وقد نقلت كتب الأخبار ما حدث بين حذيفة وعثمان، ومن ذلك ما جاء في حديث البخاري رقم (٤٨٦٧)، وهذا نصه: حدّثنا موسى حدَّثَنا إبراهيم حدَّثنا ابن شِهاب أنَّ أنسَ بن مالكٍ حدَّثهُ «أنَّ حُذيفَةَ بن اليَمان قَدِم على عثمانَ، وكان يُغازي أهلَ الشام في فتح أرمينيَةَ وأَذْرِبيجَانَ مع أهل العِراق، فأَفزَعَ حُذَيفَةَ اختلافهُم في القراءة، فقال حذَيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنين، أدرِكْ هذه الأمَّة قبل أن يختَلِفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنَّصارى. فأرسل عثمانُ إلى حفصةَ أن أرسِلِي إلينَا بالصُّحُف نَنسَخُها في المصاحِف ثم نرُدُّها إليك. فأرسلَت بها حفصةُ إلى عثمانَ، فأَمَرَ زيدَ بن ثابت وعبدَالله بن الزُّبير وسعيدَ بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فَنَسَخوها في المصاحف، وقال عثمان للرَّهطِ القُرَشِيِّين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيءٍ من القرآنِ فاكتبوه بلسانِ قريش فإنما نَزَلَ بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نَسخُوا الصحُفَ في المصاحف ردَّ عثمانُ الصُّحُفَ إلى حفصةَ، وَأَرْسَلَ إلى كل أُفق بمصْحَفٍ ممَّا نسخوا، وأَمَرَ بما سِواهُ من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحَفٍ أن يُحرَق. انتهى.

وقد وزعت تلك النسخ على أمصار دولة المسلمين، في العام (٣٣) للهجرة، ومن تلك النسخ تم استنساخ المصاحف على مر العصور في العالم الإسلامي وحتى اليوم، وإن اختلف نوع الخط بحسب تطور الخط العربي، وأضيف للمصحف ترقيم السور وعلامات الوقف والمد وغيرها لتسهيل قراءته ولكنها ليست من الوحي، ولا ضير من وجود بعض الأخطاء الإملائية التي وقعت أثناء عملية النسخ، والتي بقيت في المصحف حتى اليوم لتحرج المسلمين من تصحيحها.

وتم إحراق كل المصاحف التي كتبها بعض المسلمين باجتهادات شخصية، معتمدين على الذاكرة. ولذلك لا غرابة في أن تحوي تلك المصاحف بعض العبارات والجمل التي ظن كاتبها أنها من القرآن وهي ليست منه.

ويكون حذيفة بن اليمان قد وفّق في مشورته لعثمان بحرق تلك المصاحف الشخصية والإبقاء فقط على ما تم استنساخه من المصحف الإمام الذي كتب بإملاء ومراجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه كان حريصاً على أن يكتب الوحي بكل دقة وأن لا يعتمد في تداول القرآن على ذاكرة الرجال التي قد تضل أو تنسى أو تفقد.

كما نهى وبشدة عن أن يكتب عنه غير ما يمليه من القرآن على كتبة الوحي، ليكون المصدر الوحيد لكتاب الله، ولم يعتبر عليه الصلاة والسلام أن أي نصوص غير تلك المكتوبة بأمره، والتي يحفظها الناس في صدورهم من القرآن مرجعاً لنسخ المصاحف.

ولكن، هناك أحاديث تبدو للوهلة الأولى وكأنها تظهر أن رسول الله قد اعتبر حفظ القرآن مرجعاً يمكن للناس اعتماده، ومن أشهرها، الحديث الذي ذكره البخاري ومسلم وأحمد والترمذي، بالصيغة نفسها والراوي نفسه وهو مسروق، والذي يروي أن ابن عمر عندما ذكر عنده ابن مسعود قال هذا رجل أحبه، ثم يقول بأن الرسول قال: خذوا القرآن من أربعة وذكر أولهم ابن مسعود، وهذا نص الحديث في البخاري: حدّثنا حفصُ بن عُمَر حدَّثنا شعبةُ عن عَمروٍ عن إبراهيم عن مسروقٍ «ذكر عبدُالله بن عمرَ وعَبدالله بن مسعود فقال: لا أزالُ أحِبُّهُ، سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: خُذوا القرآنَ من أَربعة، من عبدِالله بن مسعود وسَالِمٍ ومُعاذٍ وأبيّ بن كعبٍ (الحديث رقم ٤٨٧٩).

وبطبيعة الحال هناك عدة احتمالات حول متن الحديث، أحدها أن مسروق قد يكون هو الذي يحب ابن مسعود وهو من حاك الخبر كله في البداية، ثم جاء من سمع الخبر في أجيال لاحقة، وظن أن مسروق قد رواه عمن رواه عن الرسول.

واحتمال آخر هو أن مسروق سمع ابن عمر يمتدح ابن مسعود، ويقول خذوا القرآن منه، ولم يقل ابن عمر بأن الرسول هو الذي أوصى بأن يؤخذ القرآن من ابن مسعود والثلاثة الآخرين، ولكن مسروقاً أو غير مسروق اعتقد أن ابن عمر سمع الخبر من الرسول، فنسب الحديث إلى الرسول، وإلا فليس من المعقول أن يقول الرسول خذوا القرآن من ابن مسعود وغير ابن مسعود، ولا يقول خذوا القرآن من المصحف الذي كتب بإشراف الرسول.

ولو ثبت أن ابن عمر نصح بأن يؤخذ القرآن من ابن مسعود، فلا بد أن هذا حدث في الفترة الفاصلة بين وفاة رسول الله وقيام عثمان بنسخ المصاحف، عندما لم يكن هناك نسخ من مصحف الرسول متداولة بين الناس، وكان المتداول تلك المصاحف الشخصية، والتي يظن ابن عمر أن أفضلها تلك المصاحف الأربعة،

ومن بينها مصحف ابن مسعود، الذي يبدو أنه كتبه عندما انتقل إلى الكوفة زمن خلافة عمر بن الخطاب.

وقد أمر عثمان، بحرق جميع المصاحف التي كتبت باجتهادات شخصية ولم تستنسخ من المصحف الإمام، ولا يذكر الإخباريون أن كعباً أو غيره ممن لديهم مصاحف شخصية قد عارضوا تسليم مصاحفهم، فيما عدا ابن مسعود. فجاء أمر عثمان له بالتوجه من مقر إقامته إلى المدينة لمقابلته عندما رفض تسليم مصحفه لعامله على الكوفة، وفي المدينة أجبر على تسليم ذلك المصحف وتم إحراقه[١].

وكان إحراق المصاحف الشخصية والإبقاء فقط على ما تم استنساخه من المصحف الإمام موقفاً صائباً، لأنه إن كانت تلك المصاحف الشخصية لم يخطئ فيها من كتبها ولم ينس من آيات القرآن شيء، فلا بد أن تكون مطابقة للمصحف الإمام (الأصلي) الموجود لدى أم المؤمنين حفصة والذي استنسخ منه عدد من النسخ واعتمد كمرجع وحيد للقرآن. وإن كانت المصاحف الشخصية فيها بعض الأخطاء أو أن بعض الآيات ناقصة أو كتبت بطريقة مخالفة أو نحو ذلك، فإن حرق تلك المصاحف كان عين الصواب.

وسنعرض لبعض ما حوته نسخة ابن مسعود للتدليل على أن أي نسخة كتبها بشر باجتهاد شخصي واعتماداً على الذاكرة، لا بد أن يطالها النقص والزيادة وسوء الفهم والاختلاف في العبارات والتقديم والتأخير ونحو ذلك مما يجعلها عرضة لاختلافات أكثر وزيادات ونقص عبر الزمن فيما لو توارثها الناس، وأن النسخة الأصلية التي كتبت زمن رسول الله كانت معصومة من الخطأ والنسيان، لأن الرسول أملاها بنفسه بما يتوافق مع ما يوحى به إليه، وراجعها بشكل دوري ونهائي بعد اكتمال الوحي ورتب آياتها في كل سورة قبل أن يوافيه الأجل، كجزء من مسؤوليته في تبليغ رسالة ربه، كما سبق وذكر.

وهنا يجب أن يتذكر القارئ أن الناس في ذلك الوقت لم يكن لديهم جمعيات ولا جماعات في المساجد لتحفيظ القرآن، كما اليوم، ولم يكن القرآن يحفظ ويتداول يومياً بالتسميع والاستماع. ولذلك فابن مسعود وغيره، مضى عليهم بعض

---

(١) البداية والنهاية/ من مناقب عثمان ج٤ ص٢١٧.

الوقت ما بين وفاة رسول الله وانتقالهم إلى الأمصار المفتوحة، وشروعهم بكتابة مصاحفهم، معتمدين على الذاكرة والظن، ولم يتوفر لهم مصدر موثق لمراجعة كتاباتهم معه.

وللتدليل على ما في تلك المصاحف الشخصية من أخطاء واختلاف نورد بعضاً مما ورد في مصحف ابن مسعود[١]، كما يلي:

ـ كان يتضمن عبارات مختلفة عن العبارات التي نزل بها الوحي، وهذه بعض الأمثلة:

«صفراء لذة للشاربين» بدلاً من قوله تعالى: بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (الصافات: ٤٦)[٢]

«وإن إدريس لمن المرسلين» بدلاً من قوله تعالى: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (الصافات: ١٢٣)[٣]

«سلام على إدريسين» بدلاً من قوله تعالى: سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (الصافات: ١٣٠)[٤].

ومما نقله الطبري في تفسيره للآية (٩٣) من سورة بني إسرائيل، قوله: حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: لم أدر ما الزخرف، حتى سمعنا في قراءة عبدالله بن مسعود: بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ. ونص الآية: أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (بني إسرائيل: ٩٣).

وما تقدم يظهر أن تلك الاختلافات جاءت بسبب أن ابن مسعود قد كتب

---

(١) ما أوردناه عن بعض ما ورد في مصحف ابن مسعود، اعتمدنا فيه على ما ذكر في جامع البيان لتفسير القرآن للطبري، والجامع لأحاكم القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وما ورد في تاريخ الطبري، ومن رغب في المزيد مما ورد في مصحف ابن مسعود والذي يخالف المصحف الإمام فعليه الرجوع إلى هذه الكتب.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

مصحفه من الذاكرة، بعد فترة من زمن رسول الله، وبعد أن انتقل إلى الكوفة في زمن عمر بن الخطاب، فالتبس عليه الأمر حول بعض المفردات، فكتبها على الظن فجاءت بذلك الشكل.

ـ كما أن ابن مسعود كان يرى عدم التحرج من استبدال عبارة أو لفظ قرآني بعبارات أو ألفاظ من عنده، وهذه بعض الأمثلة:

الآية (٤٨) من سورة البقرة تقرأ في كتاب الله بهذه الصورة: وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ. بينما تقرأ في مصحف ابن مسعود وقد استبدلت نفس، بنسمة، هكذا: واتقوا يوماً لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً. . .إلى آخر الآية.

الآية (٣٨) من سورة المائدة تقرأ في كتاب الله بهذه الصورة: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. بينما تقرأ في كتاب ابن مسعود بهذه الصورة: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهما. . . إلى آخر الآية[١].

الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من سورة الرحمن تقرأ في كتاب الله بهذه الصورة: وَلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي لْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ. بينما يقرأها ابن مسعود بهذه الصورة: والسماء رفعها (وخفض) الميزان. وأقيموا الوزن (باللسان) ولا تخسروا الميزان[٢]. واللسان هنا المقصود به لسان الميزان.

ـ وابن مسعود كان لا يتحرج من إضافة بعض عباراته على عبارات القرآن وتضمينها للآيات، وهذه أمثلة على ما نقول:

الآية (٨٩) من سورة المائدة ذكرت أن كفارة الحلف صيام ثلاثة أيام وبهذا الشكل: . . .فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. بينما نجد أنه في مصحف ابن

(١) جامع البيان في تفسير القرآن.
(٢) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير.

مسعود أضيف لثلاثة أيام عبارة (متتابعات) بهذا الشكل: فصيام ثلاثة أيام متتابعات ذلك كفارة أيمانكم... إلى آخر الآية[1].

ـ ويضاف لما تقدم، تفسير ابن مسعود للآيات، والذي لا يكتبه في الحاشية ولا خارج الآيات بل يضمنه في بعض الأحيان للآية نفسها ودون أن يضعها ولو بين قوسين، فيظهر تفسير ابن مسعود متصلاً بالآية وقد يلتبس على البعض فيعتبره منها، ومن ذلك ما يلي:

الآية (٥٠) من سورة آل عمران تقرأ في كتاب الله بهذا الشكل: وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

وقد كتب ابن مسعود الآية بلفظ مخالف للقرآن، فبدل أن يكتب «وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» كتب وجئتكم بآيات من ربكم.

إضافة إلى أنه ضمن الآية تفسيره كما فهمه للآية، فجاءت الآية في كتاب ابن مسعود بهذه الصورة: ...وجئتكم بآيات من ربكم فاتقوا الله من أجل ما جئتكم به وأطيعون فيما دعوتكم إليه.

الآية (٦) من سورة الأحزاب: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ... إلى آخر الآية. وقد أضاف ابن مسعود تفسيره (وهو أب لهم) ما بين «من أنفسهم» و«وأزواجه أمهاتهم»، لتبدوا الآية في مصحف ابن مسعود بهذا الشكل: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم... إلى آخر الآية[2].

ومثلها الآية (٢١٣) من سورة البقرة، حيث أضاف ابن مسعود عبارة (فاختلفوا) كتفسير ضمن الآية، لتبدوا بهذا الشكل: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين... الآية[3]. بينما أصل الآية كالتالي: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ... إلى قوله تعالى: وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.

(٢) تفسير الآية (٧٧) من سورة هود في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

ولم يكن لابن مسعود مصحف مختلف عن مصحف رسول الله فقط، بل كان له فقه مختلف، ومن فقه ابن مسعود، ما يلي:

* أنه كان يعتقد أن من يقرأ سورة الواقعة كل ليلة لن تصيبه فاقة أبداً، ولذلك فلم يترك لبناته شيء، وكل ما فعله هو نصيحته لهن بقراءة الواقعة، وهذا نص الخبر: ثم قدم إلى المدينة (بناءَ على طلب عثمان له بتسليم مصحفه) فمرض بها فجاءه عثمان بن عفان عائداً، فيروى أنه قال له: ما تشتكي؟ قال ذنوبي، قال فما تشتهي؟ قال رحمة ربي، قال ألا آمر لك بطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني، قال ألا آمر لك بعطائك؟ ـ وكان قد تركه سنتين ـ فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: يكون لبناتك من بعدك فقال أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مَنْ قَرَأَ الوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أبداً (البداية والنهاية ج٨ ص٦٩).

وكلام ابن مسعود كان فقط للرد على عثمان بن عفان الذي كان قد أوقف الهبات عنه منذ سنتين، وأمره بتسليم مصحفه، فكان هناك شعور غير ودي تجاهه، وقد جاءت إجاباته لتعكس ذلك الشعور، وقد لا يكون الخبر صحيحاً، وقد لا تكون الحادثة التي يتحدث عنها قد وقعت بالفعل، ولكن ما نسب إلى ابن مسعود أنه نسبه إلى الرسول أصبح تشريعاً واعتقده الناس، وأصبح من لا يؤمن به وكأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، مع أن السماء لا يمكن أن تمطر ذهباً ولا فضة، ولو داومنا على قراءة القرآن في الليل والنهار، بينما لو عمل الإنسان واجتهد وتوفرت لأعماله سبل النجاح فستربح تجارته سواءً كان مسلماً أم غير مسلم. فالدنيا متاحة لجميع البشر، ولا يعني نجاح الدنيا نجاحاً في الآخرة: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (الشورى: ٢٠).

لأن كل متاع الدنيا تافه وغير ذي قيمة، مقارنة بنعيم الآخرة: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ (القصص: ٦٠).

* ورد في الخبرين برقم (٥١ و٥٣) من كتاب الردة و«الفتوح» لسيف بن عمر التميمي الذي يعتبر أحد المراجع الرئيسية للطبري، أنه أثناء كتابة المصحف ونسخه زمن عثمان، اعترض ابن مسعود على طلب سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة عندما طلب منه أن يسلمه مصحفه، فقال له سعيد: يا عبدالله إني والله ما أنا عليك بمسيطر، وإن شئت تابعت أهل دار الهجرة وجماعة المسلمين وإن شئت فارقتهم وأنت أعلم. فلما جاء يوم خطبة ابن مسعود قام وخطب قائلاً: إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ولكن ينتزعه بذهاب العلماء، وأن الله لا يجمع أمة محمد على ضلال، فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه فإن الحق فيما اجتمعوا عليه. انتهى.

وقد أصبح كلام ابن مسعود الوارد في تلك الخطبة فقهاً يسير عليه الناس، وأصلاً لأحاديث منسوبة إلى الرسول، مع أن ابن مسعود قال ما قال من عند نفسه، ومن تلك الأحاديث ما رواه البخاري في كتابه برقم (٧١٤٣)، ونصه: حدَّثنا سعيدُ بن تَلِيد حدَّثني ابن وَهبٍ حدثني عبدُ الرحمن بن شريح وغيرُهُ عن أبي الأسودِ عن عروةَ قال: حَج علينا عبدُاللهِ بن عمرو فسمعته يقول: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ اللهَ لا يَنزعُ العلمَ بعدَ أن أعطاكموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناسٌ جُهالٌ يستفتون فَيفتون برأيهم فَيُضِلُّون ويَضِلُّون. فحدثْتُ به عائشةَ زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. ثم إنَّ عبدَاللهَ بن عمرو حجَّ بعد فقالت: يا ابن أُختي انطلق إلى عبداللهَ فاستثبِتْ لي منه الذي حدَّثني عنه، فجئته فسألته، فحدَّثني به كنحو ما حدَّثني، فأتيتُ عائشة فأخبرتها، فعجِبَت فقالت: واللهِ لقد حفظَ عبدُالله بن عمرو. انتهى.

ومثله ما أورده الترمذي برقم (٢١٩١)، وهذا نصه: حدَّثنا أبو بَكْرِ بنُ نَافِعٍ البَصْرِيُّ، حدثني المُعْتَمِرُ بنُ سُلَيْمانَ، حدثنا سُلَيْمانُ المدنيُّ عن عبدِالله بنِ دِينَارٍ، عن ابن عُمَرَ، أَنَّ رسولَ الله قال: إنَّ الله لا يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أو قَالَ أُمَّةَ مُحمَّدٍ ـ عَلَى

ضَلالَةٍ، وَيَدُ الله عَلَى الْجَماعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلى النَّار. قال أبو عِيسَى (أي الترمذي): هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الْوَجْهِ.

وهكذا ضُخِّم قول ابن مسعود وأضيف للرسول، وأضيفت إليه عبارات وحيكت حوله حكايات، على الرغم من أن ابن مسعود في خطبته في المسجد كان يريد أن يبرر لنفسه أولاً وللناس ثانياً أنه لم يسلم مصحفه خوفاً من عثمان ولكنه سلمه لأن أمة المسلمين قد أجمعوا أمرهم على الاجتماع على مصحف واحد، فلزم أن يجتمع هو معهم.

وقبل ذلك برر ابن مسعود أيضاً تسليم المصحف على أنه دليل على ما سيجري من أحداث لاحقة، حيث أن العلم سوف يدرس، كما يظن ابن مسعود، بموت العلماء وليس بإتلاف الكتب، «فالله لا ينزع العلم انتزاعاً ولكن ينتزعه بذهاب العلماء». وهذا رأي شخصي ليس له ما يسنده في الواقع.

* ومن فقه ابن مسعود أنه يرى أن الترتيب في الوضوء ليس بواجب، ولا بأس بأن تبدأ برجليك قبل يديك، وذلك في ما أورده القرطبي في تفسيره للآية السادسة من سورة المائدة، وهي آية الوضوء، وهذا نصه: وعن عبدالله بن مسعود قال: لا بأس أن تبدأ برجليك قبل يديك؛ قال الدّارقطني: هذا مُرسَل ولا يثبت، والأولى وجوب الترتيب. والله أعلم.

* ومما نقله القرطبي في تفسيره لآية المواريث في سورة النساء قوله: وأما عبدالله بن مسعود وابنُ عباس فكانا يورّثان الجدّات الأربع. انتهى.

و إذا كان هذا بعض ما تضمنه مصحف ابن مسعود، وبعض ما استخلصه الناس منه من فقه وتشريع، وهو الذي يظن به الورع والتقوى، فلنا أن نتصور ما تحويه كتابات غيره ممن سمحوا لأنفسهم بكتابة بعض الآيات القرآنية مما حفظوه مشافهة وليس نقلاً من المصحف الإمام الذي أمر بكتابته رسول الله، ومن هؤلاء كعب وسفيان وأبو موسى الأشعري وابن عباس وغيرهم كثر.

ونحن قد اعتمدنا في نقلنا على ما جاء في كتب الأخبار، ولم نطلع على ما جاء في مصحف ابن مسعود مباشرة، وهذا قد يعني أن بعض أو كل ما نسب إلى ابن مسعود من آيات أو تفسير غير صحيح، وإن كان ابن مسعود قال بذلك فقد رد قوله، وإن كان لم يقل ما نسب إليه فقد رددنا قول من تقوَّل على ابن مسعود، وفي

كلا الحالين تنزيه لكتاب الله عما ليس فيه، واستدلال على أن دين الله وشرعه لا يمكن أن يركن في نقله إلى حفظ البشر وفهمهم ولكن يجب أن يدون بإشراف شخصي من الرسول نفسه حتى تكتمل أمانته في تبليغ الدعوة.

أما ما نقلناه عن بعض فقه ابن مسعود، سواءً ثبت عنه أم لم يثبت، فقد تأذى منه الإسلام، لأنه أصبح فقهاً يتبعه المسلمون على أنه تشريع إلهي، مع أنه لم يكن سوى رأي شخصي من بشر عادي، والإسلام لا يعتمد في تشريعاته على أراء وفتاوى بشرية، ولو كان أولئك البشر قد عاشوا زمن رسول الله وسمعوه يتحدث، لأن دين الله يجب أن يكون مصدره التوثيق الكتابي المؤكد، وهو ما يتمثل في القرآن وحده، أما التوثيق الذي اعتاده العرب لأنهم لا يعرفون غيره، وهو التناقل الشفهي، فقد يصلح لرواية القصص والشعر والحكايات، ولكنه لا يصلح لنقل شرع الله.

ويكون القرآن قد كتب كله وجمع في مكان واحد طوال فترة بعثة رسول الله، وليس كما تورد بعض الكتب الإخبارية بأن الرسول كان يأمر بكتابة ما ينزل عليه من آيات حال نزولها، ولكنه لم يجمعها في مصحف ومكان واحد. فكان مفرقاً، بعضه على أكتف وبعضه على السعف، وبعضه على ألواح، وبعضه على جلود الحيوانات وعظامها، ومواد أخرى، عندما توفي صلوات الله وسلامه عليه.

ولذلك اضطر أبوبكر أن يجمع ما استطاع منها، وأن يكمل باقي القرآن مما يحفظ الناس. ولو كان هذا ما حدث فإن الرسول قد قصر في تبليغ الرسالة، لأن جمع القرآن في مصحف واحد ومكان آمن واحد والتأكد من أن كل آية في موضعها المناسب من السورة، كل هذا يدخل ضمن مسؤولية الرسول التبليغية.

وسيكون الرسول ملزماً بحفظ المواد التي كتبت عليها الآيات في مكان واحد يسهل الرجوع إليه في أي وقت، وهذا المكان لن يكون أفضل وآمن من بيت رسول الله. ويكون الاحتمال الأغلب أن المصحف الإمام، أي النسخة الأصلية من القرآن، كانت محفوظة عند رسول الله، في بيت حفصة، حتى بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه. وأن أبا بكر لما استحر القتل بالصحابة زمن حروب الردة، خاف أن يقتل زيد بن ثابت وغيره ممن يعرف القراءة، ولا يتمكن المسلمون من التأكد من اكتمال المصحف الإمام من جهة، وقراءته من جهة أخرى.

ويكون الخبر الذي يتحدث عن أن أبا بكر قد أمر زيد بن ثابت بجمع القرآن هو في الواقع أمر لزيد بالتأكد من عدم ضياع أي حرف من القرآن، فعلياً أو أنه درس مع الوقت واختفت معالمه. ولكن الرواة أضافوا وزادوا حتى تحول إلى ذلك الحديث الطويل الذي يتحدث عن جمع القرآن، في وقت يفترض فيه أن يكون القرآن قد جمع بإشراف الرسول وتحت إدارته، أثناء حياته.

ويكون عثمان في نسخه لعدد من النسخ الأصلية من القرآن في العام (٣٣) للهجرة قد قام بعمل كان يجب على المسلمين القيام به بمجرد توسع انتشار الإسلام ودولة المسلمين ليكون مصدر تشريع وتفقيه للناس في دينهم الجديد، وقبل أن يقوم به عثمان بربع قرن تقريباً. وهذا التأخر في توصيل القرآن للبلاد المفتوحة، والتقصير في تفقيه الملايين من المسلمين الجدد في دينهم بواسطة القرآن وتشريعاته، مع جهل العرب بالقراءة والكتابة، وندرة من بقي من الصحابة وانشغالهم بقيادة جيوش الفتح، أدى إلى أن يبحث المسلمون الجدد عن مصادر بديلة لإثراء ثقافتهم الإسلامية الفتية ولو كان باسترجاع بعض معتقداتهم وتراثهم الديني السابق، والتي عرفت طريقها للإسلام بواسطة ما عرف فيما بعد بالفقه والحديث والتفسير.

وهذه العلوم أدت فيما بعد لنشأة الفرق والمذاهب الإسلامية والتشريعات المخالفة للقرآن، وتأويل الآيات بما لا تحتمل، وكانت بدايات ظهورها وغرس بذورها في جسد الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، لذا كان لا بد أن نفرد لها فصلاً خاصاً للحديث عنها بشيء من التفصيل.

ولادة الفقه والحديث والتفسير

. . . وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورا (بني إسرائيل: ٤٦).

اتخذواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابن مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (التوبة: ٣١).

على الرغم من أن الفقه والتفسير والحديث لم تعرف على شكل علوم إلا في القرنين الثالث والرابع الهجري، إلا أن بوادرها الأولى قد بدأت بالظهور مع توسع «الفتوح» زمن عمر بن الخطاب، ولذلك جاء الحديث عنها هنا وليس في آخر الكتاب.

فقد أدى التوسع في «الفتوح» إلى أن يستعين عمر بن الخطاب بكل من يظنهم أهل نظر للحكم في قضايا الناس. وبما أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كانوا أقل من أن تفي أعدادهم، نظراً إلى توسع الدولة وكثرة أقاليمها، فقد كانت تتم الاستعانة بمن يظن فيهم الفطنة ولو كانوا على قدر أقل من التقوى والتعمق في الدين. وممن تولى القضاء في العراق وخراسان وما جاورها زمن عمر، كما أورد ابن سعد في الطبقات الكبرى:

أبو مريم الحنفي، واسمه إياس بن ضبيح بن المحرش بن عبد عمرو بن عبيد بن مالك بن المعبر بن عبدالله بن الدول بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. وكان من أهل اليمامة وكان من أصحاب مسيلمة وهو قتل زيد بن الخطاب بن نفيل يوم اليمامة.

ومثله: الأحنف بن قيس، وأبو عثمان النهدي وغيرهم ممن لم يروا الرسول

ولم يجتمعوا به. وكانت أقوال هؤلاء ومواعظهم وقصصهم في مجالسهم القضائية والعادية يتم تناقلها بين الناس مشافهة على أنها من دين الله، ولو كانت عبارة عن اجتهادات وآراء شخصية، تفسر خلفيات قائليها الثقافية التي لا علاقة لها بالإسلام.

وقد رافق بدايات القضاء في الإسلام سوء فهم عام، تمثل في أن القاضي يحاول أن ينسب حكمه في كل قضية إلى دين الله. وبما أن أغلب القضايا المطروحة لا يعرف لها القاضي حكماً في الإسلام لجهله بالقرآن الغائب، أو لأنه لا حكم لها في كتاب الله، فإن القاضي بدل أن يحكم بها على أنها أمر دنيوي، وأن حكمه حكم قضائي مدني لا دخل للإسلام فيه، فقد كان القاضي (الفقيه) يصدر ما يراه هو من حكم في القضية، وهذا كان من الممكن أن لا يكون فيه بأس. ولكن ما حدث بعد ذلك أن الأجيال التالية من القضاة كانوا يرجعون في بعض أحكامهم إلى ما قرره أولئك الفقهاء السابقو، وحكموا به. ومع تتابع الأجيال أصبح الفقيه لا يصدر حكمه في القضايا المطروحة عليه، أو التي يسأل عن حكمها، من عند نفسه، بل يحاول البحث عن أي أثر أو خبر سمع أنه منسوب إلى فقيه قبله، فيحكم به. ومع تقادم الزمن أصبحت تلك الأقوال المنسوبة إلى فقيه سابق تنسب إلى صحابي أو إلى الرسول. وبطبيعة الحال فالخبر المنسوب إلى الرسول يكون أكثر إقناعاً من الأخبار الأخرى. لذا فقد تبارى أهل الفقه بالبحث عن الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، وكان هذا مجالاً للتحوير والتدليس والتزوير وكل الواوات الأخرى.

وأصبح بعض من يشتغل بالفقه قصاصاً، لهم مجالس يحضرها الناس ويستمعون إليهم في تلك المجالس وهم يتداولون الآثار والأخبار التي تروى عن حياة الرسول والصحابة ومعها بعض الفتاوى والتشريعات والأحكام الفقهية، المعتمدة على آثار وأخبار من فقهاء سابقين في الأصل والتي أصبحت تنسب إلى الصحابة والرسول فيما بعد.

فأصبح القصاص قضاة ومحدثين ومفسرين أيضاً، لأن الآثار والأخبار نفسها ستنبطون بها الأحكام الفقهية هي التي يفسرون بموجبها الآيات القرآنية. وبما أن القرآن يتحدث عن أخبار الأمم السابقة، وعن قصص خلق الإنسان والكون، وبما أن الكثير من الرواد الأوائل للفقه والتفسير والحديث هم ممن دخل الإسلام من

الديانات الأخرى التي تتحدث كتب ديانتهم السابقة عن تلك القصص والأخبار نفسها تحدث عنها القرآن، مثل كتب اليهود والمسيحيين، ومعهم مسلمون جدد لهم خلفيات دينية فارسية وهندية وإغريقية ووثنية، وعادات وتقاليد متباينة، ومعتقدات وخرافات وأساطير شعبية من كل نوع، فإن كل هذه الخلفيات الثقافية استخدمت لتفسير الآيات القرآنية، ودخلت الإسلام عن طريق نسبتها إلى الرسول على شكل أحاديث، في عصور لاحقة، لتتكون منها التشريعات الإسلامية التي سار عليها المسلمون منذ ذلك الوقت باختلاف فرقهم ومذاهبهم، وليتوارى إسلام القرآن عن الأنظار. وهكذا وجدت تلك التفاسير الغريبة العجيبة مكاناً لها كبديل لآيات القرآن الواضحة.

ولما جاءت الأجيال اللاحقة سموا أولئك الرواد بالسلف، وتبنوا كل ما قالوه، وتوسعوا فيه، فولد ما عرف بالفقه وفقهاء المذاهب، والحديث ومؤلفي كتب الحديث، والتفسير والمفسرين. وكان ظهور الفرق والمذاهب المختلفة نتيجة طبيعية للخلفيات الثقافية والاجتماعية المتفاوتة لسلف كل فرقة ومذهب.

وهكذا تسربت للإسلام معتقدات وثنية ويهودية ومسيحية ومجوسية وهندوسية ويونانية إغريقية، دون أن يكون هناك أناس وثنيون ويهود ومجوس وهندوس ويونان وإغريق، تآمروا على دس سمومهم في دين الله ليفسدوه. ولكنه تسلل بأيدي المسلمين الذين كانوا يريدون أن يخدموا دين الله، كل بطريقته التي عرف وتعرف بها على الإسلام. ولم يكن هناك قرآن يتعلمونه يدلهم على إسلام الله الذي اختاره ليكون ديناً للناس.

وقد توالى التحوير في التشريعات الإسلامية نتيجة لأوضاع المسلمين، بعد عصر عمر بن الخطاب، بشكل أكبر وأسرع. وكل من يتفرس في آراء وفتاوى وتشريعات فقهاء المذاهب الأربعة السنية على سبيل المثال، يجد أنه يغلب عليها النقل الحرفي لأقوال المؤسسين الأوائل من الفقهاء والمحدثين، الذين عرفوا الإسلام في فترة حروب «الفتوح» الأولى. وليس هناك مسألة فقهية قال بها أحد الفقهاء الأربعة ولم يرجع فيها إلى أقوال من سبقه فيها، مثل: يحيى بن يعمر الليثي، أبو مجزل، محمد النخعي، الضحاك بن مزاحم، عطاء، أبو المنيب، عكرمة، الربيع بن أنس، عبدالله بن المبارك، إبراهيم بن ميمون الصائغ، مقاتل،

سهل بن مزاحم، سفيان، كعب الأحبار، قبيصة بن ذؤيب، الشعبي، أبو بردة، الحسن البصري، مجاهد، قتادة. وأمثالهم الكثر.

وكل من يقرأ كتاباً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيره سيجد أن سلسلة رواة الحديث لا بد أن تضم واحداً أو أكثر من تلك الأسماء نفسها، وليس هناك حديث واحد يشذ عن هذه القاعدة. وكل من يقرأ أي كتاب تفسير من التفاسير المشهورة عند المسلمين كالطبري والقرطبي وابن كثير سيجد أن تلك الأسماء موجودة أيضاً.

فهذه الأسماء توجد في كل حديث منسوب إلى الرسول، وفي كل رأي فقهي، وفي كل تفسير للآيات القرآنية، لأنهم رواد الفقه وهم رواد التفسير وهم أنفسهم رواد الحديث. وكل أسس التشريعات الفقهية التي يعمل بموجبها المسلمون اليوم في كل فرقهم ومذاهبهم ورثوها من فقهاء القرون الأولى، الذين ورثوا أسسها من الرواد المذكورة أسماء بعضهم هنا.

وهذا ينطبق على الأحاديث وعلى التفسير أيضاً، فليس هناك كتاب حديث واحد أمر الرسول بكتابته، ولا كتاب حديث واحد كتبه أحد من كبار الصحابة[1]، ولكن هناك حديثاً للبخاري ولمسلم وللترمذي وغيرهم ممن عاشوا في القرن الثالث أو الرابع الهجري، والذين دونوا أحاديثهم مما روي عن عطاء وعكرمة والربيع بن أنس وعبدالله بن المبارك والسدي والأوزاعي والثوري وقتادة وغيرهم، الذين ينسبون أحاديثهم إلى الصحابة ثم إلى الرسول.

وليس هناك تفسير للرسول، ولا لسعيد بن نفيل، ولا لعبدالله بن رواحة، ولا لبلال بن رباح، ولا حتى لابن عباس على الرغم من أن هناك تفسيراً ينسب إليه ولم يكتبه. في المقابل هناك تفسير للسدي وسفيان الثوري والحسن البصري ومجاهد وقتادة وغيرهم من مسلمي «الفتوح»، والذي نقله عنهم القرطبي والطبري

(١) وكتاب نهج البلاغة المنسوب إلى علي بن أبي طالب ليس فيه حرف واحد لعلي ولكنه كتاب مؤلفه مجهول، وقد ألف في القرن الثالث أو الرابع الهجري، ونسب إلى زين العابدين ابن علي الذي نسب إليه أنه قام بتجميع خطب ورسائل وأحاديث علي بن أبي طالب في ذلك الكتاب، وذلك في محاولة من المؤلف لترويج كتابه، وقد نجح في ذلك، واعتبر اليوم مرجعاً هاماً للشيعة واعتبر مؤلفه هو علي بن أبي طالب، انظر مقدمة الكتاب.

وابن كثير، ممن عاشوا في القرن الثالث والرابع، ثم جاء من نقله عن هؤلاء من أجيال لاحقة.

ولذلك فإن دراسة سيرة رواد الفقه والتفسير والحديث هي التي يجب أن تتم وبكل تجرد للتعرف على أن تراثنا الإسلامي الحالي لا يمثل الإسلام الذي نزل على محمد ولكنه يمثل تراثاً لثقافات أولئك الرواد المختلفة المصادر، من مجوسية ويهودية وهندية ورومية ووثنية ونصرانية وسبأية وحميرية، والتي صهرت مع بعضها لتكوّن التراث الإسلامي الذي تسير عليه حياة المسلمين، اليوم ومنذ العصر العباسي الأول، بمختلف فرقهم ومذاهبهم، مقسماً على ثلاث مسميات هي التفسير والفقه والحديث، أخذنا منها كل ما نعرفه اليوم على أنه الشريعة الإسلامية.

ولولا الحديث لما كان هناك فقه ولما كان هناك تفسير بهذا التوسع، لأن الآراء والتشريعات الفقهية يستدل عليها بأحاديث، والمفسر يسند أقواله بأحاديث، ولو كانت تلك الأحاديث بغرابة ما نقله القرطبي في تفسير قوله تعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (البقرة: ٤٣) حيث يقول إن فيها أربعاً وثلاثين مسألة، ويقول في المسألة الرابعة والعشرين، ما نصه: وأما الفاسق بجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه؛ فقال ابن حبيب: من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبداً، إلا أن يكون الوالي الذي تؤدى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران. قاله من لقيت من أصحاب مالك. وروي من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر: لا تَؤمّن امرأة رجلاً ولا يؤمّن أعرابي مهاجراً ولا يؤمَّنَّ فاجر بَرًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان. انتهى الخبر الذي يغرس في دين الله تميز الحاكم حتى ولو على مستوى تشريعات الدين، وهذا ما يثبت أن الرسول لم يقله، ولكنه نسب إليه.

وبناءً على ما تقدم يمكننا الخروج بفرضية مفادها أنه لو ثبت أن الحديث، والذي يقصد به ما نسب إلى الرسول من أقوال بعباراته الشخصية، ليس من الدين فإن الفقه والتفسير أيضاً ليسا من الدين. وأن كل ما ليس له أصل في القرآن من تشريعات فليس من الدين. وبالتالي سيكون القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع في

الإسلام، وسيختفي التعارض والاختلاف المذهبي، ولن يبقى سوى تشريعات القرآن التي ليس بينها أي تعارض.

وهذا يدفعنا للتعرف أكثر على ما يقصد بالحديث، وتاريخه، وكيف أصبح من مصادر التشريع، وهل يقوم عليه نصف دين الله؟

معنى الحديث

كل ما ينزل على الرسول عن طريق الوحي، فهو قرآن: إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (النجم: ٤-٥).

وهذا القرآن ينطق به الرسول ويسمعه للناس: قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (الزمر: ٢٨).

وما يميزه عن كلام الرسول الشخصي، ليس فصاحته، لأن الرسول كان فصيحاً ولا يعرف العجمة، ولكن مبادرة الرسول بالأمر بكتابته بمجرد ما يوحى به إليه.

أما كلام الرسول العادي، حتى لو كان فيه موعظة أو نصيحة، فلم يكن يوصي بكتابته، بل إن الواقع أثبت أن الرسول مات وليس هناك كلام عادي أو موعظة أو خطبة واحدة مكتوبة للرسول، ولذلك لا يوجد لدى المسلمين اليوم خطبة واحدة من خطب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في صلوات الجمع، مع أن الرسول صلى ما يزيد عن (٥٠٠) جمعة إذا كانت صلاة الجمعة لم تفرض إلا في المدينة. وهو ما يؤكد صحة ما نسب إليه عليه الصلاة والسلام من أنه نهى وبشدة عن كتابة كلامه ومواعظه وأخباره والأحداث التي جرت في عصره، ولم يسمح بكتابة شيء ما عدا القرآن، وهذا نص خبر النهي: حدّثنا عبدالله، حدَّثني أبي، حدثنا يزيد، أنبانا همام بن يحيى، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه (مسند أحمد: ١٠٩٢٨).

وقد عرف الناس ذلك واعتادوه منه صلوات الله وسلامه عليه، دون شك أو ريبة أو خلط بين أقواله وأخباره الشخصية والوحي المنزل عليه، ولذلك لم يكن هناك تعريف اصطلاحي خاص بكلام الرسول، ولم يكن من عاش في زمانه يعرفونه أو يتبينونه إلا كأي كلام عادي لا تميز فيه، إلا أنه صادر من رسول الله

وينم عن شخصيته، ولكنه ليس من دين الله ولا جزءاً منه. لأن تصرفات الرسول كلها تنبع من كونه إنساناً سوياً مثله مثل بقية البشر، وقد كان يصدر منه كل ما يصدر من البشر، من أخطاء بشرية في بعض التصرفات، ومن نسيان لبعض المواقف والكلام. وليس كل ما صدر منه أو ما أقره من قول أو فعل قام به هو أو غيره يعتبر من الدين، ولعل خير دليل على ذلك حديث أورده أحمد في مسنده برقم (١٤١٢)، ونصه: حدثنا عبدالله حدَّثني أبي ثنا عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن سماك أنه سمع موسى بن طلحة يحدث عن أبيه قال: مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم في نخل المدينة فرأى أقواماً في رؤوس النخل، يلقحون النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال: يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى يلقحون به، فقال: ما أظن ذلك يغني شيئاً، فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها فلم تحمل تلك السنة شيئاً، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنما هو ظن ظننته، إن كان يغني شيئاً فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم والظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن أكذب على الله. اهـ.

ويكون كل ما نطق به الرسول بما ليس فيه قرآن فليس بوحي، أو كما قال الخبر «ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن أكذب على الله»، وكل ما ليس بوحي، فليس من الدين، حتى لو ثبت أنه صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولم يسمع الناس أثناء حياة رسول الله وطوال عصر الخلفاء الأربعة بمصطلح «الحديث» المعروف لنا الآن، لأن من أطلق عليه هذا الاصطلاح هم الفقهاء الذين جاؤوا بعد تلك الأزمنة، ولم يصبح للحديث تعريف إلاّ في القرن الثالث للهجرة، حيث أصبح يطلق اصطلاح «سنة رسول الله» على كل ما نسب إلى الرسول بطريق ظني من أقوال، أو أفعال، أو إقرار (عدم اعتراضه على) فعل أو قول صدر من غيره، وسمي ذلك بالحديث.

تقديس الحديث

لقد توفي رسول الله والمسلمون يعلمون أن الدين هو ما احتواه كتاب الله، وأن أقوال الرسول الأخرى أو تقريره بما ليس في القرآن إنما هو نابع من بشر، ولا يمثل دين الله. وكان يمكن أن يتناسى الناس كل ما صدر عن الرسول من أقوال وتصرفات وما حدث من أحداث مع الزمن، وإن تناقلوها مشافهة فستكون بالطريقة

نفسها التي يتناقلون الأخبار التي تتحدث عمن سلف من البشر، كتاريخ، تختلط فيه الحقيقة مع الخيال والأسطورة. وسيكون بمقدور كل أحد أن يصدق بما يشاء منها ويكذب ما يشاء دون أن يعاتب في ذلك أو ينتقص دينه، مثلما أن الناس لن يهتموا إن اعتقد أحدهم بأن زهير بن أبي سلمى لم يكن حكيماً أو لم يقل الشعر المنسوب إليه ومنه:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

أو أن حرب داحس والغبراء لم تقم من أجل ناقة اسمها البسوس، أو أن أم عنترة لم تكن عبدة حبشية، اسمها زبيبة، أو أن عبد العزيز الفيصل دخل الرياض بأقل أو أكثر من عشرين رجلاً، وغير ذلك من قصص وحكايات التاريخ، والتي منها الأحداث التي حدثت زمن الرسول والأقوال التي نسبت إليه وإلى أصحابه ومن عاصره.

ولكن النظرة إلى أقوال الرسول والأحداث التي حدثت في عصره تبدلت، وأصبحت مقدسة، نتيجة لحاجة الرواد الأوائل إلى الفقه والتفسير إلى آثار وأخبار تنسب إلى الصحابة وإلى الرسول لكي تسند ما ذهبوا إليه من تشريعات وآراء فقهية وتفاسير.

ولذلك اعتبروا كل ما يصلهم من أخبار منسوبة إلى الرسول مقدسة وتمثل دين الله، وحتى تلك الأخبار كانت قليلة في البداية، ولم يجدها المسلمون الجدد تراثاً دينياً غنياً بما يكفي، فتبنوا الكثير من ثقافاتهم الدينية السابقة التي أصبحت جزءاً من تراث المسلمين بنسبتها إلى الرسول.

وأولئك المسلمون الجدد هم من أطلقت عليهم أجيال لاحقة مصطلح «التابعين» ومصطلح «تابعي التابعين». وظن الناس في قرون لاحقة أن التابعين هم أبناء الصحابة الأخيار الذين ولدوا في الإسلام وتشربوا الثقافة الإسلامية في المهد صغاراً قبل أن ينشأوا ويتربوا على كل مكارم الأخلاق الإسلامية على أيدي آبائهم. وأن تابعي التابعين هم أبناؤهم الذين ورثوا وتطبعوا بما كان عليه آباؤهم التابعون وأجدادهم الصحابة من فضائل إسلامية وعقيدة قويمة.

ولكن الواقع يظهر أن الذين أُطلق عليهم التابعون وتابعو التابعين ليس لهم علاقة بالرعيل الأول من المهاجرين والأنصار، لأن مجتمع التابعين وتابعي التابعين

يتكون، إلا فيما ندر، من المسلمين الجدد الذين دخلوا الإسلام زمن «الفتوح» كأسرى حرب أو مغلوبين على أمرهم أو ولدوا من أولئك، وعاشوا في الفترة الزمنية الفاصلة بين بدء «الفتوح»، في عهد أبي بكر، وحتى زمن ظهور بوادر الفقه والتفسير والحديث على شكل علوم في القرن الثاني الهجري.

وقد تميزت تلك الفترة بغياب شبه تام للصحابة الأتقياء من الرعيل الأول، لأن أولئك في الأساس كانوا قلة قليلة لا تزيد عن المئات، توفي عدد منهم في حروب إنشاء الدولة الإسلامية أثناء زمن رسول الله، ومات غالبية من بقي أثناء حروب الردة، خاصة في حروب اليمامة ضد مسيلمة. ومن بقي بعد ذلك منهم لم يزد عن العشرات، تفرقوا في البلاد المفتوحة، ولم يعد لهم تأثير يذكر بين الملايين من الناس الذين خضعوا للإسلام بواسطة جيوش «الفتوح»، والذين وإن استسلموا للإسلام ودولته، إلا أن عقائدهم السابقة بقيت معهم، سواءً كانت مسيحية أو يهودية أو مجوسية أو هندية أو وثنية أو إغريقية رومانية.

وقد فصلنا الحديث عن ذلك في الفصل الخاص بأعداد الصحابة، وفي فصول سابقة، كما يمكن لأي شخص أن يعود إلى كتب مشهورة ومتوفرة في كل المكتبات، مثل طبقات ابن سعد وتذكرة الحافظ وسير أعلام النبلاء، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وأسد الغابة في معرفة الأصحاب، الإصابة في تمييز الصحابة وغيرها، وسيتمكن من تحديد من بقي من أوائل الصحابة على قيد الحياة حتى السنة الثلاثين للهجرة، أي بعد وفاة الرسول بعشرين سنة فقط، وسيذهل كم كان العدد قليلاً جداً.

وسيذهل أكثر أن من بقي حتى ذلك الوقت، وإن سموا بالصحابة، لم يكونوا من الرعيل الأول من مسلمي مكة والمدينة، أي المهاجرين والأنصار، ولم ينهلوا من نبع النبوة، إلا ما ندر، بل كان جلهم من حديثي العهد بالإسلام، وكانوا على قسمين:

القسم الأعظم هم من قبائل الجزيرة الذين وفد زعماؤهم على الرسول في آخر أيامه وأعلنوا الإسلام ثم عادوا إلى مواطنهم، لأنه لم يعد لهم قبل بعداوة دولة الإسلام، وليس لأنهم آمنوا بدعوته، كما تحدثنا عن ذلك في فصل استسلام قبائل جزيرة العرب في الباب الخامس. وهؤلاء هم من ارتد عن الإسلام بعد وفاة

الرسول ظناً منهم أن قوة الدولة الإسلامية التي أسسها محمد ستنهار بعده، أو أنهم انقادوا لدولة الإسلام عندما كان محمد زعيماً لها، في نظرهم، ولكن أن ينقادوا لدولة تحكمها قريش فهذا شأن مختلف وغير مرغوب فيه.

ومثل هؤلاء من سموا بالطلقاء، وهم من أعلن إسلامه يوم فتح مكة من قريش، ومن أعلن إسلامه بعد حنين من أهل الطائف. وغيرهم ممن دخل الإسلام في سنواته الأخيرة، وغادر المدينة بعد فترة قصيرة ولم يعد لها قبل وفاة الرسول. وهؤلاء لم يتطبعوا بطباع الإسلام ولم يتعمقوا فيه، لقصر مدة بقائهم بقرب رسول الله. والدين مثله مثل أي تراث اجتماعي يحتاج إلى فترة من الزمن حتى يحل محل تراث سابق في نفوس معتنقيه، ولا يمكن أن يؤمن الشخص بدين بمجرد التعرف عليه بجلسة أو جلسات قليلة، ثم يتخلى عن كل ما توارثه من تراث وعادات ومعتقدات كانت في مجتمعه السابق.

القسم الثاني هم من ولد في الإسلام من أبناء المهاجرين والأنصار ومن غيرهم بعد الهجرة. وهؤلاء وإن رأوا الرسول، إلا أنهم رأوه في زمن الطفولة وقبل أن تبنى ثقافاتهم الشخصية، التي ستتأثر بالبيئة المحيطة بهم أثناء فترة المراهقة والشباب، وهي مرحلة «الفتوح» الإسلامية الأولى، حيث دخل الإسلام ملايين البشر من كافة الملل والنحل والشعوب والثقافات في وقت قصير جداً وأصبحت المدينة عاصمة لدولة مترامية الأطراف لا يمثل من بقي على قيد الحياة من المهاجرين والأنصار فيها أي نسبة مؤثرة أو حتى نسبة يمكن ذكرها. وحتى من بقي منهم في أرض الحجاز، أو عاد إليها فيما بعد، فقد عاد بثقافة جديدة تختلف عما كان سيرثها عن والده.

ومن المهم أن نشير إلى أن جيوش المسلمين الأولى لما عرف بالفتوح تكونت ممن ارتد وعاد إلى الإسلام، ومن الطلقاء، وممن انضم إلى جيوش الفتح طلباً للغنائم، بعضهم أعلن الشهادة، وبعضهم بقوا على دياناتهم السابقة، ونفر قليل من المهاجرين والأنصار.

ومع أن القرآن قد جمع في مصحف واحد، إلا أن الجيوش الإسلامية قد انطلقت من دون أن يصحبها القرآن، لأن ذلك المصحف الوحيد، ظل محفوظاً عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب، منذ وفاة عمر بن الخطاب حتى

منتصف خلافة عثمان بن عفان عندما شعر من بقي من المؤمنين الأوائل بحجم المأساة التي حدثت للإسلام، بفعل توسع «الفتوح» بسرعة هائلة، وانضواء الملايين تحت حكم دولة المسلمين، دون أن يكون هناك تأثير إسلامي عليهم.

وحتى بعد أن أرسل عمر بن الخطاب في آخر حياته عدداً من حفظة القرآن للعراق والشام لتثقيف المسلمين الجدد في دينهم، فلم تكن تلك المحاولة مؤثرة، وكلما نتج عن أولئك القراء الذين ذهبوا إلى العراق هو أنهم تحزبوا في مجموعة واحدة بعد مقتل عثمان، وانضموا إلى علي بن أبي طالب في البداية، ولكن بعد معركة صفين ورفع المصاحف، أعلنوا أن حكم دولة الإسلام لله وليس لعلي ولا لمعاوية ولا غيره أن يحكمها بما يراه، وأبلغوا علياً أنهم أطاعوه في البداية ظناً منهم أن هدفه من الخلافة هو تحكيم شرع الله وقتال البغاة حتى يرضخوا لحكم الله كما رضخ المرتدون، أما أن يقبل الهدنة مع معاوية ويرضى بأن يتوصل معه إلى حل وسط، بحيث يكون له حكم العراق والحجاز ويتفرد معاوية بحكم الشام، فهذا طلب حكم لدول دنيوية وليست دولة إسلامية يحكمها شرع الله.

وكانت النتيجة أن حاربهم علي وسحقهم في المعركة الشهيرة المسماة بمعركة النهروان عام سبعة وثلاثين للهجرة، ثم استمر علي بن أبي طالب يتتبع فلولهم طوال السنة التي تليها ويقتلهم. وتحولوا في نظر المسلمين من دعاة لتحكيم شرع الله وكتابه في دولة الإسلام إلى خوارج على الحكام، واستمرت مطارداتهم لعقود من قبل العديد من خلفاء بني أمية، وكانت النتيجة أن تحولت أفكارهم الأصلية في الأجيال اللاحقة وأفرزت العديد من الفرق الإسلامية.

واستمر القرآن بعيداً عن التأثير على الثقافة الإسلامية، حتى بعد أن وزعت أربع أو ست نسخ من القرآن على الأمصار، لأنه في ذلك الوقت الذي أرسلت فيه نسخة من المصحف لكل إقليم (مِصر)، كان المجتمع الإسلامي الجديد المكون من شعوب متباينة قد أصبحت ثقافته الإسلامية ضحلة جداً، كما سبق وذكر، إضافة إلى جهل الناس من أصل غير عربي القراءة والكتابة باللغة العربية، حتى الفقهاء منهم.

يقول المزي صاحب كتاب تهذيب الكمال، إن إمام أهل الشام مكحول الدمشقي، كان لا يستطيع التحدث بالعربية إلا بلكنة ركيكة، ومثل ذلك ما نقله ابن سعد في طبقاته الكبرى عن مكحول، حيث يقول: حدثنا معقل بن عبد الأعلى

القرشي من بني أبي معيط قال: سمعت مكحولاً يقول لرجل: ما فعلت تلك الهاجة؟

وقال غيره من أهل العلم: كان مكحول من أهل كابل وكانت فيه لكنة وكان يقول بالقدر وكان ضعيفاً في حديثه وروايته. أخبرنا عمر بن سعيد قال: مات مكحول سنة ثماني عشرة ومائة (ومع كل هذه المثالب كان إمام أهل الشام في الفقه والحديث في وقته).

أما العرب أنفسهم فكانوا أميين بطبعهم، ولم يكونوا أهل قراءة وكتابة، ولذلك كانت دواوين وجداول مرتبات الجند وكل معاملات دولة المسلمين الرسمية تكتب بالفارسية في العراق والرومية في الشام حتى عهد عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ٨٦ للهجرة) عندما توفر كتبة من أولاد غير العرب الذين دخلوا الإسلام كأسرى، فأمرهم عبد الملك بنقل الدواوين في العراق والشام إلى العربية.

وفي هذا الوقت الذي بدأت أعداد من الناس تتعلم القراءة بالعربية، كانت أسس وقواعد الفقه والحديث والتفسير قد تكونت، بقيادة الرعيل الأول لهذه العلوم من مسلمي «الفتوح» الذين لم يجدوا القرآن ماثلاً أمامهم كمرشد وهادٍ عندما أسلموا، ولم يستطيعوا فهم ما قد يكون وصل إلى إسماعهم منه مشافهة، لأنهم لا يتقنون لغته العربية.

ويكون مجتمع دولة الإسلام أثناء وبعد «الفتوح» الأولى، يمثله واقعين مؤلمين هما:

الأول: خلو الساحة الإسلامية من أعداد كبيرة من الصحابة الأوائل من المهاجرين والأنصار.

الثاني: الجهل باللغة العربية، ليس تحدثاً ولكن كتابة وقراءة، وهو ما يعني عدم القدرة على كتابة القرآن، مما يعني خلو الساحة الإسلامية من الاهتداء بهدي كتاب الله.

والنتيجة تمثلت في جهل الناس المطبق بتعاليم الدين وتشريعاته عدا العبادات والشهادتين، واعتمادهم على الروايات الشفهية والقصص والحكايات التي بعضها منسوب إلى الصحابة وبعضها للرسول وبعضها أصله من كتب اليهود والنصارى والمجوس والهنود والإغريق والمعتقدات الأخرى التي جاء منها المسلمون الجدد، وكلها وجدت طريقها إلى التشريعات الفقهية الإسلامية.

ويصف ابن خلدون في مقدمته حال العرب الذين شاركوا في «الفتوح» الإسلامية الأولى، وبعد أن توقفت تلك «الفتوح» استقروا حيث بلغت بهم خيولهم ومطاياهم فسكنوا العراق والشام ومصر وذلك في منتصف خلافة عثمان، ولم يمض على وفاة رسول الله سوى أقل من عشرين عاماً، يقول ابن خلدون: وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ارتضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان. انتهى.

فإذا كان هذا حال العرب القادمين من الجزيرة، مع الإسلام، فما هي حال من دخل الإسلام من ملل ونحل وعقائد مختلفة ومتباينة، ممن سلبت أراضيهم وأسروا على أيدي هؤلاء الفاتحين في الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في فترة وجيزة لم تزد عن عشرين سنة، وصلت فيها أقدام جنود الجيوش الإسلامية إلى الهند والسند شرقاً، وإلى أفريقيا (ليبيا الحالية) غرباً، ومن اليمن جنوباً إلى مشارف القسطنطينية شمالاً.

ومع الغياب التام لجل الصحابة الأوائل الذين غيبتهم المنون، قام المسلمون الجدد بأسلمة معتقداتهم السابقة عن طريق تبنيها في هذه العلوم كتراث إسلامي، وكان الزمن وتتابع الأجيال من أهم العوامل التي ساعدتهم على نسبتها إلى الرسول وترسيخها في التراث الإسلامي. فكان الرعيل الأول ممن دخل الإسلام أثناء «الفتوح»، يروون لإخوانهم في الإسلام، وأسيادهم في نفس الوقت، ما يعرفونه من تراثهم السابق، سواءً حفظاً أو قراءة من كتاب، ولم ينسب أحد منهم ما يقول إلى الرسول مباشرة. ولكن مع تتابع الأجيال جاء من اعتقد أن تلك الأقوال لا بد أنها منسوبة إلى الرسول، وبما أن من رواها يحتمل أنه قد اجتمع بصحابي أو أكثر لأنه عاش في الفترة نفسها التي كان فيها ذلك الصحابي على قيد الحياة، فلا بد أنه رواها عن الصحابي والصحابي رواها عن الرسول.

ولذلك نجد أن معظم الأحاديث المنسوبة إلى الرسول يكون الصحابي الذي يفترض أنه رواها عن الرسول من القسم الثاني ممن سموا بالصحابة الذين طالت أيامهم، أمثال أم المؤمنين عائشة (المتوفاة سنة ٥٧ للهجرة) وأبي هريرة (المتوفى عام ٥٧ أيضاً) وابن عمر (المتوفى سنة ٨٤ وقيل ٨٨) وابن عباس (المتوفى سنة

٦٥ وقيل ٦٨) وأبي سعيد الخدري (المتوفى سنة ٦٤ وقيل ٧٤) وجابر بن عبدالله (المتوفى سنة ٧٤)، ونحوهم.

وهؤلاء تمتلئ الكتب بما نسب إليهم من أحاديث، بينما تكاد تخلو كتب الأحاديث وأقوال المفسرين والفقهاء من أحاديث تنسب إلى أوائل الصحابة، أمثال أبي بكر الذي كان صديق طفولة وصبا الرسول، واستمر أقرب الناس إليه حتى مات صلوات الله وسلامه عليه، وكانت لا تنقصه ملكة الحفظ لأنه نسابة العرب، فهو أنسب قريش لقريش، كما يصفه صاحب الإصابة في تمييز الصحابة. ومع ذلك لم ينسب إليه في البخاري إلا اثنان وعشرون حديثاً فقط، وتكاد تخلو بقية كتب الحديث الأخرى من أي حديث منسوب إليه.

ولا يخالفه كثيراً صحابة الرعيل الأول مثل عمر وعثمان وعلي وغيرهم، إذ لا يوجد في البخاري إلا تسعة أحاديث منسوبة إلى الزبير بن العوام وحديث واحد فقط في مسلم، ونسب إلى طلحة بن عبيدالله أربعة أحاديث فقط في البخاري، بينما خلت كل كتب الحديث من أسماء معظم كبار الصحابة. ويمكن تفهم سبب ذلك، لأن من يرد أن ينسب أقواله إلى صحابي حتى يقتنع بها الناس، لا يستطيع أن ينسبها إلى شخص مثل أبي بكر، لأنه مات في بداية «الفتوح» وقبل أن يدخل الإسلام من أصبحوا مؤسسي الفقه والحديث والتفسير الأوائل. كما أنه لم يكن من الممكن أن تنسب أحاديث إلى صحابة من الرعيل الأول على الرغم من أنهم عاشوا طويلاً بعد رسول الله، مثل الأرقم بن أبي الأرقم، الذي كان الرسول يجتمع بالمسلمين الأوائل في مكة في داره، لأن الأرقم لم يغادر المدينة ومات في العقيق سنة خمس وخمسين للهجرة، ولذلك نسبت الأحاديث إلى من طال عمره ممن سموا بالصحابة وانتقل إلى العيش في الأمصار.

لهذا جاءت معظم الأحاديث منسوبة إلى صحابة الدرجة الثانية حتى فيما يتعلق بالأحداث التي حدثت لدعوة الرسول في بداياتها في مكة، فلم ينقلها عنه أبو بكر أو سعد بن أبي وقاص أو بلال، بل نقلت على لسان ابن عباس الذي لم يكن ولد بعد، وأمثال أبي هريرة الذي لم يكن دخل الإسلام إلا في السنة السابعة للهجرة.

ولا بد أن هناك من استسهل نسبة الحديث إلى الرسول معتقداً أن هذا لا بأس به لسد الذرائع. وهناك من أضاف إلى ما سمعه يحكى عن أحداث وأقوال

للرسول، والبعض حور في تلك القصص، والبعض كان يحدث في مجلسه عن قصص الأمم السابقة، إما نقلاً عن بعض من أسلم منهم أو نقلاً عن بعض كتبهم التي وجدها[1]، وجاء بعدهم من نسب تلك الأقوال إلى الرسول، وغير ذلك مما أدخل على ما سمي بالحديث والرسول لم يقله أو يفعله أو يعلم به.

وقد حارب الخلفاء الأربعة ظاهرة التحديث عن الرسول وضرب عمر بن الخطاب عدداً من الصحابة بسبب تحديثهم، وحكم على غيرهم بالإقامة الجبرية في المدينة ومنعهم من السفر إلى الأمصار التي انضمت حديثاً إلى دولة المسلمين، لئلا يحدثوا عن رسول الله. ولكن مع الزمن تكرست فكرة تقديس الحديث، لأن الفقهاء والمفسرين اعتمدوا عليه في تكوين علومهم، وعندما قويت قدسيته بين الناس مع تتابع الأجيال، وأصبح الحديث هو المرجع الرئيسي لكل الآراء الفقهية، أراد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (المتوفى عام ١٠١ للهجرة) أن يحد من ظاهرة التحديث، فكلف أبو بَكْر بن مُحَمَّدِ بنِ عَمْروِ بنِ حَزْم الأنصَارِي (المتوفى عام ١٢٠هجرية) تدوين كل الأحاديث التي يعتقد أنها تصح نسبتها إلى الرسول، ومراجعتها مع الفقيهة المشهورة عَمْرة بنتُ عبد الرحمن بن سَعْد بن زُرارة[2]. وكان عمر بن عبد العزيز ينوي أن يجبر الفقهاء والمحدثين والمفسرين على الرجوع إلى تلك الأحاديث وعدم الأخذ بأي حديث آخر غيرها في فتاواهم وتشريعاتهم. ولكن عمر بن عبد العزيز وافته المنية قبل أن يشرع ابن حزم بالتدوين فماتت فكرة تدوين الأحاديث إلى أن أعاد المحاولة الخليفة العباسي المنصور، عندما كلف مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (المولود عام ٩٤ والمتوفى علم ١٧٩ للهجرة) بأن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به، ونبذ أي أحاديث أخرى يتناقلها الناس، وهذا نص ما جاء في ترجمة مالك في سير أعلام النبلاء: قال خالد بنُ نزار الأَيْلي: بعث المنصور إلى مالك حين قَدم المدينة، فقال: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضعْ كتاباً نجمعُهم عليه. فوضع الموطَّأ.

---

(١) نقل ابن كثير في البداية والنهاية ما نصه: عبدالله بن سلام، وهو من أئمة أهل الكتاب ممن آمن وعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد كان له اطلاع على ذلك من جهة زاملتين كان أصابهما يوم اليرموك، فكان يحدث منهما عن أهل الكتاب، وعن كعب بن نافع الحبر، وكان بصيراً بأقوال لمتقدمين على ما فيها من خلط وغلط، وتحريف وتبديل، فكان يقولها بما فيها من غير نقد، وربما أحسن بعض السلف بها الظن فنقلها عنه مسلمة (ج٣ ص٦٠ / مكتبة المعارف ـ بيروت).

(٢) انظر ترجمة أبي بكر بن حزم في تهذيب الكمال.

وهي نفس فكرة عمر بن عبد العزيز، فصنف مالك الموطأ الذي يعتبر أقدم كتاب للحديث بين أيدينا الآن. ولم يؤلف مصنف واحد في الحديث بعد الموطأ لمدة زادت عن خمسة وسبعين عاماً، التزاماً بالهدف الذي من أجله تم تأليفه. ولكن محمد بن إسماعيل البخاري خرق هذا الالتزام بتأليفه كتابه الذي جمع فيه أحاديث بلغت أضعاف الأحاديث التي كانت في الموطأ، وليفسح المجال لغيره ليحذو حذوه، فتقاطر الكثيرون بعده كل يجمع الأحاديث التي كانت منتشرة في عصره في كتاب، حيث جاء مسلم وأبو داوود والترمذي وأحمد وابن ماجه وابن حبان وغيرهم. وقد زادت الأحاديث التي وجدت في مسند النسائي عن اثني عشر ألف حديث، وهذه الزيادات في أعداد الأحاديث جاءت من جمع أحاديث كان مؤلفو كتب الأحاديث السابقون لم يأخذوا بها، ونسي الناس التحذيرات من كتابة الأحاديث، والتي كانت السبب في تأليف الموطأ لئلا يرجع الناس إلى أحاديث لا توجد فيه.

وهكذا تم تقديس الحديث وكل ما يتناقله الناس وينسبونه إلى الدين، وأصبح المتحدثون باسم الدين يروون كل القصص التي يعرفونها عن الأمم السابقة على أنها أحاديث، ويروون كل ما ينسب إلى الرسول وإلى الصحابة على أنه دين. فعرف الناس» القصاص» الذين يعقدون المجالس لسرد الروايات والقصص والأساطير بهدف الإخبار والتسلية أحياناً، والوعظ حيناً، وأصبح كل ما يقال في تلك المجالس يعظمه الناس ويتناقلونه على أنه من دين الله. وأصبح أولئك القصاص هم القضاة، وهم الرواد الأوائل لما عرف بالحديث والتفسير والفقه، لأن أقوالهم وقصصهم أضحت الأسس التي قامت عليها ما ذهب وفرق المسلمين المختلفة. ولكي تتضح الصورة في ذهن القارئ عن شخصيات أولئك الرواد وثقافاتهم وأفكارهم سنورد بعض ما ترجم عن اثنين من أشهر رواد الفقه والتفسير، وهما الحسن البصري ومجاهد بن جبر:

الحسَنُ البصريّ

هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زَيْد بنِ ثابت الأنصاريّ، ويُقال: مولى أبي اليَسَر كعب بن عَمْرو السَّلَميّ. والده من سبي موقعة الثني عام ١٢ للهجرة، واحد من أشهر قادة الفقه، وأول القصاص في الإسلام.

ومما ترجم له ابن سعد في الطبقات الكبرى، ما نصه: أخبرنا مسلم بن

إبراهيم قال: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: سمعت رجلا قال للحسن: يا أبا سعيد يوم الجمعة يوم لثق وطين ومطر، فأبى عليه الحسن إلا الغسل، فلما أبى عليه قال الحسن: حدثنا أبو هريرة قال: عهد إلي رسول الله ثلاثاً: الغسل يوم الجمعة، والوتر قبل النوم، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر. قال أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا وهيب عن أيوب وحماد عن علي بن زيد بن جدعان وغير واحد عن شعبة عن يونس قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة (ومع ذلك أصبح قوله الشخصي فقهاً متبعاً لدى المسلمين).

ويقول ابن سعد عنه: قال أخبرنا محمد بن عبدالله الأنصاري قال: حدثنا بن عون قال: كان الحسن يحدث بالحديث والمعاني. قال أخبرنا عفان وموسى بن إسماعيل قالا: حدثنا جرير بن حازم قال: كان الحسن يحدثنا الحديث يختلف فيزيد في الحديث وينقص منه ولكن المعنى واحد.

وكان الحسن البصري يفتي برأيه الشخصي، كما يقول ابن سعد: قال أخبرنا روح بن عبادة قال: حدثنا حماد بن سلمة عن الجريري أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال للحسن بن أبي الحسن: أرأيت ما تفتي الناس أشياء سمعته أم برأيك؟ فقال الحسن: لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه ولكن رأينا خير لهم من رأيهم لأنفسهم.

وكانت تلك الآراء الشخصية يتناقلها الفقهاء بعده ومن ثم تدخل في الإسلام وكأنها تشريعات إلهية، ومن ذلك ما نقله ابن سعد عنه بقوله: أخبرنا عمرو بن عاصم قال: حدثنا سلام بن مسكين قال: حدثني سليمان بن علي الربعي قال: لما كانت الفتنة فتنة بن الأشعث إذ قاتل الحجاج بن يوسف انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبدالله بن غالب في نفر من نظرائهم فدخلوا على الحسن فقالوا: يا أبا سعيد ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل؟ قال: وذكروا من فعل الحجاج قال: فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء﴿فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾.

ومنه قوله: يا أيها الناس إنه والله ما سلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من

ظني بأهل الشأم فإن ظني بهم أن لو جاؤوا فألقمهم الحجاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظني بهم.

وهذه الأقوال والآراء الشخصية للحسن أصبحت تشريعاً دينياً متبعاً عند المسلمين حتى اليوم.

مجاهد بن جَبْر

شيخ القرَّاء والمفسِّرين (كما ترجم له الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء) قال سفيان الثوريّ: خُذوا التفسيرَ مِن أربعة: مجاهد، وسعيد، بن جُبَيْر، وعِكْرمة، والضحَّاك.

وقال خُصَيْف: كان مجاهد أعلمَهُم بالتفسير. وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد. فمن أين أتى بتفسيره؟

قال أبو بكر بن عيَّاش: قلتُ للأعمش: ما بالهُم يتَّقُون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرَوْن أنهُ يسألُ أهلَ الكتاب.

قال ابن المَدينيّ: سمع مجاهدٌ من عائشة. ولكن هذا السماع لم يتأكد حيث ينقل الذهبي ما نصه: قال يحيى القطَّان: لمْ يسمَعْ منها. قلتُ (الذهبي): بلى قد سمع منها شيئاً يسيراً. وقال ابن خِراش: أحاديث مجاهد عن عليٍّ وعائشة، مراسيل.

قال ابن جُرَيْج: لأن أكونَ سمعتُ من مجاهد، فأقول: سمعتُ مجاهداً أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي. قلتُ(الذهبي): مع أنه قَلَّما سمع من مجاهد حرفَيْن.

يقول الذهبي: ولمجاهد أقوال وغرائب في العلم والتفسير تُسْتنكر. وبلغنا أنه ذهب إلى بابل، وطلبَ من متولِّيها أنْ يوقِفَهُ على هاروتَ وماروت. قال: فبعث معي يهودياً، حتى أتينا تنُّوراً في الأرض، فكشفَ لنا عنهما، فإذا بهما معلَّقان منكَّسان، فقلتُ: آمنت بالذي خلقكما؛ فاضطربا، فغُشِيَ عليَّ وعلى اليهودي؛ ثم أفقنا بعد حين، فلامني اليهودي وقال: كِدْتَ أن تُهلِكَنا.

وكان ممن يتخيل ظهور الجن له ويقص خياله على الناس، ومن ذلك: عن حُصَين، عن مجاهد: بينما أنا أصلي إذ قام مثلُ الغلام ذاتَ ليلة (يقصد جني)، فشددْتُ عليه لآخذه، فوثب فوقع خلف الحائط حتى سمعتُ وجبَته. ثم قال (أي

مجاهد لمن يحدثهم): إنهم (أي الجن) يهابُونكم كما تهابونهم من أجْلِ مُلكِ سليمان.

وينقل الذهبي عن مجاهد قوله: عرضْتُ القُرآن على ابن عباس ثلاث عَرضات، أَقِفُهُ عند كلِّ آية أسأله فيمَ نزلتْ وكيف كانت.

وبعد ذلك لم يعرف مجاهد عن الرعد إلا ما نقله عنه الذهبي بقوله: عن مجاهد، قال: الرَّعْدُ مَلَك يَزجُرُ السَّحابَ بِصوْتِه.

وقد مات مجاهد سنة مائة.

فإذا كانت هذه بعض أحوال شيخ الفقهاء وشيخ المفسرين، فما بالك بمن هو دونهما.

ويكون الإسلام بثوبه الذي هو عليه الآن نتاج فقه وتفسير وتحديث أولئك الناس الذين دخلوا الإسلام زمن «الفتوح» الأولى حاملين معهم ثقافاتهم السابقة، والتي وجدت طريقها للفقه والتفسير والحديث التي أسسوها. وأصبحت القاعدة التي ترتكز عليها تشريعات الإسلام كلها، وتوارت تشريعات القرآن وانزوت إلى الوراء، أمام زحف هذه العلوم الثلاثة المحدثة.

وأصبح كل من جاء بعد أولئك الرواد ودرس أقوالهم وحفظها ونقلها للناس، يصير قاضياً وفي نفس الوقت فقيهاً أو مفسراً أو الاثنين معاً، وخُلدت تلك الأقوال وأضحت هي الدين، ولذلك حرموا أن تنتقد تلك النصوص أو يحتكم فيها للعقل، ولكن تؤخذ كما هي، لأن الدين لم يعد قول الله، ولكنه أصبح أقوالهم وتشريعاتهم التي لا تستند إلى عقل.

كما أن تفسير الآيات لا يعني بالضرورة بيان معنى الآية الحقيقي، ولكنه يظهر رأي المفسر الشخصي وفهمه للآية، المتأثر بدرجة وعيه ومعرفته ووسطه الاجتماعي الذي يعيش فيه والأفكار التي يؤمن بها والتيار الفكري الذي يميل إليه، وبالتالي هو تأويل لما يريد المفسر، لمعنى الآية أن يكون عليه. وإلا فالقرآن يؤخذ على معناه الواضح ولا يحتاج إلى تأويل، وإذا ما صادف القارئ كلمة تعسر عليه فهمها فيمكنه البحث عن معنى تلك الكلمة وليس تفسير كل الآية التي تقع ضمنها الكلمة. فالقرآن يحتاج إلى بيان معنى الكلمات ولا يحتاج إلى تفسير: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (الزمر: ٢٧-٢٨).

ولأن فتاوى وتشريعات الفقهاء وتفسير المفسرين لا تجد ما يدعمها في كتاب الله، الذي تعرفوا إليه في وقت لاحق، فقد احتاجوا إلى ما يسند أقوالهم ويمكن أن يُلبّس ثوباً شرعياً، فوجدوا ضالتهم في ما سموه بالحديث أو السنة، والتي لم تكن معروفة زمن رسول الله ولا الصحابة الأربعة الأوائل. ولم يبدأ الناس بالتحديث إلا بعد عهد عثمان وعلى استحياء. ولم تكتب الأحاديث إلا بعد ١٥٠ سنة من موت الرسول في موطأ مالك، ولم يدون البخاري أشهر كتب الحديث إلا في منتصف القرن الثالث للهجرة، لتتالى بعده كتب الحديث بالظهور، كما سبق وذكر.

وتكون الأحاديث عبارة عن أخبار تناقلها رجال مختلفو الثقافات والميول والنوايا والإدراك والقدرات الذهنية، عبر أجيال متتابعة كل يقصها حسب المناسبة التي تذكر فيها وحسب درجة التأثير التي يريد الراوي أن يتركها لدى المستمع، ولذلك جاء الخبر الواحد بروايات كثيرة ومختلفة.

وأي إنسان اطّلع على مبادئ علم الاتصال يعرف أن تناقل النص شفهياً لا يبقيه على حاله لأنه يتعرض خلال تناقله من شخص إلى آخر للتغير متحولاً إلى نص مخالف لما كان عليه في الأصل، نتيجة للتأثيرات المحيطة للناقل والمتلقي وللحالة النفسية التي كانا عليها. كما تتأثر صياغة النص بالمناسبة التي قيل فيها وبعوامل كثيرة جداً.

ويمكن لأي شخص أن يقوم بتجربة عملية بسيطة لإثبات ما يطرأ على النص المتناقل من تغير، وذلك بأن يجتمع ما بين عشرة وخمسة عشر شخصاً ويقوم أحدهم بكتابة نص من عدة أسطر عن حادثة معينة ثم يطلب من آخر أن يغادر المكان، قبل أن يقوم الشخص الذي أعد النص بإبلاغه لأحد الأشخاص الموجودين عن طريق الهمس بحيث لا يسمعه غيره، ويطلب ممن سمع الخبر أن ينقله للشخص الذي يليه بنفس الطريقة حتى يتبلغ الجميع. بعد ذلك يطلب من الشخص الذي كان قد غادر المكان قبل بدء التجربة بالحضور، ويطلب من آخر من بلغه النص من الحاضرين أن يقوم بتبليغه للقادم الجديد، ثم يقوم القادم الجديد بكتابة ما سمعه. وبعد ذلك يقارن ما كتب مع النص الأصلي الذي يحتفظ به مكتوباً لدى الشخص الذي كتبه. وسيذهل المجتمعون بمدى الاختلاف الذي طرأ

على النص والذي بكل تأكيد سيكون كبيراً لدرجة قد تبعد النص المنقول عما كان عليه في الأصل. ومثل هذا حدث لكل الأخبار الظنية بما في ذلك المنسوبة إلى الرسول، من دون شك.

ومع أني لم أعرف هذه الحقيقة في الماضي، إلا أنني عرفت منذ وقت طويل أن هناك حديثاً ضعيفاً ومرسلاً ومنقطعاً وغريباً ومنكراً ومصطلحات كثيرة غيرها يمكن أن يجوز عليها مصطلح واحد يفهم منه أنها وبسهولة، مكذوبة على الرسول، ولكن من ابتدع هذه المصطلحات قد يكون تحرج من أن يلفظ الكذب مقترناً بالرسول صلى الله عليه وسلم، ورأى استخدام مصطلح آخر فيه احترام لذكر الرسول ويفي بالغرض.

كما ظننت أن الإبقاء على مثل هذه الأخبار التي اعترف ناقلوها ضمناً أنها لم تصدر عن الرسول قد جاء أيضاً من تحرج الناقل من أن يحذف خبراً قد يكون قد صدر من الرسول ولو بنسبة ضئيلة، فيكون قد عمل على إخفاء حق وكان شيطاناً أخرس.

شيء أخر يمكن ملاحظته في كتب الحديث وهو: لماذا كلما تقادم الزمن على عصر رسول الله كلما أضيفت أحاديث جديدة؟ مع أنه يفترض العكس. ولكي يكون كلامي واضحاً أقول بأن كتاب الموطأ الذي ألف في أول القرن الثاني للهجرة ورد فيه أحاديث أقل عدداً وتناولت مواضيع أقل من كتاب البخاري الذي ألف في منتصف القرن الثالث للهجرة أي بعد نحو مائة عام على تأليف مالك للموطأ، وورد في كتاب مسلم الذي جاء بعد البخاري، أحاديث في مواضيع لم يرد ذكرها في كتاب البخاري. وهكذا كلما تقادم الزمن وبعُد عن عصر الرسول، كلما ظهرت أحاديث تتحدث عن مواضيع جديدة في الكتب اللاحقة لم تكن موجودة في الكتب السابقة، مما جعل ما يسمى بكتب المجموعة الثانية من الحديث تبدو كمجلدات ضخمة مقارنة بكتب الحديث الأولى.

والأهم من ذلك أن هناك أموراً كانت تعتبر بدعة منكرة في كتب الإخباريين السابقين، فتحولت في كتب اللاحقين إلى فضيلة من الفضائل الدينية، ومن ذلك ما ورد في الموطأ عن صيام ست من شوال: قَالَ يَحْيَى: وَسَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ فِي صِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ إِنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَداً مِن أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ يَصُومُهَا

وَلَمْ يَبْلُغْنِي ذلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ وَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ ذلِكَ وَيَخَافُونَ بِدْعَتَهُ وَأَنْ يُلْحِقَ بِرَمَضَانَ مَا لَيْسَ مِنْهُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ لَوْ رَأَوْا فِي ذلِكَ رُخْصَةً عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَرَأَوْهُمْ يَعْمَلُونَ ذلِكَ (الموطأ: ٦٩٣).

ولكن هذه البدعة أصبحت في عصور لاحقة من أكثر القرب إلى الله وصيامها مع رمضان يعدل صيام الدهر كله: حدّثنا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وعَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ. جَمِيعاً عَنْ إسماعيل. قَالَ ابن أَيُّوبَ: حَدَّثَنَا إسماعيل بْنُ جَعْفَرٍ. أَخْبَرَنِي سَعْدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الْخَزْرَجِيِّ عَنْ أَبي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللّهُ عنه أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوَّالٍ. كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ (مسلم: ٢٧١١).

وهناك أقوال وحكم جاهلية نسبت إلى الرسول على أنها أحاديث يعمل بها كتشريعات دينية، ومن ذلك على سبيل المثال: حدَّثَنا عثمانُ بنُ أبي شيبةَ حدَّثَنا هُشيمٌ أخبرَنا عُبَيدُاللهِ بنُ أبي بكرِ بنِ أنسٍ وحُمَيدٌ الطويل سمِعا أنسَ بنَ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: انصُرْ أخاكَ ظالماً أو مَظلوماً (البخاري: ٢٤٠٠).

وأول من قال انصر أخالك ظالماً أو مظلوماً في الجاهلية هو جندب بن العنبر بن عمرو التيمي، وقد يكون جندب قاله لأنه سمع قول الشاعر:

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم   على القوم لم أنصر أخي وهو يظلم

ومثل ذلك: زر غباً تزدد حباً الذي كان أول من قاله في الجاهلية هو معاذ بن حزم الخزاعي، ووجد طريقه لكتب الحديث.

ومثله الولد للفراش وللعاهر الحجر (بسكون الجيم وليس فتحها) وأول من قاله، في الجاهلية، أكثم بن صيفي، حسبما ورد في الأوائل، لأبي هلال العسكري.

ولو أن كتب الأخبار قالت بأن الرسول قد تمثل في هذه الأقوال فلا بأس، ولكنهم يصرون على أن الرسول قد قالها كتشريع ديني وليس اقتباساً. ومن تلك الأخبار ما ورد في البخاري، وهذا نصه: حدّثنا يحيى بنُ قَزَعةَ حدَّثَنا مالكٌ عنِ ابن شهابٍ عن عُروَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالتْ: كانَ عُتْبةُ بنُ أبي

وَقّاصٍ عَهِدَ إلى أخيهِ سَعدِ بن أبي وَقّاصٍ أنَّ ابن وَليدةِ زَمْعةَ مِنِّي فاقبِضْهُ. قالت: فلما كان عام الفَتْحِ أخَذَهُ سعدُ بنُ أبي وَقّاصٍ وقال: ابن أخي، قد عَهِدَ إليَّ فيهِ. فقامَ عَبدُ بنُ زَمْعةَ فقال: أخي، ابن وَليدةِ أبي وُلِدَ على فِراشهِ. فتساوَقا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال سعدٌ: يارسولَ الله، ابن أخي، كان قد عَهِد إليَّ فيه. فقال عبدُ بنُ زَمْعةَ: أخي وابن وَليدةِ أبي، وُلِدَ على فِراشهِ. فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: هوَ لكَ ياعبدُ بنَ زَمْعة. ثم قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: الوَلدُ للفِراشِ وللعاهِرِ الحَجَرُ. ثم قال لِسَودةَ بنتِ زَمعةَ زَوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: احتَجِبي منه، لما رأى مِن شَبَهِهِ بعُتبةَ، فما رآها حتّى لَقِيَ الله (البخاري: ٢٠٢٩).

ولو ثبت أن الرسول قد قال وللعاهر الحجر (بفتح الجيم) أي الرجم، لوجب أن ترجم أم الولد المختلف عليه، وبما أنها لم ترجم، وهذا ما أكده الواقع والتاريخ، فهذا يدل على أن استشهاد الرسول بالقول الجاهلي، إن كان قد ثبت عنه، قد جرى عليه بعض التغيير، بحيث حُرك حرف الجيم الساكن في كلمة «الحجر» فتحولت من معنى الحبس إلى الرجم، ولم يستطع من فعل ذلك أن يضيف في الحديث ما يدل على أن المرأة قد رجمت، لأنه لو فعل فسيكذبه التاريخ.

وتمتلئ كتب الحديث بأقوال منقولة بالمعنى أو بالنص من كتب اليهود والنصارى، خاصة فيما يتعلق بالأحاديث التي تتحدث عن خلق الإنسان والكون والقصص القرآنية التي ذكرت في كتب اليهود أيضاً (وقد أوردنا أمثلة على ذلك في الباب الأول ـ الدين).

كما تمتلئ كتب الحديث بنصوص مستقاة من الديانات الأخرى، ومن الأساطير والخرافات، وبنصوص تخالف العقل والحقائق العلمية الثابتة. ولكي نكتفي بما قل ودل من الكلام، سنتدبر الآيات القرآنية في الأسطر القادمة، لنرى ما الذي قاله القرآن عما يسمى بالحديث، وهل هناك أي دليل قرآني يقول بأنه يجب الأخذ بما نسب إلى الرسول من كلام (أحاديث) كتشريع ديني، أم أن الدين لله وحده ويعتمد على كلام الله المنزل كقرآن دون غيره.

الحديث في القرآن الكريم

لقد استدل الفقهاء على أن الأقوال المنسوبة إلى الرسول (الأحاديث) يعتمد عليها في التشريع، بجزء من آية هي قوله تعالى: . . .وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا. . . وبآية هي قوله تعالى: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (النجم:٣).

وكل ما علينا فعله هو الرجوع إلى الآيتين والتأكد من معناهما، وهل هو فعلاً ما يقول به الإخباريون، من أن المقصود بما أتاكم الرسول فخذوه هو الأخبار المنسوبة إليه صلى الله عليه وسلم والتي سميت بالأحاديث القولية، وأن معنى ما ينطق عن الهوى هو كل كلام ينطق به الرسول حتى ولو كان كلامه العادي أو أي كلام غير القرآن. أم أن معنى الآيتين مخالف لما يحاول رجال الدين إقناع الناس به، وبالتالي فهو تأكيد على أن الحديث حتى وإن ثبت عن الرسول فليس مصدراً للتشريع كما يظن الفقهاء.

ونبدأ باسم الله قائلين: لقد جاء قول الله تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا، كجزء من الآية السابعة من سورة الحشر وكمال الآية هو: مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الحشر:٧).

ومن الواضح أن الآية تتحدث عن تقسيم لفيء (غنائم حرب) وليس عن أمر الناس بالأخذ بما ينسب إلى الرسول من (أحاديث)، وهذه الآية جاءت ضمن آيات نزلت فيما حدث لقبيلة من قبائل يهود يثرب، ويتضح ذلك لو بدأنا القراءة من الآية الثانية، يقول الله تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعتبروا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ. وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فإن اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ. وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَّا أَفَاء اللَّهُ

عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الحشر: ٢-٧).

وقد أخرج اليهود من حصونهم وأجلوا من المدينة لأنهم كما روت الآية: شاقوا الله ورسوله، أي نقضوا العهد المبرم مع المسلمين. وعندما قسم الرسول الغنائم بين المسلمين وجد بعضهم في نفسه شيئاً من القسمة، فنزلت الآيات تظهر كيف تكون القسمة ومن له حق بها، على النحو التالي: لله (أي نفقات دولة الإسلام) وللرسول (نفقاته الخاصة) ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وذلك لسبب وجيه وهو: كي لا يكون دولة بين الأغنياء، أي حتى لا تكون دولة الإسلام ويكون الرسول وبقية من ذكر تحت رحمة الأغنياء ومنتهم في العطاء. وتابعت الآية تحدث الصحابة بضرورة أن يقبلوا بما آتاهم الرسول من الفيء، وما نهاكم عنه من الفيء، فانتهوا عن المطالبة به لأنه لا يحق لكم أكثر مما قسم لكم الرسول.

أما الاستدلال الآخر فهو قوله تعالى: وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. ويقول الفقهاء والمفسرون أنها تعني أن كل ما ينطق به الرسول من كلامه العادي فهو من الدين، ليدللوا على أن ما أطلقوا عليها الأحاديث مشابهة للقرآن الذي لا ينطقه الرسول من عند نفسه وعلى هواه، ولكنه وحي يوحى.

والآية المذكورة وردت في سورة النجم وجاءت ضمن آيات نزلت على محمد لتخاطب كفار قريش في بدايات الوحي. والآية وما نزل معها من آيات تتحدث عن القرآن بالتحديد، ولا شيء آخر مع القرآن: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى.

مخاطبة قريش بأن محمداً ليس كما اتهمتموه بأنه يقول ما لا يعقل، وأن ما يخاطبكم به ما هو إلا وحي من الله وليس كلامه الشخصي. وهذا المعنى يستدل منه على أن هناك وحياً يستخدمه الرسول لنشر الدعوة، وهو القرآن، وهذا القرآن ليس من كلام محمد العادي، وهو الذي لا يمكن أن ينطق به محمد عن الهوى. وهناك كلام محمد العادي الذي لا يستخدم لنشر الدعوة، والذي قد يعتريه ما قد يعتري كلام البشر.

ويكون الاستدلال بقوله تعالى: وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقوله تعالى: وما ينطق عن الهوى، ليس له علاقة بتناقل أخبار الرسول وكلامه، بغير القرآن، أو اعتبار ما سمي بالحديث جزءً من دين الله.

وهذه براهين أخرى تؤيد أنه لا يمكن أن يكون الحديث من الدين حتى لو ثبتت نسبته إلى الرسول.

روى ابن هشام في سيرته(١) أن عتبة بن ربيعة أحد سادة قريش قد جاء إلى الرسول في بداية دعوته وقال له: اسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال (الراوي) فقال رسول الله: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رؤياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

وهذا العرض الذي قدمه عتبة للرسول كان جوابه المنتظر هو نفي ما نسب إليه بعبارات شخصية، وإبلاغه بأنه سيستمر في دعوته لأنه رسول الله، مع إمكانية الاستشهاد بآيات قرآنية على ما يقول. ولكن الرسول أجاب قائلاً: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم. قال فاسمع مني، وابتدر يتلو: بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاستغفروهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا

---

(١) فصل عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم ج١ ص٢٦١.

أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم. فإن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَأَمَّا عَادٌ فَاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّام نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ. وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأصبحتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ. فإن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ. وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ. فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أنفسكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيم. وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلاَ تَسْتَوِي

الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيم. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فإن استكبروا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ (فصلت: ١- ٣٨).

ثم التفت الرسول إلى عتبة قائلاً: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

ولم يستخدم الرسول أي عبارة شخصية له للرد على عتبة بن ربيعة، ولم يستخدم عباراته الشخصية ليبلغه أنه بصدد قراءة بعض الآيات القرآنية. بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار السورة التي تبدأ آياتها بالتأكيد على أن الدعوة لدين الله تكون بكلام الله وحده ـ القرآن ـ دون غيره من أي كلام آخر» تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ...».

ولو قال قائل بأن هذا حدث في بداية الدعوة وأن الرسول كان يستخدم عباراته الشخصية (الحديث) بعد ذلك، فنقول إن هذا لم يحدث، والدليل أن الرسول سُئل في المدينة عن موضوع التثليث، فلم يجب الرسول بحديث من عنده بأن الله واحد أحد، بل انتظر حتى نزل عليه الوحي قائلاً: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأنفسنَا وأنفسكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الكاذبين. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فإن تَوَلَّوْاْ فإن اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (المائدة: ١٠١)[١].

مع أن الرسول سبق ونزلت عليه سورة الإخلاص التي تنفي عن الله أن يكون له ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وكان بإمكان الرسول أن يقرأها

(١) انظر على سبيل المثال تفسير الآية في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم. قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

ولكنه لم يفعل لأن سورة الإخلاص قد نزلت عليه وهو في مكة، لمخاطبة كفار مكة، وخشي صلوات الله وسلامه عليه أن الله سيخاطب أهل يثرب بخلاف ما خاطب به غيرهم، فانتظر حتى نزلت عليه الآية (١٠١) من سورة المائدة السابقة.

ومثل هذا الموقف ما حدث عندما سألت قريش الرسول عن الساعة فلم يجب لأنه لم يكن يملك الجواب، حتى نزلت عليه الآيات التالية: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا. إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا (النازعات: ٤٢-٤٦) فتلاها عليهم.

ولما هاجر الرسول إلى المدينة سألته اليهود عن الساعة أيضاً، فلم يستطع الرسول أن يخبرهم أن أمرها عند الله بعبارته الشخصية لأنه سبق ونزلت عليه آيات النازعات، كما لم يجبهم بتلاوة آيات النازعات، لأنه خشي أن جواب الله عن سؤال اليهود قد يكون مختلفاً عن جواب قريش، فسكت ولم يجب حتى نزلت عليه آيات الأحزاب: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (الأحزاب: ٦٣)

وقد نص القرآن صراحة على أن أي سؤال من الناس للرسول لم ينزل به قرآن، لا يملك الرسول أن يجيبهم عليه باستخدام ألفاظه الشخصية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة: ١٠١).

فإن أصر الناس على السؤال عما سكت عنه القرآن ونزلت الآيات بالإجابة فسيصبح تشريعاً يجب على الناس العمل به: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أصبحواْ بِهَا كَافِرِينَ (المائدة: ١٠٢).

ولو كان ما اصطلح على تسميته بحديث رسول الله اللفظي كافياً للتشريع وجزء من الدين، لما نصت الآية على أن التشريع لا يكون إلا بالقرآن: وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ.

ولما كان هناك داع لانتظار الرسول للوحي القرآني، ولأجاب عليه الصلاة

والسلام على كل سؤال يطرح عليه، ولأصبح الرسول بوضع مشابه لرجال الدين في زماننا الذين لا يتحرجون في الإجابة عن أي سؤال يوجه إليهم، وكأن أحدهم يعلم كل ما لا يُعلم.

وكل من يقرأ القرآن سيجد أنه يخلو من أي إشارة ولو بطريقة غير مباشرة إلى إمكانية أن يستخدم الرسول عباراته الشخصية للتبليغ أو مناقشة الكفار، وفي المقابل هناك آيات كثيرة جداً وفي كل جزء من أجزاء القرآن الثلاثين، تحمل أوامر صريحة من الله جل وعلا لمحمد بأن يكون تبليغ الدعوة بالقرآن: قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أخرى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (الأنعام: ١٩).

وبالقرآن وحده: وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (بني إسرائيل: ٤٦).

وأكد الله سبحانه ذلك بقوله: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (ق: ٤٥).

وجاء التأكيد على ذلك مراراً وتكراراً: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (النمل: ٩١-٩٢).

ولو كان كلام الرسول بما يعرفه من الدين بالضرورة جزءاً من الدين لما تردد في استخدامه في دعوة الناس ومناقشة من لم يؤمن منهم، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان واسطة بين الخالق وبين خلقه من الناس، وبعد ذلك ليس له من الأمر شيء: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أو يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (آل عمران: ١٢٨).

ولا يستطيع كتم بعض الوحي المنزل عليه، كما لا يستطيع الزيادة عليه بكلام من عنده: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧).

ويكون كل ما يتلوه من القرآن فهو الدين وكل ما يتفوه به الرسول بغير القرآن فليس من الدين حتى لو ثبت نسبته إليه.

والتبليغ بما يوحى للرسول فقط دون كلامه العادي ليس خاصاً بمحمد، ولكن الرسل كلهم مطلوب منهم توصيل ما ينزل عليهم من الوحي إلى الناس من دون أن يكون لهم رأي فيما يدعون إليه: لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء: ٢٧).

والإسلام مثل كل الرسالات السابقة، التي كان كلام الله المنزل على الرسول يمثل الدين وتتم به دعوة الناس وحده دون ألفاظ الرسول الشخصية: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الأنعام: ١٥٤-١٥٥).

وليس هناك أي حديث أو كلام يمكن مقارنته بالتوراة والقرآن حتى لو كان صادراً عن موسى أو محمد: فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (القصص: ٤٩).

ولو تجرأ أي رسول من الرسل بالقول بغير الوحي فكأنما ادعى ديناً من عنده وأصبح مشرعاً من دون الله: وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (الأنبياء: ٢٩).

فكان محمد صلى الله عليه وسلم ينذر الناس ويبشرهم بتلاوة القرآن فقط: وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام: ٩٢).

ولهذا تكرر قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» أربع مرات في سورة القمر وحدها، والبالغ عدد آياتها خمساً وخمسين آية، للتأكيد على أن تبليغ دين الله يتم بواسطة كتابه وحده.

لأن القرآن كلام الحق سبحانه وتعالى نزل بالحق، وهو شرع الله الذي اختاره للناس شرعاً كاملاً: وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً. قُلْ آمِنُواْ بِهِ أو لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (بني إسرائيل: ١٠٥-١٠٩).

وبعد أن يستمع الناس لآيات القرآن فلهم أن يقرروا بأنفسهم موقفهم من دين الله: وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (الأنعام: ١١٣).

ولو كان الشرع يتكون من القرآن ومن غيره من نصوص بشرية قابلة للزيادة والنقص والحذف والتغيير، فلا بد أن يختلط الحق بالباطل، ولكن الاقتصار على القرآن يحميه من ذلك الخلط: لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِه. تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت: ٤١-٤٢).

ولم يعترض كفار قريش ويهود المدينة ومسيحيو نجران على كلام الرسول بغير القرآن، ولكن اعتراضهم على ما يتلوه عليهم من كلام الله: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: ١٥) وكلام الله يختلف عن كلام البشر: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (يس: ٦٩).

حتى ولو كان اعتراضهم للمجادلة فقط: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (الفرقان: ٣٢) ولذا لم يطلبوا من الرسول أن يقول لهم كل ما يريد قوله مرة واحدة مثلما طلبوا أن ينزل القرآن جملة واحدة.

وعادة ما يتهم الناس الرسول بأنه قد اختلق آيات القرآن من عنده: تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (السجدة: ٢-٣) ولو كان حديث الرسول العادي من التشريع لاتهموه بأن كل ما يتفوه به مختلق ولم يفرقوا بين ما يتلوه عليهم من القرآن وبين كلامه هو.

ولذلك جاء التحدي بأن يأتي الناس بمثل القرآن وما يحمله من تشريعات: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (هود: ١٣) ولو كان بعض كلام الرسول ديناً يرويه عن ربه مثل القرآن، ولكن بالمعنى، لجاء تحدي الناس بأن يأتوا بمثل آيات القرآن، وبمثل ما ورد من حديث رسول الله.

لهذا كان الإيمان يقاس بقبول الناس لما ورد في القرآن: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (الفرقان: ٥٠) كما أن الكفر يقاس بإعراض الناس عما ورد في القرآن وليس عن كل ما يقوله الرسول: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم (لقمان: ٧).

وجاءت أول آيات نزلت على محمد لتأمره بترديد ما ينسخ في ذاكرته من الوحي: بسم الله الرحمن الرحيم. اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسان مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق: ١-٥) فاقرأ هنا تعني الأمر بالتلاوة وليس الأمر بالقراءة لأن الرسول أمي أولاً، ولأنه لم يكن أمامه ما يقرأه لو لم يكن أمياً، ولأن الوحي ينسخ في ذاكرته فيردد الرسول ما ينسخ فيها، حيث يمكن للمرء تلاوة ما تحتفظ به الذاكرة ولكن لا يمكنه قراءته.

ولهذا كان الرسول في بداية الوحي، يسارع بترديد ما يسجل في ذاكرته حال نزول الوحي عليه خوفاً من نسيانه، فطمأنه الله بأنه لن ينساه لأنه حفر في الذاكرة بعلم الله بطريقة لا يمكن نسيانها: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (القيامة: ١٦-١٧).

وكل ما على الرسول هو تلاوته على الناس بعد أن يُقرأ عليه، أي بعد أن ينسخ في ذاكرته، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القيامة: ١٨).

وقد تكفل الله بصياغته بصورة تجعل فهمه سهلاً على الناس: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة: ١٩) فليس على الرسول تفسيره أو تأويله، ولن يسأل لو حرف الناس معاني آياته بعد سماعه عمداً لخدمة مصالح شخصية أو جهلاً وبغير قصد.

فاستمر الرسول يستخدم في دعوته تلاوة الآيات القرآنية، بناءً لأمر الله: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (ق: ٤٥).

ولأن الله الذي خلق الناس ويعلم ما يناسبهم من تشريع، فقد أنزل لهم قرآناً لا يحتاج إلى زيادة ولا نقص: اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (الشورى: ١٧) فالحق تعني التشريع المناسب نوعاً والميزان تعني المناسب كماً.

فالقرآن كامل وفيه كل ما يحتاج الناس من تشريع لأن تشريع الله له الكمال المطلق: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (الروم:٥٨).

وجاء القرآن بتفاصيل دقيقة لا تحتاج إلى أي إيضاح ولو من الرسول نفسه: أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (الأنعام:١١٤) وفيه كل ما يحتاجه الناس: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْفآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (الزمر:٢٧).

وتشريعات الله لا تحتاج إلى شرح ولا إيضاح: وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف:٥٢).

وقد نزل بالوحي رسول كريم من الملائكة على محمد، لضمان أنه بقي على حاله التي أرادها الله عليها دون أن يتعرض للعبث أو التغيير: فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (الحاقة:٣٨-٤٣).

فهل سيحتاج مثل هذا القرآن شرحاً أو بياناً أو إضافة من أحد من البشر حتى ولو كان من محمد نفسه، الذي حذره الله من أن يستخدم للدعوة غير القرآن: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (الحاقة:٤٤-٤٧).

فكان القرآن أحسن الحديث وأكمله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الزمر:٢٣).

وقد صيغت آياته بلغة عربية بينة واضحة يفهمها الإنسان العادي: حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (فصلت:١-٤).

وحتى لا يكون للناس حجة على الله أن يقولوا بأن كلمات القرآن صعبة الفهم وتحتاج إلى قدرات خاصة لتفسيرها ومعرفة معانيها، جاءت صياغة جمله بأسلوب

سهل الفهم: قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (الزمر: ٢٨) فعوج هنا تعني غير مفهوم.

وقد أقسم الله سبحانه بقسم عظيم، في المقياس الإلهي، ليؤكد على عظمة وشمولية القرآن: فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (الواقعة: ٧٥-٨٠) فإذا كان القرآن بهذه العظمة، فهل يحتاج إلى ما يكمله من كلام البشر، وكأن الله لا يستطيع أن يوصل الدعوة إلى أذهان الناس الذين هم مخلوقاته بكلامه وحده.

وكلام الله وحده هو الحق واليقين المطلق: وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (فاطر: ٣١) وما عداه من كلام بشري لا يتجاوز الظن بأفضل حالاته: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (يونس: ٣٥-٣٦).

ولا يمكن تخيل قوة وقدرة كلام الله، التي تسير الجبال وتقطع الأرض: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أو تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (الرعد: ٣١).

بل إن قوة آيات القرآن تدك الجبال: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر: ٢١).

وقرآنٌ بهذه الصفة من القوة لا يعقل أن يكون غير قادر وحده لتمثيل دين الله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت: ٤١-٤٢).

وبما أن القرآن واضح وكامل وسهل للفهم، فلم يحتج الناس على صعوبة عبارات القرآن أو قصور تشريعاته ولكن احتجاج الناس جاء على تلك التشريعات

التي تضمنها القرآن: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (فصلت: ٢٦).

ولم يؤمنوا بالرسول وهم يعلمون أن ما يتلوه عليهم يختلف عن حديثه الشخصي، لأن له مفعولاً سحرياً في النفس: فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (المدثر: ٢٤) وقال بعضهم إنه لا يمكن أن يكون كلامه الشخصي بل تعلمه من شخص آخر: إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (المدثر: ٢٥) وهذا البشر متفوق في صياغة العبارات وحبكها فلا بد أنه شاعر: وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (الحاقة: ٤١) أو أنه كاهن، لأنه يحوي تشريعات لم يعرفها الناس من قبل: وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (الحاقة: ٤٢) واعتقد آخرون بأن معلمه شيطان: وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (التكوير: ٢٥).

ولكنهم لم يؤمنوا بأن مصدره هو السماء. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (الحاقة: ٤٣) وأن الرسول مهمته كانت فقط توصيل رسالة ربه للناس: قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف: ١٨٨).

وكون الرسول مجرد ناقل فهذا لا يعيبه بل هو تشريف إلهي له بأن تم اختياره لتوصيل الرسالة التي يريد الله سبحانه للناس، وقد قام بذلك بكل أمانة دون أن ينتظر أي مكاسب مادية أو معنوية: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (الطور: ٤٠).

فكان سلاح محمد الذي استخدمه لنشر دين الله هو كلام الله، وإذا لم يؤمن الناس بكلام الله فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون: بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِين. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (الجاثية: ١-٦).

ولا بد من التوقف قليلاً هنا لنذكر أن رجال الدين يروجون إلى أن الحديث نصف الدين زاعمين أنه يشرح القرآن ويمثلون على ذلك وباستمرار على أنه لولا

الحديث لما عرفنا كيف نصلي ولا كيف نحج. وهذا الكلام فيه مغالطة قد لا يفطن لها الشخص العادي، وهي أن رجال الدين يعلمون أن ما تواتر عن الرسول القيام به من عبادات عملية يختلف عما تعارف عليه الناس بكونه الحديث، والمتمثل في أقوال تناقلها الناس شفهياً ونسبت إلى الرسول بطرق ظنية يجوز عليها الكذب. وأن اقتداءنا بالرسول في الصلوات المفروضة لم يصلنا بنفس الطريقة التي وصلتنا فيه الأحاديث القولية المنسوبة إلى الرسول.

فالرسول داوم على إمامة الناس، عملياً، في الصلوات المفروضة أكثر من عشرين سنة دون اختلاف وبالصورة نفسها يومياً، مع ترديد العبارات نفسها في كل وقوف وركوع وجلوس وسجود وتشهد، ثم داوم الناس على مزاولة الصلوات نفسها وعباراتها على مدى خمسة عشر قرناً الماضية وسيبقون على ذلك ما بقي مسلم على وجه الأرض.

بينما الأحاديث القولية رواها شخص عن آخر في سلسلة طويلة من الرواة، تصل ما بين الرسول ومؤلف كتاب الحديث في القرن الثالث الهجري، وليس هناك طريقة واحدة يتأكد بموجبها البخاري، مثلاً، من أن حديثاً واحداً قد قاله الرسول فعلاً، وكل ما يمكن للبخاري أن يتأكد منه هو معرفته الشخصية بمن سمع منه الحديث، وقد يكون راوي الحديث للبخاري يعرف ويثق بمن سمعه منه، ولكن لا سبيل للبخاري أن يخمن ما إذا كان الراوي الرابع في سلسلة رواة الحديث البالغين عشرة، قد سمع من الراوي الثالث أو أن الثالث قد سمع من الثاني أو أن الأول قد سمع من الرسول وأسمع الراوي الثاني. ثم لو افترضنا وحدث المستحيل، وتأكد سماع كل راو ممن قبله وصولاً إلى رسول الله، فسيستحيل أن ينقل كل راو ما سمعه ممن قبله بنصه دون إنقاص أو زيادة أو تغيير أو تبديل، وقد سبق وأشرنا إلى ما يقوله علم الاتصال حول النقل الشفهي، وأن الإنسان يتشتت انتباهه بسهولة متأثراً بما حوله من مؤثرات متنوعة، وبالتالي يستحيل علمياً أن ينصت لمحدثه بصورة كاملة ١٠٠٪ ولا يمكنه أن ينقل الحديث الذي سمعه بالصورة نفسها. وأعلى نسبة يمكن أن يتقنها الشخص هي نقل ٨٠٪ مما سمعه، كما يؤكد علماء الاتصال. فإذا كان هناك حديث تم تناقله مشافهة بين خمسة رواة قبل أن يكتب، فإن نسبة بقائه على حاله بين الراوي الأول والثاني ستكون ٨٠٪ ثم بين الثاني

والثالث ستكون ٨٠٪ من نص الحديث الجديد، أو ٦٤٪ من أصل نص الحديث الأصلي. ثم تصبح النسبة ٥١٪ من أصل الحديث هو ما سيصل إلى ذهن الراوي الرابع، وكل ما سيصل إلى الراوي الخامس سيكون ٤١٪ من أصل الحديث الذي تحدث به الراوي الأول، أو ٨٠٪ مما تحدث به الراوي الرابع، والذي كان ٥١٪ من أصل الحديث الأول. وللعلم ليس هناك حديث واحد كتبه البخاري أو غيره من كتبة الحديث بعده، اعتمد على خمسة رواة فقط بين البخاري والرسول، بل إن بعض الأحاديث قد زادت فيه سلسلة الرواة عن عشرة، وهذا طبيعي لأن بين البخاري والرسول قرابة (٢٥٠) سنة، فإذا كان الجيل (٢٥) أو (٣٠) سنة فإن هناك (٨ ـ ١٠) أجيال على الأقل. ويكون كتبة الحديث قد وصلتهم صور مشوشة ولا تتطابق مع أصل الحديث الذي نطق به الرسول، هذا إذا صحت نسبة الحديث إلى الرسول أصلاً.

وهذه الطريقة من النقل لا يمكن أن تتناسب مع نقل دين الله وتشريعه، الذي يجب أن يصل إلى الناس كما نزل من الله من دون اختلاف ولو بحرف واحد، ولذلك حرص الرسول أن يكتب القرآن وترتب آياته في مواقعها في كل سورة. وتأكيداً لحرصه على عدم خلط الوحي بغيره، نهى الرسول وبشدة عن كتابة غير القرآن في خبر نسب إليه ويعتقد كثير من أصحاب الحديث أنه من الأخبار القليلة المتواتره، وهذا نص الخبر: أخبرنا يزيدُ بنُ هارونَ، أنا هشامٌ عنْ زيدِ بنِ أسْلَمَ عن عطاءِ بنِ يسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قالَ: لاَ تَكْتُبوا عني شيئاً إلاَّ القرآنَ، فَمَنْ كَتَبَ عنِّي شيئاً غَيْرَ القرآنِ فَلْيَمْحُهُ (الدارمي: ٤٥٥).

وحتى لو لم يكن ذلك الخبر صحيحاً، فمن المؤكد أن الناس لم يتناقلوا ما سمي بالحديث زمن الرسول ولا زمن الخلفاء الأربعة، أي حتى السنة الأربعين من الهجرة. ولو عاش أحدنا في تلك الفترة فقد لا يسمع بحديث لفظي واحد ينسب إلى الرسول طوال حياته.

وكان أبو بكر شديد الحرص على أن لا يؤخذ بالتحديث عن الرسول، ولم يأخذ هو بذلك إلا مرة واحدة، وبطريقة اعتقد أنه قد أبرأ ذمته وأوكل مغبة ثبوت ذلك للرسول من عدمه إلى شهادة الشاهدين. وهذا ما حدث بناءً على ما رواه

الترمذي في الحديث رقم (٢١٢٠)، وهذا نصه: حدَّثنا الأَنْصَارِيُّ، حدثنا مَعْنٌ، حدثنا مَالِكٌ عن ابن شِهَابٍ عن عُثْمَانَ بنِ إسحاق بن خَرْشَةَ عن قَبِيصَةَ بنِ ذُؤَيْبٍ قالَ: جَاءَتْ الْجَدَّةُ إلى أبي بَكْرٍ فَسَأَلَتْهُ مِيْرَاثَهَا، قَالَ لَهَا: مَا لَكِ في كِتَابِ الله شَيْءٌ، وَمَا لَكِ في سُنَّةِ رَسُولِ الله شَيْءٌ فَارجِعِي حتى أَسْأَلَ النَّاسَ، فَسَأَلَ النَّاسَ، فَقَالَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ: حَضَرْتُ رَسُولَ الله أَعْطَاهَا السُّدُسَ، فَقَالَ هَلْ مَعَكِ غَيْرُكِ؟ فَقَامَ محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَأَنْفَذَهُ لَهَا أبو بَكْرٍ. قالَ: ثُمَّ جَاءَتْ الجَدَّةُ الأخرى إلى عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ فَسَأَلَتْهُ مِيرَاثَهَا، فَقَالَ: مَا لَكِ في كِتَابِ الله شَيْءٌ وَلَكِنْ هُوَ ذَلِكِ السُّدُسَ، فإن اجتمعتُمَا فِيهِ فَهُوَ بَيْنَكُمَا، وَأَيَّتُكُمَا خَلَتْ بِهِ فَهُوَ لَهَا. انتهى.

وهذه الحادثة قد لا تكون حصلت لأبي بكر، ولكنها نسبت إليه، لأنه لم يكن يسمح بالتحديث عن الرسول، وقد جاء في ترجمة أبي بكر في تذكرة الحفاظ للذهبي قوله: ومن مراسيل ابن أبي مليكة، أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه. انتهى.

ولذلك لم ينسب إلى أبي بكر في البخاري سوى ٢٢ حديثاً، وحديث واحد في مسلم، وواحد في أبي داوود، وستة أحاديث في الترمذي. ولو كان التحديث عن الرسول جزءاً من الدين لكان أكثر من يروي الحديث عن الرسول هو أبو بكر. فهو صديق رسول الله منذ الصبا وأول من أسلم وأكثر الصحابة ملازمة له، إضافة إلى أنه كان يُعرف بـ«نسابة العرب» لأنه يحفظ أنساب قبائل العرب كلها، وبالتالي يمكنه حفظ كلام الرسول.

أما عمر بن الخطاب فقد ضرب عدداً من المحدثين ومنعهم من التحديث عن رسول الله ومنع القصاص[1] من القصص على الناس. ومن أراد التأكد من ذلك فعليه مراجعة كتب كتاريخ الطبري والبداية والنهاية وتذكرة الحفاظ للذهبي

(١) هم من يعقدون المجالس للوعظ عن طريق سرد القصص عن الأمم السابقة ويوردون أخباراً ينسبونها للرسول، ويسمون بالوعاظ أو المحدثين.

وغيرها، حتى يتأكد القارئ بنفسه عمن ذكروا بالاسم ممن روي أن عمر ضربهم أو سجنهم أو هددهم بالطرد من المدينة لو حدثوا عن الرسول.

ومن ذلك ما روى شعبة وغيره، عن بيان، عن الشعبي، عن قرظة بن كعب قال: لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم تكرمة لنا. قال: ومع ذلك إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن واقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم[1].

فيكون من الصعب تصديق ما روي عن عمر أنه أراد كتابة الحديث ثم استخار الله ولم يفعل، وقد لا يكون فكر بذلك أصلاً، إذ كيف ينهى الناس عن التحديث ثم يفكر هو بكتابة ما نهى عنه.

وكل ما نسب إلى عمر من الأحاديث ذكر ابن حزم في الملل والنحل أن ما صح منها عنه لا يزيد على الخمسين، وقد لا يكون عمر قد رواها بالفعل، أو قد يكون تحدث بها كأي خبر ولم يقصد بروايتها أن يعمل بها كشرع من شرع الله أو ينسبها إلى الرسول كأحاديث.

كما أن موقف عثمان وعلي من التحديث كان مشابهاً لموقف من سبقهما. فليس في البخاري سوى تسعة أحاديث منسوبة إلى عثمان، ونسب إلى علي في البخاري ومسلم ما يقرب من عشرين حديثاً فقط.

وجل كبار الصحابة لم ينسب إليهم أحاديث كثيرة، فلا يوجد حديث واحد في البخاري أو مسلم ينسب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ولا لعتبة بن غزوان ولا لأبي كبشة مع أنه مولى رسول الله. بل إن بعضهم لم ينسب إليه ولا حديث واحد في أي كتاب، سواءً صحت النسبة إليه أم لا، مثل سعيد بن زيد بن نفيل. ويمكن للقارئ مراجعة كتب مثل الإصابة في تمييز الصحابة، وأسد الغابة، والطبقات الكبرى لابن سعد للتعرف على العديد من كبار الصحابة الذين لهم شرف السبق في الإسلام ومع ذلك لم يرو عنهم الكثير من الأحاديث.

---

(١) جاء ذلك في ترجمة عمر ابن الخطاب/ تذكرة الحفاظ للذهبي.

أول من قال بأن الحديث مصدر للتشريع

محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤) للهجرة، كان أول من اعتبر الأخبار المنسوبة إلى الرسول المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن، فهو، وليس الله ولا رسوله، الذي قال بأن مصادر التشريع الإسلامي أربعة، هي: القرآن والسنة (الأحاديث القولية) والإجماع والقياس. وقد فسر الإجماع على أنه إجماع الصحابة[1] وليس إجماع المسلمين أو الفقهاء المتأخرين أو بعضهم كما يفهمه البعض اليوم.

وكان من نتيجة ذلك أن دخلت أعمال وتصرفات وعبادات لا دليل لها من القرآن في الإسلام، كما ظهر في المجتمع الإسلامي ما عرف بالفتاوى. وهي تشريعات دينية تعتمد على أدلة إخبارية، وأحياناً تعتمد على الرأي الشخصي للقائل بالفتوى. ونتيجة لذلك أصبح من المألوف وجود عدد من الفتاوى المتخالفة لمسألة واحدة، لأن كل مفتٍ اعتمد في فتواه على خبر يختلف عن الخبر الذي اعتمد عليه غيره. وكلها يصر من أصدرها أنها تمثل دين الله، وليست مجرد أحكام شخصية، إن أخطأت أو أصابت فليس لدين الله علاقة بها. وبعدما أصبح لكل فقيه من أولئك ثروة من الفتاوى صار يطلق عليه لقب إمام، أي المرشد والهادي والمشرع. وأصبح يطلق على مجموع فتاواه وتشريعاته طريقة أو مذهباً، أي عقيدة، وصار المؤمنون بالعقيدة يسمون الأتباع. فتحول دين الله من منهاج إلهي واحد إلى عقائد متفرقة وصلت أعدادها إلى العشرات بل والمئات: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إلى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (الأنعام: ١٥٩).

وبعضها وصل به التطرف إلى حد الزهد في كل شيء في الدنيا نتيجة لعجزه عن الحصول عليها بسبب استيلاء السلطان وحاشيته ومن حولهم على أرزاق الناس وانقسام المجتمع المسلم إلى طبقة الحكام والمنتفعين حولهم والتي يتمرغ أفرادها بثراء فاحش، وبقية الناس الذين وصل ببعضهم العوز والحاجة إلى درجة العدم. ومن

---

(١) يستحيل الحصول على إجماع للصحابة حول مسألة فقهية، لأنه لم يكن هناك فقه زمن رسول الله، ولم يكن هناك فتاوى وتشريعات فقهية، ولذلك لم يكن هناك إجماع أو خلاف بين الصحابة حول التشريعات.

هؤلاء خرج من ينادي بالزهد في الدنيا على أمل التمتع بنعيم الآخرة. فلبس أتباع هذه العقيدة الخشن من الملابس وهام بعضهم على وجهه يأكل من نبات البرية.

بينما تحولت بعض العقائد إلى التحلل من الدين والأخلاق الاجتماعية نتيجة لأن التمسك بالدين والأخلاق لم يوفر لهم المعيشة الكريمة التي وعدوا بها في النصوص القرآنية، في الوقت نفسه الذي يرون غيرهم ممن تقربوا للسلطان لا تقيدهم أوامر الدين عن تعاطي المحرمات والتلذذ بها، ويعيشون في رغد وسعة رزق.

وتحولت بعض الحركات السياسية التي كانت تتطلع للحكم، بعد اندحارها، إلى عقائد دينية. ومن ذلك خرج ما يعرف اليوم بالشيعة الذين تعتمد عقيدتهم على ضرورة أن يكون الحاكم من أئمتهم، أي أنهم قرنوا شرع الله المنزل لكل البشر على الأرض بضرورة أن يعاملوا بتميز ويكون لهم اليد الطولى في دولة الإسلام.

ومن النظرة نفسها جاء تقديس من ينسبون أنفسهم إلى الرسول، مع أن الرسول انقطع نسبه بموته، لأن كل أولاده الذكور ماتوا وهم أطفال.

وقد تسمت هذه العقائد والفرق بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وحارب بعضها البعض بالسيف واللسان، فباد بعضها وبقي بعضهم بالاعتصام بالحكام، فحموا أنفسهم بقوته العسكرية واستمد السلطان شرعية عرشه من تشريعاتهم الفقهية.

ونتيجة لذلك أصبح الفقهاء من مشرعي هذه العقائد أجراء عند السلاطين، يقتاتون بما ينثر عليهم من موائده. إلا أنهم كانوا دائماً في متناول سوطه، لو خرج من أحدهم تشريع يخالف رغباته.

ومن ذلك ما تعرض له مالك بن أنس الذي أفتى بأن يمين الإكراه ليست ملزمة، لأنه سيفهم من هذه الفتوى أن أخذ البيعة للسلطان بالإكراه لا تجوز، وكما حدث لأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهم.

وبمرور الزمن أصبحت تشريعات وفتاوى الفقيه قرارات سياسية تصاغ في القصور، وتحول الإسلام من دين لله إلى مراسيم ملكية.

وحتى لو تسمت الفرق والعقائد بالإسلام فهي لا تختلف عن أي فرق ينطبق عليها قول الله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم: ٣٠-٣٢).

وقد استمرأ الناس اتباع تشريعات رجال الدين، وأصبح من أمثلتهم الشعبية، ما ينص على أن سؤال رجل الدين والالتزام بفتواه فيه نجاة للسائل من النار ولو أخطأ المفتي، ونص المثل الشعبي: «اجعل بينك وبين النار مطوع».

أما القرآن فهذا ما يقوله عما سيؤول إليه حال التابع والمتبوع يوم القيامة: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتخذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ اتخذ فُلَاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسان خَذُولاً. وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (الفرقان: ٢٧-٣١).

كيف تجرأ الناس وكتبوا الحديث

سبق وذكرنا أن الواقع يؤكد أن القرن الأول من الهجرة قد مضى ولم يؤلف فيه كتاب واحد للحديث، بل إن لفظ الحديث إذا أطلق في تلك الفترة فهو يعني القرآن الكريم ولا شيء غيره. وأن من المسلمات التي لا يستطيع أحد أن ينكرها، أن رسول الله نهى عن أن يكتب عنه غير القرآن، فلم يكتب ولم يتداول في عهده ولا في عهد الخلفاء الأربعة، ما أطلق عليه فيما بعد «الحديث». ومن الثابت أنه في عهد عمر تجرأ بعض الناس وبدأوا بالتحديث عن الرسول، ولعله كان من باب القصص والحكايات التي تدور في المجالس عن فترة عصر الرسول وما جرى فيها من أحداث، مثلما يتحدث أي إنسان عن ذكرياته والأحداث التي مرت به في زمان مضى من حياته، أو بقصص يرويها عن أحداث وقعت في عصر سابق. ولكن عمر بن الخطاب لم يسمح بذلك وضرب وتهدد عدداً من أولئك الناس، خشية منه أن تحتوي تلك الحكايات على بعض تصرفاتٍ شخصيةٍ للرسول فيتأسى بها من يسمعها من الراوي ظناً منه أنها من الاستزادة في طاعة الله.

ولكن بعد أن توسعت الدولة المسلمة بسبب «الفتوح» وتم توظيف قضاة للحكم في القضايا اليومية في البلاد المفتوحة، أصبح القاضي يحاول أن ينسب كل حكم في أي قضية تعرض عليه إلى الإسلام ولو كانت قضية مدنية ولا يوجد لها

حكم في القرآن، وذلك بالبحث عن أي قصة أو خبر عن الرسول أو عن أحد الصحابة ويبني عليه حكمه.

فكثر بذلك تداول الأخبار المنسوبة إلى الرسول وإلى الصحابة، كما تم تداول ما كان موجوداً من تشريعات في الأديان الأخرى خاصة اليهودية، والحكم بها في القضايا على اعتبار أن الدين واحد كما يقول القرآن: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى. (الشورى: ١٣).

وكان كل حكم فقهي في قضية يتم توارثه من جيل إلى آخر، ومع الأيام أصبح كل حكم من تلك الأحكام يستند إلى دليل إسلامي، على شكل حديث منسوب إلى الرسول، ولو كان ذلك الحديث أصله في البداية رأياً شخصياً لفقيه قديم، أو أنه مأخوذ من تشريعات يهودية ومسيحية وغيرها.

كما كان القصاص يفسرون الآيات التي يعرفونها من القرآن، والتي تتحدث عن الأمم السابقة وخلق الكون وغيرها بموجب قصص وحكايات مستمدة من كتب الديانات الأخرى، التي ذكرت فيها قصص مماثلة، فتكونت النواة الأولى للتفسير الذي سيتوسع فيه الناس في الأجيال اللاحقة.

وبحكم أن خلفاء بني أمية لم يكن يهمهم أمر الدين ما دام لا يمثل خطورة عليهم، فلم يهتم معاوية ولا عبد الملك بن مروان ولا غيرهم بما يحصل لدين الله باسم حديث رسول الله وتفسير آياته والأحكام الفقهية التي تصدر باسمه، بل لقد كان معاوية أول من أمر بكتابة التاريخ، فاستقدم عبيد بن شرية الجرهمي من صنعاء فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين، حسبما جاء في مقدمة محققي سيرة ابن هشام التي طبعتها مكتبة الرياض الحديثة. ولا بد أنه احتوى بعض الأخبار عما حدث زمن الرسول والخلفاء من بعده، بعضها حصل فعلاً وجلها من نسج الخيال.

وقد وجد بنو أمية في التحديث مطية لتذليل رقاب الناس لحكمهم باسم الدين، لأن من بين تلك الأحاديث التي أدخلت على الإسلام ما يقول بأن كل ما يجري من أحداث يومية سبق وقدرها الله على الناس، ومن ذلك مجيء حاكم ظالم، وهناك أحاديث تبيح للخليفة القضاء على معارضيه السياسيين وتحرم على الناس الثورة عليه، وبل وتحرم حتى مجرد انتقاد سياسته.

ولذلك لم يقم أحد من الأمويين بأي نشاط من أجل وقف التحديث عن الرسول أو تبني وأسلمة التشريعات من ديانات أخرى، أو من نصوص مختلقة، على شكل أحاديث تنسب إلى الرسول، حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز في آخر سنة من القرن الهجري الأول. ويبدو أنه هاله ما يقترفه الناس من تشريعات تحت مسمى ديني لأنهم يستدلون عليها بتلك الأحاديث المنسوبة إلى الرسول والتي يتناقلها الناس بينهم مشافهة وبلا ضوابط. فأمر أبو بكر بن حزم الأنصاري (المتوفى عام ١٢٠ للهجرة) بأن يدوّن ما يغلب الظن على أنها أحاديث نسبتها أصح إلى الرسول من غيرها مما هو متداول. وتنم فكرة عمر بن عبد العزيز تلك على أنه كان يعلم بأن الأحاديث ليست من دين الله، ويعلم بأن الرسول نهى وبشدة عن أن يكتب عنه غير القرآن، ولكنه لم يستطع أن يجابه ذلك المجتمع الذي توارث تلك العقيدة، ولذلك حاول أن يكتب له ذلك الكتاب، لكي يلزم الناس بعدم الاستدلال بأي حديث آخر ليس في ذلك الكتاب المزمع تأليفه. وكأنه أراد أن يكتفي الناس بما أحدثوه في الدين باسم الحديث، وأن يمنعهم من الاستمرار في تسريب التشريعات الدخيلة على الدين تحت مسمى الحديث والتوسع في ذلك.

ولكن بني أمية قتلوا عمر بن عبد العزيز قبل أن يشرع الأنصاري بالتدوين فماتت فكرة تدوين الأحاديث إلى أن أعاد المحاولة الخليفة العباسي المنصور، عندما كلف مالك بن أنس (المولود عام ٩٤ والمتوفى علم ١٧٩ للهجرة) بأن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل بما فيه من أحاديث وترك أي أحاديث غيرها. وهي فكرة عمر بن عبد العزيز نفسها، فصنف مالك الموطأ الذي يعتبر أقدم كتاب للحديث بين أيدينا الآن، وقد سبق وذكرنا ذلك.

ولو حرص الحكام أو الفقهاء على التقيد بالموطأ فقط، ولم يقبلوا أي استدلال بأحاديث ليست فيه، فقد يكون حال التشريع الإسلامي اليوم أقرب إلى صافي العقيدة مما هو عليه.

ولكن في منتصف القرن الثالث الهجري ألف البخاري كتابه المشهور في الحديث، وقد بين الذهبي في ترجمته للبخاري في سير أعلام النبلاء، سبب تأليف البخاري لكتابه، عندما قال: وقال خَلَفٌ الخيّام: سمعتُ إبراهيم بنَ مَعْقِل،

سمعتُ أبا عبدالله يقول: كنتُ عند إسحاق بن راهَوَيْه، فقال بعضُ أصحابنا: لو جمعتُم كتاباً مختصِراً لسُنَنِ النبيِّ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذتُ في جمعِ هذا الكتاب.

وبمجرد أن تجرأ البخاري على كتابة الأحاديث التي كانت منتشرة بين الناس في عصره، حتى تبعه مسلم الذي كان يعيش في نفس الفترة، وتبعهم أبو داوود والترمذي والنسائي والدارمي وابن ماجه وابن حبان وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي وابن أبي شيبة والحاكم والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل والدارقطني وأبو راهويه وأبو يعلى والجعدي وغيرهم الكثير، لأن الناس قبل البخاري كانوا يتحرجون من تجاوز كتاب الموطأ الذي تم تأليفه ليلتزم الناس بما فيه من أحاديث، ولا يأخذون بسواها.

وتزامن كثرة المؤلفين مع التوسع في الأحاديث، فزادت الأحاديث في كتاب مسلم عدداً عما كانت عليه في كتاب البخاري، ثم تزايدت حتى وصلت الأحاديث التي وجدت في مسند النسائي إلى نحو اثني عشر ألف حديث، وزادت عن سبع وعشرين ألفاً في مسند أحمد.

ومع أنني لم أتأكد بشكل قاطع إن كان البخاري قد أورد في كتابه أي رواية عن الحديث الذي ينهى فيه الرسول عليه الصلاة والسلام عن أن يكتب عنه سوى القرآن، إلا أنني أجزم ومن دون الحاجة إلى مراجعة الكتاب أن البخاري لم يورده في كتابه بأي صيغة كانت، حتى ولو كان قد سمع بذلك الحديث. لأنه لو أدرجه في كتابه فسيكون كمن حكم على نفسه بأنه خالف أمراً للرسول وهو على علم بذلك. وإن كان لم يسمع بذلك الحديث، وهذا مستبعد فعلاً، فقد ألف كتابه لتحقيق رغبة طرحت في مجلس راهويه الذي ظن أن جمع الأحاديث التي يتناقلها الناس في عصره، فيه خدمة للدين، خاصة وأن الشافعي قد أعلن أن المصدر الثاني للتشريع هو الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، قبل أن يعقد البخاري العزم على تأليف كتابه بأكثر من نصف قرن، مما شجع البخاري على المضي في الكتابة.

ويكون محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) بقوله إن الحديث هو المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، ومحمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) بتأليفه كتابه في الحديث قد شرعا الباب على مصراعيه لاعتبار القصص والأخبار

المتناقلة عن الأحداث التي وقعت في عصر الرسول وما ينسب إليه في حياته اليومية، جزءاً من دين الله ومصدراً للفتاوى والتشريعات والأحكام التي لم يأمر بها الله، والتي يعرف الإسلام من خلالها اليوم في كل مذاهبه وفرقه المختلفة.

مع أن الدين لله تعالى وحده، وتشريعاته تعتمد على وحي منه سبحانه، وكل كلام رسول الله وأخباره والأحداث التي وقعت في عصره ليست من دين الله ولا تبنى عليها تشريعاته، وقد يضاف لها ما ليس فيها أو ينقص منها أو تغير أو تبدل أو ينسى بعضها مثلها مثل أي أحداث تاريخية يتداولها الناس مشافهة لأي عصر من العصور، دون أن يضير دين الله من ذلك شيء.

وكان من الممكن أن يستمر الناس في الالتزام بما رغب فيه رسول الله، وعدم النظر إلى تاريخ عصره صلى الله عليه وسلم بأكثر مما ينظر فيه إلى أي أحداث تاريخية أخرى في أي عصر من العصور، لولا أن من دخل في الإسلام من الأمم الأخرى أيام «الفتوح» الأولى كانوا بحاجة إلى التعرف على الإسلام أكثر، ولم يكن القرآن متوفراً بينهم ليمدهم بما يحتاجون إليه. ولما توفرت بعض نسخ القرآن بقي جهل أكثرهم باللغة العربية قائماً لفترة طويلة، ولذلك استمد أولئك المسلمون الجدد تشريعاتهم من ثقافاتهم ودياناتهم السابقة، وتوارثتها الأجيال بعد ذلك ظناً منها أنها صدرت من الرسول. كما نسبت أقوال القصاص والمحدثين وفتاواهم الشخصية إلى الرسول ظناً بأنها صادرة منه.

ونسي الناس تحذيرات رسول الله من كتابة أي شيء غير القرآن أو العمل بموجبه على أنه من الإسلام، ووجدوا من التبريرات والتأويل ما أقنعهم بأن النهي عن كتابة الأحاديث لا يعني أنها ليست من الدين، ولكن لأسباب أخرى زالت بعد ذلك، وبالتالي يجب على الناس التأسي بالرسول في كل ما نسب إليه من تصرف أو إقرار، والعمل بكل ما نسب إليه من أقوال، كجزء من دين الله.

ومع الأيام تزايدت قدسية الحديث عند الناس حتى أصبحت تشريعات فقهاء المسلمين تعتمد في غالبيتها عليه دون القرآن. وأصبح الفقه هو شرع الله، مع أنه مجرد تشريعات بشرية قال بها من تسموا بالفقهاء اعتماداً على أقوال منسوبة إلى الرسول أو لغيره. كما تم تأويل معاني آيات القرآن تحت مسمى التفسير الذي اعتمد أيضاً على ما يسمى بالحديث ليحول معنى الآيات إلى خرافات وأساطير، دين الله منها بريء.

وأصبح المسلمون يتبعون فرقاً ومذاهب متخالفة ومتعارضة، تنتسب إلى فقهاء القرن الثالث الهجري وما بعده. مع أن أي واحد من أولئك الفقهاء لم يؤسس المذهب بناءً على أقواله هو وتشريعاته، وما حدث هو أن كل صاحب مذهب تبنى أقوال وتشريعات فقيه سابق من فقهاء القرن الأول الذين كانت أقوالهم وتشريعاتهم مبنية على خلفياتهم الثقافية والدينية السابقة التي كانوا عليها قبل دخولهم الإسلام. وتلك الأقوال والتشريعات أدخلت إلى الإسلام عندما ظن الناس الذين ورثوها من الفقهاء الأوائل أنها لا بد أن تكون صادرة من الرسول وصحابته فنسبوها إليهم على شكل أحاديث.

ولعل من المناسب أن يعرف القارئ القليل عن بعض هؤلاء الذين رسموا بدايات الفقه والتفسير والحديث الذي ظهرت بموجبه الفرق والمذاهب الإسلامية المنتشرة حالياً في العالم الإسلامي والتي أصبحت تشريعات فقهائها وأئمتها ملزمة للناس ومن يخالفها فكأنما خالف الله ورسوله. وقد سبق وذكرنا بعضاً من ترجمة مجاهد بن جبر والحسن بن أبي الحسن، ضمن استعراضنا للتاريخ الحديث. وهنا نقدم لثلاثة أعلام آخرين لا يقلون وزناً عن الحسن ومجاهد، وهؤلاء هم:

سفيان الثوري

ومما نقله ابن خلكان في وفيات الأعيان عنه، قوله: قال الأوزاعي: كنت أقول فيمن ضحك في الصلاة قولاً لا أدري كيف هو، فلما لقيت سفيان الثوري سألته فقال: يعيد الصلاة والوضوء، فأخذت به، وهو ما يظهر جانباً من فقه سفيان الثوري.

ومن فقهه أيضاً الذي يطلب منا الاقتداء به: وحكى ضمرة قال: سألت سفيان الثوري: أُصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم.

ومن طرقه في جمع الحديث، ينقل ابن خلكان: وحدث أبو بكر بن عياش قال: كنت أنا وسفيان الثوري نمشي فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السمت، فقال له سفيان: يا شيخ أعندك شيء من الحديث؟ قال: لا، ولكن عندي عتيق سنين، فنظرنا فإذا هو خمّار.

وحكي عن أبي صالح شعيب بن حرب المدائني ـ وكان أحد السادة الأئمة

الأكابر في الحفظ والدين ـ أنه قال: إنني لأحسب يُجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حُجَّةً من الله على الخلق، يقال لهم: لم تدركوا نبيّكم عليه أفضل الصلاة والسلام فلقد رأيتم سفيان الثوري، ألا اقتديتم به؟ (فهو لا يقل عن الرسول في رأيه).

وكان مولده في سنة خمس، وقيل ست، وقيل سبع وتسعين للهجرة. وتوفي بالبصرة أوّل سنة إحدى وستين ومائة متوارياً من السلطان.

وسبب هربه من السلطان، المهدي، هو انفضاح أمره عندما حاول أن يتظاهر بالتقوى وينتقده على مبالغته بالتبذير أثناء لقائه به في الحج، بينما كان في الوقت نفسه يكتب إلى وزراء المهدي يطلب منهم الوصل وطلبات يبدو أن بعضها غير لائق بمن يدعي الورع. وكان الوزير نفسه الذي يتلقى طلبات سفيان حاضراً المجلس ويسمع ما يتظاهر به سفيان من ورع يتعارض مع طلباته، فذكره بأن كل طلباته قد أجيبت، في إشارة إلى أن حقيقته معروفة لديه. فما كان من سفيان إلا أن خرج مهرولاً من المجلس لدرجة أنه ترك نعليه خلفه، ولم يقو على مقابلة المهدي بعدها. وهذا نص ما نقله ابن خلكان: قال عبدالله بن صالح العجلي: دخل سفيان على المهدي فقال: سلام عليكم، كيف أنتم يا أبا عبدالله؟ ثم جلس فقال: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً وأنت حججت فأنفقت في حجتك بيوت الأموال، قال: فأي شيء تريد؟ تريد أن أكون مثلك؟ قال: فوق ما أنا فيه ودون ما أنت فيه، فقال وزيره أبو عبيدالله: أبا عبدالله قد كانت كتبك تأتينا فننفذها، قال: من هذا؟ قال: أبو عبيدالله وزيري، قال: احذره فإنه كذاب، إني ما كتبت إليك، ثم قام فقال له المهدي: إلى أين يا أبا عبدالله، قال: أعود؛ وكان قد ترك نعله حين قام، فعاد فأخذها ثم مضى، فانتظره المهدي فلم يعد، فقال: وعدنا أن يعود فلم يعد، فعلم أنه عاد لأخذ نعله، فغضب فقال: قد أمن الناس إلا سفيان الثوري وإنه لفي المسجد الحرام، فذهب فألقى نفسه بين النساء فخبأنه، فقيل له: لمَ فعلت؟ فقال: إنهن أرحم، ثم خرج إلى البصرة فلم يزل بها حتى مات.

السدي

مما جاء في ترجمته التي أوردها الذهبي في تذكرة الحفاظ، ما يلي: قال السدي: أتيت كربلاء أبيع البر بها، فعمل لنا شيخ من طيء طعاماً فتعشينا عنده،

فذكرنا قتل الحسين فقلت: ما شرك في قتله أحد إلا مات بأسوأ ميتة، فقال: ما أكذبكم يا أهل العراق فأنا ممن شرك في ذلك، فلم نبرح حتى دنا من المصباح ليصلحه وهو يتقد، فذهب يخرج الفتيلة بأصبعه، فأخذت النار فيها فأخذ يطفئها بريقه فأخذت النار لحيته فعدا، فألقى نفسه في الماء فرأيته كأنه حممة (وهذه قصة مختلقة وتظهر مدى اعتقاد السدي بقدسية الحسين).

كما جاء في ترجمته التي أوردها الذهبي في سير أعلام النبلاء، عما يعتقد فيه أهل عصره: قال عبدالله بن حبيب بن أبي ثابت: سمعتُ الشعبي، وقيل له: إن إسماعيل السدي قد أعطي حظاً من علم، فقال: إن إسماعيل قد أعطي حظاً من الجهل بالقرآن. وقيل: كانَ السُّدِّي عظيمَ اللحية جداً. وقال سلم بن عبد الرحمن شيخ لشريك: مرَّ إبراهيم النَّخَعيّ بالسُّدي وهو يفسر، فقال: إنه لَيُفسِّرُ تفسير القوم.

قال خليفة بن خياط: مات إسماعيل السُّدي في سنة سبع وعشرين ومائة.

قتادة

وهذا بعض ما جاء في ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي: قال معمر: أقام قتادة عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام فقال له في اليوم الثالث: ارتحل يا أعمى فقد انزفتني.

وقال أحمد بن حنبل: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه، قرئت عليه صحيفة جابر مرة فحفظها. قال شعبة: قصصت على قتادة سبعين حديثاً كلها يقول فيها سمعت أنس بن مالك إلا أربعة.

لكن رأي أحمد فيه يخالف رأي غيره، ومن ذلك ما نقله الذهبي حيث يقول: وكان قتادة معروفاً بالتدليس. قال ابن معين: لم يسمع من سعيد بن جبير ولا من مجاهد. وقال شعبة: لا يعرف أنه سمع من أبي رافع (ومع ذلك فقد حدث عنهم).

قال ابن أبي عروبة والدستوائي: قال قتادة: كل شيء بقدر إلا المعاصي قلت (أي قال الذهبي): ومع هذا الاعتقاد الرديء ما تأخر أحد عن الاحتجاج بحديثه.

قلت (أي الذهبي): مات بواسط في الطاعون سنة ثماني عشرة ومائة، وقيل سنة سبع عشرة ومائة، وله سبع وخمسون سنة.

ونترك ترجمة مئات بل آلاف ممن ورثنا منهم الحديث والفقه والتفسير للقارئ إن أراد الاطلاع عليها من كتب مثل تذكرة الحفاظ وتهذيب الكمال وسير أعلام النبلاء والطبقات الكبرى لابن سعد ووفيات الأعيان وغيرها.

وكان من تبعات الفقه والتفسير والحديث ما يعرف في العصر الحاضر باسم الدعوة للإسلام وترجمة القرآن إلى لغات أخرى. حيث يقوم المسلمون بنشر ما يعتقدون أنه الإسلام بين المسلمين وغيرهم عن طريق الدعوة، كل حسب مذهبه الفقهي الذي ينتمي إليه. فالحنبلي يدعو إلى المذهب الحنبلي والشيعي يدعو إلى التشيع والأباضي وغيرهم كل يدعو إلى ما تربى عليه على أنه الإسلام. ومثل الدعوة إلى دين الإسلام، تعكس ترجمة آيات القرآن الكريم للغات أخرى وجهة نظر المترجم المذهبية، أكثر مما تعكس دين الله الحقيقي. وتكون الدعوة والترجمة على الرغم من أنها لم تنتشر إلا في العصور الحديثة، عبارة عن توصيل للتشريعات الفقهية وتأويل معاني الآيات القرآنية التي بدأت مع «الفتوح» ونضجت في القرن الثالث وما بعده، بلغات أخرى إلى غير المسلمين على أنها عين الإسلام، ويكون الحديث عنهما امتداداً للحديث عن الفقه والتفسير والحديث. لهذا السبب خصصنا الصفحات التالية لاستعراض ما ساهمت به الدعوة والترجمة في تحوير دين الله إلى غير ما أنزل الله.

الترجمة والدعوة

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (البقرة: ٧٩).

ترجمة كتاب الله إلى لغات أخرى مطلب هام ليتعرف الناس من مختلف الأعراق على معاني القرآن الكريم، أملاً باقتناع البعض منهم بالدخول في الإسلام، ولكن المسلمين الأوائل لم يهتموا بهذا الجانب، فقام بذلك نيابة عنهم رجال الدين المسيحي طوال قرون عدة.

وقد قام رجال الكنيسة الأوروبيون بترجمة القرآن للتعرف على عدوهم اللدود، الإسلام، والذي كان يمثل خطراً على الكنيسة المسيحية في أوروبا، بعد أن استولى المسلمون على إيليا، المكان الذي صلب ودفن فيه يسوع، وتبع ذلك الاستيلاء على شبه جزيرة إيبيريا الأوروبية، وعلى جزر البحر المتوسط المسيحية، ودحر المسلمين الحملات الصليبية الأوروبية.

فكان رجال الكنيسة الأوروبيون أول من قام بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ـ لغة الكنيسة ـ بهدف الطعن في القرآن الكريم ومحاولة إظهار العيوب والنواقص فيه لصد الأوروبيين عن التعرف على حقيقته من ناحية، ومحاولة جرف المسلمين عنه وتحويلهم إلى المسيحية من ناحية أخرى.

ولم تكن الترجمة لدراسة القرآن والدين الإسلامي لخدمة العلم وحب الاستطلاع، ولذلك طغى التحوير المتعمد لمعاني الآيات القرآنية، إضافة إلى حشر الترجمة بحواشٍ مليئة بعبارات السب والشتم والنيل الشخصي من الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتصويره كدجال تلاعب بنصوص الكتب المقدسة لليهود

والنصارى وكتبها بطريقته الخاصة لكي يحكم العرب ويقودهم للسيطرة على أوروبا وغيرها من المناطق خارج الجزيرة العربية.

وقد بدأت ترجمة القرآن إلى اللاتينية في مطلع القرن الثاني عشر، قبل أن يترجم للغات أخرى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها، على أيدي المستشرقين بعد ذلك بقرون، دون تغيير يذكر في الغاية والأسلوب المتبع في الترجمة، ولم تقترب الترجمة بما يكفي، من العمل الأكاديمي البحت، وإن تحسنت في العقود الأخيرة كثيراً عما كانت عليه في السابق.

وفي القرن العشرين قام بعض المسلمين خاصة الهنود بترجمة القرآن للإنجليزية وبعض اللغات الأخرى، وبمجهودات شخصية، تبع ذلك قيام هيئات دينية حكومية في بعض البلدان الإسلامية بترجمة القرآن إلى لغات الأوروبية وغيرها. وأصبحت الهيئات السعودية والإيرانية هي الأنشط في الوقت الحاضر، يليها الأزهر.

وقد طغى على نشاطهم التسابق بتعريف الناس بالإسلام خارج العالم الإسلامي وداخله، كل حسب طريقته ومذهبه. ومما تقوم به الهيئات المعنية إضافة إلى ترجمة القرآن الكريم، ترجمة كتب أخرى للتشريعات الفقهية والتفسير والحديث وكتب مؤلفة حديثاً، وكلها تروج، عبر ما سمي بالدعوة، للمذهب السائد في البلدين على أنه هو صحيح الإسلام.

وقد ساهمت جهود ترجمة الآيات القرآنية إلى ترحيل بعض معاني الآيات الحقيقي إلى المعنى الذي يريده رجال الدين، وهذه بعض الأمثلة على ذلك، مع ملاحظة أن النص الأجنبي قد تم نقله كما هو في مصدره:

١- الرأي الفقهي السائد في المملكة السعودية أن كشف المرأة المسلمة لوجهها حرام حرمة جازمة، وأنه يجب عليها أن تغطي كامل جسدها من الرأس إلى أخمص القدمين، ومع أن القرآن الكريم لم يقل بذلك ولم يشر إليه، إلا أن رجال الدين القائمين على ترجمة القرآن من العربية إلى لغات أخرى في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف[١]، قد ترجموا آية في سورة الأحزاب على أنها تعني ما ذهب إليه الفقه السائد محلياً، وبالتالي فأي مسلم جديد لا يتقن العربية

(١) مقر المجمع في المدينة.

ويعتمد على الترجمة للتعرف على ما يقوله القرآن سيعتقد أن القرآن يوجب غطاء المرأة لكامل جسدها بما في ذلك الوجه، وأن هذا ما يقول به القرآن وليس فقط ما يظنه فقهاء المذهب. وهذه هي الآية بالعربية وتليها الترجمة إلى الإنجليزية:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (الأحزاب: ٥٩).

O Prophet! Tell your wives and your daughters and the women of the believers to draw their cloaks (veils) all over their bodies (i.e. screen themselves that ،completely except the eyes or one eye to see the way). That will be better able women) so as not to be annoyed.–they should be known (as free respect And Allah is Ever Oft-Forgiving, Most Merciful.

وكما هو ملاحظ فإن الترجمة تنسب إلى الله تبارك وتعالى أنه أمر المرأة أن تغطي كامل جسدها ما عدا العينين أو عين واحدة لرؤية طريقها، كقاعدة عامة وثابتة لكل زمان ومكان، وعلى المرأة أن تلتزم بها، وهذا تجديف على الله سبحانه وتعالى وتقويل لكتابه بما لم يقل.

فليس في الآية ذكر لوجوب تغطية المرأة لكامل الجسد ما عدا العينين أو عين واحدة، كما تقول الترجمة، لأن الآية (٥٩) من سورة الأحزاب تتحدث عن رجال يتتبعون نساء المدينة ويحاولون التحرش بهن عسى أن يوقعوهن في الرذيلة، وكان ممن تعرضن لتلك المضايقات نساء النبي صلوات الله وسلامه عليه ونساء المسلمين من صحابته، ولذلك جاءت الآيات في سورة الأحزاب لتحذر المؤمنات من أولئك الأوغاد ولترشدهن لبعض الإجراءات الاحترازية التي تمكنهن من تجنب تلك المضايقات. ومن ذلك اللبس المحتشم الذي ورد في الآية (٥٩) والذي ليس فيه ذكر لتغطية الوجه وكل الجسد، ولكنه ينص على تغطية الجيوب (الصدور). ولم تكن تلك هي الآية الوحيدة التي تخاطب نساء الرسول ونساء المسلمين لمواجهة عبث العابثين، بل إن السورة تبدأ بالحديث عن ذلك من الآية رقم (٢٨) والتي نصها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً.

ولا ينتهي الحديث إلا في الآيات ٦٠، ٦١، ٦٢، حيث يختم بتحذير من الله جل شأنه لأولئك المستهترين بأنه إذا لم ينتهوا عن خلاعتهم فسوف يأذن الله

لرسوله بطردهم من المدينة، فإن أبوا فمن قبض عليه منهم فسيقتل، وهذا نص الآيات الثلاث: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (الأحزاب: ٦٠-٦٢).

وتكون الآية (٥٩) من سورة الأحزاب نزلت ضمن عدد من الآيات لمعالجة حدث حصل زمن رسول الله، وهذه الآيات ترشد نساء الرسول ونساء المسلمين في المدينة لما يجب عليهن فعله لتجنب تلك المضايقات التي يقوم بها أشخاص في قلوبهم مرض (هوس جنسي)، ولم تنزل لتشرع وجوب غطاء وجه أو كف أو غيره على المرأة كما يزعم بعض المفسرين والفقهاء وكما ترجم معناها إلى اللغة الإنجليزية.

والترجمة السابقة خالفت ترجمة الهندي عبدالله يوسف علي[1] التي سبقت الترجمة السعودية بعقود، لأن عبدالله يوسف علي يتبع مذهباً آخر، لا يرى أن كشف وجه المرأة حرام، وبالتالي لم يحمّل الآية أكثر مما تحتمل، وهذا نص ترجمته:

O Prophet! Tell thy wives and daughters, and the believing women, that they should cast their outer garments over their persons (when abroad): that is most convenient, that they should be known (as such) and not molested. And God is Oft- Forgiving, Most Merciful.

٢- الترجمة السعودية للمصحف تورد في الحاشية تعليقاً على الآية المترجمة، وهذه التعليقات ليست كلاماً لله جل وعلا، ولكنها أخبار لم تثبت صحتها، تؤيد وجهة نظر المترجم المذهبية حول مسألة فقهية قد لا يكون للآية المترجمة علاقة بها، ومن ذلك ترجمة الآية (٧) من سورة الحشر، وهذا نص الآية:

مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

---

(١) ترجمة معاني القرآن الكريم ـ شرح وترجمة إلى اللغة الإنجليزية/ دار الفكر ـ بيروت.

وهذا نص الترجمة:

What Allah gave as booty (Fai). to His Messenger Muhammad (صلى الله عليه وسلم) from the people of the townships - it is for Allah, His Messenger Muhammad (صلى الله عليه وسلم)، the kindred (of Messenger Muhammad (صلى الله عليه وسلم)، the orphans, Al-Masakin (the poor), and the wayfarer, in order that it may not become a fortune used by the rich among you. And whatsoever the Messenger Muhammad (صلى الله عليه وسلم) gives you, take itp; and whatsoever he forbids you, abstain (from it[1]. And fear Allah; verily, Allah is Severe in punishment.

ويلاحظ أن الترجمة تنقل نص الآية مع بعض التحوير، ولكن الأعظم من ذلك أن الحاشية التي تعلق على الترجمة أدخلت على الآية الكثير مما ليس له علاقة بها، بواسطة حديث منسوب إلى ابن مسعود وهذا نص الحاشية:

(V.59:7) Narrated. Alqamah: Abdullah (bin Mas'ad) said Allah curses those ladies who practise tatooing and those who get themselves tatooed, and those ladies who get their hair removed from their eyebrows and faces except the beard and moustache, and those who make artificial spaces between their teeth in order to look more beautiful whereby they change Allah's creation". His saying reached a lady from Ban Asad, called Umm Ya'qob, who came (to 'Abdullah) and said" "I have come to know that you have cursed such-and-such (ladies)?" He replied, "Why should I not curse these whom Allah's Messenger صلى الله عليه وسلم has cursed and who are (cursed) in Allah's Book"! Umm Ya'qob said" "I have read the whole Qur'an, but I did not find in it what you say". He said" "Verily, if you have read it (i.e. the Qur'an), you have found it. Didn't you read:

"And whatsoever the Messenger Muhammad (صلى الله عليه وسلم) gives you, take it, and whatsoever he forbids you, abstain (from it)" (V). 7:59

She replied" "Yes, I did", He said" "Verily, Allah's Messenger (صلى الله عليه وسلم) forbade such things". She said, "But I see your wife doing these things?" He said" "Go and watch her". She went and watched her but could not see anything in support of her statement. On that he said" "If my wife was as you thought, I would not keep her in my company) (i.e. I would divorce her) (Sahih Al-Bukhari, Vol,6. Hadth No. 408).

Narrated 'Abdullah (bin Mas'od) رضي الله عنه: Allah's Messenger صلى الله عليه وسلم has cursed the lady who uses false hair (See Sahih Al-Bukhari, Vol,6. Hadth No. 409).

ونص الحديث الذي ورد في الحاشية باللغة العربية، كما جاء في البخاري، هو: حدَّثنا محمدُ بن يوسفَ حدَّثنا سفيانُ عن منصورٍ عن إبراهيم عن عَلقمَةَ عن عبدِالله، قال: لَعَنَ اللَّهُ الواشِماتِ والموتشماتِ والمتَنَمِّصات والمتفَلِّجات للحُسْن، المغيِّراتِ خَلقَ الله. فَبَلَغَ ذلك امرأةً من بني أسدٍ يقال لها أمّ يعقوبَ، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنكَ لَعنتَ كيتَ وكيت، فقال: وما ليَ لا ألعنُ من لَعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومن هوَ في كتاب الله. فقالت: لقد قرأتُ ما بَينَ اللوحين، فما وَجدتُ فيه ما تقول. قال: لَئن كنتِ قَرَأتهِ لقد وَجَدته، أما قرأتِ ﴿وما آتاكم الرسولُ فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتَهوا﴾؟ قالت: بَلى. قال: فإنه قد نهى عنه. قالت: فإني أرى أهلكَ يَفعلونه. قال: فاذهبي فانظري، فذَهَبَتْ فَنَظَرَت فلم تَرَ من حاجَتها شيئاً. فقال: لو كانت كذلك ما جامَعْتُنَا.

ومن الواضح أن الرسول ليس هو من لعن الواشمات والمتنمصات وغيرهن مما ورد ذكره في هذا الحديث ولكن عبدالله بن مسعود هو من لعنهن، وهو من نسب ذلك إلى كتاب الله بقوله «ومن هوَ في كتاب الله».

ولما حاجّته أم يعقوب بأن الله لم يقل ذلك في كتابه قال بأن معنى قوله تعالى «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» يعني ما قيل لكم بأن الرسول تحدث به ولو من غير القرآن فخذوه. وهذا تحريف لمعنى الآية السابعة من سورة الحشر والتي تتحدث عن تقسيم الفيء الذي حصل عليه المسلمون كغنائم من قبيلة من قبائل يهود يثرب، عندما أجلوهم عن قلاعهم بسبب نقضهم لمعاهداتهم مع المسلمين، ولا يمكن الاستدلال به على أن ما نسب إلى الرسول على شكل حديث يجب أن يؤخذ كجزء من دين الله، وهو ما توضحه آيات سورة الحشر بكل جلاء، وقد تحدثنا عن ذلك في فصل سابق(الحديث في القرآن الكريم).

وقد لا يكون ابن مسعود قد قال ما قيل عنه هنا ولكن أحداً غيره، ومن بعده، قال على لسان ابن مسعود ما لم يقل ليثبت أن كل ما ينسب إلى الرسول مما سمي بالحديث يجب أن يؤخذ به على أنه من شرع الله، مستدلاً بجزء من الآية السابعة من سورة الحشر بطريقة مضللة.

والترجمة والحاشية الملحقة بها قولت الآية السابعة من سورة الحشر ما لم يقل به الله يقيناً، ونسبت إلى القرآن أنه يقول إن كل حديث ينسب إلى الرسول فهو من

الدين، وإنه يجب أن يؤخذ معناها بهذه الصورة، وسيعتقد من يقرأها من غير المتحدثين باللغة العربية على أن ما نقلته الترجمة عبر الحاشية مرتبط بالآية ويوضح معناها، وليس دخيلاً عليها.

وهذا التحوير في معنى الآية يخدم مذهب المترجم الذي تقوم بعض تشريعاته على أحاديث منسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، تنقصها الدقة ويجوز عليها الكذب والوضع والاختلاق، وفوق هذا يؤكد أن شرع الله ودينه ليس فقط كلام الله وحده ولكن أيضاً ما قاله الرسول دون أن ينسبه إلى الوحي، وهو ما عرف بالحديث، وهذا مخالف لآيات كثيرة في القرآن تؤكد أن محمداً لا يزيد عن كونه رسول لله لتبليغ الوحي المنزل عليه، ولا يستطيع التحدث عن دين الله بغير ما أوحي به إليه (انظر فصل: ولادة الفقه والحديث والتفسير حيث أثبتنا أن أي كلام غير القرآن، ولو ثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليس من دين الله تعالى).

٣- الآية (٧٣) من سورة آل عمران هذا نصها: وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَو يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

وقد جاءت ترجمتها من مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بهذه الصورة:

73. And believe no one except the one who follows your religion. Say O Muhammad (صلى الله عليه وسلم): "Verily! Right guidance is the Guidance of Allah" and do not believe that anyone can receive like that which you have received, otherwise they would engage you in argument before your Lord. Say O Muhammad (صلى الله عليه وسلم): "All the bounty is in the Hand [2] of Allahp He grants to whom He wills. And Allah is All-Sufficient for His creatures. needs, All-Knower".

أما الحاشية فتثبت وجهة نظر المذهب التي تؤمن بأن لله يداً وساقاً وأطرافاً، وأنه يضحك وينزل ويجلس.

وهذا نص الحاشية كما وجدت في المصدر باللغتين العربية والإنجليزية:

"(V).3:73 The Qualities of Allah عز وجل" صفات الله عز وجل

إن جميع ما ورد في كتاب الله عز وجل من صفات الله تعالى كالوجه والعين

واليد والساق والمجيء، والاستواء وغيرها من الصفات، أو مما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم وثبت في الأحاديث النبوية الصحيحة كالنزول، والضحك، وغيرها فإن العلماء بالكتاب والسنة يؤمنون بهذه الصفات، ويثبتونها لله تعالى من غير تأويل أو تشبيه أو تعطيل، وهي صفات تليق بالله تعالى لا تشبه صفات أحد من المخلوقين لقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ٤٢/ ١١ وقوله تعالى (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدُ) ١١٢/ ٤.

Sifât-ullâh (Qualities of Allâh).

All that has been revealed in Allâh's Book [the Qur'ân] as regards the [Sifâf] Qualities of Allâh عــز وجــل, the Most High, like His Face, Eyes, Hands, Shins (Legs), His Coming, His (Istawa) rising over His Throne and others, or all that Allâh's Messenger صلى الله عليه وسلم qualified Him in the true authentic Prophet's Ahadith (narrations) as regards His Qualities like [NuzHl], His Descent or His laughing and others, the religious scholars of the Qur'ân and the Sunnah believe in these Qualities of Allâh and they confirm that these are really His Qualities, without Ta'wîl (interpreting their meanings into different things) or Tashbîh[a] (giving resemblance or similarity to any of the creatures) or [Ta'tîl] (completely ignoring or denying them i.e., there is no Face, or Eyes or Hands, or Shins for Allâh). These Qualities befit or suit only for Allâh Alone, and He does not resemble any of (His) creatures. As Allâh's Statement (in the Qur'ân): (1) "There is nothing like Him, and He is the All-Hearer, The All-Seer[a] (V.42.11) There is none comparable unto him (V.112:4)".

والقول بأن لله أعضاء وتصرفات وإن اختلفت عن أعضاء وتصرفات البشر يثبت تشبيه الله جل وعلا، بمخلوقاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويفرغ قوله تعالى: ليس كمثله شيء، من معناها ومحتواها اللغوي، لأنه يلغي المجاز، في التعبير باليد، في قوله تعالى «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ» أو الساق أو الوجه أو الاستواء أو غيرها. وكأن هذه الآية تقول بوجود يد حقيقية لله، ووجود ساق ووجه وأن الله يضحك وغير ذلك في آيات أو أحاديث أخرى، بغض النظر عن صفتها، وأن من ينكر وجود مثل هذه الصفات لله فقد كفر، وهو ما يعنيه الفقهاء بقولهم، أو تعطيل.

وكلام الفقهاء وإن كان ينفي أن لله يد مثل يد الإنسان بكف وخمسة أصابع،

إلا أنه يؤكد أن لله يد بشكل آخر، قد تكون على شكل يد بأصابع من دون كف، أو كف من دون أصابع، أو غير ذلك. وهكذا بالنسبة إلى الوجه وإلى الضحك والنزول وغيرها من الصفات التي يثبتها فقهاء المذهب لله (تعالى الله علواً كبيراً) وهو مخالف لقوله تعالى: . . .لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (الشورى:١١) لأن هذه الآية تقول بكل وضوح أن أي صفة تخطر على بال الإنسان فليس لله مثلها ولو اختلفت في الشكل، وكل ما يمكن للإنسان تصوره من صفة أو هيئة، فإن الله سبحانه وتعالى منزه عنها أو غيرها مما يمكن أن يطلق عليه المصطلح نفسه، ولو اختلف في الشكل. فإذا كان الإنسان يعرف الضحك، فإن الله لا يضحك، ولو كان بصفة مخالفة لضحك البشر. وإذا كان الإنسان يعرف اليد فالله منزه أن يكون له يد ولو كانت مختلفة عن أيدي البشر، وهكذا. فالله سبحانه له هيئة لا يمكن تصورها أو ما يقرب منها على الإطلاق. سبحانه وتعالى عما يصفون.

٤- وكما السنة، يقوم الشيعة بترجمة القرآن إلى لغات أخرى، بطريقة تظهر معنى الآيات وكأنها تقول ما يود الشيعة قوله عن أئمتهم وتشريعاتهم الفقهية المخالفة لتشريعات فقهاء المذاهب الأخرى.

ولن نسترسل في الأمثلة على ذلك، مكتفين بالقول بأن الشيعة يعتقدون جازمين أن القرآن يؤكد أن للرسول آل يمثلهم علي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين وتسعة من نسل الحسين بعد ذلك ممن يسميهم الشيعة بالأئمة الاثني عشر، ومما يستدلون به على ذلك الآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

وهذا نص الآية الكريمة: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

وبطبيعة الحال الآية لا تتحدث عن أئمة الشيعة، ولكنها تخاطب نساء الرسول صلوات الله وسلامه عليه (وللمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى فصل الصحابة ونساء المدينة).

وهذا نصٌ لبعض ما ورد في تفسير الآية المذكورة في الميزان في تفسير القرآن ـ محمد حسين الطباطبائي:

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عنكم» ولم يقل: عنكن فأما أن يكون الخطاب لهن ولغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام وهم المتقون لقوله تعالى: «إن أولياؤه إلا المتقون» أو أهل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم الذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه وأقربائه وهم آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي أو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأزواجه، ولعل هذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة وعروة أنها في أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة. انتهى.

وبطبيعة الحال سوف تترجم معاني الآية تبعاً لذلك، وسيقرأ غير المسلم أن معنى الآية هو التأكيد أن للإسلام أئمة اثني عشر بما يتوافق مع التفسير الشيعي لها والذي يخرجها من معناها الواضح، والمتمثل في الحديث إلى نساء الرسول عن ظرف حدث في ذلك الزمان.

وهكذا فترجمة الآيات القرآنية إلى لغات أخرى يحمل تحريفاً لمعاني الآيات عن معناها الأصلي ويقوِّل القرآن ما لم يقل، سواءً كان ذلك على أيدي الرهبان ورجال الكنيسة المسيحيين، الذين قصدوا من ترجمتهم الإساءة للإسلام والطعن فيه، أو على يد مسلمين ترجموا الآيات بطريقة تخدم ما يذهب إليه ويعتقده مذهبهم.

ويبقى الواجب على المسلمين أن يقوموا بترجمة للقرآن أكثر حرفية وبطريقة أكاديمية خالصة، تراعى فيها أمانة الترجمة الأدبية، ولا يضاف لها حواشٍ تحمل من الغث والسمين ما ليس له علاقة بالآية ولا يخدم توضيح معانيها، ويكتفى بنقل كلام الله سبحانه وتعالى إلى اللغات الأخرى كما نزل دون إضافات.

وتكون ترجمة معاني الآيات القرآنية إلى لغات أخرى بحاجة إلى مختصين بدرجة عالية جداً بقواعد اللغة العربية وحسها ومعاني مفرداتها، ولديهم أمانة علمية وأدبية لا شك فيها، أكثر مما تحتاج إلى فقهاء أو محدثين أو رجال دين يترجمون الآيات حسب وجهة نظر مذهبية.

ومثل الترجمة هناك النشاط الدعوي للإسلام، سواءً بين المسلمين أو غير المسلمين، حيث يطغى مذهب الداعية الفقهي على التعريف بالإسلام، فيقدم

الإسلام على الطريقة الوهابية أو الشيعية أو غيرها من المذاهب على أنه دين الله الصحيح، ولا يكتفى بما ذكره القرآن الكريم والسكوت عما سكت عنه، كما أمر الله سبحانه وتعالى بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أصبحواْ بِهَا كَافِرِينَ (المائدة: ١٠١-١٠٢).

وهكذا فكل مصائب الإسلام نجدها تكمن في تجاوز المسلمين لأمر الله في هاتين الآيتين، وذلك بالبحث عن الإسلام في غير كتاب الله، وعدم الاكتفاء بكلام الله جل وعلى وتشريعاته القرآنية، واتخذ كل فريق ومذهب تشريعات تختلف عن غيره من المذاهب، مع أن الله تعالى قد أوضح أن أي تشريعات متباينة ومختلفة حول مسألة فقهية واحدة إنما هو دليل على أنها ليست من دين الله، لأن دين الله يعتمد على القرآن الذي لا خلاف ولا اختلاف في تشريعاته، يقول تعالى: أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافاً كَثِيراً (النساء: ٨٢).

ويكون ما يسمى بعلوم الفقه والحديث والتفسير، ومعها أسباب النزول وادعاء النسخ في القرآن، قد شتت المسلمين على شكل فرق ومذاهب، بدل أن تجمعهم على دين الله الواحد. وتبعاً لذلك التشتت والفرقة، ترجم القرآن الكريم لغير المسلمين وللمسلمين ليعكس وجهة نظر مذهبية، ويساهم في البعد عن الدين الصحيح، ومثل الترجمة تقوم النشاطات الدعوية والتوعوية بتعميق الفرقة والابتعاد أكثر عن صحيح الدين.

مصادر الباب

- القرآن الكريم.
- سيرة ابن هشام/ ابن هشام/ دار المعرفة ـ بيروت.
- تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.
- مقدمة ابن خلدون/ ابن خلدون/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- الكامل في التاريخ/ ابن الأثير/ بيت الأفكار الدولية ـ بيروت.
- فتوح البلدان / البلاذري/ دار الكتب العلمية– بيروت.
- الأوائل/ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تاريخ الخلفاء/ السيوطي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الأخبار الطوال/ الدينوري/ دار القلم للطباعة والنشر ـ بيروت.
- أنساب الأشراف / أبو الحسن أحمد بن جابر البلاذري مطبعة الشركة المتحدة للتوزيع.
- تذكرة الحفاظ/ الذهبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تهذيب الكمال/ أبو الحجاج المزي/ دار الفكر ـ بيروت.
- الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- موطأ مالك/ مالك بن أنس/ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- كتاب البخاري/ البخاري/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- جامع البيان في تفسير القرآن/ ابن جرير الطبري ـ طباعة ونشر دار المعرفة ـ بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

الباب العاشر

دولة بني أمية

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (التوبة: ٦٩).

* الطريقة التي استولى فيها معاوية على الملك أرست سياسة القمع والتملك بالقوة، وألغت معنى الخلافة إلى الأبد.

* الاتفاق الذي جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية على أن تقسم الدولة إلى قسمين: يحكم معاوية قسم منها ويحكم القسم الآخر علي، كانت البذرة التي أدت إلى تقسيم دولة الإسلام من دولة واحدة لكل المسلمين، إلى دويلات كل دويلة لزعيم.

* أصبحت الألقاب الدينية كأمير المؤمنين وخليفة رسول الله يتسمى بها السلطان، ولكنها لا تردعه عن مرافقة الشيطان.

* ترسخت الطبقية ولم يعد المسلمون سواسية كما خلقهم الله، فأصبح هناك طبقة الملوك ثم طبقة خاصة الخاصة ثم طبقة الخاصة ثم طبقة العامة والرعاع.

* في عهد معاوية ظهرت المواكب والبروتوكولات الملكية، واتخذ الحرس الملكي والحرس الخاص وأصبح الدخول على الملك لا يتم إلا بالمرور بالحجّاب وبعد استئذان.

* معاوية أول من استحلف الناس على مبايعته بالسمع والطاعة له وعدم الخروج عليه أو عصيانه.

* أصبح هناك سقف أعلى لا تتجاوزه التشريعات الدينية، ويمنعها من الوصول إلى القصور الملكية وخاصة الخاصة.
* وترسخت فكرة أن الدولة وممتلكاتها ملك شخصي للسلطان وليست مسؤولة عن معايش الناس والنظر في مصالحهم.
* وفتحت الظروف المعيشية والسياسية المحيطة الباب لكل تحول في الدين وظهور الفرق والمذاهب المختلفة.

منذ استولت قريش على مكة زمن قصي والعرب تنظر إليهم نظرة تعظيم تحولت إلى ما يشبه التقديس الذي استفاد منه القرشيون. فعاشوا سادة أعزاء آمنين سواءً كانوا داخل حرم بيت الله الذي نذروا أنفسهم سدنة له وخدماً لحجيجه، أو في ترحالهم خارج مكة طلباً للتجارة مع الشام واليمن. فلم تكن تتعرض قوافلهم للنهب ولا نساؤهم للسبي ولا رجالهم للحروب، لأن الانتماء لقريش كان جواز سفر دبلوماسياً اعترفت به كل قبائل جزيرة العرب سواءً كانوا من البدو الذين تعتمد حياتهم على السلب والنهب، أو من شعوب الممالك اليمنية المستقرة والمتحضرة. فالجميع كانوا ينظرون بكل إجلال واحترام إلى القرشي، ولم يكن أحد يتصور أن ذلك المجد سيخبو أو ينهار أو يتعرض لأي نوع من الأخطار.

ولكن في العام الثامن من الهجرة (٦٢٩ للميلاد) فتحت مكة، على يد محمد الذي خرج منها خائفاً يترقب تحت جنح الظلام قبل ثماني سنوات. وتداعى المجد القرشي التليد في لمح البصر، ووجد من بقي من سادة قريش أنفسهم أذلاء تتخطفهم الطير من الخوف. فهرب البعض خارج مكة لا يلوي على شيء، واضطر الأغلبية منهم للاستسلام المذل لجيش أعدائهم المسلمين والقبول بشروطهم للبقاء على قيد حياة ليس فيها من عزة ومجد الأجداد شيء.

وكان ممن استسلم صاحب لواء الحرب في قريش وواحد ممن بقي من سادتها المشهورين ـ صخر بن حرب ـ المعروف بكنيته «أبو سفيان» ومعه نديمه وصديق صباه العباس بن عبد المطلب، الذي كانت إليه في الجاهلية السقاية والعمارة. وهذان الرجلان نطقا يوم الفتح، بشهادة الإسلام التي تبقي على صاحبها وتضمن له عدم المساءلة عن جرائمه السابقة بحق المسلمين، ولكن الوقائع تؤكد أن مشاعرهما قد تأذت كثيراً بخراب سلطة قريش، وأن هذا الشعور بقي جرحاً غائراً في النفس، وكانا يتحينان الفرصة لإعادة مجد الأجداد والثأر من دولة الإسلام.

ومنذ وفاة الرسول وهما يسعيان للاستيلاء على حكم دولة المسلمين، فاجتمعا في حزب واحد مع علي بن أبي طالب وبعض القرشيين[1]، ولكن حزب أبي بكر وعمر كسب الرهان واستولى على الحكم دونهما.

وعلى الرغم من أن الرجلين قد هلكا فيما بين عام (٣١) و(٣٣) للهجرة، إلا أن أمنيتيهما تحققتا على أيدي نسلهما. فقد استطاع أحد أحفاد العباس من انتزاع الحكم من شركاء الدرب والقضية (الأمويين) وسحقهم في العام (١٣٢ للهجرة) وهو السفاح أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ليصير الملكُ في ذُرِّية العباس، الذين تداولوه لمئات السنين.

وقبل ذلك استطاع معاوية بن أبي سفيان في السنة الأربعين للهجرة من الاستيلاء على حكم دولة المسلمين بشكل كامل بعد مقتل منافسه القرشي الآخر علي بن أبي طالب. واستطاع معاوية أن يصبح الحاكم الأوحد ليس لمكة وجبالها الجرداء، بل ولبلاد تمتد من غرب الصين إلى تونس الحالية، ومن باب المندب وسواحل عمان إلى القسطنطينية، واستعاض عن مجد قريش البائد والمحدود، بمجد ليس له حدود.

وفي الأسطر القادمة سنتعرف أكثر على معاوية وكيف استطاع الوصول إلى حكم دولة الإسلام، وكيف ساهم في تعميق مثالب تراث المسلمين.

---

(١) انظر موضوع سقيفة بني ساعدة.

معاوية بن أبي سفيان

نطق بالشهادتين يوم فتح مكة، فهو من الطلقاء، وبقي في مكة ولم يهاجر، لذا فلم يكن من كتاب الوحي كما يزعم بعض الإخباريين.

وكان سيعقد له لواء الحرب في قريش لو لم يأت الإسلام، بعد أن يرثه من والده أبي سفيان، الذي ورث ذلك من والده حرب، ولذلك عندما جاء فتح مكة كان أبو سفيان لا يزال على مناهضته للإسلام، ولم يكن يرغب في الدخول فيه، ولكن لم يكن لديه خيار آخر. وبما أن الرسول في تلك اللحظة جاء للقضاء على سطوة كفار قريش وليس على أشخاصهم، فقد كان النطق بالشهادة يكفي لعدم محاكمة الشخص عما فعله ضد الإسلام والمسلمين في السابق، وبذلك أقنعه صاحبه ونديمه القديم، العباس بن عبد المطلب، وحضر معه للرسول لينطق بالشهادة.

ويصف ابن هشام ذلك اللقاء الذي تم يوم فتح مكة، بقوله: فلما رآه (رسول الله) قال ويحك أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله فقال بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً فقال ويحك يا أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أني رسول الله فقال بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك أما هذه ففي النفس منها شيء فقال العباس فقلت له ويلك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك قال فتشهد. انتهى[١].

---

(١) سيرة ابن هشام / فصل إسلام أبي سفيان على يدي العباس بن عبد المطلب ج٤ ص٣٢.

كيف وصل معاوية إلى الحكم

بعد فتح قنسرين سنة ١٩ للهجرة، أصبح معاوية والياً عليها، وكانت بداية عهده بالولاية[١]. وعندما توفي عمر بن الخطاب كان معاوية والياً على دمشق والأردن، لأن عمر أقره على أن يخلف أخاه يزيد بن معاوية الذي توفي قبل ذلك.

في عهد عثمان ضمت إليه حمص بعد اعتزال واليها عمير بن سعد الحكم، وفلسطين بعد موت واليها عبد الرحمن بن علقمة الكناني، ولم تمض سنتان على خلافة عثمان حتى أصبحت الشام كلها ولاية لمعاوية[٢].

وأثناء عهد عثمان كانت الشام شبه مستقلة عن الدولة الإسلامية، ولو أن هذا لم يعلن، لأن معاوية أو غيره من الناس لم تصل بهم الجرأة للخروج عن مألوف الخلافة كما سنها أبو بكر وعمر، ولكن معاوية كان يتصرف بما تمليه عليه نفسه في ولايته دون الرجوع إلى الخليفة، وبخط مخالف لخط الخلافة. وقد ساعده على ذلك سياسة عثمان نفسها، ولذلك عندما حضر أبو ذر للشام هاله ما رأى من إطلاق معاوية يده بكل حرية وبلا حدود في بيت مال المسلمين، وشكاه للخليفة بحسن نية ظناً منه أن عثمان سيعارض تلك السياسة ويقوّم معاوية أو يعزله، ولكن اتضح له أن عثمان هو من أعطى معاوية الضوء الأخضر لتلك التصرفات، لأنه كان يتصرف بالطريقة نفسها. ووقف عثمان موقفاً قاسياً من أبي ذر، كان من نتيجتها أن أبا ذر ابتعد أو أبعد للربذة، ولما حضرته الوفاة أوصى بعدم صلاة عثمان عليه[٣].

وأثناء حصار عثمان طلب من معاوية نجدته بجنود من عنده لحمايته، لما أحس أن كل من في المدينة لم يكونوا في صفه، ولكن معاوية تباطأ في إرسال النجدة، أو أنه لم يرسل نجدة على الإطلاق. وقد ذكَّر أبو الطفيل معاوية بذلك أثناء حكمه، عندما قال له إنك كنت مع عثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

فإن كان معاوية تعمد عدم الإرسال فيكون قد فهم بأن نجدة عثمان تعني إعلانه

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة تسعة عشر.
(٢) انظر تاريخ الطبري ـ أحداث سنة إحدى وثلاثين.
(٣) نقلناه بتصرف من تاريخ الطبري / أحداث سنة ثلاثين.

العداء لعموم المسلمين، وهذا سيؤلب الناس عليه ولن يكون في وضع يسمح له بالمطالبة بالملك في وقت لاحق، بل قد يؤدي إلى خسارته إمرة الشام التي تحت يده.

وعندما قتل عثمان، لم يجب معاوية في بداية الأمر، برفض أو قبول مبايعة علي بن أبي طالب، وهذا أعطاه وقتاً كافياً للتفكير، واستشارة المقربين منه، وسبر غور الشارع الإسلامي تجاه علي، فإن أجمعوا عليه فلن يكون أمام معاوية سوى التسليم له.

ولما علم أن الناس لم تتفق على تولي علي بن أبي طالب الخلافة، أعلن أنه يطالب بدم عثمان لسببين:

١- لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن يستطع الجهر بنواياه للوصول إلى العرش. فهو يعلم أن المجتمع الذي قتل عثمان لأنه أحدث في أمر الخلافة ما ليس منها، وهو الصحابي الجليل والرجل المسن، لن يقبلوا أن يتولاهم من هو بمنزلة معاوية، الذي ليس له سابقة بالإسلام. لأن الناس كانوا يبحثون عن رجل قادرٍ على العودة إلى أجواء خلافة أبي بكر وعمر على أقل تقدير، ولا يكرر ما فعله عثمان حتى لا يبتعد الناس أكثر عن حكم الله، وتتحول الدولة الإسلامية إلى ملك عضوض.

٢- بما أن علي بن أبي طالب لم يكن الرجل المناسب، في نظر عدد من كبار الصحابة الذين كانوا على قيد الحياة، ولم يؤازره سوى وفد الكوفة من القراء الذين حضروا إلى المدينة مع وفود مصر والبصرة لمساءلة عثمان، قبل أن تنتهي تلك الأحداث بقتله، فقد أفسحت هذه التطورات المجال لمعاوية بأن ينازع علي السلطة بحجة إيواء علي بن أبي طالب إلى قتلة عثمان، دون وجل من معارضة الصحابة له أو الوقوف ضده أو اتهامه بالسعي للملك.

بل على العكس، فقد أكسبه تصرفه ذاك، ود معارضي علي المختلفين، وإن لم ينضموا إليه، سواءً منهم من فضل الابتعاد والنجاة بنفسه من مشاكل الدنيا ومساءلة الآخرة، وكان على رأس هؤلاء سعد بن أبي وقاص. أو من اختار الحل العسكري والمواجهات الحربية مثل أم المؤمنين عائشة ومعها طلحة والزبير، لتنحية علي بن أبي طالب، الذي لم يكن على استعداد للتفاوض على منصب كان يتطلع لاعتلائه منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد دخل معاوية في مواجهة مسلحة مع علي بن أبي طالب في المعركة المشهورة في صفين والتي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين، والتي انتهت دون أن يقضي أحد المتنافسين على غريمه. وانسحب الجيشان فعاد معاوية وجيشه للشام وعاد علي بن أبي طالب بمن معه للعراق.

سياسة حكمه ونتائجه

جاء عهد معاوية على نقيض ما كان عليه الوضع في عهد الخلافة البكرعمرية، واتفق مع عثمان وعلي في بعض الأمور، بينما خالف الجميع في أمور أخرى.

* فقد اختفت الخلافة إلى الأبد، ودخل في نزاع دموي على الحكم مع علي بن أبي طالب، وبعد التحكيم استولى على مصر بمعاونة عمرو بن العاص بعد قتل واليها محمد بن أبي بكر على يد أحد قواد جيش عمرو واسمه معاوية بن حديج، ويقول الطبري وغيره من كتب التاريخ بأن معاوية قتل محمد بن أبي بكر ثم عصره داخل جيفة حمار ثم أحرقه بالنار(١).

* كما أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أبي أرطأة على رأس جيش للاستيلاء على الحجاز واليمن، وقد وصف أبو موسى الأشعري أفعال ذلك الجيش بقوله: «إن خيلاً مبعوثة من عند معاوية تقتل الناس، تقتل من أبى أن يقر بالحكومة»(٢) وكان علياً لازال على قيد الحياة، فأرسل قوة استطاع بواسطتها استعادة تلك المناطق لأمد.

ونتيجة لأفعال معاوية تلك أصبح الاستيلاء على الحكم بحد السيف أمراً مشروعاً لمن يقدر عليه.

* بعد ذلك جرت مراسلات بين معاوية وعلي اتفقا على أن يعترف علي بحكم معاوية في الشام، ويعترف معاوية بحكم علي على العراق وبقية المناطق، وتعاهدا على عدم الدخول في حرب جديدة ضد بعضهما البعض، كما أورد الطبري في تاريخه. ولكن مقتل علي جعل معاوية ينفرد بالسلطة على كل البلاد الإسلامية، ويقوم بإخماد كل جيوب المعارضة بالمال أحياناً وبالسطوة

---

(١) تاريخ الطبري/ أحداث سنة ثمان وثلاثين.

(٢) تاريخ الطبري / أحداث سنة أربعين.

والجبروت أحياناً أخرى. والنتيجة أن معنى دولة الإسلام لكل المسلمين لم يعد له وجود، واستبدل بممالك شخصية.

* كان معاوية يلقب بالخليفة ويتسمى بأمير المؤمنين، ولكنه تصرف كملك عشائري صرف، وقد أورد الطبري وصفاً له على لسان عبدالله بن عباس يقول فيه: ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية[١]. كما روى الطبري[٢] عن معاوية قوله: رحم الله أبا بكر! لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه؛ وأما نحن فتمرغنا فيها، ثم كأنه تنبه فقال: والله إنه لملك آتانا الله إياه[٣].
والنتيجة أن مسمى خليفة أو أمير المؤمنين أو أي لقب يشتم منه أنه إسلامي، ولو لم يكن كذلك قد أصبح مطلباً للدولة ليردده عامة الناس، ولكن لا يكبل الحاكم عن التصرف بما يخالفه.

* ومع أن عثمان وعلي قد تصرفا كملوك إلا أن الفروق الاجتماعية لم تكن قد ظهرت في عهدهما بوضوح فيما بين الناس وبين الطبقة الحاكمة، فلما جاء معاوية رسخ الطبقية، واعتبر نفسه ممن يجري في عروقه الدم الأزرق الملكي الذي يميزه عن غيره من خلق الله، فخلقت له هيبة عند الناس دلت عليها هذه الحادثة التي يذكرها الطبري في أحداث سنة ستين بقوله: أخبرت أن عمرو بن العاص وفد على معاوية ومعه (بعض) أهل مصر. فقال لهم عمرو: انظروا، إذا دخلتم على ابن هند فلا تسلموا عليه بالخلافة، فإنه أعظم لكم في عينه، وصغروه ما استطعتم... فكان أول من دخل عليه رجل من أهل مصر يقال له ابن الخياط، فدخل وقد تُعتع، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فتتابع القوم على ذلك (أي قالوا بمثل قوله)، فلما خرجوا قال لهم عمرو: لعنكم الله! نهيتكم أن تسلموا عليه بالإمارة، فسلمتم عليه بالنبوة.

* وكان معاوية أول من اتخذ الحجَّاب في دولة المسلمين، وكان رئيسهم

---

(١) أحداث سنة ستين.

(٢) أحداث سنة ستين.

(٣) معاوية كان يستشهد بتلك الأقوال.

مولاه سعد. فسن بذلك سنة اتبعها من بعده، فلم يعد الدخول على الملك يتم إلا بالمرور بالحجّاب وبعد استئذان ومواعيد وأحياناً كثيرة لا يتمكن الزائر من الوصول إلى الملك أو مقابلته. وقد روى عنه الطبري قوله عن الناس: إنا كما نملك أموركم، نملك إذنكم.

وهذه البروتوكولات أصبحت من أهم ما يميز الحكام عن الناس، وتوارثوها عبر العصور وأصبحت من المسلمات التي لم يستطع (أو لم يرد) الفقهاء أن يجدوا فيها غضاضة أو مخالفة لجوهر الدين. كما غرست الرهبة الملكية التي يشعر بها الناس تجاه الملوك وأبنائهم.

* كما كان معاوية أول من اتخذ الحرس الملكي والحرس الخاص، وكان رئيس حرسه يكنى أبا المخارق.

* وأصبح له كاتب خاص وأمين سر وهو سرجون بن منصور الرومي، والذي يدل اسمه على دينه.

* وكان أول من اتخذ موكباً ملكياً في الإسلام.

* وأول من اتخذ الخصيان كخدم خاص (خويا)[1].

* وأول من استحلف الناس على مبايعته بالسمع والطاعة له وعدم الخروج عليه أو عصيانه.

* وساس الناس بسياسة ملوكية خالصة، حتى أصبحت شعرة معاوية منهجاً للحكم لمن جاء بعده من الحكام. هذا فيما دون التطلع للحكم. ومن ذلك أن رجلاً قد أغلظ لمعاوية فأكثر، فقيل له: أتحلم على هذا؟ (ولا تقطع رأسه) فقال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا. فمن ينازعه عليه أو حتى يجاهر بالاعتراض على الحكم أو بنقد الطريقة التي تدار بها البلاد، ولو بالحديث دون الفعل، فسيكون مصيره من السوء كمصير حجر بن عدي[2].

---

(١) لفظة عامية معروفة في نجد من بلاد الجزيرة العربية، وهي جمع خوي، والخوي هو رجل يعمل على تنفيذ أوامر الحاكم أو أفراد أسرته دون نقاش أو مماطلة، بغض النظر عن ماهية الأمر، وهي مهنة تدوم طوال العمر ما دام الخوي قادراً على التنفيذ، دون اعتبار لعمر تقاعدي.

(٢) من صغار الصحابة وأحد قواد جيوش علي بن أبي طالب، قبض عليه زياد ابن أبيه بعد أصبح والياً=

* وهو أول من جعل الملك وراثة في ذريته.

* ولم يسمح بمحاسبة ولا بمراقبة ولا بنقد.

* وكانت حقوق الناس المعنوية قد ألغيت منذ عهد عثمان، ومعها حقوقهم المالية. وزاد الوضع سوءاً معاوية، حيث أصبح يقتل على الظن، ويقتل البريء ليعتبر غيره.

* أصبحت الطبقية مظهراً اجتماعياً بعدما كان الناس إخوة متساوين، وقد حرص معاوية على ترسيخ هذا المبدأ. فكان له مجلس يستقبل فيه خاصة الخاصة من الناس، ومجلس يستقبل فيه الخاصة من الناس، ومجلس يستقبل فيه جمعاً من المواطنين أصحاب الحاجات.

* وهو الذي رسخ فكرة الهبات الملكية والتفضل على الرعية بما تجود به نفسه الكريمة. فإن مدحه شاعر وهبه، وإن داهنه منافق أعطاه، وأصبح الناس يتسولون حقوقهم من الحاكم الذي يتصرف وكأنه يملك البلاد والعباد، فإن شاء تفضل وإن شاء منع. وضاعت حقوق الناس المفروضة لهم في بيت المال بعد ضياع بيت المال واستيلاء الحاكم عليه.

* بعد مقتل عثمان وتنافس من بعده على السلطة، وقتل المسلم لأخيه المسلم، وحدوث الفرقة والشقاق بين المسلمين. تمنى الناس خاصة بعض الصحابة، لو صبروا على تجاوزات عثمان مع وحدة الأمة، ولم يصل الأمر بهم لما وصل إليه من قلاقل ومحن وضعف في الدين، فحاولوا حث الناس على قبول الوضع والكف عن الثورات على الحاكم عن طريق التحديث بضرورة الصبر على أي حاكم مهما ظلم، وأن الخروج عليه كأنه خروج على الدين، لأن وظيفة الخليفة الأساسية هي القيام نيابة عن الرسول بتنفيذ الشرع، ولذلك يجب السمع والطاعة له. وكانت النتيجة أن ترسخت لدى الناس فكرة أن البيعة جزء من الدين، ولو أنها تعني الخنوع والطاعة العمياء للحاكم، وإن ظلم وقتل وعذب فما على الناس سوى الصبر. وقد ساعدت

=لمعاوية على العراق وأرسله وخمسة أنفار معه إلى معاوية في دمشق فأمر معاوية بقتلهم، برغم أن علي بن أبي طالب كان قد قتل وفني حكمه.

هذه المفاهيم معاوية في ترسيخ ملكه، وتوريثه لابنه من بعده، وسحقه لمناهضيه، فالحق أصبح ما يفعله الحاكم ولو كان ظلماً، والظلم ما ينتقد به ولو كان حقاً. فتحول الناس إلى غوغائيين ورعاع وهمجيين، وقبعوا في الظل مهمشين أذلاء خائفين وفقراء، تحت سلطة حاكم متغطرس لا يقيم لهم وزناً، ويعيش في قصور مليئة بالملذات والموبقات.

* ومع وجود الملك لم يعد هناك مكان لحكم القرآن، لأن القرآن دستور حكم الله، وبما أن الملك (بكسر اللام) هو الحاكم فرأيه هو دستور حكمه. فكانت الناس تقتل لأن الملك أمر بذلك، وليس لأن المقتول قد اقترف معصية في شرع الله حدها القتل. وأصبح القادر على العفو وحده الحاكم ولو كان المعفى عنه قد جاهر بمعصية حدها القتل في الإسلام. ولم تعد المعصية ما يخالف أوامر الله (الحاكم القديم) بل أصبحت المعصية ما يخالف أوامر الملك (الحاكم الجديد).

* وكان دين الله قد جاء لتخليص البشر من أي نوع من العبودية تجاه أي بشر أو حجر وجعلها لله خالصة، لأن الله وحده المتحكم بأرواح وأرزاق البشر، وله وحده يخضعون ويخشعون. ولكن معاوية أصبح هو الملك والمشرع والمتحكم بأرواح الناس وأرزاقهم، فطولبوا بالخضوع له. وحلت خشيته في قلوب الناس محل الخشية من الله. وبطبيعة الحال لن يطبق عليه ما يطبق على غيره من أحكام لأنه هو من يصدرها، ومن غير المعقول أن تحكمه أحكاماً هو من قال بها.

* سمح بالتحديث الذي يظهره على الحق، ويبرر أفعاله. ولم يسمح بقول الحق ولو كان نصاً من كلام الله.

* وضع حداً فاصلاً بين أوامر الدين وبين قصور الملوك وخاصة الخاصة، حتى لا يصل إليها أو يتعرض لما يجري بداخلها. وأطلق العنان للفقهاء بالتضييق على العامة باسم الدين كيفما يشاؤون. ولكي لا يطال الحاكم النقد، وينفرد بملذات الدنيا من دون إزعاج، فقد اقتصر في الوعظ على العبادات فقط، ووجهت للناس دون الحكام.

* ابتعد معاوية عن الحياة البسيطة أو العادية في قصره الذي ابتناه في دمشق وسماه الخضراء، وما حواه من خدم وحشم وجوار.

وعندما مات معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ للهجرة، أي بعد خمسين سنة فقط من وفاة الرسول. كان المجتمع قد أصبح عبارة عن شعب مقهور مسحوق لا حقوق له ولا قيمة ولا قدر معنوي، وعليه تدبر حال رزقه بنفسه دون تدخل من الدولة التي لا تتحمل أي التزامات للمواطنين سوى حفظ الأمن. ليس لأنه يهمها أمن المواطن والحفاظ على ماله ودمه وعرضه كما أوصى الدين، بل لأن الفوضى خطر على بقاء الحكم، ولذلك فالقضاء عليها في مهدها قبل أن تستشري، هو إخماد للشرارة قبل أن تستعر وتصبح لهباً قد يحرق الحاكم وحكمه، وهذه السنة يعمل بها حكام المسلمين إلى اليوم.

وقد كانت دولة الإسلام تضمن حقوق الناس جميعاً، ومنها أن يصرف لهم ما يكفيهم من بيت المال بكل عدل. وقد قال عمر(أو لسان حاله): لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأوصلت إلى كل ذي حق حقه في مكانه. وقال إنه يتخوف من أن يسأله الله عن جمل مات عطشاً أو ضاع في أي مكان ما من الدولة. أما في دولة معاوية فقد أصبح كل مال الدولة مالاً للحاكم، وأصبح على الناس أن يستجدوا الحاكم للحصول على ما يقوم حياتهم، كل على طريقته. فجاءت الهبات والعطايا مختلفة باختلاف طالبيها. فحظي المقربون بنصيب الأسد، مما جعلهم يعيشون في رغد لا يقدر عليه بقية الناس دونهم. وحصل من استطاع الوصول إلى البلاط من عامة الناس على فتات لا يقوم حياتهم ولا يسد رمقهم. وأصبح كل من يعمل بوظيفة للدولة يعتبر خادماً للحاكم، عليه العمل بما يتوافق مع رغبات ولي النعمة، لأن الحاكم هو من وظفه وهو من يصرف له معاشه الذي يقتات منه ويبقيه على قيد الحياة، وبيده حرمانه منه.

فإذا كان من موظفي الدولة الفقهاء والمحدثين، فإن العجب سيزول عن سبب انحراف الدين، وتسمية الحاكم بإمام المسلمين، وجعل الخروج عليه أو عصيانه عصياناً لرب العالمين. فتسابق الناس على مداهنة السلطان طمعاً في المغانم، وتباروا في مدحه واختيار الألقاب له.

يقول الطبري في أحداث سنة ستين بأن أبا موسى الأشعري (أحد رجالات علي بن أبي طالب المقربين ورجل التحكيم) قد قدم على معاوية، فدخل عليه في

برنس أسود، فقال: السلام عليك يا أمين الله، فقال معاوية: وعليك السلام. فلما خرج قال معاوية: قدم الشيخ لأوليه، ولا والله لا أوليه.

ومنذ عهد معاوية أصبح الحاكم أميناً لله على ملك وهبه الله له، وقد جاء بقضاء من الله وقدر منه ورضىً عليه. فالله يهب الملك لمن يشاء من عباده، ولذلك فلا يمكن للناس أن يعترضوا على حكم الله، وعليهم الامتثال له. وصار ينعم بكل دخل الدولة، ولو احتاج إلى مزيد من الدخل فله أن يفرض ما يشاء من ضرائب على المواطن الذي عليه التنفيذ بلا اعتراض، وإلا اعتبر خارجاً عن الطاعة التي بايع على الوفاء بها، وتعرض للعقاب الذي يختاره له الحاكم، الذي خوله الله لأن يحكم في مملكته وفي مماليكه بما يريد.

وبعد معاوية جاء ابنه يزيد، بعد أخذ البيعة له من الناس بالقوة. عندما قال معاوية لجمع ممن بقي من الصحابة، وهو على فراش الموت: الخليفة هذا (يقصد نفسه) وولي العهد هذا (يقصد يزيد) ومن أبى فهذا (أي السيف).

الحسن ابن علي

بويع من قِبل الناس الذين بقوا على قيد الحياة ممن بايعوا علياً لأن معاوية يتعقبهم بدعوى قتل عثمان، ولهذا السبب بايعوا الحسن لا موالاة له ولكن خوفاً من بطش معاوية. ولكن أعدادهم لم تكن كافية لمواجهة جيش معاوية القوي والكثير العدد، فلجأ الحسن إلى المدائن. ويقول الطبري: كان الحسن لا يرى القتال (أي ضد معاوية) ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ماستطاع (من المال ومتاع الدنيا) من معاوية. . . .إنتهى.

ولذلك يقول الطبري أن الحسن وافق على الاستسلام في سنة إحدى وأربعين من الهجرة بالشروط التالية:

- أن يأخذ الحسن ما في بيت مال الكوفة، وكان فيها خمسة آلاف ألف.
- وأن يكون للحسن خراج دار ابجر.
- وأن لا يشتم أبوه علي وهو يسمع. . . . . .وأشياء أخرى.

ويذكر الدينوري في الأخبار الطوال أن الشروط كانت:

- أن يعفوا عن أهل العراق (ولا يعاقبهم بسبب مقتل عثمان).
- ويكتب له خراج الأهواز في كل عام.
- ويعطى أخيه الحسين ألفي ألف (مليونين) كل عام.
- ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس.

أما كيف استحل الحسن لنفسه تلك الشروط في دين الله، فهذا ما لم يسأله أحد في السابق ولم يتساءل عنه الإخباريون في أي زمن. وكل من كتب عن الحسن لم يتوقفوا ولو للحظة عند هذه المطالب ومناقشة شرعيتها، وكأنهم اعتبروا

أن سرقة بيت مال الكوفة وخراج دار ابجر، من يد سارق بيوت مال المسلمين في كل الأمصار وخراجها، حلال كحل الشعرة من جلد الجنزير في المثل العامي.

والحسن، كما قال عنه الطبري، كان يرغب في السلطة لأنها جاه ومال، ولذلك تنازل عندما حصل على بعض ذلك الجاه والمال. أما معاوية فلم يمانع في إعطاء الحسن وغير الحسن ما يطلب من المال الذي يزخر به بيت المال، والذي يتصرف فيه الملك كيفما شاء، لقاء الدخول تحت حكمه. وعبر العصور لم يكن هناك أسهل على سلاطين المسلمين من شراء الذمم بالمال، وبالمال أيضاً يتم القضاء على المعارضين.

يزيد بن معاوية

لما مرض معاوية وأحس بدنو أجله دعا ابنه يزيد وقال: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال (في طلب الملك) ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب... وفي آخر كلمته أخبره كيف يفعل بمن ينازعه الملك أو يعصي له أمراً بقوله: فقطعه إرباً إربا. وهو كلام يختصر معنى الحكم، وكيفية المحافظة عليه[1]. وقد حفظ يزيد الوصية وعمل بها طوال فترة حكمه. وهذه أبرز ملامح ذلك الحكم:

* كان مما اشتهر عن معاوية قوله فرق تسد والتي أصبحت قاعدة حكم سار عليها أول من سار يزيد بن معاوية. فقد كان يختار الأخ ليحارب أخاه من أجل الدخول في طاعة الدولة، كما فعل مع عبدالله بن الزبير عندما أرسل له أخوه عمرو بن الزبير في جيش لإرغامه على المبايعة.

* كما سن يزيد الاستهانة بالأماكن المقدسة، نتيجة لما حدث في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة. وفيها قتل أربعة آلاف وخمسمائة رجل من أهل المدينة، التي استبيحت لمدة ثلاثة أيام، وفضت بكارة ألف فتاة من بنات الصحابة وبنات أبنائهم (حتى لو كانت الأرقام مبالغ فيها). وفي اليوم الرابع جلس قائد جيش يزيد واسمه مسلم بن عقبة لمبايعة أهل المدينة. وكان أول من ضرب الكعبة بالمنجنيق وانتهك حرمات بيت الله.

يقول الدينوري في الأخبار الطوال إن أول من أتاه يزيد بن عبدالله بن ربيعة بن الأسود، وجدّته أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه

---

(١) الطبري / أحداث سنة ستين.

وسلم. فقال له مسلم: بايعني، قال: «أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم» فقال مسلم: «بل بايع على أنكم فيء لأمير المؤمنين (يزيد)، يفعل في أموالكم وذراريكم ما يشاء». فأبى أن يبايع على ذلك، فأمر به فضربت عنقه. وهكذا فعل بعدد ممن جاء بعده، حتى أرغم الناس على المبايعة بالصيغة التي اختارها الزبانية وارتضاها الحاكم.

* وعندما خاف الحسين بن علي بن أبي طالب على نفسه من بطش يزيد، طاوع جماعة ممن ناصروا علياً ضد معاوية واستجاب لحثهم له على أن يكون زعيماً مستقلاً بالعراق، فأرسل له يزيد جيشاً أجهز عليه وجُزَّت رأسه وأرسلت ليزيد في دمشق. وقد تحولت هذه الحادثة التي تلطخت بآلاف مثلها صفحات التاريخ الإسلامي، إلى مناسبة دينية عظمها أسلاف أولئك الذين ناصروا الحسين ومن قبله والده علي والذين حولوا دعواتهم السياسية إلى عقيدة حولت الحسين من طالب حكم إلى رمز لا يقوم الدين إلا به. خاصة بعد أن انتسب إلى التشيع الكثير من الفرس الذين ساعدوا على تفشي عقيدة تقديس علي وأبنائه، لأن الحسين بن علي كان قد تزوج بابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس. وأصبح يوم عاشوراء الذي قتل فيه الحسين يوماً مقدساً وله طقوس خاصة، بل إنه أمسى مقدساً عند كل المسلمين من غير الشيعة، والذين قدسوه بطرق مختلفة.

* وانتشرت في أيام يزيد عادة شرب الخمور في القصور الملكية، وكان هو نفسه يعاقر الخمرة يومياً.

عبدالله بن الزبير

روى البخاري حديثاً برقم (٦٩٥٤) يصور حال كل من حاول الوصول إلى الحكم بعد فتنة عثمان، هذا نصه: حدَّثنا أحمدُ بن يونسَ حدثَنا أبو شهابٍ عن عَوفٍ عن أبي المنهالِ قال: لما كان ابن زيادٍ ومروانُ بالشام، وَثَبَ ابن الزُّبَير بمكة، وَوَثَبَ القرّاءُ بالبصرة، فانطلقتُ مع أبي إلى أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ حتى دَخلْنا عليه في دارِهِ وهو جالسٌ في ظِلِّ عُليَّةٍ لهُ من قَصَب فجَلَسْنا إليه، فأنشأ أبي يَستطعِمُه الحديثَ فقال: يا أَبَا بَرْزَةَ، ألا ترى ما وَقَعَ فيه الناسُ؟ فأَوَّلُ شيءٍ سمعتُهُ تَكلم بهِ: إني احتسبتُ عندَ اللَّه أني أصبحت ساخِطاً على أحياءِ قريش، إنكم يا معشَرَ العربِ كنتم على الحالِ الذي علمتم من الذلةِ والقِلَّةِ والضلالة، وإنَّ اللَّهَ أنقذكم بالإسلام وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم حتى بَلَغَ بكم ما ترون، وهذهِ الدنيا التي أفسَدَت بينكم. إنَّ ذاكَ الذي بالشام واللَّهِ إن يُقاتلُ إلا على دنيا، وإنَّ هؤلاء الذين بينَ أظهُرِكم واللَّهِ إنْ يُقاتلونَ إلى على دُنيا، وإنَّ ذاك الذي بمكةَ واللَّهِ إنْ يُقاتلُ إلا على الدُّنيا. انتهى.

وكان عبدالله بن الزبير قد استقر في مكة بعد أن بايعه الناس بالخلافة، فور وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، في الحجاز والعراق وخراسان. وكأنهم كانوا يتطلعون إلى حكم أكثر عدلاً، بعدما تفرقت بهم السبل وضاعت الأمانة وذاقوا الأمرين على يد من سبق من الحكام. ولكن عبد الملك بن مروان أرسل له جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي رمى مكة بالمنجنيق للمرة الثانية بعد مسلم بن عقبة، سالف الذكر، وقتل ابن الزبير وصلبه ثم أرسل رأسه إلى عبد الملك في دمشق.

مروان بن الحكم

استطاع أن يُخضع له الحكم بحد السيف، وبالوعود الكاذبة لخالد بن يزيد بن معاوية بتوليته العهد من بعده لضمان ولائه له وولاء أتباعه الكثر. وكذلك فعل مع عمرو بن سعيد بن العاص الذي كان قد هزم جيش مصعب بن الزبير. فلما استتب له الحكم بعد معركة مرج راهط، وبعد إخماد ثورة التوابين، نكث بعهده لخالد ولعمرو وجعل ولاية العهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز. ولم يدم في الحكم سوى تسعة أشهر حيث قتلته خنقاً وهو نائم، أرملة يزيد بن معاوية التي تزوجها بعده، وذلك بعد أن أهان ابنها من يزيد.

وعلى الرغم من أن مدة حكمه لم تزد عن تسعة أشهر إلا أنه سن فيها سنناً خطيرة منها:

* أن الغاية تبرر الوسيلة، وفي سبيل الحكم يجوز للسلطان أن يعد غيره كل ما يطلب ما دام في حاجة إلى عونه، أو لا يقدر عليه. وعندما تنتهي مهامه، أو يقدر عليه، تنتهي معها صلاحية تلك الوعود وتستبدل بغيرها. وبهذا يكون مروان في هذا المجال هو معلم ميكافيللي الأول الذي جاء بعده بسبعة قرون، والذي تبنى حكام المسلمين مبادئه حول الملك بعد ذلك.

* معركة مرج راهط التي دارت في عهده بين اليمنيين والمضريين، أظهرت بوضوح مدى تعمق النزاعات القبلية وما تحويه من أحقاد بين القبائل العربية، وعودتها لأشد مما كانت عليه في الجاهلية. وهي عصبيات أذكتها الحكومات الشخصية بعد أن أخمدها الدين وكاد أن يقضي عليها، وتكررت مثل تلك المصادمات في كل بقاع الدولة الإسلامية وبقيت مستعرة حتى اليوم.

* حركة التوابين أظهرت مدى التحول الفكري لأصحابها من كونهم أعواناً سياسيين لعلي ضد الأمويين إلى طائفة تعتبر قتل الحسين (وحده دون مئات الآلاف من المسلمين الذين قتلوا بنفس الطريقة) معصية دينية يجب التكفير عنها بقتال من قتلوه أو الموت في سبيل ذلك لكي يغفر الله لهم تخاذلهم عن نجدتة عندما قتله جيش يزيد بن معاوية. وقد تطورت هذه الفكرة مع الأيام حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم، من إحياء لذكرى قتل الحسين وإقامة المياتم وضرب الناس لأنفسهم بقسوة تسيل معها الدماء، وترديد الأشعار الحزينة، وغير ذلك الكثير من التصرفات المصاحبة. فهؤلاء يعتبرون أن قتل الحسين معصية لحقت بهم وبذرياتهم حتى يوم القيامة وعليهم التكفير عنها، وهو ما جاء بعكس نظرة النصارى عن موت يسوع على الصليب الذي اعتبروه تبرئة لذنوبهم لأنه مات كبش فداء لهم.

عبد الملك بن مروان

بعد قتل الزبير ثار على عبد الملك أحفاد القراء والذين أطلق عليهم الخوارج، ولم تكن عقيدتهم قد انحرفت بعد. لأنهم طالبوا بعودة الخلافة إلى صفائها، الذي يعتقدون أن آخر عهدهم بها كان زمن عمر بن الخطاب، الذي أرسل أسلافهم لتفقيه جيوش الفتح في دينهم. ولم يكونوا يريدون ملكاً لا لأنفسهم ولا لغيرهم. فقد كان مطلبهم أن يَحكم الناس شرع الله المتمثل في القرآن في كل ما يتعلق بأمور الشرع، وأن يتخلصوا من أي حكم شخصي. وأن يتولى الخلافة أتقى الناس، ولو لم يكن من قريش، لأن قريش ليست وصية على حكم الله ولا على دولة الإسلام. وكل هذه المطالب لم تلق آذاناً صاغية عند أحد، لأن الناس قد غلبوا على أمرهم، ولأن الحكام لن يقبلوا بحكم يسلبهم سلطاتهم ولو كان حكم الله. فجند الحاكم الفقهاء لمحاربة هؤلاء فكرياً وتهيئة الناس إعلامياً للقضاء عليهم. فوصفوا بالخوارج عن الدين، لأنهم حاولوا إخراج الناس من حكم السلطان لحكم الله، ثم جندت الجيوش بقيادة المهلب بن أبي صفرة لسحقهم وإبادتهم. فتم القضاء على حركتهم، وهرب قسم منهم إلى الأحساء (حسب ما ذكر سيد أمير علي في كتابه مختصر تاريخ العرب) وبقوا فيها منذ ذلك الوقت. وقد تحورت وتبدلت عقائدهم بعد ذلك كما غيرهم من فرق المسلمين.

وعندما امتنع عمرو بن سعيد بن العاص عن مبايعة عبد الملك لأنه كان يرى أن الحكم له بموجب عهد قطعه له مروان، اتفق معه عبد الملك على أن يكون الملك بينهما مشاركة، فاطمأن لذلك عمرو بن سعيد. ولكن عبد الملك احتال عليه وتفرد به في قصره، فذبحه وقطع رأسه ورمى به على أصحاب عمرو الخمسمائة الذين تجمهروا على الباب ومع الرأس خمسمائة صرة، في كل صرة

ألفا درهم، فترك أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا. وقد بقيت هذه السنة يتوارثها الحكام.

وقد كان وراء الغدر بعمرو بن سعيد ومبايعة غيره وقتله رجلين هما قَبِيصَةُ بن ذُؤيْب، الإمامُ الكبير، الفقيه، كما ترجم له في سير أعلام النبلاء، والذي كان على الخَتْم والبريد للخليفة عبدِ الملك فيما بعد. والرجل الآخر هو حسان بن مالك بن بَحْدَل بن أُنيف أميرُ العرب، أبو سليمان الكلبي. والذي يقول عنه صاحب سير أعلام النبلاء أنه من أُمراء مُعاوية يوم صِفِّين، وهو الذي شَدَّ من مروان بن الحكم وبايعه.

فقد كان الرجلان حاضرين مجلس عبد الملك تلك الأمسية التي أحضر فيها عمرو بن سعيد وقتل، كما يقول الطبري في الحديث عن أحداث خمسة وستين، ومن المحتمل أنهما هما من أشارا على عبد الملك بنثر الدراهم على مؤيديه في الخارج بعد قتله. كما يروي الطبري أيضاً أن حسان بن مالك هو من أشار على مروان بنقض عهده مع عمرو بن سعيد وتولية عبد الملك ولاية العهد، حيث يقول: وبلغ مروان أن عمراً يقول: إن هذا الأمر لي من بعد مروان ويدعي أنه قد كان وعده وعداً فدعا مروان حسان بن مالك بن بحدل فأخبره أنه يريد أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيه من بعده وأخبره بما بلغه عن عمرو بن سعيد فقال: أنا أكفيك عمراً فلما اجتمع الناس عند مروان عشياً قام ابن بحدل فقال: إنه قد بلغنا أن رجالاً يتمنون أماني قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده فقام الناس فبايعوا من عند آخرهم[١].

ومن أهم ما اشتهر عن عبد الملك بن مروان فيما ذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء والطبري في تاريخه، ما يلي:

* كان مثله مثل غيره من الحكام يجيد تحقير من لا خوف منهم، ومن ذلك أن عبدالله بن الزبير خيّر محمد بن الحنفية وعبدالله بن عباس بين أن يبايعاه أو يخرجا من مكة، فخرج محمد إلى أيلة، وكتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه، والنزول في جواره، فكتب عبد الملك إليه: وراءك

(١) الطبري/ أحداث سنة خمس وستين.

أوسع لك، ولا حاجة لي فيك (فالهبات والعطايا لمن يستفيد السلطان منهم أو يخشاهم، أما غير ذلك فلا مكان للعواطف والرأفة في سياسة الملك).

* معاوية وعبد الملك أول من سن سنة قتل القتيل والمشي في جنازته للدعاية الإعلامية. يقول الدينوري في الأخبار الطوال أنه لما قتل مصعب بن الزبير وأتي برأسه إلى عبد الملك (أظهر أنه) حزن عليه حزناً شديداً، وقال: وددت لو قبل الصلح وقاسمته مالي (مال المسلمين). مع أن عبد الملك هو من سار لمحاربة ابن الزبير في العراق التي اختارته ليكون حاكماً عليها، ولم يقدم ابن الزبير لحرب عبد الملك في الشام، وهذا الموقف مشابه لموقف معاوية من قتل الحسين.

ولكي يؤكد عبد الملك حزنه على قتل مصعب بن الزبير أرسل الحجاج لمحاربة أخيه عبدالله في مكة. فرميت الكعبة بالمنجنيق وقتل عبدالله بن الزبير. ولم ينس الحجاج قبل مغادرة مكة من أن يؤم الناس بالحج ويعيد بناء الكعبة طلباً للأجر والثواب.

* وكما تظاهر بالحزن على مقتل مصعب بن الزبير فقد تظاهر عبد الملك بالغضب على الحجاج لما تعرض لمالك بن أنس. وهو مظهر أجاده الحكام بعده، ويتمثل في حرصهم على الظهور بموالاة رجال الدين والفقهاء وإعانتهم على من عاداهم، حتى يكسبوا رضاهم وفتواهم. ولكن هذا لا يسوغ للفقيه أن يقول الحق ولو همساً، إذا كان يعارض أي سياسة مهما صغرت للحاكم، وإلا لتعرض لما يتعرض له غيره من الناس.

وقد أوردت كتب التاريخ أن أنس قد أرسل خطاباً لعبد الملك يشكوا فيه من الحجاج وموقفه معه، فأرسل عبد الملك خطاباً للحجاج هذا بعض ما جاء فيه: وقال ابن قتيبة: كتب عبد الملك إلى الحجاج ـ لما قال لأنس ما قال – : يا ابن المستقرمة عجب الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوي بها إلى نار جهنم، قاتلك الله أخيفش العينين، أفيتل الرجلين، أسود العاجزين ـ ومعنى قوله المستقرمة عجب الزبيب ـ أي تضيق فرجها عند الجماع به (ج٩ ص٣ البداية والنهاية).

وسياسة الحكام المتناقضة مع الفقهاء بقيت إلى اليوم، كما أن مخاطبة قواد

الجيش والوزراء بهذه اللغة المبتذلة من قبل السلطان سنة درج عليها السلاطين، لتدجين من يعمل لديهم على الذلة والصغار، وليسهل انقيادهم.

* وكما كان عبد الملك قاسياً مع المسلمين الذين لم يرضوا بمبايعته بالطاعة والاستسلام، فقد بطش بلا رحمة بالقبائل البربرية التي لم تدخل الإسلام بعد، لأنها نقضت العهد وامتنعت عن دفع الجزية، وأعاد كل شمال أفريقيا لحظيرة دولته، ليس خدمة للإسلام ولكن ضماناً لمصدر الدخل له ولأسرته.

* وقد أثبت عبد الملك أن الحكام يموتون وهم غير نادمين على ما اقترفوه، ومن ذلك أن خالد وعبدالله ابني يزيد بن معاوية دخلا على عبد الملك يزورانه في اليوم الذي مات فيه فقال لهما: أتحبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟ فقالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما على حالي هذه.

ترى من كان هذا منطقه، هل كان يؤمن بيوم الحساب؟

* ومن يقرأ ما جاء في الطبري عن ملابسات موت عبد العزيز بن مروان فجأة في لحظة كان عبد الملك يفكر في عزله عن ولاية العهد وتولية ابنه الوليد، فلن يشك في أن قضاء الله قد نفذ فيه بما يرغب عبد الملك. فالعهد والذمة لا وجود لهما، والملك يستحق أن يقتل من أجله الأخ لينعم به الابن، فما بالك بالناس الآخرين.

* وقد زاد عبد الملك على من سبقه من الحكام في التباعد عن الناس وجعل بين طبقة الحكام والناس العاديين فوارق لا يجوز تجاوزها، ومن ذلك أنه منع الناس من الكلام والتحدث في حضرة الخلفاء، مما زاد في هيبة الناس من شخص الحاكم واعتبر وكأنه مخلوق آخر، وقد توارث الناس هذا الشعور حتى يومنا هذا.

* ومن سننه أنه كان إذا قعد في مجلسه قيم على رأسه بالسيوف ليس فقط لحمايته ولكن لإدخال مزيد من الهيبة على مظهره ومجلسه.

* وهو الذي قال: إن لكل قوم شاعراً وشاعر بني أمية الأخطل. وقد أصبح شاعر الدولة عرفاً منذ ذلك الحين.

* وفي عهده أسس أول مستشفى للأمراض العقلية، بعدما كثر الناس الذين فقدوا عقولهم بسبب ما تعرضوا له من تعذيب في السجون.

* أما سياسته لدولته فقد لخصها هو بقوله: ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون (من بيت المال) ويطعمون (بعض الناس) من هذه الأموال. ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة (يعني طاعتهم) إلا بالسيف (وليس لهم شيء من بيت المال) حتى تستقيم لي قناتكم... وهذا عمرو بن سعيد (ابن العاص) قرابته قرابته وموضعه موضعه قال برأسه هكذا (إشارة للممانعة والعصيان) فقلنا بأسيافنا هكذا (فهوت على رأسه فقطعته)، والله لا يفعل أحد فعله (أي مجرد الامتناع عن المبايعة بالطاعة) إلا جعلتها (أي السيف) في عنقه. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه...

انتهى كلامه الذي أورده الطبري وغيره، والذي يظهر أن مجرد نقد الحاكم ولو بكلمة واحدة مستمدة من كتاب الله أو قيلت للرسول صلى الله عليه وسلم وقبلها بكل رحابة صدر، مدعاة لأن يفقد الإنسان بسببها عنقه في زمن عبد الملك بن مروان، ومن جاء بعده من الحكام. إضافة إلى تأصيل سنة أن الدولة ملك للملك ولا شيء فيها للمواطنين.

* ولذلك كان مما أوصى به ولي عهده الوليد بن عبد الملك قوله: وادع الناس إذا مت إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا، فقل بسيفك هكذا... ولما احتضر وبكى الوليد، قال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحن حنين الأمة؟ إذا أنا مت فشمر وائتزر والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك فمن أبدى ذات نفسه فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.

وينقل سيد أمير علي في الصفحة (١٠٧) من كتابه مختصر تاريخ العرب أنه كان يعاصر عبد الملك في القسطنطينية طاغية روماني اسمه يوستينيان الثاني الذي صاح بشعبه عندما طلبوا العفو عن أعدائه بمثل صرخة عبد الملك بمواطنيه قائلاً: أتتكلمون عن الصفح؟ فلأهلك في هذه اللحظة بالذات، بل ليغرقني الله في اليم إن أنا ارتضيت أن أبقي على شخص واحد من أعدائي.

فتشابهت طغاة المسلمين وطغاة الروم.

ومن جهة أخرى، فقد كان عبد الملك أول من عرب الدواوين، وأول من سك النقود العربية، وكان يؤم الناس بالصلاة والأعياد. فالتظاهر بالتقوى وإنشاء بعض المشاريع التي تخلد الذكرى كان من أهم ما اهتم بها السلاطين في كافة العصور.

الوليد بن عبد الملك

ومما قام به:

* إخضاعه لبلدان آسيا الوسطى، بعد ثورتهم ضد حكمه، وقد استغرق إخضاعهم عشر سنوات من الحروب ارتكبت فيها كل أنواع المظالم والقسوة والمجازر. وتم إخضاع السند وملتان وجزء من البنجاب، وجزء كبير من آسيا الصغرى، وقمع ثورة البربر في شمال أفريقيا.

* فاق كل من سبقه في القتل والتنكيل حتى نسب إلى الحجاج ـ أحد قواده ـ أنه قتل ما يزيد عن مائة وخمسين ألفاً، وكان في سجونه عند موته أكثر من خمسين ألفاً آخرين.

الفردوس المفقود[١]

وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت الأندلس، في وقت لم تعد «الفتوح» في سبيل الله، بل في سبيل توسعة حكم السلطان وزيادة غلته من الخراج والغنائم. ومن أهم ما يمكن ملاحظته على ما صاحب فتح الأندلس ما يلي:

* أمر الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير بوقف الحرب ضد الأوروبيين، وكان موسى في تلك الأثناء قد استولى على جنوب فرنسا، ووضع خطة لفتح جميع أوروبا، وكان من السهل عليه تنفيذها لأنه لم تكن هناك روابط وتعاون بين الأمم الأوروبية ليتحدوا ضده.

* أمر الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد بترك البلاد المفتوحة والتوجه إلى دمشق فكان ذلك كارثة عظيمة على الوجود العربي في ليبيريا، لأنه مكن

---

(١) استقينا معلوماتنا في هذا الفصل من تاريخ الطبري ومن كتاب تراث الإسلام.

أحد قواد القوط (بيلانو) من تحصين نفسه في الجبال الفاصلة بين فرنسا اليوم وإسبانيا وكونوا النواة التي خرجت منها الجيوش لاحقاً وطردت المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢م. وقد قضى هذين القائدين بقية حياتهما مهمشين فقيرين معدمين وماتا دون أن يشعر بوجودهما أحد في دمشق. ويرى أمير سيد علي أن سبب أمر الوليد يعود إلى تعاظم سمعة موسى وطارق، وهو رأي مقبول لأن الحكام لا يمكن أن يسمحوا بتنامي شهرة مواطن ولو كان مدرب كرة قدم.

* وكان طارق بن زياد مولى موسى بن نصير هو الذي بدأ فتح الأندلس، فلما وصل الخبر إلى موسى أمر طارق بالتوقف حتى يلحق به، وكان ذلك بسبب غيرة موسى من طارق ومحاولة أن يشترك بالفتح حتى ينسب إليه كمدعاة للفخر، ولم يكن له أي دافع ديني.

* قسمت أقاليم إسبانيا والبرتغال المفتوحة على الفاتحين حسب القبيلة، وحيث أن العرب قد نقلوا معهم خصوماتهم القبلية، فقد صاروا يختصمون بسببها فيما بينهم في إسبانيا بأشد وأعنف مما كانوا يختصمون وهم في جزيرة العرب. وهذه الخصومات سهلت على أعدائهم هزيمتهم واسترجاع البلاد منهم وطردهم.

* كانت تصرفات الفاتحين نابعة مما هو سائد في عصرهم الأموي، فقد قسم موسى بن نصير حكم البلاد بين أبنائه: فولى أكبرهم عبد العزيز ولاية عموم الأندلس، وجعل اشبيلية مقراً لها، وعهد إلى ابنه الثاني عبدالله بحكم أفريقية، وعبد الملك أصغر أبنائه حكم المغرب الأقصى، وإلى ابنه الصالح قيادة الأسطول وحماية السواحل وجعل مقره طنجة.

* كما مارس الناس ما اعتادوه في بلادهم التي قدموا منها. فكثر سبي النساء واتخاذ الجواري، وكان أول من قام بذلك أول حاكم عام للأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي أعقب لوذريق (رودريك) آخر ملوك إسبانيا الذي دحره جيش المسلمين، على زوجته ايكولونا، والتي لقبت بأم عاصم. وحذا الناس حذو ملوكهم، فانتشرت أسواق النخاسة في الأندلس وكان

أشهرها سوق قرطبة. وكانت الجواري الجليقيات (نسبة إلى مقاطعة فرنسية على حدود إسبانيا) هن المفضلات والأغلى ثمناً بين كل أصناف الجواري. وأصبح بنو أمية حكام الأندلس يشبهون في صفاتهم الجسمانية النورمانديين من حيث لون العيون الزرق وبياض البشرة ونعومة الشعر واصفراره، كما يقول ابن خلدون في مقدمته، لأن أمهاتهم كن من أولئك الجواري النورمانديات.

* وعاش الناس في ترف وبعد عن الدين، وحتى اللغة أصبح هناك لغة عامية للناس العاديين في الأندلس أكثرها مشتق من اللاتينية، ووجد جيل بعد ذلك يجهل العربية بحيث تعذر تلقينه فرائض الدين، ووصل الأمر إلى تعيين قاض وهو لا يعرف من العربية شيئاً.
* وشيدت القصور الخرافية التي بقيت حتى الآن، مثل قصر الحمراء، شاهداً على ترف الحكام، وليس على عدلهم، أو سماحة دينهم.
* وعندما سقطت آخر معاقل العرب في إسبانيا، غرناطة، بكى آخر حكامها، فقالت له أمه: ابك كالنساء على ملك لم تحفظه كالرجال (لقد كان يبكي على ضياع ملكه وليس على ضياع دين الله الذي لم يكن من اهتماماته على الإطلاق).

بقية بني أمية

وجاء بعد الوليد سليمان بن عبد الملك ولم تدم ولايته أكثر سنتين وثمانية أشهر، وكان أهم ما فعله توليته عمر بن عبد العزيز بعده. وينقل الطبري عن الكلبي أن سليمان استدعاه في مرضه الذي مات فيه وطلب منه أن يعلم ابنه محمداً ويؤدبه. . .ومما قاله: ولا يركبن فرساً محذوفاً (الذي يحرك جنبيه أثناء مشيه) ولا مهلوباً (الذي يتابع الجري)، ولا يركبن بسرج صغير فتبدو إليتاه منه. وقد غابت عنا حكمة سليمان في ذلك.

أما عمر بن عبد العزيز فهو الأموي الوحيد الذي حاول أن يعود بالحكم إلى وضع مشابه لدولة الإسلام كما أرادها الله في كتابه العزيز، ولكن من حوله لم يمهلوه بالبقاء حياً أكثر من سنتين. وقد قال في أول خطبه: أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن[1]، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم. ألا وأني لست بفارض، ولكني منفذ. ولست بمبتدع ولكني متبع. ولست بخير من أحدكم، ولكني أثقلكم حملاً. وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد دخلت على عمر بن عبد العزيز زوجه وهو في مصلاه ودموعه تسيل على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة إني تقلدت من أمر أمة محمد أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي

(١) هذا يعني أنه حتى العام (١٠٠) للهجرة لم يكن الناس اعتقدوا بعد أن الحديث يشكل كتاباً دينياً بجانب القرآن، كما أصبح في القرن الثالث للهجرة بعد عندما قال الشافعي بأن الحديث هو المصدر الثاني للتشريع.

العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة، فبكيت.

ومما كتبه عمر بن عبد العزيز لأحد ولاته: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه. . . ولا تجر الشاة إلى مذبحها، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة. وقد رد مظالم الأمويين على الناس وساسهم بسياسة تختلف عمن سبقه، فضاق بنو أمية به ذرعا، وما كان منهم إلا أن دسوا له السم ومات بعد سنتين وخمسة أشهر من توليه الخلافة. وكان قتله دليلاً على أن إعادة الناس إلى صافي الدين ليس مرغوباً فيه من الأسر الحاكمة، وسيمنعون حدوثه ما استطاعوا.

وجاء بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك (حسب وصية أخيه سليمان)، وسرعان ما عدل عن إصلاحات عمر، وعاد لسيرة من كان قبله. ويروي السيوطي في تاريخ الخلفاء أنه أحضر أربعين من رجال الدين فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب.

وقد استطاع إخماد ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ابن قائد الأمويين الوفي، وقتله، وكان ابن المهلب قد ثار لأنه يعلم بأن يزيداً لو قدر عليه فسيقتله بسبب ما فعله بأسرة الحجاج بن يوسف وتنكيله بهم، في عهد سليمان بن عبد الملك، لأن زوجة يزيد أخت الحجاج. وبما أن الحجاج من الحميريين فقد عادوا للتنكيل بالمضريين والثأر لما فعلوه بهم. وكما ذكر فقد كانت عهود بني أمية مسرحاً لصراعات قبلية مريرة بين المضريين والحميريين وغيرهم.

ثم جاء هشام بن عبد الملك، الذي كان لا يأتمن أحداً، وكان يعتمد على الجواسيس والعيون لرصد حركات التمرد، ثم يلجأ للمكائد والقمع للقضاء عليها.

وعندما مات كانت الإمبراطورية الأموية قد وصلت إلى أوجها العسكري. فامتدت شرقاً إلى بلاد المغول، وغرباً إلى المحيط الأطلسي، وكل جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم كل جزيرة أيبيريا وجنوب فرنسا. إلا أنه مع هذا التوسع كانت الثورات المتكررة والعميقة الجذور، والاغتيالات والمؤامرات، تعمل على إضعافها في المشرق، والخصومات والنزاعات القبلية تنذر بتقطيع أوصالها في المغرب والأندلس. وكان قد تم سلخ الدين وإبعاده عن سياسة الدولة.

ومنذ ذلك الوقت والمواطن يتعرض للاضطهاد والتعسف وهضم الحقوق، من

قبل الحاكم، بدعوى الطاعة والتسليم له وعدم النقد أو المطالبة بالحقوق. ومن قبل المحدثين والفقهاء الذين تفننوا هم أيضاً في التضييق على المواطن بدعوى البعد عن الدين. مع أن المسكين يصلي ويصوم ولو استطاع الحج لحج، ولو أعطاه السلطان حقه من بيت المال لدفع منه الزكاة. ولكن الفقهاء والمحدثين، حرموا على المواطن كل ما يفعله الحاكم، لأن الحاكم لا يمكن الوصول إليه. فحرموا الرقص والغناء على الفقير الذي أنهكه التعب والمرض ولم يعد يستطيع الحراك، ناهيك عن الرقص والغناء، لأن قصور الحكام امتلأت بالمغنين والمغنيات والراقصين والراقصات. وحرم الفقهاء على الفقير لبس ثياب الحرير والخيلاء، مع أنه يبيت في شوارع دمشق الشاتية بخلق بال إن غطى به رأسه بدت سوأته وإن غطى سوأته بدا رأسه، لأن الحاكم يلبس الثياب المطرزة بالذهب، ويسير بموكب كموكب معاوية وكأنه طاووس من الكبر والخيلاء. وقطعوا يد فقير مدها ليسد رمق الجوع، وتركوا من سرق أموال المسلمين كلهم واصطفاها لنفسه، طمعاً في سؤاله منها.

وهكذا أصبح الفقهاء إذا اقترف الحاكم الموبقات جيروا عقوبتها ليتلقاها ظهر الفقير بدلاً عنه، تحت شعار المحافظة على شعائر الدين، مع أن الدين جاء ليحمي الفقير من جور الغني والضعيف من تسلط القوي والعاجز من سطوة القادر.

ثم جاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والذي لقب بفرعون الأمة،، كما ورد في الحديث الموجود في مسند أحمد: ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد على هذه الأمة من فرعون لقومه. وبطبيعة الحال الرسول لم يقل بذلك، ولكن قاله الناس على لسان الرسول ليأمنوا العقوبة.

وقال عنه الذهبي: لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة، بل اشتهر بالخمر والتلوط.

وحيث أن هناك فقهاء جاهزون للذود عن الحكام، فإنه لما قيل في مجلس المهدي بأن يزيد كان زنديقاً قال: مه، خلافة الله عنده أجلّ من أن يجعلها في زنديق! (ولم يستطع أحد بطبيعة الحال أن يقول للمهدي بأنها ليست خلافة لله، ولم يرض بها سبحانه للوليد ولا لغيره، حتى لا يتهم بالزندقة وتحز رقبته).

ثم جاء يزيد الناقص ثم إبراهيم بن الوليد ثم آخر حكام الأمويين مروان الحمار.

ومع كل خلفاء بني أمية عدا عمر بن عبد العزيز، سارت الأمور على وتيرة واحدة، من تحكم برقاب الناس وهضم للحقوق وتغييب لشرع الله وقلب للحقائق واستيلاء على المال العام وتجويع للمواطنين، حتى نسي الناس دينهم في سبيل البحث عن لقمة العيش ولو كان على حساب كراماتهم التي امتهنت باضطرارهم لتسول الحكام ومن يليهم ليمنوا عليهم ولو بكسرة خبز.

ونسوق للقراء هذه الصورة الواضحة الدلالة عن مدى التغير الذي طرأ على مفهوم الحكم في دولة الإسلام خلال فترة لا تزيد عن نصف قرن، وننقلها كما أوردها فرج فوده في كتابه الحقيقة الغائبة، ص٧٥، حيث يقول:

ليسمح لنا القارئ في البداية أن نقص عليه ثلاث قصص موجزة، يفصل بينها زمن يسير، واختلاف كثير، وهي إن تنافرت تضافرت، مؤكدة معنى واضحاً، وموضحة مساراً مؤكداً، ومثبتة ما لا يصعب إثباته، وما لا يسهل الهروب منه.

القصة الأولى:

عام ٢٠هـ وقف عمر خطيباً على منبر الرسول في المدينة، وتحدث عن دور الرعية في صلاح الحاكم وإصلاحه فقاطعه أعرابي قائلاً: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فانبسطت أسارير عمر، وتوجه إلى الله حامداً شاكراً، وذكر كلمته المأثورة المشهورة: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر، من يقومه بحد السيف إذا أخطأ. . .

القصة الثانية:

عام ٤٥هـ قال ابن عون: كان الرجل يقول لمعاوية: والله لتستقيمن بنا يا معاوية، أو لنقومنك. فيقول: بماذا؟ فيقول: بالخشب فيقول: إذن نستقيم.

القصة الثالثة:

عام ٧٥هـ خطب عبد الملك بن مروان، على منبر الرسول في المدينة، بعد قتل عبدالله بن الزبير قائلاً: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه. اهـ.

مصادر الباب

- القرآن الكريم.
- سيرة ابن هشام/ ابن هشام/ دار المعرفة ـ بيروت.
- تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.
- الأوائل/ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تاريخ الخلفاء/ السيوطي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الأخبار الطوال/ الدينوري/ دار القلم للطباعة والنشر ـ بيروت.
- مختصر تاريخ العرب/ سيد أمير علي/ ترجمة عفيف البعلبكي/ دار العلم للملايين ـ بيروت.
- الكامل في التاريخ/ ابن الأثير ـ بيت الأفكار الدولية ـ بيروت.
- تذكرة الحفاظ/ الذهبي/ دار الصميعي ـ بيروت.
- سير أعلام النبلاء/ الذهبي/ دار الفكر ـ بيروت.
- الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- وفيات الأعيان/ ابن خلكان/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- تراث الإسلام/ مجموعة من المستشرقين ـ ترجمة جرجيس فتح الله المحامي ـ دار الطليعة ـ بيروت.

الباب الحادي عشر

دولة بني العباس

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤).

* أصبح التخلص من أعداء السلطان يتم بواسطة زبانيته، وبعد أن يستتب له الأمر يقوم بالتخلص من أولئك الزبانية.
* لم يعد للعهود والمواثيق قيمة، ولم تمنع من قطعها بمخالفتها، ولو كتب فيها كتاباً بخط يده وشهد عليه شهود.
* أصبح من سياسة الحاكم التخلص من كل من يخاف منه أو من شعبيته، ولا فرق بين أن يكون عدواً له أو من بني عمه.
* نشطت أعمال التجسس بين أفراد الأسرة المالكة، ولم يعد مهماً عدد من يقتل من المسلمين.
* سن المنصور قاعدة التحالف مع الشيطان في سبيل القضاء على الأعداء عندما تحالف مع شارلمان ملك الفرنجة لمحاربة حاكم الأندلس عبد الرحمن الداخل (الأموي) وقد أصبحت شعاراً للحكام المسلمين فيما بعد.
* وجدت في العصر العباسي كل المظاهر والتصرفات والسياسات المتبعة حالياً من قبل الحكام المسلمين، كما وجدت الفوارق الاجتماعية الموجودة حالياً، وأصبح الناس يقسمون منذ ذلك الوقت، إلى سلاطين وأمراء ومن حولهم، يتمتعون بثروات خيالية ولهم كل الحقوق وليس عليهم واجبات، وإلى رعاع ومنبوذين، فقراء مسحوقين بلا حقوق ولا قيمة.
* وتبلورت الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة المعروفة الآن، وبعدت الشقة بين الناس والدين.

* استخدم الدين مطية لمصالح النبلاء والنافذين، وسوطاً على رقاب المساكين.

* ومنذ العصر العباسي الأول وأوضاع المسلمين تتكرر باستمرار دون أن يطرأ عليها أي اختلاف إلا فيما يفرضه العصر من تغير في الأساليب.

شابه العباسيون الأمويين بتغليف أهدافهم للوصول إلى الحكم بشعارات ظاهرية. فكما أن معاوية رفع شعار قميص عثمان لتأسيس مملكته، فقد استغل العباسيون شعار ثارات الحسين الذي أعلنه التوابون لتعبئة الرأي العام ضد الأمويين. فنجحوا في تصويرهم على أنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها (العلويين)، الذين لهم وحدهم خلافة رسول الله كحق إلهي لا ينازعهم عليه إلا ظالم. ولأن الناس قد واجهوا من بني أمية كل أنواع التعسف والبطش والاضطهاد، فقد كانوا على استعداد للتحالف مع أي كان، وتبني أي فكرة، حتى لو كانوا يعلمون بأنها غير صحيحة وليست كما قيل عنها، للتخلص من الأمويين أملاً بوضع أفضل مع من سيخلفهم.

مجمل ما طرأ على الدين من تحول

لن نتحدث عن كل خليفة من بني العباس على حدة، لأن كل معالم وسبل التحول عن الدين قد بانت وظهرت في العصر الأموي، وما حصل في عصر العباسيين كان التوسع في تلك التحولات، ولذا سنكتفي بعرض أهم ما تميز به العصر العباسي الأول فيما يخص موضوعنا الذي نتحدث عنه، وذلك كما يلي:

* أن أول ما فعله العباسيون بعد أن استولوا على الملك هو سحقهم من كان على قيد الحياة من الأمويين، وينقل ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمة محمد بن سليمان بن عبدالله النوفلي، ما نصه: قال: كنت مع عبدالله بن علي أول ما دخل دمشق، دخلها بالسيف، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات، وجعل جامعها سبعين يوماً إسطبلاً لدوابه وجماله، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء، ونبش قبر عبد الملك بن

مروان فوجد جمجمة، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو، إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه بالنار ودق رماده ثم ذره في الريح، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير، سبعمائة سوط، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء. قال: ثم تتبع عبدالله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين ألفاً عند نهر بالرملة[1].

ويروي ابن الأثير في الكامل في التاريخ أن السفاح أمر بنحو تسعين من بني أمية فضربوا بالعمد حتى أثخنوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. انتهى[2].

* وبعد أن تخلص العباسيون من الأعداء بواسطة زبانيتهم وقوادهم جاء الدور للخلاص من أولئك الزبانية والقواد. فهذا أبو مسلم الخراساني، الذي تلطخت يده بدماء آلاف من الناس، وارتكب كل أنواع البطش في سبيل حصول العباسيين على الحكم، يقتله المنصور بدم بارد، بعد أن رفسه برجله التي حاول أبو مسلم أن يقبلها طلباً للإبقاء على حياته. فقتل ذليلاً، بعد أن ضحى بعمره في خدمة من قتله. كما قتل قبله وفي ظروف غامضة أبو سلمة الخلال الذي هيأ الظروف لكي يؤول الحكم للعباسيين[3].

* أصبح إعطاء المواثيق والعهود المكتوبة والموثقة بالأمان من الحاكم، لا تعني الوفاء بها. وهذا ما حدث لخلق كثير، منهم يزيد بن عمر بن هبيرة الذي قتله أبو جعفر المنصور بعد أن كتب له خطاباً بالأمان بخط يده وأشهد عليه قواده.

* كانت هذه الجرائم تتم تحت سمع وبصر اثنين من الأئمة الأربعة للمذهب السني وهما أبو حنيفة ومالك بن أنس، ولم يصدر منهما ولو احتجاج

---

(١) البداية والنهاية ج٩ ص٢٧٧.

(٢) ذكر من قتل من بني أمية ص٧٨٢.

(٣) ذكرت القصة في تاريخ الطبري والبداية والنهاية والكامل في التاريخ في أحداث سنة سبع وثلاثين ومائة عن أبي مسلم، وأحداث اثنتين وثلاثين ومائة عن أبي سلمة.

هامس. مما يعني أن الفقهاء في ذلك العصر كانوا تبعاً للسلطان لا يعصون أمره ولا يعترضون على سياسته، بل لقد روجت أحاديث نسبت إلى الرسول تمتدح السفاح، حتى إن الفقيه السني الثالث أحمد بن حنبل قد روى في مسنده حديثاً برقم (١١٥٠٢) وهذا نصه: حدّثنا عبدالله، حدَّثني أبي، حدثنا عثمان، وسمعته أنا من عثمان، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حثياً.

* وبما أن التخلص من المعارضين هدف رئيس للحاكم، فلا فرق أن يكون المعارض من أبعد الناس أو أقربهم. فقد قتل أبو جعفر المنصور عمه عبدالله بن علي حتى لا يزاحمه على السلطة.

* سن المنصور قاعدة «التحالف مع الشيطان في سبيل القضاء على أعدائه» التي رددها تشرشل في الحرب العالمية الثانية، وأصبحت شعاراً للحكام المسلمين. وقد ابتدعها المنصور عندما تحالف مع شارلمان ملك الفرنجة لمحاربة حاكم الأندلس عبد الرحمن الداخل المسمى «صقر قريش» لأنه أموي. وهي سنة التزم بها حكام المسلمين منذ ذلك الحين، فأهم الأولويات عندهم الحفاظ على العرش.

* نشطت أعمال التجسس بين أفراد أسر الخلفاء، فكان كل واحد يتجسس على غيره. وانعدمت الثقة بينهم وبين قوادهم ووزرائهم وعمالهم، ولجأوا إلى أعمال التجسس لمعرفة ما يدور بعيداً عن أعينهم، ولم تقتصر وظائف التجسس على الرجال بل جندت لها النساء.

* وكما حدث مع الحسين بن علي وخروجه على بني أمية طلباً للحكم، حدث مع محمد المسمى بالنفس الزكية وأخوه إبراهيم. حيث بويع لمحمد في الحجاز واليمن ولإبراهيم في العراق، ولكن المنصور قتلهما وسحق جيشيهما.

* لقب أول خليفة عباسي بالسفاح لكثرة ما قتل من البشر، فقد قتل كل من يشك في إخلاصه، ونكل بأعدائه بطريقة لم يسبقه لها أحد. في زمن لم

يكن للإنسان قيمة تذكر، ولم يكن للدين سلطان على كبح جماح مثل هذه الوحشية (كما يقول سيد أمير علي في مختصر تاريخ العرب).

* كان التظاهر بالتقوى والامتثال لشرع الله من أهم ما يحرص عليه المنصور مثله مثل غيره من الحكام. فكان لا يمانع بالوقوف أمام قاض ليحكم ضده في قضية تافهة لصاحب جمال، لكي يستغل هذه الحادثة إعلامياً، لتغطية ما كان يدور في قصر الخلد الذي سماه على أحد أسماء الجنة الذي ورد ذكره في القرآن، أو قصر باب الذهب، الذي بلغت مساحته ثلث مساحة مدينة بغداد التي بناها، والذي احتوى على ما لا عين رأت من قبل ولا خطر على قلب بشر من المواطنين. ويمكن الاطلاع على وصف للقصر وما يجري فيه من عدة كتب منها كتاب الحياة الاجتماعية في بغداد بقلم رمزية الأطرقجي.

* كان الغلو في العقائد قد انتشر، فمثلاً الراوندية اعتقدوا بحلول الإله بشخص الخليفة العباسي. والشيعة اعتبروا علياً وأبناءه أئمة، ورفعوا مقاماتهم لدرجة العصمة، وقالت بعض الفرق الأخرى بحلول الإله بشخص علي.

* وظهرت فرق فقهية مختلفة، ومنها المذاهب السنية الأربعة، وبعضها لصرف الناس للعبادة وشغلهم بها عن زخارف الدنيا عندما يئسوا من الحصول على شيء منها بعد أن استولى عليها الحاكم وحاشيته، مثل الصوفية.

* وانتشر الاشتغال بالحديث بغثّه وسمينه، نتيجة لتشجيع الحكام. فقد ورد في كتاب هارون الرشيد لعبد الجبار الجرمود[١]، أن الرشيد كتب لولاته: «من عمّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوا له في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم (الحديث) فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء». وبطبيعة الحال أربعة آلاف ضعف الألفين (أي قرابة ستين ألف درهم في زمن قدر متوسط دخل الفرد العادي ٣٠٠ درهم في السنة[٢]). كما أن الاشتغال بالقرآن سيصدم مع تصرف الخلفاء، أما الحديث فقد يخدم مصالحهم ويجر على المشتغل به هبات إضافية وحظوة.

---

(١) الطبري ج٢ ص٣٢٦.

(٢) صفحة ٢١١ الحياة الاجتماعية في بغداد.

* أصبح الدين تظاهراً بالعبادات وتنطعاً بالدين فقط، وحرص الحكام على التذكير بالانتساب للدين في كل مناسبة، كما حرصوا على تقريب الفقهاء، فكان أبو حنيفة من جلساء المنصور وبنى له قصراً بجوار قصره في بغداد، ولما مات دفن في مقبرة الخيزرانية الخاصة بالخلفاء العباسيين[1]، وكذلك كان مالك وغيره من الفقهاء يلقى كل ترحيب ويتلقى الهبات من السلاطين. ولكن هذا لا يعني أن الفقهاء كان بإمكانهم قول كلمة الحق عند أولئك السلاطين دون أن يمسهم منهم عذاب أليم. وكتب التاريخ مليئة بالعنت الذي لقيه من جاهر بالحق منهم. بل وأحياناً يقع الفقيه في موقف محرج مع الحكام بسبب فتوى له لم يكن يقصدهم بها، ومن ذلك ما حدث مع مالك عندما أفتى بأن يمين الإكراه ليست ملزمة، وبما أنها جاءت في وقت اعتبر الحكام أن بيعتهم بالرضى أو عن طريق الإكراه ملزمة لمن بايع، فقد ضيق على مالك وجلد وعذب وطلب منه تغيير فتواه أو نفيها[2].

* ومن التظاهر الكاذب بالتقوى، حرص الخلفاء على عقد مجالس ذكر، كانت تتلى فيها آيات من القرآن ويستمع فيها الخليفة للمواعظ الدينية، حتى تسيل دموعه على خديه في ذلك المجلس، ولكن هذا لم يكن ليمنعه من العمل بعكس ما سمع به في ذلك المجلس، في التو واللحظة. وقد بقيت هذه السنة لدى زعماء المسلمين حتى اليوم في شرق بلاد المسلمين وغربها.

* وفي العصر العباسي أصبح الحرص على الصلاة هو أهم ما في الدين، فحرصوا على بناء المساجد وتزيينها، وسنت القوانين بجلد المتأخر عن الصلاة في جماعة في المسجد. مع أن الصلاة مثلها مثل الصيام والحج، عبادة من العبادات، وليس في الدين ما يبيح للناس من أن يتأكد بعضهم على أن البعض الآخر يؤدي شعائر عبادة من هذه العبادات الثلاث. لأن العبادة بين الله وبين الإنسان، فلا أحد من الناس يستطيع أن يعرف إن كان شخصاً ما يصلي أو يصوم أو يحج بنية حسنة ونقية لله. وحتى لو أجبر الناس على الإمساك عن الطعام والشراب، فليس هذا بصيام، ولو حشروا

---

(١) صفحة ٣٣ المصدر السابق.

(٢) انظر على سبيل المثال فصل المحنة ـ ترجمة مالك في سير أعلام النبلاء ج٥ ص٢٨٦.

في المشاعر وقت الحج وأجبروا بالقيام بكل مظاهر الحج من أفعال فهذا ليس بحج، ولو غصبوا على أداء الصلوات كلها في المساجد فليست هذه بصلاة، ولذلك ليس في الشرع الإسلامي أي نص إلهي أو صادر بموافقة إلهية، يأمر بتتبع الناس وملاحقتهم لأداء العبادات.

ولكن بحكم أن شرع الله غير العبادات يمس الحاكم فلم يستطع الفقهاء أن يتعرضوا له، فلم يكن بإمكانهم المطالبة بالعدل لأن كل ما يفعله الحاكم ليس عدلاً، ولا يمكن أن يسمح بتطبيق العدل على نفسه وحاشيته ومن حولهم.

ولم يكن بالإمكان تطبيق المساواة لنفس السبب، ولم يكن بالإمكان تطبيق مراقبة المال العام أو الظلم أو قتل الناس أو نبش قبورهم أو التمثيل بميتهم وحيهم.

فتعطلت كثير من أوامر الشرع ونواهيه، وتم التركيز على العبادات.

فسميت الصلاة بعمود الدين، وكأن بقية شرع الله لا وزن لها، ومع الأيام أصبح الناس يعاقبون إن هم لم يصلوا في المساجد، وكأن من يصلي من دون أن يكون تحت نظر رجال الدين والمتنطعين لم يصل. وطولب الناس بأداء صلوات سماها الفقهاء نوافل وسنن غير الصلوات المفروضة، من أهمها التراويح وصلوات ما قبل وبعد الصلوات المفروضة وصلوات في منتصف الصباح وغيرها (الرجاء الرجوع إلى موضوع النوافل في الملاحق لمزيد من الإيضاح).

وحتى عندما وصلت رأس مروان الحمار، آخر خلفاء بني أمية إلى العباس السفاح، قام وصلى ركعتين شكراً لله على نعمته تلك[1].

وكما الصلاة فالصوم كان يحترم من الجميع حتى من عريب، الجارية الماجنة، التي كانت معروفة لدى خلفاء بني العباس والطبقات المخملية كما يزعم الجاحظ. وكان التقاة لا يجامعون جواريهم في رمضان (كما هي الحال مع بعض أبناء جزيرة العرب الذين لا يسافرون للمغرب أو الفلبين لطلب الفحشاء إلا بعد ثبوت هلال شوال). وكان الحكام والخاصة

---

(١) فصل مقتل مروان ابن محمد ـ البداية والنهاية، وأحداث سنة اثنتين وثلاثين ومائة ـ تاريخ الطبري.

يحرصون على صوم النوافل، والتصدق في شهر الصوم على الفقراء والمحتاجين من بيت المال الذي استولوا على حقوقهم فيه، بدل صرفه لهم كواجب وبلا منة.

* وحرصوا على الحج، وإن كانوا يذهبون في مواكب فخمة وأبهة تتنافى مع جوهر الحج الذي يدعو إلى أن يتصرف الناس بكل بساطة وخشوع وذلة وخضوع، كما كان الناس يواجهون العنت في المشاعر المقدسة من مرور تلك المواكب (وبنفس الوضع الجاري حالياً).

وقد قاموا بتوسعة الحرمين وتحسين خدمات المشاعر وبطريقة ينطبق عليها قول الله سبحانه وتعالى: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله. لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين (التوبة: ١٩)، وقوله سبحانه في الآية التي سبقتها: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله (وليس تعمير جدران المساجد وممراتها) فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (التوبة: ١٨).

* كما حرص الخلفاء على تطبيق أحكام الشرع بين المواطنين، في قضايا كانوا لا يتورعون عن ممارستها. فقد كان الهادي يحرص على تطبيق حد السكر بنفسه على كل من تسول له نفسه تناولها، مع انه كان يعاقر الخمر كل ليلة.

وكان القاتل يقتل، وتقام كافة الحدود على الناس بشكل مبالغ فيه، وتؤخذ لهم حقوقهم من بعضهم من دون مراعاة ولا شفقة، وبتجاوز للمفهوم الديني، بينما لا يمكن أن يطبق ذلك على من هم من طبقة اجتماعية أعلى من طبقة القضاة.

* كان الخلفاء يغضبون عندما يمدح غيرهم أو يطرى أو يشتهر عند الناس ولو كان من أسرتهم، ومن ذلك غضب الرشيد على ابن الرقيات عندما مدح محمد بن العباس أكثر من مدحه. وغضب المنصور على أبي دلامة لأنه مدح أخاه السفاح أكثر مما مدحه. كما أن القضاء على عائلة البرامكة كانت بسبب شهرتهم بين الناس التي طغت على شهرة الخليفة نفسه.

* وكان الخلفاء يحرصون على التعامل بكل لطف مع المسيحيين الذين يعيشون

في البلاد الإسلامية وخارجها، وقد جرت العادة بين الخلفاء منذ العصر الأموي أن يقوموا بزيارة الأديرة ويأكلون مع رهبانها وراهباتها، ويقدمون لهم العطايا والهبات، وقد أسقط الرشيد الجزية عن دير الرقة لمدة سبع سنوات، بل وأعطى رهبان ذلك الدير آلاف الدينارات من بيت مال المسلمين الذي حرمهم منه[1].

ووصل الأمر بخلفاء آخرين إلى المشاركة في أعياد النصارى والمجوس واللهو معهم ومشاركتهم شرب الخمر والعربدة والغناء، كما ألف شعراء سلاطين بني العباس القصائد بأعياد النصارى الدينية وغيرها.

* عادت العصبية القبلية إلى الحياة، ووصلت في العهد الأموي ثم العهد العباسي إلى مشاحنات وحروب أشد شراسة عما كانت عليه بينهم قبل الإسلام. ومن ذلك تلك الحرب التي وقعت بين بني كعب وبني كلاب بسبب ذبح جمل. والهجاء الذي استمر طويلاً بين جرير والفرزدق والأخطل، ومنه:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

* وكان العرب ينظرون إلى غيرهم من المسلمين بأنهم أقل شأناً منهم، ولذلك انتشر ما عرف بالشعوبية، والتي تعني حركات ثورية قومية تحررية غير عربية مناهضة للعرب.

* وأصبحت الطبقية واضحة في المجتمع، حتى إن كل منتسب إلى طبقة معينة لا يجالس شخصاً آخر من طبقة أدنى. ولم يكن إعجاب الخلفاء والسادة بغناء المغنين يعني إلغاء الفروق بينهم، بل كان يعني أن يكافأ المغني على أغانيه دون أن يكسر حاجز الطبقية بينه وبين الحاكم أو أي شخص آخر من طبقة أعلى من طبقته.

* ووصل التشيع إلى حد تقديس كل ما يتعلق بعلي بن أبي طالب وسلالته، حتى إن الدراهم المضروبة باسم علي بن موسى الرضى كان يباع الواحد منها بعشرة دراهم من غيرها. وخير دليل على تقديس آل علي قصة الشاعر

---

(١) الحياة الاجتماعية في بغداد.

دعبل وجبّة الخز التي أهداها له علي بن موسى، والتي بَذل له فيها أهلُ قُمَ ألفَ دينار لأنها مباركة، فامتنع، وسافر، فجهَّزوا عليه من قَطَع عليه الطريقَ، وأُخِذت الجُبَّةُ، فرجع وكلَّمهم، فقالوا: ليس إلى ردِّها سبيلٌ، وأعطَوْهُ الألفَ دينار وخِرقةً من الجُبَّةِ للبركة(١).

* واعتقد الناس بيقين راسخ أن الخليفة ظل الله في الأرض وأن كل ما يفعله هو بإلهام من الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو قتل أو غدر أو عذب، فهذا كله لتنفيذ قدر الله ومشيئته. وقد روى الأصفهاني في الأغاني قصة رجل فقير أعمى يدعو الله أن يلهم الخليفة ليصرف مرتبات الجنود حتى لا يضطر هؤلاء من أخذ ما يحتاجون من التجار بلا مقابل، ومن ثم يستطيع التجار أن يربحوا ويكون بإمكانهم دفع الزكاة التي سيحصل منها شيء لهذا الأعمى (ومثل هذه الحكايات يمتلئ بها تراثنا العربي على مر العصور).

* وكان الخليفة لا يحتاج إلى محاكمة من يريد قتله، وكل ما عليه هو أمر معاونيه وعسكره بإحضار المطلوب، أو قتله في مكانه وإحضار رأسه دليلاً على تنفيذ المهمة. مثلما حدث مع جعفر بن يحيى كبير البرامكة، الذي قتله مسرور خادم الرشيد تنفيذاً لأمر سيده دون إبداء الأسباب أو محاكمته أو السماح له حتى بطلب العفو. ولم تشفع له خدمته الطويلة للرشيد.

* الزندقة هي الخروج عن الدين بطريقة غير الردة، هكذا كان معناها في العصر العباسي، حيث أعطى هذا التعريف غير المحدد، الخليفة وولاته الحق بقتل غير المرغوب فيه، ممن لم يثبت عليه تهمة معينة، تحت مسمى الزندقة. ومع أن الردة عند الفقهاء يستتاب عنها المرتد، إلا أن الفقهاء شرعوا بأن الزندقة لا يستتاب المتهم بها ولا تقبل توبته لو حاول الإفصاح عنها (ولم يعر أحد الاهتمام بأن قتل الفرد كقتل جميع الناس وأن التوبة حق لكل إنسان وإلغاءها فيه جرأة على ذات الله).

* وبما أن الناس على دين ملوكهم، فإنه إذا ما جاء خليفة لا يحب الغناء، منع

---

(١) ترجمة علي ابن موسى في سير أعلام النبلاء.

المغنون وحورب الغناء، وإذا ما حكم خليفة يحب الغناء يصبح السهر والعربدة ديدناً للمجتمع بأسره.

وكان من الخلفاء من يحب الجواري، ومنهم من يفضل الغلمان، بل إن أحد خلفاء بني العباس قتله غرامه بغلام.

وكان منهم من يقيم المشاريع ويعطي ويهب فيلهج الناس بكرمه، ومنهم من يصرف كل أمواله على متعه الشخصية ولا يشرك بها أحداً، فيوصف بين الناس بالبخل. ومنهم من يتبنى مذهباً أو عقيدة فيحمل الناس عليه.

ونتيجة لذلك كان الناس تارة يضيق عليهم باسم الدين، كما حدث عندما ظهر الحنابلة في بغداد وساموا الناس ـ دون الحكام ـ سوء العذاب. فكانوا يتنصتون على المنازل، ومن سمع عنده صوت غناء كانوا يتسورون عليه سور منزله ويعاقبونه بشدة، وأخذ الناس بالظن فيما يخص خلوة رجل بامرأة، وبغيرها من الأمور، وتحولت الحسبة في عهدهم، من مراقبة تجارية إلى أوامر عسكرية لتنفيذ مظاهر دينية اعتبروها واجباً واعتبرها غيرهم من المذاهب، سنة. واستمر الحال كذلك حتى ضجر الناس منهم وبدأوا بالتصدي لهم، بعدما جاء خليفة لم يتحمس لآرائهم كما فعل سابقوه، فأخرج جمع منهم من بغداد واتجهوا إلى داخل جزيرة العرب، وكان ذلك في سنة (٣٢٣)[١] وإن تكررت مواقفهم تلك قبل ذلك التاريخ وبعده كثيراً.

وحيناً يصبح الناس لا هم لهم إلا مجالس الطرب والغناء والتمتع بالجواري، فوجدت مؤسسات تجارية تعج بهن، يتوجه الشخص إليها لاختيار الجارية التي يريد، وبعد فترة من تمتعه بها يعود إلى المكان نفسه ويبيعها بقيمة أقل قليلاً مما اشتراها به ويقوم بشراء أخرى. وكانت حانات الخمور منتشرة ويديرها اليهود، وقد ذكر الأصمعي أن رجلين يسميان أبا شبل والوراق كانا في إحدى هذه الحانات يشربان الخمر، فطلبا من صاحب الحانة اليهودي أن يشاركهما شرابهما فاعتذر لأن شربه محرم.

(١) صفحة ١١٨٦ الكامل في التاريخ.

* وكان بإمكان أي فرد من أفراد الطبقة الحاكمة أن يشارك أحد التجار في مكاسبه دون أن يساهم برأس المال أو إدارة الأعمال، أو حتى انتظار موافقة التاجر على هذا الاستغلال[١].

* وأصبح الإنسان العادي (المواطن) لا قدر له ولا قيمة، وقد وصف المأمون الناس العاديين بقوله: «. . . كل شر أو ضر في الدنيا إنما هو صادر من السفهاء والعامة، فإنهم قتلة الأنبياء والأولياء والأصفياء، وهم المضربون بين العلماء والنمامون بين الأمراء، والساعون إلى السلاطين، ومنهم اللصوص والسراق والقطاع والطرارون والجلادون ومثيرو الفتن والمغيرون على الأموال»[٢] (من كتاب اللطائف للمقدسي). بينما وصفهم أبو العتاهية[٣]، الذي ينظر بعين المواطن، بقصيدة يقول فيها:

إنــــــي أرى الأســــــعــــــار	أســــعـــار الــــرعـــيـــة غـــالـــيـــة
وأرى الـــمـــكـــاســـب نـــزرة	وأرى الـــضـــرورة فـــاشـــيـــة
وأرى هـــمـــوم الـــدهـــر	رائـــحـــة تـــمـــر وعـــاديـــة
وأرى الـــيـــتـــامـــى والأرامـــل	فـــي الـــبـــيـــوت الـــخـــالـــيـــة

* وقد كثر الدائن والمدين والراهن والمرتهن، وانتعشت تجارة الربا التي يتعامل بها اليهود، وكثر الصيارفة. في وقت بلغ معدل نفقات الخاصة في اليوم ستة آلاف دينار على النثريات، ولم يزد دخل الإنسان العادي عن ٣٠٠ درهم في السنة[٤].

* وإن كان الخليفة قد بدأ يتجاسر على مد يده على بيت المال زمن عثمان، وتوسع خلال العهد الأموي، فقد أضحى حقيقة وواقعاً في العهد العباسي، بحيث لم يعد هناك شك في أن بيت المال هو ملك خاص وخالص للحاكم، وقد أورد ابن خلدون في مقدمته أن عبد الرحمن الناصر خلف في

(١) الحياة الاجتماعية في بغداد ص٢٢٤.
(٢) المصدر السابق ص٢٣٣ نقلاً عن اللطائف للمقدسي.
(٣) المصدر السابق ص٢٢٦ نقلاً عن ديوان أبي العتاهية.
(٤) المصدر السابق ص٢٤٨.

بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار، مكررة ثلاث مرات، ويكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

ويقول ابن خلدون: ورأيت في بعض تواريخ (سجلات) الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار، في كل سنة. انتهى.

والمحمولات تلك كانت تأتي من البلاد المفتوحة على شكل جزية، وهي أرقام فلكية حتى بلغة العصر الحالي، ولمن يريد تفاصيل ما يرد لخزينة المأمون من نقد وعبيد وجواري وأنعام وكل أنواع المؤن مثل العسل والبخور والثياب والسجاد وكل ما لا يخطر على البال، فعليه قراءة الفصل الثامن عشر في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوته في أصلها من كتاب مقدمة ابن خلدون، صفحة (١٧٩) وسيصاب بالذهول.

* ووصل الولع بالجواري حداً غير مسبوق في التاريخ، وأصبحت أسواق النخاسة منتشرة في طول الدولة وعرضها، من سمرقند وبغداد حتى قرطبة. حيث تعرض فيها الجواري من جميع الأصناف والألوان والأجناس. فكان مجتمع متع جنسية صرف، أباح لنفسه الزواج بأربع حرائر دون تقيد بشروط التعدد الشرعية، وامتلك من الجواري ما طاب له دون تحديد عدد، وقد جاء في الأغاني أن عدد الجواري المغنيات عند زبيدة زهاء ألفي مغنية، وعند الرشيد مثلهن.

ثم حدث توجه إلى التولع بالغلمان بدل الجواري، وسجل لنا التاريخ موت أحد الخلفاء هياماً بغلام. ويقول المسعودي في مروج الذهب أن يحيى بن أكثم قاضي المأمون كان يمتلك أربعمائة من الغلمان المرد الحسان. فإذا كان القاضي لا يتوانى عن التلوط بالغلمان، فكيف كانت الحال داخل قصور السلطان.

وممن أغرم بالغلمان الأمين بن الرشيد الذي عرفت أمه زبيدة عنه ولعه هذا، فأرادت أن تصرفه عنه، فأهدته ألف جارية، بعد أن جعلتهن على هيئة أشبهن فيها الغلمان في تصفيف الشعر وإخفاء الصدر، ومنذ تلك اللحظة انتشرت موضة الغلاميات أو المتغلمات، أي الجواري اللاتي يتهيأن على

شكل غلمان في قصة الشعر واللبس وغيره. وقد حاول بعض الفقهاء جاهدين وقف هذا التهتك الأخلاقي بنشر أحاديث عن تحريم تشبه النساء بالرجال والعكس، ونسبتها إلى الرسول، مع أن عصر الرسول لم يكن فيه نساء يتشبهن بالرجال ولا رجال يتشبهون بالنساء، في مجتمع المدينة المحصور والقليل العدد.
وتفشت في المجتمعات المخملية أنواع من الفجور لم تعرفها البشرية، وقصرت حتى كتب مثل ألف ليلة وليلة من أن تصف كل ما كان يمارس فيها.

* وعرف مصطلح الحريم في ذلك الوقت، حيث قسمت قصور الخلفاء لأقسام منها قسم للنساء، حيث توجد أجنحة لزوجات الخليفة والجواري المحظيات اللاتي كن يعشن في نفس القصر مع الزوجات دون غضاضة أو تبرم. بل لقد كان من الطبيعي أن يأخذ الخليفة رأي زوجته في جارية قبل شرائها. وأحياناً تهديه زوجته بعضاً من الجواري التي اختارتهن له بنفسها.

* وقد كان السلطان يمتع نفسه مع الجواري ومعاقرة الخمر بجناحه الخاص بينما كانت سيدات القصر يتمتعن بطرقهن الخاصة في أجنحتهن الخاصة، دون أن يتجسس أحد الطرفين على الآخر أو يحاول التعرف على ما يفعله، ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات. ومن ذلك أن أحد عبيد أم البنين، الزوجة المحظية للوليد بن عبد الملك، قد دخل عليها جناحها الخاص فجأة ووجد عندها، وضاح اليمن، ورآها وهي تخبئه في أحد الصناديق، فأخبر الوليد بذلك، وبما أن العبد قد اطلع على هذا السر، فقد قرر الوليد أن يقطع دابر القصة. فدخل على أم البنين وطلب منها أن تهبه نفس الصندوق، ولم يكن بمقدورها الرفض، ثم أمر الوليد عبيده بحفر حفرة عميقة في أحد مجالسه. يقول ابن عساكر في تاريخ دمشق: ثم قدموا الصندوق فألقي في الحفرة، ووقف (الوليد) على شفيره، فقال: يا هذا قد بلغنا عنك خبر، فإن يك حقاً فقد قطعنا أثره، وإن يك باطلاً فإنّما دفنّا خشباً، ثم أهالوا عليه التراب، حتى استوى، قال: فلم يُرَ وَضّاح اليمن حتى السّاعة.
ولم يتحدث الوليد مع أم البنين عن وضاح، وهذا ما يؤكده ابن عساكر في

قوله: قال: فلا والله ما بان لها في وجهه ولا في خَلائفه، ولا في شيء حتى فرّق الموت بينهما. انتهى[1].

وقد ألفت في العصر العباسي الكتب في زينة المرأة وكيف تختار قصة شعرها ولونه، ولون أجفانها وأظافر يديها، وعمل ماكياجها وتلوين بشرتها. وكان ما يسمى الآن بأدوات التجميل ومعالجة البشرة، كما عرفت الموضة في اللبس وتسريحة الشعر وغيرها، حيث تبدأ من نساء الأسرة الحاكمة وأسر الطبقة الخاصة، ثم يقلدنها النساء الأخريات[2].

* وكما الجواري والغلمان، امتلك الخلفاء والطبقات المخملية والموسرون من الناس الرقيق، الذين كانوا يقومون بأعمال مختلفة، فهناك الرسائلي الذي يحمل الرسائل، والشرابي الذي يدير مائدة الخمر والمدام، والمدابي الذي يهش الذباب والنامس عن الخليفة وهو جالس. وهناك خدم سمح لهم بالدخول على الحريم وهم عادة من الرقيق الأخصياء. وهناك من عمل في الحرف التي يأنف العرب العمل بها، ومنهم من عمل في الأعمال المنزلية، أو للرقص والتمثيل، أما الأرقاء السود فقد كان نصيبهم القيام بالأعمال الشاقة وفي الحقول[3]. وقد أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من رقيقه، ولا ندري ماذا أوصى للباقي منهم وكم كان عدد من بقي. وكان مصدر الرقيق الأسر في الحروب، ومصدر الجواري سبيهن من البلاد المفتوحة.

* وبعد معاوية كان المنصور أول من بنى القصور الخرافية وجعل بين سكن الأسرة الحاكمة وبين غيرها من الناس فرق ظاهر، وقد بنى بغداد لتحقيق هذا الهدف. ولكنه اكتشف أن بناء بغداد لم يحقق له التميز عن الناس، فأمر- بعد مشورة متزلف ـ ليس بالضرورة أن يكون بطريقاً (كما ذكر الطبري) ببناء الكرخ للناس من غير أسرة الخليفة وأمرهم بالانتقال إليها،

---

(١) القصة ترويها كتب إخبارية كثيرة، وقد نقلناها هنا من ترجمة الحجاج بن يوسف التي أوردها ابن خلكان في وفيات الأعيان، ومن ترجمة عبدالله بن إسماعيل المعروف بوضاح اليمن التي أوردها ابن عساكر في تاريخ دمشق.

(٢) ويمكن الرجوع لمؤلفات جلال السيوطي الغنية في هذا الموضوع.

(٣) الحياة الاجتماعية في بغداد بدءاً من الصفحة ١٦١.

فأصبحت بغداد مدينة الحكام وطبقة خاصة الخاصة. وأطلق المنصور على أول قصر بناه اسم قصر باب الذهب، أو قصر القبة الخضراء، نسبة إلى القبة التي بنيت في وسطه، والتي بلغ ارتفاعها عن سطح الأرض ثمانين ذراعاً، وعلى رأسها تمثال فارس بيده رمح، وكانت ترى من خارج أسوار بغداد. وبلغت مساحة القصر ثلث مساحة كل مدينة بغداد. وتم حفر نفق خاص يؤدي للجهة الأخرى من النهر، لكي يلجأ إليه في اللحظات الحرجة التي كان المنصور يتوقع حدوثها، وكأنه سبق غيره من الطغاة في هذا المجال، ولكنه لو إضطر إليه فقد يلقى نفس مصير شاوشيسكو الذي لم ينقذه نفقه المماثل لنفق المنصور من الهلاك. ثم بنى المنصور قصر الخلد، الذي سمي على نفس اللفظ الذي ورد في القرآن الكريم لوصف الجنة بالبقاء الذي لا يزول.

ولمن يريد الاطلاع على المزيد على قصور الخلفاء وما حوته من أثاث ومرافق يصعب تصديق وجودها في ذلك الزمن، وكذلك كيف تنافسوا في بنائها، وكيف كان الولد يبني قصراً يفوق بفخامته قصر أبيه، لكل هذا يمكن الرجوع إلى عدة كتب يأتي في مقدمتها كتاب الحياة الاجتماعية في بغداد بقلم رمزية الأطرقجي. ومناقب بغداد لابن الجوزي، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والطبري والأغاني، وغيرها الكثير.

* وكانت حياة الخلفاء والطبقات القريبة منهم تقرب من الخيال، فاهتموا بموائد الأكل التي كانت عامرة بكل غريب وعجيب من كافة أقطار الدنيا، فكان هناك السنوسج (السمبوسك) التي كان الرشيد يحبها، وكذلك الكليجه وألسنة السمك. وأنواع العصائر، التي كان يضاف لها الثلج المجلوب من الجبال البعيدة. وكانوا يتناولون طعامهم في حدائق القصور الغناء على أنغام الموسيقى وهم يشاهدون الراقصات، وتحيط بهم المباخر التي تفوح منها أبخرة العود العطرية، وكانت الأواني المستخدمة تصنع من الذهب والفضة. وكان من أشهر أنواع الجعة (البيرة) نوع يسمى الفقاع، لأنه كثير الزبد، ومن أشهر أنواع النبيذ نوع يسمى القطربلي الذي ضرب بجودته المثل كما جاء في الصفحة (٢٦٦) من كتاب الحياة الاجتماعية في بغداد.

* وهم أول من جعل لباس الخلفاء يختلف عن الغير (بشت ملكي) كما كان لكل طبقة في المجتمع لباس يميزها عن غيرها.

* وكما أصبح للملوك زيّ خاص بهم فقد أصبح للقضاة زيّ خاص بهم، وكان أول من ميز القضاة ورجال الدين بزي خاص بهم هو أبو يوسف تلميذ أبو حنيفة، والذي كان أول من تسمى بقاضي القضاة[1]. واليوم نرى رجال الدين في كل الفرق والمذاهب الإسلامية بلا استثناء يلبسون لباساً متميزاً، وإن اختلف فيما بينهم. والملابس المميزة لرجال الدين ليست من الإسلام في شيء، لأنه ليس للإسلام رجال. وهي بدعة يهودية، حيث جاء في الكتاب المقدس ما نصه: وتكلم جميع حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة أن يصنعوا ثياب هارون لتقديسه ليكهن لي. وهذه هي الثياب التي يصنعونها: صدرة ورداء وجبة وقميص مخرم وعمامة ومنطقة (الخروج: ٢٨: ٣-٤).

* وسجل للمهدي اختراعه لما عرف بسياسة الباب المفتوح، التي تقول بأن باب الخليفة مفتوح للمواطن لعرض مشاكله، ولم يكن الهدف منها في الحقيقة رفع المظالم عن الناس أو حل مشاكلهم، بل تأكيد مبدأ حاجة الناس إلى حكامهم وخنوعهم لهم.

* وهو أيضاً أول من كان يعلن الصرف من ماله الخاص على خدمة أو مشروع عام، وكأن المال العام يختلف عما سماه بماله الخاص. كما أنه أول من ظهر لندمائه، وكانت العادة قبله تجري على أن يحتجب الخليفة عنهم. وظهور المهدي لهم، ليس لأنه رفع الكلفة بينه وبينهم، أو شعر بأنهم بشر مثله، ولكن ليتلذذ بمشاهدتهم (عندما يغلب عليهم السكر) كما نسب عنه السيوطي ذلك في تاريخ الخلفاء.

* وكان من صفات الرشيد، كما جاء في كتاب الحياة الاجتماعية في بغداد: حدة المزاج، والحزم، وحب العلم والعلماء، والميل إلى الأديب والأدباء، والكلف بالغناء، ومعاشرة النساء، وتذوق النكتة والدعابة...

---

(١) ص٢٤٥ التمدن الإسلامي.

* وعندما حج لبس دراعة كتب عليها من الخلف كلمة حاج، ومن الأمام كلمة غازي. وهذه الدعاية الإعلامية أبقت له صورة الرجل التقي الذي كان يحج عاماً ويغزو أخرى، وطغت على صورته الحقيقية بما فيها من تسلط وجبروت ولهو وبذخ فاق الوصف.

وإذا كانت زبيدة زوجة الرشيد قد صرف على الإعداد لاستقبالها عندما حجت مبلغ وصل إلى ثلاثة ملايين دينار، فكم كان الرشيد يصرف على كل حجة يقوم بها، وبالتأكيد لن يكون موكبه أقل من موكب حج المنصور الذي وصفه المدور في كتاب حضارة الإسلام في دار السلام بقوله: ثم لم يلبث أن جاء على فيل أبرص قد استرسلت عليه الفضة في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج منزل بالأصداف اللامعة وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب. . .الخ. والفيل في تلك الهيئة يمثل أعلى درجات الفخامة والتباهي وكأنه أغلى طائرة أو سيارة في العالم مصنوعة بمواصفات فريدة خاصة. ولم يقل أحد من الفقهاء ولو بعد موت المنصور أو زوال الدولة العباسية، بأن مثل هذه التصرفات خارجة عن الدين، وتتنافى مع مفهوم الحج الذي يأتي كل عام ليذكر الناس بأنهم سواسية أمام الله ولا معنى لكبر أو خيلاء أو تسلط، لأن كل من يريد الحج عليه أن يتصرف بخشوع ويلبس ملابس الإحرام التي تمثل منتهى البساطة، حتى إنها تخلو من المخيط، وهو أقل رموز البذخ والترف. ومن لا يستطيع الحج ولو لأسباب أمنية فلا يحج. وما سنه المنصور فاقه من جاء بعده من حكام المسلمين في التباهي في مواكب الحج، والتعالي وأداء الحج بطريقة ملكية تختلف عن بقية حج خلق الله.

ولأن زبيدة وجدت الطريق من بغداد إلى الأراضي المقدسة يمر بفيافي وقفار فقد أمرت بإنشاء طريق معبد يربط بغداد بمكة والمدينة، مع توفير نزل لإقامتها وأفراد أسرتها الحاكمة وإسطبل لخيولها وتوفير المياه والطعام في تلك النزل والإسطبلات التي تمتد على طول الطريق، وقد أنشئ المشروع بمواصفات زبيدة الملكية الباهظة التكاليف تحسباً لاحتمال عودتها للحج في سنوات قادمة أو أحد أفراد أسرتها الحاكمة، وأطلق عليه «درب زبيدة» ولم تهتم صاحبة الجلالة بإنشاء طرق مماثلة لخدمة الحجاج المسلمين تربط الشام ومصر وعمان واليمن والمغرب والأندلس بالأراضي المقدسة لأنها وأسرتها الحاكمة تعيش في بغداد ولن تضطر

للمرور بتلك الطرق. وهذا التقليد الزبيدي لازالت الأسر الحاكمة تمارسه إلى اليوم، حيث تتوفر لهم الطرق الجيدة والخدمات المتنوعة مهما كانت باهظة التكاليف، فيما يحرم منها بقية الخلق، ولو كانت تكاليف توفيرها لهم قليلة.

* وفاق ما ينفق على حفلات الزفاف ما يصرف على نفقات الحج، بل تكاد تفوق ما يصرف على حفلات زفاف أبناء وبنات حكام المسلمين في هذا الزمان، في بلادهم وفي بلاد الخواجات. وكان من هذه الحفلات زواج الرشيد بزبيدة، وزواج المأمون من بوران.

وبوران بنت الحسن بن سهل، عقد عليها المأمون بفم الصلح سنة ست ومائتين، ولها عشر سنين، ونثر عليها أبوها يومئذٍ وعلى الناس بنادق المسك مكتوب في ورقة وسط كل بندقة اسم قرية أو ملك جارية أو غلام أو فرس، فمن التقط من ذلك شيئاً ملكه، ونثر ذلك على عامة الناس، ونثر الدنانير ونوافج المسك وبيض العنبر. وأنفق على المأمون وعسكره مدة مقامه تلك الأيام خمسين ألف ألف درهم. فلما ترحل المأمون عنه أطلق له عشرة آلاف درهم وأقطعه فم الصلح. وبنى بها في سنة عشر. فلما جلس المأمون فرشوا له حصيراً من ذهب ونثروا على قدميه ألف حبة جوهر، ومن ذلك تور من ذهب فيه شمعة من عنبر زنة أربعين مناً من عنبر، ونظر إلى ذلك الحب على الحصر يضيء، ثم أمر بالدر فجمع فوضع في حجر العروس وقال: هذا نحلة مني لك، وسلي حاجتك (البداية والنهاية ج١٠ ص٢٥٤).

ولمزيد من تفاصيل ما حدث في مثل هذه الاحتفالات يمكن الرجوع إلى كتب مثل مروج الذهب وحضارة الإسلام في دار السلام والحضارة الإسلامية لمتز وغيرها.

* وتفنن العباسيون في التسلية بأنواعها، وكان مما اخترعوه سباق الخيل، بعد أن استخرجوا فتوى من الفقهاء بجوازه[1]، والذي خلد بعدهم، وبقي رياضة ملوكية، مثلما بقيت كل أفعالهم وطريقة عيشهم وتعاملهم ملوكية أيضاً، فكل ما يجري الآن في بلاط الملوك وتصرفاتهم وتعاملهم مع الناس

---

(١) الحياة الاجتماعية في بغداد ص٢٨٤.

وبين بعضهم وفي سياساتهم الخارجية والداخلية وفي قصورهم ومأكلهم ومشربهم بكل تفاصيله، يبدو صورة مكررة لما كان يحدث في العصر العباسي الأول، مع فارق تغير الأزمنة فقط.

* وبنو العباس اخترعوا الألقاب السلطانية مثل خادم الحرمين والمستنصر بالله وغيرها من ألقاب شتى ظاهرها التقرب لله وحاملها أبعد ما يكون عن شرع الله.

* وكان المنصور أول من عمل بأعمال التنجيم، والهادي أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف والأعمدة، والمعتز أول من استخدم المراكب بحلى ذهبية، كما أن الراضي كان آخر خليفة يصلي بالناس(١).

* وكما أن الأوضاع الاجتماعية تغيرت بتحول الخلافة إلى حكم، كذلك تغيرت العقائد، فنبذ الإسلام الحقيقي واستبدل بمعتقدات ومذاهب متنوعة. فكان هناك الخوارج والشيعة والراوندية والصوفية والمالكية والشافعية والحنبلية والمالكية والجبرية وأهل الحق والمعطلة وغيرها، كمٌ هائلٌ من الملل والنحل جاء نتيجة لاختلاف الناس حول ما يجب عليهم فعله حيال الحاكم إذا أخطأ، أو في العقيدة نفسها.

الاختلاف حول الحاكم

وقد ظهر ذلك بعد المآخذ التي أخذت على عثمان بن عفان، وأدى إلى اختلاف الناس في البداية فيما يجب فعله في حال أن الخليفة خرج عن المألوف وتصرف بما تمليه عليه نفسه. هل يسأل؟ أم يعزل دون سؤال؟ وفي حال تمسكه بالمنصب كما فعل عثمان! فما الذي يجب عمله؟ هل يطاع؟ أو يتم الخروج عليه ولو بقوة السلاح؟

ومع الأيام تحولت مواقف الناس من عثمان ومن علي بن أبي طالب، إلى عقائد وملل لازالت منتشرة في العالم الإسلامي ويصعب الرجوع عنها أو تبديلها ولو كان ذلك بالعودة إلى صحيح الإسلام.

---

(١) الأوائل/ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري.

* فظهر من يقول بتحريم الخروج على (إمام المسلمين) ولو خالف وعصى وعمل وجاهر بالمعصية، مادام لم يأمر بها.
* وجاء من اشترط أن يكون الحاكم قرشياً، وشدد بعضهم أكثر فقال يجب أن يكون هاشمياً.
* وأن يتم اختياره من قبل جماعة معتبرة من الأمة، أطلقوا عليها اسم «أهل الحل والعقد».
* وقيل بأن البيعة واجبة، ومتى تمت فهي ملزمة حتى لو جاءت عن طريق الإكراه، ومن خرج عنها بعد ذلك فيحل قتله.
* وظهر بالمقابل من تجرأ وقال بأن دولة الإسلام يحكمها الله عن طريق تحكيم كتابه، وليس لها زعيم من البشر، ولكن من قال بذلك سبقه عنقه للأرض قبل أن يكمل عبارته، ومات قبل أن يسمعه أحد.

وجاءت آراء بين ذلك كونت فرقاً لا حصر لعددها واتجاهاتها.

الاختلاف في العقيدة

جاء نتيجة لعدة أسباب منها:

* التأثر بالثقافات الفلسفية الإغريقية والهندية وغيرها. فقيل بتناسخ الأرواح، وهل الله قديم أم لا؟ وكيف كان؟ وكيف سيكون؟... بما ليس هذا مجال ذكره.
* «الفتوح» وما صاحب ذلك من تكون المجتمع من مسلمين لم يتفقهوا في الدين، أسلموا معتقداتهم القديمة وأدخلوها في تراثهم الإسلامي.
* انفراد الحكام بالترف وحرمان الناس من حقوقهم، والذي ساهم الفقهاء بترسيخ فكرة أن مجيئهم كان بقدر من الله قدره وأجراه، كما قدر على بقية الناس الفقر. وأمروا الناس بالصبر على قدرهم وعدم مخالفة الحاكم، وإلا خالفوا مشيئة الله ولم يصبروا على قضائه وقدره.
* تفشي الآراء المنحرفة والخلاعية والتحللية. فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت دعوات للعودة إلى الحشمة والأخلاق الحميدة، عن طريق نشر أحاديث الترهيب والترغيب.

* الزهد بالدنيا بعدما عجز الناس عن التمتع بها، فظهرت فرق ترغب بنبذ متع الحياة وتكريس كل الوقت للتعبد والزهد وخشونة العيش.
* ظهور فرق نادت بالتعامل الحسن وترك الأفعال والعبادات، نتيجة لما رأوه من أن هذه العبادات لم تنهَ أصحابها عن فحش ولا منكر ولم تمنعهم من ظلم وقتل الناس، فاعتبروا التعامل فقط هو الدين.
* ظهرت طبقة منتفعة من الفقهاء وظفوا الدين لخدمة السلطان ليحظوا منه بهبة أو عطية بعد أن سيطر على موارد الرزق. فأسسوا مذاهب شددت على التعبد والمظاهر الدينية والتسلط على عامة الناس دون الخاصة. وجعلت الحق الديني بيد السلطان (إن الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن)، فما يأمر به السلطان فهو الدين ولو خالف القرآن، وما ينهى عنه فليس بدين ولو أنزله الرحمن. وأصبح الدين يتعامل مع الطبقات الاجتماعية بما يتناسب معها. فطبقت جميع الأوامر والنواهي على كل من ينتسب إلى طبقة أقل من طبقة الفقهاء، أما من ينتسب إلى الطبقة الحاكمة فلا يطبق عليه شيء، ومن ينتسب إلى طبقة بين ذلك يطبق عليه ما بين ذلك.
* ومع مرور الوقت أصبح لكل فرقة من هذه الفرق زعماء ومختصون وفقهاء، اعتمدوا على أحاديث ونصوص أولوها إلى ما ذهبوا إليه، وتكون لكل منها فكر قائم بذاته، وأصبح أتباعها يتبعون ما يقول به هؤلاء الزعماء على أنه هو الإسلام الحق وما سواه فباطل، ولم يعد من الممكن تحكيم العقل أو العودة إلى الأصل، ويقول أبو العلاء المعري في اللزوميات:

أجاز الشافعي فعال شيء وقال أبو حنيفة بل لا يجوز
فضلّ الشيب والشبان منا وما اهتدت الفتاة ولا العجوز

وسوف نورد في الملاحق أمثلة من التشريعات التي يسير عليها المسلمون اليوم في العقيدة والإيمان، والعبادات، والمعاملات، والحدود، ومناقشتها، للتدليل على أن معظم التشريعات الفقهية التي يسير عليها المسلمون اليوم، لا تتوافق مع القرآن، ولكنها تشريعات قال بها الفقهاء الأوائل اعتماداً على أحاديث ظنية، وتوارثوها جيلاً بعد آخر حتى وصلت إلى الفقهاء الأربعة، ومنهم وصلت إلينا وألزمنا بها على أنها شرع الله ودينه.

مصادر الباب

ـ القرآن الكريم.

ـ تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.

ـ الأوائل/ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ تاريخ الخلفاء/ السيوطي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ الأخبار الطوال/ الدينوري/ دار القلم للطباعة والنشر ـ بيروت.

ـ مختصر تاريخ العرب/ سيد أمير علي/ ترجمة عفيف البعلبكي/ دار العلم للملايين ـ بيروت.

ـ الكامل في التاريخ/ ابن الأثير ـ بيت الأفكار الدولية ـ بيروت.

ـ تذكرة الحفاظ/ الذهبي/ دار الصميعي ـ بيروت.

ـ سير أعلام النبلاء/ الذهبي/ دار الفكر ـ بيروت.

ـ الطبقات الكبرى/ ابن سعد/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ وفيات الأعيان/ ابن خلكان/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر / أبو الحسن المسعودي/ دار الكتب العلمية.

ـ تاريخ دمشق/ علي بن حسن بن عساكر/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر / أبو الحسن المسعودي/ دار الكتب العلمية.

ـ فتوح البلدان / البلاذري ـ دار الكتب العلمية– بيروت.

ـ الحياة الاجتماعية في بغداد/ رمزية الإطرقجي ـ جامعة بغداد ـ بغداد.

ـ الوثائق السياسية والإدارية في العصر العباسي/ محمد ماهر حمادة ـ الرسالة.

ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم ميتز/ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

ـ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان، مطبعة الهلال ـ القاهرة.

ـ الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى.

حصاد الهشيم

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٦٥).

* تلخيص لما آل إليه وضع المسلمين نتيجة لتركهم شرع الله والتمسك بتشريعات بشرية بديلة.

بهذا نكون قد استعرضنا تسلسل الأحداث منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى نهاية العصر العباسي الأول، وتعرفنا على أن أول شرخ في تعاليم الإسلام جاء بعد موت رسول الله عندما اعتقد الناس أن دولة الإسلام لا بد لها من رئيس، وإن كان مفهوم الرئاسة لم يتجاوز في البداية تحمل مسؤولية تطبيق شرع الله نيابة عن رسول الله، ومن دون إعمال للرأي الشخصي للخليفة في الأمور الشرعية. ولكن الأحداث التي تلت تلك الحقبة ساهمت في تحول مفهوم الخلافة إلى حكم عشائري عضوض دانت له دول المسلمين منذ القرن الأول الإسلامي وإلى اليوم، فتغيرت المفاهيم الإسلامية بشكل جذري، وأصبح الحاكم هو الآمر الناهي وليس القرآن، فضاعت الحقوق، وقسم الناس إلى أمير وحقير.

ولما جاءت حروب الردة و«الفتوح» ساهمت بالقضاء على غالبية الصحابة الأتقياء ودخول ملايين الناس لحظيرة الدين قبل أن يكتب المسلمون دستور دولتهم، وقبل أن يتسلحوا بنسخ من القرآن ليستمد منها المسلمون الجدد دينهم، ولذلك لم يعرفوا من الإسلام إلا الشهادة والعبادات (صلاة وصوم وحج) مما سهل لأولئك المسلمين الجدد الإبقاء على معتقداتهم القديمة من أديانهم السابقة، وتضمينها للتشريعات الإسلامية، عبر الفقه والتفسير والحديث، وهي علوم هم من قام بتأسيسها، وليس الصحابة وأبناؤهم.

وكانت النتيجة أن ساهمت هذه العلوم بخلق دين وتشريعات غريبة ودخيلة على الدين الإسلامي وتلقاها الناس ومارسوها على أنها عين الإسلام. كما ساعدت هذه العلوم على مداهنة السلاطين وساعدتهم على الاستبداد والتفرد بالحكم.

وأصبح قتل الإنسان لا يساوي جناح بعوضة عند أخيه الإنسان، وهو الذي

يوازي قتل الناس جميعاً عند الله. وأصبح مال الله في السماء وكل ما على الأرض للسلطان.

وتبايع الحكام الناس بينهم واشتروهم بصك اطلق عليه بيعة السمع والطاعة والإذعان.

واستولى الحاكم على الدنيا والمال والجواري والغلمان، وترك للناس نواهي الفقهاء والفقر والحرمان.

وبرزت مفاهيم جديدة، تحولت إلى عادات ومعتقدات للناس الذين تسموا بالمسلمين وليس فيهم من صفات الدين إلا التبعية بالاسم.

وبات المسلم أبعد ما يكون عما أراده الله له، من تعامل وعقيدة.

ولم يعد المسلمون خير أمة أخرجت للناس، ولا تلك الأمة الوسط (أي القدوة في كل شيء)، بل أصبحوا حثالة المجتمعات وعالة على غيرهم من خلق الله، وسبباً في إحجام الناس عن الدخول في الإسلام، لأنهم حكموا على الإسلام بتصرفات تابعيه، فلم يجدوا ما يشجعهم حتى ولو للتعرف عليه.

وقد حل بالمسلمين ما حل باليهود قبلهم من ويلات ومحن وتشتت وحروب، لأنهم لم يحافظوا على شرع الله، وتخلوا عن حمل أمانة دينه، مثلما فعل اليهود قبلهم.

ولن نستطيع الإحاطة بكل ما أصاب الأمة نتيجة للابتعاد عن الإسلام، ولكن لو ألقينا نظرة عابرة على واقع المسلمين اليوم لوجدنا أن أعدادهم توازي ربع سكان العالم، أغلبهم تتراوح أعمارهم بين (١٥-٤٠) عاماً، ويتزايدون بأكثر من ضعف النسبة العالمية إلى النمو السكاني، على الرغم من أن معدل وفيات الأطفال يصل إلى نحو (١٥٠/ ١٠٠٠) في أفغانستان وبعض دول أفريقيا والعراق، وعلى الرغم من معدل العمر المتدني في معظم شرائح المجتمعات الإسلامية، حيث لا يزيد عن ٤١ سنة في النيجر، وهذا ناتج عن تدني متوسط نصيب الفرد من السعرات الحرارية في العالم الإسلامي والذي يبلغ ٢٥٣٤ وحدة حرارية في المعدل العام ولا يزيد عن ١٨٠٠ وحدة حرارية في دول مثل موزامبيق وجزر القمر، في الوقت الذي يحتاج الإنسان إلى ما بين ٢٥٠٠-٣٠٠٠ وحدة حرارية في اليوم.

والمسلمون يعيشون في جميع دول العالم وفي دولهم الإسلامية التي تحتل

مساحة تساوي ربع مساحة اليابسة. ومع ذلك فليس لهم ثقل سياسي يوازي ثقل ستة ملايين إسرائيلي، على الرغم من أزمات المسلمين في فلسطين والشيشان وأفغانستان والفيليبين والبلقان وكشمير والعراق وغيرها.

وليس للمسلمين ثقل اقتصادي يوازي ثقل أربعة ملايين سنغافوري أو تايواني، ولم يترك غيابهم عن الساحات المالية أي تأثير على الاقتصاد العالمي، لأن الفقر والأزمات الاقتصادية والفساد الإداري والمالي قد عشش في دولهم.

فالعالم الإسلامي يحتضن ما يقرب من ٤٠٪ من فقراء العالم، ونسبة كبيرة من أميي العالم، إذ لا تزيد نسبة التعليم في دول إسلامية مثل النيجر على ١٣٪، ولا يتجاوز معدل الإنفاق على التعليم ٤٪ من الناتج القومي الإجمالي، ولا يزيد دخل الفرد على ٣٦٠ دولاراً في العام لنحو ٤٠٪ من المسلمين.

وفي العالم العربي، تقول الإحصائيات الرسمية المضللة في العادة، بأن نسبة البطالة وصلت إلى ١٨٪ من مجموع اليد العاملة في العام ١٩٩٧ وهي تزيد بأكثر من ٥٪ سنوياً. وهناك نحو ٢٢٪ (٦٠ مليون إنسان) يعيشون بدخل يومي يصل إلى دولار واحد فقط، ونحو ٥٠٪ (١٤٥ مليون إنسان) يعيشون بدخل يومي يتراوح ما بين ٢-٥ دولارات فقط، ونحو ١٠٪ (٣٠ مليون إنسان) يعيشون بدخل يومي أقل من دولار واحد. وتفشي الفقر والبطالة طال حتى سكان الدول البترولية، التي يصل دخل بعض زعمائها وأسرهم من سرقات بيت مال المسلمين إلى مليارات الدولارات في العام الواحد.

ودول العالم الإسلامي فقيرة ومداينة مثلها مثل شعوبها، ففي بعض الدول تصل نسبة الدين إلى ١٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، بينما يفوق حجم الناتج المحلي الإجمالي في دول أخرى.

يحدث هذا للمسلمين على الرغم من أن أراضيهم تحوي معظم احتياطي العالم من النفط الذي ينتجون منه ٤٣٪ من إنتاج العالم. كما ينتجون ٤٧٪ من القصدير، ولديهم كميات هائلة من احتياطي الحديد والفوسفات والبوتاسيوم والمنغنيز والذهب وغيرها من المعادن.

ومع أن الماء يشح في بعض جهات العالم الإسلامي الصحراوية إلا أن معظم

سكانه يعيشون في مناطق مطيرة، وتجري في الأراضي الإسلامية ثمانية أنهار من أهم أنهار العالم وهي: النيل، الأطول في العالم، والنيجر، والسند، وزمبيزي، ودجلة، والفرات، وآمو، والسنغال.

وتقع في العالم الإسلامي أكبر البحيرات والبحار الداخلية في العالم مثل: بحيرة قزوين ٤٣٨،٠٠٠ كم٢، بحيرة فيكتوريا ٨٣،٠٠٠ كم٢، بحيرة آرال ٦٣،٠٠٠ كم٢، بحيرة تشاد ١٦،٠٠٠ كم٢، إضافة إلى البحر الميت الخالي من الحياة السمكية ١،٠٥٠ كم٢.

وتطل أراضي المسلمين على أهم البحار والمحيطات والمضايق البحرية في العالم، وتقدر حدود أراضيهم البحرية بنحو ١٠٢،٣٤٧ كم، كما تحتضن مدخلي المحيط الهندي ـ مضيق ملقا في الشرق بين ملايو وسومطرة، ومضيق باب المندب في اليمن، ومدخلي البحر المتوسط ـ قناة السويس في مصر، ومضيق جبل طارق في المغرب.

ومع ذلك لا يمثل اقتصاد العالم الإسلامي كله سوى ٣٪ من الاقتصاد العالمي على الرغم من مساحاته الشاسعة وسكانه الكثر وثرواته الهائلة.

وليس للعالم الإسلامي ثقل عسكري دولي برغم أن دولة تحتل رأس قائمة الدول التي تشتري السلاح في العالم، ويبدو أن معظمه موجه للحروب البينية للدول الإسلامية مع بعضها، حيث قضت تلك الحروب في العقود الستة الأخيرة من القرن العشرين على أكثر من ٦٠٠ ألف إنسان.

وإن كان هناك شيء تصدرت به الدول الإسلامية الترتيب العالمي إضافة إلى هدر مواردها الطبيعية والنزاعات الداخلية والبينية والفقر والجهل، فهو الفساد الإداري، والذي يمكن تعريفه بأنه استغلال الوظائف العامة لتحقيق مكاسب شخصية.

ويقول أحد رجال الحرب الأمريكيين على العراق في مذكراته التي نشرتها صحف عربية: إنه لم ير أحداً يسرق دولته مثل المسؤولين العرب الذين احتك بهم أثناء الحرب الأولى على العراق. ويقول آخر: إنهم لا يجيدون شيئاً سوى تحرير الشيكات لنا.

وقد صنفت مؤسسة الشفافية الدولية ـ وهي مؤسسة غير ربحية يشرف عليها

البنك الدولي ـ ٨٥ دولة حسب مدى انتشار الفساد في سلم تنازلي بحيث يأخذ الأكثر نزاهة الرقم (١٠) والأقل صفر. ووفق هذا السلم فإن أكثر الدول الإسلامية نزاهة جاءت في موقع متوسط من هذا السلم، مثل ماليزيا التي حصلت على ٥،٣ نقاط، أما أقل الدول الإسلامية نزاهة فهي نيجيريا وحصلت على ١،٩ نقطة، ثم إندونيسيا نقطتان، ثم باكستان ٢،٧ نقطة. وللمقارنة بباقي دول العالم فقد اعتبرت الدنمارك أكثر الدول نزاهة وحصلت على ١٠ نقاط، ثم فنلندا ٩،٩ نقاط، ثم السويد ٩،٥ نقاط. وجاءت الولايات المتحدة الأميركية في المرتبة السابعة عشرة بمجموع ٧،٥ نقاط، أما إسرائيل فقد جاءت في المرتبة التاسعة عشرة بمجموع ٧،١ نقاط.

كما تحتفظ الدول الإسلامية بصدارة الترتيب العالمي في قمع الشعوب وهضم الحقوق وإهدار كرامة الإنسان بناءً على تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية[١].

هذا بالنسبة إلى الدول الإسلامية، أما المواطن المسلم فله شأن أكثر تعاسة.

فهو شقي داخل بلده وخارجها. يعيش حياته اليومية برعب وعذاب مستمر ولو لم يفعل ما يستحق أن يخاف منه.

هذا هو واقع المسلمين والدول الإسلامية وهذه هي صورة الإسلام عند غير المسلمين.

(١) تم استقاء المعلومات السابقة من الإنترنت من مواقع الجزيرة نت وحقوق الإنسان والبنك الدولي ومواقع رسمية أخرى.

الخلاصة

الواقع المرير الذي يعيشه المسلم يمتد إلى الأيام الأولى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس وليد الحاضر أو بسبب تكالب القوى الاستعمارية الغربية، التي لم تظهر إلا بعد قرون من وجود الإسلام، والتي لو لم تجد أن أوضاع المسلمين تشجع على غزوهم لما تجرأت على إذلالهم ونهب خيراتهم.

وبما أن الشجرة الطيبة تعرف من ثمارها، فإن ثمار شجر الدول الإسلامية في هذا العصر تشابهت مع ثمار أشجار الدول الإسلامية الخلافية السابقة، أموية، عباسية، أندلسية، فاطمية، عثمانية. فكل هذه الخلافات لم يرق الناس (في نظر حكامها) إلى مستوى يؤهلهم للتحرر من السخرة ويعاملون بموجبه بكرامة وتحفظ لهم حقوق ويعاملون بمساواة، بل لقد عوملوا بقسوة ووحشية فاقت الوحشية التي كانت تعامل بها حمير سواني المياه القديمة في نجد، والتي كانت تربط بالسانية التي تدور على البئر، بحيث لا يستطيع الحمار التوقف من تلقاء نفسه، بل يلزم أن يوقفه صاحبه متى شاء، وذلك بوقف السانية عن الدوران وتحرير الحمار منها، ويتم ذلك في المساء بعد أن يكون الحمار قد دار مع السانية طوال النهار. وفي حال نسي صاحبه فك وثاقه فإنه سيستمر مكرهاً وعلى الرغم من إرادته في الدوران طوال الليل، وعندما يفك وثاقه في صبيحة اليوم التالي، يرتمي المسكين على جنبه كتلة واحدة لأن قوائمه الأربع قد أصابها التصلب جراء الدوران المتواصل. وكل ما يفعله صاحبه هو تدليك قوائم الحيوان سيئ الحظ، ليس رأفة به أو كنوع من إبداء الأسف لما حدث، ولكن لتهيئته للعمل مرة أخرى. ولن يشعر صاحب العمل بالأسى لو تكرر الحدث مرة أخرى لأنه لا يعتقد أن الحمار يملك من المشاعر والأحاسيس ما يؤهله لأن يعامل بدرجة أكثر رأفة. وهذا شعور سلاطين المسلمين

السابقين واللاحقين نفسه تجاه شعوبهم، لأن الله، في نظرهم، قد خلق الناس على فئتين: فئة الأمير ومن يعول وفئة الحمير.

وتاريخ المسلمين الطويل بأيامه الكالحة ولياليه الحالكة، برهان على أن فقهاء السنة والشيعة وكل المذاهب والفرق الإسلامية قَدْ ضَلُّوا وأضلوا كَثِيرًا بما ابتدعوه من فتاوى سكت عنها القرآن ولم يضمنها شرعه، وبما أولوا معاني آيات أخرى لغير ما تحمله على شكل تفسير، فلم تزد تلك الفتاوى الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً، ولم تمنع تسلطاً أو تحقق عدلاً ولا مساواة.

ولن يقيل المسلمون من عثرتهم في الدنيا وينجيهم من عذاب الآخرة إلا العودة إلى كتاب الله، وتحكيمه فيما شجر بينهم: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أنفسهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء: ٦٥).

ولو رجع المسلمون إلى كتاب الله وحكموه عليهم فلن يكون لدولتهم زعيم بشري، وسيكونون عبيداً لله متساوين في الحقوق والواجبات والمزايا، مثلهم: . . .كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاستغلظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الفتح: ٢٩).

ولن تسير دولتهم بموجب آراء شخصية بشرية، ولكن بموجب قوانين مكتوبة بناءً على تشريعات القرآن، وما ليس في القرآن يتم التشاور فيما بينهم لاستنباط دساتير وتشريعات مناسبة له، إن كان على مستوى الأمة، وإلا استعين بالخبراء والمختصين إن كان على مستوى محدود. عندها لن يكون هناك مكان للتشريعات الفقهية والتفاسير الحالية، وما تعتمد عليه من أخبار ظنية عرفناها بواسطة أناس دخلوا الإسلام لتسلم رقابهم ولا يعرفون عن حقيقة القرآن إلا القليل، وصدقناهم بأنهم نقلوا لنا أحاديث للرسول تمثل نصف دين الله، مع أن دين الله أكرم عنده سبحانه من أن يترك نصفه يتناقله الناس مشافهة لمدة ثلاثة قرون قبل أن يجمع في كتاب، وقبل أن يطلق عليه مصطلح حديث ويقرر الناس أنه المصدر الثاني للتشريع.

ومتى ما فعل المسلمون ذلك فسوف يتحقق لهم الاستخلاف في الأرض والعزة

والتمكين والعيش بأمن وأمان حقيقي: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور: ٥٥).

وستتحقق الحياة الكريمة والحقوق المصانة لكل مسلم يعيش في دولة الإسلام أو تحت حمايتها: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل: ٩٧).

وسيكون المسلمون قادة للعلم وموطناً للعلماء، وحماة للبيئة والحياة الفطرية، وحماة للفضيلة والأخلاق الحميدة، وحماة للفكر الحر وحقوق الإنسان العامة، وحقوق المرأة في الزواج والتعامل، وحقوق الطفل واليتيم والمسكين والعاجز والمسن.

وإذا كان المسلمون يؤمنون بأن الجنة ستتحقق لهم في الآخرة، لأن الله سبحانه يقول: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (النساء: ١٢٢).

فعليهم أن يتأكدوا بأن الوعود الدنيوية سوف يتم تحقيقها لهم فعلاً وعلى أرض الواقع: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف: ٩٦).

وإذا لم تتحقق لهم وعود الدنيا، فلن تتحقق لهم وعود الآخرة، لأن من وعدهم بملكوت الأرض هو الذي وعدهم بدخول الجنة، وهو الله سبحانه: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر: ٧٤).

فالعزة في الدنيا مقترنة بالجنة في الآخرة، والفرقة والتشرذم والذل في الدنيا مقرون بعذاب الآخرة، هذا وعد من الله للمسلمين، والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده: وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (الروم: ٦).

ولن يتم الرجوع إلى تحكيم كتاب الله على يد مسيح أو مهدي لن يحضرا مهما انتظرهما المسلمون، لأن الرسل كانت ترسل لتجديد دين الله، عندما تتحور

العقيدة في الأمم السابقة، أما في هذا العصر وحتى نهاية البشر، فلن يأتي رسول من الله لتجديد العقيدة، لأن القرآن حل محل الرسل، وسيبقى بين الناس مكتوباً، دون تغيير أو تبديل لنصوصه التي نزلت على محمد، وهو ما لم يحدث لأي ديانة أخرى سابقة. لذا كان محمداً خاتماً للنبيين ولن يكون هناك حاجة إلى رسول يأتي من بعده. لأن أي رسول لن يأتي بأكثر مما جاء به القرآن: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الأحزاب: ٤٠).

ولن يأتي نبي أو رسول بعد محمد عليه الصلاة والسلام، كما يزعم من يروّج لحضور عيسى ابن مريم، الذي كان رسولاً لقومه بني إسرائيل: وَرَسُولاً إِلى بَنِي إسرائيل أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (آل عمران: ٤٩).

وعيسى من بني إسرائيل وأرسل لهم وتكلم لغتهم ومات بينهم، ورفعت روحه إلى الله مثل كل أرواح الموتى، ولن يعود إلى الحياة إلا يوم القيامة مثله مثل أي عبد من عبيدالله: إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (آل عمران: ٥٥).

وعندما يقوم عيسى من الموت يوم القيامة، سيسأله الله تعالى عما فعل مع بني إسرائيل، وليس مع المسلمين: وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة: ١١٦-١١٩).

أما المهدي فخرافة صنعناها وصدقناها، لا تستحق ذكرها.

والرجوع إلى دين الله وتحكيم كتابه سيتم على أيدي مخلصين لهذا الدين، متسلحين بالعمل والمعرفة، ولديهم القدرة على كتابة دستور دولة الإسلام على شكل قوانين وأنظمة، ولديهم الصلابة والعزيمة في الحق لمواجهة التعنت البشري الرافض للعودة إلى صافي العقيدة، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو المكان. فقد يكونوا سوداً من نيجيريا أو بيضاً من السويد أو صفراً من الصين، أو خليطاً منهم ومن العرب. وقد يكون من بينهم جورج بوش أو إريئيل شارون أو بعض من نسلهما، بعدما يهديهم الله إلى جادة الحق. وليس بالضرورة أن يقود المسلمين للعودة إلى الدين جماعة أو أفراداً من جزيرة العرب أو من مكة، لأن العرب ليسوا أوصياء على دين الله، ولم يأت الإسلام لهم من دون الناس، وإن كرم اللغة العربية عندما اختارها لتكون لغة القرآن، فالتكريم للغة وليس لجنس العرب.

وإن لم يحدث هذا فعلى المسلمين التخلي عن التسمي بالإسلام وسيجد دين الله من ينصره من غيرهم: . . .فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام: ٨٩).

ولعل ما جعلهم يقبعون في ذيل قائمة الأمم الحالية من حيث التحضر والصناعة، أنهم استمروا في الانتساب إلى الإسلام، مع أنهم يتبعون تشريعاتهم التي صنعوها بأيديهم، ويروجون لها على أنها الإسلام، مما أبعد بقية الخلق عن دين الله، فعاقبهم الله في هذه الدنيا قبل الآخرة.

وفي القرون الوسطى ثارت أوروبا على الدين المسيحي الذي كان عبارة عن تشريعات بشرية اتخذها رجال الدين والسلاطين مطية للتسلط على الحياة العامة والحريات الفكرية والتفرد بالجاه والمال، تحت مسمى دين الله، وهو منه براء، بشكل مشابه لوضع المسلمين. وبعد أن تحرر الأوروبيون من تلك السخرة سعوا للحصول على العلم والتقدم الحضاري فكانت لهم ريادة العالم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه يمكن للناس الحصول على ملذات الدنيا ولو كفروا بدين الله، إذا عملوا بجد وإخلاص وصدق لتحقيق ذلك، متسلحين بالعلم والمعرفة وسن القوانين والنظم التي تعين على خلق بيئة علمية حضارية، وأن يتخلوا عن الزعم بأنهم يؤمنون بدين الله، إذا لم يكونوا كذلك، وهذا ما تفعله

شعوب الأرض المتقدمة حالياً: . . ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠).

ومن يرد منهم أو من غيرهم من خلق الله الحصول على جنة في الدنيا متمثلة في المنعة والعزة والتمكين، وجنة في الآخرة، فعليه أن يتبع تشريعات الله فقط التي نص عليها كتابه الكريم، دون إضافة تشريعات بشرية إليها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

أما استمرار من يسمون أنفسهم بالمسلمين في ادعاء اتباع دين الله مع أنهم تحولوا عنه إلى تشريعات ابتدعوها من عند أنفسهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فقد حولهم إلى ما يشبه الغراب الذي أضاع مشيته ولم يستطع تقليد مشي الحمامة. فخسروا الدنيا كما هو محسوس وملموس، وهذه شهادة القرآن الكريم بما سيؤول إليه حالهم في الآخرة إلا من رحم ربي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أنفسهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ. لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (هود: ١٨-٢٢).

والسلام عليكم

مصادر الباب

ـ القرآن الكريم.

ـ تاريخ الطبري/ ابن جرير الطبري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ البداية والنهاية/ ابن كثير/ مكتبة المعارف ـ بيروت.

ـ الأوائل/ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ تاريخ الخلفاء/ السيوطي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ الأخبار الطوال/ الدينوري/ دار القلم للطباعة والنشر ـ بيروت.

ـ مختصر تاريخ العرب/ سيد أمير علي/ ترجمة عفيف البعلبكي/ دار العلم للملايين ـ بيروت.

ـ مقالات ونشرات علمية من الإنترنت.

الملاحق

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

القسم الأول: أمثلة على التشريعات الفقهية ومخالفتها للقرآن

* في العبادات
* في المعاملات
* في الحدود
* في العقيدة والإيمان

القسم الثاني: أمثلة على ما يحدثه التفسير من تغيير لمعاني الآيات القرآنية

* أصحاب الفيل
* الإفك
* الإسراء والمعراج

أمثلة على التشريعات الفقهية ومخالفتها للقرآن

في هذا الملحق سوف نورد بعض الأمثلة على تشريعات فقهية يسير عليها المسلمون منذ قرون على أنها تشريعات إلهية من دين الإسلام، وهي مجرد تشريعات بشرية قال بها الرجال، وليس لها ما يدعمها في كتاب الله لا نصاً صريحاً ولا قياساً على نص صريح. وهذه التشريعات طالت جميع جوانب الدين، كالعقيدة والإيمان والعبادات والتشريعات والآداب، وفي المعاملات والحدود، أي أنها طالت أصول الدين ولم تتوقف عند الفروع. وسوف نورد هذه التشريعات ثم نناقشها، ونعرضها على كتاب الله، لتوضيح الفارق بين ما شرعه البشر وأدخل في دين الله، وبين ما شرعه الله لدينه، ورضيه للناس ديناً.

في العقيدة والإيمان

المثال الأول: العقل والدين

يقول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (الجاثية: ١-٦).

وأي شخص يقرأ القرآن سيجد أنه مليء بالمفردات الدالة على ضرورة أعمال العقل، فعلى سبيل المثال هناك ٤٩ كلمة مشتقة من الجذر عقل، وهناك ١٩ كلمة مشتقة من الجذر فكر، و٢٠ كلمة مشتقة من الجذر فقه، وأن الكلمات المشتقة من الجذر نظر تكررت في ١٠٢ موضعين، وأن لفظ «أولوا الألباب» ذكرت ١٦ مرة.

إضافة إلى العديد من الآيات الأخرى التي تحث على ضرورة السماح للعقل بالتفكير الحر واللامحدود والتي كان من المفترض معها أن يكون المسلمون رواداً للعقلانية وليس أعداءً لها.

وقد بدأ ظهور الفرق والشيع المختلفة الإسلامية منذ القرن الأول الهجري، ولم يبق منها الآن إلا عدد قليل جداً مقارنة بأعدادها الكبيرة في العصور الأولى. بل إنها تكاد تنحصر حالياً في الفرق السنية التي يتبعها جلّ المسلمين في العالم، والفرق الشيعية التي يتبعها من بقي منهم، إضافة إلى نسبة صغيرة تتوزعها بقية الفرق الأخرى التي تنتسب إلى الإسلام (وليس هناك أرقام دقيقة لأتباع الفرق الإسلامية المختلفة) وكل الفرق التي بقيت إلى عصرنا هذا بلا استثناء تعتمد في معتقداتها على النقل واتباع ما تحويه مصادرها الفقهية، دون إشراك للعقل في هذه المعتقدات، أو حتى استخدامه في نقدها والتعرف على ما فيها من عوج.

فالشيعة لا يمكن أن يسمح فقهاؤهم بتحكيم العقل في مسألة الإمام الغائب منذ القرن الثالث الهجري أو التشكيك بعودته. أو التفكير بتلك النصوص التي تعطي قدسية لعلي بن أبي طالب ونسله، ولا يمكن أن يعقل الشيعي أن الإسلام بريء من هذا التقديس.

ومثل الشيعي هناك السني الذي يقرأ في كتاب الله قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أنفسكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (الشورى: ١١) ثم يؤمن بصحة الأحاديث التي تقول بأن لله أصابع (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

مثلما جاء في الحديث رقم (٧٣٤٧) في البخاري، والذي نصه: حدَّثَنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جريرٌ عن منصورٍ عن إبراهيم عن عُبيدةَ عن عبداللَّهِ رضي اللَّه عنه قال: جاء حَبْر من اليهودِ فقال: إنه إذا كان يومُ القيامة جعل اللَّهُ السمواتِ على إصبعٍ والأرضين على إصبع والماء والثرى على إصبعٍ والخلائقَ على إصبعٍ ثم يَهزُّهُنَّ ثم يقول: أنا الملك أَنا الملك، فلقد رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلمَ يضحك حتى بَدَت نواجذُه تعجُّباً وتصديقاً لقوله، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: وما قَدَروا اللَّه حقَّ قدرِهِ ـ إلى قوله ـ يشركون (الزمر: ٦٧).

ويعتبر السنة أن هذا الحديث دليل لا يقبل الشك بأن الرسول أمّن ووافق على

كلام اليهودي، بتلاوته الآية الواردة في سورة الزمر، مع أن تلاوتها تدل على أن الرسول ينفي ما زعمه اليهودي: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر: ٦٧) أي أن الله سبحانه أقدر وأعظم من أن يحتاج إلى أن يكون كما قال اليهودي، وأنه سبحانه لا يحتاج إلى خلق الكون أو نسفه أكثر من أن يقول: كن فيكون، دون الحاجة إلى التحرك.

وقد جاء إنكار الله سبحانه لكلام مماثل لليهود أيضاً وبنفس نص: وما قدروا الله حق قدره، وذلك في قوله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام: ٩١).

كما وأن الله جل جلاله، وبوصف القرآن: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أنفسكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى: ١١).

ويكون كل ما يتصوره الإنسان أو يتخيله أو يراه ليس في الله شبيه له، فليس له إصبع ولا رجل ولا ساق ولا يجوز عليه أي شيء يجوز على البشر، من ضحك أو غضب أو موت أو حياة، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يماثل أي شيء مخلوق في أي صفة أو تصرف. ومع ذلك يؤمن السني بصحة الأحاديث التي تقول بأن الله يضحك ويعجب، مثل هذا الحديث الذي أورده البخاري برقم (٤٧٦٩)، والذي نصه: حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيم بن كثير حدَّثَنا أبو أسامة حدثنا فُضَيْلُ بن غَزوان حدَّثنا أبو حازم الأشجعيُّ عن أبي هريرة رضيَ الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجَهدُ. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجلٌ يُضيفُهُ الليلة يرحمُهُ الله؟ فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأتِهِ: ضيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تَدَّخريه شيئاً. فقالت: واللَّهِ ما عندي إلاّ قُوتُ الصِّبْية. قال: فإذا أراد الصِّبية العَشاءَ فَنَوِّميهم، وتعالَيْ فأطفِئي السِّراجَ ونَطْوي بُطونَنا الليلةَ. ففَعلَتْ. ثم غدا الرجلُ على رسولِ

الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد عَجِبَ اللَّهُ عزَّ وجل ـ أو ضَحِكَ ـ من فلانٍ وفلانَةٍ. فأنزَلَ اللَّهُ عز وجل: ويُؤْثرونَ على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة.

ويقرأ السني: لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الأنعام:١٠٣)، ثم يؤمن بأن الناس سيرون الله، وأن له ساق لأن هناك أحاديث نسبت إلى الرسول تقول بذلك، ومنها: حدَّثَنا يحيى بن بُكَير حدثنا الليثُ بن سعدٍ عن خالد بن يزيدَ عن سعيدِ بن أبي هلال عن زيدٍ عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قلنا: يا رسول اللَّهِ هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارُّون في رؤية الشمس والقَمر إذا كان صَحواً؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا تضارُّون في رؤية ربِّكم يومئذٍ إلا كما تضارُّون في رؤيتهما... قال: فيأتيهمُ الجبَّارُ في صورةٍ غير صورته التي رأوْه فيها أوَّلَ مرة، فيقولُ: أنا ربكم فيقولون أنت ربُّنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينَهُ آية تعرفونَه؟ فيقولون السَّاق. فيكشف عن ساقه، فيسجدُ له كل مؤمن، ويبقى مَن كان يسجُدُ للَّه رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجدَ فيعودُ ظهُرُه طَبَقاً واحِداً... إلى آخر الحديث (البخاري:٧٢٧٣).

ويؤمن السني بأن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا في كلّ ليلة، لكي يستمع إلى من يستغفره فيغفر له، وكأنه سبحانه يحتاج إلى الدنو لسماع مناجاة عباده، ويضع قدمه في النار فتمتلئ، وغير ذلك من الرّوايات التي تجعل من الله جسماً متحركاً وله دار يقطن فيها (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

وكل هذه المعتقدات التي يعتقد بها السنة والشيعة والفرق الإسلامية الأخرى مردّها أنهم عطلوا أعمال العقل، وإلا لو حكموا عقولهم لنزهوا الله جل وعلى عن هذه الصفات.

والسنة مثلهم مثل كل الفرق الأخرى في عدم الاعتراف بالعقل لنقد عيوب معتقداتهم، مع أنهم يرون أن نقد المعتقدات الأخرى بواسطة العقل من أعمال الخير الواجبة في سبيل الدفاع عن صافي العقيدة.

ولقد أبيدت كل الفرق التي كانت تعتقد بضرورة أن يحتكم للعقل في المسائل الظنية أو الغيبية التي لا يتوفر لها دليل قطعي، في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه فكرة تقديس النقل، وأصبح الحديث المنسوب إلى الرسول يجب أن يصدق، ليس لأن الفقيه الذي عاش في القرن الثاني من الهجرة قد تأكد بنفسه من سماعه من

الرسول أو من الشخص الذي سمعه من الرسول مباشرة، ولكن لأنه سمعه من شخص يعيش في عصره هو ويتوافق معه في المنهج. والتشكيك بمصداقية الراوي تشكيك بمنهج الفقيه نفسه.

واعتبر نقد متن حديث واحد نقد لكل الأحاديث، ونقد الأحاديث نقد لرسالة محمد، وتشكيك بدين الله. لأن نقد متن الحديث أو سنده أو أقوال السابقين ستعري منهج الفقيه المحافظ. وقبول نقد الأقوال المنسوبة إلى الصحابة سيجعل نقد وترك أقوال الفقهاء أسهل، وبالتالي تسقط قيمة كلام الفقهاء، وتنقشع الهالة القدسية التي أحاطوا أنفسهم بها.

فمنعوا على أنفسهم وعلى أتباعهم الاعتراف بأن الدين ليس قول فقيه ولا صحابي ولا حتى قول محمد بن عبدالله الإنسان، ولكن قول العزيز الحكيم وحده. وما محمد إلا عبد لله ورسوله، مكلف بنقل رسالة ربه للناس المتمثلة في الآيات القرآنية التي يتلقاها وحياً، بكل حرفية وأمانة، دون أن يكون له الخيار بالإضافة عليها أو الحذف منها حتى ولو جاءت الآيات بتوبيخ للرسول نفسه أو نقد لتصرفاته.

ونتيجة لذلك توسع الناس بالأخذ بالأحاديث وأقوال من سبقهم من الناس، لدرجة لم يعد ممكناً حذف أو تجاهل أو نقد أي نص منها حتى ولو كان مشكوكاً في مصدره أو كان مخالفاً لعقل أو حتى آية قرآنية.

وفي العصور الإسلامية الأولى وجد من استخدم العقل لمجادلة أهل الملل غير الإسلامية في محاولة لإثبات صدق رسالة الإسلام، لأن من لا يؤمن بالقرآن لن يقتنع بما جاء فيه. ولكن مع الأيام تعمق أولئك في فلسفة أقوالهم مما جعلهم يبتعدون كثيراً عن أصل فكرتهم العقلانية المطلوبة في الدين. واتجهت مجادلاتهم إلى المسلمين الذين يقدسون التمسك بالنصوص المنقولة، وتحول الجدل بين الفريقين إلى حرب، حاول كل فريق أن يكسبها على الآخر. فتشعبت الأقوال وتداخلت مع الأهواء، وبعد كل فريق عن الفكرة الأساسية التي نادى بها.

وقد ساهمت السياسة في غلو كل فريق بما لديه، وتقلبت الأوضاع والأحوال بكل فريق حسب موقف الخليفة. فكان كلما مال خليفة لرأي فريق فإن الفريق الآخر سيكتب عليه الاضطهاد والتكفير والمحاكمة والقهر والتعذيب والسجن،

حتى يأتي خليفة آخر يميل للرأي المخالف ليفسح المجال لأهل ذلك الفريق بأخذ ثاراتهم وتجريع منافسيهم من نفس الكأس التي تجرعوها من قبل. وبطبيعة الحال فقد جاءت آراء الفريقين نتيجة للعصر الذي عاشوا فيه وما وفره لهم من معارف شحيحة، ولو قدر لهم وعاشوا في عصر ينتشر فيه العلم كالعصر الحاضر لما تقاتلوا حول مسألة مثل مسألة خلق القرآن، لأنهم في ذلك العصر لم يتصوروا غير احتمالين فقط للمسألة، فإما أن يكون القرآن مخلوقاً (أي أن الله قال له كن فكان على شكل آيات وسور) أو أنه منطوقاً(أي أن الله تحدث به كحديث أي شخص من البشر) فتقاتل الفريقان كل يحاول أن ينزه الله سبحانه فيما يعتقد بأنه منزه عنه من وجهة نظره.

ولم تسعف معارف الفريقين في ذلك الزمن أن يتصوروا أن هناك طرقاً أخرى يتم بها الاتصال ونقل المعلومة دون أن تكون المعلومة مخلوقة أو منطوقة، وأن الاتصال بين الله جل جلاله وبين ملائكته المكلفين بإيصال الوحي للرسل من البشر، تم بآلية غير معروفة لدينا ولكنها لم تكن الكلام الشفهي، ودون أن تكون آيات الله مخلوقة، كما بين الله عز وجل ذلك في كتابه العزيز عندما وصف كيف يتم نسخ الوحي في ذاكرة الرسول من قبل الملائكة المكلفين بذلك، دون حاجة إلى الكلام، وعلى شكل لغة بشرية يتقنها الرسول المكلف بالتبليغ وبآلية لا ندركها: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (الشعراء: ١٩٢-١٩٦).

فالرسول لا يخاطبه الملك (بفتح اللام) ولا يلقنه الوحي تلقيناً، وكل ما يشعر به الرسول يتمثل في أن هناك آيات جديدة قد نسخت في ذاكرته (قلبه). ولما كانت تلك الآلية غير معتادة بالنسبة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه فقد حاول في بداية الوحي أن يردد كل ما يجده قد نسخ في ذاكرته من آيات خوفاً من أن ينساها، فجاء تطمين الله سبحانه بأنه لن ينسى أي آية نزلت عليه مهما طال الزمن، لأنها حفرت في الذاكرة بصورة تبقيها إلى الأبد: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة: ١٦-١٩).

وهكذا حولت قلة المعارف وشح العلوم مسائل سطحية يمكن فهمها ببساطة إلى مسائل جوهرية يتوقف عليها إثبات أو نفي الإيمان بالله من شخص إلى آخر،

واضطهد الناس بعضهم البعض، كل يحاول أن ينتصر لفكرته التي يعتقد أنها الركيزة الصحيحة التي يقوم عليها دين الله.

ومع أن العصر قد تغير وأن العلم قد انتشر إلا أن الفقه بقيت تتوارثه الأجيال بالصورة الأولى نفسها التي وجد عليها، وبقي الفقهاء لا يعرفون من العلم إلا حفظ نصوص الأحاديث وأقوال من سبقهم من فقهاء القرن الأول ومفسرين لم يعرفوا من العلم إلا ما اطلعوا عليه من كتب اليهود والنصارى والأديان الأخرى، التي ألفها أناس في عصور متحجرة تسيطر عليها الخرافات والأساطير. فبقي تقديس النص، وبقي العقل محارباً، فيما اكتسب الفقهاء حصانة وعصمة تزداد سماكتها كل يوم.

ومع توالي الخلفاء الذين جنحوا إلى رأي الفريق المحافظ، تسمى فريق من المتمسكين بالنص بأهل السنة والجماعة، وتسمى غيرهم بالشيعة، وأصبح الدين نقل فقط لا عقل فيه، وأصبح كل من تمنطق (أي حكم عقله في نص) فقد تزندق (أي مرق من الدين وحل قتله). وتخلص هذا الفريق بهذه الطريقة من أتباع الفريق الآخر(العقلاني)، الذين أصبحوا كفرة يجب مطاردتهم والقضاء عليهم. مما ساهم في تشتت آراء أهل الكلام واختلافها في محاولة لإيجاد عقيدة تجمع بين ما يقولون به من عقلانية مع إقناع معارضيهم الأقوياء المؤيدين بالسلاطين بأنهم ليسوا زنادقة.

فتراجع بعضهم عن أقواله، وغير البعض الآخر ما كان يؤمن به، بينما توارى البعض عن الأنظار واعتزلوا الحياة العامة، محتفظين بعقيدتهم التي دفنت معهم عندما ماتوا.

ولم يبق في الساحة إلا العقائد المحافظة التي وجد فيها السلاطين ضالتهم في تثبيت وإرساء قواعد حكمهم والقضاء على أعدائهم السياسيين باسم الدين، عبر ما يصدره فقهاء تلك العقائد من فتاوى تحرم نقد السلطان أو معارضته وتبيح دم كل من ينتقده أو يطلب منه العمل بكتاب الله، مستدلين بتأويل آية عن معناها أو خبر منسوب إلى الرسول ولو لم تثبت نسبته، أو بقول فقيه من عصر سبقهم يتوافق مع ما يعتقدون.

وهكذا من بين مئات المذاهب والفرق، لم يبق في العالم الإسلامي إلا قطبن كبيران هما من تسمّوا بالسنة بمذاهبهم الأربعة، ومن نعتوا أنفسهم بالشيعة، وإن بقي غيرهم فمذاهب صغيرة وغير مؤثرة، بقيت لأنها استطاعت التوفيق بين آرائها

الأصلية وبين ما يتوافق مع رغبات السلاطين بطريقة أو بأخرى، بينما لم يبق كتاب واحد يظهر معتقدات من سموا بالمعتزلة أو بأولئك الخوارج الأوائل الذين خالفوا علي بن أبي طالب في قبول التحكيم، ولا غيرهم من الفرق. بل واستخدمت مصطلحات الخوارج والمعتزلة لإلصاق تهم الكفر والمروق عن الدين ولم يعد يسمح بالتحدث عن أصل مبادئهم قبل أن تنحرف.

وأصبح فقهاء السنة وفقهاء الشيعة والفرق الأخرى التي بقيت حتى هذا العصر ينظرون إلى علوم الدين على أنها حرم مقدس لا يدخله غيرهم، وأنهم وحدهم من له الحق بإخراج كلمة الله لأتباعهم، ولا حق لغيرهم بنقاشهم، لأنهم وحدهم الذين يقولون ما يريد الله قوله، وعلى غيرهم أن يسمعوا ويطيعوا، وكل من خالفهم فقد حقت عليه لعنة الله والملوك والناس أجمعين.

وتم وأد العقل وتغييبه عن المسائل الدينية لدى كل من بقي من المذاهب والفرق الإسلامية، لأنهم يزعمون أن العقل لا يمكن أن يكون ميزاناً للتشريع، بحجة أن ما هو معقول عند شخص قد يكون غير معقول عند شخص آخر، وأن الدين يجب أن يعتمد على النقل من النصوص، حتى في إثبات وجود الله والتصديق بيوم القيامة وكل الأمور الغيبية الأخرى.

ومنع الاعتماد على أعمال العقل للتعرف على حقيقة التأويل والتفسير للآية، أو صحة متن الحديث أو ثبوت نسبته إلى الرسول أو توافقه مع الحقائق العلمية التي أودعها الله في كونه، أو حتى مناقشة خبر منسوب إلى صحابي أو رأي فقيه سالف، في مسألة لم يأت لها ذكر في كتاب الله أو قال بها رسوله يقيناً.

وغاب عن الساحة الإسلامية كل الفرق والمذاهب التي تقول بأن العلم بالعقائد الدينية يتم عن طريق الأدلة اليقينية، وأن العقل هو أحد هذه الأدلة في كل ما لا يتوفر فيه نص شرعي يقيني. فالغيبيات لا يمكن إثباتها لمن لا يؤمن بالإسلام عن طريق النقل وقراءة النصوص الدينية، ولكنها تثبت بالعقل، كما أن إثبات وجود الخالق والتصديق بيوم القيامة قد ثبتا بالعقل وليس بالنقل.

وغاب عن معارضيهم أن كل نص يقيني الثبوت لا يمكن أن يخالف نصاً آخر يقيني الثبوت، ولذلك فليس هناك خوف من أن يتعارض القرآن، وهو اليقيني الثبوت، مع العقل، وهو اليقيني الثبوت أيضاً. كما غاب عنهم أن الاعتماد على

الأقوال الظنية في الحديث عن صفات الله يقود لتشبيه الله سبحانه بخلقه من حيث أن له ساقاً ويداً ووجهاً وغيرها (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

ولو سمح الناس لعقولهم بالعمل لوجدوا أن الدين نقل كله، لأنه لو لم ينقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ما كان ينزل عليه من الوحي لما عرفنا الدين.

وأن الدين عقل كله. فلو أننا لم نحكم عقولنا باحتمال صدق رسالة محمد ودعوته للإيمان بالله، الذي لا نراه ولا يمكن أن نتأكد من وجوده بطرق محسوسة، لما أصبحنا مسلمين نعمل للآخرة، التي لا يمكن لنا أن نتأكد من وجودها بطرق محسوسة أيضاً.

والدين بعضه نقل. فلو لم ينقل لنا عن رسول الله هيئة الصلاة والحج لما عرفنا كيف نؤدي شعائرهما.

والدين بعضه عقل. فنحن نعرف بأن دين الله المنزل على موسى وعيسى وإبراهيم وبقية الرسل هو نفس الدين الذي أنزل على محمد، لأنه من غير المعقول أن يخلق الله الناس بنفس الاستعدادات العقلية ويفرض على بعضهم أحكاماً لا تفرض على الباقين، أو يطلب من البعض عبادات لا تطلب من الآخرين. أو يعذب الله أناساً بأفعال يبيحها لآخرين.

أما ما يشرعه رجال الدين مما لا يوجد في كتاب الله ويشرع رجال دين آخرون بخلافه وينقل عن كل فريق رجال دين لاحقون، ويطلب من الناس أن يقبلوا بهذه التشريعات دون نقاش ولا نقد، فهذا ليس نقلاً لدين الله، ولا عقلاً بدين الله. بل هو إبقاء لموروث فقهي بشري قد يخطئ، وحتى لو أصاب فلم يأمرنا الله باتّباعه. وهو شبيه بموروث الأمم السابقة الذين وجدهم الرسل يتبعون، ولم يوافق الناس على تركه واتباع ما دعتهم إليه الرسل، لأنهم اعتقدوا أن دين الحق هو الذي نقل لهم عن رجال سابقين، وأن الرسل يريدون منهم تحكيم عقولهم فيما لا يجب أن يحكم فيه العقل، بل يقبل به كما نقل.

وفات على كثير من الناس، ولم يرغب غيرهم الاعتراف به، أن كل نص ديني يقيني الثبوت هو الذي يجب نقله كما هو والعمل بمقتضاه إن كان أمراً أو نهيا: قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ. (الأنعام: ١٩).

وكل نص ظني الثبوت، أي يجوز عليه الصدق أو الكذب، فليس بدين، لأن دين الله أعز عنده سبحانه من أن تكون نصوصه مشكوكاً في صحتها.

وليس من العقل أن نؤمن بأن كلام الله المنزل على محمد لا يكفي بمفرده ليقود الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويحتاج إلى رأي فقيه وإلى إضافات وجدل بشري: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (الكهف: ٥٤).

كما أنه ليس من النقل أن نشرك كلام محمد مع كلام الله ونقول بأن كلاهما دين يجب أن يتبع، لأن لفظة «الرسول» تعني الناقل للرسالة بحذافيرها ومن دون أن يكون له حق بإضافة أو حذف أو إخفاء بعض ما في الرسالة المنقولة: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: ١٥).

ولا يستطيع الرسول التحدث باسم الدين بخلاف القرآن: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧).

ولن يكون من النقل أن ينقل فقهاء المسلمين عدة تشريعات فقهية متخالفة ومتعارضة حول مسألة واحدة وكل فريق اعتمد على أحاديث منسوبة إلى الرسول أو آراء فقهية سابقة ويعتقدون أنها (كلها) من عند الله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إلى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (الأنعام: ١٥٩).

مع أن الله وضع قاعدة إلهية للحكم على أي تشريع إن كان من عند الله أم لا، تقول: أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافاً كَثِيراً (النساء: ٨٢).

والإسلام دين واحد وشريعة واحدة لا اختلاف ولا خلاف فيها، وكل ما فيه اختلاف أو خلاف فليس من الإسلام.

ويكون من العقل أن نتساءل كيف سمح رجال الدين لأنفسهم بإصدار تشريعات لم ينزل بها قرآن، مع أن الله حرم ومنع الناس من التطرق لأي مسألة فقهية لم

يتعرض لها القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة: ١٠١).

ومن العقل أيضاً أن نتساءل إن كان عدم التفكير بما قد يكون أصاب عقيدتنا من دنس عبر السنين هو ما أمر به الدين، بينما سمح إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لعقله أن يتساءل عمن يكون الخالق وكيف يمكن أن يكون، ثم وبعد أن أصبح نبياً لله، سمح لعقله بأن يفكر كيف يحيي الله الموتى. إلى غير ذلك من الأسئلة التي لو صرح بها لبني البشر لحاكموه وعاقبوه عليها بحجة أنها هرطقة وزندقة وتجن على ذات الله، مع أن الله لم ينصب أحداً من خلقه للدفاع عن دينه أو محاكمة البشر بالنيابة عنه: وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام: ٧٥).

ومع أن كل بشر يملك العقل الكافي ليرى ملكوت السموات والأرض متمثلاً في النجوم والشمس والقمر ونزول المطر ونمو النباتات... الخ. إلا أنه ليس كل أحد تساعده هذه الرؤيا للوصول إلى حقيقة عظمة الخالق، كما حدث لإبراهيم: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (الأنعام: ٧٦).

وقد بدأت رحلة اليقين لإبراهيم بشك في من يكون الخالق وأين هو. وبعد تمعن وتفكير أيقن أنه لا يمكن أن يكون أحد هذه النجوم ولو كان أكبرها، لأن النجم غاب والخالق لا يمكن أن يغيب عن خلقه: فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (الأنعام: ٧٧) وحدث للقمر ما حدث للنجم.

ومع يقين إبراهيم بأنه لا يعقل أن يخلق الكون نفسه، فقد استمر في إعمال عقله لمعرفة ما يكون ذلك الخالق وأين هو: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (الأنعام: ٧٨).

وحتى الشمس، أكبر جرم سماوي رآه إبراهيم وأكثرها تأثيراً على الأرض، لم تكن هي الإله، لأنها كما القمر والنجوم مخلوق مسير ولا تسير نفسها، فهي كما الصنم ذلك الجماد المخلوق.

والخالق لا بد أن يكون هو المسير لخلقه والمتحكم في الكون كله، وإن لم نستطع رؤيته فلا يعني أنه غير موجود، بل دلالة على عظمته التي لا تحيطها عقول البشر، ولذلك آمن إبراهيم بمن ابتدع الكون دون أن يراه وهداه تفكيره إلى أنه لا بد أن يكون إلهاً واحداً لا شريك له: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩).

وعندما حاول قومه أن يقنعوه بأن إيمانه بمعبود غير أصنامهم ضرب من البدعة، أجابهم بأن الخالق الذي اهتدى لوجوده وعظمته عن طريق التفكر بمخلوقاته أحق بالعبادة والخوف من جماد لا يستطيع نفع ذاته ولا درء الخطر عنها: وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (الأنعام: ٨٠).

ولو احتكم الناس للعقل والمنطق لظهر أن الخوف من الله له ما يبرره وليس الخوف من الحجر: وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (الأنعام: ٨١).

وكان إبراهيم قد توصل أولاً إلى أن عبادة الأصنام غير معقولة وبالتالي فلا يمكن أن تكون صحيحة: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (الأنبياء: ٥٢).

ودين الله لا يقر الإبقاء على عادة أو عبادة بحجة أنها موروثة وجزء من التراث الاجتماعي، إذا كانت تتعارض مع ما جاء به الدين من تشريعات حديثة: قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (الأنبياء: ٥٤-٦٣).

فانتصر صوت العقل على النقل والتقاليد البالية: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام: ٨٣).

والسماح للعقل بالتفكير بحرية وشفافية وبلا حدود نوع من الحكمة التي أودعها الله في كل شخص، ولكن ممارسة تلك الحكمة تعود إلى الشخص نفسه: وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (الأنبياء: ٥١).

والراشد من يستخدم عقله لا من يحمله. ولم يتوقف إبراهيم عن تساؤلاته العقلانية بعد معرفته للخالق وبطلان عقائد قومه، وبعد أن أصبح رسولاً لله: وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة: ٢٦٠).

لقد أراد أن يقطع الشك باليقين في أمر خاص من أمور الخالق الذي لا يتحقق الإيمان إلا بالتسليم به غيبياً، وهو قدرته سبحانه على بعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى، وهي عقلانية تنسجم مع محدودية عقل الإنسان الذي يصعب عليه الاقتناع بالغيبيات دون دليل مادي محسوس، وقد استجاب الله لإبراهيم وحقق رغبته، لأن سؤاله لم يكن لتبرير عدم إيمانه بالغيب، لأنه مؤمن، ولم يكن سؤاله مثل أسئلة مماثلة طرحها كفار كل الأمم السابقة على رسلهم للتعجيز وليس للإيمان واليقين، كطلب رؤية الله أو مخاطبته أو تنزيل ملائكة.

وهكذا أصبح إبراهيم رمزاً للعقلانية على مر العصور، وقد كافأه الله على تفكيره الحر، بأوسمة ونياشين إلهية لم يحصل عليها أي بشر ورد ذكره في القرآن الكريم. فقد شرف الله إبراهيم ببناء، أو إعادة بناء، أول بيت لعبادة الله، في أرض الجزيرة على الأقل: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فإن الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

وأصبحت الطريقة التي تعبد إبراهيم بها ربه ملة لدين الله بعده: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل: ١٢٣).

ومن المظاهر الواضحة لتلك الطريقة الإبراهيمية التي بقيت من بعده على مر العصور: أداء شعائر الحج التي لم تتغير عن الطريقة التي أداها إبراهيم، وختان الصبي، والأضحية.

وعندما تسمى إبراهيم بالمسلم: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقرة: ١٣١).

سمى الله كل من يتبع دينه مسلماً: وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (البقرة: ١٣٢).

وليستمر الإسلام كاسم لدين الله بعد ذلك: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الحج: ٧٨).

وباستخدامه العقل بكل شفافية وبلا حدود صار إبراهيم يعدل أمة كاملة: إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل: ١٢٠).

وفوق هذا كله اختاره الله ليكون خليلاً له مع أنه بشر: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَاتخذ اللّهُ إبراهيم خَلِيلاً (النساء: ١٢٥).

ومما سبق يتضح أن القرآن يمثل الكتاب الأول وبلا منازع، الذي يحث على استخدام العقل بلا حدود، وأن كل الآيات التي نزلت على كل الرسل كانت تحث الناس على تحكيم عقولهم للاهتداء إلى أن دعوة الرسل صحيحة، وأن من خلق الخلق أول مرة يسهل عليه خلقهم مرة أخرى يوم القيامة، وأن دين الله حجر ألماس أصلي لا يخدشه أي حجر آخر، فلا خوف على الدين من العقل، كما أن أي نص يخالف هذا الحجر الكريم الأصلي سيتعرض للخدش دون أن يصاب الإسلام بأي أذى. وأن أي نص نظن أنه من الدين إذا ما خدشه نص آخر أو موقف عقلاني أو حقيقة علمية فلا يمكن أن يكون من الدين، وأن علينا تخليص دين الله منه. وأن علينا أن نتيقن أن أي آية قرآنية لا يمكن أن تخدش، ليس لأننا نتكلم بعاطفة كمسلمين، ولكن لأن الله الذي صدر منه القرآن يقول: قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (بني إسرائيل: ٨٨).

كما أن علينا أن نعقل أن أي نصوص قرآنية لا يمكن أن تتعارض مع بعضها،

وإن بدت لنا كذلك فهو دليل على أن تفسيرنا لأحد الآيتين أو كلاهما كان خاطئاً، وعلينا أن نعقل أن أي نص يعارض آية في كتاب الله فليس من الدين، وأن أي نصوص ليست قرآنية وتتعارض مع بعضها فليست من الدين: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً (النساء: ٨٢).

وعلى الرغم من كل ما تقدم، يستمر بعض رجال الدين على الإصرار بأن دين الله لا علاقة له بالعقل وأنه دين نقل، في جدال عقيم، ظاهره الدفاع عن دين الله، وحقيقته الدفاع عن أنفسهم حتى لا يطال النقد بروجهم العاجية التي بنوها لأنفسهم من عند أنفسهم وتحصنوا بها من دون أن يأتيهم بها كتاب من الله. فنصبوا أنفسهم بأنفسهم أولياء لله في أرضه بحجج واهية لا يدعمها عقل ولا يسندها منطق وستتهاوى بمجرد توجيه أول نقد عقلاني لها. يقول تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْم وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَاب مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (الحج: ٥-٦).

والمسلم من تبع دين الله كما نزل على إبراهيم ومن بعده من الرسل حتى محمد، فإذا كان إبراهيم رائد العقلانية على مستوى البشرية، فهل من المعقول أن يحرم من التفكير أتباع محمد ويقبلون كمسلمين؟

وهل يعقل بعد كل ما قيل أن يبقى مكان لغير العقل في الإسلام؟

المثال الثاني: آل البيت

هناك العديد من العائلات في بلاد الحرمين والبلاد العربية وحتى البلاد الإسلامية يقولون بأنهم من آل البيت. والمقصود بالبيت، بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، في إشارة إلى أن هذه العائلات تعود في نسبها إلى الرسول محمد. وهذا ما يعطيهم تميزاً مقدساً عن بقية خلق الله، ولذلك يفضلون أن يسموا بالأشراف، لأن نسبهم يتصل بالنسب النبوي الشريف.

وقد ترتب على ذلك الكثير من المعتقدات والممارسات والعادات التي لن نتطرق إليها لأنها بعيدة عن موضوعنا. والشيعة من جهة أخرى يعتقدون بأن من أهم أسس الإيمان بالله، الاعتقاد بأن هناك اثني عشر رجلاً ورثوا علم النبوة من أبيهم، الرسول محمد بن عبدالله، وأن أولئك الرجال يسمون بالأئمة الهادين

المهتدين، وأنهم هم من يجب أن يأخذ الناس دينهم منهم، وهم من يجب أن يتوارثوا قيادة دولة الإسلام حتى قيام الساعة، بسبب ما خصهم الله به من علوم وأسرار لا يعلمها غيرهم.

والشيعة وبعض السنة لا يخالجهم شك في أن تلك الأسر، وأئمة الشيعة تتصل في نسبها بنسب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك فهم من أهل بيت الرسول وآل بيت الرسول، وهذا الادعاء يتعارض مع القاعدة الثابتة للنسب والمتمثلة في أن سلسلة النسب تتحدر من الأب لأبنائه الذكور دون الإناث، ومنهم تنحدر لأبنائهم، وهكذا. وقد أكدها القرآن الكريم، بقوله تعالى: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فإن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ. (الأحزاب: ٥).

وحتى من لا يعرف أبوه فلا يجوز في الإسلام أن يلحق بنسب غير نسب والده. وقد عادت سورة الأحزاب بالذات لتنص على أنه لا يجوز أن ينسب أحد من المسلمين إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه وتنفي نفياً قاطعاً أن يكون عليه الصلاة والسلام أباً لأحد من رجالهم، يقول تعالى: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الأحزاب: ٤٠).

ومع كل هذه التحذيرات الإلهية الغليظة، ومع أن جميع خلق الله من المسلمين يعلمون أن جميع أولاد رسول الله الذكور ماتوا وهم في سن الطفولة والرضاعة، وبالتالي فنسب الرسول قد انقطع، إلا أن الانتساب إلى الرسول بقي عند تلك العائلات التي تسمي نفسها بـ(آل البيت) أو الأشراف، وعند الشيعة بالنسبة إلى أئمتهم.

وقد جاء الانتساب للرسول بطريقة مخالفة لقاعدة سلسلة النسب التي أقرها الله تعالى في كتابه والتي يسير عليها الناس، حيث يقول من يؤمن بها إن نسب تلك العائلات ينتهي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب أو الحسين بن علي بن أبي طالب، ومنهما ينتسبون إلى أمهما، فاطمة، وليس إلى أبيهم علي بن أبي طالب، كما جرت قاعدة النسب، ومن فاطمة يتصلون بالنسب إلى رسول الله. ويوافقهم الشيعة في نسب أئمتهم إلى رسول الله بطريق مماثل، غير آبهين بأنهم ينسبون إلى

الرسول ما ليس له بنسب وهذا ما نهت عنه الآية الخامسة والآية الأربعون في سورة الأحزاب وبغلظة ولهجة شديدة.

وكأنهم يقولون بأن فاطمة بنت محمد أول امرأة منذ خلق البشر في جزيرة العرب، تمثل حلقة في سلسلة النسب التي تقتصر على الرجال.

وأن علي بن أبي طالب أول رجل، منذ خلق الله البشر في جزيرة العرب، ليس له حلقة تمثله في سلسلة نسب أبنائه، على الرغم من أنهم لا زالوا ينتسبون إليه فيقال الحسين بن علي والحسن بن علي، نظرياً. ولكن نسب الحسين والحسن وأبناؤهما وأحفادهما اليوم ينتسبون إلى الرسول الذي هو جدهما لأمهما، وليس لعلي بن أبي طالب والدهما الفعلي.

ولأن كسر قاعدة النسب غير مقبول ولا يمكن العمل بموجبه، فقد حاول من كسره أن يوحي للناس بأن هذا الاستثناء جاء بمشيئة إلهية وأن له ما يدعمه من القرآن الكريم. وأن الرسول كان له (آل، وأهل) يختلفون عن (آل، وأهل) أي رجل آخر، فآل الرسول ليسوا أبناءه الذكور، وأهل الرسول ليسوا زوجاته وبناته وأولاده ومن يعيش معه في منزله، مثل بقية خلق الله، ولكن (آل وأهل الرسول) هم ابن عمه علي بن أبي طالب، دون بقية أبناء عمومته الآخرين، وزوجته فاطمة بنت محمد، دون زوجاته التي عرف ابن كثير منهم ثماني، وقال بأنه مات عن أربع وتسع عشرة جارية[1]. إضافة إلى ابني علي الحسن والحسين دون أبنائه الأربعة عشر، وبناته السبع عشرة.

وقالوا بأن هؤلاء هم (آل الرسول وأهل الرسول) مستدلين على ذلك بأحاديث ظنية لا حصر لها، منسوبة إلى الرسول، وبآيات قرآنية. ولن نتطرق إلى الأحاديث، لكثرتها، وتشعبها، ولأنها يجوز عليها الكذب، ولكننا سنتعرض لأهم الآيات التي استدلوا بها ومناقشة وجه الاستدلال، فإن كان صحيحاً فليس لنا إلا أن نسلم بقول الله تبارك وتعالى، وإن كان الاستدلال خاطئاً بينا خطأه.

وأول دليل من القرآن يستدلون به، وقد يكون أشهر أدلتهم، هو جزء من الآية

---

(١) البداية والنهاية ـ فصل في ذكر زوجات علي وبناته وأبنائه.

(٣٣) من سورة الأحزاب، وهذا الجزء هو: . . .إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

حيث يقول رجال الدين الشيعة إن المقصود بأهل البيت المذكورة في الآية هم: علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة وابناه الحسن والحسين[١].

وسورة الأحزاب نزلت بعيد موقعة الأحزاب التي جرت في السنة الخامسة للهجرة، أي أن الاحتمال الأغلب هو أن الحسين بن علي لم يولد بعد، لأن كتب الأخبار تورد أنه ولد في شعبان سنة أربع وقيل سنة ست وقيل سنة سبع. كما يقول ابن حجر العسقلاني في ترجمته في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، أي أن الحسين قد لا يكون من (آل البيت) المفترضين عندما نزلت الآية، والحسين هو الحلقة الأهم في سلسلة أئمة الشيعة لأن من صلبه تحدر تسعة منهم.

بينما يكون عمر الحسن إما سنة وبضعة أشهر على أكثر تقدير أو بضعة أشهر فقط، كما أورد ابن حجر في الإصابة أيضاً.

والأهم من ذلك هو أن المتدبر والمتمعن في الآية (٣٣) من سورة الأحزاب يجد أن لا علاقة لها بعلي والحسن والحسين وأمهما، إذا تابع ما تتحدث عنه السورة من أولها إلى آخرها. ولو فعلنا ذلك فسنجد التالي:

الآيات الثلاث الأولى تحذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه من طاعة غير المسلمين، وأن يلتزم فقط بما يوحى إليه من القرآن ويتوكل على الله، يقول تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (الأحزاب: ١-٣).

وتخاطب الآيتان الرابعة والخامسة الرسول والمسلمين بآداب وتشريعات جديدة تتلخص بأنه لا يمكن للإنسان أن يفكر بشيئين مختلفين في وقت واحد، ولن تتحول زوجة المرء إلى أم له بمجرد أنه ظاهرها (أي قال لها أنت كظهر أمي)، كما

---

(١) انظر على سبيل المثال التبيان في تفسير القرآن/ أبو جعفر محمد بن الحسن ابن علي الطوسي/ تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي/ قم ـ مكتب الإعلام الإسلامي/ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ. وتفسير الإمام الحسن العسكري/ منسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن ابن علي العسكري/ قم ـ مؤسسة الإمام المهدي ـ الطبعة الأولى.

أنه لا تبنٍّ في الإسلام، ولكن يمكن أن يربى طفل عند غير والديه لظروف معينه بما يشبه التبني دون أن يلحقوه بنسبهم، بل يجب أن يحتفظ باسم والده الحقيقي. وإذا كان الطفل غير معروف الأب، كأن يولد من علاقة محرمة، فليس له ذنب في ذلك، ولا يعير به، بل هو أخ لنا ويعامل بموجب ذلك. وهذا نص الآيتين: ومَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فإن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (الأحزاب: ٤-٥).

وفي الآية السادسة خطاب للمسلمين يشرع لهم قانوناً للكيفية التي يجب عليهم أن ينظروا بها إلى الرسول وإلى زوجاته، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وزوجاته بمنزلة أمهات لهم (نساءً ورجالا)، وقانون ثالث يؤكد أن المؤمنين يجب أن يتوادّوا ويتولى بعضهم شؤون بعض. وهذا نص الآية: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (الأحزاب: ٦).

وتعود الآيتان التاليتان إلى مخاطبة الرسول بأن يتذكر أن الله قد أخذ من الرسل، ومنهم محمد، ميثاقاً بتبليغ الدعوة للناس، لكي تقوم الحجة على الناس ويحاسبهم الله بناء على طاعتهم أو عصيانهم لدعوة الرسل، وهذا متمم لما ورد في الآيات (١-٣)، يقول تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا. لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (الأحزاب: ٧-٨).

ثم تتحدث الآيات من (٩) إلى الآية رقم (٢٧) عن موقعة الأحزاب، وكأن السورة قد انتقلت إلى حديث يختلف عما بدأته وهو مخاطبة الرسول ونسائه والمؤمنين ببعض القوانين والضوابط، ولكن الآيات التالية تعود إلى تخاطب زوجات الرسول (أمهات المؤمنين) وتذكرهن بما عليهن من واجبات تختلف عن بقية نساء المسلمين لأنهن زوجات رسول الله.

تقول الآيتان (٢٨-٢٩) أن من ترد من زوجات الرسول متع الحياة وملذاتها ولا تستطيع تحمل الحياة الصعبة مع الرسول فإن على الرسول أن يطلقهن ليفسح لهن المجال للحصول على المتع الدنيوية التي يرغبن بها، ومن فضلت الصبر مع الرسول والبقاء معه على الرغم من شغف العيش فسيعوضها الله خيرا يوم القيامة وهذا وعد من الله تعالى. تقول الآيتان: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فإن اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا.

وكل امرأة فضلت البقاء زوجة للرسول فيجب عليها أن تتقيد بقواعد وسلوكيات عادة لا تطلب من النساء غيرهن، ليس لأنهن خلقن أفضل من غيرهن ولكن بما صرنه من زوجات للرسول. ومن ذلك قوله تعالى: يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (الأحزاب: ٣٠)

لأنه ليس لائقاً للرجل العادي أن يشاع بأن زوجاته يلاحقهن رجال في قلوبهم مرض، فما بالك بنساء النبي. ولذلك أمرن ألا يتبسطن في الحديث مع الرجال الذين يتحينون الفرص للإيقاع بالنساء حتى لو كن أمهات المؤمنين. لأنهن لو فعلن ذلك فسيشاع عنهن أنهن لا يمانعن ما عرض عليهن، حتى ولو لم يكن كذلك، وفي هذا إيذاء لسمعة رسول الله الذي كلف بالدعوة لدينه، ومدخل لأعدائه للنيل من شخصه، مما قد يؤثر على سير دعوته.

من أجل ذلك فإن اقتراف زوجة الرسول للفاحشة يعاقب الله عليه بضعف عقوبة المرأة العادية، ومن يقنت ويعرض عن متع الدنيا فسيضاعف لها الأجر يوم القيامة: يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا. وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (الأحزاب: ٣٠-٣١).

ولكي يقطعن دابر كل وسيلة على المتحرشين بالنساء في المدينة فقد أمرن بالبقاء في بيوتهن ما أمكن، وإن خرجن فليلزمن أقصى درجات الحشمة لصد من يتعرض لهن بسوء: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ

الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (الأحزاب: ٣٣).

والسبب في الطلب من زوجات الرسول الالتزام بأقصى صور الحشمة، لأنهن زوجات للرسول وبالتالي فالتعرض لهن يجلب الرجس لبيت الرسول وسمعته، فوجب عليهن المحافظة على سمعة بيت الرسول لكي يذهب عن ذلك البيت الرجس، والمتمثل في لوك الألسن لسيرة زوجاته صلوات الله وسلامه عليه.

ولكي لا يتململن من كثرة البقاء في المنزل أمرن أن يكثرن من تلاوة القرآن: وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (الأحزاب: ٣٤).

ولن نسترسل في تتبع بقية آيات سورة الأحزاب التي تستمر في تشريع آداب وقوانين سلوكية حتى نهاية السورة، لأن الآية رقم (٣٣) التي يستدل بها الشيعة على أنها تعني علي بن أبي طالب وولديه وأمهما فاطمة، جاءت ضمن الآيات التي تطلب من نساء الرسول اللاتي فضلن البقاء معه، التقيد بضوابط وسلوكيات معينة. ولم تأت الآية (٣٣) لوحدها أو ضمن آيات تتحدث عن صهر رسول الله أو بناته. أو أن لعلي وابنيه قدسية خاصة، أو أن لهم شأناً في دين الله، أو أن الدين لا يتم إلا بتقديسهم.

ويكون معنى (أهل البيت) في هذا السياق للآيات بالذات، هم من يمثل سمعة رسول الله وبيته وهم زوجاته، وإلا فإن المعنى العام لأهل بيت الرجل يتمثل في زوجاته ومن يعول، وأولاده الذكور والإناث اللاتي يعشن معه. بينما ستكون بنات الرجل من ضمن أهل بيت أزواجهن بعد الزواج وليس من ضمن أهل بيت والدهن.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه: ١٣٢).

فهذه الآية كانت من أول الآيات التي نزلت على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في مكة، وعندما كان علي بن أبي طالب يعيش في كنف والده، وكان للرسول أهل، وهم الأهل نفسهم الذين تتحدث عنهم سورة الأحزاب.

والسبب الذي من أجله طلب من نساء الرسول عدم التبرج والمحافظة القصوى

على سمعتهن تبينه آيات أخرى في سورة الأحزاب نفسها، وهي قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا. وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (الأحزاب: ٥٧-٥٨).

فقد كان هناك رجال في المدينة يطاردون النساء طلباً للفاحشة، وكان ممن يلاحقون زوجات الرسول ونساء المسلمين، وكان هذا يؤذي (سمعة) الرسول، ولذلك جاءت الآيات التالية بضرورة تقيد نساء الرسول ونساء كافة المسلمين في المدينة بالالتزام بالحشمة في الملبس بدرجة قصوى تفادياً لعبث وملاحقة أولئك العابثين: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (الأحزاب: ٥٩).

وبالتالي فليس في هذه الآية دليل على ضرورة حجاب الوجه الذي يقول به بعض فقهاء المسلمين، لأنهم فهموا الآية وكأنها نزلت لوحدها ومنفصلة عما حولها وما قبلها وما بعدها من آيات، مثلما فهم فقهاء الشيعة أن الآية (٣٣) نزلت لوحدها دون أن يكون لها علاقة بالآيات الأخرى في السورة، ولتقول للناس إن أهل البيت هم علي والحسن والحسين وفاطمة.

وتأتي الآيات الثلاث التالية لتشرع عقوبة لمن يستمر في العبث من أولئك العابثين، يقول تعالى: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (الأحزاب: ٦٠-٦٢).

ويبدو أنهم قد أقلعوا عن تصرفاتهم الماجنة، خوفاً من أن يطبق بحقهم العقوبة المنصوص عليها في الآيات، لأن التاريخ لم يسجل لنا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد نفى أحداً من المدينة أو قتله بسبب تماديه في ملاحقة النساء طلباً للفاحشة.

ومن الاستشهادات الأخرى التي يستدل بها الشيعة على أن للرسول «آل» الآية: فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

وهي الآية (٦١) من سورة آل عمران، ويستدل بها بعض الناس على أنها تعني من يسمون (آل البيت) بموجب أخبار وآثار وأحاديث تقول إن الرسول جاء ليباهل نصارى نجران ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي بن أبي طالب، وبالتالي فهؤلاء هم أهل بيت الرسول.

ونحن سنناقش هذا المنحى الذي ذهب إليه الشيعة مع إيماننا التام أن الآية لم تنزل في وفد لمسيحيي نجران وذلك لدحض الإستدلال لأن فيه مغالطة لنص الآية الواضح، والذي يقول «ندع أبناءنا، ونساءنا».

فإن كان الرسول قد أحضر علي وعائلته، دون نسائه وأولاده هو، فيكون لم يستجب لأمر الله الظاهر في الآية، والذي ينص على دعوة نساء وأبناء المسلمين، وهو صلى الله عليه وسلم واحد منهم. وستكون فاطمة من ضمنهم لأنها ابنته وليس لأنها زوجة لعلي أو أم للحسن أو الحسين. وسيكون الحسن والحسين من ضمنهم كأبناء لعلي بن أبي طالب وليس كآل أو أهل للرسول.

والآية دعت وفد نجران المزعوم للمباهلة، والوفد مكون من أساقفة ورجال دين ليسوا من عائلة واحدة، وإن كانوا كلهم نصارى، ويكون معنى الآية أنها تطلب من النصارى أن يدعوا نساءهم وأبناءهم وأن تطلب من المسلمين أن يدعوا نساءهم وأبناءهم، لأن الدين دين الله، وليس ديناً خاصاً بعائلة محمد بن عبدالله، بل هو للمسلمين عامة ومنهم محمد رسول الله. ولو افترضنا جدلاً وجود وفد نصارى نجران، فإن كتب الأخبار التي ذكرتهم تبيّن أنهملم يحضروا نساءهم وأبناءهم معهم للمدينة، وليس مهماً أنهم لم يفعلوا فالمباهلة يمكن أن تتم بين النصارى وبين الله، وبين المسلمين وبين الله، لأنه حتى ولو تباهل الفريقان أمام بعض فلن يكون بالإمكان إثبات صدق أحدهما وكذب الآخر، إلا يوم القيامة.

ويبقى أن نقول إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن له (آل) وإن كان له أهل، لأن هناك فرقاً بين معنى آل الرجل وأهل الرجل. فأهل الرجل هم عائلته، أي زوجته (زوجاته) وأبناؤه الذكور والإناث، ويضاف إليهم من يعيشون معه في بيته ويعولهم من أقرباء مثل الأبوين أو الأخوات أو الإخوان، أو غير الأقرباء مثل الربيبة والمتبنى ونحوهم.

أما آل الرجل فهم الذين يحملون اسمه في النسب، سواءً كان الرجل يعولهم أو

لا، عاشوا معه في المنزل أم لا. وهذا يعني أنهم أبناء الرجل الذكور دون الزوجة والبنات أو أي أقرباء وأناس آخرين يعيشون في بيت الرجل أو يعولهم.

ويكون معنى آل مرادفاً لمعنى بني، ويكون آل فلان، هم بنو فلان، وآل محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام هم بنوه الذكور: القاسم، والطاهر، والطيب، وإبراهيم.

ويكون للرسول عليه الصلاة والسلام أهل: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (الأحزاب: ٣٣).

ولكن لم يتبق له آل أو بنون، وقد انقطع نسبه عليه الصلاة والسلام، لأن جميع أبنائه الذكور ماتوا وهم صغار. وقد يكون لموت كل أبناء الرسول الذكور وهم صغار حكمة، حتى لا يقدسهم الناس لأنهم من نسله صلى الله عليه وسلم.

وحتى لو بقي للرسول أبناء ذكور وتناسلوا ووجد من يحمل اسمه وينتسب إليه صلى الله عليه وسلم، فليس من الدين أن ينظر إليه بشيء من التميز، أو التقدير الذي يصل إلى درجة من التقديس مهما بلغت من الصغر، بل يجب أن ينظر إليهم نظرة عادية كغيرهم من الناس، وقد يكون منهم الصالح والطالح كغيرهم.

إذ ليس بالضرورة أن تكون الذرية التي توالدت من صلب الرسول صالحة: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد: ٢٦).

والانتساب إلى الرسول وحده لا ينجِّي من النار، لأن: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور: ٢١).

وحتى ابن الرسول ليس بالضرورة أن يكون مؤمناً برسالة والده: قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (هود: ٤٦).

وقد يقترف أبناء النبي أعمالاً لا تصدر من مؤمن: إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. اقْتُلُواْ يُوسُفَ أو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (يوسف: ٨-٩).

ويكون القرآن بريء من تقديس أي بشر بدءاً من شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه الذي لم ينظر إليه القرآن إلا أنه بشر حمّله الله تعالى مسؤولية تبليغ الرسالة، يقول تعالى: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعاً. أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً. أو تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أو تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً (بني إسرائيل: ٩٠-٩٤).

ولم يرد في القرآن الصلاة على أهل النبي ولا على آل النبي، ولكن الصلاة كانت على النبي وحده: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (الأحزاب: ٥٦).

ولذلك ليس من الدين أن يقال صلى الله عليه (وآله) وسلم، التي يحرص عليها الشيعة ويرددها بعض أهل المذاهب الأخرى دون انتباه لما تعني.

وقد أدخل هذا التقديس والغلو في الصلاة، التي لو تمعنا في الأقوال التي يرددها المصلي في الصلاة منذ دخولها وحتى ختامها، سنجدها أقوالاً وأفعالاً مقصورة على تمجيد ذات الله وحده.

فالدخول في الصلاة يتم عبر التلفظ بعبارة «الله أكبر» والتي تذكر الإنسان بأن الله أكبر من القدرة والعظمة وليس الحجم، من أي شيء يمكن للإنسان تصوره. يلي ذلك تلاوة سورة الفاتحة، والتي تنقسم لثلاثة مقاطع، هي:

المقطع الأول هو قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. ملك يوم الدين. حيث يمجد ذات الله رب العالمين، أي الذي أوجد كل شيء، والذي من صفاته الرحمن الرحيم، والذي هو ملك يوم الدين يوم لا ملك غيره سبحانه.

وهنا يجدر أن نشير إلى أن بعض المسلمين يقرأ «مالك يوم الدين» وليس «ملك يوم الدين» والله سبحانه مالك كل شيء في كل وقت، ولكن بعض الخلق في الدنيا تخدعه نفسه وغروره فيظن نفسه ملكاً، كما ظن فرعون: وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (الزخرف: ٥١).

أما يوم القيامة فتنكشف الحقيقة، ولا يبقى إلا الملك القدوس، هو سبحانه ملك ذلك اليوم: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعام: ٧٣).

وإليه وحده الحكم والاحتكام في ذلك اليوم العظيم: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (الحج: ٥٦).

والمقطع الثاني من سورة الفاتحة هو «إياك نعبد وإياك نستعين» فالمصلي يقر لله بالعبودية ويطلب منه العون.

والمقطع الثالث هو «إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين» حيث يطلب المصلي من الله سبحانه أن يهديه لطريق الحق القويم، طريق الذين أنعم الله عليهم بالهداية، وأن يبعده عن الطرق المعوجة والضالة، التي من سلكها فقد حق عليه غضب الله وضل سواء السبيل.

وفي الركوع ينحني المصلي لإبداء الخضوع لله ويسبح عظمته سبحانه، ويتفكر بتلك العظمة التي لا تضاهى. وعند الوقوف من الركوع يحمد المصلي ربه لأن كل من حمد الله فإن حمده يصل إليه سبحانه.

وفي السجود يضع المصلي أنفه ورمز أنفته على الأرض مسبحاً علو ربه، من التعالي والعظمة، وليس من العلو والارتفاع.

ويتبع كل ركعتين في الصلاة جلوس، وذلك لإنهاء أقوال وأفعال تلك الركعتين، ومن ثم الشروع بركعة أو ركعتين أخريين، أو يكون الجلوس لإنهاء الركعتين والصلاة كلها إن كانت الفجر.

وذلك الجلوس الذي تنهى فيه أعمال الركعتين والصلاة يسمى جلوس التشهد أو جلوس التحيات، وهذا التعريف يدل على مضمون ما يقال فيه. فالمصلي يتلفظ بأقوال مناسبة لإنهاء الصلاة، تتمثل في التالي:

يبدأ المصلي بتحية الله جل وعلا، قائلاً: «التحيات والصلوات الطيبات لله»، ثم تحية الرسول عليه الصلاة والسلام، قائلاً: «السلام على النبي ورحمة الله وبركاته» ثم تحية المصلي وبقية المسلمين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». بعد ذلك يأتي ختام المسك للصلاة، بأن يقر المصلي بالشهادة بأن لا

إله إلا الله سبحانه: أشهد ألا إله إلا الله، يلي ذلك الإقرار والشهادة بأن محمداً (بالاسم، ولا يقال رسول الله) ما هو إلا عبد لله مكلف بالرسالة: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، حتى يتذكر الناس على الدوام أن لا ينسب إلى الرسول دور أكبر من كونه عبداً لله أولاً كلف بالرسالة وليس شريكاً له سبحانه في وحدانية أو ربوبية أو ألوهية، أو قريباً من ذلك. بعد ذلك لن يتبقى للمصلي سوى الالتفات يميناً وإلقاء السلام، إيذاناً بالخروج من الصلاة: السلام عليكم ورحمة الله، دون أن يكون هناك مجال لقول أكثر مما قيل.

وتكون الصلاة من أولها وحتى ختامها أقوالاً تتناسب مع الأوضاع التي تقال فيها، فلا يمكن أن يقال سبحان ربي الأعلى في الركوع، مثلاً، لأن سبحان ربي الأعلى تتناسب مع وضع السجود الذي يضع المصلي فيه أنفه، رمز أنفته، على الأرض ويقر بسمو الله وحقارته هو. وهكذا بقية الأقوال في الصلاة. ولكن بعض المسلمين لا يتمعنون بمعاني الأقوال في الصلاة ومتى تقال، ويضيفون أدعية في السجود والركوع والقيام وجلوس التشهد، وكلها إضافات زائدة على أقوال الصلاة المطلوبة، فليست الصلاة مجالاً لدعاء الله ولكنها طقوس لتمجيد ذات الله، أما الدعاء فمفتوح على الدوام خارج وقت الصلاة.

ومن هذه الإضافات ما يحمل تمجيداً وتقديساً لأشخاص، وهذا مناقض لحكمة الصلاة التي شرعت لتمجيد ذات الله وحده سبحانه. وهذه الأقوال أضافها الناس بعد أقوال التشهد وختام الصلاة، فجاءت لمن يتمعن فيها، وكأن المصلي بعد أن ختم الصلاة بالأقوال المطلوبة عاد وتلفظ بتلك العبارات كزيادة.

والعبارات المضافة هي: اللهم صل على محمد و(آل) محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد و(آل) محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وإذا تمعنا في تلك الأقوال الإضافية فسنجد أنها ترسيخ لفكرة أن لمحمد صلوات الله وسلامه عليه (آل)، وطبعاً المقصود بهم أئمة الشيعة الاثني عشر، وترسيخ فكرة أن أولئك الأئمة الاثني عشر لهم منزلة عند الله تماثل منزلة أبناء (آل) إبراهيم، الأنبياء منهم، إسحاق وابنه يعقوب وابنه يوسف، والذي من سلالته موسى وهارون عليهم الصلاة والسلام.

وإبراهيم عليه صلوات الله وسلامه كان له أهل: قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (هود: ٧٣).

وكان له آل: وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبراهيم وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَار (ص: ٤٥).

بارك الله البعض منهم: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (الصافات: ١١٣).

ليس فقط لأن إبراهيم نبي الله وهم أولاده، ولكن لأنهم أنفسهم كانوا أنبياء: . . .وَأَوْحَيْنَا إلى إبراهيم وَإسماعيل وَإْسْحَقَ وَيَعْقُوبَ. (النساء: ١٦٣).

ولم تشمل صلاة الله وبركاته كل آل إبراهيم، مع أنهم مسلمون، لأنهم لم يكونوا رسلاً ولا أنبياء: أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (البقرة: ١٣٣).

وقد جاء ذكر آل إبراهيم في القرآن الكريم مرتين، واحدة في الآية (٣٣) من سورة آل عمران، ونصها: إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ.

والثانية في سورة النساء: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً (النساء: ٥٤).

أما محمد فلم يرد في القرآن ذكر لـ(آل) محمد، أو (آل) النبي، أو (آل) الرسول أو (آل) البيت على الإطلاق، وكل ما ورد في القرآن هو أهل البيت، مرة واحدة في الآية (٣٣) من سورة الأحزاب التي سبق التحدث عنها بالتفصيل وهي لا تمت بصلة لما يعرف عند الشيعة بـ(آل البيت) ولا إلى من يتسمون بالأشراف.

ولم يسأل أحد نفسه هل كان الرسول يقول هذه العبارات المضافة في صلاته والتي تحمل التبركات والصلوات على محمد بن الحسن العسكري الذي سيولد بعد رسول الله بقرنين ونصف ويقول الناس بأنه احتفى وعمره خمس سنوات، وتحمل التبركات لوالد ذلك الطفل ويلقب بالعسكري، ووالد العسكري ويلقب بالهادي، ووالد الهادي ويلقب بالجواد، ووالد الجواد ويلقب بالرضا، ووالد الرضا، ويلقب بالكاظم، ووالد الكاظم ويلقب بالصادق، ووالد الصادق ويلقب

بالباقر، ووالد الباقر ويلقب بزين العابدين، ووالد زين العابدين وهو الحسين، ثم أحد إخوة الحسين وهو الحسن، ثم والدهما، وهو علي بن أبي طالب.

وكيف أقنع الرسول المسلمين في عصره بأن يصلوا ويباركوا في صلاتهم على هؤلاء الناس الذين لا يعلم أحد بأنهم سيولدون وسيوجدون على وجه الأرض وسيسميهم الشيعة أئمة ويقدسونهم؟

وهل كان علي بن أبي طالب يصلي على نفسه وعلى ولديه الحسن والحسين؟ فإن قال متحاذق نعم، مثلما كان الرسول يصلي على نفسه، فهو لم يفطن إلى أن الرسول وإن صلى على نفسه فهو يوافق القرآن الذي أفرد الصلاة عليه وحده: إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (الأحزاب: ٥٦)

وإن اعتقد ذلك المتحاذق أن علي بن أبي طالب كان يصلي في صلاته على الباقر والعسكري والطفل المفقود، فيكون علي يعلم الغيب وهذا مستحيل لأن القرآن يقول بأنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده: قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(النمل: ٦٥).

وإن لم يكن علي يعلم الغيب، فيكون لم يعلم بأمر الأئمة، مثلما أن رسول الله لم يعلم بهم ولم يعلم بهم الحسن والحسين ولا الناس في عصر الرسول وعصور طويلة بعده، لأن هذه البدعة لم تظهر إلا بعد اكتمال عقد أئمة الشيعة الاثني عشر وتبلورت هذه العقيدة في القرن الرابع وما بعده.

ويكون تقديس الأئمة شركاً مع الله، ويكون تأكيد هذا التقديس في صلاة الله بدعة لا يقبلها الله، وتكون الصلاة على آل محمد حتى ولو كانت خارج الصلاة المفروضة، فهي مرفوضة.

ولكن من يعمل عقله لينقذ نفسه: يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (البقرة: ٢٦٩).

وبطبيعة الحال فليس هناك وجه مقارنة وتأسٍّ بين آل إبراهيم وبين (آل) محمد عليهما الصلاة والتسليم، لأن محمداً لم يكن له أبناء ذكور أصبحوا أنبياء مثل إبراهيم، ولكن جاء إضفاء لقب (آل) محمد على أناس ليسوا له بآل ولا أهل، لإسباغ الصلاة والتبريك عليهم المماثل لما أسبغه الله على آل إبراهيم الأنبياء،

وذلك لترسيخ فكرة الإمامة التي تم تلبيسها لعلي بن أبي طالب بعد موته وما تبعها من قدسية لا يقرها الدين. كما ألبسوا فاطمة بنت محمد قدسية أيضاً، وأطلقوا عليها الزهراء، وهو لقب لم تسمع هي أو غيرها به أثناء حياتها، ولكنه أصبح شائعاً بين المسلمين عامة بعد ذلك. كما أصبحت سيدة نساء الجنة وابناها الحسن والحسين سيدي شباب الجنة، مع أنه لن يكون في الجنة شباب وعجائز ولا سادة وعبيد، كما أسبغوا هذا التقديس على من عرف بالأئمة الاثني عشر.

والإمامة يقصد بها وراثة علم النبوة التي تؤهل من يتلقب بها أن يكون معصوماً ومقدساً وله مكانة دينية مميزة تفوق مكانة الأنبياء أحياناً، وأن دين الله لا يقوم من دونهم. وقد أورث علي الإمامة إلى ابنه الأكبر الحسن الذي ورثها لأخيه الحسين الذي لم يورثها لإخوته كما فعل أخوه من قبل، بل ورثها لابنه علي المسمى زين العابدين الذي كانت أمه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس الذي قضى المسلمون على ملكه وسبوا حريمه ومنهم ابنته أم علي زين العابدين التي جيء بها للمدينة فحصل عليها الحسين وتسرى بها (البداية والنهاية ج٩ ص٣).

وقد ورث الإمامة بعد زين العابدين ومنه تم توارث الإمامة إلى أن وصلت إلى الإمام الثاني عشر واسمه محمد بن الحسن العسكري، والذي ولد عام ٢٥٥ للهجرة ولما كان عمره خمس سنوات دخل كهفاً ولم يخرج منه إلى اليوم، والشيعة يؤمنون أنه سيعود في يوم من الأيام على شكل المهدي المنتظر الذي سيصحح الإسلام ويحكم بالشريعة، حسب زعمهم، مع أنه مات (اختفى) طفلاً وقبل أن يصل إلى سن تؤهله للتعرف على أحكام الإسلام، فكيف سيصحح ديناً لا يعرفه ولم يكلف بأداء فروضه وتشريعاته أثناء حياته، لأنه لم يبلغ سن التكليف؟

إلا إذا كان هناك وحي سينزل عليه من السماء، عندها سيكون هو خاتم الأنبياء وليس محمداً.

ثم إن من مات فلن يعود إلى الحياة إلا يوم القيامة، ولن يكون محمد بن الحسن (العسكري) استثناءً على قانون الله الطبيعي الذي وضعه في هذا الكون، فقط لأن الشيعة يتمنون ذلك. ومن صدق بما لا يليق فلا عقل له.

والله سبحانه وتعالى يقول في هذا المعنى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج: ٤٦)

وهكذا فليس في الدين نظرة تقديس أو تمييز لا إلى أئمة الشيعة ولا إلى من ينتسب إلى الهاشميين أو أي من نسل أقرباء الرسول وأبناء عمه، ووصفهم بالأشراف أو أهل بيت الرسول فيه مبالغة وغلو وتقديس يتنافى مع الإسلام.

المثال الثالث: عذاب القبر

يعتقد الفقهاء المسلمون، سنة وشيعة، بأن هناك عذاباً وعقاباً وجنة ونعيماً في الفترة التي تلي الموت وتسبق يوم القيامة، وقد اعتمدوا على حديث نسب إلى الرسول في عدة روايات، ومن ذلك ما أورده الترمذي برقم (١٠٦٥)، وهذا نصه: حدثنا أبو سَلَمَةَ يَحْيى بنُ خَلَفٍ البَصْرِيُّ حدثنا بِشْرُ بنُ الْمُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرحمن بنِ إسحاق، عَنْ سَعِيدِ بنِ أبي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رسُولُ الله: إذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أوْ قالَ أَحَدُكُمْ) أتَاهُ مَلَكانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ. يُقَالُ لأحَدِهِما الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكيرُ. فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هذَا. ثمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سبْعُونَ ذرَاعاً في سَبْعِينَ. ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ أَرْجِعُ إلى أَهْلِي فأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوس الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ.

وَإِنْ كانَ مُنَافِقاً قالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ. لاَ أدْرِي. فيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ تَقُولُ ذلِكَ. فيُقَالُ لِلأرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ. فَتَخْتَلِفُ فيها أَضْلاَعُهُ. فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ. قال أبو عيسى (أي الترمذي): حدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ حدِيثٌ حسنٌ غريبٌ.

وتنص هذه الأحاديث على أن جسد الميت هو الذي يطاله العذاب في القبر، وأنه يبقى في العذاب حتى قيام الساعة، وبذلك قال معظم الفقهاء. وقد أكد ابن تيمية ذلك عندما سئل عن عذاب القبر هل هو على النفس والبدن أو على النفس دون البدن، فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن والبدن

متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعتين، كما يكون للروح منفردة عن البدن (مجموعة فتاوى ابن تيمية: ج٤).

ويستدلون على أن الروح تعود إلى الجسد بعد الموت فيما حدث بعد معركة بدر، عندما خاطب الرسول جثث قتلى قريش الذين ردموا في قليب ببدر، وقد ذكرت الحادثة كتب إخبارية مثل تاريخ الطبري والبداية والنهاية، وعدد من كتب الحديث، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام عليهم فقال: يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً.

كما يستدلون بآيتين من القرآن على أنهما تفيدان ثبوت عذاب القبر وهما الآية (٤٦) من سورة غافر، وهذا نصها: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

وجزء من الآية (١٠٠) من سورة المؤمنون، ونصها: كلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

فهل فعلاً هذه أدلة كافية للإيمان بعذاب القبر ونعيمه، أم هذه الأدلة عليها من المآخذ ما يكفي لأن تضعفها بحيث لا تقوى على الدلالة، إضافة إلى وجود أدلة قطعية ثابتة تنفي أن يكون هناك نعيم أو عذاب أو أي نوع من الحياة في القبر، وأن من مات فإن قيامته ستقوم وكأنها في اللحظة التي مات فيها؟

ولو بدأنا نقاشنا بحديث أبي هريرة، فيمكن الحكم عليه على أنه لم يتأكد ثبوته عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كونه خبراً لفظياً، كما أن ما تلفظ به ابن تيمية لا يعدو كونه رأياً شخصياً لا يستند إلى كتاب ولا إلى وحي من السماء.

أما حادثة وقوف رسول الله على البئر التي دفن فيها صناديد قريش وتوجيهه حديثاً إليهم فهناك نقطة هامة عن الحديث، هي أن من رواه هم: أنس وابن عمر وعائشة، وأنس وابن عمر لم يحضرا بدراً وليسا من البدريين لصغر سنهما.

وتكون أم المؤمنين عائشة هي المصدر الرئيسي للحديث، ولما شاع بين الناس بعد زمن الرسول حدث به أنس وابن عمر الذي رفعه مباشرة للرسول، وكأنه هو من سمعه عن الرسول، ولذلك جاء تصحيح أم المؤمنين لصيغة الحديث التي بدأ الناس يتناقلونها عليه، ومن ذلك ما ورد في البخاري برقم (٣٨٩٣)، وهذا نصه:

حدَّثنا عثمانُ حدَّثنا عَبدةُ عن هشام عن أبيهِ عن ابن عمرَ رضيَ اللَّهُ عنهما قال: وَقف النبيُّ صلى الله عليه وسلم على قَليبِ بدر فقال: هل وَجدْتم ما وَعدَ ربُّكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذُكرَ لعائشةَ فقالت: إنما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنهم الآن لَيعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق. ثم قرأتْ ﴿إنكَ لا تُسمعُ الموتى﴾ (النمل: ٨٠) حتى قرأتِ الآية.

ويبدو أن القول بقيام الميت في القبر ورجوع الروح إليه مردها في الأصل قتادة، وليس رسول الله ولا كتابه الكريم، وهذا ما أظهرته إحدى روايات حديث أهل القليب الذي أورده أحمد في مسنده برقم (١٢٢١٦)، ونصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي، حدثنا يونس، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أنس قال: وحدث أنس بن مالك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر ببضعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فألقوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، قال: وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، قال: فلما ظهر على بدر أقام ثلاث ليال، حتى إذا كان الثالث أمر براحلته فشدت برحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه قالوا: فما نراه ينطلق إلا ليقضي حاجته، قال: حتى قام على شفة الطوى، قال: فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم، يا فلان أسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قال عمر: يا نبي الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها، قال: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال قتادة: أحياهم الله عز وجل له حتى سمعوا قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقيمة.

فيكون قتادة هو أول من ظن أنهم أحياء، وقال بذلك وتناقله الناس بعد ذلك معتقدين بنسبته إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وهناك حديث عن عذاب القبر مصدره عجوز يهودية وقد ورد في عدد من الروايات، وهذا أصل الخبر: حدّثنا عبدُاللهِ بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن يحيى بنِ سعيدٍ عن عمرَةَ بنتِ عبدِ الرحمنِ عن عائشةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: أَن يهودِيةً جاءت تسألُها فقالت لها: أَعاذَكِ اللهُ من عذابِ القبرِ. فسأَلَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ أَيُعذَّبُ الناسُ في قُبورِهم؟ فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عائذاً باللهِ من ذلك (البخاري: ١٠٣٥).

ومن الواضح جداً أن الرسول نفى وبشدة أن يكون هناك عذاب قبر، لأن جوابه

جاء على شكل: أعوذ بالله! استنكاراً لمزاعم العجوز اليهودية. وانتهى الخبر عند هذا الحد.

ولو كان الرسول يعلم أن هناك عذاباً في القبر قبل أن تحدثه عائشة بما قالته لها اليهودية، لحدث به، أو على أقل تقدير لأجاب عائشة بألفاظ تدل على الموافقة وليس بالاستعاذة بالله والتي تعني الاستنكار.

ومما يؤكد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يؤمن بعذاب القبر ما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري للخبر نفسه ولكن بروايات مختلفة، منها ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد الأموي عن عائشة: أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر، قالت: فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب قال: كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار وهو ينادي بأعلى صوته: أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق (فتح الباري: باب مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْر).

ويبدو أن الخبر كان يقف عند قول الرسول: كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة. وأن بقية الخبر الذي يقول بأن الرسول بعد مدة خرج على الناس ليعلن لهم أن يستعيذوا من عذاب القبر هو إضافة عرفت طريقها إلى الخبر في عصور لاحقة ولم يقلها الرسول. ويؤيد ذلك ما نقله ابن حجر أيضاً في الباب السابق نفسه بقوله: ووقع عند مسلم من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت: دخلت علي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور، قال: فارتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إنما يفتن يهود، قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل شعرت أنه أوحي إلى أنكم تفتنون في القبور، قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من عذاب القبر.

فالرسول يستنكر أن يكون هناك عذاب في القبر، ولو لم يكن يعلم أن هناك عذاباً في القبر عندما أبلغته عائشة بادعاء اليهودية، لما سارع ونفى ما ليس له به علم، ولقال لا أدري أو سكت من دون تعليق على عادته صلى الله عليه وسلم إذا

سئل عن شيء لم ينزل به وحي وانتظر حتى ينزل الوحي بالجواب فيقرأه على الناس.

وهذا الخبر ينسب إلى الرسول قوله: هل شعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور. وهذا افتراء على الرسول وتقول عليه بما لم يقل، لأنه لو كان الرسول قد أوحي إليه فسيتلوه على شكل قرآن، والوحي حق ثابت لا يحتمل اللبس. وإذا كان الخبر يزعم أن الرسول قال بأنه قد نزل عليه وحي بأن هناك عذاب قبر، فلماذا لم يقرأه على عائشة، ويثبته في المصحف؟

ولكن هذه صنائع بشرية، لم تكتف بذلك فتم تحوير الحديث السابق مع الأيام بحيث أصبح يروى بهذه الصورة: حدَّثنا عَبْدانُ أخبرَني أبي عن شعبة سمعتُ الأشْعثَ عن أبيه عن مَسْروقٍ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أن يهوديةً دخلتْ عليها فذَكرَتْ عذابَ القبرِ فقالت لها؛ أعاذَكِ اللهُ مِن عذابِ القبرِ. فسأَلَتْ عائشةُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن عذابِ القبرِ فقال: نَعَمْ، عذابُ القبرِ. قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: فما رأيت رسولَ اللهِ بعدُ صلَّى صلاةً إلاّ تَعَوَّذَ مِن عَذابِ القبر. زادَ غُندَرٌ: «عذابُ القبرِ حقٌّ» (البخاري: ١٣٧٥).

فتم تحوير استنكار الرسول لكلام اليهودية إلى قوله: نعم، عذاب القبر. وهذه العبارة المبتورة لا تحمل أي تأييد أو نفي لعذاب القبر بذاتها، ولذلك أضيف للحديث أن عائشة أكدت أن الرسول لم يعد يصلي أي صلاة ما لم يتعوذ من عذاب القبر. وهنا اتهام للرسول بأنه يأخذ بعض الدين مما يتداوله اليهود دون تثبت، مع أنه نهي عن أخذ أقوال اليهود ونهي أن يقول على الله ما لم ينزل عليه به سلطان من عنده سبحانه.

ثم يزيد غندر أن عذاب القبر حق، وجملة غندر أصبحت ملازمة لعذاب القبر وكأن من قالها هو رسول الله وليس غندر الذي قال عنه أحمد بن حنبل: سمعت غُنْدراً يقول: لزمت شُعبة عشرين سنة لم أكتب من أحد غيره شيئاً وكنتُ إذا كتبتُ عنه عرضتُهُ عليه. قال أحمد: أحسبه من بلادته كان يفعل هذا. وغندر ذكره ابن حِبَّان في كتاب «الثِّقات»، وقال: كان من خيار عباد الله على غَفْلة فيه.

ويؤيد ذلك يحيى بن مَعِين بقوله: اشترى غُنْدَر يوماً سَمَكاً وقال لأهله: أصلحوه، ونامَ، فأكلَ عيالُه السَّمَك ولطخوا يده فلما انتبه قال: هاتوا السَّمَك.

قالوا: قد أكلت. قال: لا. قالوا: فَشُمَّ يدكَ. ففعل. فقال: صَدَقتُم ولكني ما شَبِعتُ. مات سنة ١٣٩ أو ١٩٤هـ[١].

ويبدو أن نسبة حديث إثبات عذاب القبر إلى أم المؤمنين عائشة لم يأت مصادفة، ولكنه مقصود لكي يحل في أذهان الناس محل ما ثبت عنها أنها نفت عذاب القبر في حادثة قليب بدر في موقف حازم وثابت. ولأن الأحاديث يجوز عليها الصدق والكذب والفهم الخاطئ والزيادة والنقص، كأي خبر ظني، فلا بد من الرجوع إلى كلام الله الذي: لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت: ٤٢) لنقف على ما قاله الله سبحانه وتعالى عن عذاب القبر، فإن كان هناك عذاب فيجب أن نؤمن به وإن لم يكن فيجب أن ننزه دين الله منه.

عذاب القبر في القرآن

ليس هناك في القرآن آية واحدة ذكر فيها عذاب في القبر، وليس هناك آية واحدة ذكر فيها الاستعاذة من عذاب القبر، ولكن الاستعاذة في القرآن جاءت من عذاب يوم القيامة: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران: ١٦).

والدعاء في القرآن دائماً كان على لسان المؤمنين أن يجنبهم الله عذاب النار: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران: ١٩١).

ولكي نتأكد من وجود عذاب في القبر لا بد من التعرف على ما ذكره القرآن حول الفترة ما بين وفاة الإنسان وحتى قيام الساعة والتي تبدأ بالموت: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (آل عمران: ١٨٥).

وعملية الموت تتم عبر آلية مجهولة لدينا: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أنفسهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (النحل: ٢٨).

---

(١) ترجمة غندر كما أوردها أبو الحجاج المزي في تهذيب الكمال.

وتتم بالآلية نفسها للكافر والمسلم على حد سواء: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (النحل: ٣٢)

فالملائكة هنا لا تعني بالضرورة المخلوقات النورانية الفوق بشرية، ولكنها تعني الآلية التي يتم بواسطتها خروج الروح وانفصالها عن الجسد، ولا نعلم أين تذهب الروح بعد ذلك، ولا الآلية التي تحفظ فيها إلى يوم القيامة.

أما أقرب صورة تقريبية للموت فهي حالة النوم: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (الأنعام: ٦٠).

لأن النوم غياب عن الوجود وعدم إحساس بالوقت، والموت غياب عن الوجود وعدم إحساس بالوقت، والاستيقاظ من النوم عود للحياة كما البعث بعد الموت: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأنفس حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأخرى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الزمر: ٤٢).

ولحظة حدوث الوفاة تتوقف الذاكرة عن التسجيل إلى أن تبعث الروح من جديد يوم القيامة: حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠) والآية تتحدث عن لسان حال الكافر، وليس عما يقوله فعلاً.

ومع أنه سيكون هناك فترة زمنية بين الموت وبين قيام الساعة (برزخ) إلا أن الميت لن يشعر بها مهما طالت، وستكون القيامة بالنسبة إليه وكأنها حدثت بمجرد موته: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (الأعراف: ١٨٧).

لأن إحساس الميت بالزمن يتوقف، ولو مرت عليه بلايين السنين قبل يوم القيامة، فسوف يعتقد بأنها قامت في اللحظة التي توفي فيها، لأن الإنسان عندما يموت تتوقف ذاكرته عن التسجيل، وحتى اللحظة التي مات فيها لن تسجل ولذلك لن يعلم بأنه مات إلا بعد أن يبعث، مثلما يحدث عند النوم، فاللحظة التي يغلبنا

النوم فيها لا يمكن تذكرها لأنها لم تسجل في الذاكرة وكل ما نتذكره هو ما قبل تلك اللحظة، واللحظة التي نستيقظ فيها، عدا الأحلام، ولو لم يستيقظ الإنسان من النوم أو لم يبعث من الموت فلن يعرف أبداً أنه نام أو مات. وعندما يبعث الإنسان في الآخرة سيتذكر آخر لحظة كان فيها في الدنيا وكأنها حدثت للتو وسيكون انتقاله إلى القيامة وكأنه حدث فجأة، بالنسبة إليه، لأنه سيشعر أنه انتقل من عالم إلى آخر خلال وقت يسير وبصورة مفاجئة. وحتى لو فنيت البشرية وبقيت الأرض بعدهم مليارات السنين، فإن قيام الساعة سيكون كأنه حدث في اللحظة التي توفي فيها كل واحد منهم، وكأنه لم يمت سوى برهة قصيرة جداً من الزمن: وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل: ٧٧).

وعند البعث سيشعر الناس بأن السنين التي عاشوها على الأرض لم تزد على ساعة من نهار، تماما كما نحس بما مضى من سني العمر الآن: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (هود: ٤٥).

وهكذا يتضح بأن كل من مات من البشر حتى هذه اللحظة لا يعلم بأنه ميت، ولن يعلم بأنه مات إلا يوم يبعث، وكأنه انتقل من حالته التي كان عليها في الدنيا في اللحظة التي مات فيها، إلى يوم القيامة بغتة كلمح البصر، وعندما يبعث لن يكون بإمكانه الرجوع: بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (الأنبياء: ٤٠)

وهذه الصورة الناصعة الواضحة تنفي نفياً قاطعاً أن يكون هناك أي نوع من أنواع استرجاع الذاكرة للإنسان في الفترة بين وفاته في الدنيا وبعثه في الآخرة، وبالتالي ينتفي أن يكون قد تعرض لأي نوع من أنواع العذاب أو الثواب أو المساءلة.

مناقشة أدلة الفقهاء من القرآن حول عذاب القبر

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (غافر: ٤٥-٤٦).

هاتان الآيتان يستدل بهما بعض الناس على أن هناك عذاب قبر، ويصرون على أن واو العطف تعني الترتيب الزمني، أي أنهم يعرضون على النار كل يوم بعد موتهم وقبل يوم القيامة، ويوم تقوم الساعة يدخلون النار، ولا يسمحون بأي معنى آخر، كما لا يستمعون لآيات أخرى قد تشوش عليهم ما اعتقدوه أو تشككهم به.

وإلا فإن الآية تقول يعرضون على النار، بالتعريف، وهو ما يعني نار جهنم التي أعدت للمكذبين يوم القيامة، والتي لا نعلم أين هي الآن.

ويعرضون على النار تعني في القرآن يعذبون فيها، ومن ذلك قوله تعالى: وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ. وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفسهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (الشورى: ٤٤-٤٥).

والقرآن يصور ما سيكون بصورة ما كان: قيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (يس: ٢٦-٢٧).

فالذي تتحدث عنه الآيات لم يدخل الجنة بعد ولكن الآية تتحدث بلسان حاله فيما سيكون عليه في الآخرة.

ثم إن فرعون ذكر في عدد من الآيات بأنه سيعذب يوم القيامة وليس قبلها: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (هود: ٩٧-٩٩).

ولن يعذب فرعون أو غيره قبل أن يحاسب، ولن يحاسب أحد قبل يوم الحساب، وهذا ما نسيه أو تناساه من قال بأن فرعون يعذب في قبره: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (هود: ١٠٣).

وليس هناك حساب في القبر، لأن الله سبحانه أخره ليوم القيامة: وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُود (هود: ١٠٤).

وبعد الحساب يتقرر مصير الإنسان: يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد (هود: ١٠٥).

والآيات التي تؤكد أن العذاب سيكون في يوم الحساب كثيرة: وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (البقرة: ٤٨).

ولن تعلم أي نفس مصيرها إن كان للجنة أو للنار إلا بعد الحساب: وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (البقرة: ٢٨١)

والحساب سيكون عادلاً ودقيقاً بحيث لا يشعر أحد بأنه ظلم: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (الأنبياء: ٤٧).

فيوم الحساب هو يوم القيامة، ولهذا يقول نبي الله إبراهيم: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (إبراهيم: ٤١).

ولم يأت ذكر لعذاب القبر في القرآن على الإطلاق: لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ (الرعد: ٣٤).

والعذاب المذكور في القرآن هو عذاب الآخرة، ولذلك يتمنى الكافر لو كان الموت أبدياً حتى لا ينهض ويحاسب، ولو كان في القبر عذاب فلن يكون الموت موتاً لأنه يعذب: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الأرض وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ (الحاقة: ١٣-٢٩).

وفي صورة قرآنية أخرى يظهر بوضوح أن القبر لم يكن قطعة من نار بالنسبة إلى الكافر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (يس: ٥١-٥٢).

ولو كان الكافر يعذب في قبره، وقامت القيامة فسيفرح بقيامها لأن فترة

الحساب ستكون بالنسبة إليه فترة راحة ما بين عذاب القبر وعذاب جهنم، ولن يولول بالويل والثبور على بعثه من الموت الذي وصفه بأنه كان مرقداً تمنى لو استمر. ولكن البعث جاء كما وعد الرحمن: إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (يس:٥٣) ليحاسب الناس، وعندها فقط يحكم عليهم بنار أو جنة حسب ما قدمت أيديهم: فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (يس: ٥٤).

ويكون القرآن بريء من أي ذكر لعذاب القبر، بل إن الآيات تؤكد أن العذاب لن يكون قبل الحساب، وأن الحساب لن يكون قبل يوم القيامة، وأن الحساب لن يكون إلا مرة واحدة، ونتيجة لذلك الحساب الرباني العادل فسيكون مصير الناس الجنة أو النار.

ويكون الفقهاء والمحدثون قد قالوا بعذاب القبر، بينما أنكره القرآن، وعلى كل شخص أن يتبع ما يرى أنه الحق من القولين.

المثال الرابع: الوحي

لو استعرضنا كتب الحديث والتفسير لوجدنا أنها تتحدث عن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان إذا نزل عليه الوحي تعتريه حالات نفسية وجسدية متفاوتة، وسنكتفي بذكر أربع منها ذكرها البخاري، وهي:

- أنه صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كان يمر بحالة إغماء ويصدر منه صوت كصوت الناقة (البكر أو البكرة) والذي عرفه ابن منظور في لسان العرب بأنه: الكَتِيتُ. ويقول عنه بأنه صَوْتُ البَكْرِ، وهو فوق الكَشِيشِ. وكَتَّ البَكْرُ يَكِتُّ كَتّاً وكَتِيتاً إِذا صاحَ صِياحاً لَيِّناً.

وقد أورد البخاري هذه الحالة في الحديث الذي رواه برقم (١٧٦٨) وهذا نصه: حدَّثنا أبو نُعيم حدَّثنا همَّامُ حدَّثَنا عطاءٌ قال: حدَّثَني صَفوانُ بنُ يَعلى بنِ أُميَّةَ يعني عن أبيه أنَّ رجُلاً أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو بالجِعْرانةِ، وعليه جُبَّةٌ وعليهِ أثرُ الخَلوقِ ـ أو قال صُفرةٌ ـ فقال: كيف تأمُرني أن أصنَعَ في عُمرتي؟ فأنزَلَ اللّهُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَسُتِرَ بثَوبٍ، وَوَدِدْتُ أني قد رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقد أُنزِلَ عليه الوَحيُ. فقال عمُر: تَعالَ، أيسُرُّكَ أن

تَنظُر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد أنزلَ اللّهُ عليه الوحيَ؟ قلتُ: نعم، فرفعَ طَرَفَ الثوبِ، فنَظَرْتُ إليهِ له غَطيطٌ ـ وأحسِبُهُ قال: كغَطيطِ البَكر ـ فلمَّا سُرِّيَ عنهُ قال: أين السائلُ عنِ العُمرةِ؟ اخلَعْ عنكَ الجبَّةَ، واغسِلْ أثرَ الخَلوقِ عنكَ وَأَنق الصفرةَ، واصنَعْ في عُمرتِكَ كما تَصنعُ في حَجِّكَ.

- والحالة الثانية التي أوردها البخاري من الحالات التي تعتري الرسول عند نزول الوحي أنه كان يثقل وزنه ويغيب عن الوعي، دون أن يصدر منه صوت أو كتيت. يقول البخاري في باب ما يُذكرُ في الفخِذ: . . . وقال زيدُ بن ثابتٍ: أنزلَ اللّهُ على رسولهِ صلى الله عليه وسلم وفخِذُه على فخذِي، فثَقُلَتْ عليَّ حتى خَفتُ أن تَرُضَّ فخذي.

- كما أورد البخاري حالتين أخريين في حديث واحد، إحداهما أن الرسول كان يسمع أصواتاً كصلصلة الأجراس وأنه كان يُجْهَد لدرجة يتصبب جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرودة. أما الحالة الثانية فتكون بحضور الملك بصورة بشر وتلقينه الآيات حتى يحفظها، يقول البخاري في الحديث رقم (٢): حدَّثنا عبدُاللّهِ بنُ يُوسُفَ قال: أخبرَنا مالِكٌ عن هِشام بنِ عُرْوَةَ عن أبيهِ عن عائِشَةَ أمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أنَّ الحارِثَ بنَ هِشام رضيَ الله عنه سَألَ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ: يا رسولَ اللّهِ كيفَ يأتِيكَ الوَحيُ؟ فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَحْياناً يَأتِيني مِثلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهُوَ أَشَدُّه عَليَّ فَيُفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ عنهُ ما قالَ، وأحْياناً يَتَمثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً فيُكَلِّمُنِي فأعِي ما يَقولُ. قالتْ عائشةُ رضيَ الله عنها: ولَقَدْ رَأَيتُهُ يَنزِلُ عليهِ الوَحيُ في اليومِ الشَّديدِ الْبَردِ فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفصَّدُ عَرَقاً.

هذا ما يتصوره الإخباريون، ولكن ماذا يقول القرآن عن الكيفية التي يتلقى فيها محمد الوحي؟

لقد جاء الوحي في القرآن على عدة معان، منها:

- الغريزة: وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتخذي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (النحل: ٦٨).

- وبمعنى تسجيل الذاكرة للحظة معينة وعقد العزم على اتخاذ موقف معين

بسببها فيما بعد: فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (يوسف: ١٥).

فيوسف في تلك اللحظة لم يكن رسولاً ولا نبياً، لأنه لازال صغيراً، والإيحاء الذي شعر به تلك اللحظة يمكن أن يشعر به أي إنسان في مواقف متعددة، وينوي القيام بفعل أو اتخاذ موقف مناسب للحدث في وقت لاحق.

- وبمعنى الاستعداد النفسي لقبول أمر ما: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (المائدة: ١١١).

فالحواريون لم يكونوا يتلقون وحياً من السماء، والحديث كان موجهاً لعيسى في الآية السابقة، والتي يذكره الله فيها ببعض نعمه عليه ومنها شرح صدور الحواريين للدين الذي تتحدث عنه هذه الآية، والآية السابقة وهي: إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابن مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إسرائيل عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (المائدة: ١١٠).

- وجاء الوحي بمعنى التأثير والإيحاء: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (الأنعام: ١١٢).

- وبمعنى الإلهام: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (طه: ٣٨-٣٩).

وبمعان أخرى، ولكن الوحي الذي يهمنا هنا هو الذي يمكن تعريفه بأنه الآلية التي يتم بواسطتها نقل نصوص الرسالة من الملك (بفتح اللام) إلى ذاكرة الرسول. وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تتحدث عن هذه الآلية، ويمكن تبسيطها كما يلي:

* بما أن الدين واحد منذ خلق الله البشر، فإن كل نصوص الرسالات السابقة كانت عبارة عن نسخة مكررة لنصوص دينية واحدة: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا

وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (الشورى: ١٣).

* وتلك النصوص مستمدة من مصدر واحد للوحي يحتفظ فيه بالنسخة الأصلية للنصوص الدينية. وهذا المصدر أو الأرشيف سماه القرآن اللوح المحفوظ: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج: ٢١-٢٢).

كما سماه أم الكتاب: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف: ٣-٤) وتسميات أخرى.

* أما ماهية «الأرشيف»، وأين هو وكيف يحفظ، فلم يتطرق لها القرآن، وبالتالي فلا علم لنا بها. ولكن من المؤكد أن اللوح المحفوظ مخالف لما صوره عليه المفسرون، من أنه لوح بمعناه الحرفي، محفوظ في جبهة أحد الملائكة. وفي هذا يقول القرطبي في تفسيره للآية (٢٢) من سورة البروج: وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوته حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ما طِرْيون. ويقول القرطبي: وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وبمثل ذلك قال الطبري في تفسيره، وغيره من المفسرين.

* وقد كانت طريقة الوحي لكل الرسل واحدة: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (النساء: ١٦٣-١٦٤) مع استثناء حالة واحدة لموسى.

* وبين القرآن أن الله يختار من الملائكة من يكلفهم بنقل نصوص الوحي من «اللوح المحفوظ أو أم الكتاب» إلى الرسول، يقول تعالى: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (الحج: ٧٥). وأن الرسل من الملائكة مهمتهم توصيل نصوص الوحي للرسول من البشر: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ (النحل: ٢).

* والملائكة المكلفون بنقل الوحي لهم قدرات خاصة من بين الملائكة الآخرين: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فاطر: ١). هذه القدرات (التي أطلق عليها القرآن أجنحة) تمكنهم من الاطلاع على نصوص الوحي في صورته الأصلية في اللوح المحفوظ، ونقله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (التكوير: ١٩-٢١).

* وقدرات أولئك الملائكة تمكنهم من تحويل، وليس ترجمة، نصوص الوحي من صورتها الأصلية إلى نصوص بلغة الرسول التي يتحدثها هو وقومه بكل دقة وأمانة في النقل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الرعد: ٤).

* كما أن قدرات أولئك الملائكة، تمكنهم من نسخ نصوص الوحي في ذاكرة الرسول (قلبه) مباشرة ومن دون التحدث إليه: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

* ولذلك أمر الرسول محمداً بأن لا يستعجل بقراءة القرآن أثناء نسخه في ذاكرته(يقضى إليه وحيه): فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (طه: ١١٤).

لأن نصوص الوحي ستبقى محفورة في ذاكرة الرسول طوال فترة حياته، وبالتالي فليس هناك داع لتسرعه بتلاوة الآيات أثناء نسخها في ذاكرته: لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (القيامة: ١٦-١٧).

فالله سبحانه هو من تكفل بحفظه في ذاكرة الرسول، وما على الرسول إلا الانتظار حتى يكتمل النزول ثم يقرأوه على الناس: فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القيامة: ١٨).

* وكما تكفل الله سبحانه بحفظ نسخة من الوحي في ذاكرة الرسول فقد تكفل سبحانه بحفظ النسخة الأصلية في ذلك الأرشيف السماوي: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر: ٩).

* وكان الملك المكلف بنقل الوحي لمحمد هو جبرائيل، الذي معناه «قوة الله» كما يقول الصادق النيهوم[1] بأن إيل تعني الله، وجبرا تعني قوة. يقول تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (البقرة: ٩٧).

هكذا نزل الوحي على الرسول، وهكذا نزل على كل الرسل، دون أن يعتريهم أي تغيرات نفسية أو عقلية أو جسدية، وكلما كان يشعر به الرسول هو أن هناك نصوصاً قد حفرت في ذاكرته، وهو بكامل قواه العقلية، دون أن يعرف كيف كان يحدث له ذلك. وهذا لا ينفي أن الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه كان قد رأى الملك مرتين، كما ذكر ذلك القرآن، وكان ذلك في بداية بعثته. مع التأكيد على أن الرسول لم يتحدث للملك خلال هاتين المقابلتين حديثاً مباشراً، ولعل من أهداف رؤية الملك، التدليل له صلى الله عليه وسلم بأنه مرسل يقيناً من الله، وأن ما يجده في ذاكرته هو وحي إلهي.

وقد ذكر اللقاءين في سورة النجم، وكان اللقاء الأول عندما رأى محمد الملك في الأفق: إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى. فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (النجم: ٤-١١).

ومعنى «فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى» أي أوحى الله إلى عبده الملك وليس للرسول ما أوحى أي ما أمره بأن يفعله في تلك المقابلة، أو أن الله أوحى لعبده محمد ما أوحى بواسطة الملك.

كما أن الذي تدلى هو الملك، وليس الله (تعالى الله عن ذلك التشبيه علواً كبيراً) كما يدعي بعض المفسرين، ومن ذلك ما أورده الطبري في تفسيره بقوله: حدثنا الربيع، قال: ثنا ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنس بن مالك يحدّثنا عن ليلة المسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عرج جبرائيل برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة، ثم علا به بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزّة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه ما شاء، وذكر الحديث.

---

(١) صوت الناس ـ أين ذهب الجامع/ الصادق النيهوم/ دار الريس ـ بيروت.

وكان اللقاء الثاني في مكان قرب شجرة من أشجار السدر، والتي تنتشر قرب مكة وفي كل أنحاء جزيرة العرب، والسدر شجر شوكي له ثمار يسمى النبق، كما يقول ابن منظور في لسان العرب: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (النجم: ١٣-١٧).

وكانت السدرة على طرف منطقة شجرية (جنة المأوى) قرب الجبال المطيرة القريبة من مكة. وجنة المأوى تعني جنة المبيت كما يقول ابن منظور في لسان العرب، وبالتالي فهي منطقة شجرية يبيت المسافرون فيها طلباً للظل.

ومن المؤكد أنها كانت معروفة في الوقت الذي نزلت الآية، ولذلك لم يناقش الكفار محمداً فيها. ولو كانت كما قال المفسرون عنها بأنها قرب عرش الرحمن فسيجادل القرشيون محمداً حولها كثيراً وكيف علم بها. ولكن كل من قال بأنها قرب العرش وأن لها ثمار ووصفها بصفات الشجر الدنيوي هم المفسرون والإخباريون، الذين كتبوا ما كتبوا بعد عقود من عصر الرسول.

ومما نقله المفسرون، قول الطبري: حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، قال: ثنا الفضل بن عنبسة، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانيّ، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رَكِبْتُ البُرَاقَ ثُمَّ ذُهِبَ بِي إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، فإذَا وَرقُها كآذَانِ الفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُها كالقِلالِ (وإذا كان الله سبحانه لا يأكل ولا ملائكته الطعام، فلماذا تثمر).

ويقول القرطبي: فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسِن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمّة كلها؛ ذكره الثعلبي. وأتساءل من أطلع المفسرين على هذه المعلومات؟

وفوق هذا لا أدري كيف سمح المفسرون لأنفسهم ادعاء أنها سدرة تحت عرش الرحمن، لأن الرسول أو أي بشر غيره ليس مهيأ للوصول إلى عرش الرحمن بأي شكل من الأشكال.

ومما سبق يتضح أن الوحي ينسخه الملك في ذاكرة الرسول بطريقة لا يعلمها الرسول ولا نعلمها نحن، وتبقى هذه النصوص حاضرة في ذهن الرسول حتى وفاته.

ولم يكن يعتريه صلوات الله وسلامه عليه أي حالة غير طبيعية عند تلقيه الوحي كما زعم الإخباريون.

المثال الخامس: أركان الإسلام وأركان الإيمان

يعرف فقهاء السنة الإسلام بأنه: استسلام العبد لله عز وجل باتبّاع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من الشهادة باللسان، والتصديق بالقلب، والعمل بالجوارح. وأن الإيمان يعني الاعتقاد بالقلب والتصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره مع الانقياد.

وإذا ورد الإسلام مقترناً بالإيمان فهو: أعمال الجوارح الظاهرة، من القول والعمل. كالشهادتين والصلاة وسائر أركان الإسلام. فيكون الإيمان هو أعلى مراتب الإسلام.

وقالوا بأن للإسلام خمسة أركان هي الإقرار بالشهادتين، والصلاة والزكاة والصيام والحج. وللإيمان ستة أركان هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، بينما أسقط الشيعة ركن الإيمان بالقدر، وأضافوا ركنين آخرين هما الخمس والإمامة، وقد اقتبسنا ذلك مما ورد في الجزء الرابع/ الموسوعة الفقهية ـ إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية.

والملاحظ على التعريف الفقهي السابق لأركان الإسلام وأركان الإيمان ما يلي:

– أن الفقهاء لم يستدلوا على أركان الإسلام وأركان الإيمان بآيات من القرآن الكريم، وليس هناك آية ذكر فيها أركان الإسلام أو أركان الإيمان مجتمعة. وإن كان هناك آيات جاء فيها ذكر الشهادتين وآيات جاء فيها ذكر الصلاة وأخرى ذكرت فيها الزكاة وغيرها الصيام وغيرها الحج. وآيات جاء فيها ذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، مثلما وردت أوامر ونواهٍ كثيرة في آيات متفرقة، ولكن الفقهاء لم يجعلوها ضمن أركان الإسلام ولا أركان الإيمان، ومن ذلك الجهاد، الوفاء بالعهود، الحدود، وغيرها الكثير.

ودليل الفقهاء على أركان الإسلام وأركان الإيمان اعتمد على حديث رواه يحيى بن يعمر ونسبه إلى ابن عمر.

وتكراره بصيغ وأشكال مختلفة في بعض كتب الحديث مثل البخاري ومسلم والترمذي ومسند أحمد وأبي داوود والنسائي، لا يعني أنه عدة أحاديث، بل هو حديث واحد روي بصيغ مختلفة لاختلاف الشاهد من ذكره، وهذا نص إحدى الصيغ التي وردت في مسلم برقم (٥٩): حَدَّثنا أبو عَمَّارِ الْحُسَيْنُ بنُ حُرَيْثٍ الْخُزَاعِيُّ، أخبرنا وَكِيعٌ عن كَهْمَسِ بنِ الْحَسَنِ عَنْ عَبْدِالله بنِ بُرَيْدَةَ، عن يَحْيَى بنِ يَعْمُرَ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي القَدَرِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ قالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيرِيُّ حَتَّى أَتَيْنَا المَدِينَةَ، فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النبيِّ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا أَحْدَثَ هَؤلاَءِ القَوْمُ قال فَلَقِينَاهُ، يَعْنِي عَبْدَالله بنَ عُمَرَ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ المَسْجِدِ، قال فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي قال فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الكَلاَمَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرحمن، إِنَّ قَوْماً يَقْرأُونَ القُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ، وَيَزْعُمُونَ أَنْ لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ قَالَ: فَإِذَا لَقَيْتَ أُولَئِكَ فَاخْبِرْهُمْ أَنِّي مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنَّهُمْ مِنِّي بُرَآء. وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُالله لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا قُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ حَتى يُؤمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله فَجَاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى أَتَى النبيَّ، فَأَلْزَقَ رُكْبَتَهُ بِرُكْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحمَّدُ ما الإيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قالَ: فَمَا الإسلام، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصومُ رَمَضَانَ. قَالَ: فَمَا الاْحْسَانُ؟ قال أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قالَ: فِي كِلِّ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ صَدَقْتَ. قَالَ: فَتَعَجَبْنَا مِنْهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قالَ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قالَ: مَا المسؤول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قالَ: فَمَا أَمَارَتُهَا؟ قالَ: أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ قالَ عمَرُ: فَلَقِيَنِي النبيُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَلاَثٍ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ ذَاكَ جِبْرَئِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دينِكُمْ.

- وهذا الحديث الذي اعتمد الفقهاء عليه في القول بأركان الإسلام والإيمان وتحديد عددها، جاء فيه ذكر الإحسان، وأمارات الساعة، ومع ذلك لم يحعلهما الفقهاء من أركان الإسلام أو الإيمان.

- ومع أن هناك حديثاً في البخاري برقم (٢٦): يقول بأن الجهاد في الإسلام يلي الإقرار بالشهادتين من حيث الأهمية، وجاء قبل الركن الخامس للإسلام، وهو الحج، وهذا نص الحديث: حدَّثنا أَحمدُ بنُ يونُسَ وموسى بنُ إسماعيل قالا: حدثنا إبراهيم بنُ سِعدٍ قال: حدثنا ابن شِهابٍ عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ عن أبي هُرَيرة أنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أي العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: إِيمانٌ باللّهِ ورَسولهِ. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبْرور.

إلا أن الفقهاء لم يعدوا الجهاد ضمن أركان الإسلام أو الإيمان.

- ولو تتبعنا ما ورد في كتب الحديث لرأينا العجب، ومن ذلك بعض الروايات التي اعتبرت أن شهادة أن محمداً رسول الله ليست من أركان الإيمان، ومن ذلك ما أورده أحمد في مسنده برقم (١٨٨٦١)، وهذا نصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر عن جرير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان.

- ومن ذلك أن بعض روايات الحديث تنص على أن من أركان الإيمان، الإيمان بالبعث وليس الإيمان بالقدر، فلماذا لم يأخذ الفقهاء بالقول بالإيمان بالبعث الذي ورد ذكره في القرآن والذي لا شك بأن من لا يؤمن به فليس بمسلم، بينما أخذوا بالروايات التي تقول بالإيمان بالقدر واعتبروه من أركان الإيمان مع أنه لم يأت ذكر الإيمان بالقدر في القرآن، وقد اختلف الفقهاء فيه كثيراً، ولذلك فبعض أقوال أهل السنة والشيعة وفرق إسلامية أخرى لا يعتبرون الإيمان بالقدر من أركان الإيمان. وهذا نص ما أورده البخاري برقم (٤٦٥٩): حدَّثني إسحاق عن جريرٍ عن أبي حَيَّانَ عن أبي زُرعةَ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاهُ رجلٌ يَمشي فقال: يا رسولَ الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن باللَّهِ، ومَلائكتِهِ، ورُسُلِهِ، ولقائه، وتؤمن بالبَعثِ الآخر. قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تَعبُدَ الله ولا تُشرِكَ به شيئاً، وتُقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاةَ المفروضةَ، وتصومَ رمضانَ. قال: يا رسولَ الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تَعبُدَ اللَّهَ كأنكَ تراه، فإن لم تَكنْ تراه

فإنه يراك. قال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤولُ عنها بأعلم منَ السائل، ولكنْ سأُحدِّثكَ عن أشراطِها: إذا وَلَدَتِ المرأةُ ربَّتَها فذاكَ من أشراطها، وإذا كان الحُفاةُ العُراة رُؤوسَ الناس فذاك من أشراطِها، في خمسٍ لا يَعلمهنَّ إلا الله ﴿إنَّ اللَّهَ عندَهُ علم الساعة، ويُنزِّلُ الغَيثَ، ويَعلمُ ما في الأرحام﴾. ثم انصرفَ الرجلُ، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ. فأَخَذُوا لِيرُدُّوا فلم يَرَوْا شيئاً، فقال: هذا جِبريلُ جاء ليعلِّمَ الناسَ دِينَهم.

- وورد في كتب الحديث رواية تنص على أن أركان الإسلام هي الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان برسول الله، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة وصوم رمضان، ولم يذكر الحج كركن من أركان الإسلام، وهذا نص الحديث في مسلم: وحدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ وزُهيْرُ بْنُ حَرْبٍ جَمِيعا عَنِ ابن عُلَيَّةَ قَال زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا إسماعيل بْنُ إبراهيم عَنْ أبي حَيَّانَ عَنْ أبي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللّهِ يَوْما بَارِزا لِلنَّاسِ.فَأَتَاهُ رَجُلٌ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ. قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا الإسلام؟ قَالَ: الإسلام أَنْ تَعْبُدَ الله لاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ (مسلم ٦٣).

- ولم يعتبر الفقهاء أن من أركان الإيمان والإسلام العديد مما ورد في كتب الحديث على أنه من الإيمان والإسلام، ومن ذلك ما أورده البخاري في الحديث رقم (٩)، وهذا نصه: حدَّثنا عبدُاللّهِ بنُ محمدٍ قال: حدثنا أبو عامرٍ العَقدِيُّ قال: حدثنا سُليمانُ بنُ بلالٍ عنْ عبدِاللّهِ بنِ دِينارٍ عنْ أبي صالح عن أبي هُرَيْرةَ رضي اللّهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: الإِيمانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبةً، والحياءُ شُعْبةٌ مِنَ الإِيمان.

- والحديث رقم (١١)، ونصه: حدَّثَنا سَعيد بن يَحيى بنِ سَعيدٍ الْقُرَشِيُّ قال حدَّثنا أبي قال: حدثنا أبو بُرْدَةَ بنُ عبدِاللَّهِ بنِ أبي بُرْدَةَ عن أبي بُرْدَةَ عن أبي موسى رضي اللَّهُ عنهُ قال: قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، أي الإسلام أَفضلُ؟ قال: مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِه.

- والحديث رقم (١٢)، ونصه: حدَّثَنا عَمْرُو بنُ خالِدٍ قال: حدثنا اللَّيثُ عن يَزيدَ عن أبي الْخَيْرِ عن عبدِاللَّهِ بنِ عَمْرٍو رضي اللَّهُ عنهما «أنَّ رَجُلاً سأل النبِيَّ

صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خَيْرُ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَن عَرَفْتَ وَمَن لم تَعْرَف.

- والحديث رقم (٢٥)، ونصه: حدَّثنا عبدُاللّهِ بنُ محمدٍ المُسْنَدِيُّ قال: حدَّثَنا أبو رَوح الْحَرَمِيُّ بنُ عُمَارة قال: حدَّثَنا شُعبةُ عن واقِدِ بنِ محمدٍ قال: سَمِعْتُ أبي يحدِّثُ عنِ ابن عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إِلاّ بِحَقِّ الإسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه.

- والحديث رقم (٢٨)، والذي يقول: حدَّثنا قُتَيْبَةُ قال: حدثنا اللَّيْثُ عنْ يزيدَ بنِ أبي حَبيبٍ عنْ أبي الخَيرِ عن عبدِاللّهِ بنِ عَمْرٍو «أنَّ رَجُلاً سَأل رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خَيرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لم تَعْرِفْ.

- والحديث رقم (١٣)، وهو: حدَّثَنا مُسَدَّدٌ قال: حدثنا يَحيى عن شُعبةَ عن قَتادةَ عن أنَسٍ رضي اللَّهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعن حُسَيْنٍ الْمعلِّم قال: حدثنا قَتادةُ عن أنَسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

- والحديث رقم (١٦)، ونصه: حدَّثَنا محمدُ بنُ المُثَنَّى قال: حدثنا عبدُ الوهَّابِ الثَّقَفِيُّ قال: حدَّثَنا أُيوبُ عنْ أبي قِلابَةَ عنْ أَنسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَه أنْ يُقذَفَ في النَّار.

- كما أن أركان الإسلام والإيمان لم تتوافق مع ما جاء في نص بيعة الرسول لأصحابه، والتي أوردها البخاري في الحديث رقم (١٨): حدَّثنا أبو اليَمانِ قال: أخبرَنا شُعَيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال: أخبرَني أبو إدْريسَ عائِذُ اللّهِ بنُ عبدِاللّه أنَّ عُبادةَ بنَ الصامِتِ رضيَ اللّهُ عنهُ ـ وكانَ شَهِدَ بَدْراً، وهُوَ أَحَدُ النُّقَباءِ لَيلةَ العقَبَةِ ـ أَنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، قال وَحَوْلَهُ عِصابَةٌ مِنْ أَصحابهِ: بايعوني على أنْ

لا تُشرِكوا باللّهِ شيئاً، ولا تَسْرِقوا، ولا تَزْنوا، ولا تَقْتُلوا أَوْلادَكم، ولا تَأْتوا بِبُهْتانٍ تَفْتَرونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكمْ وأرْجُلِكمْ، ولا تَعْصوا في مَعْروف. فمَنْ وَفَّى منكم فأجْرُهُ على اللّهِ، ومن أصابَ مِنْ ذلك شيئاً فعُوقِبَ في الدُّنْيا فهُوَ كَفَّارَةٌ له، ومَن أصابَ مِنْ ذلك شيئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللّهُ فهُوَ إلى اللّهِ: إنْ شاء عَفا عنهُ، وإن شاء عاقَبَهُ. فبايَعناه على ذلك.

- ولم يكن من بين أركان الإيمان والإسلام الصدق والوفاء بالعهود والأمانة، وهي من الصفات الإيمانية التي تخالف صفات المنافق التي وردت في الحديث رقم (٣٣) في البخاري، ونصه: حدَّثنا سُليمانُ أبو الرَّبيع قال: حدثنا إسماعيل بنُ جعفرٍ قال: حدثنا نافِعُ بنُ مالكِ بن أبي عامرٍ أبو سُهَيلٍ عن أبيه عن أبي هُرَيرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: آيةُ المُنافِق ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان.

ومثلما أنه يمكن إيراد أحاديث بلا نهاية تتحدث عن أوامر وتشريعات وجوانب إيمانية وإسلامية لم تعتبر من أركان الإيمان والإسلام، فكذلك يمكن طرح تساؤلات لا حدود لها حول الموضوع، لعل من أهمها:

لماذا اقتصرت أركان الإسلام على خمسة والإيمان على ستة أو سبعة، وتركت كل أوامر الله ونواهيه التي نزلت على محمد ليعمل بموجبها المسلمون؟

وهل فعلاً الإيمان هو الدرجة القصوى للإسلام؟

وهل لأوامر الله ونواهيه تصنيف ومستويات؟ أم أن الله سبحانه لم ينزل أمراً إلا لكي يعمل به، ولا نهياً إلا ليجتنب، دون تمييز بين أمر أو نهي وآخر.

حقيقة الإسلام والإيمان

لو استعرضنا أركان الإسلام وأركان الإيمان التي ذكرها الفقهاء المسلمون سنة وشيعة، فسنجد أنه لا يمكن أن يكون المرء مسلماً فقط، أي من دون أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. كما لا يمكن أن يؤمن المرء ما لم يؤدِّ الصلاة والزكاة وأركان الإسلام الأخرى التي ذكرها الفقهاء. فليس هناك إيمان منعزل عن الإسلام وليس هناك إسلام منعزل عن الإيمان.

كما أن الإيمان ليس الدرجة القصوى من درجات الاعتقاد بالإسلام، والإسلام ليس الدرجة الدنيا للدخول في دين الله. لأن الإسلام هو التعريف الذي يطلق على دين الله، أي أن دين الله الذي جاءت به كل الرسل للبشرية اسمه الإسلام: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسلام وَمَا اختلف الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فإن اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران: ١٩).

أما الإيمان فهو الاعتقاد والتصديق واليقين، حيث يمكن التصديق بأي دين أو فكرة أو رأي، ومن ذلك الإيمان بدين الإسلام، أي التصديق بما يدعو إليه. بينما لا يمكن أن يُسلم المرء بدين أو فكرة أو رأي، أو يُسلم بالإسلام.

ويكون من يؤمن ويعتقد بدين الله الذي اسمه الإسلام، فسيوصف بأنه مسلم: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (النمل: ٩١).

وقد نعت القرآن بعض الأعراب، أو وفود القبائل، بأنهم أسلموا، ولم يؤمنوا لأنهم انتسبوا إلى الإسلام ولكنهم لم يصدقوا بما يدعو إليه يقيناً، وليس لأنهم في الدرجة الدنيا من الإيمان بالدين وبالتالي عليهم أن يجتهدوا أكثر لكي يترقوا في السلم العقائدي للإسلام حتى يصلوا إلى أعلى درجة في السلم وهي الإيمان: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أعمالكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الحجرات: ١٤).

وعندما يقول رجال الدين المسلمون بأن للإسلام أركاناً، فقد صوروه في الذهن كالبناء أو المنزل. بحيث تكون أركان الإسلام والإيمان السابقة الذكر هي الأسس التي يرتكز عليها ذلك المنزل، أما الجدران والأرضيات والأسقف والأبواب والنوافذ والأثاث فيمكن تشييدها بتجنب الكبائر من الحدود والجنايات التي نزل فيها حد شرعي مثل القتل العمد والزنى والسرقة، وتجنب المحرمات والمعاصي مثل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وشرب الخمر ولعب الميسر والتعامل بالربا... ونحو ذلك. وما عدا ذلك من فضائل أو تعامل أو معاملات أو آداب فتمثل الديكورات وكل مظاهر الرفاهية والترف في المنزل.

وبهذا التعريف الفقهي فإن الإنسان يمكن أن يبقى مسلماً إذا آمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، أو بالإمامة والخمس إن كان شيعياً، إضافة إلى أداء الصلاة والصيام والحج ودفع الزكاة السنوية كما صورها الفقهاء، ولو ارتكب بعض الكبائر من الحدود والجنايات أو مارس بعض المحرمات والمعاصي الأخرى، أو ترك الفضائل ولم يتقيد بمكارم الأخلاق والآداب والتعاملات والمعاملات بين المسلمين مع بعضهم، وبين المسلمين وغير المسلمين، لأن كل هذه أمور ثانوية ترفية لا تخل بجوهر الدين ولا تزلزل أساسه.

وبهذا التعريف حوّل الفقهاءُ الإسلام إلى تصديق بالقلب وعبادات فقط مع الزكاة، وهمشوا ما عدا ذلك من تعامل وحقوق وآداب وغيرها، وصوروها على أنها من الترف الديني وليس من ضرورياته التي لا يقوم إلا بها.

ولو تمعنا في حديث أركان الإيمان وأركان الإسلام لوجدنا أن راوي الحديث الذي نسبه إلى ابن عمر، هو يحيي بن يعمر. وقد عرفه الذهبي في كتابه تذكرة الحافظ بقوله: يحيى بن يعمر القاضي أبو سليمان ويقال أبو عدي العدواني البصري الفقيه قاضي مرو، روى عن أبي ذر وعمار وعائشة وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وأبي الأسود الديلي وغيرهم وعنه، عبدالله بن بريدة وقتادة ويحيى بن عقيل وعطاء الخراساني وسليمان التيمي وإسحاق بن سويد العدوي (هذا ما يظن عنه، ولكن في الحقيقة هو لم يرو عن هؤلاء)، انظر ما يقوله الذهبي: قال أبو داود: لم يسمع من عائشة. قلت (أي أن الذهبي قال): فما الظن بالذين قبلها؟

وكان الحجاج قد نفاه فقبله قتيبة بن مسلم وولاه قضاء خراسان، وكان له عدة نواب ثم عزله قتيبة لما بلغه عنه شرب المنصف (نوع من أنواع الخمر) انتهى كلام الذهبي.

ويقول عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان: وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم. وقد توفي ابن يعمر، حسب ما ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان، سنة تسع وعشرين ومائة (١٢٩للهجرة).

وابن يعمر يؤمن بأن الإنسان مسير في كل أعماله، بينما عاصر أناس يقولون بأن الإنسان هو من يختار أعماله بكامل إرادته، مثل معبد الجهني، وأن الإنسان هو

من يختار لنفسه الشقاء عن طريق عدم اتباع الدين، أو يختار لنفسه النجاة لو قرر الإيمان. وبما أن ابن يعمر (الفقيه) لم يكن يملك دليلاً شرعياً يدعم رأيه الفقهي فقد روى أنه قابل ابن عمر وحدثه بذلك الحديث الذي أصبح فيما بعد الأساس الذي اعتمد عليه فقهاء آخرون للقول بأن للإسلام والإيمان أركاناً، مع أن ابن يعمر لم يورد الحديث ليثبت أن للإسلام أركاناً وللإيمان أركاناً، ومات وهو لم يسمع بهذه الأركان، وإنما أورده لدعم رأيه الفقهي بالقول بأن الإنسان ليس له خيار في صنع أعماله وأن كل شيء مقدر عليه مسبقاً.

وبما أن يحيى بن يعمر كان يعيش في العراق وخراسان وبعيداً عن مكان إقامة عبدالله بن عمر (المتوفى سنة ٧٣ كما ورد في وفيات الأعيان) في المدينة، فقد أكد في مطلع الحديث أنه سافر إلى هناك من أجل هدف واحد محدد هو البحث عن أحد الصحابة لكي يؤكد له أن الإنسان مخير وليس بمسير، يقول ابن يعمر: خَرَجْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيرِيُّ حَتَّى أَتَيْنَا المَدِينَةَ، فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النبيِّ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا أَحْدَثَ هَؤلاَءِ القَوْمُ. . .

وذكر أنه سافر للمدينة ليس بمفرده ولكن معه شاهداً، ذكر اسمه كاملاً هو حُمَيْدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيِريُّ، لكي يقطع الشك على كل من يسمع روايته، بصحة سفره ومقابلته ابن عمر وسؤاله له وما أجابه به: فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرحمنِ، إنَّ قَوْماً يَقْرأُونَ القُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ، وَيَزْعُمُونَ أَنْ لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ قَالَ: فَإِذَا لَقَيْتَ أُولَئِكَ فَاخْبِرْهُمْ أَنِّي مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنَّهُمْ مِنِّي بُرَآء. وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا قُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ حَتى يُؤمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِهِ.

كما لم يفت ابن يعمر أن يبين أن ابن عمر لم يجبه برأيه الشخصي، بل نقل عن رسول الله، وأن الرسول أيضاً لم يقله من عند نفسه، بل إن كلام الرسول قد وافق عليه جبرائيل، عندما استدرك في آخر الحديث وقال بأن الرسول قد أبلغ عمر بالذات، وهو الشخص الذي افترض أنه نقل الخبر لابنه عبدالله، أن السائل هو جبريل.

ولكي لا يظن البعض أن حديث ابن يعمر حديث آحاد تفرد به ولم يقله غيره، وبالتالي فلن يأخذوا به فقد أكد أن جبريل قد جاء إلى الرسول وهو جالس بين

مجموعة من صحابته كشهود على الحدث، ومنهم الراوي المفترض الذي روى الحادثة لابنه عبدالله، الذي نقله لابن يعمر. يقول ابن يعمر: ثُمَّ أَنْشَأَ (ابن عمر) يُحَدِّثُ، فَقَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله فَجَاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى أَتَى النبيَّ، فَأَلْزَقَ رُكْبَتَهُ بِرُكْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحمَّدُ ما الإيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قالَ: فَمَا الإسلام، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصومُ رَمَضَانَ. قَالَ: فَمَا الاْحْسَانُ؟ قال أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قالَ: فِي كِلِّ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ صَدَقْتَ. قَالَ: فَتَعَجَبْنَا مِنْهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قالَ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قالَ: مَا المسؤول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قالَ: فَمَا أَمَارَتُهَا؟ قالَ: أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ قالَ عمَرُ: فَلَقِيَنِي النبيُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَلاَثٍ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ ذَاكَ جِبْرَئِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ.

ورواية يحيى بن يعمر فيها تحرز مبالغ فيه لدرجة تثير الكثير من التساؤلات.

ولن أذكر كل روايات الأحاديث التي تقول بأن أركان الإسلام والإيمان ليست فقط محصورة بما قرره الفقهاء، لأن بعضها ذكر فيما سبق، ولكنني سأذكر حديثاً أورده أحمد في مسنده برقم (٥٦٥٦) يبين أن من سأل عبدالله بن عمر لم يكن يحيى بن يعمر، وهذا نص الحديث: حدثنا عبدالله، حدثني أبي، حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عَقيل، عن بَرَكَة بن يعلى التَّيْمي، حدثني أبو سُويد العَبْدي قال: أتينا ابن عمر، فجلسنا ببابه ليُؤْذن لنا، قال فأبطأ علينا الإذْن، قال: فقمتُ إلى جُحْرٍ في الباب فجعلتُ أطّلع فيه، فَفَطِن بي، فلما أَذِنَ لنا جلسنا، فقال: أَيُّكم اطَّلع آنفاً في داري؟ قال: بأي شيء استحللتَ أن تطَّلع في داري؟ قال فقال أنا: قلت: أبطأ علينا الإذْن فنظرتُ فلم أَتَعَمَّدْ ذلك، قال: ثم سألوه عن أشياء؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بُنِي الإسلام على خمسٍ: شهادَةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وحجُّ البيت، وصيامُ رمضان، قلت: يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في الجهاد؟ قال: من جاهد فإنما يجاهد لنفسه.

وهناك حديث آخر رواه البخاري برقم (٤٣٩٩) يظهر أن ابن عمر سئل في السنة التي حاصر فيها جيش الحجاج عبدالله بن الزبير المتحصن في مكة، ونص الحديث هو: حدَّثنا محمدُ بن بشّارٍ حدَّثنا عبدُ الوَهّابِ حدَّثَنا عُبيدالله عن نافع عن ابن عمرَ رضي اللَّهُ عنهما أتاهُ رجُلانِ في فتنةِ ابن الزُّبير فقالا: إنَّ الناسَ قد ضُيِّعوا وأنت ابن عمرَ وصاحبُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فما يمنعك أن تَخرُجَ؟ فقال: يمنعني أنَّ اللَّهَ حرَّمَ دمَ أخي. فقالا: ألم يَقلِ الله ﴿وقاتِلوهم حتى لا تكونَ فتنة﴾ (البقرة:١٩٣) فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تُقاتِلوا حتى تكون فتنة ويكون الدِّين لغير الله.

ومن الواضح أن الذين سألوا ابن عمر كانوا ممن يرون أن الحجاج معتدٍ وأن ابن الزبير هو الذي على الحق، ويعتبرون مناصرته جهاداً، ولذلك استغربوا أن لا يجاهد ابن عمر، وكانت هذه مناسبة الحديث، وليس تشريع أركان للإيمان والإسلام، وكان ابن عمر يرى أن ابن الزبير والحجاج كلاهما في المركب نفسه، وأن القتال مع أي منهما ضد الآخر هو قتل للمسلمين بغير حق.

ويضاف لذلك حديث نسب إلى الرسول في عدة روايات، وهذا نص إحدى الروايات التي وردت في البخاري تحت رقم (٤٦): حدَّثنا إسماعيل قال: حدَّثني مالِكُ بنُ أنَسٍ عنْ عَمِّهِ أبي سُهَيلِ بن مالكٍ عنْ أبيهِ أنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيدِاللّهِ يقولُ: جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأْسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوتِه ولا يُفْقَهُ ما يقولُ (بدوي قح)، حتى دَنا، فإذا هُوَ يَسْأَلُ عنِ الإسلام، فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: خَمسُ صَلَواتٍ في الْيَوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غَيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: وَصِيامُ رَمَضانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال وَذَكرَ له رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غَيرُها؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال فأدْبرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزِيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ. قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ.

ومما ورد من روايات يمكننا أن نستخلص ما يلي:

* إن كان يحيى بن يعمر لم يسأل ابن عمر، ولكن أبو سُويد العَبْدي هو السائل.

* وأن ابن عمر أجاب من سأله عن عدم اشتراكه بالحرب مع ابن الزبير بأنها ليست من الدين.

* وأن إجابة ابن عمر كانت شخصية ولم ينسبها إلى الرسول، وكانت لتبرير موقفه الشخصي من الحرب الدائرة بين المسلمين في تلك الفترة.

* وأن حديث الأعرابي الذي سأل الرسول عن الإسلام قد شاع وسمع به يحيى بن يعمر الذي كان يؤمن بأن الإنسان مسير بقضاء مسبق، ويحتاج إلى دعم رأيه الفقهي بدليل.

فيكون من المحتمل أن ابن يعمر، أو شخصاً غيره، قام بنسبة سؤال عبدالله بن عمر إلى ابن يعمر بدل أبي سويد العبدي. وقام بتغيير مناسبة سؤال ابن عمر، من عدم اشتراكه بمناصرة ابن الزبير إلى سؤاله عن حكم ما يقوله معبد الجهني وغيره من الإيمان بأن الإنسان هو من يختار أفعاله. ثم قام بنسخ إجابة ابن عمر من حديث الأعرابي الذي سأل الرسول عن الإسلام مع تحوير الصيغة بحيث يكون من سأل الرسول ليس أعرابيا ثائرَ الرأْسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوتِه ولا يُفْقَهُ ما يقولُ، وفي روايات أخرى، أشعث أغبر، إلى ملك من الملائكة شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وهي هيئة تم الحرص في رسمها على أن تكون معاكسة تماماً لهيئة الأعرابي المذكور. ولم يدر بخلد يحيى بن يعمر أن الناس بعده سيأخذون (الخبر) على أنه دليل على أن للإسلام والإيمان أركاناً، وستغيب عنهم حقيقة نشأة الخبر ومناسبته الأصلية، وهي البحث عما يدعم الرأي الفقهي القائل بالقضاء المسبق، وأن الإنسان مسير وليس مخيراً.

وللتدليل على أن الفقهاء يأخذون ما يريدون من الأحاديث ويتركون ما يخالف آراءهم، فقد أورد كتبة الأحاديث حديثاً يؤكد أن هناك في الإسلام ما هو أهم من أركان الإسلام التي منها الصلاة والصوم. وأن الصلاة ليست عموداً للدين، لا تقوم إلا به ومن فسدت صلاته فقد فسد دينه. وأن المسلم وإن صلى أو صام فلا يمكن أن يكون مسلماً ما لم يلتزم بما جاء في هذا الحديث من أركان للإسلام، تتمثل في الالتزام بجماعة المسلمين، أي عدم الخروج على الحاكم، والسمع والطاعة له وبلا حدود، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. أما من أقام الصلاة وصام رمضان وقام بكل ما عرّفه الفقهاء بأنه أركان الإسلام، ولم يقم بهذه الأشياء فليس بمسلم وسيموت ميتة جاهلية وسيكون مصيره النار.

والحديث رواه أحمد في مسنده عدة روايات ورواه الترمذي بعدة روايات أيضاً ونقلاً عن البخاري، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية تحت عنوان «قصة زكريا ويحيى عليهما السلام»، ورواه غيرهم. وهذا الحديث مشهور باسم راويه، فيطلق عليه حديث الحارث الأشعري.

وهذا نص إحدى رواياته التي جاءت في مسند أحمد برقم (١٧٤٦٧): حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف ـ كان يعد من البدلاء ـ قال: حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم: قال إن الله عزَّ وجلَّ أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكاد أن يبطئ، فقال له عيسى: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وأن تأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإمّا أبلغهن؟ فقال له: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أوّلهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي عمله إلى غير سيده، فأيّكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله عزَّ وجلَّ خلقكم، ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأمركم بالصلاة فإن الله عزَّ وجلَّ ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوّ فشدوا يديه إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وأمركم بذكر الله كثيراً وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزَّ وجلَّ. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة وبالسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلى أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم،

قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بما سماهم المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ. انتهى.

وراوي الحديث أورده ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحت رقم (٤١٥)، بقوله: الحارث بن الحارث الأشعري، روى عنه أبو سلام الأسود، واسم أبي سلام ممطور الحبشي، له عنه حديث واحد عن النبي صلى الله عليه وسلّم وهو حديث حسن جامع الفنون من العلم، لم يحدث به عن أبي سلام بتمامه إلاّ معاوية بن سلام. وليس هناك من يضعف الحديث أو يشكك في راويه، بل إن الترمذي قد سمع الحديث من البخاري محمد بن إسماعيل، على الرغم من أن البخاري لم يكتبه في كتابه. ولعل السبب يعود إلى أن البخاري فطن أن هذا الحديث يتعارض وبشدة مع حديث أركان الإسلام، ففضل عدم ذكره، بينما لم يفطن الترمذي إلى ذلك.

ولو نظرنا إلى واقع المسلمين الفعلي على مدى قرون طويلة لوجدنا أن حالهم لم تستقم بالالتزام بأركان الإسلام وأركان الإيمان، وأن علينا أن نعيد تصور تشريعات الإسلام من كونها على شكل بناء له أركان وأصول يقوم عليها ويستقيم بها ولو لم تستكمل بقية الأعمال الإنشائية الأخرى المتمثلة في بقية الأوامر والنواهي الإلهية، إلى تصوير الإسلام على شكل أسطوانة مشابهة للأسطوانات الصلبة التي تستخدم في أجهزة الحاسب الآلي والتي تسمى (CD) بحيث تتكون الأسطوانة من شرائح طولية، كل شريحة تمثل أمراً أو نهياً إلهياً قطعي الثبوت، وليس بالضرورة أن تتساوى هذه الشرائح بالسماكة. فشريحة مثل الإيمان بالبعث أسمك من شريحة رد التحية مثلاً، ولكن لا بد من وجود الشريحتين في الأسطوانة وإلا تسبب فقدان أحدهما وجود فجوة في جسد الشريحة يستحيل معها أن تعمل (تدور)، لأن الإشعاع المسلط عليها والذي يجعلها تعمل، هو إشعاع إلهي لا يعمل إلا مع الشرائح الإلهية الصنع فقط. وسيتوقف بمجرد أن يصل إلى المنطقة الفارغة التي نزعت منها أي شريحة مهما صغرت سماكتها. وبما أن هذه الشرائح مصنوعة من مادة إلهية، فلو أضيف لها شريحة من أي صناعة أخرى غير إلهية مهما كانت محكمة الصنع، فلن تتمكن الأشعة أن تتعرف عليها وبالتالي ستتوقف حتى تنزع تلك الشريحة الدخيلة.

وسيكون هناك شريحة تحرم ارتكاب الفواحش أو الدعاية لها، وشرائح تحرم الفسق، والظلم، والشرك، والقول على الله ما لم يرد فيه نص من القرآن لأن الله يقول: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (الأعراف: ٣٣).

وشريحة تحرم الحكم على الناس من الناس في الدنيا بالصلاح أو الكفر، لأن الله وحده يعلم ما في الصدور: أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (الأعراف: ٤٩).

وشريحة تأمر بالتقوى التي معناها مراعاة الله في كل صغيرة وكبيرة وتفكير وعمل وقول: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ. أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (يونس: ٦١-٦٣).

وشريحة تأمر بالعدل مع كل الناس وفي كل تعامل، وأخرى للإحسان مع كل الناس وفي كل تعامل، وشريحة لوصل ذي القربى معنوياً ومادياً، وشريحة لمنع الفحشاء والمنكر بكل أشكاله وصوره وما يؤدي إليه من قول وعمل، وشريحة لمنع الظلم بكل أشكاله وصوره وما يؤدي إليه من قول وعمل: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل: ٩٠).

وشريحة للوفاء بالعهود والمواثيق الشخصية والدولية، واعتبارها مواثيق مع الله وليس مع البشر: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (النحل: ٩١).

وشريحة تحرم منع استخدام الدين لخدمة المصالح الشخصية لأن هذا كفر، وقبول الاختلاف المادي بين الناس مادام الغني يؤدي كل نفقاته الواجبة عليه دينياً، لأن الاختلاف بين البشر شيء صحي، وإلا لن توجد التخصصات العلمية والعملية ولن يكون للحياة طعم ولا معنى لو تساوى الناس في كل شيء: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي

نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (النحل: ٩٢).

وشريحة لحفظ حقوق الرجل والمرأة على السواء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣).

وبطبيعة الحال سيكون هناك شريحة للصلاة وأخرى للصيام وللحج وللإنفاق وللإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر، وغير ذلك من الشرائح التي جاء بها كتاب الله. وسيكون هناك شريحة لكل أمر أو نهي جاء به القرآن دون تفريق بين شريحة وأخرى في الأهمية. ولو فعل المسلمون ذلك فسيبنون لدولتهم دستوراً مكتوباً معتمداً كلياً على القرآن، ولن نكون بحاجة إلى أي شرائح فقهية غيرها، لأن من خلق البشر ويعلم ما يناسبهم تماماً من أحكام تقيم دنياهم وتضمن آخرتهم.

وإن لم يضمن الدستور القرآني ذلك فإن الفتاوى والمذاهب الفقهية لم تستطع تحقيقها على مدى خمسة عشر قرناً من الزمان، افترق المسلمون خلالها شيعاً ومذاهب لم ينزل الله بها من سلطان، ولن تستطيع تحقيقها أبداً.

في العبادات

المثال الأول: النوافل

النافلة لغة: ما زاد على النصيب المقدر، أو الحق المفروض. والسنة في أصل اللغة تعني الطريقة والمنهج، سواءً كانت حسنة أو سيئة محمودة أو مذمومة.

أما السنة عند الفقهاء فلها عدة معان، منها:

- أنها اسم للطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب.

- وتطلق على الفعل الذي واظب الرسول عليه وليس هناك دليل على وجوبه، ولا الأمر به.

- ثم أطلقت على كل ما نسب إلى الرسول بطريق ظني من أقوال، أو أفعال،

أو إقراره (عدم اعتراضه على) فعل أو قول صدر من غيره. وهذا التعريف يشمل ما عرفه الفقهاء بالحديث، وهو: كل ما نسب إلى الرسول بطريق ظني من الأقوال.

- وتكون السنة بتعريف الفقهاء أشمل من الحديث، فيقال للحديث سنة، ولا يقال للسنة حديثاً.

أنواع السنن عند الفقهاء

يقسم الفقهاء السنن إلى سنن معينة وسنن مطلقة، والسنن المعينة هي التي يسمونها السنن الرواتب، ويقولون سميت بالرواتب لمشروعية المواظبة عليها، وهي سنن تابعة للفرض، مثل الصلوات قبل الفرض وبعده، وصيام الست من شوال لأنها مرتبطة بصيام رمضان. أو أنها سنن لها وقت معين، مثل صلاة الضحى أو التراويح أو العيدين أو صيام عاشوراء. أما السنن المطلقة فهي التي ليس لها وقت محدد ولا تتبع فرضاً من الفروض، مثل صلاة الليل، وأداء العمرة بعد الفرض.

حكم النوافل عند الفقهاء

لا وجود للسنن بمفهومها الفقهي في القرآن الكريم ولم يأمر بها الدين بدليل قطعي، وكل ما قيل عنها جاء من الفقهاء. فهم من أطلق عليها نوافل، وسنن، وسنن زوائد، وسنن رواتب، وسنن مؤكدة. وهم من قال بكل أحكامها:

فقالوا: يثاب فاعل السنن ولا يعاقب تاركها. وقال الحنفية أن تارك السنن الرواتب يستوجب إساءة وكراهية (وهذا يفسر بعض تصرفات وتعامل من يعتقد بذلك من بعض المسلمين تجاه غيره ممن لا يرون ما يراه في السنن ولا يؤديها. وقال ابن عابدين بلوم وتضليل من يترك السنن. وقال صاحب السلفية وكشف الأسرار بأن يساء إلى تارك السنن ولا يكره. وفي التلويح أن ترك السنة يقرب من الحرام.

وقال بعض الحنابلة بكراهية ترك السنن بلا عذر، دون أن يقولوا بحكم على تاركها. وقال بعض الفقهاء بأن تارك السنن الرواتب تسقط عدالته، ولا تقبل له شهادة.

وقد أجاز بعض الفقهاء ترك السنن في السفر. وقال فقهاء آخرون يمكن ترك

السنن في السفر ما عدا سنة الفجر وسنة الوتر فيحافظ عليهما حضراً وسفراً. وقال آخرون يلزم أداء السنن في الحضر والسفر، والغريب أن الفقهاء الذين يقولون بأداء السنن في السفر هم من يقول بقصر الصلاة المفروضة في السفر!

عدد ركعات السنن الرواتب في اليوم والليلة عند الفقهاء

اختلف الفقهاء بينهم وكعادتهم، فقال بعض الشافعية والحنابلة، هي عشر ركعات، وقال بعض الشافعية الأكمل في الرواتب غير الوتر ثماني عشرة ركعة. وقال الشافعية والحنابلة أفضل الرواتب الوتر وركعتا الفجر، واستدلوا بخبر رواه أبو هريرة يقول: قال رسول الله: لا تدعوا ركعتي الفجر وإن طردتكم الخيل.

وقال الحنفية عدد ركعات السنن الرواتب اثنتي عشرة ركعة، واستدلوا بخبر ينسب إلى الرسول أنه قال: من ثابر على اثنتي عشرة ركعة في السنة بنى الله له بيتاً في الجنة. وتقول الحنفية يستحب أن يزاد على هذه الركعات أربع قبل العصر وأربع قبل العشاء وأربع بعدها، منهما ركعتان مؤكدتان، وست بعد المغرب، ليصل عدد السنن الرواتب عندهم إلى أربع وعشرين ركعة. وقال المالكية لا تحديد لعدد ركعات السنن الرواتب على أن لا تقل عن ركعتين مع كل صلاة مفروضة. وقال بعض الفقهاء تسن الصلاة قبل صلاة الجمعة وبعدها، ومنهم من قال يصلى أربع قبلها وأربع بعدها، ومنهم من قال بأقل ومنهم من قال بأكثر.

وأكثر الفقهاء الذين قالوا بصلاة السنة يوم الجمعة حملوها على أنها تحية للمسجد وليست من النوافل، والغريب أن هناك فقهاء كرهوا أن تؤدى أي سنة لصلاة الجمعة لا قبل ولا بعد، وعللوا سبب كراهيتهم لذلك أن صلاة الجمعة توافق الوقت الذي استوى الله فيه على العرش بعد أن انتهى من خلق الكون!! (وهو قول مقتبس من الإسرائيليات وإن حور يوم السبت للجمعة).

الوتر

قال بعض الفقهاء هو سنة مؤكدة، وقال البعض هو من السنن الرواتب. وقال بعضهم أقله ركعة وأكثره إحدى عشرة ركعة، وقال البعض أقل الكمال فيه ثلاث ركعات بتسليمة واحدة، وأكثره إحدى عشرة ركعة يقنت في الركعة الأخيرة. وقد ورد عن أبو حنيفة أن حكم الوتر واجب، وورد عنه رواية أخرى عن طريق زفر، أن الوتر فرض (أي أنه مثل الصلوات الخمس).

أين تصلى السنن الرواتب

الشافعية والحنابلة يقولون بأنه من الأفضل أداؤها في البيت. واعتمدوا على خبر ينسب إلى الرسول يقول فيه: صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا (إلا في المكتوبة). ويفضل الحنفية أداء السنن الرواتب في البيت. ويبدو أن أغلب الفقهاء يرون أداء السنن في البيت أفضل من المسجد، ما عدا صلاة التراويح لأنهم يؤدونها جماعة.

صلاة السنن الرواتب في جماعة أم فرادى

ترى الغالبية من الفقهاء أن تصلى فرادى وقالوا تكره الجماعة في النوافل، لأن شأن النفل الانفراد به، كما تكره صلاة السنن في جمع قليل بمكان مشتهر بين الناس كالمسجد. ما عدا التراويح فتصلى جماعة. وقال بعض الحنابلة يجوز صلاة السنن جماعة وفرادى مستدلين بأن النبي صلى بابن عباس مرة، وبأنس وأمه واليتيم مرة، وببعض أصحابه وعتبان مرة في بيت عتبان.

حكم قضائها إذا فاتت

للفقهاء أقوال كثيرة هنا، فالبعض قال تقضى كلها والبعض قال تقضى سنة الفجر والبعض قال سنة الظهر، والبعض قال لا يقضى منها شيء.

(هذا باختصار شديد، ونرجو أن يكون واضحاً، ما قاله الفقهاء عن النوافل والسنن الرواتب، اقتبسناه من المغني لابن قدامة ومن الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت).

والآن لنر هل يتوافق ما قاله الفقهاء مع ما شرع الله سبحانه وتعالى أم يختلف عنه.

النوافل في القرآن

يقول الفقهاء إن النافلة هي ما زاد على النصيب المقدر، أو الحق المفروض. وهو ما يعني أن السنن والنوافل زيادة عما فرض من الدين على المسلمين. وإذا كانت السنة في أصل اللغة تعني الطريقة والمنهج، سواءً كانت حسنة أم سيئة، محمودة أو مذمومة، فإن السنن الرواتب والنوافل قد تكون طريقة أو سنة مذمومة (أي بدعة سيئة) إذا ثبت أن الله لم يأمر بها.

وكل أمر، أمر الله به فهو من الدين وليس زائداً عليه، وكل أمر زائد عن تلك الأوامر الإلهية، فالله لم يأمر به وبالتالي فهو ليس من الدين.

وتعريف الفقهاء للنوافل والسنن لم يخرجها عن معناها اللغوي، فهم يقولون بأنها اسم للطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب. أي أن الله لم يفرض لها حكم إلهي، وإنما هي مما اعتاد الناس أداءه تحت مسمى ديني ولكن لا يوجد لها حكم شرعي ثابت بنص يقيني.

ويؤكد الفقهاء ذلك أيضاً بالنسبة إلى السنة حيث تطلق على الفعل الذي واظب الرسول عليه وليس هناك دليل قطعي على وجوبه، الأمر به. أي أن النوافل والسنن، والسنة ـ التي يقصد بها الخبر المنسوب إلى الرسول ـ كلها لا تقوم على دليل قطعي الثبوت، يأمر بها ويوجبها على المسلمين.

ونحن لن نعلق على كلام الفقهاء هذا لأنه لا يحتاج إلى تعليق، فقد احتفظوا بالأمانة الأدبية في تعريف النوافل والسنن، عندما اعترفوا ضمن تعريفاتهم أن النوافل والسنن والسنة كلها أمور ظنية، وزيادة في الدين، ليس لها حكم منزل من الله، قامت على أدلة ظنية غير قطعية الثبوت: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (يونس: ٣٦).

ودين الله وشرعه لا يقوم على الظن، ولا على ما يصدر من أقوال وأفعال البشر، ولو كان من محمد. لأنها أقوال وأفعال شخصية، ما لم تكن وحي من الله، نزل على شكل قرآن. وهذا ما تظهره آيات من سورة الإنعام بوضوح، قال تعالى: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (الآية: ١٠٦).

ثم تستمر الآيات في نفس السورة لتؤكد أن الدين هو ما يصدر من الله وحده فقط وبدليل قطعي الثبوت، وهو الذي تضمنه القرآن فقط لأنه كتب فيه كل شيء له علاقة بالدين والتشريع وبكل تفصيل، تقول السورة: أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الآيتان: ١١٤-١١٥).

وتقول الآية التالية بأن أي بشر كلامهم يعتمد على الظن، وهذا الظن لا يمكن

أن يكون حقاً، لأن الحق هو ما صدر عن الله وحده: وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (الآية: ١١٦).

وإذا كانت تعريفات النوافل والسنن والسنة، لغوياً وتلك التي عرفها بها الفقهاء، تدل على مضمونها، أفلا تندرج تحت الغلو في الدين، لأن أي زيادة مهما كانت بسيطة في الدين بغير ما شرعه الله فهو غلو مساو لأكبر درجات الغلو، ومماثل لقول بعض بني إسرائيل بأن عيسى ابن مريم ابن لله، أو أنه إله مع الله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (المائدة: ٧٧).

كما أنها ستندرج تحت القول على الله بغير حق: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أنفسكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (الأنعام: ٩٣).

وإذا كان الفقهاء قد اتبعوا الظن (أي الأدلة الظنية) في تشريعاتهم، أفلا يكونوا قد قالوا على الله الكذب (أي قولاَ غير مؤكد)، وتنطبق عليهم هذه الآية التي قيلت بحق بعض فقهاء بني إسرائيل: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٨).

وينطبق على الفقهاء هنا ما أوردته آيات في سورة القصص، التي تؤكد أن الله وحده هو الخالق لما يشاء وهو يختار ما يتناسب مع خلقه في كل شيء بما في ذلك التشريعات الدينية، لأنه يعلم بكل دقة ما يتناسب معهم، لمعرفته بمشاعرهم وأحاسيسهم وقدراتهم: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (القصص: ٦٨-٦٩).

وله سبحانه وحده الحمد في الدنيا والآخرة، فلا يرجع إلا إليه في تشريع وتصريف للكون وغيره: وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ

الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (القصص: ٧٠-٧١).

ثم تستمر الآيات لتقول بأنه في يوم القيامة سيسأل كل شخص اتبع تشريعاً غير تشريع الله وسيطلب منه أن يبحث عن ذلك المشرع البشري، الذي أشركه مع الله في الدنيا، إن كان سيتمكن من نصرته اليوم: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ (القصص: ٧٤-٧٥).

وهذا الموقف تكرره آيات أخرى في نفس سورة القصص، والتي تظهر رد المشرعين والذين كانت تشريعاتهم الظنية في الدنيا غواية لمن تبعها: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (القصص: ٦٢-٦٣).

وتكرر الآيات اللاحقة أن الذين غووا باتباع تشريعات البشر سيطلب منهم يوم الحساب البحث عمن سنوا تلك التشريعات وهل سيتمكنون من نصرتهم في ذلك اليوم: وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (القصص: ٦٤).

فأولئك المشرعون الذين تبعهم الناس وكأنهم شركاء لله في تشريعاته، لن يكون بإمكانهم يوم القيامة نجدة من تبعهم في الدنيا، وسيدخلون معهم النار، لأنهم تركوا وحي الله الذي نقله لهم الرسل واتبعوا ما شرعه لهم رجال الدين، ظناً ومن دون يقين: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (القصص: ٦٥-٦٦).

ويكون كل من تبع أقوال الفقهاء في مثل هذه المسائل، قد اتخذهم شركاء لله كما تقول هذه الآية: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (القصص: ٦٢).

ويكون الفقهاء هم المعنيين بالذين أغووا غيرهم، كما تقول هذه الآية الكريمة: قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (القصص: ٦٣).

ويكون التشريع الإلهي ما ثبت عن الإله بطريق قطعي الثبوت لا لبس فيه ولا شك، وكل تشريع يصدر بألفاظ شخصية، فليس بتشريع إلهي ولو كانت ألفاظ شخصية للرسول محمد أو غيره من الرسل، لأن الدين دين الله وتشريعه سبحانه، ولن يعجزه سبحانه أن يضمن الوحي المنزل على رسله كل تشريعاته المفروضة على الناس.

كما أن الرسول ليس أكثر من عبد لله مكلف بنقل رسالته وتشريعاته المتمثلة لنص الوحي الذي ينسخ في ذاكرته، ولا يملك الرسول إلا تبليغه كما هو دون أن يملك الحق في تعديله أو كتم بعضه أو الزيادة عليه، أو حتى صياغة بعضه بألفاظه الشخصية.

ويمكن أن نخلص إلى قاعدة بسيطة ولكنها واضحة يمكن صياغتها كما يلي: كل وحي ينزل على الرسول فهو قرآن، وكل ما ليس قرآناً فليس بوحي. وكل وحي فهو تشريع، وكل ما ليس بوحي فليس بتشريع. فإذا أمر الله بالصلاة خمس مرات في اليوم فليس للرسول الحق بالطلب من الناس أن يصلوا ستاً أو أربعاً، أو أن يزيدوا ما شاؤوا من الصلوات تحت مسمى سنن أو نوافل أو أي مسمى، فما بالك لو أن من أمر بالزيادة هم الفقهاء وليس الرسول. ومثلها الصوم والحج.

ولو شاء الله أن يشرع فروضاً ونوافل لذكر ذلك في محكم كتابه، ولقال بأن الحج للمرة الأولى فريضة والحج بعد ذلك له أجر كذا. وصوم رمضان فريضة والصوم في عاشورا أو في شوال أو غيرها لها أجر كذا. والصلوت الخمس فريضة وما زاد فله أجر كذا. ولكن الله لم يفعل، لأنه أراد من الناس التقيد بأوامر شرعه، والتقيد يعني عدم الإنقاص أو الزيادة عليها. فالصلاة أكثر من المفروض أو الصيام أكثر من المفروض أو الحج أكثر من المفروض مثل الإنقاص بأقل من المفروض، هذا هو معنى التقيد بأوامر ونواهي الشرع. والزيادة على شرع الله ليست خيراً بل هي غلو وقول على الله ما لم يقل.

والفقهاء هم من قال بأن من يؤدي النوافل والسنن فله أجر، ولكن لا أحد يستطيع أن يؤكد هذا الكلام، أو يقيم عليه الدليل على الإطلاق. وليس من بين الفقهاء من يستطيع أن يبين لنا ما هو الفرق بين ثواب السنة وثواب السنة المؤكدة، وثواب المستحب، وثواب المندوب. وليس منهم من يستطيع أن يبين لنا ما

المقصود بحكم المكروه؟ وهل هذا يعني أن الله يكره من عباده من يقدم على المكروه الذي صنفه الفقهاء بأنه مكروه، أم أنه مكروه لدى الفقهاء وليس عند الله. وهل إذا كره الفقهاء شيئاً يمكنهم أن يدرجوه من المكروهات في تشريع الله، وهل هذا يعني أنهم يتطلعون إلى أن يستجيب الله لتدخلهم هذا وبالتالي سيكره فاعل المكروه الفقهي؟ استغفر الله!

ثم إن دين الله وتشريعاته واضحة كالمحجة البيضاء، وكل ما فيه لبس أو ظن أو شك أو اختلاف فليس من دين الله. فكل أمر في كتاب الله له أجر واضح ومنصوص عليه في القرآن، ومن خالفه فعقابه جهنم. وكل نهي في القرآن فله عقاب واضح ومنصوص عليه، ومن تجرأ وفعله فعقابه جهنم، وليس هناك في دين الله تشريعات أو أحكام لتشريعات باللون الرمادي أو بين بين أو فيها خلاف واختلاف.

فلا يوجد في شرع الله اليقيني الثبوت، عدة أحكام لأمر واحد أو نهي واحد، مثلما يوجد في تشريعات الفقهاء حول حكم النوافل والسنن. فالله سبحانه لا يمكن أن يقول بأن الوتر سنة مؤكدة مرة، ثم يقول بل هو فرض مرة أخرى، وفي مرة ثالثة يقول هو واجب، ولكن الفقهاء هم الذين قالوا بذلك. ولا يوجد في شرع الله فرائض وتشريعات غير واضحة ولا محددة، مثلما هو الوضع في تشريعات الفقهاء في النوافل والسنن، فمن قائل هي اثنتا عشرة ركعة، وآخرون قالوا أكثر من ذلك، وغيرهم قال أقل.

ولن نتتبع كل أدلة الفقهاء في السنن والنوافل ولكننا سنتعرض لدليلين سيكونان كافيين لدعم ما ذكرناه في الأسطر السابقة:

الدليل الأول

حديث مشهور ومتداول، هو حديث ضمام بن ثعلبة، ذلك البدوي الأشعث الأغبر الذي قدم على الرسول وسأله عن العبادات، فأخبره الرسول بأن هناك خمس صلوات في اليوم والليلة وصوم شهر رمضان من كل عام وأن تحج إن استطعت مرة واحدة، فتعهد ضمام للرسول بأن يؤدي هذه العبادات دون زيادة أو نقصان، فلما أدبر قال رسول الله لقد أفلح إن صدق في تعهده. ولم يقل الرسول له إن عليه نوافل وسنناً على الإطلاق. وقد جاء الحديث في كل كتب الحديث

وروي بصيغ مختلفة، ولكنه يصور حادثة واحدة هي قدوم ضمام إلى الرسول، وهذا نص ما ورد في مسند أحمد برقم (٢٣٨٤): حدثنا عبدالله حدَّثني أبي ثنا يعقوب ثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدَّثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب ـ مولى عبدالله بن عباس ـ عن عبدالله بن عباس قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غريرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا ابن عبد المطلب قال: محمد؟ قال: نعم، فقال: ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلِّظ في المسألة فلا تجدن في نفسك؟ قال: لا أجد في نفسي فسل عمّا بدا لك، قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ فقال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم، قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولى إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة، وفي رواية حديث الترمذي رقم (١٥٨٥) أن ضماماً قال: والذي أكرَمَكَ لاَ أتطوعُ شَيْئاً وَلاَ أنقِصُ مما فرضَ اللَّهُ عليَّ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلّم: أفلَحَ وأبيهِ أنْ صَدَقَ، أوْ، دَخَلَ الجنةَ وأبيهِ إنْ صَدَقَ.

ولو كان هناك سنن ونوافل لقال له الرسول إستزد من النوافل ولك كذا من الأجر، بدل أن يقول أفلح وأبيه إن التزم بالفرائض فقط.

ويبدو أن قدوم ضمام بن ثعلبة على الرسول كان في عام الوفود أي بعد السنة التاسعة للهجرة، وليس كما نقل ابن حجر العسقلاني في فتح الباري نقلاً عن الواقدي بأنه كان في سنة خمس للهجرة، لسببين:

الأول: أن أول وفد للقبائل قدم على الرسول كان وفد ثقيف في السنة التاسعة للهجرة، ومن بعده تقاطرت وفود القبائل، ومنهم ضمام بن ثعلبة كوافد عن قومه بني سعد بن بكر.

الثاني: أن الخبر ذكر فيه الحج، والمسلمون لم يحجوا قبل السنة التاسعة، وهو عام الوفود أيضاً، وبالتالي فمن يسلم قبل أن يؤدي المسلمون الحج لأول مرة لن يسأل عن الحج الذي لم يأت بعد.

وبطبيعة الحال هذا الخبر لم يترك كما هو لأنه سيلغي تشريع الفقهاء حول السنن والنوافل، ولذلك نجد روايات أخرى تقول بأن الرسول كان يستدرك على الرجل في كل مرة يسأله، فيقول خمس صلوات إلا أن تتطوع، صوم رمضان إلا أن تتطوع... وهكذا. ومن ذلك خبر رواه أبو داوود برقم (٣٩١)، وهذا نصه: حدثنا عَبْدُالله بنُ سَلَمَةَ عن مَالِكٍ عن عَمِّهِ أبي سُهَيْلِ بنُ مَالِكٍ عن أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِالله، يقولُ: «جَاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا فإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عن ألإسلام، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: خَمْسُ صَلَوَاتٍ في الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. قال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرَهُنَّ؟ قال: لاَ إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ. قال: وَذَكَرَ لَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ. قال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قال لا. إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ. قال: وَذَكَرَ لَهُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الصَّدَقَةَ. قال: فَهَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ. فأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَالله لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ولا أَنْقُصُ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ.

والملاحظ أن عبارة «إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ» مضافة على أصل الخبر عمداً لأن من أضافها وحرص على تكرارها لم يفطن أن يعدل آخر الخبر بما يتناسب مع هذه الإضافة، حيث أبقى على عبارة «فأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَالله لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ولا أَنْقُصُ». فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَفْلَح إِنْ صَدَقَ.

لأن قول ضمام بأنه لا يزيد ولا ينقص ينطبق على خمس صلوات فقط، وصوم

رمضان فقط، وحج مرة واحدة فقط، ولكن لو كان هناك صلوات وصوم وحج إضافية، وقد ذكرها الرسول له من باب أن يؤديها ليكسب بها أجراً إضافياً، فسيتعهد الرجل للرسول بأن يصلي الخمس وما يستطيع من سنن، وسيصوم رمضان وما يستطيع من سنن، وسيحج الفرض وسيكرره إن استطاع كنافلة، ولكنه لم يقل ذلك.

كما أن الرسول لو كان قد ذكر «التطوع» لضمام بن ثعلبة، وهو الرجل الذي ظهر حرصه على أن يعرف بالضبط ما هو المطلوب منه لله ليفعله، لحاول أن يستفسر من الرسول عن تلك السنن (التطوع) وكيف ومتى يؤديها، وكل ما يتعلق بها من معلومات، ولا يكتفي بقوله سأفعل وهو لا يدري كيف سيفعل.

وما يؤكد عدم وجود تطوع (سنن ونوافل للعبادات) أن الطبراني قد روى في الأوسط عن أبي سلمة خبراً ينسب إلى أبي هريرة أن رسول الله قال: من لم يوتر فلا صلاة له. وقد بلغ هذا الخبر أم المؤمنين عائشة، فقالت متسائلة: من سمع هذا من أبي القاسم؟ ما بعد العهد وما فنينا (أي أن عهدها برسول الله قريب، ولم تمت بعد) ثم تقول أم المؤمنين: إنما قال أبو القاسم: من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة يحافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها، لم ينقص منه شيء، كان له عند الله عهداً ألا يعذبه. ومن جاء وقد أنقص منهن شيئاً فليس له عهد عند الله، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه. انتهى.

فلا وجود للوتر في شرع الله، ولم تعرفه أم المؤمنين عائشة، ولكن الفقهاء اعتبروه سنة وواجباً بل وفرضاً. كما أنه لا وجود لسنن ونوافل أخرى للصلاة أو الصيام أو الحج.

الدليل الثاني

حديث يستدل به بعض فقهاء الشافعية والحنابلة، في أن السنن الرواتب عشر ركعات، وهذا الحديث ورد في أكثر من كتاب من كتب الحديث، بالصيغة نفسها تماماً والسند نفسه حيث يرويه هشيم عن خالد المعنى عن عبدالله بن شقيق الذي ينقله عن أم المؤمنين عائشة. وهذا التوافق في صيغة الخبر وفي السند بين عدد من كتب الحديث لخبر واحد، ليس فقط يقويه، بل إنه قليلاً ما يحصل لحديث. وهذا

نصه: حدّثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى. أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عَبْدِاللّهِ بْنِ شَقِيقٍ. قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، عَنْ صَلاَةِ رَسُولِ اللّهِ، عَنْ تَطَوُّعِهِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعاً. ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ. ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الْمَغْرِبَ. ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ الْعِشَاءَ. وَيَدْخُلُ بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. وَكَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ تِسْعَ رَكَعَاتٍ. فِيهِنَّ الْوِتْرُ. وَكَانَ يُصَلِّي لَيْلاً طَوِيلا قَائماً. وَلَيْلاً طَوِيلاً قَاعِداً. وَكَانَ إِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ، رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَائِمٌ. وَإِذَا قَرَأَ قَاعِداً، رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَاعِدٌ. وَكَانَ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، صلى رَكْعَتَيْنِ (مسلم: ١٦٤٩).

وهذا الحديث لا يمكن أن يستدل به على أن هناك سنناً مطلوبة من المسلمين وعددها عشر ركعات كما قال الفقهاء، لأنه ليس فيها أمر ولا تحبيذ من الرسول للناس بأن يقتدوا به، ولأن الشاهدة عليه، وهي أم المؤمنين عائشة، لم تقل بأنها كانت تصلي تلك الصلوات لا مع الرسول ولا بعده أو قبله، ولم ينكر عليها الرسول ذلك، ولم يطلب منها أن تفعل (إلا إذا كان الفقهاء يرون أن السنن والنوافل قصر على الرجال وليست للنساء).

ويكون الخبر روته أم المؤمنين لتخبر أن الرسول كان يصلي صلوات إضافية، غير تلك الصلوات الخمس التي فرضت على المسلمين[1]. وهذه الصلوات الخاصة والزائدة عن الصلوات المفروضة وقف على رسول الله دون سائر المسلمين.

ومن الآيات التي تبين بكل جلاء أن محمداً رسول فقط لا يستطيع أن يقول شيئاً في سبيل الدعوة لله بغير ما يقوله القرآن، قوله تعالى مخاطباً محمداً بعد أن شعر بالضيق من عدم تصديق قومه لدعوته: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فإن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (هود: ١٢-١٤).

---

(١) وقد تحدثنا عن هذه الصلوات الخاصة بالرسول بإسهاب في فصل برنامج التأهيل النفسي والإرشاد الإلهي.

ثم أليس من شرع تشريعاً خارج قرآن الله وكأنه نصب نفسه رباً مع الله ومن أطاعه فقد اتخذه رباً مع الله: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (الأنعام: ١٦٤).

وهل يحتاج القرآن إلى إضافات، والله يشهد بأن فيه تفصيل كل شيء: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف: ١١١).

والإسلام يقوم على تشريعات متنوعة وكثيرة، وتشريعات العبادات في الإسلام بسيطة وواضحة، وهي محددة بثلاثة أنواع من العبادات فقط، هي:

عبادة تؤدى يومياً وهي الصلوات الخمس. وهي لازمة ما دام الإنسان قادراً على ذلك ذهنياً، ولو كان عاجزاً بدنياً.

عبادة تؤدى مرة واحدة في العام وهي صيام شهر رمضان. ويمكن للمريض أو المسافر أن يفطر ويقضي فيما بعد.

وعبادة تؤدى مرة واحدة في العمر، وهي الحج والعمرة. وهذه تسقط إذا كان الإنسان غير قادر على أدائها مادياً ومعنوياً وأمنياً وبدنياً أو لأي مانع آخر.

وهذه هي العبادات الثلاث المطلوبة في الدين، ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يزيد فيها ولا ينقص. فلا يجوز أن يصلي الإنسان أربع أو ست مرات في اليوم بدل خمس، كما لا يجوز له أن ينقص في سجدات الصلاة الواحدة أو ركوعها أو وقوفها، ولا أن يزيد فيها بأقوال ليست منها. ولا يجوز أن يزيد فيما يقال في أوضاعها، فلا يقول غير سبحان ربي الأعلى للسجود، ولا يستطيع أن يبدل ذلك بأي دعاء غيره، أو يقول سبحان ربي الأعلى في وضع آخر غير السجود وهكذا.

كما لا يجوز أن يستبدل صيام رمضان بشهر غيره، أو يبدأ الصوم من الظهر إلى منتصف الليل، مثلاً. ولا يجوز الحج في غير أشهر الحج، كما لا يجوز القيام بأفعال في الحج ليست منه بدل أفعال مفروضة له.

لأن كل هذه العبادات شرعها الله سبحانه وتعالى وقررها بصورتها وأوقاتها وهيئتها وما يقال فيها وما يفعل. وهو سبحانه أحكم الحاكمين، ولذلك فمن زاد على

شرع الله فكأنما أنقص منه، ويكون قد خالف الشرع وخرج عن أوامر الله. لأن أوامر الله وشرعه جاءت لكي تطاع ويلتزم بها كما شرعت بكل دقة، دون زيادة أو نقص. ولو أراد الله أن يفرض صلوات أو صوماً أو حجاً أكثر مما فرض لفعل.

ولأن من لم يؤدِّ صلاته كما يجب من خشوع واستحضار وتدبر فيما يقول في كل وضع من أوضاع الصلاة، فلن يكمل تلك النواقص في الصلاة لو صلى بعدها أو قبلها عشرات الصلوات، التي سماها الفقهاء سنناً ونوافل. وذلك لأن الله فرض الفروض، وطلب أن تؤدى بصورة صحيحة وسيحاسب الإنسان على مدى تأديته للصلاة المفروضة بالشكل المطلوب، ولم يقل سبحانه بأن النوافل أو السنن متممة للصلوات المفروضة بحيث كلما زادت سدت فرجة أو نقصاً في الصلاة المفروضة.

ثم إن الله سبحانه لحكمة لا نعلمها جعل الصلوات المفروضة خمس، ولو اقتضت حكمته أن يجعلها أقل أو أكثر لفعل، ولذلك يجب على الإنسان أن يتقيد بعدد الصلوات المفروضة ولا يزيد عليها، مثلما عليه ألا ينقص منها. لأن تقيده هذا جزء من اتباع شرع الله وتنفيذه بالصورة التي طلبها الله سبحانه، أما الزيادة عليها أو النقص منها فمعصية لأمر الله وخروج عن تشريعه.

وإذا كان يكفر بشرع الله من قال بأن أداء أربع صلوات في اليوم بدل خمس كاف وإن نقص الأجر قليلاً، فإن الشيء نفسه ينطبق عليه لو قال إن على الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس صلوات في اليوم، ولو ركعة واحدة. أو قال بأن أداء صلوات إضافية غير الصلوات الخمس المفروضة تفيد بإتمام النواقص التي قد تكون حدثت من المصلي في صلاته المفروضة.

وما ينطبق على الصلوات ينطبق على الصيام، فمن قال يكفي أن نصوم تسعة وعشرين يوماً من أصل ثلاثين في الشهر الكامل، فمثله من قال إن صيام شهر رمضان يكمل بصيام أيام أخر ولو كان يوماً إضافياً واحداً. ومثله من قال بأن صوم النوافل يكمل ما قد يكون طرأ على صوم الفرض من نواقص، أو أن صوم النوافل يكمل أجر الفرض.

ومثله من قال بأن حج البيت مرة واحدة واجبة، ولكن تكراره فضل وزيادة في الخير، وهو كمن يقول بالاكتفاء بالعمرة عن الحج، أو بالحج عن العمرة، مع القدرة.

وكل صلاة أو صيام أو حج غير المفروضة من الله إنما هي من اجتهادات الفقهاء وليس من شرع الله، وكله يمكن تفنيده وإثبات عدم شرعيته، لأنه يعتمد على أدلة ظنية يسهل اختراقها وتعريتها، بينما ثبت تشريع الصلوات الخمس وصوم رمضان والحج والعمرة لمرة واحدة في كتاب الله ولا مجال للإنسان إن كان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا أن يؤديها. أما ما يسمى بالسنن والنوافل ففيها اختلاف كثير، وليس لها أصل يقيني ثابت.

وحتى لو افترضنا أن هناك ما سماه الفقهاء بالسنن التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، فلو تركها الإنسان فلن يسأله الله عنها، ولن يدخل النار بسبب ذلك، وإن فعل هذه «السنن» فله أجر السنن والنوافل، والذي هو فضل من الثواب أي ليس ثواباً يدخل صاحبه الجنة وينجيه من النار.

لكن لو أن أقوال الفقهاء في السنن والنوافل لم تكن صحيحة، فإن كل من صلى وصام وحج على شكل سنن ونوافل، فإنه قد زاد في دين الله ما ليس فيه، وشرع على دين الله ما لم يشرعه الله، وهذا لن يثيب الله فاعله بل ستكون جهنم نصيبه، حتى ولو كان ما أضافه قليلاً جداً، لأنه أضاف للدين ما ليس في الدين وقال على الله غير الحق، وهو ما حذر الله عنه بني إسرائيل: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأرض وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (النساء: ١٧١).

المثال الثاني: صيام ست من شوال

يعتمد الفقهاء الذين يرغّبون الناس في صيام ستة أيام في شوال على خبر نسب إلى الرسول، ونصه: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِسِتَ مِنْ شَوَّالَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ، أو فَكَأَنَّمَا صَامَ السَّنَةَ كُلَّهَا.

وهذا الخبر لم يرد في كتاب البخاري، وأورده مسلم، وكرره أحمد في مسنده، والترمذي والدارمي وأبو داوود. وقد ورد الخبر إما عن طريق سعد بن سعيد الأنصاري، الذي ينسب منه الخبر إلى عمر بن ثابت، ثم إلى أبي أيوب

الأنصاري. أو عن طريق سعيد بن أبي أيوب ومنه نسب إلى عمرو بن جابر الحضرمي عن جابر بن عبدالله في عدد من الروايات في مسند أحمد. وعمرو بن جابر الحضرمي من غلات الشيعة كما ورد في تاريخ الثقات للعجلي.

وقد أورد مالك في الموطأ خبراً أظهر بجلاء كيف بدأت فكرة صيام ستة أيام شوال بين الناس وكيف كان موقف الفقهاء والناس المتدينين منها، ثم توقعاته في أن هذه البدعة سوف تتحول مع الأيام إلى فضيلة تقرب من الفريضة.

وهذا نص ما ورد في الموطأ: قَالَ يَحْيَى: وَسَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ فِي صِيَام سِتَّةِ أَيَّام بَعْدَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ إِنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَداً مِن أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ يَصُومُهَا وَلَمْ يَبْلُغْنِي ذلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ وَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ ذلِكَ وَيَخَافُونَ بِدْعَتَهُ وَأَنْ يُلْحِقَ بِرَمَضَانَ مَا لَيْسَ مِنْهُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ لَوْ رَأَوْا فِي ذلِكَ رُخْصَةً عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَرَأَوْهُمْ يَعْمَلُونَ ذلِكَ (الموطأ: ٦٩٣) انتهى.

وكتاب الموطأ قام مالك بتأليفه بتكليف رسمي من أحد خلفاء بني العباس وأغلب الظن أنه المنصور الذي طلب منه أن يضع كتاباً للناس يحملهم على الاستشهاد بما جاء فيه من أحاديث وترك ما عداها مما كان منتشراً بين الناس ويتناقلونه من أحاديث. ويعتبر أقدم كتب الأحاديث الموجودة لدينا الآن، وتأليفه سبق تأليف البخاري لكتابه بنحو مائة عام.

وقد صدق حدس مالك، فقد بدأ في زمانه ينتشر بين الناس صيام الستة أيام من شوال، مع إنكار الفقهاء (أهل العلم) له باعتباره بدعة لم يفعلها السلف، ولكن هذا لم يمنعه من الانتشار.

ولما جاء البخاري لم ينقل في كتابه أي خبر يرغب في هذا الصيام لأن أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ (كما سماهم مالك) لم يلحقوه برمضان بعد.

ولكن مسلم الذي جاء بعد البخاري قام بذكر خبر ذلك الصيام في كتابه، فكان أن تبعه في ذلك غيره، مما جعل الفقهاء الذين جاؤوا في عصور لاحقة، يعتقدون بأن ورود الخبر في كتب مسلم والترمذي والدارمي وأبي داوود يعني أن الرسول والصحابة قد صاموه بأمر من الله، فصامه (أهل العلم) الذين كانوا ينكرونه في عهد مالك، وأوصوا غيرهم بصيامه.

واليوم، فصيام ستة أيام من شوال يقرب في فضله بين الناس من فضل صيام رمضان، على الأقل عند بعض المسلمين. وينظر إلى الشخص الذي لا يصوم هذه الأيام الستة، على أنه ترك عبادة من العبادات، ولم يعد أحد يجرؤ على القول بأن هذا الصيام بدعة كما قال عنه مالك، وإلا لتعرض للاتهام بالمروق من الدين وحوكم على مقولته.

المثال الثالث: صلاة التراويح

تعرف الموسوعة الفقهية التي تطبعها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، صلاة التراويح بما يلي: هي قيام شهر رمضان، مثنى مثنى، على اختلاف بين الفقهاء في عدد ركعاتها، وفي مسائلها.

حكمها عند الفقهاء

تقول الموسوعة: اتفق الفقهاء على سنية صلاة التراويح، وهي من أعلام الدين الظاهرة. وقالوا بأن من سنها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغب فيها. واستدلوا على ذلك بحديث رواه عدد من كتاب الحديث، وهذا أحد نصوصه والذي جاء برقم (١١١٢) في البخاري: حدَّثنا عبدُاللهِ بنُ يوسُفَ قال أخبرَنا مالكٌ عن ابن شهابٍ عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلَّى ذاتَ ليلةٍ في المسجدِ فصلَّى بصلاتِهِ ناسٌ، ثمَّ صلَّى منَ القابلةِ فكثُرَ الناسُ، ثمَّ اجتمعوا منَ الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ فلم يَخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فلمَّا أصبح قال: قد رأيتُ الذي صنَعْتم، ولم يمنَعْني منَ الخروجِ إليكم إلاّ أني خشيتُ أن تُفرَضَ عليكم، وذلك في رمضان. انتهى النقل من الموسوعة.

وأول ما يتبادر للذهن من تساؤل هو: متى سنها الرسول ومتى رغب فيها، إذا كانت كتب الحديث تورد نهيه عليه الصلاة والسلام عنها وعن فعلها؟

ولذلك لم يصلها أحد من الصحابة زمن رسول الله، باستثناء أولئك النفر الذين لم يذكر من أسمائهم أحد، ولم يصلها أحد زمن أبا بكر، ولم تورد كتب الأخبار أن أحداً من كبار الصحابة بالاسم قد صلاها.

وتقول الموسوعة إن عمر هو الذي جمع الناس فيها على إمام واحد، وهذا

الخبر الذي استدلوا به على ذلك: عنِ ابن شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عبدِ الرحمنِ بن عبدٍ القاريِّ أنهُ قال: خرَجتُ معَ عُمرَ بن الخَطّابِ رضيَ الله عنهُ ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ فإذا الناسُ أوزاعٌ مُتَفَرِّقونَ يُصلِّي الرجلُ لنَفْسِهِ، ويُصلِّي الرجُلُ لنفسه ويُصَلِّي الرَّجُلُ فيُصلِّي بصلاتِهِ الرَّهطُ. فقال عمرُ: إني أرَى لو جَمعتُ هؤلاءِ على قارئٍ واحدٍ لَكانَ أمْثَلَ. ثمَّ عَزمَ فجمَعَهم على أبي بنِ كعبٍ. ثمَّ خَرَجتُ معهُ ليلةً أخرى والناسُ يُصَلُّونَ بصلاةِ قارِئهم، قال عمرُ: نِعْمَ البِدْعةُ هذهِ، والتي يَنامونَ عنها أفضَلُ منَ التي يَقومونَ ـ يُريدُ آخرَ الليلِ ـ وكان الناسُ يَقُومونَ أوَّلَهَ (البخاري: ١٩٨٦).

ولم أجد لعبد الرحمن بن عبد القارئ ذكر في الكتب التي تترجم للصحابة مثل أسد الغابة والإصابة ولا في كتب السير كسيرة ابن هشام ولا في كتب التاريخ مثل الطبري والكامل، ولا في كتب الرجال كلها.

وتزيد الموسوعة الفقهية: وروى أسد بن عمرو عن أبي يوسف قال: سألت أباحنيفة عن التراويح وما فعله عمر، فقال: التراويح سنة مؤكدة، ولم ينخرص عمر من تلقاء نفسه، ولم يكن مبتدعاً، ولم يأمر به إلا عن أصل لديه وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد سن عمر هذا وجمع الناس على أبي بن كعب فصلاها جماعة والصحابة متوافرون من المهاجرين والأنصار وما رد عليه واحد منهم، بل ساعدوه ووافقوه وأمروا بذلك (فتح القدير ١/ ٣٣٣، الاختيار ١/ ٦٨-٦٩، المنتقى ١/ ٢٠٧).

وعن عدد ركعاتها فهناك خلافات كثيرة بين الفقهاء يمكن إيجاز أقوالهم حولها بأنها تكون فيما بين عشر ركعات إلى أربعين ركعة. وقال بعض الفقهاء إن صلاتها في البيت أفضل من صلاتها في المسجد بينما قال آخرون بصلاتها في المسجد. وهناك أحد آراء الحنفية أن من فاتته صلاة التراويح فعليه أن يقضيها ما لم يدخل وقت تراويح أخرى، وقيل ما لم يمض الشهر.

هذا باختصار أهم ما جاء عن التراويح، فهل هناك في الإسلام فعلاً صلاة تراويح، وهل صلى الرسول التراويح؟ وإذا كان صلاها ومنعها فهل من حق غير رسول الله أن يعيد سنها بعد أن منعها الرسول؟

وللإجابة عن هذين التساؤلين نقول: سنسلم أن الرسول قد صلى مرة في

مسجده الملاصق لحجرات زوجاته في إحدى الليالي الرمضانية، وإن كان من المحال أن ندري في أي سنة هجرية كان ذلك. ولكن بما أن رمضان فرض، كما يقال، في السنة الثانية للهجرة، فسنفترض أن هذه الحادثة قد جرت في أول رمضان يصومه الناس. ويكون نفر من الناس كانوا قريباً من مسجد رسول الله، ولما رأوه يصلي صلوا بصلاته ظناً منهم أنها مما يجب عليهم فعله في شهر الصوم الجديد عليهم.

ولما شعر بهم الرسول لم يكمل صلاته ودخل بيته، في إشارة إلى أنه ليس عليهم أن يصلوا بصلاة الرسول تلك. ولكن يبدو أن أولئك النفر لم يفهموا إشارة الرسول، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن بين لهم بكل وضوح، في ليلة لاحقة، وبما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه الصلوات ليست مفروضة عليهم ولا يلزمهم صلاتها، عندما لم يخرج بعد ذلك للصلاة في المسجد، وعندما قال لهم بصريح العبارة ألا يصلوها، خوفاً من يأخذ بها الناس ويواضبوا عليها، فيكون هو صلى الله عليه وسلم من فرضها عليهم ولم يأمرهم الله بها، أو أن الناس سيتناقلونها ويواظبون على أدائها وكأنها مفروضة، مع أن الله لم يفرضها. وهذا هو معنى «خشيتُ أن تُفرَضَ عليكم» وليس المعنى أن الله سيفرضها على الناس إذا داوموا عليها لأن تشريعات الله ليست ارتجالية، ولأنه سبحانه لا يحتاج إلى من يوحي له بما يفعل (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ولو صلى الناس ست صلوات كفريضة وداوموا على ذلك فلن يأتي الوحي من الله ليعدل الصلوات من خمس إلى ست لأن الناس داوموا على أداء ست صلوات.

ويبدو أن أولئك النفر ليسوا من كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار، وإلا لذكرت أسماء البعض منهم، وقد يكونوا من أصحاب الصفة، وهم نفر من الفقراء والمساكين الذين ليس لهم ذكر في الصحابة والذين لا يجدون مأوى فيبيتون في صفة (حجرة أو غرفة) في مسجد رسول الله، ولذلك سهل عليهم ملاحظة الرسول عندما قام يصلي، وصلّوا بصلاته، كما أن هذا يفسر حضورهم في الليلة التالية والتي تليها حتى أوقفهم الرسول ومنعهم من أدائها. وممن كان من أهل الصفة: طهفة ويقال طخفة والحارث بن نبيه، وجرهد بن خويلد بن بجرة بن عبد ياليل، وغرفة الأزدي، وطلحة بن عمرو النصري، وغيرهم، كما ورد في كتاب الإصابة

في تمييز الصحابة، وأسد الغابة في معرفة الأصحاب، والذين ليس لهم ذكر في الصحابة كما أسلفنا.

والرسول، وبنص القرآن، كان مطالباً بصلوات وأذكار وقراءة للقرآن خلال الليل، دون سائر المسلمين، وذلك لكي يساعده ذكر الله والصلاة على تحمل أعباء الدعوة ومشاقها والصبر على أذى المشركين، كما سبق وذكرنا في فصل برنامج التأهيل النفسي والإرشاد الإلهي.

وتكون تلك الصلاة التي رأى نفر من الناس الرسول يصليها في إحدى الليالي الرمضانية، والتي نهاهم الرسول عن أدائها، معه أو منفردين، هي صلاة خاصة بالرسول ولا شأن للناس بها.

والآن لنرى ما الذي نسبته كتب الأخبار إلى عمر بن الخطاب فيما يخص ما سمي بصلاة التراويح.

يقول نص الخبر، كما سبق ذكره: عنِ ابن شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عبدِ الرحمنِ بن عبدٍ القاريِّ أنهُ قال: خرَجتُ معَ عُمرَ بنِ الخَطّابِ رضيَ الله عنهُ ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ فإذا الناسُ أوزاعٌ مُتَفَرِّقونَ يُصلِّي الرجلُ لنَفْسِهِ، ويُصلِّي الرجُلُ لنفسه ويُصَلِّي الرَّجُلُ فيُصلِّي بصلاتِهِ الرَّهطُ. فقال عمرُ: إني أرَى لو جَمعتُ هؤلاءِ على قارئٍ واحدٍ لَكانَ أمْثَلَ. ثمَّ عَزمَ فجمَعَهم على أبي بنِ كعبٍ. ثمَّ خَرَجتُ معهُ ليلةً أخرى والناسُ يُصَلُّونَ بصلاةِ قارِئهم، قال عمرُ: نِعْمَ البِدْعةُ هذهِ.

فإذا كان عمر بن الخطاب لم يصلِّ هذه الصلاة طوال زمن رسول الله وزمن خلافة أبي بكر، ولم يصلها بنفسه عندما رأى الناس في خلافته يصلونها، ولم يصلها بعدما أمرهم بصلاتها جماعة «على افتراض أنه أمرهم»، فهل يعقل أن يأمر الناس بصلاة هو لم يقم بأدائها طوال عمره مرة واحدة؟

وقد سبق وذكرنا أن أبا حنيفة نسب عنه تلميذه أبو يوسف ما يلي: وروى أسد بن عمرو عن أبي يوسف قال: سألت أبا حنيفة عن التراويح وما فعله عمر، فقال: التراويح سنة مؤكدة، ولم ينخرص عمر من تلقاء نفسه، ولم يكن مبتدعاً، ولم يأمر به إلا عن أصل لديه وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى.

فإذا كان عمر قد أمر الناس بعهد من الرسول كما نسب إليه أبو حنيفة هنا، فلماذا انتظر حتى رأى الناس يصلون وجمعهم على أدائها جماعة، ولماذا لم يأمرهم بذلك بمجرد أن استلم الخلافة؟

ولماذا لم يبلغ أبا بكر بما لديه من عهد من الرسول؟ وإذا كان عمر هو من جمع الناس على صلاة التراويح فلماذا لم يصلها بنفسه؟ ولماذا ترك إمامة المسلمين لأبي بن كعب وهو إمامهم بحكم كونه الخليفة، والخليفة في ذلك العصر كان هو إمام المسلمين في مسجد رسول الله.

ولكن يبدو أن من وضع الخبر ونسبه إلى عمر، قد وضعه في زمن لم يعد الخليفة هو من يؤم الناس في الصلاة، ولذلك لم يفطن إلى أنه قد ارتكب خطأ بزعمه أن عمر لم يؤم الناس، وإنما أمر أبي بن كعب ليكون إماماً.

ثم إن كانت تلك الصلاة بدعة، فكيف سمح عمر للناس بمزاولتها وهو الذي ضرب عدداً من الصحابة لأنهم يحدثون عن الرسول. وحتى لو قال عمر للناس صلوا جماعة في صلاة يعلم هو قبل غيره أنها بدعة، فهل من الشرع طاعة عمر؟

وهل لو أطاعه الناس فإن تلك البدعة ستتحول إلى سنة؟ أم أن عمر لو كان فعل ذلك، وهو لا يمكن أن يكون فعل، لأثم بتصرفه وتشجيعه للناس، وأثم الناس بصلاتهم وطاعة عمر، لأن عمر ليس نبياً يوحى إليه، ولا يستطيع تشريع صلاة لم يفرضها الله على الناس. ولو أن هذا ما حدث فسيأثم كل من يصلي تلك الصلاة لأنه جعل عمر رباً من الأرباب من دون الله.

وإلا فالعبادات المفروضة من الله، لا يخفيها الله عن الناس إن كان سيطالبهم بها أو حتى سيثيب من يفعلها منهم. والدين ليس فيه اسرار يعلمها عمر وتخفى على أبي بكر، أو غير أبي بكر.

ولكن يبدو فعلاً أن الناس تناقلوا أخباراً عن صلوات الرسول الخاصة التي كلفه القرآن بها لوحده، وذكرنا بعضاً منها، والتي تندرج تحت إطار تهيئة الرسول لتحمل أعباء الدعوة، وبعد توسع «الفتوح» ودخول الملايين في الإسلام من دون تعمق في تشريعاته أو فهم كامل لها، جعل بعضهم يبحث عن أي خبر يتحدث عن أي عبادة كان الرسول يؤديها غير ما فرض على المسلمين، ومن ثم يحاول أن يقوم بها ويأمر الناس بفعلها، تأسياً برسول الله. فجاء ما سمي في الفقه بالسنن، والسنة

اصطلاح فقهي محض من صنع الفقهاء، فليس في كتاب الله سنة وندب وسنة مؤكدة وغيرها من هذه المصطلحات التي لم يقل بها الرسول ولم يعلم بها طوال حياته، كما لم يعلم أو يسمع بها الناس في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. ولا يستطيع أحد من الفقهاء من أن يدعي أنه لقي وحياً أو كلمه الله، وأخبره أن السنن يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، وأن المكروه يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله، وغير ذلك من مصطلحات فقهية شرعها الفقهاء ولم يعلم بها رسول الله.

المثال الرابع: صيام عاشوراء

تكرر ذكر صيام عاشوراء عشرات المرات في كل كتب الحديث المعروفة عند السنة، بروايات مختلفة ومتفاوتة، وذلك عائد إلى أن كتّاب الحديث بلا استثناء يدونون ما يجدونه متداولاً بين الناس من أحاديث، مهما كانت متعارضة، دون تمحيص لمتونها. لأن مهمتهم تتوقف عند تدوين ما يعتقدون أنه حديث قاله الرسول، وليس لهم من دليل يثبت صلته به عليه الصلاة والسلام أكثر من كون الحديث مشهوراً ومتداولاً بين الناس في الزمن الذي عاش فيه المؤلف. فكان أفضل ما يقوم به الكاتب هو اختيار أفضل الأسانيد المتوفرة للخبر وقت تدوينه، أو إيراد عدة أسانيد لخبر واحد ليدعم بعضها بعضاً. وكلما اشتهرت رواية الخبر كلما قويت صحة نسبته إلى الرسول، حسب ظنهم. لذا سنكتفي بمناقشة الأخبار الواردة في موطأ مالك بحكم أنه أقدم كتب الحديث الموجودة بين أيدينا، والأخبار الواردة في البخاري بحكم أن الناس يعتقدون أن ما في البخاري من أحاديث أصح من غيرها في الكتب الأخرى.

ومما أورده مالك ثلاث روايات عن صيام عاشوراء، كما يلي:

واحدة تنسب إلى عمر وليس إلى الرسول، ونصها: وحدَّثني عَنْ مَالِكٍ، أَنَّهُ بَلَغَهُ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَرْسَلَ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّ غَداً يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَصُمْ وَأْمُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَصُومُوا (الموطأ: ٦٦٧).

والرواية الثانية التي وردت في الموطأ منسوبة إلى معاوية بن أبي سفيان، ونصها: وحدَّثني عَنْ مَالِكٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أبي سُفْيَانَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ عَامَ حَجَّ وَهُوَ على الْمِنْبَرِ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يقول في هذا الْيَوم هذَا

يَوْمُ عَاشُورَاءَ، وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ صِيَامُهُ، وَأَنَا صَائِمٌ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُفْطِرْ(الموطأ: ٦٦٦).

أما الرواية الثالثة فقد أعادت سبب صيام الرسول لعاشوراء إلى أنه تقليد جاهلي صامه الرسول قبل الإسلام وداوم على صيامه إلى ما بعد هجرته للمدينة وفرض صيام رمضان فترك صيامه: حدَّثني يَحْيَى، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ هِشَام بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْماً تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَصُومُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ هُوَ الْفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ (الموطأ: ٦٦٥).

ولن تناقش الرواية الموقوفة على عمر بن الخطاب، لأنها لا تعتبر تشريعاً لصوم عاشوراء، أما الروايتان المنسوبتان إلى الرسول في الموطأ، فتدلان على أن الناس قد بدأوا فعلاً ينظرون إلى عاشوراء بشيء من التبجيل في زمن مالك (الذي ولد سنة ٩٣ ومات سنة ١٧٩هـ كما أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء).

حيث بدأت تنتشر بعض الأخبار المنسوبة إلى الرسول عن فضل صيام ذلك اليوم، ونسب أول تلك الأخبار إلى عائشة والذي ينص على أن ذلك اليوم كان معظماً عند قريش قبل الإسلام مع التأكيد على أن صيام عاشوراء لم يعد معمولاً به بعد فرض صيام رمضان: فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ هُوَ الْفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ.

ومجرد إيراد مثل هذا الخبر كفيل بغرس فكرة تميز يوم عاشوراء في عقول بعض الناس، وجعلهم يتقبلون كل ما يمكن أن ينسب إلى عاشوراء من فضائل بعد ذلك.

وفي خطوة تالية لزرع تقديس عاشوراء في النفوس، جاءت الرواية الثانية المنسوبة إلى معاوية بن أبي سفيان العدو اللدود لعلي بن أبي طالب حتى لا يربط الناس بين تبجيل عاشوراء وبين مقتل الحسين. فجاء الترغيب بصوم ذلك اليوم مع التشديد على أن صيامه ليس فيه فضل كثير: فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ. ليكون من السهل بعد ذلك على الناس أن يتذكروا الأمر بالصيام وينسوا خيار تركه.

واستعراض أحاديث صيام عاشوراء في البخاري تعطي صورة واضحة عن النقلة

الكبيرة التي أصبح عليها المجتمع المسلم في تقبل فكرة تعظيم عاشوراء عما كانت عليه أيام مالك بن أنس المتوفى قبل مولد البخاري بنحو (٧٧) عاماً.

* فالبخاري في الحديث رقم (١٩٨٧) كرر نقل الخبر الذي ورد في الموطأ برقم (٦٦٥)، السالف الذكر، ولكن بإضافة جملة في آخره. حيث ينتهي حديث الموطأ بقوله «فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ هُوَ الْفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ». والجملة السحرية المضافة عند البخاري هي «فكان مَنْ شاءَ صامَهُ ومَنْ شاءَ لَمْ يَصُمْهُ» فأصبح الحديث ينتهي بهذه العبارة: فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ هُوَ الْفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَمنْ شاءَ صامَهُ ومَن شاءَ ترَكه.

والذي أضاف العبارة لم يفطن إلى أنه كان يجب عليه أن يعدل الصيغة حتى تبدو أكثر انسجاماً مع ما سبقها، فبدت العبارة المضافة «فَمنْ شاءَ صامَهُ ومَن شاءَ ترَكه» تحمل معنى خيار الصوم، وهو ما يتعارض مع معنى العبارة التي سبقتها «وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ» الذي يؤكد أن خيار صوم عاشوراء قد انتفى بعد فرض صوم رمضان، وتُرك.

ومع ذلك فقد أدت العبارة المضافة الهدف الذي من أجله أضيفت، فألغت أن صوم عاشوراء قد ترك، وأبقت استمرارية فضل صيامه لمن يريد صيامه، دون تأكيد على صيامه.

وهذا نص الخبر في البخاري: حدّثنا عبدُاللهِ بنُ مَسْلمةَ عن مالكٍ عن هِشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: كان يوم عاشوراءَ تصومُه قُريشٌ في الجاهلية. وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَصومُه في الجاهليةِ، فلما قَدِمَ المدينةَ صامَهُ وأمَرَ بصِيامهِ، فلما فُرِضَ رمضانُ تَرَكَ يومَ عاشُوراءَ، فَمنْ شاءَ صامَهُ ومَن شاءَ ترَكه (البخاري:١٩٧٨).

كما يمكن ملاحظة اختلاف تشكيل كلمة «ترك» في الحديثين، فقد جاءت في الأصل، في الموطأ، بضم التاء «تُرك» وتدل على أن صيام عاشوراء قد ترك بعد فرض صيام رمضان، بينما حركت التاء في حديث البخاري بالفتح، لتدل على أن الرسول قد ترك صوم عاشوراء، مما يعني أن غيره له الخيار، وهو ما سهّل إضافة العبارة المضافة «فَمنْ شاءَ صامَهُ ومَن شاءَ ترَكه».

وبطبيعة الحال فلم يكترث من أضاف هذه العبارة في البخاري بالتفكير في أنه وبناءً على ما درج عليه الفقهاء فهم يقولون بضرورة الاقتداء بالرسول، فما تركه يترك وما فعله يقتدى به، وإلا فإذا كان الرسول قد ترك صوم عاشوراء فيجب على المسلمين تركه.

* ثم ورد في البخاري ومن جاء بعده، أحاديث لم تكن معروفة في الموطأ، تعيد صوم الرسول لعاشوراء إلى سبب استجد بعد الموطأ، وانتشر بين الناس بعد عصر مالك، يتمثل في إرجاع سبب صيام عاشوراء إلى إحياء ذكرى غرق فرعون ونجاة موسى، وهذا نص إحدى الروايات: حدّثنا عليُّ بن عبدِالله حدَّثَنا سُفيانُ حدَّثنا أيوبُ السَّختِيانيُّ عن ابن سعيدِ بنِ جُبَير عن أبيهِ عنِ ابن عبّاسٍ رضيَ الله عنهما: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما قدِمَ المدينةَ وَجدَهم يَصومونَ يوماً ـ يعني يومَ عاشوراءَ ـ فقالوا: هذا يومٌ عظيم، وهو يومٌ نجّى اللهُ فيه موسى، وأغرَقَ آلَ فِرعون، فصام موسى شُكراً لله. فقال: أنا أولى بموسى منهم، فصامَه وأمَر بصيامه (البخاري: ٣٣٢٧).

وهي نقلة نوعية صار بموجبها صيام عاشوراء عبادة وعملاً صالحاً، ولم يعد خيار صومه مساو لتركه، لأن الخبر ينص على أن الرسول صامه وأمر بصيامه. وبدأ الناس يتجاهلون أن سبب صوم عاشوراء كان كعادة جاهلية كما أورد الموطأ في البداية.

* ثم تطورت الأخبار إلى القول بأن الرسول كان يرسل رسله إلى الناس ليطلب منهم صيام عاشوراء، وحتى الذي أصبح وهو مفطر فعليه أن يمسك ويكمل صيامه إلى الليل: حدّثنا أبو عاصم عن يَزيدَ بنِ أبي عُبَيدٍ عن سَلمةَ بنِ الأكْوَع رضيَ الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بَعثَ رَجُلاً يُنادِي في النَّاسِ يومَ عاشُورَاءَ: أنْ مَنْ أكَل فلْيُتِمَّ أو فلْيَصُمْ، ومَن لم يأكُلْ فلا يأكُل (البخاري: ١٩٠٢).

وهذا الحرص على عدم تفويت الناس لصوم عاشوراء لم يحظ به رمضان، ولذلك تقبل الناس الأخبار التي تقول بأن فضل صوم عاشوراء قريب جداً من فضل صوم رمضان، وهذا نص أحدها: حدّثنا عُبيدُالله بن موسى عن ابن عُيَينةَ عن

عَبيدِالله بن أَبي يَزيدَ عن ابن عبّاسٍ رضيَ الله عنهما قال: ما رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَتحرَّى صِيامَ يومٍ فَضَّلَهُ على غيرِهِ إِلاَّ هذا اليومَ يَومَ عاشُوراءَ، وهذا الشهرَ يعني شهرَ رمضانَ (البخاري: ١٩٨٢).

* ويبدو أن الأخبار التي تدعو إلى صيام يوم ذكرى عاشوراء قد تعارضت مع أخبار أخرى تنهى عن صوم يوم معين، ما لم يسبق بيوم قبله أو يوم بعده، ومن ذلك ما ورد في حديث البخاري رقم (١٩٦٢)، بهذا النص: حدّثنا عمرُ بنُ حفصِ بنِ غِياثٍ حدَّثَنا أبي حدَّثَنا الأعمشُ حدَّثَنا أبو صالحٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: لا يَصومُ أحدُكم يومَ الجمعةِ إلا يوماً قبلَهُ أو بَعدَه.

فأورد مسلم وأحمد وغيرهم، من الإخباريين الذين جاؤوا بعد ذلك، خبراً مفاده ضرورة أن يصوم الناس يوماً قبل عاشوراء أو يوماً بعده، وكان مسلم سباقاً لروايته قبل الجميع، وهذا نص مسلم: وحدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ. وأَبُو كُرَيْبٍ. قَالاَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنِ ابن أبي ذِئْبٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَبْدِاللّهِ بْنِ عُمَيْرٍ، لَعَلَّهُ قَالَ: عَنْ عَبْدِاللّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ». وَفِي رِوَايَةِ أبي بَكْرٍ: قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ عَاشُورَاءَ (مسلم: ٢٦٢٠).

* فلما جاء أحمد سمع بحديث يرجع صيام يوم آخر مع عاشوراء إلى سبب، فنقله لنا بهذا النص: حدثنا عبدالله حدَّثني أبي قال هشيم ثنا ابن أبي ليلى عن داود بن علي عن أبيه عن جده ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا فيه وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً (مسند أحمد: ٢١٦٣).

ولكن نص الحديث لم يصرح لمن تكون المخالفة، لأن من رواه استصعب أن يقول خالفوا فيه اليهود، في الوقت الذي يقول بأن تشريع صومه جاء بناءً على موافقة وتقليد اليهود.

* ولكن لاحقاً وعندما استمرأ الناس فكرة صيام عاشوراء أكثر، أصبح الإعلان عن مخالفة اليهود مقبولاً ولن يتوقف عنده أحد، ولذا أورد الترمذي وغيره حديثاً آخر يقول بأن صوم يوم قبله أو بعده مخالفة لليهود: حدثنا قُتَيْبَةُ

حدثنا عبدُ الوارِثِ عن ابن يونُسَ عنِ الحَسَنِ عنِ ابن عباسٍ قال: أَمَرَ رسولُ الله بِصَوْمِ عاشُورَاءَ يَوْم العَاشِرِ، قال أبو عيسى (أي الترمذي): حديثُ ابن عبَّاسٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ (ويضيف الترمذي في نفس الحديث، قائلاً): اختلف أَهلُ العلمِ في يَوْمِ عاشُورَاءَ، فقالَ بَعْضُهُم يَوْمُ التاسِعِ، وقال بعضُهم يَوْمُ العَاشِرِ. ورُوِيَ عن ابن عبَّاسٍ أَنَّهُ قالَ: صُومُوا التَّاسِعَ والعَاشِرَ وخَالِفُوا اليَهُودَ. وبِهذَا الحَدِيثِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وأَحمدُ وإسحاق (الترمذي: ٧٥٠).

* ويبدو أن من أراد تبرير مخالفة اليهود بصوم يوم قبل أو بعد عاشوراء كان يجهل تماماً متى هاجر الرسول إلى المدينة وكم لبث فيها، لدرجة أنه ظن أن الرسول مات في السنة التالية مباشرة، وهذا نص الخبر: وحدّثنا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيَ الْحُلْوَانِيُّ. حَدَّثَنَا ابن أبي مَرْيَمَ. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ. حَدَّثَنِي إسماعيل بْنُ أُمَيَّةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا غَطَفَانَ بْنَ طَرِيفٍ الْمُرِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَاللّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: حِينَ صَامَ رَسُولُ اللّهِ: يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ: إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، إِنْ شَاءَ اللّهُ، صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ. قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللّهِ (مسلم: ٢٦١٩).

كما يظهر الخبر أن من اختلقه يجهل أيضاً الأخبار الأولى التي تحدثت عن صيام عاشوراء، والتي تقول بأنه يوافق ذكرى نجاة موسى من فرعون.

وعلى أي حال فقد كانت الأيام كفيلة بتمسك المسلمين بصيامه، وأصبحوا يصومون يوماً قبله أو يوماً بعده، وأحياناً قبله وبعده. ولم يفطن العامة لملابسات بدء فكرة صوم عاشوراء التي بدأت في الموطأ وتحورت وتغيرت في البخاري ومن جاء بعده، وكل ما تذكروه هو أن لعاشوراء وضعاً خاصاً وأن صيامه عمل صالح يجب على المسلم ألا يفوته. أما الفقهاء فلا يذكرون الناس بتلك الملابسات ولو كانوا على علم بها.

ولم يفطن مسلم وغيره لهذه الهنات في صيغة الخبر، وغيرها في كثير من الأحاديث الموجودة في كتبهم، لأن دورهم يقتصر على إيراد الأحاديث الأكثر تداولاً بغض النظر عن ترابط معانيها وعباراتها. كما لم يفطن مسلم وغيره من كتبة

الحديث إلى أن معظم روايات صيام عاشوراء تنسب إلى ابن عباس، مع أنه يستحيل أن يكون ابن عباس شاهداً على تلك الأخبار، لأنه إن كان قد ولد، فهو لا يزال في سن الرضاعة، وفي مكة عندما هاجر الرسول إلى المدينة ورأى اليهود يصومون، على اعتبار أن ابن عباس عندما توفي الرسول في العام الحادي عشر للهجرة، كان عمره (١٣) عاماً، على أكثر تقدير، حسبما ذكرت كتب التراجم ومنها الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

* وقد استمر تطور تعظيم صيام عاشوراء جيلاً بعد آخر، حتى أصبح صيامها يكفّر سنة كاملة: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا سفيان قال: سمعناه من داود بن شابور عن أبي قزعة عن أبي الخليل عن أبي حرملة عن أبي قتادة قال: صيام عرفة يكفِّر السنة والتي تليها، وصيام عاشوراء يكفِّر سنة. قال عبدالله: قال أبي: لم يرفعه لنا سفيان وهو مرفوع (مسند أحمد: ٢٢١٥٢).

* ولم يأت القرن السابع حتى أصبح حكم صيام عاشوراء فيما ذكره لنا ابن تيمية كما يلي: وقد تنازع العلماء: هل كان صوم ذلك اليوم واجباً؟ أو مستحباً؟ على قولين مشهورين أصحهما أنه كان واجباً. انتهى كلام ابن تيمية الذي ورد ذلك في الصفحة (٢٩٨) من الجزء (٢٥) من مجموع فتاوى ابن تيمية.

* فأصبح صوم عاشوراء عند السنة واجباً، وفي ذلك العصر وصل الغلو في يوم عاشوراء عند الشيعة إلى ممارسة طقوس بدنية مماثلة لما نراهم يمارسون هذه الأيام، ويصف ذلك ابن تيمية بقوله: وإذا كان الله تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان، فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغي من اتخاذ يوم عاشوراء مأتماً، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة. انتهى ما ورد في صفحة (٢٩٨) من الجزء (٢٥) من مجموع فتاوى ابن تيمية.

* وابن تيمية عاب على الشيعة غلوهم في يوم عاشوراء، لأن الغلو محرم تحريماً صريحاً في كتاب الله، ولكنه لم يفطن إلى أنه هو نفسه، قد وقع في غلو يوم عاشوراء مماثل في المعصية لغلو الشيعة فيه وإن اختلفت الأفعال. فابن تيمية أفتى وشرع أن صوم يوم عاشوراء واجب، من دون دليل من رب

السماوات والأرض، مغالياً في صوم يوم، كان صومه أصلاً بدعة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يأمر أحداً بصومه.

* ومع أن ابن تيمية قال بوجوب صيام عاشوراء، إلا أنه حتى ذلك الوقت بقي من يقول بكل حرية أن عاشوراء بدعة ويكره صومه، وقد نقل ابن تيمية في الصفحة السابقة نفسها من فتاواه، هذا الموقف: وكان من الصحابة والعلماء من لا يصومه، ولا يستحِب صومه؛ بل يكره إفراده بالصوم، كما نقل ذلك عن طائفة من الكوفيين.

وذكر ابن تيمية في نفس السياق أن عبدالله بن عمر من الذين لا يصومون عاشوراء.

* أما اليوم فقد أصبح إحياء ذكرى عاشوراء جزءاً من الدين عند السنة والشيعة على حد سواء، وإن اختلفت مظاهر التعظيم فيما بينهم، باختلاف دوافعها.

فالسنة اقتصروا على الصيام بحجة أنه تعظيم لليوم الذي نجّى فيه الله موسى من فرعون، وتجاهلوا الأخبار الأخرى التي تنسب صيامه إلى أنه يوم تصومه قريش في الجاهلية، لأنه سبب غير مقنع. ولم يقو أحد منهم أن يعترف حتى بينه وبين نفسه أن الصيام كان نوعاً من الاعتصام أو الاحتجاج الصامت على سياسة القمع الأموية والعباسية ضد منافسيهم علي ونسله.

بينما لم يجد الشيعة حرجاً، بعد زوال الدولة الأموية، في إعلان أن تعظيم عاشوراء جاء بسبب مقتل الحسين في ذلك اليوم، ولذلك تركزت جهود رجال دينهم على تأصيل مظاهر إحياء تلك الذكرى ونسبتها إلى الدين، دون الصوم. وأصبح الندب والنياح وتنكيل الإنسان بنفسه بعنف وقسوة تسيل الدماء، تكفيراً عن عجزهم عن التنكيل بالأمويين. وتكفلت الأيام بتحويله إلى جزء من عقيدتهم الإسلامية، من تركه فقد أثم، حتى إنهم نسبوا إلى الرسول أنه قد ناح هو نفسه على الحسين، في الخبر الذي أورده الإخباري السني، الترمذي: حَدَّثَنَا أبو سَعِيدٍ الأشَجُّ، حدثنا أبو خَالِدٍ الأحْمَرُ، حدثنا رَزِينٌ قالَ حَدَّثَتْنِي سَلْمَى، قالت: دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقُلْتُ مَا يُبْكِيكِ؟ قالَتْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ ـ تَعْنِي في المَنَامِ ـ وَعَلَى رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ التُّرَابُ فَقُلْتُ مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قالَ: شَهِدْتُ قَتْلَ الْحُسَيْنَ آنِفاً (الترمذي: ٣٩٣٣).

وإن كان بعض علماء الشيعة لا يرون أن تلك الممارسات من الدين.

وصوم عاشوراء بدعة بكل المقاييس، ولم يأت لها ذكر في القرآن، والرسول لا يستطيع أمر الناس بشيء من تلقاء نفسه ومن دون وحي من السماء: قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ (الأنبياء: ٤٥).

ولو افترضنا أن الرسول عندما قدم المدينة رأى فعلاً اليهود يصومون ذلك اليوم، فكيف يؤمن الرسول بقول اليهود ويدخله في دين الله، مع أن الله قد أمره بعدم تصديق اليهود في ما يقولون، في أول سورة نزلت على الرسول في المدينة: وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أو يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٧٣).

وكيف يأمر الرسول بطاعة اليهود مع أن من يطع اليهود فقد كفر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (آل عمران: ١٠٠).

وهل يمكن أن يقول اليهود الحقيقة وقد ألفوا لهم ديناً من عند أنفسهم وتبعوه بدل دين الله: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ٧٥).

وكيف يمكن تصديق اليهود وهم يحاولون تشكيك المسلمين في دينهم: أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ (النساء: ٤٤).

وكيف يصدق الرسول زعم اليهود دون تثبت مع أنه أمر أن يتثبت من أي خبر قبل أن يؤخذ به حتى لو كان قائله مسلماً وليس يهودياً لا يؤمن بالإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (الحجرات: ٦).

ومع ذلك فلو فرضنا جدلاً أن اليوم الذي نجّى فيه الله موسى، قد وافق يوم العاشر من محرم في أول سنة عاشها الرسول في المدينة، فإنه يستحيل أن يتوافق اليومان في السنة التي تليها، لسبب بسيط.

ذلك أن اليهود وإن كانوا يتبعون التقويم القمري مثل المسلمين، وهذه حقيقة،

إلا أنهم يعتبرون الشهر ٢٩ يوماً وبعد ثلاث سنوات يضيفون شهراً على السنة، وهذه حقيقة أخرى، مما يعني أنه لو توافق ذلك اليوم مع عاشوراء في سنة من السنين فلن يتوافق معها في السنة التي تليها والتي تليها، وهكذا، إلى أن يدور الزمن دورته ويلتقي اليومان مرة أخرى بعد سنوات، وليوم واحد. ويكون على المسلمين معرفة تقويم اليهود حتى يتسنى لهم تحديد اليوم الذي نجّى الله فيه موسى من كل عام لكي يتسنى لهم صيامه، وسيجدون أنفسهم يصومونه مرة في محرم وأخرى في ذي الحجة، وأحياناً يكون ضمن رمضان، وبالتأكيد لن يكون بالإمكان تسميته عاشوراء، بل سيسمى بما يسميه اليهود به، وهو اسم لو وجد فسيدل على علاقته بنجاة موسى.

ولو كان من الممكن أن يتفق تقويم اليهود مع تقويم المسلمين لتوافق عيد الأضحى مع عيد الفصح لدى اليهود على الدوام، لأن عيد الفصح هو عيد لذكرى الذبيح من ولد إبراهيم وهو إسماعيل الذي يصر اليهود على أنه إسحاق. والذي نجده يأتي سنة في رمضان وأخرى في شوال، وفي كل سنة يأتي في يوم مختلف عن اليوم الذي جاء فيه في السنة الماضية، بينما يتكرر مجيء عيد الأضحى في نفس اليوم كل عام، بالنسبة إلى تقويم المسلمين.

وعلى الرغم من بقاء الأحاديث التي تعيد صيام عاشوراء إلى كونه يوماً كانت تعظمه قريش وتصومه في الجاهلية وقد صامه الرسول في الجاهلية واستمر على صيامه في الإسلام حتى فرض رمضان، إلا أن تداوله والاستشهاد به من قبل رجال الدين لحث الناس على صيام عاشوراء توارى تماماً، ولم يعد أحد منهم يذكر تلك الأحاديث، وهذا نص أحد روايات الخبر في البخاري والذي يؤكد أن تعظيم عاشوراء كان عادة جاهلية معروفة لدى قريش، وأنهم كانوا يسترون الكعبة فيه، فيقول: حدَّثنا يحيى بنُ بكيرٍ حدَّثَنا الليثُ عن عُقيل عن ابن شِهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها. وحدثني محمدُ بنُ مقاتلٍ قال: أخبرَني عبدُاللهِ هوَ ابن المباركِ قال أخبرَنا: محمدُ بنُ أبي حفصةَ عنِ الزُّهريِّ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: كانوا يَصومونَ عاشُوراءَ قَبلَ أن يُفرَضَ رمضانُ، وكانَ يوماً تُستَرُ فيه الكعبةُ. فلمَّا فرضَ اللهُ رمضانَ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَن شاءَ أن يَصُومَهُ فلْيَصُمه، ومَن شاءَ أن يترُكَهُ فلْيَتْرُكْه (البخاري: ١٥٧٣).

ولا ندري لماذا تستر الكعبة في محرم بعد انقضاء موسم الحج وليس قبيل بدء الحج؟

وعلى الرغم من أن هذا الخبر كان قد سيق لجذب الناس إلى تعظيم عاشوراء في البداية، إلا أن رجال الدين عدلوا عنه لأنه غير مقنع بما يكفي، خاصة وأنه فعل جاهلي، والفكرة السائدة عند الناس أن الإسلام جاء ليقضي على العادات والعبادات الجاهلية، فتحولوا عنه إلى القول بأن سبب تعظيم وصيام عاشوراء كونه يوم نجّى الله فيه موسى من فرعون. وبما أن القرآن يؤكد أن دين موسى ومحمد واحد فإن رجال الدين افترضوا أن قبوله لدى الناس سيكون أكبر، وهو ما حدث بالفعل.

هذا هو أصل تعظيم عاشوراء وما قاله عنه الإخباريون ورجال الدين حتى وصل تعظيم صومه إلى درجة الوجوب، مع أنه بدعة بدأ وبدعة بقي، ولو تمسك الناس جميعاً بتعظيمه.

في المعاملات

المثال الأول: الطلاق

يقول الفقهاء الأصل في الطلاق أنه ملك للزوج وحده، وقد عرفه الشربيني نقلاً عن التهذيب بأنه: تصرفٌ مملوكٌ للزوج يحدثه بلا سبب، فيقطع النكاح، ولا يسأل الزوج عن أسباب إقدامه على الطلاق.

فيكون الطلاق حقاً يملكه الزوج، ويتم بعباراته وإرادته المنفردة دون تدخل القاضي أو غيره، وإذا ما حصل فهو الذي يسمى الطلاق. أما الزوجة فلا يحق لها الطلاق، وإن كان لها طلب إنهاء العلاقة الزوجية إذا وجد ما يبرر ذلك، واقتنع به القاضي، عندها يحق للقاضي إنهاء ذلك الزواج، ويسمى تفريقاً أو خلعاً ولا يسمى طلاقاً.

أنواع الطلاق عند الفقهاء من حيث الصيغة

الصريح: وهو ما يستخدم فيه لفظ صريح الدلالة على الطلاق.

الكنائي: وهو ما يستخدم فيه لفظ يحتمل الطلاق وغيره، وهذا يشترط له النية ليتم الطلاق.

من حيث الأثر

الرجعي: هو ما يجوز معه للزوج رد زوجته في عدتها من غير استئناف عقد.

البائن: وهو على قسمين:

بائن بينونة صغرى، عندما يكون بالطلقة الواحدة والطلقتين، ويجوز للزوج الرجعة إلى زوجته أثناء العدة، فإن انقضت العدة فله العودة إليها بعقد زواج جديد.

بائن بينونة كبرى، عندما يكون بالثلاث طلقات، ولا تعود إليه إلا بعد أن تتزوج بغيره.

وفي كل الأحوال فعدد الطلاقات يعتمد على لفظ الزوج. فلو قال أنت طالق بالثلاث فيعتبر ذلك طلاقاً بائناً.

من حيث صفته الشرعية

سني: وهو ما وافق ما يقول الفقهاء بأنه سنة في طريقة إيقاعه. أي أن يوقع الزوج على زوجته طلقة واحدة في طهر لم يطأها فيه، ولا في حيض أو نفاس قبله. أو أن يطلقها طلقة واحدة في طهر لم يطأها فيه ثم يطلقها طلقتين أخريين في طهرين آخرين دون وطء.

بدعي: ما سوى السني، كأن يطلقها مرتين أو ثلاثاً في طهر واحد، أو يطلقها في حيض أو نفاس، أو طهر مسها فيه، أو في طهر وطئها في حيض قبله.

وكلا النوعين يقعان، كما يقع الطلاق المضاف وهو الطلاق المقيد بمضي وقت معين، كأن يقول أنت طالق بعد شهر أو يوم موتي. وكذلك يقع الطلاق المعلق بشرط، فلو قال أنت طالق إن طلعت الشمس فتطلق بمجرد طلوع الشمس. أو قال أنت طالق إن جاء فلان أو ذهبت إلى فلانة..الخ. في تفاصيل كثيرة ومتشعبة. ويجوز للرجل أن يوكل من يراه لإيقاع الطلاق بزوجته بالنيابة عنه.

(هذا هو أهم ما ورد في المغني لابن قدامة وما أوردته الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية- الجزء التاسع والعشرون عن الطلاق عند المذاهب الأربعة).

الطلاق في كتاب الله

السورة الرابعة في الترتيب في المصحف تسمى سورة النساء لأنها تتحدث عن تشريعات كثيرة تخص المرأة، اليتيمة والمتزوجة والمطلقة والوارثة والأم وكل الصفات الأخرى التي تكون عليها. وتشرع السورة معاملات جديدة تخالف ما اعتاده الرجل العربي في تعامله مع المرأة.

وتبدأ السورة بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (النساء: ١).

وهي آية تؤكد أن الرجل والمرأة خلقهما الله من نفس واحدة، أي بنفس الصفات والمشاعر والقدرات الذهنية. وأن المرأة خلقت من نفس ما خلق منه الرجل (خلق منها زوجها) سواءً جسدياً أو ذهنياً، ولا يعني اختلاف الجنس أن الرجل أكثر إنسانية من المرأة كما كان الناس يعتقدون قبل الإسلام.

والرجل نفسه هو نتاج تزاوج بين رجل وامرأة، أو بمعنى آخر هو نصف رجل ونصف امرأة، كما أن المرأة نصف امرأة ونصف رجل، وهذا ما يؤكده العلم. حيث أن جسم المرأة يحوي هرمونات ذكرية، وجسد الرجل يحوي هرمونات أنثوية. ولو اضطربت النسبة لأي سبب عارض أو نتيجة لمعالجة معينة، وزادت هرمونات المرأة الذكورية فسينبت الشعر في أنحاء جسدها ووجهها كما الرجل، وسيصبح صوتها أجش، وسيضمر ثدياها. بينما لو حدث وزادت الهرمونات الأنثوية لدى الرجل فسيختفي شعر الوجه وفي مناطق من الجسم، وسيرق صوته وسيبدو كالمرأة.

فجاء الإسلام ليؤكد هذه الحقيقة العلمية التي خلق بموجبها البشر، وليقول بأنه لا فرق بين الجنسين، مخالفاً بذلك العرف السائد في المجتمع.

والتشريع الثاني جاء ليقول بأن المرأة ترث، وأنها إذا فقدت والديها وأصبحت يتيمة فلا يجوز أن يأكل أحد ما ورثته، تحت أي مسمى: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (النساء: ٢).

والتشريع الثالث الخاص بالمرأة والذي خالف ما اعتاده العرب هو أن الفتاة اليتيمة ليست أقل شأناً من أي فتاة أخرى في الإنسانية، ولا أقل من الرجل نفسه الذي ذكرته الآية الأولى أنه لا يزيد في إنسانيته عن المرأة، وهنا تقول له الآية أنه يحرم استغلال ضعف المرأة اليتيمة، والزواج بها فقط للاستيلاء على مالها، وأن على الرجل أن يعلم بأن هذا محرم وأن من الأفضل له أن يبحث عن زواج بفتاة أخرى أو بالعدد الذي يشاء من الفتيات الأخريات، حسبما كان شائعاً في المجتمع وقت نزول الآية: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا (النساء: ٣).

فهذه الآية ليست لتشريع تعدد الزوجات، لأنها لا تقول تزوجوا بأربع. ولكنها تخاطب وبكل وضوح من أراد الزواج بيتيمة مكسورة الجناح لكي يسلبها ما تملك من مال، ولا يعطيها ما فرض الله لها من حقوق مثلها مثل أي فتاة أخرى.

وتبين الآية أن الزواج مبني على القسط في التعامل، وهو ما يعني التعامل الإنساني العادل، ومن لا يستطيع معاملة الفتاة اليتيمة بمنتهى الإنسانية ويوفر لها حقوقها فيجب عليه صرف النظر عن الزواج بها والزواج بفتيات أخريات ومن دون تحديد عدد، فمثنى وثلاث ورباع لا تعني الاكتفاء بأربع بل تقول: تزوج بما شئت من غير اليتامى وبالعدد الذي ترغب كما جرت العادة في ذلك الوقت: مثنى أو ثلاث أو رباع أو أقل أو أكثر.

وهذا نص الآية الرابعة: وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فإن طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (النساء: ٤).

وهذه الآية تقول بأن دفع المهر من قبل الرجل للمرأة هو عادة (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) والنحلة العادة المتعارف عليها، وليس شرطاً لازماً للزواج لا يتم إلا به، ولكن لو دفع وتنازلت المرأة عنه أو عن جزء منه فلا ضير. وكما أن دفع المهر من قبل الرجل عادة منتشرة في جزيرة العرب عندما جاء الإسلام، ومثل العرب مجتمعات أخرى، فإن هناك مجتمعات لا تعرف الصداق، ومجتمعات تقوم المرأة بدفع الصداق للرجل الذي ترغب الزواج به، وهذه العادة لازالت حية في بعض المجتمعات الهندية إلى اليوم.

المهم أن الإسلام ليس هو الذي شرع المهر، بل جاء ومجتمعات مكة والمدينة وقد تكون كل مجتمعات جزيرة العرب تنتشر فيها تلك العادة، وهذا يعني أنه لو وجدت مجتمعات مسلمة لا تعرف عادة المهر فلا يعني أنهم قد خالفوا شرعاً إسلامياً، وأن زواج الرجل بالمرأة من دون مهر إذا تراضيا على ذلك فجائز، وإن خالف عادة عربية.

والتشريع الذي جاءت به الآية الرابعة يتلخص بأنه إذا ما دفع الرجل مهراً عند الزواج وتنازلت الزوجة عنه أو جزء منه فلا بأس في ذلك. والوصاية على مال اليتيم (ذكراً كان أو أنثى) جاء ليس لأنه أقل إنسانية، ولكن لأنه صغير ولم يرشد. ولو مكن من المال فقد يبذره، وتبذير المال من المحرمات في الإسلام، ولذلك فقد أمر الشرع بالحجر على كل من يبذر أمواله ولو كان بالغاً: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (النساء: ٥).

أما إذا كان راشداً عاقلاً فيمكّن من ماله ولو كان يتيماً. والوصاية على مال اليتيم أو السفيه يمكن أن تكون عبر هيئة رسمية في دولة الإسلام تستثمر المال ويدفع منه رسوم التشغيل والوصاية وحقوق دولة الإسلام، ثم تسلم له عندما يرشد بضوابط، للتأكد من أنه يحسن التصرف به.

والوصاية يمكن أن تكون على أي شخص في أي مرحلة من العمر إذا ثبت أنه يصرف ماله بطريقة عبثية أو تبذيرية: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فإن آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (النساء: ٦).

ومن التشريعات الجديدة المخالفة لعادات العرب في سورة النساء والخاصة بالمرأة أنها ترث مثلها مثل الرجل، وهو شيء لم يكن يعمل به رجال ذلك المجتمع الذي اعتاد أن يرث المرأة نفسها، حيث أن العادة جرت أن يرث الولد زوجة والده بعد وفاته.

يقول تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضا (النساء: ٧)

وبعد سرد بعض تفاصيل المواريث تأتي الآيتان (١٣، ١٤) لتقولا لذلك المجتمع بأن توريث المرأة من حدود الله ومن يتعد حدود الله فله نار جهنم: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ.

وقد جاءت الآية (١٩) لتضع حداً للعادة التي تسمح بأن يرث الابن أو القريب زوجة أبيه أو قريبه من ضمن ما تركه من متاع: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً.

وبقية الآية تحرم عادات أخرى، هي العضل، وهو إجبار المرأة على الزواج بمن لا ترغب. وهذا هام جداً حيث يلغي أن يكون للأب حق تزويج ابنته بمن يريد ومن دون رغبتها هي، سواءً كانت بكراً أو ثيباً، فالعضل ليس فقط إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغبه لكي يضغط عليها لرد ما دفع لها من مهر: وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ.

أما إذا ما اقترفت الفتاة فاحشة السحاق «إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ». فعندها يطبق بحقها الحد الذي ورد في آية سابقة من السورة نفسها، والمتمثل في حبسها في المنزل حتى الموت أو يجعل الله لها سبيلاً، مثل أن تعالج نفسياً عن السحاق أو يتزوجها من سيحرص على مداواتها وإبعادها عن السحاقيات، وهذا نص الآية: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (النساء: ١٥).

وتكمل الآية (١٩) بتذكير رجال تلك الحقبة أن الزواج عقد بين الرجل والمرأة يقوم على المعاشرة الحسنة (بالمعروف) وأنه متى ما استحالت العشرة بين الزوجين فالحل هو الطلاق دون إضرار بالمرأة: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

والحديث وإن كان موجهاً إلى الرجل لأنه هو سبب مشاكل المرأة، وهو من سلبها حقها وإنسانيتها، إلا أن الآيات تعطي الحق في التخلص من الزواج للمرأة أيضاً متى ما شعرت بأن العشرة مع زوجها أصبحت مستحيلة، وتلغي أن يكون الطلاق حقاً مطلقاً للرجل دون المرأة كما صور لنا ذلك الفقهاء، وهذا سيتضح أكثر في الآيات اللاحقة.

وتقول الآيتان التاليتان: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (النساء: ٢٠-٢١).

فمتى ما دفع الرجل المهر للمرأة، قل أو كثر، فلا يجوز استرداد بعضه أو كله بعد المعاشرة الزوجية، ولو لم تتم إلا مرة واحدة بين الزوجين، لأن المهر مقابل مادي لقبول الزوجة الزواج بذلك الرجل، وليس مقابل الممارسات الجنسية مدى الحياة بينهما.

وتعود الآية التالية لتؤكد تحريم تلك العادة القديمة المتمثلة في نكاح زوجة الأب والذي ذكر في الآية (١٩) سواءً كان بأن يرث الابن زوجة أبيه من بين المتاع الذي يرثه عنه، أو بزواجه منها برضاهما: وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً (النساء: ٢٢).

والآيات من رقم (٢٣) إلى رقم (٣٢) تحدثنا عنهما ضمن موضوع الجهاد.

ثم تتحدث السورة عن أن الرجال يفضلون النساء ويتميزون عنهن بصفات، وأن النساء تفضل الرجال وتتميز عنهم بصفات أخرى، وأن كل جنس خلق بمواصفات تتناسب مع مهامه في الحياة، ولذلك يجب ألا يتمنى الرجال بعض ما للنساء من صفات ليست عندهم ولا تتمنى النساء بعض الصفات الرجولية التي ليست عندهن، لأن هذه الصفات المختلفة لا تعني تفضيل جنس على آخر من الناحية الإنسانية، أو أن لأي منهما حق في الزواج أو الطلاق أكثر من الآخر: وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيما (النساء: ٣٢).

والآية (٣٣) تؤكد ما قالته الآية (٧) من أن النساء أصبحن يرثن كالرجال مبطلة عادة قديمة تمنع النساء أن يرثن، حيث تقول بأن الرجال أو النساء يرثون أقرباءهم (موالي)، ومن التركة يجب أن يعطى أيضاً من له عهد بهبة أو وصية: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً.

والآية (٣٤) تقول: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فإن أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً. وهي تتحدث عن موضوعين:

الأول يتمثل في قوله تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

حيث تؤكد الآية أن من الصفات التي يتمتع بها الرجال دون النساء، القوامة، وهي القيادة العائلية. ذلك أن التركيبة الجسمانية والمشاعر الرجولية خلقت بصورة أكثر مناسبة للدور القيادي «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» ولأنه مناط بالرجل مهمة الصرف على العائلة، على الأقل في ذلك العصر. مع تأكيد الآية على أن هذا لا يعني التفوق الإنساني للرجل، لأن هناك صفات أخرى تمتاز بها المرأة على الرجل ولا تعني تفوقها من الناحية الإنسانية عليه «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

الأمر الثاني الذي تتحدث عنه الآية هو قوله تعالى: وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فإن أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً.

حيث تقول الآية بأن من تظهر هجرانها لزوجها «نشوز» فيجب على زوجها أن يحاول أن يعظها «فَعِظُوهُنَّ» فإن لم تستجب فعليه أن يهجرها في المضاجع. وبعد ذلك تقول الآية «وَاضْرِبُوهُنَّ».

وهنا يجب التوقف قليلاً للتساؤل عن معنى النشوز الذي بسببه أجازت الآية أن تضرب الزوجة للعدول عنه. فنقول:

النشوز هنا يأتي بمعنى الرغبة عن جماع الزوج. والآية التالية رقم (٣٥) تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

أي أنه في حال وجد خلاف بين الزوج والزوجة يعرض استمرار الزواج للخطر، فأول ما يجب فعله ليس ضرب الزوج لزوجته، لأن القلوب إذا تكسر ودها، فهي مثل الزجاجة كسرها لا يجبر. ولن يجبر الضرب سوء التفاهم بينهما بل سيزيد من حنق الزوجة وإصرارها على إنهاء الحياة الزوجية. ولذلك كان أول

ما يجب القيام به عندما يكون هناك شحناء بين الزوجين هو تحكيم الآخرين في المشكلة القائمة، في محاولة لرأب الصدع والخروج بحل للمشكلة القائمة وتوقيع معاهدة تمنع وقوع مشاحنات في المستقبل حفاظاً على تماسك رابط الزواج.

والشحناء بين الزوجين تكون بسبب تعنت الزوجة وتكون بسبب تعنت الزوج، كما أن الزوجة قد تعرض عن الزوج وقد يعرض الزوج عن الزوجة، وهذا ما تقوله لنا نفس السورة في هذه الآية وفي الآية رقم (١٢٨) وهي وما بعدها متممة لهذا الموضوع، ونصها: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأنفس الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فإن اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

ويكون أول ما نقوم به هو محاولة الصلح كما ذكرت الآية (٣٥)، ولكن إن كان الشقاق بين الزوجين كبيراً فقد يكون الطلاق أفضل من استمرار الزواج مع تكرر المشاحنات، وهو ما تقول به الآية (١٣٠): وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

فضرب الزوجة ليس لأنها امتنعت عن معاشرة زوجها أو أنها أعرضت عنه أو أن بينهما مشاحنات وتريد الطلاق، لأن كل هذا لا يوجب الضرب.

والمتدبر للآية يرى أن المرأة الصالحة القانتة لله والتي تبتعد عن كل ما نهى الله عنه في السر والعلانية «الصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ» وهذه وإن اختلفت مع زوجها أو نشزت عن عشرته فلا يحق له أو لغيره ضربها.

بينما من يحق ضربها عكس تلك، وهي التي لا تحافظ على ما نهى الله عنه في الحياة الزوجية كلما غابت عنها العيون، وهي التي تهجر مضجع زوجها بسبب ممارستها لشيء آخر، وهذا الشيء هو الموجب لضربها وهجرانها وموعظتها علها تتوب «اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فإن أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا».

وهذا الشيء قد يكون الذي تحدثت عنه سورة النساء نفسها في آية رقم (١٥) السابقة، وهذا نصها: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

ويكون هذا الأمر هو فاحشة السحاق التي توجب السجن في بيت أهلها إن لم تكن متزوجة، كما تقول الآية هنا. بينما توجب الضرب على الزوجة المتزوجه والوعظ والهجران فإن ثابت وتابت وإلا فالطلاق. وهو ما تقول به الآية (١٩): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

ويكون الضرب فقط بحق الزوجة التي تمارس فاحشة السحاق، والضرب يقع عليها ليس شرطاً من قبل الزوج، ولكن من قبل المحكمة، كحد للسحاق. وإلا فأي مشكلة تقع بين الزوجين أو اختلاف مهما كان بينهما لا يجيز للرجل أن يضرب زوجته، ولو ضربها فيقاد بذلك مثله مثل أي اعتداء من شخص على آخر.

وما يؤكد ما ذهبنا إليه هنا حديث عن حجة الوداع التي كانت قبل وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بثلاثة أشهر فقط، أي بعد نزول كل آيات الحدود ونزول كل التشريعات. وهذا الحديث رواه الترمذي برقم (١٩٠٦) والدارمي برقم (١٨٥٤)، وهو حديث طويل جداً، وقد رواه مسلم وبالصيغة نفسها برقم (٢٩٠٣)، ويبدأ بقوله: حدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ. وإِسْحَقُ بْنُ إبراهيم. جَمِيعاً عَنْ حَاتِمٍ. قَالَ أبو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إسماعيل الْمَدَنِيُّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللّهِ. فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انتهى إِلَيَّ. فَقُلْتُ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ. فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَنَزَعَ زِرِّي الأَعْلَى. ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الأَسْفَلَ. ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلاَمٌ شَابٌّ. فَقَالَ: مَرْحَباً بِكَ. يَا ابن أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ... إلى أن يقول: فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللّهِ... ثم يستمر الحديث حتى يقول بأن رسول الله قال: فَاتَّقُوا اللّهِ فِي النِّسَاءِ. فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللّهِ. وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ. فإن فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ. وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللّهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي. فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ... إلى آخر الحديث.

والحديث يؤكد أنه لا يجوز ضرب المرأة إلا في حالة واحدة فقط، تتمثل في أن توطئ فراش الزوج أحداً غيره «وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ. فإن فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ». والمقصود هنا السحاق كما بينت ذلك آيات سورة النساء، لأن وطء الزوجة من قبل رجل غير زوجها زنى، يوجب الجلد والطلاق ولا يكتفى فيه بالضرب غير المبرح.

ويبدو أن الناس زمن الرسول لم يصدقوا بأن اليتيمة لها حقوق وأن المرأة فعلاَ فرض لها ميراث كما الرجل عندما نزلت الآيات الأولى من سورة النساء، فسألوا الرسول عن حقيقة توريثها فجاء القرآن مرة أخرى وفي الآية (١٢٧) من سورة النساء، وأكد أن ما تحدثت به السورة في أولها عن ميراث المرأة واحترام حقوق اليتيمة وتحريم أكل أموالها هو ما يجب العمل به: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإن اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً.

هذا ما قالته سورة النساء عن المرأة والذي يمكن إجماله بالتالي:

- المرأة والرجل خلقا من العناصر والصفات والقدرات الأساسية نفسها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ».

- أن المرأة خلقت من الطينة نفسها «خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» ولا تعني أنها خلقت من ضلع الرجل الأعوج كما قال مفسرو اليهود ونقله عنهم المفسرون المسلمون.

- وأن الرجل عبارة عن موروثات نصفها يأتي من المرأة (الأم) ونصفها يأتي من الرجل (الأب) «بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء»، أي أن الرجل نصف امرأة ونصف رجل، والمرأة نصف رجل ونصف امرأة.

- أن المرأة لا تقل عن الرجل في كل شيء ولذلك فهي ترث مثله، كما أن كونها يتيمة لا يعني هضم حقوقها (الآيات٢-١٤).

- أن من ترتكب الفاحشة مع بنات جنسها (السحاق) فتعاقب بالحبس في البيت حتى تتوب أو تعالج أو تتزوج برجل قادر على هدايتها وعلاجها أو منعها من ممارسة تلك الفاحشة (الآية١٥)

- وأن الرجل أيضاً الذي يقترف الفاحشة مع أبناء جنسه (فعل قوم لوط) يعاقب كما المرأة (الآية ١٦)

- والآية (١٩) تقول بأن الزواج يجب أن يبنى على التفاهم ما بين الزوجين دون إضرار أحد بالآخر، ومتى ما أصبحت الحياة الزوجية لا تحتمل بينهما فإن الطلاق هو الحل، وهو ما يعني أن الطلاق حق متساو للطرفين وليس حقاً مطلقاً للرجل. وقد جاء في الآية (٣٥) تأكيد أن هجر المرأة لزوجها أو هجر الزوج لزوجته كما ورد في الآية (١٢٨) لوجود خلاف مستعص بينهما، يوجب أن يكوّن لهما لجنة مصالحة لرأب الصدع، وفي العصر الحاضر يمكن أن تكون من المصلحين الاجتماعيين أو علماء النفس والاجتماع، فإن حلت المشكلة ورغب الزوجان في معاودة حياتهما الزوجية المشتركة ولو بشروط جديدة فلهما ذلك، وإن كان الخلاف أكبر من يتفقا فالطلاق هو الحل. وهو ما يؤكد أن الطلاق حق متساو للزوجين، وأن توجيه الخطاب للرجل كان بسبب أن المجتمع كان ينظر إلى الرجل بأنه هو المالك لحق الزواج والطلاق وحده، وهو ما تؤكده الآية (١٣٠).

- وتقول الآيتان (٢٠-٢١) أن المهر ليس شرطاً لازماً للزواج، ولكنه عادة، ومتى ما دفع فليس للرجل الحق بأن يسترد منه شيئاً إذا عاشر زوجته ولو لمرة واحدة، فالمهر مقابل رضى الزوجة بذلك الرجل ليكون زوجاً لها، وليس عوضاً عن معاشرتها الجنسية.

- والآيات (٣٢-٣٤) تؤكد على وجود صفات في المرأة تفضل وتتفوق بها على الرجل، وهناك صفات في الرجل يفضل ويتفوق بها على المرأة، ومن ذلك ما يؤهل الرجل للدور القيادي في الأسرة، ولكن هذا لا يعني أن جنس المرأة أقل إنسانية أو عقلاً أو قدرات من الرجل.

هذا ملخص ما جاء في سورة النساء عن الحياة الزوجية، وهو مخالف لما قال به الفقهاء بأن الطلاق «ملك للزوج وحده، بحيث يمكن للرجل من أن يوقعه على زوجته من دون سبب، ولا يسأل الزوج عن أسباب إقدامه على الطلاق».

كيف يقع الطلاق عند الفقهاء؟

الفقهاء يقولون إن الطلاق يقع بمجرد أن يتلفظ الزوج بكلمة تدل على رغبته

بالطلاق، مثل أن يقول لزوجته: أنت طالق. وقد كان الرجل في الجاهلية هو السيد المطلق، والمرأة هي العبد المطيع لسيده دون أن يكون لها الحق في الاعتراض على ظلم لحقها منه. ولذلك كان الطلاق من حق الرجل وحده، بل وكان قادراً على منع مطلقته من الزواج بغيره وله الحق في إعادتها لعصمته متى شاء ولو بعد سنين من طلاقها، وله حق إلزام مطلقته بقبول من يختاره لها لتتزوجه بعد طلاقه لها دون أن يكون لها حق الاعتراض، وهو ما يعرف بالعضل.

كما كان الرجل يهجر زوجته ويتركها من دون حقوق لمدة تطول وتقصر كيفما يشاء دون أن يكون للمرأة أو أهلها الحق بالاعتراض. وهذا هو الإيلاء الذي جاء القرآن ليحرمه وليضع حداً أعلى لابتعاد الرجل وهجره لزوجته لا يزيد عن أربعة أشهر، مع إبقاء النفقة وكامل الحقوق للزوجة أثناء فترة الهجران، وبمجرد أن تصل المدة إلى أربعة أشهر فإن الزواج يعتبر منتهياً إن لم يعد الزوج إلى الحياة الزوجية. لأن المرأة إنسان كامل الأهلية كالرجل وتستحق حياتها أن تحترم.

وقد اشترط الفقهاء الحلف للإيلاء، لأن آية الإيلاء التي جاءت في سورة البقرة، قد سبقت بآيتين تتحدثان عن الحلف، والآية الأولى تحذر من جعل الله عرضة للأيمان، وهي: وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (البقرة: ٢٢٤-٢٢٥) ثم تلت هاتان الآيتان آية الإيلاء: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فإن فَاءُوا فإن اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقرة: ٢٢٦) فظن الفقهاء أن اليمين شرط لكي يطلق على التعليق إيلاء. وهذا فهم غير دقيق، لأنه لو هجر الزوج زوجته أو علقها ولو من دون حلف فهو إيلاء، لأن المهم ما يسببه الإيلاء وليس كيف يصرح به.

وأقوال الفقهاء في الطلاق وفي غيره من المواضيع المتعلقة بالأحوال الشخصية متأثر بالعادات الجاهلية المنتشرة في جزيرة العرب، وبثقافات مختلفة أخرى، منها الثقافة المسيحية، والتي ينقل عنها أبو الأعلى المودودي في الصفحة (٢٤) وما بعدها من كتابه الحجاب أن المسيحية الأولى نظرت إلى المرأة على أنها أصل الخطيئة، ويقول أحد أئمة المسيحية الأولى، ترتوليان، في المرأة: إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون

الله، ومشوهة لصورة الله ـ أي الرجل، لأنهم يعتقدون أن الله قد خلق آدم على صورته سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذه النظرة المسيحية أدت إلى جعل المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة، من الوجهة الاقتصادية، وأصبح كل ما لها ملك لزوجها، بل وخسرت اسمها عندما تتزوج لتنتسب إلى اسم زوجها.

وقد أثرت هذه الثقافات على وضع المرأة المسلمة، فاعتبرت المرأة ناقصة عقل ودين، كما أعيدت الثقافة الجاهلية التي تنص على أن الطلاق ملك للرجل وحده، على الرغم من أن الإسلام يقول بأن الزواج عقد بين طرفين (رجل وامرأة) لا يتم إلا برضى الطرفين وتوافق إرادتهما في الارتباط. بمعنى أنه لم يعد ملكاً خاصاً بالرجل كما كان يعتقد الناس قبل الإسلام، وأن المرأة مجرد وعاء للمتعة ليس لها حق الموافقة أو الرفض للرجل الذي يرغب بمواقعتها تحت مسمى الزواج.

كيف يقع الطلاق في القرآن؟

لا يقع الطلاق بمجرد تفوه الرجل بكلمة أو كلمات تعني الطلاق، كقوله لزوجته أنت طالق ولو كررها مائة مرة. فليس في القرآن ما يؤيد ذلك على الإطلاق، والمسلمون يتبعون تشريعات فقهية قال بها الفقهاء، أما الطلاق في القرآن فيجب أن يمر بعدة إجراءات طويلة إذا استكملت حدث الطلاق، وكلها تخضع للتوثيق والتسجيل.

وكان التوثيق يتم بشهادة الشهود في عصر الرسول لأن العرب أميون لا تتوفر لديهم أدوات القراءة والكتابة، ولو وجد نفر قليل يكتبون فإن تواجدهم وقت الحاجة قد لا يكون مضموناً، لقلتهم. ولذا كان الشهود أكثر فاعلية في ذلك الوقت، أما في العصر الحاضر فالكتابة هي الوسيلة الأنجع لتحقيق التوثيق.

ولذلك فإن إجراءات الطلاق في دولة الإسلام في العصر الحديث يفترض أن تكون بالترتيب التالي:

١- وجود رغبة للطلاق عند أحد الزوجين، بسبب خلافات بينهما، أو لكراهية أحد الزوجين للآخر لدرجة أصبح لا يستطيع الاستمرار في الحياة الزوجية: يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء: ١٩)

والآية تقول: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً. وهذا لا يعني فقط ما قاله المفسرون من أن المرأة كانت تورث كمتاع في الجاهلية فقط، بل ويشمل أيضاً تحريم أن تكره الزوجة على البقاء مع زوج لا ترغب البقاء معه. مثلما أن للزوج أن يترك زوجته التي يكره البقاء معها: فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً. وهذا يعني أن الطلاق حق مشاع للرجل والمرأة على حد سواء، دون أن يكون هناك أسباب معلنة. ومخاطبة الآيات للرجل لا تعني أن حق الطلاق له وحده، ولكن الآيات نزلت في مجتمع رجالي، كان لا يعتبر المرأة أكثر من وعاء للشهوة وإنجاب الأولاد. وإلا فيحرم على المرأة كل ما يحرم على الرجل في كل الآيات التي خاطبت الرجل في القرآن، لأنها تقصد الرجل والمرأة على حد سواء، إذ ليس هناك نواهٍ على الرجل فقط ونواهٍ على المرأة فقط.

٢- إذا رغب أحد الزوجين في الطلاق، فيجب أن تسجل تلك الرغبة رسمياً عند جهة مختصة بذلك، ولتكن دائرة الأحوال الشخصية في دولة الإسلام. ولا اعتبار لتلفظ الرجل بألفاظ الطلاق، لأنها لا تعتبر طلاقاً، فليس في القرآن ما يدل على أنها طلاق على الإطلاق، وإنما هي تدخل تحت رغبة إمضاء الطلاق وعليه أن يكمل الإجراءات اللاحقة ليتم الطلاق.

٣- يتبع هذه الخطوة، قيام دائرة الأحوال الشخصية بتحديد موعد للزوجين، للحضور أمام لجنة الصلح المختصة في محاولة لرأب الصدع وتذليل المشاكل الموجودة بينهما: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (النساء: ٣٥) وتكون لجنة الصلح من أهل الاختصاص وليس بالضرورة من الأقارب: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فإن اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء: ١٢٨)

٤- يحق لأي من الزوجين فرض شروط يختارها للعودة إلى عش الزوجية

وإلزام الطرف الثاني بالتقيد بها: . . . وبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (النساء: ٢٢٨).

٥- إذا لم تتمكن جهود اللجنة، من حل النزاع، وكان الخلاف مستحكماً وفشلت جهود الصلح، فيمضى الطلاق لأنه في هذه الحالة سيكون الحل الأمثل لكليهما حتى يبحث كل واحد منهما عن زوج أكثر مناسبة له وليعيشا حياة أفضل مع زواج جديد: وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (النساء: ١٣٠).

٦- عند هذه المرحلة تقوم دائرة الأحوال الشخصية بتسجيل رغبة الطلاق، وتبدأ عدة التربص منذ ذلك اليوم الذي سجلت فيه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ. (الطلاق: ١).

٧- مدة التربص هي: ثلاث حيضات، أو ثلاثة أشهر لغير الحائض، أو أن تضع الحامل حملها: وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (الطلاق: ٤)

٨- لا يذكر القرآن أن الطلاق لا يتم إلا في طهر لا مواقعة فيه بين الزوجين، ولا في حيض ولا غيره مما ذكره الفقهاء، بل إن الآية السابقة تؤكد أن المطلقة وهي حامل عدتها وضع حملها. وعليه فالرغبة في الطلاق تتم في أي وقت، وتسجيل تلك الرغبة لدى دائرة الأحوال الشخصية بعد فشل لجنة الصلح في إيجاد حل للمشكلة القائمة بين الزوجين.

٩- خلال مدة التربص تبقى الزوجة في بيت الزوجية وتتمتع بكامل حقوقها الزوجية ونفقتها، ولا يجوز أن تخرج برضاها أو من دونه من البيت، أو تحرم من أي من حقوقها أو نفقتها المعتادة: . . . وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (الطلاق: ١).

١٠- إذا ما قرر الزوجان التراجع عن رغبة الطلاق خلال مدة التربص فلهما ذلك، ويتم توثيقه لدى دائرة الأحوال الشخصية. ويكون بشروط الزواج القديمة أو

بشروط جديدة يتفقان عليها: الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ. (البقرة: ٢٢٩).

١١- إذا انتهت مدة التربص ولم يتراجع الزوجان عن رغبة الطلاق، فيتم الطلاق: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أو فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (الطلاق: ٢) والشهادة هنا تعني بلغة العصر تسجيل أن الطلاق قد حدث للمرة الأولى في ملفي الزوجين لدى دائرة الأحوال الشخصية.

١٢- الطلاق في الإسلام يأتي كحل أخير لمشاكل قائمة بين الزوجين أو لوقف معاناة أحدهما، ولذلك يجب أن يتم بروح أخوية وبشكل إنساني لا ضرر منه ولا ضرار: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أو سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٣١).

١٣- كما لا يجوز أن يسترد الزوج بعض أو كل المهر الذي دفعه للزوجة، لأن المهر كان مقابل رضاها بالزواج منه وليس مقابل مواقعتها خلال فترة الزواج وبالتالي فله تقدير قيمة ما لم يستفد منه واسترداده: . . .وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً.

١٤- لكن إذا تبرعت الزوجة من تلقاء نفسها وعرضت على الزوج استرداد بعض المهر ليطلقها بسلام ودون انتظار مدة التربص فله الحق بالقبول، ليبقيا احترام حدود الله وعدم تجاوزها بالإضرار ببعض: . . .إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فإن خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (البقرة: ٢٢٩).

١٥- وهذا العرض ليس مفروضاً على الزوجة التي يمكنها التقدم إلى دائرة الأحوال الشخصية برغبة الطلاق والاستمرار في الإجراءات مثلها مثل الرجل وستحصل في النهاية على الطلاق رغب الزوج أو لم يرغب.

١٦- في حالة وقوع الطلاق قبل الدخول فللزوج الحق باسترجاع نصف المهر أو بعضه إن رغب، ولو تركه لكان أفضل. خاصة إذا كان الطلاق برغبة الزوج:

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أو يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ٢٣٧).

١٧- إذا تم الطلاق قبل الدخول فلا عدة تربص له: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (الأحزاب: ٤٩).

١٨- بعد الطلاق، للزوجة الحق بالزواج بمن ترغب من الرجال.

١٩- إذا عاد الزوجان لحياتهما الزوجية قبل انتهاء مدة التربص بنفس شروط الزواج الأولى أو بشروط جديدة، أو عادا للحياة الزوجية بعد انتهاء مدة التربص وبعقد زواج جديد، وتكررت بينهما الرغبة بالطلاق بسبب تجدد المشاكل أو تجدد رغبة أحد الزوجين بالطلاق، فعليهما تسجيل رغبتهما لدى دائرة الأحوال الشخصية كما حدث في المرة الأولى، ويمران بالخطوات نفسها، من الاحتكام أولاً للجنة الصلح، ثم تسجيل رغبة الطلاق وابتداء فترة التربص، وبقاء الزوجة في البيت وتمتعها بكامل حقوقها ونفقتها خلال فترة التربص.

٢٠- يحق للزوجين التراجع وللمرة الأخيرة أثناء فترة التربص للطلاق الثاني، بالشروط القديمة أو بشروط جديدة.

٢١- إذا انتهت مدة التربص للطلاق الثاني قبل أن يتراجع الزوجان فيعتبر الطلاق بائناً (ماضياً) وتخرج الزوجة من بيت الزوجية وتتوقف نفقتها الزوجية، وتصبح امرأة أجنبية بالنسبة إلى الزوج.

٢٢- تنظر دائرة الأحوال الشخصية في مصير الأولاد ونفقتهم ويعتمد صرفها أو بعضها للأم إن كان الأولاد أو بعضهم سيقيمون معها.

٢٣- لا يجوز للزوجين العودة إلى الحياة الزوجية، بعد انتهاء فترة التربص للطلاق الثاني، إلا في حال أن الزوجة تزوجت برجل آخر وعاشت معه حياة زوجية جديدة، فإن نشأ بينهما خلافات أو كراهية استحال معها استمرار الزواج بينهما، وخضعا لمراحل الطلاق السابقة الذكر نفسها وانتهى بهما المطاف للطلاق الثاني (البائن)، عندها فقط يجوز للزوج السابق التقدم بخطبة الزوجة، فإن رغبته

فيجوز لها الزواج به مثله مثل أي رجل آخر تقدم لخطبتها. وليس هناك في الإسلام ما عرفه المسلمون بالمحلل: فإن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فإن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (البقرة: ٢٣٠).

٢٤- يفضل أن تختار الزوجة الزواج مرة أخرى بزوجها السابق على أي رجل آخر، وذلك لمصلحة الأولاد، ولما بينهما من حياة مشتركة سابقاَ: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (البقرة: ٢٣٢).

٢٥- الطلاق في الإسلام حل لمواقف شائكة بين الزوجين، وليس للتشفي أو الإضرار بأحد الزوجين، ولذلك يجب أن يتم بتسامح وإحسان: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ. (البقرة: ٢٣١).

٢٦- يجب حماية الزوجين من الضرر، وبما أن الزوجة عادة ما تكون المتضررة، فيجب حمايتها من أن يقع عليها أي ضرر بسبب الطلاق. فلا تمنع من نفقة ولا تضار بأي طريقة، ويتم ذلك باستصدار القوانين الكفيلة بمنع تعسف الرجل: . . . أو سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٣١).

٢٧- المطلقة، إن كانت حاملاً، تسكن في بيت الزوجية نفسه الذي عاشت فيه قبل الطلاق، طوال مدة التربص وتتمتع بالميزات نفسها. ويصرف الزوج على متطلبات الحمل جميعها من علاج وبرامج حمل وغيرها. وبعد الولادة وحدوث الطلاق فلا تلزم الزوجة إرضاع الطفل، ولكن يمكنها ذلك نظير مقابل مادي أو من دون. فإن لم تقبل، لزم الأب البحث عن مرضعة بديلة أو إرضاعه بواسطة حليب بديل يجب أن يتوفر فيه مواصفات وعناصر حليب الأم لمصلحة الطفل: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فإن أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم

بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخرى. لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (الطلاق: ٦-٧).

٢٨- تكون عدة التربص ليس للتأكد من خلو رحم المرأة من الحمل، كما يظن الفقهاء، ولكنها عدة تربص وانتظار ومراجعة للنفس لكلا الزوجين، لأن الآية الرابعة من سورة الطلاق تبين أن الطلاق يمكن أن يحدث للحامل، يقول تعالى: وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (الطلاق: ٤).

٢٩- يقع الطلاق إذا اقترف أحد الزوجين الفاحشة، أو تلاعنا، من دون أن يكون هناك حاجة إلى لجنة المصالحة، أو فترة تربص.

وهنا لا بد من التطرق لتربص المرأة التي يتوفى عنها زوجها لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بأنفسهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أنفسهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة: ٢٣٤).

وهي الآية الوحيدة في القرآن التي ذكر فيها مدة تربص المتوفى عنها زوجها وليس فيها ذكر لما يعرف بالحداد، والذي فرض الفقهاء بموجبه على المرأة المتوفى عنها زوجها، لبس السواد ومنعوها من الخروج من المنزل إلا في حالات الضرورة القصوى، وحرموا عليها مخاطبة الرجال، وغير ذلك مما قالوا في الحداد، والذي لا وجود له في كتاب الله.

مما يعني أن الحداد على الأرجح صناعة فقهاء، وليس تشريعاً إلهياً، لأن الحداد بمثل تلك المواصفات فيه تعظيم لشخص الرجل ونوع من العبادة والتقديس التي لا تجوز لبشر، وهي طقوس تشابه طقوس الحكم على الزوجة بالموت إذا مات زوجها، والمتبعة في بعض المجتمعات الهندية والأفريقية.

وتكون المدة التي لا يجوز للمرأة أن تتزوج فيها بعد وفاة زوجها هي كما نصت الآية «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً» دون أن تلزم بلبس السواد أو تحبس في المنزل وغير ذلك مما يسمى اليوم بالحداد.

ونختم موضوعنا بالقول بأن مفهوم الزواج في الإسلام هو اتفاق رجل وامرأة على أن يشتركا في تكوين حياة زوجية بينهما، لبناء أسرة وتربية أطفال، وبشروط يشترطانها ويجب عليهما الوفاء بها وإلا تعرضا لعقوبات جزائية.

وليس في القرآن ما يمنع من أن يكون من بين شروط الزواج الاتفاق بين الزوجين على عدم الإنجاب لفترة محددة أو طوال فترة زواجهما، وهذا قد يبدو وكأنه شبيه بما يعرف بزواج المتعة ولكنه ليس هو، لأن زواج المتعة زواج محدد بفترة زمنية، ينتهي بانتهائها من دون طلاق. أما هذا فزواج عادي ولكن الزوجين كان من بين شروطهما عدم الإنجاب، وتسري على هذا الزواج كل ضوابط وواجبات الزواج الشرعي، وكذلك ضوابط الطلاق، وبالتالي فهو زواج شرعي.

أما زواج المسيار وزواج الصيف وكل أنواع الزيجات التي انتشرت حديثاً، والتي ظاهرها مغلف بتبريرات تقربها من مظهر الزواج الشرعي، وباطنها تحايل لجعل المتعة الجنسية المحرمة (الزنى) تبدو وكأنها علاقة شرعية. وهذه (الزيجات) يجب أن تستكمل ضوابط وشروط الزواج الشرعي، لتكون زواجاً شرعياً، ومن ذلك: الإعلان والتوثيق لدى الجهة الرسمية بتوثيق الزواجات، وليس توثيقاً صورياً، يتم في الشقق المفروشة في بعض البلاد العربية والإسلامية.

والتوثيق لا يجب أن يتم إذا ثبت أن للزوج زوجة ثانية، ما لم يسجل توثيق رضى الزوجة وهي بكامل أهليتها العقلية بأن يتزوج زوجها زوجة أخرى، لأن هذا يدخل ضمن العدل مع الزوجة وعدم ظلمها، ومن الظلم أن يخدعها الزوج بالتستر على زواجه الثاني أو بالزواج بامرأة ثانية من دون رضى الزوجة الأولى وما سيسببه لها من ألم نفسي وجرح للكبرياء ومشاكل نفسية تعلمها جيداً نساء بلاد الحرمين أكثر من غيرهن من نساء العالم. وإذا لم ترغب الزوجة في زواج زوجها فله الخيار بتطليقها والزواج بالفتاة الأخرى، أو الإبقاء على زوجته والتراجع عن الشروع بزواجه الجديد.

وكل ما شرعه الفقهاء بخلاف ذلك فهو مجرد تبريرات من عند أنفسهم لتعدد الزواج وتسهيل الطلاق، وذلك لكي يتمتعوا جنسياً بالتنقل بين نساء مختلفات، ولم ينزل به الله من سلطان.

وكل زواج لا يستكمل ضوابط الشرع فهو فحش وزنى، وكل زواج يعمل على

تحويل الزواج لما يشبه الزنى فهو كذلك ولو أطلق عليه لقب شرعي. ومن يراقب تلك الزيجات ذات المسميات المتعددة، فسيجد أن المرأة الواحدة تشارك العديد من الرجال المختلفين الفراش خلال أشهر قليلة، وأنها هي نفسها تعلم ذلك وتسعى إليه، ليس من أجل تكوين أسرة وبناء عائلة كما هو الهدف الأساسي من الزواج الإسلامي الذي يقوم على الرحمة والمودة: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفسكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم: ٢١) ولكن الهدف المبطن هو إمتاع أولئك الرجال الذين يدفعون لها مقابل ذلك مادياً. بينما يعلم الرجل بأنه يشارك المرأة في الفراش لمدة محددة وقصيرة قبل أن ينتقل إلى امرأة أخرى وهكذا، وهو يعلم أن الدافع هو إشباع رغباته الجنسية مع أكبر عدد من النساء المختلفات في أقل وقت ممكن، مع التبرير لنفسه بأنه يقوم بذلك تحت مسمى وغطاء ديني، حتى يبعد عن نفسه أي وساوس من أن ما يقوم به قد لا يكون جائزاً شرعاً، حتى لا يؤرقه ضميره فيما لو صحا ولو للحظة في يوم من الأيام.

وقد وجد هؤلاء العون من عدة جهات، فهناك سماسرة الجنس الذين لا يهتمون كثيراً بالتجاوزات الدينية وكل ما يهمهم كسب المال عن طريق تلك الدعارة الحلال، كما سماها عبدالله كمال في كتابه الدعارة الحلال، وشيلا حائري الكاتبة الإيرانية في كتابها المسمى المتعة. وهناك الحظ العاثر لفتيات معدمات مادياً الذي أوقعهن في تلك الطريق الشائك وهن يعلمن أن ما يقمن به ما هو إلا فاحشة محرمة. كما ساعد أولئك الرجال في متعتهم ما وجدوه من تشريعات (فتاوى) الفقهاء قديماً وحديثاً، ولا غرابة في تزاحم الفتاوى المحللة لتلك الزيجات لأن الفقهاء أنفسهم هم أول من استفاد من ذلك.

فابن جريج (٨٠ ـ ١٥٠ للهجرة) كان ممن يرى إباحة زواج المتعة لأنه تزوج بتسعين امرأة زواج متعة. وينقل الذهبي في ترجمته لابن جريج في كتابه سير أعلام النبلاء ما يلي: وقال محمد بن عبدالله بن عبد الحكم، سمعتُ الشافعي يقول: استمتع ابن جُريج بتسعين امرأة، حتى إنه كان يحتقن في الليل بأوقية شيرج طلباً للجماع. انتهى.

وهناك فقهاء يجيزون زواج المسيار الحالي، وهناك فقهاء يجيزون التعدد بلا

شروط لأنهم يمارسونه، وهؤلاء هم من يقول بأن الطلاق ملك خاص بالرجل يتم بمجرد نطقه بلفظ يدل على الطلاق ولا يسأل عن السبب ولا حاجة إلى تسجيل ذلك في المحكمة أو في أي جهة رسمية.

أما الزواج الشرعي فيقوم أساساً لتكوين أسرة وتربية أطفال وليس فقط للمتعة الجنسية، ولذلك فليس للزوج الحق بالتعدد إذا لم ترغب الزوجة بذلك لأنه إضرار بها وخلاف للعدل معها، ويؤدي إلى العول، وهو سوء تربية الأطفال: . . .فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا (النساء: ٣).

ولكن يمكن للرجل والمرأة أن يتزوجا بشروط يشترطانها، ويجب احترامها، وتوقيع الشروط الجزائية على من يخالفها من الزوجين، ومن هذه الشروط، عدم ممانعة الزوجة بأن يتزوج عليها زوجها متى شاء أو بعدد محدد من النساء غيرها، فإن قبلت فله ذلك. كما يمكن للزوجة اشتراط عدم زواج زوجها بغيرها وإن فعل فلها الحق بعقوبات جزائية أو الطلاق أو بهما معاً.

وللزوجين اشتراط عدم الإنجاب، لمدة معينة أو على الدوام، كما يمكن للزوجين اشتراط إنجاب عدد محدد من الأولاد، أو أي شروط أخرى يريانها ويقرانها عند عقد الزواج أو عند نشوب خلافات بينهما بعد الزواج.

لكن أن يتمتع الزوج بمتع جنسية بخفية وبخلاف موافقة الزوجة فهذا ليس بزواج، كما أن عدم تسجيل وتوثيق الزواج يجلب الضرر ليس لأنه يصعب تحديد عدد الزوجات ونسب الأولاد وغير ذلك الكثير من المشاكل فقط، بل لأنه تدليس وإخفاء للحقيقة وهذا لا يقره الإسلام.

وعليه ففي لغة العصر يجب أن يكون تسجيل الزواج وتسجيل الشروط التي اتفق عليها الزوجان والعقوبات الجزائية، وتسجيل الطلاق، حقاً مشروعاً للزوجين يجب أن تضمنه دولة الإسلام بموجب قوانين مكتوبة وثابتة.

المثال الثاني: الحجاب

الحجاب في اللغة يعني الساتر، وهو الجسم الحائل بين شيئين أو جسدين منفصلين، وإذا لامس الساتر أحد الجسدين فهو غطاء، ويسمى قناعاً أو خماراً. والقناع عند بعض الفقهاء تغطية كامل الجسد، وقال غيرهم القناع هو الثوب الذي

يلقيه الرجل على كتفه ويغطي به رأسه ويرد طرفه على كتفه الآخر. بينما استخدم الخمار فقهياً بمعنى ما يستر الرأس والصدغين أو العنق. أما النقاب فهو ما يغطي الوجه، فيقال تنقبت المرأة إذا غطت وجهها.

وإذا كان ستر الرأس للمرأة أوجبه كثير من الفقهاء فإن تغطية الوجه لم يقل به إلا قلة منهم.

ولن نناقش تحريم أو إباحة كشف المرأة لوجهها عن طريق استعراض ما يقوله الفقهاء، لأننا سندخل في دوامة كبيرة لا يمكن أن نخرج منها بنتيجة حتمية. فهناك من يصر على أن كشف الوجه حرام حرام حرام، وعلى رأس من سلف منهم ابن تيمية، ومن المحدثين في بلاد الحرمين ابن عثيمين وابن باز. وهناك من يقول بأن كشف المرأة وجهها مباح، ومن المحدثين الذين قالوا بذلك والمقربين لفقهاء بلاد الحرمين، محمد ناصر الدين الألباني في كتابه «حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة».

ولو استعرضنا هذين القولين المتضادين في حكم تغطية المرأة وجهها لوجدنا أن كلا الفريقين يعتمدان على أحاديث قولية أو تقريرية منسوبة إلى الرسول، وإلى أقوال فقهاء سابقين، وإلى أقوال منسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، دون أن يكون للفقيه المعاصر أي رأي ناتج عن تحليله هو للأدلة أو للرجوع إلى الآيات التي يستدل بها على الحجاب، إلا فيما ندر، وكل ما صححه فقهاء السلف الذين يتبع طريقتهم فهو صحيح وكل ما أنكروه فهو منكر. ثم يقوم بنقل ما يجده في كتبهم بعد إعادة صياغته.

وبطبيعة الحال هناك من الأخبار والأقوال والأفعال المنسوبة إلى الرسول وإلى الصحابة في كتب الأخبار ما لا يمكن الإحاطة بها من كثرتها وتنوعها، وسيجد كل من يبحث فيها أدلة تؤيد وتمنع وتحرم وتبيح أي مسألة فقهية أخرى.

وبما أن كتب الأخبار ظنية، أي أنها تورد أخباراً لا تصل نسبة ثبوتها لمن نسبت إليه إلى حد اليقين، فإن أي حديث يخالف رأي معين يمكن للمخالف أن يجد في ذلك الحديث ما يشكك بمصداقية نسبته إلى الرسول أو إلى لصحابي.

وسنورد مثالين على ذلك، الأول عن أحاديث نسبت إلى الرسول والثاني لأقوال نسبت إلى الصحابة، كما يلي:

١- استدل من أباح كشف وجه المرأة بحديث رواه أبو داود في سننه عن أم المؤمنين عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت سن المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا. وأشار إلى وجهه وكفيه.

وقد رد هذا الحديث من يرى تحريم كشف وجه المرأة مثل ابن عثيمين في رسالة الحجاب[(١)]، والذي يقول عنه بأنه ضعيف بسبب الانقطاع بين عائشة وخالد بن دريك الذي رواه عنها نقلاً عن أبي داود نفسه حيث قال: خالد بن دريك لم يسمع من عائشة وكذلك أعله أبو حاتم الرازي.

لكن ابن عثيمين لم يشر إلى أن أحد الأحاديث التي استدل بها هو على وجوب غطاء وجه المرأة فيه نفس العلة التي رد بموجبها الاستدلال بالحديث السابق، وهي الانقطاع.

فكما أن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة في الحديث الذي يستدل به على إباحة كشف الوجه، فإن مجاهد لم يسمع عن عائشة في الحديث الذي أورده ابن عثيمين في رسالة الحجاب كدليل على وجوب غطاء وجه المرأة.

والحديث الذي استدل به ابن عثيمين أورده أبو داوود برقم (١٨٣٤)، وهذا نصه: حدثنا أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أخبرنا هُشَيْمُ أخبرنا يَزِيدُ بنُ أبي زِيَادٍ عنْ مُجاهِدٍ عنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنحْنُ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مُحْرِمَاتٌ فَإِذَا حاذَوْا بِنا سَدَلَتْ إحْدَانا جِلْبَابَها مِنْ رَأْسِها عَلَى وَجْهِها، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ.

وأورده أحمد برقم(٢٣٦٢٩)، وهذا نصه: حدثنا عبدالله، حدثني أبي، حدثنا هشيم، قال: أنبأنا يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن عائشة، قالت: كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات، فإذا حاذوا بنا أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزنا كشفناه.

وقد قال أبو الحجاج المزي في كتابه الشهير تهذيب الكمال عن مجاهد، راوي الحديث عن عائشة، ما يلي: قال أبو حاتِم: روى عن عائشة مرسلاً، ولـم يسمع منها، سمعتُ يحيى بن مَعِين يقول: لـم يسمع مُجاهد عن عائشة.

---

(١) ص٢٨ رسالة الحجاب/ محمد بن عثيمين/ دار القاسم ـ الرياض.

فكيف قال من يرى بتحريم كشف الوجه، والذين نقل عنهم ابن عثيمين، بعلة الحديث الذي يستدل به على إباحة كشف الوجه، ولم يقل بعلة الحديث الذي يستدل به غيرهم على تحريم كشف الوجه، مع أن العلة في الحديثين واحدة.

٢- أحد الأدلة التي أوردها ابن عثيمين في رسالة الحجاب للتدليل على تحريم كشف المرأة لوجهها قوله: الدليل الثالث: قوله تعالى: يأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لازْوَجِكَ وَبَنَتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (الأحزاب: ٥٩).

ويقول ابن عثيمين في الصفحة (١٢) قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة. وتفسير الصحابي حجة، بل قال بعض العلماء أنه في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلّم. انتهى كلام ابن عثيمين.

وابن عثيمين في الأسطر السابقة يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، ومن دون قيد أو شرط، أن قول الصحابي (الذي هو هنا ابن عباس) حجة، بل هو بحكم قول الرسول.

وفي الصفحة (٢٥) من رسالة الحجاب لابن عثيمين، يقول: ولا أعلم لمن أجاز نظر الوجه والكفين من الأجنبية دليلاً من الكتاب والسنة سوى ما يأتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أو ءَابَآئِهِنَّ أو ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَآئِهِنَّ أو أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِى أَخَوَتِهِنَّ أو نِسَآئِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أو التَّبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَى عَوْرَتِ النِّسَآءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُواْ إِلى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حيث قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي وجهها وكفاها والخاتم.

(وهنا يجب أخذ قول ابن عباس على أنه حجة واجبة كما يؤخذ قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بناءً على ما ذكره ابن عثيمين في الصفحة (١٢)، لكن ابن عثيمين يقول في الصفحة (٢٧) عن تفسير ابن عباس (الذي يقول بجواز كشف الوجه والكفين والخاتم) ثلاثة أوجه:

أحدهما: محتمل أن مراده أول الأمرين قبل نزول آية الحجاب كما ذكره شيخ الإسلام ونقلنا كلامه آنفاً.

الثاني: يحتمل أن مراده الزينة التي نهى عن إبدائها كما ذكره ابن كثير في تفسيره ويؤيد هذين الاحتمالين تفسيره رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأزْوَجِكَ وَبَنَتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَبِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾. كما سبق في الدليل الثالث من أدلة القرآن.

(ويبدو أن ابن عثيمين نفسه لم يقتنع بالتبريرين السابقين، فهو يقول):

الثالث: إذا لم نسلم أن مراده أحد هذين الاحتمالين فإن تفسيره لا يكون حجة يجب قبولها إلا إذا لم يعارضه صحابي آخر. فإن عارضه صحابي آخر أخذ بما ترجحه الأدلة الأخرى، وابن عباس رضي الله عنهما قد عارض تفسيره ابن مسعود رضي الله عنه حيث فسر قوله: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾. بالرداء والثياب وما لا بد من ظهوره فوجب طلب الترجيح والعمل بما كان راجحاً في تفسيريهما. انتهى كلام ابن عثيمين.

وهكذا يتراجع من يرى تحريم كشف الوجه، عن قوله بأن تفسير الصحابي حجة بلا قيد أو شرط، إلى أنه حجة فقط إذا لم يتعارض مع تفسير لصحابي آخر. ولذلك فابن عثيمين يرجح القول المنسوب إلى ابن مسعود على القول المنسوب إلى ابن عباس، لأنه يتوافق مع ما يريد إثباته. ونسي أو تعمد أن يتجاهل التفكير فيما قاله من تناقض.

فإذا كان كلام الصحابي حجة كما التشريع الذي يثبت عن رسول الله، ووجد هناك صحابيان لكل منهما كلام مختلف في مسألة واحدة. فواحد يقول بإباحة كشف الوجه والآخر يقول بتحريمه، فهل هذا يعني أن الإسلام يقول بكلا القولين المتناقضين؟ أم أن أحد هذين القولين مردود على صاحبه، وهو ليس بحجة فيما ذهب إليه، وبالتالي فإن كلام الصحابي ليس حجة على الإطلاق، بل هو مجرد رأي شخصي يجوز عليه الخطأ والصواب، مثله مثل أي رأي شخصي لأي شخص آخر.

وهناك أمر آخر لا يتطرق إليه الفقهاء في العادة وهو احتمال أن يكون ما نسب إلى ابن عباس وإلى ابن مسعود مختلق، لأنه وردنا عن طريق كتب الأخبار الظنية.

ومن أجل ذلك فلن نناقش إباحة أو تحريم كشف وجه المرأة عن طريق تحليل أو مناقشة أو تتبع أقوال الفقهاء أو ما نسب إلى الصحابة أو إلى الرسول من أخبار، لأن هذه الوسيلة قد طرقها الكثيرون في القديم والحديث. ومع ذلك لم ولن يقتنع من يؤمن بتحريم كشف المرأة لوجهها أو من يؤمن بعكس ذلك بتغيير آرائهم بما أورده أي من الفريقين من أدلة، لأنها أدلة ظنية لها الصفات نفسها، وفيها العيوب نفسها، ومناقشة الأدلة الظنية تدخل في دوامة يصعب الخروج منها بنتيجة حتمية، كما أسلفنا.

شيء آخر نود التنويه إليه وهو أن ذكر ابن عثيمين والألباني وغيرهما بالاسم هنا أو في موضوع آخر في الكتاب، يأتي من باب الاستدلال على أقوال الفقهاء بوجه عام، ولا يعني أننا ننتقد منهجهم كأشخاص، لأننا لا نملك الوسيلة اللازمة لذلك وهي صحيفة الأعمال، والتي لن تنشر إلا يوم القيامة بأمر الله وحده، أما في هذه الدنيا فكُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين.

وبما أن نقاش أقوال الفقهاء لن يغني من جوع فقد كان لزاماً علينا أن نتجه إلى كتاب الله فنحرم حرامه الواضح ونحلل حلاله الواضح ونسكت عما سكت عنه كما أمرنا الله.

نقول وبالله التوفيق:

يستدل الفقهاء على تغطية المرأة وجهها بآيتين، الأولى هي الآية (٣١) من سورة النور والثانية هي الآية (٥٩) من سورة الأحزاب، وسنستعرض هاتين الآيتين، فإن احتوتا أو أحدهما أمراً لله تعالى بتغطية المرأة وجهها، فلن يكون للبشر خيار في القول بغير ذلك، وإن لم تقل الآيتان بوجوب غطاء الوجه، فعلى الفقهاء الذين يقولون بذلك أن ينتهوا خيراً لهم.

١- الآية (٣١) من سورة النور:

تبدأ سورة النور بتشريع حد الزنى للرجل والمرأة على أنه (١٠٠) جلدة في حضور جمع من الناس. ثم حرمت الآية الثالثة الزواج ممن يداوم على فعل فاحشة الزنى من الرجال والنساء. ثم تحدثت الآيات التالية عمن يقذف النساء بالزنى من دون دليل، ووضعت حداً على من يفعل ذلك، يتمثل في الجلد (٨٠) جلدة، كما شرعت الآيات التي تلي كيف يتم إثبات الزنى بين الزوجين أو نفيه إذا اتهم

أحدهما الآخر من دون بينة. وتستمر الآيات حتى الآية (١٨) تتحدث عن قذف المؤمنات بالزنى من دون شهادة أربعة شهود، وسنعود إلى هذه الآيات في موضوع منفصل للحديث عما عرف بالتراث الإسلامي «بالإفك» في الملحق.

وتحذر الآيات (١٩-٢١) وتتوعد كل من يعمل على إشاعة الفاحشة وتهوين أمرها بين الناس ولو بكلمة أو فعل يسير، وتبين أن كل من يقوم بذلك فهو يتبع خطوات الشيطان ويسهل عليه مهمته في إغواء الناس، كما تقول الآية (٢١) بأن العمل على حفظ المجتمع من الفحشاء مهمة الجميع، لأن الجميع معرضون للوقوع في الفواحش إذا انتشرت وأصبحت في متناول اليد.

وتأمر الآية (٢٢) بالإنفاق، وهذا يمكن فهم علاقته بموضوعنا هنا إذا رجعنا إلى موضوع التوبة، حيث نجد أن الإنفاق هو أكثر الأعمال التي تغسل الذنوب بعد التوبة، يقول تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (التوبة: ١٠٣-١٠٤) (انظر موضوع التوبة).

وتتوعد الآيات (٢٣-٢٥) من يقذف المؤمنات من دون إثبات، بأن الله لعنه وأعد له عذاباً أليماً.

وتؤكد الآية (٢٦) بأن المجتمع المسلم يجب أن يكون أفراده طيبين طاهرين بعيدين عن الفحش من القول والفعل.

ثم تشرّع الآيات الثلاث (٢٧-٢٩) آداباً لدخول المنازل، لأن التسلل للمنازل من مساوئه النظر إلى الناس وهم بلباس غير محتشم، وهو من الفحش التي نهت عنه الآيات السابقة.

ونصل إلى الآيات (٣٠-٣٤) والتي يختتم بها الحديث عن موضوع محاربة الفحشاء من الفعل (الزنى) ومن القول (القذف) الذي بدأ منذ بداية السورة بلا انقطاع. يقول تعالى: قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (الآية: ٣٠).

فمن أهم الممارسات التي تحارب انتشار الفحشاء هو غض البصر، والذي يعني عدم إطالة النظر والتحديق بجسد المرأة بشهوانية، لأن الرجل لو سمح لنفسه

بذلك فستثيره هيئة المرأة وتقاطيع جسدها سواءً غطت وجهها أم كشفته، لأن المرأة خلقها الله بهذا القوام لكي تثير الرجل فيطلب مواقعتها وبالتالي يحدث الحمل والولادة والنتيجة بقاء الجنس البشري من الانقراض.

فجاء الإسلام لا ليستنكر هذه الغريزة ولكن ليجعلها تمارس ضمن حدود شرعية في إطار الزواج، فأمر الرجل بغض النظر عن المرأة الأجنبية. وهذا الأمر سبق وأمر الله به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، عندما تصرف كبشر ولفت انتباهه جسد ومنظر امرأة متزوجة فنزل القرآن ليوبخه على ذلك: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر: ٨٨).

ويبدو أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه غلبت عليه طباعه البشرية فمد بصره مرة أخرى للنظر إلى امرأة متزوجة أخرى، فجاءه التوبيخ مرة أخرى بعدم تكرار ذلك، ومجاهدة النفس على غض البصر: وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (طه: ١٣١) (انظر الباب الرابع ـ محمد).

وغض البصر لا يعني أن يغطي الرجل وجهه كلما قابلته امرأة حتى لا ينظر إليها، لأن غطاء الوجه لا يمنع من أن يسترق الرجل النظر بل ويطيله إلى وجه وجسد المرأة دون أن تشعر به، ولكن غض البصر في الآية يعني عدم إطالة النظر لأن ذلك سيثير الشهوة ولو بشكل عابر.

وغض البصر بهذا المعنى هو ما أمرت به النساء، كما الرجال، في الآية التي تلي: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائِهِنَّ أو آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إلى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (النور: ٣١).

ولا يعني غض البصر في الآيتين السابقتين تحريم نظر الرجل إلى المرأة ونظر

المرأة إلى الرجل نظرات عادية جادة لا تؤدي إلى التفكير في الجنس وإثارة الغريزة، لأنه جاء ضمن سياق الآيات التي تشرع إجراءات من شأنها الحد من شيوع الفاحشة في المجتمع الإسلامي ومن ذلك جهاد النفس من الرجل ومن المرأة على حد سواء بالابتعاد عن كل ما يثير الغريزة ويؤدي لانتشار الفحشاء، من قول وقصص أو تصرف، ويدخل ضمن ذلك الدعايات التي تروج للفحشاء بطريق مباشر وغير مباشر، والملصقات والصور الإباحية أو التي تؤدي إلى استسهال الفحش، سواءً كانت متحركة أو ثابتة، وسواءً جاءت على شكل حديث أو أغنية أو تمثيل أو إعلان تجاري أو بأي طريقة أخرى.

إضافة إلى ذلك يجب على المسلمين رجالاً ونساءً أن يحفظوا فروجهم في حال وجد الإنسان نفسه في خلوة مع الجنس الآخر، وتوافرت كل الظروف لممارسة الزنى، عندها يجب على الرجل الامتناع «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» وعلى المرأة كذلك «وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» بدافع ديني.

وبما أن المرأة هي الجنس الناعم الأكثر جاذبية وإغراء فعليها أن لا تتبرج بزينة مبالغ فيها لدرجة تلفت نظر الرجل وتجعله يتناسى أمر الله بغض البصر «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا». ويدخل في هذه الزينة كل ما يلفت النظر من مساحيق التجميل وتصفيف للشعر واللباس المثير.

ولم يطلب من الرجل ذلك، لأن الرجل يمثل الجنس الخشن والذي يمكنه أن يجذب المرأة بمواصفات غير الجمال الخارجي وتناسق الجسد وتصفيف الشعر والعطر النافذ الرائحة، وحتى في هذا العصر فالرجل الذي يتزين بطريقة تشبه الطريقة النسائية لا يزداد رجولة بل على العكس ينظر إليه على أنه فقد تلك الرجولة أو شيئاً منها.

وتقول الآية (٣١): وَتُوبُوا إلى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. فالبعد عن الفحشاء وما يقرب إليها من قول أو عمل جهد متساو بين الرجل والمرأة، وليس على أحدهما أن يقوم بأكثر مما يقوم به الآخر.

وتأتي الآيتان (٣٢، ٣٣) لتختم موضوع محاربة الفحشاء الذي بدأ مع أول السورة، بالقول بأن الجماع حق مشروع للرجل والمرأة وإشباع لرغبة غريزية، ولدا وهما يتمتعان بها ولا يستطيعان كبح جماحها، ولكن عليهما أن يمارساها بطريقة

شرعية تحت مظلة الزواج فقط: وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (النور: ٣٢).

ومن لم يتزوج بعد فعليه أن يستعفف ويبتعد عن كل ما يؤدي لإثارته جنسياً، رجلاً كان أو امرأة، حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من الزواج: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

ولما نزلت تلك الآيات كان الرق منتشراً في المجتمع، ولذلك أمر الله كل من لم يستطع الزواج بامرأة حرة أن يتزوج بأحد الإماء، وأن على من يملك الإماء مساعدة كل من يرغب الزواج بإحداهن أن يسهل له ذلك، كعمل يدخل ضمن الإجراءات الشرعية لمنع انتشار الفاحشة، بل ويجب على الأغنياء الذين يملكون الإماء أن يزوجوهن بمن يرغبن من فقراء المسلمين ويساعدوا الزوجين مادياً حتى يتمكنا من فتح بيت الزوجية: وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ.

وهذا العمل واجب على أثرياء ذلك الزمن الذين يملكون الإماء ومن لم يفعله فقد أثم، وهو خير من إبقاء الإماء عند الموسرين والتسري بهن من دون زواج، لأن ذلك فحشاء جاء الإسلام للقضاء عليها، ويجب على المسلمين التوبة إلى الله من ذلك: وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإن اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (النور: ٣٣).

ولا يعني قوله تعالى «وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ» ما ذهب إليه الفقهاء والمفسرون من أنه إكراه الإماء على امتهان الزنى مقابل المال الذي يأخذه منهن سيدهن، ويقولون بأنها نزلت في عبدالله بن أُبَيّ، وكانت له جاريتان إحداهما تسمى مُعاذة والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرههما على الزنى ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد؛ فشكتا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه (تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

لأنه لا يمكن تصور أن تنزل سورة النور بتحريم الزنى بكل أشكاله وما يؤدي إليه من قول أو فعل أو عمل، وتحريم كل ما يساعد على نشر استسهال الفاحشة ولو كانت على شكل كلام فاحش ولو لم يصل لاقتراف الزنى ثم تختم الآيات هذا

الموضوع برجاء المسلمين ألا يجبروا إماءهم على ممارسة الزنى كمهنة تعود عليهم بالمال، وكأن ممارسة الزنى مع الجواري ليس بزنى أو أنه زنى من درجة ثانية وهو أقل في ذنبه من مجرد إشاعة التحدث الفاحش الذي كان من ضمن ما حرمته آيات سورة النور السابقة.

ويكون إكراه الإماء على البغاء هو إبقاؤهن عند سيدهن من دون زواج ليتمتع بهن جنسياً ولا يسمح لهن بالزواج والتعفف، ولا قيمة لكلام المفسرين، لأن المفسرين بوجه عام يقولون ما يرغبون أن يفهم من الآية ثم يسوقون قصصاً قد لا تكون حدثت وكأنها السبب في نزول الآيات، وإلا فهذه الآية من سورة النور ليس بالضرورة لها سبب معين تمثل في جاريتي عبدالله بن أبي، ولكنها جاءت بتشريعات جديدة تحرم عادات كانت قائمة في المجتمع ومنها إجبار الإماء على مزاولة الزنى مع أسيادهن الرجال.

وقد جاءت هذه الآية ضمن حديث طويل بدأ من أول السورة عن الزنى ووجوب القيام بكل الإجراءات الاحترازية لمنع ما يحبب إلى كل الفواحش ولو لم تصل إلى اقتراف الزنى، كما أسلفنا، فكيف يتصور أن تتحدث السورة نفسها وفي ختام حديثها عن التحذير من الزنى والفواحش، عن إباحة، ولو مع الكراهة، أن يقوم المسلم بدور (القواد) على رقيقه مقابل كسب المال، دون أن يكون على من يقوم بذلك حد أو عقوبة دنيوية أو في الآخرة. ويبدو أن هذه الآية نزلت قبل أن يحرم الدين ممارسة الجنس مع الرقيق والذي كان منتشراً في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وأن الإسلام قد جاء لتحرير الرق، فجعل من أهم صفات المؤمن فك الرقبة (العتق): فَكُّ رَقَبَةٍ. أو إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. . . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (البلد: ١٣-١٧).

وجعل تحرير الرق من صفات البر، وهو الإيمان الخالص: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة: ١٧٧).

والإنفاق الذي يعتبر ركيزة إسلامية هامة يصرف في عدة مجالات تضمن تحقيق التكافل الاجتماعي ومنها عتق الرقاب: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٦٠).

وجعل الإسلام كفارة الظهار عتق رقبة: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة: ٣).

وجعل عتق الرقيق كفارة لليمين: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أو كِسْوَتُهُمْ أو تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة: ٨٩).

وحرم الإسلام استرقاق الناس في الحروب وهي المصدر الرئيسي للرق، وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في موضوع الجهاد. ولو أن المسلمين تقيدوا بتشريعات الله في الرق لما بقي رقيق واحد في دولة الإسلام وإلى الأبد، ولكن ما حدث بعد وفاة الرسول أن المسلمين أعادوا الحروب بوجهها الجاهلي فأصبحت مدن الإسلام أكبر أسواق النخاسة في العالم على مر العصور.

وتكون سورة النور خالية من أي إشارة إلى تغطية المرأة لوجهها، ولكنها تدعو إلى ما هو أهم من غطاء وجه المرأة، وهو محاربة كل ما يدعو إلى الفحش من قول أو عمل، لأن غطاء المرأة أو الرجل للوجه لا يعني العفة، ولا يمنع من انتشار الفحشاء، ومن أراد التحقق من ذلك بلغة الأرقام فعليه مراجعة الإحصائيات التي تصدر من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلاد الحرمين، التي تجبر فيها النساء بتغطية الوجه وكامل الجسد، بل وضرورة لبس العباءة السوداء وأن تكون على الرأس ولا يسمح بتركها على الكتف ولو كان الرأس والوجه مغطيين بغطاء أسود مشابه للون العباءة. وسنجد آلاف بل عشرات الآلاف من جنح ضبط شاب وفتاة في خلوة (غير شرعية) أو ضبط رجال ونساء عراة وبأوضاع مشبوهة

جنسياً في جلسات شرب وعربدة وغير ذلك، وهذه الحوادث في تزايد مستمر، في العدد وفي النوعية.

وكما بدأت سورة النور الحديث عن اجتناب الفواحش وإشاعة العفة فقد ختمت آياتها بالحديث عنها، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا استأذن الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أنفسكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أو بُيُوتِ آبَائِكُمْ أو بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أو بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أو بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أو بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أو بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أو بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أو مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أو صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أو أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أنفسكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاستغفر لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الآيات: ٥٨-٦٢).

وكل آيات سورة النور جاءت على شكل تشريعات كان يجب على المسلمين أن يصوغوا منها قوانين مكتوبة بكل تفصيل في مجال الأحوال الشخصية وذلك للحماية من الفواحش.

٢- الآية الثانية التي يستدل بها على وجوب تغطية وجه المرأة هي الآية (٥٩) من سورة الأحزاب، ونصها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

والآية تأتي ضمن آيات سبقتها تتحدث عن موضوع الحرص على العفة وهو ما تتحدث عنه سورة النور، وسنستعرض لآيات سورة الأحزاب بدءاً من الآية (٥٣) والتي تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتشروا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً.

فالموضوع يتعلق بتشريع يحرم على المسلمين أن يدخلوا على بيوت الرسول (والتي كانت عبارة عن غرف لأزواجه ملحقة بمسجده، ولم تكن تشابه بيوتنا الحالية) قبل أن يستأذن الداخل ويسمح له بالدخول، لأنه قد يدخل وإحدى زوجات الرسول في وضع بيتي مريح وقد تخلصت من بعض ثيابها، والنظر إليها في مثل ذلك الوضع يثير الغريزة، خاصة وأن هناك ممن يسمى بالصحابة من يتعمد الدخول فجأة لكي يسترق النظر بقدر ما يستطيع.

ويذكر المفسرون أن أحد الصحابة، كان يقول لأن مات محمد لأتزوجن عائشة (انظر تفسير الآية (٥٣) من سورة الأحزاب عند القرطبي والطبري).

ونحن لا نأخذ كلام المفسرين بالاعتبار في أي شيء يقولونه لأنهم يخترعون القصص أو ينقلونها ممن اخترعها لتؤيد ما يودون قوله من تأويل للآيات، ولكننا نقول بأنه وإن لم يعلن أحد الصحابة صراحة برغبته تلك فإنه من المعقول أن تكون موجودة لدى البعض منهم، وبالتالي فيمكن لأحدهم أن يتحين الفرص لاستراق نظرات شهوانية إلى زوجات الرسول، وغير الرسول، ولذلك جاءت الآية تقول بأن زوجات الرسول في مقام الأم بالنسبة إلى المسلمين عامة، نساءً ورجالاً، ولذلك لا يجوز أن يتزوجن بعد وفاة الرسول بغيره من الرجال.

وتقول الآية التالية (٥٤) بأن الله يعلم ما يختلج في صدور بعض الصحابة من رغبة في الاطلاع على عورات زوجات الرسول، ولو لم يحدثوا به علناً، لأن الله يعلم الجهر وما يخفى: إِن تُبْدُوا شَيْئًا أو تُخْفُوهُ فإن اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.

وتبين الآية التالية (٥٥) إباحة أن تتبسط زوجات الرسول في اللبس أمام

محارمهن: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ. . .

مع الحرص منهن على تقوى الله والبعد عن إثارة الغرائز: وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا.

وتقول الآية (٥٦) بأن المطلوب من المسلمين ليس إيذاء مشاعر الرسول بمحاولة استراق النظر إلى عورات زوجاته، وغير ذلك، ولكن المطلوب هو الدعاء للرسول بالصلاة وإلقاء السلام عليه. وصلاة الله على الرسول تعني عطف الله والحنو والرحمة على رسوله (حسب ما جاء في الروض الأنف): إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

ثم يتوعد الله من يقصد إيذاء الرسول بتتبع عورات زوجاته: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (الآية:٥٧) كما توعد سبحانه كل من يتتبع عورات غير الرسول من المسلمين: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (الآية:٥٨).

وبعد ذلك تأتي الآية (٥٩) لتأمر نساء الرسول ونساء غيره من المسلمين بأن يحرصن على التستر حتى يقطعن الطريق على من يتربص بهن ويتحين الفرص للاطلاع على ما يستطيع من عوراتهن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.

وفي الآيتين التاليتين يبين الله أن من يحرص على الاطلاع على كل ما يستطيع رؤيته من عورات نساء الرسول وغيره من المسلمين هم من المرضى المهووسين جنسياً والذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ليردع هوسهم ويشفيهم منه، فهم من المنافقين الملعونين، ولئن لم ينتهوا عن أفعالهم فسيظهرهم الله وسيطلب من الرسول والمسلمين طردهم من المدينة: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (الآية: ٦٠).

فإن أبوا الخروج فسيسمح الله لرسوله والمؤمنين بتعقبهم وقتلهم: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (الآية: ٦١).

لأن هذا من السنن الكونية التي أوجدها والتي تتمثل في القضاء على من يقف ضد دولة الإسلام أو ضد تشريعاته: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (الآية: ٦٢)

وهكذا يتضح أن سورة النور وسورة الأحزاب لم تتحدثا على الإطلاق عن تشريع يأمر المرأة المسلمة بتغطية وجهها، ولكن السورتين تتحدثان عبر آيات عديدة عن موضوع واحد هو تحريم الزنى والفواحش ووجوب محاربة كل ما يدعو إليها أو يحببها في النفس من قول أو عمل، ومن هذه الأشياء ضرورة أن يبتعد الرجال عن التلصص على النساء في خلواتهن، ولو اتفق ولمحوا عورة امرأة فيجب عليهم غض البصر، وأن لا يلاحقوا النساء لإغوائهن وعمل الفاحشة معهن. وأن من يستمرئ ذلك فيجب على المسلمين فرض عقوبات جسدية عليهم ونفيهم فإن تابوا وإلا يتم القضاء عليهم لأنهم ليسوا مؤمنين بل هم يسعون لخراب المجتمع.

وكما الرجال، يجب على المرأة أن تعي أنها خلقت لكي تغوي الرجل بمظهرها وتقاسيم جسدها المثير، وإلا لما كان هناك تزاوج وإنجاب، ولكن هذا يجب أن يتم في أطر شرعية وتحت مظلة الزواج، ولذلك يجب عليهن ما يجب على الرجل من غض البصر والحرص على حفظ الفرج من الوقوع في المحرم.

كما تقول الآيات بأن على دولة الإسلام سن التشريعات اللازمة للقضاء على كل مظاهر التحلل الأخلاقي مهما صغرت، لأنه لا شيء يبقى على حاله والسماح بصغير الشرر يحولها إلى حريق هائل.

كما يجب سن التشريعات والقوانين اللازمة لمنع كل ما يساهم ولو بجزء ضئيل بإشاعة الفحشاء ولو قولاً. فلا يسمح بقصص أو أفلام أو أغان أو إعلانات أو أندية أو نشاطات أو غيرها تساهم بخدش الحياء وهتك العفة للرجال أو النساء، تحت أي مسمى أو خدمة. وهذا كله لا يعني أن تقبع المرأة في بيتها ولا تخرج منه إلا إلى بيت زوجها وإلى القبر، ولا يعني أن تغطي المرأة وجهها، ولا يعني ألا تتسلم المرأة مناصب قيادية في المجتمع إن كانت في مستوى يؤهلها لذلك، ولا يعني أن صوتها عورة ولا يعني أن وجودها مع الرجال في مكان واحد حرام. ولكنه يعني أن تظهر بمظهر جاد ولا تسرف بالزينة التي تجبر الرجل على أن تستثار غرائزه، وأن تتمتع باستقامة ودين وخلق، وعلى الرجل الواجبات نفسها.

وعلى دولة الإسلام، أن تسن التشريعات والقوانين الكفيلة بتوعية المجتمع رجالاً ونساءً على هذه الأوضاع الطبيعية للمرأة وعلاقتها بالرجل في المجتمع، بجانب القضاء على كل ما يمس العفة ويدعو أو يحبب بالرذيلة، وعندما يعي الناس هذا الوضع الإسلامي الصحي، والذي يمكن تحقيقه بسرعة لو وجدت القوانين والتوعية المناسبة. عندها لن يتحرج الرجل من الحديث مع المرأة ولن تتحرج المرأة، وسينصرف ذهن الرجل عن تخيل عناق المرأة التي أمامه بمجرد أن تحدثت إليه، فهذا الشعور ولدته العادات التي عاشها المجتمع طوال قرون ورسختها الفتاوى الفقهية التي تأولت معاني الآيات كالتي في سورتي النور والأحزاب لتقول للناس بأن المرأة عورة وأن الرجل حمل وديع جرته المرأة للفحشاء بغوايتها الشيطانية التي تحملها بين فخذيها ويفيض به صوتها.

ومن التشريعات والقوانين التي يجب على دولة الإسلام أن تسنها لمحاربة الفحشاء، تشريعات وقوانين تضمن للناس حياة كريمة تبعدهم عن الحاجة والسؤال وإلى طرق باب الحرام لكي يقتاتوا وينعموا بما ينعم به غيرهم من ملذات دنيوية، ومثل هذه الحقوق من واجبات دولة الإسلام توفيرها لكل مسلم وليس منة أو معروفاً أو مكرمة. ومن دون كل ما سبق من تشريعات وقوانين فلن يتخلص المجتمع من الفساد الأخلاقي، ولن يمتنع الناس عن الفحشاء مهما حاول رجال الدين التباكي على الوضع ومهما وعظوا الناس وحذروهم، فتأليف القلوب يكون بإشباع بطونهم وسد حاجاتهم المادية، وليس بالوعظ والقصص والترغيب والترهيب، والإسلام يعلم ذلك. لذا كان تأليف القلوب من أهم ما يجب على دولة الإسلام القيام به للمسلمين في كل وقت وزمان وليس فقط في بداية عصر الإسلام كما يظن بعض الإخباريين والفقهاء. ومن تأليف القلوب ضمان حياة كريمة لكل فرد مسلم في دولة الإسلام أو مسلم تشمله دولة الإسلام برعايتها ولو كان خارجها.

المثال الثالث: التعدد

يعتمد فقهاء المسلمين السنة على الآية الثالثة من سورة النساء في القول بإباحة زواج الرجل بأربع زوجات كحد أعلى في وقت واحد، كما اعتمد عليها فقهاء الشيعة في جواز التعدد أيضاً. وهذا نص الآية: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى

فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ.

وليس هناك أحاديث صريحة تنص على الزواج بأكثر من واحدة أو على الحد الأعلى للتعدد، في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد وسنن الترمذي والدارمي وأبي داوود، ولا في موطأ مالك، وإن كان هناك بعض الأحاديث تشير فقط إلى التعدد، ومن ذلك حديث رواه الترمذي تحت رقم ١١٣٧، وهذا نصه: حدثنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ حدثنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ مَهْدِي. حدثنا هَمامٌ عنْ قتادَةَ، عنِ النَّضْرِ بنِ أَنَسٍ، عنْ بَشِيرِ بنِ نَهيكٍ، عنْ أَبي هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ قالَ: إذا كانَت عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتَانِ، فَلْم يعْدِلْ بَيْنَهُمَا، جَاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وَشِقَّهُ سَاقِطٌ. قال أبو عيسى (أي الترمذي): وَإِنَّمَا أَسْنَدَ هذا الحديثَ هَمَّامُ بن يَحْيَى عن قَتَادَة. ورَوَاهُ هِشَامٌ الدَّسْتَوَائيُّ عنْ قَتَادةَ قالَ: كانَ يُقالُ. وَلاَ نَعْرِفُ هذَا الحديثَ مَرفوعاً إلاَّ مِنْ حدِيثِ هَمَّامٍ. انتهى.

إضافة إلى ما أورده بعض المفسرين كالقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، في تفسيره للآية المذكورة من سورة النساء، عندما قال: وأخرج مالك في موطئه، والنّسائي والدَّارَقُطْنِيّ في سننهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لغَيْلان بن أُمَيَّة الثَّقَفِيّ وقد أسلم وتحته عشر نسوة: اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن. وفي كتاب أبي داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمتُ وعندي ثماني نسوة، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: اختر منهن أربعاً. وقال مقاتل: إن قيس بن الحارث كان عنده ثماني نسوة حرائر؛ فلما نزلت هذه الآية أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلّق أربعاً ويُمسك أربعاً. انتهى ما نقله القرطبي.

والحديث الثاني موجود في سنن أبي داوود تحت رقم ١١٢٥، بهذا النص: حدثنا هَنَّادٌ. حدثنا عَبْدَةُ عنْ سَعِيدِ بنِ أبي عَرُوبَةَ، عنْ مَعْمَرٍ، عنْ الزُّهْريِّ، عنْ سَالِمِ بنِ عَبْدِالله، عنِ ابن عُمَرَ أَنَّ: غَيْلانَ بنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلمَ ولَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ في الْجَاهلِيَّةِ، فَأَسْلَمنَ مَعَهُ. فَأَمَرَهُ النبيُّ أَنْ يَتَخَيَّرَ منهن أَرْبَعاً.

قال أبو عيسى: هكذا رواه معمر عنِ الزُّهْرِيِّ، عنْ سَالِم، عنْ أَبِيهِ. قال: وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إسماعيل يَقُولُ: هذَا حَدِيثٌ غَيْرُ مَحْفُوظٍ. والصَّحِيحُ مَا رَوَى شُعَيْبُ بنُ أبي حَمْزَةَ وَغَيْرُهُ عنِ الزُّهْرِيِّ وَحَمْزَةَ، قالَ: حُدِّثْتُ عنْ مُحَمَّدِ بنِ سُوَيْدٍ

الثَّقَفِيِّ، أَنَّ غَيْلاَنَ بن سَلَمَةَ أَسْلَمَ وَعِنْدَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ. قالَ مُحَمَّدٌ: وإنمَا حَدِيثُ الزُّهْرِيِّ عنْ سَالم، عنْ أَبِيهِ أنّ رَجُلاً مِنْ ثَقِيف طَلَّقَ نِسَاءَهُ. فقالَ لَهُ عُمَرُ: لَتُراجِعَنَّ نِسَاءَكَ، أو لأرْجُمَنَّ قَبْرَكَ، كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أبي رِغَالٍ. انتهى ما نقله الترمذي.

فهل الآية الثالثة من سورة النساء نزلت أصلاً لتحديد التعدد بأربع؟

وهل الأحاديث المذكورة كافية للقول بأن الإسلام يبيح للرجل أن يجمع بين أربع زوجات في وقت واحد؟

وهل هناك علاقة بين العدل بين الزوجات والآية رقم ١٢٩ من سورة النساء، التي تقول: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فإِن اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا؟

أم أنه ليس هناك في القرآن ولا في كتب الحديث المشهورة ما يستدل به على تحديد الزواج بواحدة أو أربع أو تسع أو أكثر، وأن التحديد بأربع جاء كعرف معمول به عند العرب، الذين لا يتجاوزون الزواج بالأربع، كما ذكر البخاري في كتاب التفسير للقرآن أثناء حديثه عن سورة النساء، عندما قال: . . .وقال غيرُه: مَثنى وثُلاث ورُباع، يعني اثنَتين وثلاثاً وأربعاً، ولا تجاوزُ العربُ رُباعَ[1].

وأن الإسلام اشترط العدل المذكور في الآية الثالثة من سورة النساء لكي يمنع الزواج بأكثر من زوجة واحدة، وأن العدل بين النساء ليس في المأكل والمشرب والمبيت، بل في كل ما هو ضد الظلم، ولو كان في المشاعر؟

والذي يقرأ الآيات العشر الأولى من سورة النساء بتمعن يجد أنها نزلت أصلاً للحديث عن بعض حقوق اليتامى، فقد بدأت السورة بقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا.

وهي دعوة صريحة لتذكير الناس بأنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة ويحملون القدرات البشرية نفسها، وكون المرء يتيماً لا يجعله أقل قدراً وإنسانية من الأغنياء.

ولذلك يجب أن لا تستغل ظروف اليتيم من قبل وكيله والقائم على أمواله

(١) صحيح البخاري/ كتاب تفسير القرآن/ سورة النساء ـ ح٩ ص٢٠٧.

ليأكلها بالباطل، أو تهضم حقوقه الأخرى ويتعرض للظلم، وهو ما تتحدث عنه الآيات التالية، والتي من بينها الآية الثانية والآية الثالثة التي يستدل بها على التعدد، يقول تعالى: وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ (النساء: ٢-٣).

وهاتان الآيتان تتناولان عدة نقاط، هي:

* أنهما نزلتا لوضع ضوابط وشروط يجب مراعاتها في التعامل مع الأيتام وكيف تدار أموالهم ويحافظ عليها من قبل الوكيل عليهم، ولم تأت للحديث عن الزواج أو عن التعدد أصلاً، وإن جاء الحديث عن زواج اليتيمة ضمن الأمور التي يجب مراعاتها في التعامل معها: وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا. وهذا ما جاءت السورة لاحقاً بالتأكيد عليه، إذ يبدو أن العرب لم يصدقوا بأن القرآن سيهتم بأمر اليتامى ويعتبر أن حفظ حقوقهن من الدين، فسألوا الرسول عن حقيقة ذلك، فجاء الجواب حاسماً ليؤكد على حفظ حقوق اليتامى والمستضعفين من رجال ونساء: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فإن اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (النساء: ١٢٧).
* أن من بين الضوابط في التعامل مع الفتاة اليتيمة إذا رغب وكيلها الزواج بها، مراعاة العدل الكامل في التعامل معها وعدم استغلال ضعفها لظلمها أو جرح مشاعرها أو التعامل معها بفوقية، وذلك لضمان حياة كريمة لها: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى.
* التأكيد على أن الوكيل إذا لم يجد في نفسه القدرة على القيام بالعدل الكامل في معاملتها، ليس بالنسبة إلى زوجات أخريات، ولكن بصفتها إنساناً سوياً يجب أن ينظر إليها على أنها لا تقل عن أي امرأة أخرى وأن على وكيلها إن أراد الزواج بها مراعاة ذلك. فإن لم يستطع، فعليه صرف النظر عن الزواج

بها، والزواج بمن يشاء من النساء غيرها: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ.

* أن هذه الآية ليست دليلاً على أن الإسلام جاء ليقول للرجال تزوجوا بأربع أو حتى بأكثر من واحدة، ولكن الآية تقول لوكيل اليتيمة الذي لا يجد في نفسه القدرة على العدل معها أن يتزوج باثنتين أو ثلاث أو أربع أو أكثر أو أقل، كما هي العادة في المجتمع العربي آنذاك. لأن الآية نزلت في وقت كان العرف السائد يجيز للرجل الزواج بعدد غير محدد من النساء، دون أن يعتبر ذلك خروجاً عن المألوف. وتكون هذه الآية لم تنزل لتتحدث عن تعدد الزوجات، أو لتحديد أربع زوجات كسقف أعلى للتعدد. أو أنها تحث المسلم على التعدد، أو لتقول بأن الأصل في الزواج التعدد بأربع كما يتمنى بعض رجال الدين ويروجون لذلك عبر كتب كثيرة تغص بها المكتبة العربية.

* أوردت الآية، وبطريقة تبدو وكأنها عرضية، تشريعاً اجتماعياً جديداً يحدد الزواج بامرأة واحدة فقط: فإن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً. حيث اشترط للزواج بأكثر من واحدة وجود العدل الكامل الذي لا ظلم فيه. والذي يعني العدل النفسي والجسدي وفي التعامل وفي كل شيء دون تحديد، ومن لم يستطع فيحرم عليه الزواج بأكثر من واحده: أو حتى الاكتفاء بجارية مما يملك: أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (وهذا كان قبل تحرير الإسلام للرقيق).
وليس العدل توفير الماديات بين الزوجات بالتساوي، بحيث يشتري لكل واحدة من الأغراض والملابس والسكن ما للأخرى أو الأخريات. بل العدل يشمل المعنويات والمشاعر وكل شيء، ولذلك لا يمكن أن يحمل الإنسان شعورين متساويين تماماً لشخصين مختلفين: مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. (الأحزاب: ٤).

* في الآية ٢٠ من سورة النساء ما يؤيد أن الشرع الإسلامي جاء ليؤكد أن الزواج يجب أن يكون بامرأة واحدة: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً. فذكرت الآية استبدال زوج مكان زوج، بما يوحي بأنه ليس هناك سوى امرأة

واحدة، وإلا لاستخدم لفظ يدل على استبدال امرأة بأخرى من مجموع الزوجات.

* أن تعدد الزوجات، وتكرار الزواج بأكثر من امرأة، بوجه عام، له مساوئ كثيرة منها إنجاب أولاد غير أشقاء، ويكون من نتيجة ذلك عدم المساواة في التعامل بينهم، وعدم توفر الأجواء المثالية لتربيتهم وإشعارهم بالحنان في الفترات الحرجة من أعمارهم، مما ينتج عنه مناخ مناسب للانحراف والجريمة، وقد أطلق القرآن على هذه الأوضاع «العول»، في قوله تعالى: ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ.

ومما يستفاد من سرد قصة يوسف في القرآن، التحذير من العول وإنجاب إخوة من عدة أمهات. لأن الأب مهما حرص على العدل بين أولاده فسيميل مع أبناء زوجته المحظية: لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (يوسف: ٧).

فأخوة يوسف غير الأشقاء يمثلون الإنسان العادي الغيور الكاره للظلم والتفرقة: إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (يوسف: ٨).

وبما أنهم لم يستطيعوا إقناع والدهم بالعدل في معاملته لهم مع يوسف وأخيه الشقيق والذي نصت السورة على أنهما من الزوجة الثانية، ومن النادر أن يعدل رجل في مثل هذا الوضع لأن مشاعره تميل للزوجة الشابة وما يمت لها بصلة وهذا يشاهد في كل زمان ومكان.

وعادة ما ينتج عن هذه التفرقة وعدم العدل مواقف سيئة بين الإخوة، وبين النساء، وقد تكون عواقبها وخيمة. فقد يُهمل بعض الأولاد، وتُساء تربيتهم، وقد يُدفع البعض منهم للانتحار إذا عجز عن تعديل الوضع أو مواجهته. والقراء قد مرت عليهم أو سمعوا بقصص مأسوية تحدث في البيوت بسبب تعدد الزوجات وإنجاب أولاد من أمهات مختلفات.

وإخوة يوسف ليسوا سوى بشر، وتصرفوا بموجب مشاعرهم البشرية عندما أرادوا التخلص من يوسف لعل أباهم يعود إلى الاهتمام بهم كما كان سابقاً، وكأن يوسف هو السبب. بينما السبب عادة يرجع إلى أم يوسف مثلها مثل أي زوجة ثانية التي يميل لها الزوج لأنه تزوج بها صغيرة وهو قد كبرت سنه وشاخ، فسحرته

بنضارتها وجمالها الذي فقد من زوجته الأولى، وعلى رغبة القلب تبنى التصرفات.

وإذا كان الولد الذي يشعر بالظلم والصد من والده على استعداد لقتل نفسه، فإن قتله لأخيه غير الشقيق والذي يعتقد أنه سبب ابتعاد والده عنه، سيكون أهون، وهذا ما فكر في تنفيذه إخوة يوسف: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (يوسف: ٩).

ومثل هذا الشعور والتخطيط للانتقام لا يصل إليه الإنسان إلا تحت وطأة ظلم قاهر ومتواصل وليس بمجرد وقوع حادثة واحدة. ومع ذلك، فقد غلب على إخوة يوسف الجانب الإنساني الحسن على الجانب السيئ حتى في الانتقام: قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (يوسف: ١٠).

ويكونوا قد أدركوا أن معاناتهم وإن كانت بسبب يوسف وأمه، إلا أن يوسف نفسه لم يظلمهم ولم يتسبب لهم بمعاناة، ولكن الذي فعل ذلك هو والدهم، لذا لا يمكن قتل يوسف بجريرة غيره، وهو تصرف عاقل قلما يفطن له اليائس والمظلوم.

وفي العادة فإن الوالد لا يقصد إذلال وظلم أبنائه من زوجته الأولى ولكن نتيجة لحبه وشغفه بالزوجة الثانية لا يستطيع أن يلاحظ ميله وبعده عن العدل، وسيعتبر أن كل شكوى أو احتجاج من أبنائه الآخرين وأمهم هو بدافع الغيرة والحقد والكراهية، ولذلك يمعن بمعاملة الأبناء الجدد بانحياز أكبر مقنعاً نفسه أنه ليس ظلماً للآخرين، ولكن لتعويضهم بالحنان والعطف الزائد عما يواجهونه من كراهية محيطة بهم من إخوانهم غير الأشقاء وأمهم.

وقد تخلص إخوة يوسف منه: وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفسكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (يوسف: ١٨).

ولم يصدق يعقوب روايتهم وعرف أنهم تخلصوا منه عمداً وبسبق إصرار وترصد، ولكنه لم يجرمهم حينها لأنه عرف بأن اللوم فيما حدث يقع عليه هو في المقام الأول.

والجرح النفسي الناتج عن التفرقة في التعامل بين الأولاد غير الأشقاء، لا يبرأ مع الزمن، فمع أنه قد مضت سنون عديدة على فراق يوسف، واعتقاد إخوته الجازم أنهم تخلصوا منه وإلى الأبد إلا أن مشاعرهم لم يطرأ عليها أي تغير تجاهه، عندما قابلوه في مصر وعرفهم ولم يعرفوه: قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ (يوسف: ٧٧).

ولما قدم إخوة يوسف عليه وقد أصبح ذا شأن، وفي موقف يستطيع أن ينتقم منهم، لم يفعل، لأنه قدّر أن ما قام به إخوته ضده كان إثر ظلم وقع عليهم، ولم يكن بدءاً لظلم أوقعوه عليه. وأنه هو وإخوته وجدوا أنفسهم في وضع لم يختاروه لأنفسهم، أوقعهم في مواقف متنافرة استوجبت منهم الحقد عليه والتصرف بما أملته عليهم أنفسهم لدرء الظلم عنهم: وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (يوسف: ٥٨).

وعمل يوسف على اقتلاع ترسبات الماضي من النفوس، وإحلال مشاعر الود والتسامح بينهم محل الكراهية والبغضاء، عبر أحداث سردتها السورة، وانتهت باجتماع يوسف بوالديه وأخيه الشقيق وإخوته الآخرين: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ. وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (يوسف: ٩٩-١٠٠).

هذه واحدة من العبر التي تستفاد من قراءة سورة يوسف، ولم يكن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه وحده من الرسل الذين تزوجوا بأكثر من واحده وتسبب هذا الزواج بقطيعة بين الإخوة والنساء، فكتب الأخبار تعزو لإبراهيم عليه الصلاة والسلام قيامه بإبعاد ابنه إسماعيل وأمه، لأن زوجته سارة، وهي المحظية، قد شعرت بالغيرة من تعامل إبراهيم اللطيف لأم ولده واهتمامه بها المتزايد بعد أن ولدت له ولده البكر إسماعيل. وهذه القصة مستقاة من تراث اليهود وكتبهم الإخبارية، ولم ترد في القرآن الحكيم.

فإذا كان هذا ما صدر من نبي الله يعقوب، وقد يكون صدر من نبي الله

إبراهيم، فمن باب أولى أن يصدر ظلم وجور أعظم من الرجل العادي لأبنائه ولبعض زوجاته إن هو جمع أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد.

وعلى الرغم من أن القرآن جاء صريحاً بالاقتصار على زوجة واحدة، إلا أن المسلمين تناسوا ذلك، واستمر الزواج بأربع، كما استمر الطلاق بيسر وسهولة، بل واستطاع الرجل المسلم (العربي) أن يغلف ممارسته تلك بغلاف يبدو وكأنه من دين الله.

وهناك حقيقة قد تغيب عن ذهن بعض القراء، وهي أن القرآن المجيد هو الكتاب الديني الوحيد الموجود على سطح الأرض، الذي ينص على أن الزواج يكون بواحدة فقط: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».

وهنا أود أن أعرِّج ولو باختصار على جمع الرسول لعدد من الزوجات في وقت واحد، لأن له علاقة بموضوع التعدد.

فالرسول قد جمع عدد من النساء في وقت واحد، ومع ذلك لم ير أعداء الرسول من أهل مكة ولا يهود المدينة وخيبر ولا نصارى نجران واليمن ولا عرب بوادي نجد أو أهالي عمان والبحرين واليمامة وغيرهم، أن الرسول قد فعل ما يوجب النقد، أو أنه تزوج بعدد من النساء لأنه استغل دعوته لتحقيق ذلك، لأن الزواج بأكثر من واحدة في عرف ذلك الوقت لم يكن خروجاً عن المألوف، ويمكن لأي رجل أن يفعله.

والإسلام ظهر في ذلك العصر الرجالي المحض الذي ينظر إلى المرأة على أنها سقط متاع لا تملك مشاعر نبيلة لكي تحترم، وما هي إلا وعاء للمتعة وإنجاب الولد. لذا كان التعدد من أقل المظالم التي وقعت على المرأة، التي كانت تدفن حية حتى لا تجلب لأهلها العار. وبما أن الإسلام جاء لكي يصحح كل المفاهيم الاجتماعية الخاطئة ومنها النظرة الدونية إلى المرأة واعتبارها اقل من أن تساوى بإنسانية الرجل، فقد جاء الإسلام بتشريعات لم يعتدها العرب ولا سكان شبه الجزيرة العربية الآخرين، ولكنها تتواءم أكثر مع العصر الحديث، وهي كثيرة جداً.

ومن هذه التشريعات ما يؤكد أن المرأة تستحق ما يستحقه الرجل من احترام للمشاعر والعدل وعدم التعرض للظلم، ولذلك فلا يجب أن يجمع الرجل لأكثر من امرأة واحدة في وقت واحد.

وبما أن الرسول بشر مثل غيره من البشر ويعيش في ذلك المجتمع فقد جمع من النساء، وامتلك الجواري، كما كان يفعل رجال مجتمع ذلك العصر، وهو ما يصوره قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا. تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (الآيتان ٥٠-٥١ من سورة الأحزاب).

وكان ذلك مباحاً في معظم أيام بعثته صلوات الله وسلامه عليه، ولكن مع التأكيد على مراعاة العدل بين نسائه، حتى في أدق التفاصيل والمشاعر: ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا.

وفي آخر دعوة الرسول حان الوقت لكي تبنى تشريعات جديدة تتواءم مع كل عصر، ومن ذلك العدل بين النساء وعدم التعداد، فنزلت الآية الثالثة من سورة النساء التي تمنع التعداد على الناس إن لم يتوفر العدل الكامل، والتي سبق الحديث عنها في موضوع الطلاق. ثم حرم على الرسول في آخر حياته، بنص صريح وواضح، الحصول على المزيد من الزوجات، وهو ما ذكرته الآية التالية رقم ٥٢ في سورة الأحزاب: لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا.

ومن السهل معرفة لماذا لم يؤمر الرسول بالاكتفاء بواحدة مثل بقية الناس، لأن نساء الرسول اللاتي بقين معه حتى آخر حياته هن من اخترن العيش معه وتركن كل متع الدنيا من أجل ذلك اتباعاً للآيتين رقم ٢٨-٢٩ من سورة الأحزاب: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فإن اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا. وطلاقهن بعد ذلك لن يبدو كمكافأة مناسبة لصبرهن.

وقد كافأ الله سبحانه من رضين العيش مع الرسول بثواب عظيم في الآخرة وبنيشان دنيوي تمثل في تلقيبهن أمهات المؤمنين، وبذلك حرم على الرجال الزواج بهن بعد الرسول: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (سورة الأحزاب:٦).

ولأنهن فضلن البقاء مع الرسول على متع الدنيا فكان من اليسير بحقهن أن يؤمر الرسول على الإبقاء عليهن ومنع من طلاقهن أو بعضهن، كما منع من التزوج عليهن بنساء أخريات.

ونأتي الآن للحديث عن قوله تعالى في سورة النساء: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فإن اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (الآية ١٢٩ من سورة النساء) وهل لها علاقة بالآية الثالثة من نفس السورة التي تتحدث عن اشتراط العدل وإلا واحدة، فنقول:

إن هذه الآية وردت ضمن أربع آيات، بدأت بالآية ١٢٧، وانتهت بالآية ١٣٠، كلها تتحدث عن موضوع واحد. يقول تعالى: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فإن اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا. وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أو إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فإن اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فإن اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا.

فالعرب يبدو أنهم لم يصدقوا أن القرآن قد جاء في أول سورة النساء ليقول بأن اليتيم ولو كانت امرأة، لها حقوق موازية لكل فرد آخر في المجتمع، ومساوية لحقوق وكيلها الرجل، وأن للمرأة الحق برفض الزوج أو الامتناع عن معاشرة الرجل، وأن للمرأة حقوقاً مثلما له تماماً، وقد تساءلوا عن حقيقة ذلك فنزلت هذه الآيات لتؤكده.

والعدل الوارد في الآية رقم ١٢٩ : وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فإن اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. جاء بعد الآية رقم ١٢٨ التي تتحدث بأنه من حقوق الزوجة ألا يهجرها زوجها ولا يتصرف معها بغلظة، وأن على الرجل معاملة زوجته بإنسانية ليس تفضلاً منه ولكن لأن ذلك من ضمن حقوقها التي بينها لها الإسلام، والتي تتعارض مع ما كان سائداً في ذلك العصر. فإن استحالت العشرة بينهما لتعنت كل جانب بموقفه (وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشُّحَّ) فالطلاق هو الحل الأمثل. فيكون معنى العدل في الآية ١٢٩ هو إحقاق حقوق المرأة وعدم هضم حقوقها، ولكن بما أن المخاطب في الآية هم المسلمون زمن الرسول الذين اعتادوا التعامل مع الزوجة بجفاء وظلم، فمهما حرصوا على العدل كاستجابة لشرع الله فسيغلب الطبع الذي تطبعوا عليه خلال تاريخهم الطويل في معاملة المرأة على ما يحاول القرآن تطبيعهم عليه من وضع تعاملي جديد، ولذلك فالمطلوب منهم في تلك المرحلة الحرص على تذكر شرع الله الجديد وأن يتراجعوا قدر الإمكان كلما ظلموا المرأة أو قسوا عليها إن كانوا يتقون الله وأن يصلحوا ويعدلوا ما أفسده ظلمهم لها: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فإن اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا.

أما بعد عصر الرسول وبعد أن يصبح لدولة الإسلام دستور مستمد من القرآن، فيجب أن تنص فقراته على أن تعامل المرأة بكل عدل مع الرجل، ولا يسمح بأي تجاوزات في هذا المجال.

وتختم الموضوع الآية ١٣٠ بالقول بأنه إن لم تنفع الحلول الوسط، ولم يستطع الرجل العدل في تعامله مع زوجته، فالطلاق هو الحل المثالي لهما: وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا.

وهكذا منعت سورة الأحزاب على الرسول الزواج أو الطلاق في آخر أيامه، كما منعت بداية سورة النساء بقية الناس من التعدد، إلا بشرط العدل المطلق، والذي لا يمكن الوفاء به في الظروف العادية، كما منعت الآيات ١٢٧-١٣٠ من سورة النساء أن تعامل المرأة بأقل مما يعامل به الرجل في كل شيء.

وكل أمر في القرآن أو نهي هو حد من حدود الله التي نهى الله عن المساس

بها: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (جزء من الآية ١٨٧ من سورة البقرة).

وإذا أمر الله بأمر فليس للناس أن يصنفوا العمل به إلى واجب ومستحب وجائز، لأن أي أمر ورد في القرآن فيجب العمل به: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً (الأحزاب: ٣٦).

ويكون الإسلام لم يأمر بالتعدد لأن التعدد كان موجوداً قبل مجيئه، ولم يحدد عدد النساء اللاتي يمكن أن يتزوج بهن الرجل حتى لو زاد على الأربع أو التسع، ولكن الإسلام وضع شرطاً صارماً للزواج بأكثر من امرأة واحدة، يتمثل في منع التعدد إذا كان يُخشى منه التفرقة في معاملة الأبناء، أو قد يؤدي إلى ظلم إحدى الزوجات.

ويلاحظ أن المنع جاء كعمل احترازي لمنع ظلم قد يقع، وليس علاجاً للظلم بعد وقوعه، بمعنى أن الزواج بأكثر من واحدة يمنع حتى لا يقع الرجل في الظلم، وليس المعنى أن يعطى الرجل فرصة للتعدد فإن ظلم إحدى زوجاته أو فرق في تعامله مع أبنائه أجبر على الاكتفاء بواحدة.

كما صحح الإسلام النظرة إلى المرأة من مخلوق جالب للعار وليس له من المشاعر ما يستحق المراعاة، إلى إنسان سوي مثله مثل الرجل سواءً بسواء، ولا ينقص اختلاف جنس المرأة من قيمتها الإنسانية وحقوقها شيئاً.

ولو قدر وجاءت دولة إسلامية عصرية بعد الرسول، تعتمد على دستور مكتوب، لوجدنا في دستورها فقرة في قانون الأحوال الشخصية تنص على أن الزواج بأكثر من واحدة ممنوع، إلا أنه في حال تغيرت الأحوال والأعراف، وجاء عصر لا تمانع فيه عدد من النساء من الزواج برجل واحد، فيسن من القوانين ما يضمن العدل والمساواة بكل دقة وتفصيل، فغاية تحديد الزواج في الإسلام هو ضمان العدل المطلق للزوجة في تعامل زوجها معها، وضمان أن يولد الأولاد في بيئة صحية سليمة وينشأون وسط جو من الرعاية والعناية، وضمان العدل في التعامل معهم وحفظ حقوقهم معنوياً ومادياً.

كما أننا سنجد أن الدستور ينص على أن الرجل والمرأة شريكان متساويان في مؤسسة الزواج لكل واحد من الحقوق والواجبات ما للآخر دون تمييز.

في الحدود

المثال الأول: التعزير[1]

يعرف الفقهاء التعزير بأنه: عقوبة غير مقدرة شرعاً، تجب حقاً لله أو لآدمي، وفي كل معصية ليس فيها حد ولا كفارة غالباً.

وسنتوقف عند هذا التعريف قليلاً لنقول: إذا كانت العقوبة غير مقدرة شرعاً، في معصية لم ينزل الله فيها حداً ولا كفارة، أي أن الله لم يقرر لها عقوبة، وهو الذي يعلم السر وما يخفى والذي خلق الإنسان واختار له من الدين والتشريع ما يقوم حياته في الدنيا لو اتبعه وينجيه من النار في الآخرة، فكيف أجاز الفقهاء من عند أنفسهم أن يقرروا عقوبة لمعصية أو مخالفة لم يقرر الله لها عقوبة؟

أليس هذا اتهام للقرآن بالنقص؟ مع أن الله يشهد بشموليته: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (بني إسرائيل: ٨٩).

أليس التشريع بغير ما في القرآن تعدياً على حدود الله؟ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (النساء: ١٤).

ثم من أين قرر الفقهاء تلك العقوبات التي سموها تعزيراً؟

هل كان يأتيهم الوحي كما جاء الرسل: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (الطور: ٤١).

أم كانوا يسترقون الوحي: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (الطور: ٣٨).

أم أنهم في الحقيقة يتبعون تخمينات وظنوناً: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرض وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (يونس: ٦٦).

الم يسمعوا بقوله تعالى عمن يقترف ذلك: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ

---

(١) اعتمدنا في أقوال الفقهاء عن التعزير على ما جاء في باب التعزير ـ الموسوعة الفقهية/ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة الكويت.

تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أنفسكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (الأنعام: ٩٣).

أليس تشريع عقوبة لم يأمر بها الله وليست في كتابه اشتراكاً مع الله في ملكه؟ والله سبحانه ليس له شريك في الملك: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (بني إسرائيل: ١١١).

أليس تشريع عقوبة لم يأمر بها الله، تنصيباً لمن شرعها على أنه رب من الأرباب من دون الله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤).

ألم ينهنا الله عن اتباع غير كلام الله: اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (الأعراف: ٣).

أليس تشريع عقوبة ليست في كتاب الله وتوقيعها على الناس على أنها من شرع الله، من الكذب والادعاء على الله: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧٨).

أليس الدين دين الله، والمشرع هو الله، والله وحده، ليس غيره، لا ملائكة ولا أنبياء، يستطيعون أن يشرعوا لدين الله ما لم يأمرهم به الله، فكيف أجاز الفقهاء تشريع عقوبات باسم دين الله دون أن يخولهم الله بذلك؟

أمثلة على التعزير وأنواعه

لقد أورد الفقهاء أمثلة للحالات التي يكون فيها التعزير، والملفت هو ما أطلقوا عليه «قاعدة سد الذرائع» والتي تعني أن كل فعل أو تصرف أو قول مباح في ذاته، ولكن قد يفهم منه أنه يؤدي إلى مفسدة، أو مكروه أو حرام فإنه يمنع، ويعزر كل من يصدر منه.

وهذه القاعدة التي لم يقل بها الله ولا رسوله، فتحت المجال لمعاقبة أي

شخص لم يقترف ما يوجب العقاب، وهي سنة خطيرة جداً، وتعدٍ على حدود الله، بل اتهام لذات الله جل وعلا أنه لم يستطع أن يقرر عقوبات لأفعال كان يجب أن يكون لها عقوبات.

وحتى في الجنايات والمعاصي التي عقوبتها حد شرعي، لم يكتف الفقهاء بالحد الذي قرره الله بنص ثابت في القرآن، وأضافوا لها عقوبة تعزيرية من عند أنفسهم.

فالقاتل الذي عفي عنه، يعزر بضرب مائة جلدة ويحبس سنة. والزاني الذي حده مائة جلده في كتاب الله يغرب لمدة عام عند الحنفية تعزيراً. وشارب الخمر يسب ويشتم تعزيراً، بل ويجلد تعزيراً، على الرغم من أن شرب الخمر ليس له حد في كتاب الله. والسارق تقطع يده حداً وتعلق في عنقه تعزيراً.

وحتى المعاصي التي فيها كفارة بنص كتاب الله يعزر مرتكبها بحسب ما يراه القاضي أو الفقيه أو الحاكم، مثل من جامع زوجته في نهار رمضان أو أثناء الإحرام عامداً.

وقال الفقهاء بأن هناك نوعين من التعزير:

تعزير لحق الله، مثل تعزير تارك الصلاة أو المفطر في رمضان بغير عذر، أو من يحضر مجلس شراب. وهذا النوع من التعزير يستطيع السلطان (ولي الأمر) العفو عنه.

وهناك تعزير لحق العبد.

ومما يلاحظ على التعزير الذي وضعه الفقهاء للدفاع عن حقوق الله، أن الفقهاء نصبوا أنفسهم أوصياء على دين الله وعلى ذات الله (لا حول ولا قوة إلا بالله) وكأن الله جل وعلا قد قصر في تشريع يحفظ له حقوقه، فقام الفقهاء بذلك بالنيابة عنه (تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ثم إن التعزير الذي وضعوه لحقوق الله، قالوا بأن السلطان يمكنه أن يتسامح فيه، ويلغي الحكم. ويكون الفقهاء قد أعطوا السلطان صلاحيات فوق إلهية.

حدود التعزير

يقول بعض الفقهاء بجواز القتل تعزيراً، على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى يقول: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق (الأنعام: ١٥١).

وبما أن الحاكم هو المفوض بإصدار حكم التعزير، كما شرع له الفقهاء، فإن هذا يمكنه من قتل كل من يريد الحاكم قتله تعزيراً، ولو لم يرتكب ما يوجب قتله شرعاً. وهو ما حدا بالفقهاء ليقولوا: إن الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن (سبحان الله عما يصفون).

على الرغم من أن الفقهاء يوردون حديثاً يقولون بأن رسول الله قد قاله، وهذا نصه: لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى. وحديث آخر ثابت عن رسول الله عندهم، وهو: من بلغ حداً في غير حد فهو من المعتدين.

ولذلك يرى أبو حنيفة ألا يزيد جلد التعزير عن تسعة وثلاثين سوطاً، لأن حد زنى الأمة أربعين جلدة. وتسعة وثلاثون تتجاوز العشرة أسواط التي حددها الحديث كحد أعلى للتعزير.

لكن الأمر لم يقف عند الفقهاء إلى هذا الحد، فنجد أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة ينسب إليه أن أقصى الجلد تعزيراً هو تسعة وسبعون أو خمسة وسبعون سوطاً، لأنه لم يأخذ بحد الأمة، كونه ليس حداً كاملاً، وأخذ بحد القذف وهو ثمانون جلدة.

فيكون أبو حنيفة وتلميذه أبو يوسف قد تجاوزا نص الحديث الذي يقول لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله، مع أنهما يعتبران الحديث ثابتاً ولم يقولا بأن الحديث مكذوب، ومع ذلك لم يعملا بموجبه.

أما مالك فقد تجاوز بالتعزير حدود الله في الجلد، وقال بجواز الجلد بأكثر من ثمانين ومائة جلدة، وأعطى هذه الصلاحية للحاكم (الإمام). واعتمد على خبر روي عن عمر أنه جلد معن بن زياد مائة جلدة ثم مائة أخرى، ثم مائة ثالثة. كما رووا أن عمر ضرب صبيغ بن عسل أكثر من الحد، ورووا أن علياً أتي له بالنجاشي وقد شرب خمراً في رمضان فجلده ثمانين كحد للخمر وعشرين لفطره في رمضان.

وقد علل المالكية تجاوزهم لحديث لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط، بأنه مقصور على زمن الرسول. وبطبيعة الحال ليس هناك دين لزمن الرسول ودين لما بعد زمن الرسول.

وأحكام الفقهاء تلك فتحت المجال للحاكم لكي يسوم الناس سوء العذاب تحت مسمى شرعي اخترعه له الفقهاء، بحيث يمكنه جلد الناس وتغريبهم، وفصلهم من أعمالهم، وكل ما يراه، مع أنهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب في كتاب الله وشرعه.

وحتى لو ثبت عن عمر أو غير عمر من الصحابة أنه تجاوز في حكم من أحكامه حدود الله فلا يعني أن هذا سيتحول إلى شرع جديد لله، بل يعني أن عمر أو غيره قد أخطأ، ومن اقتدى بخطأ فقد أصر على الخطأ.

أما الحنابلة فيرون أن التعزير لا يزيد عن عشر جلدات. لكن عندما جاء زمن ابن تيمية وابن القيم قالا أن التعزير يكون بحسب المصلحة (وهذا تعريف عام إذ إن تحديد مفهوم المصلحة لا يمكن أن يتفق عليه اثنان)، وتركا تحديدها للحاكم، الذي أصبح له حق تقرير الحكم التعزيري كما يحلو له.

التعزير بالحبس

على الرغم من أنه لا حبس في الإسلام، إذ لم يرد في كتاب الله إلا بحق اللاتي يأتين الفاحشة من النساء (السحاقيات): وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (النساء: ١٥).

ومع أن الحبس وسجن الناس لم يعرفه المسلمون إلا في زمن علي بن أبي طالب كأول من أدخل الحبس في الإسلام، إلا أن الفقهاء أعطوا الحاكم حق التعزير بالحبس بالمدد التي يراها.

كما أجاز الفقهاء التعزير بالنفي. وأجازوا التعزير بطرق كثيرة أخرى. ومما قالوه عن الجرائم التي فيها تعزير:

الاعتداء على النفس بما دون القتل. والزنى الذي لم تتوفر أحد شروط ثبوته (مع أن القرآن صريح وواضح هنا، فلو ضبط رجل عار بين رجلي امرأة عارية فلا يكفي هذا للحكم عليهما بالزنى، ما لم يعترفا طواعية أو يشهد عليهما أربعة عدول أن الميل بالمكحلة، وإذا لم يثبت الزنى فليس عليهما أي عقوبة أخرى غيره، بل يطلق سراحهما).

وما قالوه عما يستحق التعزير: السرقة التي لا حد فيها، وقطع الطريق الذي لا حد فيه، وشهادة الزور، والشكوى بغير الحق، وقتل حيوان غير مؤذ أو الإضرار به، وانتهاك حرمة ملك الغير، والرشوة، وجور القاضي، وترك العمل أو الامتناع عن تأدية الواجب، والغش بالمكاييل والأوزان. . . وغير ذلك.

وهذه المخالفات إذا لم يكن لها حكم في دولة الإسلام، بموجب نص من القرآن، فيلزم وضع عقوبات ثابتة ومعروفة لها، من دون إفراط ولا تفريط، في دستور دولة الإسلام، وتكون معروفة للجميع، ولا تكون مبهمة يستطيع كل حاكم أو قاض أن يحكم فيها بما يراه.

والاعتراض على ما شرعه الفقهاء باسم التعزير كون التعزير كلمة مطاطة لا حدود لها ولا تعريفاً ثابتاً، فأصبح سوطاً وسكيناً بيد السلطان يخمد به أنفاس من ينتقده باسم الدين. وكان يجب أن يكون في دولة الإسلام دستور متكامل تشتمل قوانينه على كل العقوبات لكل المخالفات، وإذا ما اقتضى الأمر إضافة عقوبة لمخالفة جديدة وجب أن يكون ذلك بمشورة كل من بلغ سن الرشد من المسلمين من ذكر وأنثى، وبعد أن تحدد العقوبة تثبت على شكل قانون يصاغ صياغة قانونية. ولا يترك دين الله أداة بيد أي إنسان يحركه كيفما تقتضيه مصالحه وما يراه شخصياً. سواءً كان هذا الشخص حاكماً أو قاضياً.

ونورد فيما يلي خبرين نشرا في جريدة الاقتصادية السعودية كنموذج لبعض الأحكام التعزيرية التي تصدرها المحاكم هناك كل يوم، وهذه الأحكام هي نتاج ما توارثته أجيال القضاة والفقهاء جيلاً بعد آخر، مع ملاحظة أن هذه الأحكام ليست الأقسى وليست الأغرب ولكنها تعتبر أحكاماً معتادة، وإن كانت ستثير مشاعر الاستهجان لدى بعض القراء:

الخبر الأول

نشرت جريدة الاقتصادية، السعودية، في عددها (٣٢١٩) الصادر يوم السبت ٢٤/ جمادى الأولى/ ١٤٢٣هـ الموافق ٣/ ٨/ ٢٠٠٢ تحت عنوان:

رئيس هيئة قباء للاقتصادية: للمحتسب الشرعي حق مصادرة مكان الفساد وإحراقه

مصادرة منزل وهدمه والتشهير بأصحابه لإخلالهم بالآداب

وهذا نص الخبر:

كتب ب. ن. من المدينة المنورة

كشف للاقتصادية الشيخ (ع. ز) رئيس مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قباء، عن صدور حكم شرعي يقضي بمصادرة منزل وهدمه، وأخذ أرضه، والتشهير بموقعه وأصحابه وذلك نتيجة لممارستهم أعمالاً منافية للأخلاق.

وكانت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد داهمت منزلاً في ضاحية من ضواحي المدينة تدعى «الدويمة» وقبض على نحو أربعة رجال وسبع نساء أثناء المداهمة متلبسين بالأفعال المشينة، بينما أفراد هذه الشبكة يتجاوزون هذا العدد، وتمت إحالتهم إلى الجهات المختصة، وتعود جنسيات هؤلاء الجناة إلى بعض الدول العربية والأفريقية.

وحكمت محكمة المدينة على المرأة التي تدير هذا الوكر بالسجن ١٥ عاما وجلدها خمسة آلاف (٥٠٠٠) جلدة مقسمة على عدد من السنوات. بينما تم الحكم على الآخرين بأحكام تراوحت ما بين خمس إلى عشر سنوات، وجلدهم من ألف إلى ثلاثة آلاف جلدة وتمت إحالتهم إلى السجن لتنفيذ القرار.

من جهته، أكد الشيخ (ع. ز) أن للمحتسب الشرعي الحق في مصادرة مكان الفساد وإحراقه، ونظراً إلى أن الإحراق يسبب أضراراً للآخرين وللجيران، فإنه يكتفى بهدم المنزل ومصادرة أرضيته، كنوع من العقاب على الجرم الذي ارتكبه أصحابه. انتهى الخبر.

والتعليق عليه كالتالي:

الخبر يقول: «صدور حكم شرعي يقضي بمصادرة منزل وهدمه».

وبطبيعة الحال لا يوجد في الإسلام حكم يقضي بمصادرة منزل وهدمه، ولكنه حكم تعزيري لا يقبله الإسلام ولا يقره.

ويقول الخبر: «وتعود جنسيات هؤلاء الجناة إلى بعض الدول العربية والأفريقية».

والجاني هو ما يثبت عليه الجناية، وليس عندما يقبض عليه بتهمة. وإن كان

استخدام لفظ «الجناة» من تعبير الصحافي إلا أنه يظهر الفكر السائد أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته.

والخبر يقول: «وحكمت محكمة المدينة على المرأة التي تدير هذا الوكر بالسجن ١٥ عاما وجلدها خمسة آلاف (٥٠٠٠) جلدة مقسمة على عدد من السنوات».

فهل في شرع الله مثل هذا الحكم؟

والخبر يقول: «بينما تم الحكم على الآخرين بأحكام تراوحت ما بين خمس إلى عشر سنوات، وجلدهم من ألف إلى ثلاثة آلاف جلدة».

والسؤال هنا هو: أليس اتهام الغير بالزنى دون شهادة أربعة شهود عدول بأن الميل قد دخل في المكحلة، يعتبر قذفاً ويعاقب عليه الإسلام بثمانين جلدة ولا تقبل شهادة القاذف أبداً: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور: ٤) وعلى هذا الأساس فكان يجب جلد رجال الهيئة الذين قبضوا على أولئك الرجال والنساء واتهامهم بأن اجتماعهم في منزل تلك المرأة لممارسة الزنى. لأنه وإن كان اجتماعهم قد يكون الغرض منه غير طاهر، إلا أن الإسلام لا يحكم على الظن. وحتى لو اجتمعوا بتلك الصورة وأنكروا ممارسة الفاحشة فلا حد عليهم ولا جلد، ولا أي نوع من العقوبة.

ويقول الخبر: «من جهته، أكد الشيخ (ع. ز.) أن للمحتسب الشرعي الحق في مصادرة مكان الفساد وإحراقه ونظراً إلى أن الإحراق يسبب أضراراً للآخرين وللجيران، فإنه يكتفى بهدم المنزل ومصادرة أرضيته».

فمن أعطى القاضي هذا الحق الذي لم يجرؤ على فعله محمد صلى الله عليه وسلم؟

وإذا كان هذا تجاوزاً لحدود الله، ألا يعني تجاوز حدود الله التعدي على ذات الله واتهام الشرع بالقصور وعدم القدرة على وضع حدود صالحة لكل زمان ومكان. . . وبعبارة أخرى وصف الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) بقصر النظر وعدم القدرة على التنبؤ بما ستكون عليه أوضاع الناس بعد قرون من عصر الرسول لكي توضع عقوبات رادعة للمخالفات التي ستحدث فيها: أم أن الناس ما قدروا

الله حق قدره، كما يقول سبحانه: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر: ٦٧).

وإذا كان البيت قد هدم وصودرت ملكية أرضه، فأين ذهبت؟

لأنه حتى لو كان هناك بيت مال للمسلمين فلا يجوز أن تذهب إليه لأنها مال مغتصب، وبطبيعة الحال هي لم تذهب إليه، فأين ذهبت ملكية أرض البيت المهدوم بعد مصادرته؟

الخبر الثاني

نشرت جريدة الاقتصادية نفسها في عددها (٣٢٢٠) الصادر يوم الأحد ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ الموافق ٤/٨/٢٠٠٢ تحت عنوان:

ستة أشهر ومئتان وأربعون (٢٤٠) سوطاً حجم العقوبة

السجن والجلد لنيجيري حاول فعل الفاحشة بناقة

وهذا نص الخبر:

أقرت المحكمة المستعجلة في تبوك حكماً شرعياً بالسجن ستة أشهر لمراهق نيجيري، مع جلده ٢٤٠ سوطاً، لثبوت محاولته فعل الفاحشة بناقة في حوش لإبل مواطن في منطقة تبوك. وأبلغ «الاقتصادية» الشيخ الدكتور (ع.ع.غ.) قاضي المحكمة المستعجلة في تبوك، أنه باستجواب النيجيري الذي يبلغ من العمر ١٧ عاماً، أفاد أنه دخل حوش الإبل وعقل الناقة البكر بقصد فعل الفاحشة بها، لكن تم القبض عليه بواسطة رجال الأمن، قبل الشروع في الفعل المقصود ـ وفقاً لاعترافه.

وأضاف (القاضي) أنه وفقاً لاعترافات النيجيري المصدقة، ثبت ما أسند إليه من تهمة الشروع في مقدمات فعل الفاحشة بالناقة، وعليه صدر الحكم بتعزيره بالسجن لمدة ستة أشهر اعتباراً من تاريخ إيقافه، مع جلده ٢٤٠ سوطاً موزعة على ست دفعات (٤٠ سوطاً لكل مرة)، بحيث تفصل الدفعة عن الأخرى سبعة أيام، إضافة إلى أخذ التعهد عليه بالتوبة وعدم العودة والالتزام والاستقامة.

وكان المواطن مالك الحوش قد حضر إلى مركز شرطة الخالدية في تبوك مبلغاً عن دخول المراهق النيجيري حوش إبله، وفعل الفاحشة بإحداها، وأسفر التحقيق

مع الجاني عن ثبوت ما نسب إليه من تهمة، وذلك للأدلة والقرائن الواردة في لائحة المدعي العام.

وكان المدعي العام قد ذكر في دعواه أن ما أقدم عليه المراهق الموقوف في دار الملاحظة، فعل محرم ويعاقب عليه شرعاً، مع إثبات ما أسند عليه، مطالباً بالحكم عليه بعقوبة تعزير رادعة. وبعرض الحكم على المراهق، قرر قناعته به، كما قرر المدعي العام قناعته وعدم اعتراضه. انتهى الخبر.

التعليق

المتهم: مراهق عمره ١٧ سنة، وهذا يعني أنه في أوج نشاطه الجنسي الغريزي مع طيش المراهقة الذي يمر به كل الناس بمن فيهم القاضي الذي حكم بالقضية وصاحب الإبل ومن نشر الخبر ورئيس تحرير الجريدة.

التهمة: الشروع في مقدمات فعل الفاحشة بالناقة، وما يؤيد ذلك ما ورد قبل ذلك ونصه: تم القبض عليه بواسطة رجال الأمن، قبل الشروع في الفعل المقصود.

الضحية: ناقة، كما ورد في الخبر: دخل حوش الإبل وعقل الناقة البكر بقصد فعل الفاحشة بها (ولا أدري إن كان المقصود من إيراد عبارة «بكر» لوصف الناقة بأنها ليست محصن أسوة بالبشر أم أنها في سن مراهقة مثل المتهم الذي حاول التحرش بها؟).

كل هذه الظروف والملابسات لا توجب حداً على المراهق ولا حتى عقوبة من أي نوع في دين الله على الإطلاق. فلم يقترف المراهق المسكين ممارسة الزنى «إنسحيواني»، وكل ما فعله أن غيره ظن أنه سيشرع في محاولة مواقعة الناقة، وهي مهمة تبدو مستحيلة لأنها تحتاج إلى جمل جسمه متناسق مع جسد الناقة، أو لإنسان يتمتع بجسد مرن لدرجة يستطيع معها أن يتموضع تموضع الجمل عندما يكون في حال جماع. وحتى لو استطاع ذلك، فليس هناك حد من الله في ذلك الجنس اللاممتع، والذي يظهر مدى حاجة المراهق المسكين إلى الباءة لدرجة جعلت مؤخرة الناقة تغريه.

وكان على القاضي لو أراد أن يتبع شرع الله أن يسعى إلى وجاء المراهق (المسلم) عن طريق تأمين امرأة ترضى بالزواج منه، بدل أن يقسو عليه بأحكام

جائرة ستجعله يكره دينه الإسلام وقد يخرج منه، ولو فعل فسيعاقب، وسيعاقب معه القاضي وكل من اشترك في تجريمه وعقابه بهذه القسوة. يقول تعالى في مثل وضع المسكين: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإِن اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (النور: ٣٣).

فكان يجب على القاضي وصاحب الناقة والمدعي العام وكل من عرف بالقضية أن يعمل بموجب هذه الآية التي تدعو المسلمين إلى أن يبحثوا للمسكين عن زوجة ويدفعوا له المهر ويؤمنوا له منزلاً يحوي ضروريات الأثاث، كما كان يجب أن يكون هناك قانون ثابت ومكتوب في دولة الإسلام أن كل من يريد الزواج ولا يجد ما يكفي من مال أن يؤمن له البيت وكل متطلبات الزواج من ميزانية دولة الإسلام.

والمراهق المسكين ليس عليه عقاب من أي نوع، لأنه لم يقترف بعد ما سيكون تهمة لو فعله حتى يثبت عن طريق شهود أربعة يشهدون بأن ميله في مكحلة الناقة (تجاوزاً)، ولو شهدوا بذلك أو اعترف هو فقد يكون جاهلاً بحكم ممارسة هذا النوع من الزنى «الإنس ـ حيواني» فإن كان جاهلاً بذلك فليس عليه أي حد. مثلما أنه ليس على الإنسان الجاهل بحكم الزنى حد إذا زنى، وهذا ما يقوله الفقه الذي يتبعه القاضي. إذ تقول الموسوعة الفقهية الكويتية في شروط إقامة حد الزنى: اتفق الفقهاء على أن العلم بالتحريم شرط في حد الزنى، فإن كان من صدر منه الفعل غير عالم بتحريم الزنى، لم يجب عليه الحد للشبهة. انتهى (الجزء ٢٤، ص٢٤).

وإن كان المراهق غير مسلم فالفقه الإسلامي الذي يتبعه القاضي أيضاً ينص على أن الكافر إذا زنى بامرأة مسلمة، وليست ناقة، لا يحد (المصدر السابق ـ ص٣٥) أما شرع الله فهو بريء من كل ما يسمى بهذا التعزير.

انتهت تعليقاتنا على حادثة الناقة البكر والمراهق المتيم، وبانتهاء ذلك نختم حديثنا عن التعزير الذي من الواضح أنه تشريع أقره الفقهاء بعد انقطاع الوحي، وهذا وحده يكفي لأن يكون بدعة مستحدثة وإضافة إلى الدين مما ليس فيه.

ومن دون شك فأي حكم يسمى تعزيراً هو من صنع الفقهاء القدامى وتبعهم في

ذلك من جاء بعدهم من فقهاء، مع أن الله حذر من مثل هذه الموروثات بقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠).

وموقف الفقهاء هذا تكرار لمواقف اليهود من كتاب الله وشرعه، عندما نبذوه وراء ظهورهم واستبدلوه بما يشرعه لهم الفقهاء، الربانيون والأحبار، وهي تشريعات بغير ما أنزل الله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة: ٤٤).

المثال الثاني: الحسبة

في بلاد الحرمين هناك مؤسسة حكومية تسمى «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لها مكاتب فرعية في كل حي من أحياء المدن الكبرى، كما تنتشر في كل قرية وتجمع سكني في طول البلاد وعرضها، ويطلق على العاملين فيها تجاوزاً «الشرطة الدينية، أو المطاوعة».

ويتركز عمل تلك الهيئات المعلن على عدم السماح لأي تصرف فيه مخالفة لما يعتبره العاملين فيها، من الإسلام. وذلك بأن تقوم فرق تتكون كل فرقة منها عادة من سائق ورجل شرطة وواحد أو اثنين من المطاوعة، بالتجوال في الشوارع والأسواق التجارية، كما تقوم بحملات تفتيشية على الأماكن السكنية العامة مثل الفنادق والبنايات السكنية، والمقاهي والمطاعم وأماكن الاستراحات والمتنزهات العامة والخاصة، وحتى المستشفيات. وفي حال العثور على شخص أو أشخاص مخالفين، يتم القبض عليهم ويساقون للحبس الموجود في كل فرع من فروع هذه المؤسسة، ويتم استجوابهم.

وبعض المخالفات يمكن لمطاوعة المركز معاقبة المتهم عليها، وبعضها تحتاج إلى رفعها لجهات رسمية أخرى حسب نوع المخالفة، ومن هذه الجهات الرسمية، إمارة المنطقة، ووزارة الداخلية، المحكمة، والشرطة وأحياناً غيرها.

وهذه المخالفات التي تحتاج إلى جهات رسمية للبت في عقوبتها، يقوم رجال

الهيئة بتوثيق جلسات التحقيق التي حرروها ضد المتهمين بمحضر، ويتضمن توصيات لنوع العقوبة المقترحة، ثم ترفع للجهة الرسمية. وعادة يلعب رجال الهيئة دور المدعي العام على المتهم ودور الشاهد على التهمة، وهما دوران لا يمكن لشرع الله أن يقرهما لشخص واحد أو جهة واحدة مستفيدة، لأن المدعي العام يحاول إثبات التهمة على المتهم، والشاهد هو أداة الإثبات.

ولا يخالج العاملين في هذه الهيئات أدنى شك أنهم بعملهم هذا يتأسون بما كان يفعله الصحابة زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم ينفذون حرفياً معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جاء ذكره في القرآن.

وهذا الشعور ليس قصراً على من يعمل في هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه البلاد، بل إن من يطالع كتب الفقه الإسلامي يجد أنها تتفق مع مطاوعة السعودية على مفهومهم لمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أطلقوا عليها مصطلح «الحسبة».

الحسبة عند الفقهاء

تعرف الحسبة عند الفقهاء بأنها الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. ويقول الفقهاء إنها واجبة في الجملة، مستدلين على ذلك بأنها هي المقصودة بلفظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ورد في عدد من الآيات القرآنية. كما استدلوا على ذلك بحديث هذه إحدى رواياته التي وردت في سنن أبو داوود برقم (٤٣٣٢): حدثنا عَبْدُالله بنُ مُحمَّدٍ النُّفَيْلِيُّ أخبرنا يُونُسُ بنُ رَائِدٍ عن عَلِيِّ بنِ بَذِيمَةَ عن أبي عُبَيْدَةَ عن عَبْدِالله بنِ مَسْعُودٍ، قال قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ أوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إسرائيل كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هذَا اتَّقِ الله وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فإنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أنْ يَكُونَ أكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ـ إلى قَوْلِهِ ـ فَاسِقُونَ﴾، ثُمَّ قالَ: كَلاَّ والله لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً.

وحديث آخر رواه عدد من المحدثين، وهذا نصه في مسلم الذي جاء برقم (١٤٠): حدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ. وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ كِلاَهُمَا عَنْ قَيْس بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ. وَهذَا حَدِيثُ أبي بَكْرٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ، يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ: مَرْوانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ. فَقَالَ: الصَّلاَةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ؟. فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ. فَقَالَ أبو سَعِيدٍ: أَمَّا هذَا فَقَدْ قضى مَا عَلَيْهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ.

ويقول بعض الفقهاء أنها فرض كفاية، وقال غيرهم بأنها قد تكون فرض عين على كل مسلم ومسلمة في حالات معينة لن نتطرق لها.

ويقول الفقهاء إن الحسبة ولاية شرعية، ووظيفة دينية تلي في المرتبة وظيفة القضاء، إذ إن ولايات رفع المظالم عن الناس عند الفقهاء ثلاث مراتب: أقواها ولاية المظالم، تليها ولاية القضاء، وتليها ولاية الحسبة.

وقالوا بأن الحسبة من الخطط الدينية الشرعية كالصلاة والفتيا والقضاء والجهاد. وهناك عشرون ولاية شرعية، حسب رأي الفقهاء، أعلاها الخلافة العامة.

أنواع الحسبة

يقول الفقهاء هناك نوعان للحسبة، هما: ولاية أصلية، وولاية مستمدة.

ويقول الفقهاء إن المحتسب هو من يعمل بالحسبة بتكليف رسمي، أما من يعمل بالحسبة تطوعاً فيطلق عليه (المطوع).

وللمحتسب أن يكون مدعياً في المحكمة على تهمة ضبطها بنفسه، وفي الوقت نفسه شاهداً على نفس التهمة.

شروط المحتسب

١- الإسلام، ٢- التكليف، ٣- العلم (أي أن يكون عارفاً بأحكام الشريعة كلها، وقال بعض الفقهاء يجب أن يكون من أهل الاجتهاد ليجتهد بما يراه برأيه الشخصي ليحكم إن كان مخالفاً للشرع أم لا)، ٤- العدالة، ٥- القدرة، ٦- الإذن

من الإمام، ٧- الذكورة فلا يجوز تولي المرأة الحسبة عند بعض الفقهاء، وأجاز توليتها آخرون.

ويستمر الفقهاء في بيان تفاصيل كثيرة عن الحسبة مثل: أجرة المحتسب، آداب المحتسب، عزل المحتسب. وتفصيلات كثيرة غيرها لن نتطرق إليها (ونكتفي بما جاء عن الحسبة هنا والذي نقلناه عما جاء في الجزء السابع عشر من الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت).

كيف بدأت الحسبة وكيف تطورت

يعرف ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري، الحسبة والاحتساب بأنها طلب الأجر من الله تعالى خالصاً في أي عمل يقوم به من دون أجر. وذلك في الباب الذي سماه (باب العمل الذي يبتغى به وجه الله).

وهذا التعريف يتعارض مع تعريف الفقهاء الذي سبق وذكر وهو «أن المحتسب من يعمل بالحسبة بتكليف رسمي، أما من يعمل بالحسبة تطوعاً فيطلق عليه المطوع».

وهذا الاختلاف من السهل فهمه، فصاحب فتح الباري عرّف الحسبة كما عُرفت في بادئ الأمر، بينما عرّفها الفقهاء بعد أن تحور معناها ووظيفتها من فعل الخير من دون مقابل طلباً للأجر، إلى وظيفة سلطانية لتتبع هفوات الناس وتصيد مخالفاتهم لإيقاع العقوبات عليهم.

والحسبة كنشاط لم تكن معروفة في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومن تبعه من الخلفاء الأربعة الأوائل ورد حاً من الزمن بعدهم. فلم يكن هناك أناس مسؤولين عما عرف بالحسبة على الإطلاق، وحتى مراقبة الأسواق لحماية المستهلك لم تكن موجودة في ذلك الزمن.

وزعم بعض الإخباريين أنه كان هناك امرأة في عهد عمر تمر بالأسواق وتتفقد المكاييل، وقد نفى ذلك القرطبي في تفسيره للآية (٢٣) من سورة النمل، بقوله: وقد روي عن عمر أنه قدّم امرأة على حسبة السوق. ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث. انتهى.

ولم تكن الحسبة إلا مجرد كلمة في اللغة العربية تعني كل عمل خير، لم يأمر به الشرع، يفعله الشخص من تلقاء نفسه من دون مقابل. يقول ابن منظور في لسان

العرب: والحِسْبةُ: مصدر احتسابكَ الأَجر على اللَّه، تقول: فَعَلْته حِسْبةً، واحتسب فيه احتساباً، والاحتساب: طَلَبُ الأَجْر، والاسم: الحِسْبةُ بالكسر، وهو الأَجْرُ.

ولذلك لقب القاضي محمَّدُ بن علي المروزي الذي عاش في القرن الثالث الهجري، بالخياط لأنه كان يَخيط على الأيتام والمساكين حِسْبَة، أي من دون أجر. كما يقول عنه الذهبي في ترجمته له في سير أعلام النبلاء. ويقول صاحب البداية والنهاية إن الضحاك بن مزاحم كان يعلم الصبيان حسبة. أي من دون مقابل[١].

وشملت الأعمال المجانية التي يقوم بها أصحابها حسبة، وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول، فقد كان يقوم به البعض حسبة طلباً للأجر، وهذا ما ينقله القرطبي في تفسيره تحت باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره، فيقول: ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه؛ ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا... ويقول: وأعظمهم ضرراً أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم. انتهى.

ثم جاء زمان بدأ بعض الناس فيه بالقيام بمراقبة الأسواق لمنع الغش في المكاييل، حسبة ومن دون مقابل. ويذكر ابن سعد في الطبقات ذلك في عدد من تراجمه، ومنه ما ترجم به لعاصم الأحول بن سليمان، حيث يقول: ويكنى أبا عبد الرحمن مولى لبني تميم، وكان ثقة، وكان من أهل البصرة وكان يتولى الولايات فكان بالكوفة على الحسبة في المكايل والأوزان، ثم كان قاضياً بالمدائن في خلافة أبي جعفر ومات سنة إحدى أو اثنتين وأربعين ومائة. انتهى.

وتنقل رمزية الأطرقجي في كتابها الحياة الاجتماعية في بغداد (ص ٨٠) أن المعتزلة هم أول من بدأ نشاط التجول في الأسواق للكشف عن المخالفات، حسبة ومن دون أجر (نقلاً عن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج٢ ص٤٦٦).

ولكن عندما تولى المهدي بن المنصور الخلافة (امتد حكمه من ١٥٩ إلى

---

(١) ذكر أحداث سنة اثنتين ومائة ج٥ ص٢٢٢.

١٦٨ للهجرة) تأسست في عهده ما عرف بالحسبة كوظيفة، وبدأت في الأسواق على المكاييل والأوزان، ولم يكن لها علاقة بتصيد مخالفات الناس الدينية ومحاولة الإيقاع بهم وعقابهم، بعد.

يقول سيد أمير علي في الصفحة ٣٦٢ من كتابه مختصر تاريخ العرب: أما الشرطة البلدية فكانت برئاسة ضابط خاص يعرف بالمحتسب، وهذا المنصب النافع المهم إنما أنشأه الخليفة المهدي. . . وكان المحتسب هو المشرف الأعلى على الأسواق والإحصاء العام. وكان يطوف المدينة كل يوم مع فصيلة من أتباعه للتأكد من تنفيذ أوامر الشرطة. وكان يفتش الأرزاق ويفحص المكاييل والأوزان ويعاقب من يخلون بالأمن. وكانت أية محاولة للغش تلقى العقاب الفوري. انتهى.

وهكذا أصبحت الحسبة وظيفة ذات سلطة تشريعية لأنها تلزم الناس بقوانينها التي يشرعها أفرادها، كما أنها سلطة تنفيذية حيث ينفذ أفرادها (المطاوعة) الأحكام على الناس التي قرروها بحقهم، فوراً ودون الرجوع إلى أي جهة رسمية أخرى أو محكمة وقضاء.

ولأنها أصبحت وظيفة، سلطوية، ومصدر رزق في الوقت نفسه، فقد تهافت عليها الصالح والطالح من الناس، خاصة أنها منصب يتم الحصول عليه بالتقرب من السلطان والوساطة، وليس بمواصفات ومؤهلات. فمرة يتولاها من يظن به الصلاح، مثل أبي الفرج الجوزي الذي ولي الحسبة في بغداد سنة أربع وستِّمائةٍ، كما يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء.

ومرة أخرى يتولى حسبة بغداد ابن الحجَّاج الذي يصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بأنه: سَفِيهُ الأدباء، وأميرُ الفُحش، وديوانُهُ مشهورٌ في خمس مجلّدات، وهو أبو عبدالله، الحسينُ بن أحمد بن الحجّاج البغداديُّ، المُحتسِبُ، الكاتبُ. وقد هجا المُتَنبّي، ومدح الملوكَ، مثلَ عَضُدِ الدولة وبنيه والوزراء. وله باعٌ أطول في الغزل. وأما الزَّطاطةُ والتفحُّش، فهو حامِلُ لوائها، والقائِمُ بأعبائها. وكان شيعياً رقيعاً، ماجناً، مَزَّاحاً، هجّاءً، أُمةً وحدَهُ في نظم القبائح. انتهى كلام الذهبي.

ثم مع مرور الوقت تجرأ بعض الناس بتنصيب نفسه مسؤولاً عن معاقبة من يراه يتصرف بغير ما يعتبره، هو، مخالفاً للشرع. ومن أولئك رجل ذو شخصية

مضطربة، هو النوري الذي عرفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بقوله: هو أحمدُ بن محمَّد الخُراسانيُّ البَغَويُّ الزَّاهد. شيخُ الطَّائفة بالعِراق، وأحْذَقُهُم بلطائف الحَقائق، وله عباراتٌ دقيقة، يتعلَّق بها مَنْ انحرف مِن الصُّوفية، نسألُ الله العفو.

(فكان يخيل إليه أنه صاحب كرامات، وكان يحدث بخيالاته تلك) قال أبو العبَّاس بن عطاء: سمعتُ أبا الحُسَين النُّوريَّ يقول: كانَ في نفسي من هذه الكرامات، فأخذتُ من الصِّبْيان قصبة، ثم قمتُ بين زَوْرَقَين وقلت: وعِزَّتِك لئن لم تخرجْ لي سَمَكة فيها ثلاثةُ أرطال لأغْرِقنَّ نفسي. قال: فخرجت لي سمكةٌ ثلاثةُ أرطال.

ويروي الذهبي كيف كان هذا الرجل يتصرف من تلقاء نفسه فيقول: قال ابن جَهْضَم: حدَّثني أبو بكر الجلاَّء قال: كانَ النُّوريُّ إذا رأى منكراً غيَّره، ولو كان فيه تَلَفُهُ. نزل يوماً، فرأى زورقاً فيه ثلاثون دَنّاً، فقال للمَلاَّح: ما هذا؟ قال: ما يلزمُك؟ فألحَّ عليه، فقال: أنتَ والله صُوفيٌّ كثيرُ الفُضول، هذا خمرٌ للمُعْتضِد، قال: أعطِني ذلك المِدْرى، فاغتاظ وقال لأجيره: ناوِلْه حتى أُبصرَ ما يصنع، فأخذه، ونزل فكسَّرها كلَّها غيرَ دَنّ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد، فقال: مَنْ أنتَ ويلك؟ قال: مُحتسِبٌ، قال: ومَن ولاَّكَ الحِسْبَة؟ قال: الذي ولاَّك الإمامَة يا أميرَ المؤمنين فأطرق، وقال: ما حَمَلَك على فِعلك؟ قال: شفقة مِنِّي عَلَيْك قال: كيف سَلِم هذا الدَّنّ؟ فذكرَ أنَّه كان يكسِر الدِّنان ونفسُه مُخلِصَةٌ خاشِعَة، فلمَّا وصلَ إلى هذا الدَّنِّ أعجبَتْهُ نفسُه، فارتاب فيها، فتركه. وقد توفي في سنَةِ خمسٍ وتِسْعينَ ومائتين. انتهى.

وحتى وإن كانت القصة مختلقة، فإنها تروي حال المجتمع في نهاية القرن الثالث الهجري، وكيف أصبح بعض الناس يتجرأون على محاسبة الناس ومراقبتهم باسم الدين ونيابة عن الله الذي لم ينيبهم عنه سبحانه.

ومما يؤيد أن هذا الاعتقاد انتشر بسرعة بعد زمن النوري، وذلك في بداية القرن الرابع الهجري، يسوق ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ صورة من هذه الصور بعد أن تحول الناس إلى الحسبة بمعناها الجديد ونصبوا أنفسهم رجال شرطة لله في الأرض يحاسبون الناس بالطريقة التي يرون، على مخالفات يظنونها

هم أنها مخالفة لشرع الله. يقول ابن الأثير ضمن سرده لأحداث سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وتحت عنوان: ذكر فتنة الحنابلة في بغداد:

وفيها عظم دور الحنابلة وقويت شوكتهم، وصاروا يكسبون من دور القواد والعامة. وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء. ومشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هي، فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة. فأرهجوا بغداد. انتهى.

فأصبح رجل الحسبة يخول لنفسه افتراض التهم على الناس ويعاقبهم عليها. كما أصبح هو المدعي على المتهم، وهو الذي يشهد على المتهم بالتهمة عند الشرطة وفي المحكمة (وقد تبنى هذه القاعدة الفقهاء وقالوا بأن من حق المحتسب ذلك).

وبعد أن أصبحت الحسبة وظيفة يتم تعيين من يشغلها بواسطة السلطان، فإن المحتسب لا بد أن يكون أداة تنفيذ لرغبات السلطان فيما يأمر، ومن ذلك ما فعله الإصطخري المتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة عندما تولى حسبة بغداد، وهذا ما فعله حسبما روى الذهبي في سير أعلام النبلاء: ووَلِيَ حِسْبَةَ بغدادَ، فأَحْرَقَ مكانَ الملاهي. واستفتاه (القاهر) في الصَّابئين، فأفْتَاهُ بقَتْلهم لأنَّهم يَعْبُدُون الكواكب، فعزَمَ الخليفةُ على ذلك، فَجَمَعوا مالاً جزيلاً، وقدَّموه (له).

وقبل أن يظن القراء أن الإصطخري قد أحرق مكان الملاهي حسبة لوجه الله، عليهم أن يقرأوا ما قاله ابن كثير في البداية والنهاية عن السبب وراء إحراق تلك الملاهي.

يقول ابن كثير أثناء حديثه عن أحداث سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة: وفيها أمر القاهر بالله بإبطال الخمور والمغاني والقيان، وأمر ببيع الجواري المغنيات بسوق النخس، على أنهن سواذج. قال ابن الأثير: وإنما فعل القاهر ذلك لأنه كان محباً للغناء فأراد أن يشتري الجواري المغنيات بأرخص الأثمان نعوذ بالله من هذه الأخلاق. انتهى كلام ابن كثير.

ويكون المحتسب الإصطخري قد احتسب حرق الملاهي لرب نعمته القاهر حتى يكسد سوق الجواري فترخص أسعارها وتتوفر أنواعها له.

ومع أن من يتولى الحسبة أصبح يفرض العقاب على المتهم بما يراه، إلا أن أحداً لم تصل به السطوة والفحش تلك الدرجة التي وصلت بالحاكم بأمر الله الفاطمي حاكم مصر (المتوفى سنة ٤١١)، فيما يرويه عنه ابن كثير في البداية والنهاية ضمن كلامه عن أحداث سنة إحدى عشرة وأربعمائة، فيقول: وقد كان يعمل الحسبة بنفسه فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له ـ وكان لا يركب إلا حماراً ـ فمن وجده قد غش في معيشة أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى. انتهى.

(وهذا النوع من العقاب اقتبسته بعض دور المباحث والاستخبارات العربية ضد سجناء الفكر ومنتقدي حكوماتهم في هذا العصر).

وحتى لو لم تكن قصة الحاكم بأمر الله صحيحة إلا أنها تكشف كيف تحور مفهوم الحسبة عبر الزمن، فبدأت عبارة عن كلمة تعني كل عمل أو قول مباح وفيه إحسان، لم يأمر به الشرع، يقوم به الإنسان لا يعلمه إلا الله، طلباً للأجر والثواب (كتدريس الفقراء أو حياكة الملابس لهم من دون أجر).

ثم أضحت نشاطاً لمراقبة الغش في الأسواق من دون أجر.

ثم أصبح ذلك النشاط الخيري وظيفة رسمية لا يستطيع أحد مزاولتها إلا بتعيين سلطاني.

ثم تحورت مهام تلك الوظيفة الرسمية لتنفيذ رغبات السلطان من جهة، ولإكراه الناس بالالتزام بما يأمرهم به رجال الحسبة من جهة أخرى.

ثم أصبحت سلطة تنفيذية وتشريعية بيد المنتسبين إليها يقررون على الناس ما يرونه هم متوافقاً مع شرعهم، ويعاقبون من يخالفهم، دون الرجوع إلى قضاء أو هيئة قانونية رسمية، ودون أن تطال أنشطتها علية القوم والسلطان ومن يدور في فلكه، لأنه هو راعيها وهو من يوافق على توظيف أفرادها، فأصبحت أداة سلطة، من التسلط، في أيدي أناس متعطشين لها، يمارسونها بكل ما تمليه عليهم أنفسهم دون رقيب أو حسيب، ويتقاضون على ذلك مرتبات يقتاتون منها.

وفي الوقت الذي انتهى فيه ابن خلدون من كتابة مقدمته سنة تسع وسبعين وسبعمائة (٧٧٩) للهجرة، كانت الحسبة: وظيفة دينية يعين الحاكم من يراه أهلاً لها، وللمعين الحق باتخاذ الأعوان الذين يقومون بالبحث عن المنكرات ويعززون

ويؤدبون مقترفها. ولرجل الحسبة حمل الناس على ما يمكن تسميته المصالح العامة مثل منع المضايقات في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، والضرب على أيدي المعلمين لكي لا يبالغوا بضرب الصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكم رجل الحسبة على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين، وله حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم... وقد كانت (وظيفة الحسبة) في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين في الأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية. انتهى كلام ابن خلدون حول تعريف الحسبة في زمانه وفي المكان الذي عاش فيه.

ويتضح أنها وظيفة تقوم بعدد من المهام التي كان يجب أن تقوم بها جهات مختلفة، حتى لا يكون هناك تضارب وتداخل في مهام ووظائف سلطات الدولة المختلفة.

وحالياً تغير مسمى الحسبة في بلاد الحرمين، وأصبحت تعرف باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا التطور عميق الدلالة، لأنه يسبغ أفعال المحتسبين بسبغة دينية أكبر من لفظ حسبة ومحتسب، وتظهرهم وكأنهم ينفذون أمراً إلهياً تردد في القرآن في أكثر من موضع.

فهل ما يقوم به المحتسب والمطوع هو معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعلاً أم أن للقرآن رأياً مختلفاً؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن

لو بدأنا بقراءة القرآن من الفاتحة فسنجد أن أول آية يذكر فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الآية رقم (١٠٤) من سورة آل عمران: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

ولكي نحدد معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية لا بد أن نعود إلى الآية رقم (٩٨) حيث يبدأ منها الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات من رقم (٩٨) وحتى الآيات التي تلي الآية (١٠٤):

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأصبحتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاختلفواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

ولا ينتهي الحديث هنا بل يستأنف عن الموضوع نفسه مرة أخرى بدءاً من الآية (١١٠) وحتى الآية (١١٥): كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

وكتاب التفسير كالقرطبي والطبري وغيرهما قالوا بأن الآية رقم (١٠٠) نزلت في يهودي أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج وذلك بتذكيرهم بحرب حدثت

بينهم في الجاهلية، فتنابذ القوم وقالوا تعالوا نرد الحرب جدعاء كما كانت. . . أو نحواً من ذلك.

ولكن الآيات عباراتها واضحة فهي تتحدث عن أن جماعة من الصحابة كانوا يسمعون لبعض اليهود في أحاديثهم، ولو لم تكن لإثارة النعرات الجاهلية، كما يقول المفسرون، ولكنها كانت قصصاً وأحاديث من بنات أفكار اليهود (إسرائيليات) وليست مما أنزل الله، فحذرهم الله من أن الاستماع لليهود وطاعتهم فيما يقولون سيؤدي إلى الردة عن دين الإسلام (إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) لأن التصديق بتلك القصص وتداولها على أنها من شرع الله إضافة إلى دين الله ما ليس فيه.

وما يؤكد ذلك أن الموضوع لا يبدأ من الآية (٩٨) ولكنه يبدأ من آيات سابقة، ومنها الآية (٧٨) والتي تقول: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

فاليهود يخترعون قصصاً وأساطير وتشريعات من صنع أنفسهم ويقولون هي من عند الله. وتستمر الآيات حتى الآية (٨٣) والتي تقول: أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

وهذه الآية تؤكد أن ما يتحدث به اليهود من تشريعات وقصص ليست من دين الله، وهي التي كانوا يحدثون بها فريقاً من الصحابة.

ثم تأتي الآية (٩٨) وما بعدها لتكمل تناول الموضوع. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ. . . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ.

ثم تخاطب الآية (١٠٠) أولئك الصحابة الذين يسمعون ويتبنون قصص اليهود: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ.

ومن المؤسف أن هذا التحذير من الله تبارك وتعالى للمسلمين لم يلق عند البعض منهم آذاناً صاغية، فامتلأت كتب الحديث والتفسير والفقه بالإسرائيليات، بل ونسبت إلى الرسول كذباً وبهتاناً، وبدل أن يكفر من تبناها وحدث بها، كما

تقول الآية هنا، أصبح المسلمون يكفّرون من يحاول تبرئة الإسلام منها، واتباع ما تقوله هذه الآيات، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهل هناك منكر أكبر من منكر إدخال قصص اليهود إلى دين الله الإسلام، وهي التي لووا ألسنتهم بها لنحسبها من الدين وهي ليست منه.

هذا ما يعنيه قوله تعالى: . . .وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

وأمة الخير هي التي تكون تصرفات وأقوال وتشريعات كل أفرادها قدوة للغير، لأنها تلتزم بالإسلام الذي نزل على محمد كقرآن، وفيه كل مكارم الأخلاق، والمودة والتراحم بين الناس والعدل والإحسان ونبذ الجهل والخرافات وعمارة الأرض والحث على العلم وغير ذلك، ولو تطبع المسلمون بأخلاق الإسلام، وأقاموا دولته التي تعتمد على قوانين القرآن الإلهية والتزموا بها، فسيتحولون تلقائياً إلى أفضل وسيلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيقتدي بهم غيرهم.

ولكن المسلمين استمعوا لليهود وتبنوا قصصهم وخرافاتهم وأدخلوها إلى دين الله، وبالتالي أمروا بالمنكر ونهوا عن أمر الله، المعروف، وأصبحوا قدوة للمنكر أينما حلوا.

والآية (١٠٠) تؤكد هذا المعنى عندما تكرر فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقترناً بقوله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ.

فالموضوع يتعلق بأهل الكتاب واختلاقهم القصص والتشريعات وإدخالها إلى دين الله، ولو التزموا بشرع الله الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكان خيراً لهم.

وتستمر الآيات في الحديث عن اليهود، وأنهم أقل من أن يضروا المسلمين جسدياً، وكل ما على المسلمين هو عدم الإصغاء لما يقصونه عليهم من قصص.

ثم تختم الآيات الموضوع قائلة: لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

ولتكرر عبارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للمرة الثالثة في موضوع واحد، ليتأكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو التطبع بأخلاق الدين وتشريعاته ليكون المسلم قدوة حسنة، وليس لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد بما عرف بالحسبة وتصرفات المطاوعة، لأن بعض اليهود وصفوا في هذه الآيات بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، مع أنه لم يكن فيهم رجال يجوبون الشوارع للتأكد من أن بقية اليهود يتقيدون بما يمليه عليهم أولئك المحتسبون منهم، لا في زمن رسول الله ولا قبله، وهذا ثابت قطعاً وبشكل يقيني لأن القرآن يشهد بذلك: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (المائدة: ٧٨-٧٩)

ولم يكن من بين المنافقين والمنافقات أمة تجوب شوارع المدينة في عصر الرسول لتأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، ومع ذلك يقول القرآن الكريم عنهم: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (التوبة: ٦٧).

لأن ما يصدر منهم من أفعال وأقوال تؤدي للمنكر وتنهى عن المعروف لمن يقتدي بها، كما أن ما يصدر من المؤمنين والمؤمنات من أقوال وأفعال فهو يهدي للمعروف وينهى عن المنكر: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٧١).

لأن المؤمنين والمؤمنات سيتحلون بأفضل الصفات الحسنة وسيبتعدون عن كل منكر: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة: ١١٢).

ولذلك جاء محمد ليتمم مكارم الأخلاق بحيث يكون المجتمع المسلم قدوة حسنة في الأخلاق والتصرفات والوفاء بالعهود والتفاني في العمل والإنتاج وعمارة

الأرض والقيام بالعبادات: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف: ١٥٧).

وقد وعد الله سبحانه المجتمع الإسلامي إن هم طبقوا مكارم الأخلاق في حياتهم وأصبحوا نموذجاً يحتذى لينصرنهم وليمكنن لهم في الأرض ليسودوا العالم في المثاليات وليس بالقنابل وأسلحة الدمار الشامل: . . .وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج: ٤٠-٤١).

ولم يزعم أحد من كتبة السير والتاريخ أنه كان في عصر الرسول فرق تمارس نشاط التجسس على الناس وتتبع هفواتهم وغير ذلك من النشاطات التي يقوم بها أفراد ما عرف بالحسبة في عصور لاحقة.

هذا هو معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن، ومن الطبيعي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقدوة الحسنة واتباع التشريعات الإلهية، لأن تطبيق تشريعات الله لا تقوم على تتبع الهفوات والاطلاع على العورات طلباً لإيقاع العقوبات. ولو أراد الله أن يشرع إجبار الناس على دخول المساجد وقت الصلاة لأمر بذلك في كتابه الكريم ولما ترك ذلك لمتسلط يشعر بالنشوة وهو يسوق الناس المساكين، عادة، إلى المساجد، ولا يهم بعد ذلك إن صلوا احتساباً لله أو من دون وضوء، ما داموا قد امتثلوا لأوامره وأرضوا ذلك الغرور في نفسه.

ولو أراد الله أن يجعل التجسس من تشريعاته لما قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتنبوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (الحجرات: ١٢).

ولو كان من تشريعات الله تسور الجدران على الناس لما قال سبحانه: . . .وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة: ١٨٩).

وإذا كانت الحسبة تقوم على هذه الأمور التي نهى الله سبحانه من عليائه عنها، أفلا تكون الحسبة نبذ لكتاب الله وتشريعاته وتشبه باليهود الذين اخترعوا تشريعات من عند أنفسهم وتركوا شرع الله: وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (البقرة: ١٠١).

فدولة الإسلام إذاً، لا تقوم على مثل تلك الممارسات، ولا تسمح بمغامرات رجال شرطة دينية، قد تعرضهم أو من يتعاملون معه للأذى النفسي والهلاك البدني، سواءَ كان ذلك بأجر أو من دون أجر، وليس في دولة الإسلام مكان لفرض الآراء الشخصية على الناس تحت مسمى ديني، فيعاقب المرء لأن رجل الحسبة ارتأى عقابه. ولكن دولة الإسلام تقوم على تشريع دستور مكتوب يحدد ما هو الممنوع وما هو المباح، من وجهة نظر شرعية مبنية على أقوال إلهية، وليس على اجتهادات بشرية، وتحدد عقوبة كل ممنوع، وإذا ما خالف شخص أحد الممنوعات وثبت عليه ذلك بشهادة شهود عدول، وليس بينهم وبين المتهم عداء، أو ثبتت التهمة باعتراف المتهم طائعاً مختاراً ومن دون إكراه، فقد استحق أن يوقع بحقه العقوبة المنصوص عليها في كتاب الله، مع وضوح في مسؤوليات كل جهة تنفيذية في الدولة، وما يجب عليها وما لا يجب أن تقوم به.

وليس في دولة الإسلام قانون إلهي يقول بمعاقبة من يعصى الله في السر، ومن خلف الأسوار، ولكن دولة الإسلام تقوم على سن القوانين التي تمنع كل ما يساهم في انتشار الموبقات وتيسر حصول الناس عليها أو ما يشجع على ممارستها عبر قوانين صارمة ومكتوبة ومعلومة لدى الجميع.

وتكون دولة الإسلام حريصة على الأمر بالمعروف بما تسنه من قوانين تؤصل الخصال الحميدة في المجتمع، وتكون حريصة على النهي عن المنكر بما تسنه من قوانين تمنع انتشار الفواحش والمنكرات والدعاية لها وترسخ مفهوم العفة والطهارة والنبل.

ويكون معنى عبارة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في القرآن الشريف لا علاقة لها بما يمارسه بعض المسلمين باسمها لا من قريب ولا من بعيد.

المثال الثالث: الزنا

الزنا هو ممارسة العملية الجنسية الكاملة من دون عقد زواج شرعي، بين رجل وامرأة، عاقلين، راشدين، مختارين.

وقد جاء ذكر مشتقات الفعل زنى، خمس مرات في القرآن، كما يلي:

١ ـ يمكن أن يقال بأن أول ما جاء ذكر الزنا في القرآن كان في سورة الفرقان التي يقول رجال الدين المسلمون أنها سورة مكية، إلا الآيات ٦٨ ـ ٧٠ فمدنية. والواقع أن ذكر الزنا جاء ضمن آيات تتناول صفات المؤمن وتبدأ من الآية ٦٣ وحتى نهاية السورة عند الآية ٧٧، مما يعني أن هذه الآيات نزلت مرة واحدة وفي المدينة: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلى اللَّهِ مَتَابًا. وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا. أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا.

وقد بينت هذه الآيات أن من صفات المؤمن عدم اقتراف ما حرم ربه عليه، سواءً كان بالبعد عن الخيلاء والكبر والغطرسة، أو بالإنفاق، أو بعدم اقتراف جريمة القتل، أو الوقوع في الزنا، وغير ذلك من الصفات.

٢ ـ ثم نزلت آيات أخرى مشابهة لآيات سورة الفرقان، تذكر بعض صفات المؤمن، وذلك في سورة بني إسرائيل، من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٩: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ

الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا. وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً. وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا. وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً. وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا. ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا.

٣ ـ وبعدما عرف المسلمون أن الزنا حرام، نزل حد الزنا: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (النور: ٢).

وبما أن العقاب يجب أن يتوافق مع عظم الجريمة، فإن عقاب الزنا جاء لكي يعذب الزاني والزانية ليس فقط بدنياً بالجلد ١٠٠ جلدة، وهو عذاب بدني أليم وعظيم، ولكن بعذاب نفسي هائل يكمن في الإحساس بالمهانة وهو يجلد، ولذلك كان حضور الناس جزءاً من عقاب الزاني، فلا يجلد في مكان منعزل. والعذاب النفسي أكثر تأثيراً وعمقاً من العذاب الجسدي الذي يختفي بمجرد زوال الألم البدني، لأن العذاب النفسي يبقى محفوراً في المشاعر طالما عاش الإنسان ولا يختفي مهما طال عليه الزمن. وبما أن الزنا ممارسة فيها امتهان للضوابط الإلهية لتنظيم العلاقات الجنسية بين البشر، والتي وضعت لتنزههم عن المستوى الحيواني، فقد جاءت عقوبة الجلد في الإسلام حكراً على الزنا وعلى قذف الغير

بالزنا فقط: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.

٤ ـ وفي الآية الثالثة من سورة النور ذكر بأن الزاني، أي الذي يستمرئ الزنا، قد لا يمانع أن يتزوج بامرأة تزني، كما أن الزانية لا تمانع الزواج برجل تعود الزنا، ولا يجوز للمسلمين الذين يتقون الله أن يتزوجوا بمن امتهن الزنا: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أو مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (النور: ٣).

والموضع الخامس في القرآن الذي جاء ذكر الزنا فيه كان في الآية ١٢ من سورة الممتحنة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاستغفر لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وهذه الآية تتحدث عن بيعة النساء للرسول صلوات الله وسلامه عليه بالالتزام بالإسلام ديناً، وليس لها علاقة بحكم الزنا أو عقوبته.

حد الزنا عند الفقهاء

يقول الفقهاء بأن الحبس في البيوت كان أول عقوبات الزنا، ويستشهدون بالآية الخامسة عشرة من سورة النساء: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

ويكون الحبس في هذه الآية حداً للزانية، أما حد الزاني فهو الذي ذكر في الآية التالية: وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فإن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً (النساء: ١٦).

وقال الفقهاء بأن الحبس نسخ بالآية الثانية من سورة النور: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وقالوا بأن هذا حد البكر من الرجال والنساء، أما حد المتزوج من الجنسين فقد نسخ بالرجم واستدلوا بذلك على حديث رواه مسلم برقم (٤٣٦٨) منسوباً إلى

عبادة بن الصامت، وهذا نصه: وحدّثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ: أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ حِطَّانَ بْنِ عَبْدِاللّهِ الرَّقَاشيِّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ.

ويكون حد الزاني المتزوج من النساء والرجال جلد مائة ثم الرجم. وقال فقهاء آخرون بأنه يكتفى بالرجم، مستدلين على ذلك بأن الرسول قد رجم ماعز والغامدية، وبحديث نسب إلى عمر بن الخطاب وهذا نصه في موطأ مالك: (١٥١٨) ـ حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: لَمَّا صَدَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ مِنًى، أَنَاخَ بِالأَبْطَحِ ثُمَّ كَوَّمَ كَوْمَةً بَطْحَاءَ. ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ وَاسْتَلْقَى. ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاء فَقَال: اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي. وَضَعُفَتْ قُوَّتِي. وَانتشرتْ رَعِيَّتِي. فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلاَ مُفَرِّطٍ. ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ سُنَّتْ لَكُمُ السُّنَنُ. وَفُرِضَتْ لَكُمُ الْفَرَائِضُ. وَتَرِكْتُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ. إلاَّ أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِيناً وَشَمَالاً. وَضَرَبَ بِإحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأخرى. ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ. أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ حَدَّيْنِ فِي كِتَابِ الله. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ الله، وَرَجَمْنَا. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى، لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ) فَأَنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: قَالَ سَعِيدُ بْن الْمُسَيِّبِ: فَمَا انْسَلَخَ ذُو الْحِجَّةِ حَتَّى قُتِلَ عُمَرَ. رَحِمَهُ الله. قَالَ يَحْيَى: سَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ: قَوْلُهُ الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ، يَعْنِي الثَّيِّبَ وَالَّثيِّبَةَ. فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ.

وقد اختلف الفقهاء حول نسخ الأذى الوارد في الآية ١٦ من سورة النساء، وممن قال بأنه منسوخ مجاهد، وقال غيره بأنه بقي في جلد الزاني أو الزانية المحصنين ويرجما، واستدل من قال بذلك بما نسب إلى علي بن أبي طالب أنه جلد امرأة يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، وهذا نص الخبر الذي تفرد به أحمد في مسنده: حدثنا عبدالله حدَّثني أبي ثنا حسين بن محمد ثنا شعبة عن سلمة والمجالد عن الشعبي أنهما سمعاه يحدث: أن علياً رضي الله عنه حين رجم المرأة من أهل الكوفة ضربها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، وقال: اجلدها بكتاب الله وارجمها بسنة نبي الله صلى الله عليه وسلم (مسند أحمد:٧١٨).

ولذلك فأحمد بن حنبل يرى أن حد المحصن الجلد ١٠٠ جلدة ثم رجمه حتى الموت. بينما قال فقهاء آخرون بأن الرجم فقط للمحصن والجلد لمن لم يتزوج. وحد الزنا للعبد والأمة خمسون جلدة، سواءً كانا متزوجين أم بكرين. مستدلين بجزء من الآية الخامسة والعشرين من سورة النساء والتي تقول: فَإِن أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ.

وزاد بعض الفقهاء على جلد الرجل الحر البكر أن يغرب عاماً كاملاً، أي ينفى من موطنه. واستدلوا على ذلك بحديث هذا أحد نصوصه في البخاري: حدّثنا آدَمُ حدثَنا ابن أبي ذِئبٍ حدَّثَنا الزُّهريُّ عن عُبَيداللهِ بنِ عبدِاللهِ عن أبي هريرةَ وزيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضيَ اللهُ عنهما قالا: «جاءَ أعرابيٌّ فقال: يا رسولَ اللهِ اقضِ بَينَنا بكتابِ اللهِ. فقامَ خَصمهُ فقال: صدقَ، اقْضِ بَينَنا بكتابِ الله. فقال الأعرابي: إن ابني كان عَسِيفاً على هذا فزَنى بامرأتهِ، فقالوا لي: على ابنِكَ الرَّجْم، ففَدَيتُ ابني منهُ بمائةٍ منَ الغَنم ووَليدةٍ، ثمَّ سألتُ أهلَ العلمِ فقالوا: إنما على ابنك جَلدُ مائةٍ وتَغريب عام. فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلمَ: لأَقْضِينَّ بَينكما بكتابِ اللهِ، أما الوَليدةُ والغَنَمُ فرَدٌّ عليك، وعلى ابنِكَ جَلدُ مائةٍ وتَغريبُ عام. وأمّا أنتَ يا أُنَيسُ ـ لِرجُلٍ ـ فاغْدُ على امرأةِ هذا فارجُمها. فغَدا عليها أُنَيسٌ فرَجَمَها» (البخاري: ٢٦٤٠).

لاحظ أن الحديث ينص على أن الرسول قال: «لأَقْضِينَّ بَينكما بكتابِ اللهِ» وليس في كتاب الله التغريب ولا الرجم.

هذه باختصار شديد هي عقوبة الزنا كما يراها الفقهاء، حسبما ورد في فصل الزنا ـ الموسوعة الفقهية ـ إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية.

ولعل من أبرز ما يلاحظ على هذه الأحكام أن أكثرها قسوة وهو الرجم قد اعتمد فيه على نص قالوا بأنه آية كانت موجودة في كتاب الله وأن رسول الله بعد أن قرأها على الصحابة لم يسمح بأن تضمن في المصحف، بينما عمل بمقتضاها حيث رجم الغامدية وماعزاً. كما أن التغريب أيضاً لا يوجد له نص في كتاب الله، إضافة إلى الاختلافات الكثيرة في أقوال الفقهاء حول عقوبة الزنا.

فهل أن عقوبة الزنا لم ترد من الله واضحة ولذلك احتاجت إلى تأويل وآراء الفقهاء؟ أم أن الفقهاء شرعوا عقوبة للزنا لم يأمر بها الله؟

العرب لا يعيرون العذاب النفسي ما يستحقه من أهمية، وقد يعود السبب إلى أنهم مردوا على العيش بمشاعر مجروحة نتيجة لما اعتادوه من غطرسة من يفوقهم في المنزلة الاجتماعية ومن زعمائهم، فلم يستطيعوا إدراك ضخامة وهول العذاب النفسي المترتب على جلد الإنسان أمام الناس، وهو الذي كرمه الله على بقية مخلوقاته الأرضية، ونظروا إلى أن عقوبة الزنا يجب أن تكون أكثر قسوة من مجرد ١٠٠ جلدة، يمكن أن يتلقاها الزاني بطريقة رمزية، بحيث تستكمل عدداً، دون أن تضر بدنياً. واعتقدوا أن مثل هذه العقوبة لن تردع الناس عن ممارسة الزنا، لاعتقادهم بأن الخوف من العقاب وحده هو الذي سيحد من الوقوع فيه. ولم يفطنوا أن العقوبة الجسدية مهما كانت قاسية فلن تطهر الأرض من هذه الفواحش.

ولما لم يجد الفقهاء المسلمون في كتاب الله أقسى من الجلد كعقوبة للزاني والزانية، قالوا بأن عقوبة الزنا أنزلت على موسى. وكما أن العين بالعين والنفس بالنفس وردت في توراة موسى ويعمل بها في الإسلام، فلماذا لا يبحث المسلمون في كتب اليهود عن العقوبة التي يطبقونها بحق مقترفي الزنا، خاصة وأن دين الله الذي أنزل على موسى هو دين الله الذي أنزل على محمد.

ولكي يتقبل الناس تبني تشريعات اليهود، عمد رجال الدين المسلمون إلى توطئة يبدو أنها أثمرت، تتمثل في إيراد خبر يفيد أن الرسول قد اشترك في الحكم على رجل وامرأة يهوديين بحد الزنا المذكور في التوراة، وهذا نص الخبر: حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِالله بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إلى رَسُولِ الله فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدَالله بْن سَلاَم: كَذَبْتُمْ. إنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا. فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ. ثُمَّ قَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُالله بْنُ سَلاَم: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ. يَا مُحَمَّدُ. فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله فُرجِمَا. فَقَالَ عَبْدُالله بْنُ عُمَرَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَة. يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. قَالَ مَالِكٌ: يَعْنِي يَحْنَي يُكِبُّ عَلَيْهَا حَتَّى تَقَعَ الْحِجَارةُ عَلَيْهِ (الموطأ: ١٥٠٩).

ولم يفطن من أورد الخبر أن أي إنسان يمكن أن يتساءل ما الذي يجعل اليهود يأتون إلى الرسول ويسألونه أن يحكم فيهم، وهم لا يؤمنون أنه مرسل من الله؟

وهل سيقبل اليهود بحكم الرسول لو حكم بغير ما في كتبهم؟ وما داموا سيطبقون ما في كتبهم، فلماذا جاؤوا إلى الرسول؟

ولكن يبدو أن رجال الدين المسلمين قد أقدموا على إيراد هذا الخبر بعد أن ترك الإنسان العادي أمر البحث والتحقق والقراءة لرجال دينه، وأصبح إمعة يتبع ما يقوله له مرجعه الديني بأنه حق، وما يقول له بأنه باطل. وغاب عنه أن الله لن يعذره وسيحيق به وبمن تبعه عذاب النار: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أعمالهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقرة: ١٦٥-١٦٧).

ولن ينقذ الإنسان العادي اتّباعه فتاوى غيره من البشر، ولن ينقذه سوى فهمه هو للدين من مصدره بنفسه، وقد أنزل الله القرآن وجعله سهل الفهم، حتى للأمي الذي لا يحسن القراءة والكتابة وثقافته العامة ضحلة، مثلما كان عليه الناس زمن رسول الله.

ولأن هناك أخباراً أخرى نسبت إلى الرسول، ومنتشرة في المجتمع، تأمر بمخالفة اليهود، مثل صبغ الشعر وحلق اللحية والصلاة بالنعال والخفاف وغيرها الكثير، فقد أورد رجال الدين المسلمون أخباراً أخرى ونسبوها إلى الرسول، تفيد أن حد الرجم لم يأت من تقليد اليهود أو من كتبهم، ولكنه فرض بموجب آية قرآنية نزلت على محمد.

وهذا نص الآية المزعومة في الموطأ «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ». وهذا الخبر الذي وردت فيه: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: لَمَّا صَدَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ مِنًى، أَنَاخَ بِالأَبْطَحِ ثُمَّ كَوَّمَ كَوْمَةً بَطْحَاءَ. ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ وَاسْتَلْقَى. ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاء فَقَالَ:

اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي. وَضَعُفَتْ قُوَّتِي. وَانتشرتْ رَعِيَّتِي. فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلاَ مُفَرِّطٍ. ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ سُنَّتْ لَكُمُ السُّنَنُ. وَفُرِضَتْ لَكُمُ الْفَرَائِضُ. وَتَرِكْتُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ. إلاَّ أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِيناً وَشَمَالاً. وَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأخرى. ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ. أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ حَدَّيْنِ فِي كِتَابِ الله. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ الله، وَرَجَمْنَا. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى، لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ) فَأَنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: قَالَ سَعِيدُ بْن الْمُسَيّبِ: فَمَا انْسَلَخَ ذُو الْحِجَّةِ حَتَّى قُتِل عُمَرَ. رَحِمَهُ الله. قَالَ يَحْيَى: سَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ: قَوْلُهُ الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ، يَعْنِي الثَّيِّبَ وَالثَّيِّبَةَ. فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ (الموطأ:١٥١٨).

والمتتبع لكتب الإخباريين المسلمين يلاحظ أن عمر بن الخطاب هو القاسم المشترك لكل مسألة ليس لها دليل من القرآن ويريد الفقهاء أن يقنعوا الناس بأنها من الدين، وذلك بنسبته إلى عمر أو أن عمر قد فعله أو أمر به، لما شاع عنه من أنه صارم في اتباع الحق، مما يشعر القارئ بأنه لو لم يكن الخبر صحيحاً ما اتبعه أو فعله عمر أو أمر به. فعمر هو الذي سن صلاة التراويح، وهو الذي سن جلد شارب الخمر، وهو الذي حرم زواج المتعة، وهو الذي نزل القرآن ليؤيد أفكاره، وهو الذي روى أن للإسلام والإيمان أركاناً، وغير ذلك الكثير. ولذلك نسبت الأخبار إلى عمر أنه هو من قال بأن آية الرجم كانت في القرآن.

وقد جاء التأكيد المنسوب إلى عمر في عدد من كتب الأخبار بأن آية الرجم كانت في كتاب الله وأنها نسخت لفظاً وبقيت حكماً. وسنكتفي بإيراد فقرة تتحدث عن عمر وآية الرجم من ضمن خبر (حديث) طويل أورده البخاري برقم (٦٦٨١) روى فيه أن عمر بن الخطاب أراد أن يبلغ الناس بشيء لم يسبق أن أبلغهم به، وذلك أثناء حجه في آخر سنة من خلافته، ولكن عبد الرحمن بن عوف نصحه بالتريث حتى يعود إلى المدينة، ففعل، وهذا نص الفقرة التي تهمنا: . . .قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقبِ ذي الحجة، فلما كان يومُ الجمعة عجلتُ الرَّواح حينَ زاغتِ الشمسُ حتى أجِدَ سعيدَ بن زيد بن عمرو بن نُفَيل جالساً إلى ركن المنبر، فجلست حوله تَمسُّ ركبتي ركبتَه، فلم أنشَبْ أن خرَج عمرُ بن الخطاب

فلما رأيته مُقبلاً قلتُ لسعيد بن زيدِ بن عمرِو بن نُفَيل: لَيقولنَّ العشِيَّة مَقَالةً لم يَقلْها منذُ استخِلف. فأنكرَ عليٌّ وقال: ما عسَيتَ أن يقولَ ما لم يَقل قَبله! فجلسَ عمرُ على المنبر، فلما سكتَ المؤذنونَ قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعدُ فإني قائلٌ لكم مَقالةً قد قُدِّرَ لي أن أقولها، لا أدري لعلها بَينَ يَدَي أجَلي، فمن عَقلَها ووَعاها فلْيُحدِّث بها حيثُ انتهت به راحِلَتُه، ومن خَشيَ أن لا يَعقلها فلا أُحِلُّ أن يكذِبَ عليَّ، إنَّ الله بَعَثَ محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزلَ عليه الكتاب، فكان مما أنزلَ الله آية الرَّجم، فقرأناها وعَقَلناها ووَعَيناها، رَجَم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورَجَمنا بعدَه، فأخْشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقولَ قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتابِ الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، والرّجم في كتاب الله حق على من زَنى إذا أُحصِنَ من الرجال والنساءِ إذا قامتِ البيِّنة أو كان الحبلُ أو الاعتراف. ثمَّ إنا كنا نَقرأُ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم. . . إلى آخر الخبر.

وأول ما يستشف من هذا الخبر أن عمر لم ينفذ حد الرجم على أحد طوال فترة خلافته، ولو كان فعل فإن تصريحه بأن هناك آية للرجم نسخت لفظاً وبقيت حكماً، لأول مرة، لن يكون في آخر حياته، بل يفترض أن يأتي هذا التصريح عندما أراد أن يطبق حكم الرجم على أول من زنى في خلافته التي امتدت أكثر من عشر سنوات. لأنه لا يمكن تصور أنه قد طبق الرجم عدة مرات، ثم يأتي في آخر عمره ويقول للناس «مَقَالةً لم يَقلْها منذُ استخِلف» تتلخص بأن هناك آية للرجم نزلت على محمد ولكنها لم تكتب في المصحف.

ونخلص للقول بأن كل من يخامر عقله تصديق وجود آية الرجم، استناداً لما نسب إلى عمر في الخبر السابق، فإن عليه أن يصدق أيضاً بأن هناك آيات أخرى حذفت من القرآن، مثل «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ أو إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

ولا بد أن نسلم بأن هناك آيات كثيرة أخرى حذفت من القرآن، ومنها على سبيل المثال، ما ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري، وهذا نصه: . . .ويؤيد ذلك ما ثبت عن جماعة من الصحابة من ذكر

أشياء نزلت من القرآن فنسخت تلاوتها وبقي حكمها أو لم يبق، مثل حديث عمر «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» وحديث أنس في قصة القراء الذين قتلوا في بئر معونة، قال فأنزل الله فيهم قرآنا «بلغوا عنا قومنا أنا لقد لقينا ربنا» وحديث أبي بن كعب «كانت الأحزاب قدر البقرة» وحديث حذيفة ما يقرؤون ربعها يعني براءة، وكلها أحاديث صحيحة، وقد أخرج ابن الضريس من حديث ابن عمر أنه «كان يكره أن يقول الرجل قرأت القرآن كله، ويقول: إن منه قرآنا قد رفع» وليس في شيء من ذلك ما يعارض حديث الباب، لأن جميع ذلك مما نسخت تلاوته في حياة النبي صلى الله عليه وسلم... انتهى[١].

وهذا اتهام خطير لن يجنح له إلا من تمكنه وقاحته أن يوجه التهمة لمحمد بأنه تصرف في الوحي كما يمليه عليه مزاجه الشخصي، وأنه لم يكن أميناً في تبليغ رسالة ربه، التي كان يجب عليه أن يبلغها كما توحى إليه دون تصرف أو تعديل أو حذف أو إخفاء أو إضافة، شأنه في ذلك شأن رسل الله جميعاً.

وفيه اتهام أكبر لذات الله بأنه لم يحسن اختيار رسوله الذي بعثه لتبليغ رسالته، وهذا يقيم الحجة للناس على الله. لأنه إن ثبت أن محمداً قد تصرف شخصياً ولو بآية واحدة من الوحي، فلن يكون بالإمكان تصديقه ببقية ما ينقله عن ربه، ويكون بالإمكان رفض العمل بأي أمر لا يعجب الناس بحجة أن محمداً قد يكون قاله من عند نفسه.

أو أن يكون محمداً لم يسقط هذه الآيات المزعومة من القرآن برأيه الشخصي، ولكن الله أمره بذلك، وهذا فيه تجن أشنع على الله سبحانه وتعالى، والاعتقاد بأنه سبحانه ينزل آية اليوم ويرى أنه يجب حجبها غداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد ورد ذكر خبر آية الرجم المزعومة في كتب الأخبار الأخرى، أحياناً منسوباً إلى زيد بن ثابت أو إلى أبي بن كعب، ليضفي دعماً إضافياً للتصديق بالخبر، كون الآية قد سمع بها عدد من الصحابة بجانب عمر. ومن ذلك ما أورده أحمد في مسنده: حدّثنا عبدالله حدثنا خلف بن هشام حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن

(١) كتاب فضائل القرآن ـ باب مَنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلاَّ مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ.

بهدلة عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب أو كائن تعدها؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قط، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عليم حكيم (مسند أحمد: ٢٠٨٣٠).

وليس الملاحظ هنا الإضافة في النص عما كان عليه في الموطأ فقط، ولكن ادعاء أبي بن كعب الذي أورد الخبر على لسانه، بأنه ليس فقط آية الرجم هي التي حذفت من القرآن، ولكن معظم سورة الأحزاب.

ويبدو أن أحمد قد شعر بشيء من عدم الرضى لما رواه عن حذف آية الرجم، فأورد خبراً آخر لبيان كيف تم حذف تلك الآية المزعومة من القرآن، أو لماذا لم تكتب ضمن القرآن، وهذا نصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت قال: كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف، فمروا على هذه الآية فقال زيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة. فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أكتبنيها» قال شعبة: فكأنه كره ذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد، وإن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم (مسند أحمد: ٢١٢١٤).

وبدل أن يأتي هذا الخبر بتبرير مقنع لحذف الآية المزعومة، كما أراد أحمد، زاد الطين بلة، لأنه احتوى على اتهامات مبطنة إضافية للرسول ولعمر. فالرسول كره أن يكتب عمر آية من القرآن أنزلها الله عليه، مع أن دوره كرسول ينتهي بتبليغ ما نزل عليه من وحي: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فإن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (النور: ٥٤).

وليس للرسول من أمر الدعوة شيء بعد التبليغ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (آل عمران: ١٢٨).

وليس للرسول خيار في ترك بعض ما أنزل عليه، ولو لم يعجبه: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة: ٦٧).

فكيف يكره الرسول أن يملي على عمر آية قرآنية؟

ولو كان محمد يستطيع إخفاء بعض ما نزل عليه لقام بإخفاء آيات نزلت في أشخاص معروفين من قريش في وقت كان فيه الرسول بأمس الحاجة إلى مداهنتهم وكسب ودهم، ولكنه تلا على مسامع أبي لهب، قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ. في وقت كان بإمكان أبي لهب قتل الرسول أو إلحاق الأذى به، ومع ذلك لم يكن باستطاعة الرسول إلا تبليغ أبا لهب ما نزل في حقه من قرآن. ولو لم يعلم الله أمانة الرسول في النقل، لما اختاره ضمن رسله الذين وصفهم بالأمانة: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (الشعراء: ١٧٨).

وقد يكون ابن كعب أراد أن يوحي بأن الرسول كره أن تكتب الآية المزعومة وقام بإخفائها بعد ملاحظة عمر بن الخطاب، وليس قبلها، والتي يدعي ابن كعب أن عمر قال: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد، وإن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم. وكأن عمر قد أحاط بالظلم الذي يحتويه حد الرجم، وهو ما لم يحط به الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الأسلوب الذي يوحي بأن الله جل جلاله، تصدر منه أحكام متسرعة وغير مدروسة بما يكفي، بحيث يكون فيها أحياناً جور للبشر أو تكون فوق طاقتهم، أو تكون خاطئة، أسلوب واضح في الإسرائيليات التي توجد في كل كتب أخبار المسلمين دون استثناء. ومن ذلك ما ورد في الكيفية التي فرضت بموجبها الصلاة، وكيف أن موسى قد اعترض على فرض الله خمسين صلاة على المسلمين، وأمر محمداً بالرجوع إلى الله للتخفيض. وفي كل مرة كان الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا) يرضخ لرأي موسى، الذي يظهر خطأ قرار الله، فيقوم بتغييره ويخفض من الصلوات المفروضة، انظر على سبيل المثال حديث رقم (٣٤٧) في البخاري.

ولا بد للعودة إلى الحديث الوارد في الموطأ برقم (١٥٠٩) والذي سبق ذكره يتحدث عن اليهود الذين حضروا للرسول يسألونه عن عقوبة رجل وامرأة منهم

زنيا، ومراجعة كتب اليهود المقدسة والتعرف على آية الرجم التي حاولوا إخفاءها عن الرسول حسبما جاء في الخبر.

وكتب اليهود المقدسة زمن الرسول هي النصوص نفسها الموجودة الآن دون تغيير، بل وكانت كذلك منذ القرن الرابع للميلاد، ولو تصفحنا هذه الكتب لوجدنا أن الرجم جاء فيها كما يلي:

١- ترجم الفتاة التي تتزوج للمرة الأولى ويجدها زوجها ليست عذراء، مع أنها زنت قبل أن تحصن. وهذا نص الحد: إذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها أبغضها... وقال هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة... ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عذرة للفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها. فتنزع الشر من وسطك (التثنية: الإصحاح ٢٢:١٣-٢١).

٢- وترجم الفتاة العذراء المخطوبة إذا زنت برضاها قبل أن يدخل بها زوجها، وهذا نص ما جاء في الكتاب المقدس: إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها فاخرجوهما كليهما إلى باب المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا الفتاة من أجل أنها لم تصرخ والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبها الإصحاح السابق:٢٣-٢٤).

٣- لا ترجم الفتاة غير المخطوبة إذا زنت ولا يرجم الرجل الذي زنى بها بغض النظر إن كان متزوجاً أم لا: إذا وجد رجلٌ فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجدا، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه (الإصحاح السابق:٢٨-٢٩).

٤- أما إذا زنى رجل بامرأة متزوجة فيقتل الاثنان، قتلاً وليس رجماً: إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة (الإصحاح السابق: ٢٢).

ويلاحظ أن الرجل الزاني بامرأة متزوجة يقتل ولو لم يكن متزوجاً.

ويتضح مما ورد في كتب اليهود، أن الحديث عن الرجم عندهم جاء على

لسان رجال الدين اليهود (الفقهاء والمفسرون) وليس هناك آية نزلت على موسى تنص على الرجم، وهذه ملاحظة هامة يجب أن نفطن لها ونأخذها بالاعتبار.

وقد أورد رجال الدين اليهود الرجم وقتل الزاني للانتقام من الإهانة التي حلت بالزوج (الرجل)، وليس لأن الزاني والزانية تجاوزا حدود الله. وهذا هو الدافع نفسه للعربي الذي يقتل ابنته العذراء، بمجرد شكّ بأنها قد تكون زنت، لأن ما فعلته فيه إهانة له، وليس لأنها تجاوزت حدود الله الشرعية. وقد يكون هذا هو الدافع لأن يتبنى الفقهاء الرجم للزاني والزانية المتزوجين، وعدم الاكتفاء بالجلد الذي ورد في كتاب الله كحد للزنا.

ومما يؤيد أن الفقهاء تأثروا بإهانة الرجل التي سببها زنا زوجته أو قريبته، والعار الذي يلحقه، ما ورد في مسلم عن وعيد من يتخلف عن الجهاد في المدينة ويزني بامرأة رجل خرج للجهاد، وهذا نص الحديث: حدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، كَحُرْمَةِ أُمهَاتِهِمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ. فَمَا ظَنُّكُمْ؟» (مسلم: ٤٨٦٤).

فالخبر يقول بأن من يزني بامرأة المجاهد يعاقب يوم القيامة بأن يدفع من حسناته لزوج الزانية، وكأنه تعويض له عما سببه له من إهانة في الدنيا. وهذا النوع من العقوبات لا يعمل بها عند الله ولا في كتاب الله: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (الأنعام: ١٦٤) ولو زنت امرأة متزوجة فسيعاقبها الله ولكن لن يزيد من حسنات زوجها لأنها زنت وهي زوجته.

ولكن العرب ينظرون إلى زنا المرأة على أنه يجلب العار ويهدم شرف العائلة، مع أن الشخص ليس جزءً من أبيه أو أمه، وإن خلقه الله من ماء الرجل وبويضة المرأة، فهو إنسان مستقل بذاته، ولو أشبه أباه أو أمه بصفة أو لون الشعر أو شكل الوجه. وكل إنسان سيأتي الله فرداً وحيداً وسيحاسب على ما فعل إن خيراً فسينال وحده الخير وإن شراً فسينال وحده العقاب: إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إلاَّ

آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (مريم: ٩٣-٩٥).

وكان يمكن أن يحكم الفقهاء برجم حتى الزاني غير المتزوج، لو لم يكن هناك آية قرآنية صريحة بجلد الزاني والزانية والتي لم يستطيعوا إخفاءها. ولذلك حولوا الحد المذكور في الآية إلى أنه حد للزاني والزانية غير المتزوجين. وتهاونوا في تطبيق قتل الرجل الذي يقتل ابنته وزوجته وأخته بشبهة الزنا.

وحتى الآن هناك أحكام مخففة للرجل الذي يقتل قريبته أو زوجته بدافع الشرف، فلا يقتل بها وإنما يخفف الحكم للسجن، وذلك في العديد من البلاد العربية والإسلامية، وإن كانت الأردن من الدول التي ينص قانونها صراحة على ذلك.

ولإقناع الناس أكثر بأن الرجم هو حد الزنا الذي فرضه الله، لجأ رجال الدين إلى إيراد خبر ساذج، رواه البخاري، وهذا نصه: حدَّثنا نُعَيمُ بن حمادٍ حدَّثنا هُشَيمٌ عن حُصَينٍ عن عمرِو بن مَيمونٍ قال: رأيتُ في الجاهليةِ قِردةً اجتمع عليها قِرَدةٌ قد زَنَت فرَجموها، فرَجمتها معهم (البخاري: ٣٧٦٢).

ولكن يبدو أن بقية كتّاب (الأحاديث) قد وجدوه على درجة كبيرة من الصفاقة بحيث إنهم لم يوردوه في كتبهم. واكتفوا بإيراد أخبار تتحدث عن أن الرسول قد نفذ حد الرجم على البشر.

وقد يكون من روى الأحاديث التي تنسب إلى الرسول أنه رجم الزاني، لم يطلع على أحاديث أخرى نسبت إلى الرسول أنه اكتفى بجلد الزاني ولم يرجمه، دون أن يسأله إن كان متزوجاً أم لا، وهذا نص ما أورده مالك في الموطأ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ زَيدِ بْنِ أَسْلَمَ، ؛ أَنَّ رَجُلاً اعترف عَلَى نَفْسِهِ بِالزنا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله بِسَوْطٍ فَأُتِيَ بِسَوْطٍ مَكْسُورٍ. فَقَالَ: فوق هذا. فَأُتِيَ بِسَوطٍ جَدِيدٍ، لَمْ تُقْطَعْ ثَمَرَتُهُ فَقَالَ: دَونَ هذَا. فَأُتِيَ بِسَوطٍ قَدْ رُكِبَ بِهِ وَلاَنَ. فَأَمَرَ به رَسُولُ الله فَجُلِدَ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ. قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَنْتَهُوا عَنْ حُدُودِ الله. مَنْ أَصَابَ مِنْ هذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئاً، فَلَيَسْتَتِرِ بِسِتْرِ الله. فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ، نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ الله» (موطأ مالك: ١٥٢١).

وهذا الخبر يقول لنا ليس فقط بأن حد الزنا هو الجلد فقط، بل إن على المرء

الذي يريد أن يزني أن يأخذ كل الاحتياطات اللازمة لكي لا يفتضح أمره، وإذا زنى ولم يطلع عليه أحد فلا يفضح نفسه. وهذا تساهل في أمر الزنا خطير جداً ينسب إلى رسول الله الذي نزلت عليه آية في بداية دعوته في مكة تقول: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلا (بني إسرائيل: ٣٢).

وهو نهي شديد اللهجة من رب السموات والأرض بأن نبتعد عن الزنا وما يقرب إليه من قول وعمل، في السر والعلانية.

فكيف يريدنا رواة الأخبار أن نتهم الرسول بالإيحاء للناس بأن عظم ذنب الزاني في افتضاح أمره، وليس باقترافه الزنا. وأنه لو احتاط المرء وزنى في الخفاء دون أن يطلع عليه أحد فإن الذنب سيكون أهون.

وكيف يريدنا الإخباريون أن نتصور أن الرسول يمكن أن يصدر منه هذا القول وهو يتلو ما نزل عليه من القرآن والذي منه قوله تعالى: . . . ولا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. (الأنعام: ١٥١).

فذنب الزنا وكل معصية باقترافها ولو بالسر، ولكن الحد لا يقام إلا على من يشهد عليه أو يقر بها، أي من يجاهر بها ويعلم بها الناس عنه، فالحد هو للحد من انتشار المعاصي مجاهرة بين الناس، وبعد ذلك من فعلها عالماً بحرمتها فسيعاقبه الله في الآخرة من دون شك.

والحديث عن حد الزنا لا يتم من دون التطرق لماعز والغامدية! فمن يكون ماعز ومن هي الغامدية؟

وهل ما نسجه الإخباريون حولهما من روايات يمكن أن يكون كافياً لتشريع حد الرجم على الزانية والزاني المتزوجين؟

ماعز والغامدية

لقد صور هذان الشخصان على أنهما مسلمين وعاشا زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، لذا فإن البحث عن ترجمة (معلومات) شخصية لهما يجعلنا نتجه إلى أشهر ثلاثة كتب تخصصت في ذكر تراجم الصحابة، وهي:

١- الإصابة في تمييز الصحابة لمؤلفه أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، المشهور بابن حَجَر العسقلاني.

٢- أسد الغابة في معرفة الأصحاب لمؤلفه المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، مجد الدين المعروف بابن الأثير الجزري.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لمؤلفه يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر، المعروف بابن عبد البر القرطبي.

والحقيقة أن مؤلفي هذه الكتب حشروا كتبهم بأسماء كل من اعتبروهم من الصحابة، حسب معيار فضفاض واسع، وضعوه هم. وبناءً عليه فقد ذكروا في هذه الكتب أسماءً غير معروفه، ومجهولي الصحبة، وأسماء لأناس لم يكن لهم صحبة مع الرسول لأنهم ماتوا في الجاهلية، وأسماء مكررة، بل لقد ذكر في هذه الكتب أسماء الجن الذين قيل أنهم استمعوا لقراءة الرسول للقرآن فاعتبروا من الصحابة، وإن كنت لا أدري كيف تم التعرف على أسمائهم.

ومع ذلك فقد عُرّف ماعز تعريفاً مقتضباً ومتشابهاً في الكتب الثلاثة، وهذا نص تعريف ابن عبد البر القرطبي في كتابه الاستيعاب في معرفة الصحاب: ماعز بن مالك الأسلمي، معدود في المدنيين، كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلّم كتاباً بإسلام قومه، وهو الذي اعترف على نفسه بالزنا تائباً منيباً، وكان محصناً فرجم رحمة الله عليه، روى عنه ابنه عبدالله بن ماعز حديثاً واحداً. انتهى.

وختم ابن الأثير الجزري في أسد الغابة تعريفه بماعز بقوله: أخرجه الثلاثة. فابن منده وأبو نعيم جعلا ماعزاً ثلاث تراجم، وقالا في الثاني ـ الذي هو ماعز أبو عبدالله ـ قيل: هو الأول. وأما أبو عمر فجعل ماعز بن مالك المرجوم هو ماعز أبو عبدالله، وقال في ترجمة ماعز بن مالك التميمي: «ماعز، رجل آخر، لا أقف على نسبه، سأل النبي: أي الأعمال أفضل». والله أعلم.

وكلام ابن الأثير يوحي بأن من نقل عنهم ترجمة ماعز لم يكونوا متأكدين من شخصيته، أي أنه قد لا يكون له وجود.

أما الغامدية فالذي وجدته في بحثي عن ترجمتها في الكتب الثلاثة هو أن ابن الأثير الجزري قد ذكر الغامدية في كتابه أسد الغابة في معرفة الأصحاب تحت عنوان: الغَامدية المرجُومة في الزنا. ولم يزد في ترجمتها عن سرد الخبر الذي يتحدث عن رجمها، مع أن الترجمة تعني إعطاء معلومات عن الشخصية وافية بما

يكفي للتعرف على الاسم كاملاً وتاريخ ومكان الميلاد، ومتى أسلمت، وكل ما يمكن من أخبار أخرى عنها.

يقول ابن الأثير: وهي التي أتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم فقالت: يا رسول الله، طهرني. فقال لها: «ارجعي». ثم أتته من الغد فاعترفت بالزنا، وقالت: والله إني لحبلى. فقال لها: «ارجعي حتى تلدي». فلما ولدت جاءَت بالصبي تحمله، فقالت: يا نبي الله، هذا قد ولدته. قال: «اذهبي فأَرضعيه حتى تفطميه». فلما فَطَمته جاءَت بالصبي وفي يده كِسرة خبز، فقالت: يا نبي الله، هذا قد فطمته. فأمر النبي بالصبي فدُفِع إلى رجل من المسلمين. وأمر بها فرُجِمت. فرماها خالد بحجر فنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع النبي سَبَّه إياها، فقال: «مه فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغفِر له». فصلى عليها ودُفِنت. أخرجه أبو موسى، والله أعلم. انتهى.

وهذا يعني أنه لو لم تورد كتب الحديث عنهما أنهما زنيا ورجما، فلن يجدهما القارئ ضمن من عدهم الإخباريون من الصحابة، لأنه لا يعرف عنهما أي شيء آخر.

فلم يأت ذكرهما في كتب التاريخ المشهورة مثل الطبري والبداية والنهاية، ولم يشر إليهما ابن هشام في سيرته التي جاءت في عدة مجلدات، ورويت فيها قصص وأحداث تفصيلية بعضها يصل إلى حد الخرافة وبعضها ليس بذي بال، ومن ذلك على سبيل المثال، قصة قدوم امرأة تدعى أم جميل على عمر بعد أن أصبح خليفة لكي يعطيها مكافأة على منعها قومها من قتل ضرار بن الخطاب بن مرادس الفهري ظناً منها أنه أخ لعمر. وكان ضرار قد خرج في نفر من قريش إلى أرض دوس في الجاهلية، ونزلوا على امرأة يقال لها أم غيلان، مولاة لدوس، وكانت تمشط النساء، وتجهز العرائس، فأرادت دوس قتلهم بقتيل لهم يقال له أبي أزيهر، فقامت دونهم أم غيلان ونسوة معها، حتى منعتهم. وأم جميل واحدة منهن. يقول ابن هشام: فلما قام عمر بن الخطاب (أي أصبح خليفة) أتته أم جميل، وهي ترى أنه أخوه: فلما انتسبت إليه عرف القصة، فقال: إني لست بأخيه إلا في الإسلام، وهو غاز، وقد عرفت مِنَّتك عليه، فأعطاها على أنها ابنة سبيل. انتهى.

وهذه القصة رواها ابن هشام على الرغم من عدم أهميتها، فليس لها علاقة

بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا يترتب عليها أمر للمسلمين، ووقعت لعمر بن الخطاب أثناء خلافته، ومع ذلك أوردها ابن هشام تحت عنوان بخط عريض يقول: أم جميل وعمر بن الخطاب.

فيما لم يورد قصة ماعز ولا قصة الغامدية ولو بإيجاز أو بإشارة عابرة، مع أن ما حدث لهما خطب جلل، وحادثة تاريخية كبرى، بوصفهما أول من رجم في الإسلام. خاصة وأنها حدثت، افتراضاً، في أواخر عهد الرسول حسبما يفهم من الخبر الذي أورده مسلم، الذي سبق ذكره، والذي يفيد بأن خالد بن الوليد كان من الذين رجم الغامدية، وخالد لم يسلم إلا قبيل فتح مكة.

وقصة الرجم بإجمال تقول بأن ماعز زنى واعترف بذنبه أمام الرسول عدة مرات فأمر الرسول برجمه فرجم، وتكرر المشهد مع الغامدية. هذه هي الرسالة التي أراد الإخباريون إيصالها للمسلم العادي، وقد جاء التفاوت في التفاصيل لكي يستشهد بها من صاغها في أحكام فقهية مختلفة فيما يتعلق بالزنا وغير الزنا أحياناً. وهذه بعض الروايات وبماذا استدل بها:

* حدّثني مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنِي عَبْدُ الأَعْلَى: حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ أبي نَضْرَةَ عَنْ أبي سَعِيدٍ: أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهُ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ، أَتَى رَسُولَ اللّهِ. فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ فَاحِشَةً، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَرَدَّهُ النَّبِيُّ مِرَاراً. قَالَ: ثُمَّ سَأَلَ قَوْمَهُ؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ بِهِ بَأْساً، إلاَّ أَنَّهُ أَصَابَ شَيْئاً، يَرَى أَنَّهُ لاَ يُخْرِجُهُ مِنْهُ إلاَّ أَنْ يُقَامَ فِيهِ الْحَدُّ. قَالَ: فَرَجَعَ إلى النَّبِيِّ، فَأَمَرَنَا أَنْ نَرْجُمَهُ. قَالَ: فَانطلقنَا بِهِ إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ. قَالَ: فَمَا أَوْثَقْنَاهُ وَلاَ حَفَرْنَا لَهُ. قَالَ: فَرَمَيْنَاهُ بِالْعَظْمِ وَالْمَدَرِ والْخَزَفِ. قَالَ: فَاشْتَدَّ وَاشْتَدَدْنَا خَلْفَهُ، حَتَّى أَتَى عُرْضَ الْحَرَّةِ، فَانْتَصَبَ لَنَا، فَرَمَيْنَاهُ بِجَلاَمِيدِ الْحَرَّةِ يَعْنِي الْحِجَارَةَ. حَتَّى سَكَتَ. قَالَ: ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللّهِ خَطِيباً مِنَ الْعَشِيِّ فَقَالَ: «أَوَ كُلَّمَا انطلقنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللّهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ، عَلَيَّ أَنْ لاَ أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إلاَّ نَكَّلْتُ بِهِ». قَالَ: فَمَا استغفر لَهُ وَلاَ سَبَّهُ (مسلم: ٤٣٨٢).

وقد استدل الفقهاء من هذه الرواية على ما يلي:

- o أن المحكوم عليه بالرجم لا يوثق، في رد واضح على من قال من الفقهاء أنه يوثق لمنعه من الهرب.
- o أن الرجم يكون حتى الموت، ولا يترك المرجوم لو هرب، بل يتابع ويستكمل الرجم.
- o أن اعتراف الزاني لا يشترط له عدد معين من الاعترافات، بعكس من اشترط أربعة اعترافات.
- o ويستدل من أن الرسول لم يصلِّ على المرجوم ولم يترحم عليه، أن المرجوم لا يصلى ولا يترحم عليه.

* حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا يعقوب ثنا أبي عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي عن أبيه قال: أتى ماعز بن خالد بن مالك رجل منا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستودى على نفسه بالزنا فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمه فخرجنا إلى حرة بني نيار فرجمناه، فلما وجد مس الحجارة جزع جزعاً شديداً فلما فرغنا منه ورجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرنا له جزعه فقال: هَلاَّ تَرَكْتُمُوهُ. وبإسناده قال: جاء ماعز بن مالك الأسلمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال يا رسول الله إني قد زنيت فأعرض عنه، ثم جاء من شقه الأيمن فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، ثم جاءه من شقه الأيسر فقال: يا رسول الله إني زنيت، فقال له ذلك أربع مرات، فقال: انطلقوا به فارجموه. وقال: فانطلقوا به، فلما مسته الحجارة أدبر واشتد، فاستقبله رجل في يده لحى جمل، فضربه به، فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فراره حين مسته الحجارة، قال: «فهلا تركتموه» (مسند أحمد: ١٥٢٥١).

ويستدل من صدر هذه الرواية أن المرجوم إذا أبدى جزعه وعدم صبره على الرجم ولو لم يهرب يخلى سبيله.

أما عجز الرواية فيدل على أن بعض الفقهاء لم يعجبهم أن مجرد الجزع من الرجم كاف لإخلاء سبيل المرجوم ولكن لو هرب فيترك.

ويبدو أن الأحكام التي استنبطت من الخبر السابق لم تعجب فقهاء آخرين يرون

أن الرجم يجب أن يكون حتى الموت ولا مجال لترك المرجوم حياً لأي سبب، ولذلك أضيف للخبر السابق إضافة تفيد ما يودون تشريعه، وهذا هو الخبر:

* حدثنا عُبَيْدُالله بنُ عُمَرَ بنِ مَيْسَرَةَ حدثنا يَزِيدُ بنُ زُرَيْعٍ عن مُحَمدِ بنِ إسحاق، قال: «ذَكَرْتُ لِعَاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ قَتَادَةَ قِصَّةَ مَاعِزِ بنِ مَالِكٍ فقال لِي: حدَّثني حَسَنُ بنُ مُحمَّدِ بنِ عَلِيٍّ بنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال حدَّثني ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: «فَهَلاَّ تَرَكْتُمُوهُ» مَنْ شِئْتُمْ مِنْ رِجَالِ أسْلَمَ مِمَّنْ لا أتَّهِمُ. قال: وَلَمْ أعْرِفْ هذَا الْحَدِيثَ. قال: فَجِئْتُ جَابِرَ بنَ عَبْدِالله فَقُلْتُ: إنَّ رِجَالاً مِنْ أسْلَمَ يُحَدِّثُونَ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لَهُمْ حِينَ ذَكَرُوا لَهُ جَزَعَ مَاعِزٍ مِنَ الْحِجَارَةِ حِينَ أصَابَتْهُ: «ألاَ تَرَكْتُمُوهُ» وَمَا أعْرِفُ الحدِيثَ. قال: يَا ابن أخِي أنَا أعْلَمُ النَّاسِ بِهذَا الحدِيثِ، كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَ الرَّجُلَ «إنَّا لَمَّا خَرَجْنَا بِهِ فَرَجَمْنَاهُ فَوَجَدَ مَسَّ الحِجَارَةِ صَرَخَ بِنَا: يَا قُوم رُدُّونِي إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فإن قَوْمِي قَتَلُونِي وَغَرُّونِي مِنْ نَفْسِي وَأَخْبَرُونِي أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم غَيْرُ قَاتِلِي. فَلَمْ نَنْزِعْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ، فَلمَّا رَجَعْنَا إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَأَخْبَرْنَاهُ قال: فَهَلاَّ تَرَكْتُمُوهُ وَجِئْتُمُونِي بِهِ لِيَسْتَثْبِتَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنْهُ، فأَمَّا لِتَرْكِ حَدٍّ فَلاَ». قال: فَعَرَفْتُ وَجْهَ الحدِيثِ (مسند أحمد: ١٥٤٤٤).

وخبر آخر مماثل، وهذا نصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا وكيع حدثنا هشام بن سعد أخبرني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه قال: «كان ماعز بن مالك في حجر أبي فأصاب جارية من الحي فقال له أبي: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنعت، لعله يستغفر لك وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرج فأتاه فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم عليَّ كتاب الله، فأعرض عنه، ثم أتاه الثانية فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم عليَّ كتاب الله. ثم أتاه الثالثة فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم عليَّ كتاب الله. ثم أتاه الرابعة، فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم عليَّ كتاب الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك قد قلتها أربع مرات فبمن قال بفلانة قال: هل ضاجعتها؟ قال: نعم. قال: هل باشرتها؟ قال: نعم. قال: هل جامعتها؟ قال: نعم. قال فأمر به أن

يرجم. قال: فأخرج به إلى الحرة، فلما رجم فوجد مس الحجارة جزع، فخرج يشتد فلقيه عبدالله بن أنيس وقد أعجز أصحابه، فنزع له بوظيف بعير فرماه به فقتله، قال: ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه» قال هشام: فحدَّثني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي حين رآه: «والله يا هزال، لو كنت سترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به» (مسند أحمد: ٢١٥١١).

واستدل الفقهاء من هذين الخبرين على ما يلي:

- o أن الزاني لا بد أن يعترف أربع مرات.
- o وأن المرجوم إذا هرب أثناء الرجم فليترك. وقد سبق ذكر هذين الحكمين.
- o وأن التستر على الزاني خيراً من إقامة الحد عليه. وهذا فيه من الطعن بالرسول ما فيه، وقد سبق وأشرنا لمثله.

وتستمر الروايات تترى باختلاف وتناقض واضح يجسد تناقض واختلاف الأحكام الفقهية في الزنا، مثل اختلافهم في كل المسائل الفقهية. والضحية هو الإسلام.

* ومن ذلك، القول بأن ماعزاً لم يأت للرسول ولكن الرسول علم بما فعله وبادره بالسؤال، وسيق هذا الخبر للتدليل على جواز أخذ الناس بالشبهة في الزنا والتحقيق معهم فإن أقروا فيقام عليهم الحد. وهذا نص الخبر: حدثنا عبدالله حدَّثني أبي ثنا يونس ثنا أبو عوانة عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعز بن مالك فقال: أحقٌ ما بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني؟ قال: بلغني أنك فجرت بأمة آل فلان، قال: نعم، فرده حتى شهد أربع مرات، ثم أمر برجمه» (مسند أحمد: ٢٢١١).

وتستمر الروايات حسب الاتجاهات الفقهية، وهي روايات كثيرة جداً ولن نتتبعها، إلا أن الخبر السابق يقول بأن ماعزاً زنى بأمة وأن الأمة لم تسأل ولم تحد. ونتوقف هنا قليلاً عند حد الأمة الزانية.

فالذي عليه الفقهاء المسلمون أن الأمة عليها نصف حد الحرة، ولم يستطع أحد منهم أن يبين كيف يمكن حد الأمة المتزوجة نصف رجم. ودليل الفقهاء

مستمد من قوله تعالى: فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ. وهو جزء يسير من الآية ٢٥ من سورة النساء، والتي نصها: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فإن أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

ونورد فيما يلي بعض الأحكام الفقهية المضحكة المبكية في الشروط الواجب توفرها في الزنا، والتي اقتبستها من الموسوعة الفقهية التي أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت- المجلد الرابع والعشرون- زنا:

* اشترط جمهور الفقهاء أن تكون الموطوءة حية... والمالكية قالوا بأن المرأة إذا أدخلت ذكر ميت غير زوجها في فرجها فلا تحد.

ويظهر أن من سن هذا التشريع لا يعلم أن العضو الذكري للرجل ينكمش ويستحيل أن يبقى منتصباً لدرجة لا تتمكن معها العاشقة الولهان من إيلاجه في فرجها.

* ذهب الحنابلة إلى أن البهيمة (التي تعرضت للوطء من إنسان) تقتل، سواءً كانت مملوكة له أو لغيره، وسواءً كانت مأكولة أو غير مأكولة.

فما الذنب الذي اقترفه الحيوان المسكين لكي يحكم عليه بالإعدام. خاصة أن الدين يخلو من أي حكم بالإعدام أو الجلد أو التعذيب لأي حيوان، حتى لو تسبب بقتل إنسان. وفي وضع الحيوان المعتدى عليه جنسياً من قبل الإنسان، فلو كره البعض أكل لحمها بعد اغتصابها، فليس هناك مبرر لأن يقتلها ويلقي بجثتها.

* اشترط الحنفية في وجوب حد الزنا أن يكون الزاني في دار الإسلام. فلا يقام الحد على من زنى في دار الحرب أو البغي ثم خرج إلى دار الإسلام وأقر عند القاضي.

فهل هذا يعني أنه لو تحاربت دولتان إسلاميتان فإن الجيش المنتصر له الحق باغتصاب نساء البلد المهزوم، ولا يعتبر هذا زنى واغتصاباً؟

وهل مثل هذه الأحكام هي ما يفسر السكوت عما يفعله المسلمون، من

الجنسين، في البلاد الصديقة والشقيقة، لأن الزنا في تلك البلاد مشابه للزنا في دار البغي.

* لا يقام الحد على الكافر إذا زنى بمسلمة طائعة على المشهور، عند المالكية.

وهو ما يفسر عدم تسجيل تاريخنا الإسلامي قديمه وحاضره حادثة واحدة أقيم فيها حد الزنا على خواجة[1]. وهو ما يبرز أيضاً مدى التبجيل الزائد الذي يحظى به الخواجات في بلاد الإسلام منذ القدم، حتى في تشريعات الفقهاء.

* لا يقام حد الزنا على الأخرس عند الحنفية مطلقاً، حتى لو أقر بالزنا أربع مرات في كتاب كتبه أو إشارة، ولو شهد عليه الشهود.

وهذا يظهر مدى جهل من قال بهذا التشريع، بحكمة تحريم الزنا. فليس المقصود في الإسلام هو اعتراف شفهي للزاني، ولكن المقصود هو محاربة الزنا بذاته كفعل فاحش.

* إذا أكره السلطان شخصاً على الزنا، فلا يحد المكره، أما إذا كان غير السلطان فيحد. كما يرى ذلك أبو حنيفة.

ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا لا يسأل ولا يحد السلطان إذا زنى. ولماذا اقترن تاريخ سلاطين الإسلام بالقيان والغلمان والجواري وبنات الليل، دون أن يسجل التاريخ الإسلامي حادثة واحدة اتهم فيها حاكم مسلم أو أحد من أفراد عائلته بالزنا.

* إذا طلق رجل زوجته طلاقاً بائناً لا رجعة فيه، ثم وطئها فلا يحد، حسب رأي الحنابلة.

ويظهر بوضوح من هذا التشريع الفرق بين النظرة إلى الرجل (السيد) والمرأة (المملوكة)، حتى لو طلقها. وهذا مما بقي من عادات كانت موجودة قبل الإسلام، ومن ذلك العضل وهو أن للزوج الحق بالتحكم في مصير زوجته المطلقة، فإن شاء أعادها متى رغب، وإن شاء منعها من الزواج بغيره، وإن شاء حدد لها بمن تتزوج.

---

(١) الخواجة في لهجات المشرق العربي تعني الأجنبي أو العلج خاصة المتحدر من أصول أوروبية.

وقد بقيت ترسبات هذه النظرة إلى المرأة واستمرت بين المسلمين بعد الإسلام ممثلة في هذا التشريع وغيره. وإلا فإذا بانت المرأة وعاشرها مطلقها فهو زنى يوجب الحد، لأنها أصبحت امرأة أجنبية بالنسبة إليه.

وهكذا يتناحر الفقهاء فيما بينهم كل يفتش عن أي دليل يسند ميوله وما يظن وما يرغب في الإفتاء به، فأضحى التشريع الإسلامي يتبع الأهواء الشخصية للبشر. بينما يترك كلام الله المشرع لأنه جاء واضحاً لا مجال للاختلاف حول أحكامه.

وتناسى الناس أن كل ما لم يأت في القرآن فلا يسأل عن حكمه البشر سواءً سموا أنفسهم فقهاء أو ملالي أو سادة أو أئمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة: ١٠١).

ويكون أي قول لرجال الدين لا يزيد عن مجرد تصورات وآراء بشرية ليس لها اتصال بالسماء الذي انقطع اتصاله بالناس بموت محمد صلوات الله وسلامه عليه قبل أن ينشأ الفقه وقبل أن يتسمى البشر بالفقهاء بعشرات ومئات السنين. والرأي الشخصي لمن تسمى بالفقيه لا يلزمه هو اتّباعه، فمن باب أولى لا يلزم غيره.

بل إن اتّباعه يورد من قاله ومن تبعه النار: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (القصص: ٦٢-٦٣).

لأن اتباع أي تشريع بشري هو من باب اتخاذه الأرباب من دون الله: ... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ استكبروا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (سبأ: ٣٠-٣٢).

ولن يكون بمقدور المتبوع الذي كان يشرع في الدنيا، من أن ينقذ نفسه، ولا من تبعه في الدنيا، من النار يوم القيامة، بل سيكونان شريكين في العذاب: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ

عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَاد (غافر: ٤٨-٤٩).

وهكذا يتضح أن قصة ماعز والغامدية صنيعة صنعها الفقهاء لكي يستنبطوا منها أحكامهم الفقهية المتناقضة كل بما يتناسب مع آرائه الشخصية والعادات والاتجاهات الفكرية التي ينتمي إليها.

والزنا مثله مثل كل المجالات الأخرى. ومما استنبطه فقهاء المذاهب الأربعة من أدلة الزنا، عدم قبول شهادة النساء في الزنا وفي غير الزنا، لأنهن نساء. وليس لأن اشتراط شهادة الرجال للزنا جاء، لأن المرأة الصالحة لا يتوقع منها، عادة، أن تتجرأ وتتجاسر لتكون في وضع يسمح لها بالتأكد من أن ميل الرجل قد دخل في مكحلة المرأة، لأن حياءها الفطري يمنعها، كما يمنعها حياؤها من التلفظ بالعبارات الجنسية الصريحة التي تتطلبها الشهادة في حالات الزنا: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور: ٤).

ولو حدث وتجرأت امرأة بالشهادة على حالة زنى، على غير عادة النساء، فليس هناك ما يمنع قبول شهادتها، لأن قوله تعالى: بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء، وقوله تعالى: فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ. ليس فيها ما يدل على أنها موقوفة على الرجال، فلو كان الشهود الأربعة مكونين من رجل وثلاث نساء أو رجلين وامرأتين، أو ثلاث رجال وامرأة، فسيطلق عليهم «أربعة شهداء».

وليس هناك في كتاب الله ما يدل على أن شهادة المرأة لا تساوي شهادة الرجل، بما في ذلك شهادة توثيق المداينات، والمعاملات المالية، والتي وردت في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أو ضَعِيفًا أو لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فإن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أو كَبِيرًا إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إلاَّ

أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٨٢).

وهذه الشهادة جاءت عندما كان التوثيق يتم من خلال شهادة الشهود، وعندما كان مجال المال والأعمال من اختصاص الرجل في تلك الأيام، على الغالب، بينما للمرأة مجالات أخرى تشغل بالها أكثر من التجارة، وهذا قد يتسبب في نسيانها تفاصيل ما حدث، لأن الإنسان ينسى الأشياء والأحداث التي لا يهتم بها أسرع من نسيانه لما يثير اهتماماته.

ويبقى أن الآية تفيد أن شهادة المرأة في الدين ليست مرفوضة، لأنها صادرة من المرأة، بل إن اشتراط امرأتين عوضاً عن رجل واحد، جاء فقط لكي تكون الثانية احتياطاً للأولى، بحيث لو أدت الأولى شهادتها دون نسيان فسيكتفى بشهادتها، ولن يكون للثانية أي دور، ولن يطلب منها أن تشهد. وتكون الشهادة تمت برجل واحد وامرأة واحدة، وليس برجل واحد وامرأتين، وتكون شهادة المرأة قبلت بنفس مستوى قبول شهادة الرجل.

وهنا لا بد أن نتساءل! ماذا لو نسي الرجل شيئاً من الشهادة، وذكرته بها المرأة الثانية (الاحتياط) هل سيؤخذ بتذكيرها أم سيرفض لأنه صدر من امرأة بحق رجل؟

شخصياً أقول بأن الفقهاء المسلمين سيرفضونه ولو ضاع الحق، لأن المهم عندهم هو التأكيد على ضعة قدر المرأة وعدم السماح لها بالتعرف على إنسانيتها التي كرمها الله، والتي لا تنقص عما كرم به الرجل. حتى تبقى قابعة في مكانها الذي اختاره الفقهاء لها والذي لا يزيد على كونها مجرد عورة لم تخلق إلا لمتعة الرجل، ولذلك يجب أن تحجب عن الرجال الآخرين في مكان معزول لا يعرفه سوى رجلها الذي يغشى المكان كلما أراد أن يغشاها. وبما أن صوتها عورة أيضاً، فيجب أن يستر ولا يسمعه الرجال حتى ولو ترتب على حجبه وتغييبه ضياع الحقوق. ولذلك أوجز ابن عابدين رأي الفقهاء الحازم من شهادة المرأة، عندما قال: لا مدخل لشهادة النساء في الحدود (انظر ج٣ ص١٤٢ حاشية ابن عابدين، ج٨ ص١٩٨ المغني).

وهذا يتجسد أيضاً في الأخبار التي تورد قصة ماعز والغامدية في خبر واحد

وبطريقة توحي بأن الغامدية هي صاحبة ماعز التي زنى بها، وذلك لكي لا يسألوا عن مصير الرجل الذي زنى بالغامدية ولا بالمرأة التي زنت بماعز، أو للرد على الأخبار الأخرى التي تقول بأن ماعزاً زنى بأمة.

يقول مسلم: وحدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُاللّهِ بْنُ نُمَيْرٍ ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللّهِ بْن نُمَيْرٍ وَتَقَارَبَا فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا بُشَيْرُ بْنُ الْمُهَاجِرِ: حَدَّثَنَا عَبْدُاللّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُول اللّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللّهِ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْساً تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئاً؟» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلاَّ وَفِيَّ الْعَقْلِ، مِنْ صَالِحِينَا، فِيما نُرَى. فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيضاً فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِهِ وَلاَ بِعَقْلِهِ. فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. قَالَ: فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزاً، فَوَاللّهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ: «إِمَّا لاَ، فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي» فَلَمَّا وَلَدَتْه أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ. قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدَتْ. قَالَ: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ». فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ وفي يَدِهِ كِسْرَة خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا، يَا نَبِيَّ اللّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وأَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إلى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا. فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا. فَسَمِعَ نَبِيُّ اللّهِ سَبَّهُ إِيَّاهَا. فَقَالَ «مَهْلاً يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ (مسلم: ٤٣٨٦).

ومن السهل ملاحظة أن الخبر حرص على تأكيد نظرة الفقهاء إلى المرأة، التي استعرضناها عند مناقشة الأخبار السابقة. فالخبر هنا يقول بأن المرأة شيطان، يحمل الرجس، وجسدها كله عورة، ولذلك فأهم ما يجب أن نتعامل به معها هو التأكد من أن عورتها لن تنكشف أمام الرجال، وتفتنهم، حتى ولو كان جسدها قد اختلط لحمه بعظمه بدمه نتيجة رجمه بالحجارة، ولذلك فالخبر ينص على أن الرسول قد «أمر بِهَا فَحُفِرَ لَهَا حفرة إلى صَدْرِهَا»، بينما طلب من ماعز الوقوف

دون أن يوثق أو يحفر له حفرة، وعندما هرب وعلم رسول الله بذلك قال هلا تركتموه في إشارة إلى أنه كان يجب على المسلمين تركه. أما المرأة الغامدية المسكينة فحفر لها حفرة إلى صدرها يستحيل معها أن تجد فرصة للهرب، فستر جسد المرأة حتى لا يتكشف أمام الرجال، هو الأهم عند فقهاء المسلمين من إتاحة الفرصة لها للنجاة. وهذا الشعور حفر في عقول المسلمين وأصبح غائراً في ذاكرتهم حتى في هذه الأيام.

وفي كل عام تقريباً تطالعنا وسائل الإعلام بغرق سفينة محلية تنقل الركاب بين الجزر الإندونيسية، نتيجة زيادة حمولة السفينة عن الحد الأقصى المسموح ولأسباب تقنية أخرى، ويغرق فيها المئات. ولا ينجو من الغرق إلا من استطاع الوصول إلى أحد قوارب النجاة القليلة أو كان يجيد السباحة، واستطاع الصمود حتى وصل من ينقذه بعد ساعات طوال، أو استطاع السباحة إلى الشاطئ.

والملاحظ أن الناجون عادة يكونون من الرجال، وإن كان هناك نساء ناجيات فهن من النساء الأجنبيات (غير المسلمات) اللاتي استطعن السباحة حتى الشاطئ، أما النساء المسلمات ففي العادة ليس لديهن دراية بالسباحة كما لدى المرأة الأجنبية.

وقد قرأت عن مثل هذه الحوادث في الصحف، وسمعت عنها في نشرات الأخبار التلفزيونية. كما شاهدت برنامجاً خاصاً عن إحدى هذه المآسي بثته قناة BBC الأمريكية في برنامج شهير اسمه Date Line وقد جرى لقاء في ذلك البرنامج مع عدد من النساء الأجنبيات (أمريكيات وأستراليات) كن قد نجون من الغرق بفضل قدرتهن على السباحة، وروين كيف منعهن الرجال الإندونيسيون، كما منعوا أي امرأة إندونيسية حاولت الصعود إلى قوارب النجاة بحجة أنها مخصصة للرجال فقط، وبعبارة أخرى موت المرأة أهون من موت الرجل.

وكلامي عن إجادة المرأة الأجنبية غير المسلمة السباحة أكثر من المسلمة، ليس دعوة للمرأة المسلمة بأن تتحلل من ثيابها وتستلقي بالبكيني أو من دونه على الشواطئ كما تفعل المرأة الأجنبية، ولكنني أقول بأن المرأة الأجنبية لديها المجال مفتوحاً لتعلم السباحة وإجادتها مثل الرجل لأنها تقضي أوقاتاً طويلة في السباحة على الشواطئ، بينما المجال محدود للمرأة المسلمة لأن تتقن السباحة إتقاناً قد يكون سبباً في نجاتها من الغرق في يوم من الأيام.

ويعود عدم إتقان المرأة المسلمة السباحة إلى نظرة المجتمع الفقهي إلى سباحة المرأة على أنه كشف للعورة، يوقع المرأة في المحظور، حتى ولو كان أمام نساء فقط.

وإلا ففي دولة الإسلام يجب أن ينص الدستور على ضرورة أن تتعلم المرأة السباحة ورياضة من رياضات الدفاع عن النفس واستخدام السلاح وقيادة المركبات، كما الرجل (علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل). لأن إتقان هذه الأمور قد يترتب عليه الدفاع عن النفس أو إنقاذ حياة أو تجنب أضرار.

كما يجب إعادة ترتيب الأولويات الفقهية بالنسبة إلى المرأة، وتسويتها بأولويات الرجل. فإذا وقعت كارثة في مكان ما مثل كوارث السفن الإندونيسية فيجب أن يبادر بإنقاذ الناس بغض النظر عن الجنس، رجلاً كان أو امرأة، ودون أن يكون كشف العورة للمرأة أو ملامستها لرجل أجنبي مانعاً لإنقاذها.

ولا زال الفقه في بلاد الحرمين ينظر إلى الحرص على عدم انكشاف عورة المرأة أمام الرجال، على أنه يأتي أولاً في سلم الأولويات التي ينظر بها للمرأة، فخير لها أن تموت وهي متسترة، من أن تعيش بعد أن تكشفت عورتها أمام الرجال، أو لامسها أحدهم.

ومن هذا المنطق فقد تم وأد عدد من النساء في تلك البلاد في حوادث متفرقة، ومن ذلك الحريق الذي حدث في الساعة الثامنة صباحاً من يوم الاثنين ٢٧/ ١٢/ ١٤٢٢ الموافق ١١/ ٠٣/ ٢٠٠٢ في المدرسة (٣١) المتوسطة للبنات الواقعة على شارع أم القرى (الشارع الرئيسي الموصل إلى الحرم للقادم من جدة) بحي الهنداوية بمكة.

وتسبب بمقتل (١٥) فتاة وإصابة (٥١) بسبب التدافع العشوائي ومنع رجال هيئة الأمر بالمعروف البنات من النجاة بأنفسهن والخروج إلى الشارع، بحجة أنهن حاسرات الرؤوس، ويجب عليهن لبس عباءاتهن وتغطية أجسادهن ووجوههن. كما منعوا الناس والدفاع المدني من الدخول لإخماد النار وإنقاذهن، لأنه لو سمح للرجال بالدخول عليهن لوقع الاختلاط المحرم شرعاً، في رأيهم، بين الرجل والمرأة، وقد يلامسن من الرجال.

وقد هلك من هلك منهن دهساً والبقية حرقاً، وهو وأد أشد وحشية من وأد

البنت في الجاهلية، لأنه حصل لنساء بعضهن عاش الرعب والألم والحرق قبل أن يموت، وهي لحظات رهيبة أشد وطئاً من الموت نفسه، الذي يكون رحمة لو حدث في مثل هذه الظروف، لأن من يعش منهن بعد ذلك فستحمل معها تلك اللحظات المرعبة، التي ستلازمها على شكل كوابيس وآلام نفسية إلى آخر لحظة من حياتها. أما في الجاهلية فقد كانت البنت تدس في التراب بعيد ولادتها، وهي غير مدركة لما يحدث لها، ولا تشعر بوحشيته.

والمعلومات الواردة هنا تم اقتباسها مما جاء في بيان منظمة مراقبة حقوق الإنسان المذاع يوم ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢ من نيويورك/ وما نشر في جريدة عرب نيوز في ١٤/ ٣/ ٢٠٠٢.

وكما استعرضنا تناقض أدلة قصة ماعز والغامدية سنعرض لدليل آخر يظهر بجلاء أن الواقع يكذب حدوث قصة زنا ورجم الغامدية، وهذا هو الخبر: وحدّثنا أبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُاللّهِ بْنُ نُمَيْرٍ ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللّهِ بْنِ نُمَيْرٍ وَتَقَارَبَا فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا بُشَيْرُ بْنُ الْمُهَاجِرِ: حَدَّثَنَا عَبْدُاللّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُول اللّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! إِنّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللّهِ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْساً تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئاً؟» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلاَّ وَفِيَّ الْعَقْلِ، مِنْ صَالِحِينَا، فِيما نُرَى. فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيضاً فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِهِ وَلاَ بِعَقْلِهِ. فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. قَالَ: فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزاً، فَوَاللّهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ: «إِمَّا لاَ، فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي» فَلَمَّا وَلَدَتْه أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ. قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدَتْ. قَالَ: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِميهِ». فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ وفي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا، يَا نَبِيَّ اللّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وأَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إلى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا. فَتَنَضَّحَ الدَّمُ على وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا. فَسَمِعَ نَبِيُّ اللّهِ سَبَّهُ إِيَّاهَا. فَقَالَ «مَهْلاً يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ». ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ (مسلم: ٤٣٨٦).

فإذا كان ماعز عندما أسلم كتب له الرسول كتاباً إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام كما يقول ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب في معرفة الأصحاب في ترجمته لماعز: ماعز بن مالك الأسلمي، معدود في المدنيين، كتب له رسول الله صلى الله عليه وسلّم كتاباً بإسلام قومه، وهو الذي اعترف على نفسه بالزنا تائباً منيباً، وكان محصناً فرجم رحمة الله عليه. انتهى.

وإذا كانت وفود قبائل العرب قد وفدت على الرسول لتعلن إسلامها بعد فتح الطائف وقدوم وفد قبيلة ثقيف على الرسول، الذي كان في رمضان من العام التاسع من الهجرة، فيكون إسلام قبيلة ماعز في فترة إسلام الوفود، أي في نهاية السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة، أو بمعنى آخر، قبل وفاة الرسول بسنة واحدة، على اعتبار أن الرسول توفي في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، ويكون ماعز قد زنى بعد أن أسلم وأسلمت قبيلته، أي في أواخر السنة التاسعة للهجرة على أبعد تقدير.

وإن كان ماعز والغامدية قد ارتكبا الزنا في وقت واحد كما يفهم من خبر مسلم السابق، سواءً كان ماعز قد زنى بالغامدية أو بأمة أو بامرأة أخرى. وإن كانت الغامدية قد حبلت من الزنا، والحمل يستغرق تسعة أشهر، ثم أرضعت طفلها، لمدة سنتين: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ. (البقرة: ٢٣٣).

والغامدية أتمت رضاعة طفلها، بناءً على أمر رسول الله لها عندما قال «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِميهِ». وقد فعلت، بدليل أنها أحضرته معها بعد تمام الرضاعة «وفي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا، يَا نَبِيَّ اللّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وأَكَلَ الطَّعَامَ».

فتكون الغامدية قد بقيت سنتان وتسعة أشهر منذ زنت وحتى رجمت، وكان رجمها زمن رسول الله، فكيف أمكن للغامدية أن تختزل مدة السنتين وتسعة أشهر في مدة سنة واحدة بقيها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حياً منذ وقت زنا الغامدية، المفترض، وحتى رجمها، المزعوم.

ويكون ماعز والغامدية شخصين خياليين اخترعهما الإخباريون ورجال الدين

المسلمين ليسنوا بموجب قصتهما تشريعاتهم التي يرغبون. ويكون ليس للزنا حد سوى الجلد، ولذلك جاءت الآية الثالثة من سورة النور، والتي تلت مباشرة آية حد الزنا، لتقول لكل الفقهاء المسلمين بأن حد الزنا في الإسلام واحد، مثلما أن العبادات واحدة، فلا يطلب من الثيب أن يصلي أو يصوم أو يحج أكثر من البكر، أو أن يقتل القاتل الثيب ويجلد القاتل البكر، أو أن يحل للبكر الخمر ويحرم على الثيب. أو أن تهضم حقوق البكر، وتحفظ حقوق الثيب. يقول تعالى: الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أو مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (النور: ٣).

ولو كان الزاني الثيب يرجم، فلزم أن تأتي هذه الآية بصيغة تدل على أن المعني هو الزاني البكر، لأن الثيب، لو كان يرجم، فلن يبقى على قيد الحياة ليتزوج بزانية أو بغيرها.

وبعد كل ما تقدم بقي أن يقال بأنه لن يكون من العدل، الذي هو أحد أسس الإسلام، بل ومن أهم الأسس التي قام عليها خلق الله كله، أن يزني شخصان عاقلان راشدان تجاوزا الأربعين من عمرهما، ويرجم أحدهما بحجة أن سبق له وتزوج عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، ولمدة يوم واحد قد لا يكون لمس زوجته فيه، بينما يجلد الآخر ١٠٠ جلدة ويطلق سراحه، ولو كان قد زنى مراراً وتكراراً قبل ذلك، لأنه لم يتزوج.

والآن سنتناول الآيتان ١٥ و١٦ من سورة النساء والتي يستشهد بهما الفقهاء على أنهما كانا أول حد للزنا وأن حكمهما قد نسخ بالجلد للزانية والزاني البكرين والرجم للزانية والزاني المحصنين، وذلك كما يلي:

أولاً: هاتان الآيتان نزلتا في المدينة، ليس فقط لأن رجال الدين المسلمون والإخباريون يقولون بذلك، وليس لأنهما وجدتا في سورة النساء المدنية، ولكن لأنهما آيات حدود، وكل آيات الحدود بلا استثناء نزلت في المدينة.

ثانياً: الفقهاء قالوا بأن الآية رقم ١٥ تمثل حد الزنا للمرأة، وهذا نصها: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

بينما جاءت الآية التالية رقم ١٦ في نفس سورة النساء لتشرع حد الزنا للرجل،

وهذا نص الآية: وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فإن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً.

ويكون هناك حدان مختلفان بين الرجل والمرأة عقوبة لمعصية واحدة وهي الزنا. وهذا لا مثيل له في شرع الله على الإطلاق. فليس هناك حد للسارقة وحد مختلف للسارق، فتقطع يد الرجل ويكتفى بحبس المرأة مثلاً. وليس هناك ذنب للرجل يختلف عن ذنب المرأة إذا اقترفا المعصية نفسها. وليس هناك جنة للرجل وجنة للمرأة (إلا في عقول بعض البشر).

ثالثاً: لو سلمنا «جدلاً» بأن الزنا كان الوحيد في كتاب الله له حدان مختلفان بين الرجل والمرأة لحكمة أرادها الله وتخفى علينا، فلماذا لم تستمر هذه الخصوصية عندما استبدل الحد، فأصبحت عقوبة الزنا للمرأة والرجل واحدة إما الجلد فقط حسبما جاء في القرآن، أو الجلد والرجم حسبما يرى الفقهاء.

رابعاً: إذا كانت آية الرجم التي حلت محل هاتين الآيتين قد اختفت من القرآن بعد نزولها وبقي حكمها، فلماذا تبقى هاتان الآيتان مع أن حكمهما قد عدل واستبدل. وهذا يدل على تخبط رجال الدين، والذي يقودنا للقول بأن اجتهادات الفقهاء تظهر بجلاء مدى قصور العقل البشري عن الكمال، ولذلك لا يمكن أن نحصل على تشريعات كاملة بشرية، سواءً كان في مجال الإدارة والحكم، أو في مجال حقوق الإنسان، أو في مجال التشريعات الدينية، أو في أي مجال آخر.

وعندما حاول الناس تنصيب أنفسهم على أنهم رجال دين الله ولديهم القدرة على استنباط أحكام شرعية لم يتحدث عنها دستور دين الله القرآن، حسب ظنهم القاصر، ضلوا وأضلوا، وكانت النتيجة ظهور فرق ومذاهب تختلف فيما بينها في المسائل الفقهية.

ولا يمكن أن يكون دين الله الواحد يحوي كل هذه الاختلافات والتباينات، ويكون الجميع على صواب. وبما أن كل الفرق والمذاهب تتشبث بما لديها وتتبع فقط ما يمليه عليها رجال فقهها، فقد أصبحوا كمن قال الله فيهم: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ. . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا

مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم: ٢٩-٣٢).

واعتقدوا أن ما هم عليه هو الحق وما سواه هو الباطل، بينما نسي الجميع أن هناك طريق واحدة هي الحق وما سواها فباطل، هذه الطريق ليست ما يقوله الفقيه بل ما يقوله الله: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فإن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام: ١٥٠-١٥٣).

ومن أصر على اتباع قول الفقيه وترك قول الله فسيجد نفسه وقد أصبح مشتتاً بين فرق وآراء ومذاهب لم ينزل الله بها من سلطان: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إلى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (الأنعام: ١٥٩).

وشاهد هذا الكلام مع حديثنا عن الآيتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من سورة النساء هو أن هاتين الآيتين لم يوحي الله بهما لرسوله ليكونا حدين لزنى المرأة والرجل ثم يستبدلان بحد آخر بعد ذلك، كما يقول الفقهاء.

وإنما نزلت الآية رقم ١٥ لتكون حداً لمن يمارس فاحشة السحاق من النساء، ولم تنسخ أو تستبدل بل بقي حكمها إلى الأبد، وليس لها أي علاقة بعالم الرجال على الإطلاق: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

فاللاتي اسم موصول للجمع المؤنث، والضمير «هن» في قوله فامسكوهن،

ولهن، ضمير مؤنث. وهو ما يعني أن المقصود هو المرأة إذا مارست الفاحشة مع امرأة أخرى أو أكثر، وأن الحد هو أن تحبس في المنزل إلى آخر حياتها، لكي تمنع من الالتقاء بالسحاقيات وممارسة الفاحشة معهن. أو يجعل الله لهن سبيلاً، وذلك بعلاجها نفسياً وعضوياً إن كان هناك علاج، أو توبتها، أو تقدم من يود الزواج بها وقدرته على إقناعها بترك تلك الرذيلة أو القيام على علاجها ومنعها من الالتقاء بغيرها من السحاقيات.

أما الآية رقم ١٦ في سورة النساء نفسها فقد جاءت لتشرع حداً لمن يفعل فعل قوم لوط من الرجال: وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فإن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً.

والإيذاء يكون نفسياً ويكون بمنعهما من الميزات المالية والعمل وفضح فعلهما ونشره على الملأ وأي إيذاء آخر يسيء لسمعتهما له علاقة بما اقترفاه. وهذا العقاب أبلغ وأشد وأقسى من أي عقاب بدني كالجلد.

ومع أن هاتين الآيتين واضحتان في عباراتهما وضوح الشمس في رابعة نهار يوم صيف في الصحراء، إلا أن الفقهاء لم يروا هذه الحقيقة، فتخبطوا فيما يقولون حول هاتين الآيتين، كما سبق إيضاحه.

وجعلوا للزنا حدين أوليين تمثل في هاتين الآيتين، ولم يكن واضحاً لديهم كيف أن الحد يكون بالحبس في آية والإيذاء في آية أخرى، فقالوا إن المعنى هو أن يحبس الزاني في البيت مع الإيذاء المتمثل في أن يقال لهما «فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله».

ثم قالوا بأن حد الزنا في هاتين الآيتين قد نسخ، ولم يفطنوا إلى أنهم بقولهم هذا قد أفرغوا القرآن تماماً من أي حد لفاحشة السحاق وفاحشة فعل قوم لوط.

وبما أنه يوجد حد صريح للزنا في سورة النور، فقد حاولوا الخروج من المأزق الذي أوقعتهم فيه اجتهاداتهم الشخصية، فقالوا بأن حد الحبس قد نسخ ولم يعد يعمل به في الإسلام واستبدل بحد الجلد الذي جعلوه للبكر واستحدثوا حد الرجم لمن هو محصن كما سبق وتم إيضاحه.

وكان أن بقيت فاحشة السحاق من دون حد عند فقهاء المسلمين، وقالوا بأنه لا حد في السحاق لأنه ليس بزنا، وإنما يجب فيه التعزير، لأنه معصية.

واختلفوا كثيراً في عقوبة فعل قوم لوط، فقال بعضهم إن عقوبته عقوبة الزنا، وقال آخرون بل إن العقوبة تكون تعزيراً. وقال المالكية يرجم الفاعل والمفعول سواء كانا بكرين أم متزوجين. وقد تم قتل عدد من الناس بهذه التهمة في بلاد الحرمين بناءً على تشريعات الفقهاء، وإن كانت بدأت مثل هذه الأحكام تقل حالياً.

وهكذا لم يأخذ الفقهاء بقول الله الواضح في حدي السحاق وفعل قوم لوط، لأنهم أعملوا آراءهم الشخصية وتبعوا أقوال من سبقهم من فقهاء في أقوال الله وشرعه، فكانت النتيجة إضاعة شرع الله واستبداله بشرع بشري، وهم بهذا أضافوا إلى دين الله حدين لم يأمر الله بهما، إضافة إلى حد مفتوح سموه التعزير، بعد أن حذفوا من دين الله حدين نص عليهما القرآن.

وفي مثل هذا السياق يقول الله تعالى في سورة البقرة: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اختلفواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (البقرة: ١٧٤-١٧٦).

ثم يقول سبحانه وتعالى: فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ١٨١).

ويذكر القرآن موقفاً مشابهاً لليهود، حيث أنزل الله عليهم الدين لهدايتهم بما شرع لهم: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (البقرة: ٥٣).

ولكنهم كانوا يستبدلون أحكام الله التي نزلت عليهم بتشريعات من عند أنفسهم: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (البقرة: ٥٩).

وسنلقي نظرة سريعة على بعض أقوال المفسرين الأوائل في الآيتين ١٥ و١٦ من سورة النساء، أولئك المفسرون الذين بقيت أقوالهم تشريعاً يتبع حتى اليوم ولا يجرؤ أحد أن ينتقده أو يقول بخلافه وإلا اعتبر كافراً بما نزل على محمد، مع أن مصادر أولئك المفسرين لم تكن الوحي ولم تكن الرسول، ولكن كانت عبارة عن نقل لما قاله أناس آخرون ولدوا بعد أن مات الرسول وانقطع الوحي، ولم يعد لهم من مصدر سوى آرائهم الشخصية المستقاة مما يحيط بهم من ثقافات.

وقد ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ما نصه: السابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ هذه أوّل عقوبات الزنا؛ وكان هذا في ابتداء الإسلام؛ قاله عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد حتى نُسخ بالأذى الذي بعده، ثم نسخ ذلك بآية «النور» وبالرجم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الإيذاء هو الأوّل ثم نسخ بالإمساك، ولكنّ التلاوة أخرت وقدّمت؛ ذكره ابن فورك، وهذا الإمساك والحبس في البيوت كان في صدر الإسلام قبل أن يكثر الجناة، فلما كثروا وخشي قوّتهم اتخذ لهم سجن؛ قاله ابن العربيّ.

الثامنة ـ واختلف العلماء هل كان هذا السجن حداً أو توَعّداً بالحدّ على قولين: أحدهما ـ أنه توعد بالحدّ، والثاني ـ أنه حدّ؛ قاله ابن عباس والحسن. زاد ابن زيد: وأنهم مُنِعوا من النكاح حتى يموتوا عقوبة لهم حين طلبوا النكاح من غير وجهه. وهذا يدل على أنه كان حداً بل أشدّ؛ غير أن ذلك الحكم كان ممدوداً إلى غاية وهو الأذى في الآية الأخرى، على اختلاف أي التأويلين قبلُ.

ومما أورده القرطبي في الجامع أيضاً، ما يلي: حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ فقد جعل الله لهنّ، وهو الجلد والرجم.

وحدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: قال عطاء بن أبي رباح وعبدالله بن كثير: الفاحشة: الزنا، والسبيل: الرجم والجلد.

وحدثنا أبو هشام الرفاعي، قال: ثنا يحيى، عن إسرائيل، عن خصيف، عن مجاهد: أو يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً. قال: جلد مائة، الفاعل والفاعلة.

وحدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن مفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدي: ﴿وَاللَّتِى يَأْتِينَ الْفَحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ إلى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ هؤلاء اللاتي قد نكحن وأحصن، إذا زنت المرأة فإنها كانت تحبس في البيت ويأخذ زوجها مهرها فهو له، فذلك قوله: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩] حتى جاءت الحدود فنسختها، فجلدت ورجمت، وكان مهرهَا ميراثاً، فكان السبيل هو الجلد.

ومما يقوله الشوكاني في تفسيره: وقيل: الآية الأولى(رقم١٥) في النساء خاصة

محصنات، وغير محصنات، والثانية (رقم١٦) في الرجال خاصة، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفي الرجال من أحصن، ومن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، واختار هذا النحاس، ورواه عن ابن عباس، ورواه القرطبي، عن مجاهد، وغيره، واستحسنه. وقال السدي، وقتادة، وغيرهما الآية الأولى في النساء المحصنات، ويدخل معهنّ الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل، والمرأة البكرين، ورجحه الطبري، وضعفه النحاس وقال: تغليب المؤنث على المذكر بعيد. وقال ابن عطية: إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقيل: كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، فخصت المرأة بالذكر في الإمساك، ثم جمعاً في الإيذاء، قال قتادة: كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً. واختلف المفسرون في تفسير الأذى، فقيل التوبيخ، والتعيير، وقيل: السبّ، والجفاء من دون تعيير، وقيل: النيل باللسان، والضرب بالنعال، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس، وقيل: ليس بمنسوخ كما تقدّم في الحبس. قوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا فإن تَابَا﴾ أي: من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل فيما بعد ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا﴾ أي: اتركوهما، وكفوا عنهما الأذى، وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدّم من الخلاف.

ويظهر مما سبق أن المفسر ينقل كلام مجاهد والسدي وابن عطية وعطاء وابن جريج وسفيان الثوري وقتادة وإسرائيل وخصيف وأمثالهم ممن عاشوا في القرنين الأول والثاني، ودونوا آرائهم تلك متأثرين بخلفياتهم الاجتماعية التي جاؤوا منها وببيئاتهم التي عاشوا فيها، فلما جاء جيل مالك وأنس وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم أخذوا بأقوالهم على أنها عين التشريع الإلهي.

والخلاصة أن ترك ما اختلف فيه من أقوال الفقهاء مما ليس في كتاب الله والاكتفاء بما جاء به القرآن، ليس تكذيباً لله ولا لرسوله ولا حتى لأحمد ومالك وأبي حنيفة والشافعي، ولكن تأكيد على أن هؤلاء وغيرهم ممن سموا بأئمة المذاهب السنية والشيعية وغيرها، بنوا كل تشريعاتهم الفقهية على ما وجدوه من آراء مجاهد وإسرائيل وعطاء وقتادة ونحوهم، وبالتالي فعدم الأخذ بأقوال هؤلاء تنزيه لدين الله من أن يقال فيه من دون علم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ

وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (الحج: ٨-١٠).

وحتى لا نتخذ البشر من دون الله أرباباً نسألهم فيجيبون ونتبع: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤).

ولا بد من نقل خبر يظهر كم هي النصوص والأخبار الواردة في كتب الفقهاء والمحدثين التي تحمل ما يرغبون في وجوده في دين الله، وليس بالضرورة ما ورد في تشريع الله فعلاً.

فقد ورد في مسند أحمد خبر يقول بأن علي بن أبي طالب قد قضى في ثلاثة رجال مارسوا الزنا مع امرأة واحدة في طهر واحد، بأن يقرع بينهم ومن أصابته القرعة يدفع ثلثي الدية ويلزمه الولد إذا ولدته المرأة، ولم يأمر برجمهم ولا حتى جلدهم، وأن الرسول لما بلغه هذا القضاء ضحك حتى بدت نواجذه ولم يعلق عليه ولم يستنكره، والحديث يحمل الرقم (١٨٩٨١)، ونصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا سفيان بن عيينة عن أجلح عن الشعبي عن عبدالله بن أبي الخليل عن زيد بن أرقم: «أن نفراً وطئوا امرأة في طهر، فقال علي رضي الله تعالى عنه لاثنين: أتطيبان نفساً لذا؟ فقالا: لا، فأقبل على الآخرين فقال: أتطيبان نفساً لذاً فقالا: لا، قال: أنتم شركاء متشاكسون، قال: إني مقرع بينكم فأيكم قرع أغرمته ثلثي الدية وألزمته الولد، قال: فذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: لا أعلم إلاّ ما قال علي رضي الله تعالى عنه». وفي رواية أخرى (١٨٩٨٣) قال زيد بن أرقم: فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقضاء علي، فضحك حتى بدت نواجذه.

فإذا كان ابن الأثير يقول في كتابه الكامل في التاريخ صفحة ٢٧١ إن الرسول أرسل علي بن أبي طالب إلى اليمن سنة عشر للهجرة، أي قبل وفاة الرسول بأقل من سنة، وبعد أن وقع الرجم المزعوم على ماعز والغامدية. وقد وقع زنا الرجال الثلاثة «المزعوم» بالمرأة بعد وصول علي إلى اليمن وبعد أن دخلوا الإسلام، بدليل أن الحديث يؤكد أن الزنا وقع والمرأة في طهر، أي بعد أن عرفت الطهر

الذي جاء به التشريع الإسلامي، ولأن الولد لم يولد بعد، ولأن علي سأل الرجال إن كانوا يستسيغون ذلك، ولو كان ما حدث زمن الجاهلية وقبل إسلامهم فلا داعي لإيقاع أي حكم باسم الإسلام عليهم، لأن الإسلام يجب ما قبله من معاصي.

فهل يعقل أن نصدق أن مثل هذا الخبر قد حدث، وأن كل ما فعله الرسول هو أن يضحك حتى بدت نواجذه في تصرف علي بن أبي طالب بحد من حدود الله الثابت، بما أملته عليه نفسه؟

وهل المهم في الحادثة أن يلحق الولد بنسب أحد الرجال الثلاثة، ولذلك على من تقع عليه القرعة أن يدفع ثلثي الدية كقيمة للولد؟

وهل هكذا كان رسل رسول الله الذين يرسلهم إلى الأمصار يعلمون الناس الشرع، بما تمليه عليه أنفسهم ويقولون هو من عند الله؟ استغفر الله.

ويكون حدود الفواحش (الزنا والسحاق واقتراف فعل قوم لوط) واضحة في كتاب الله، ولكن الفقهاء تدخلوا في شرع الله بما تمليه عليه عقولهم الناقصة، فتحول حد الزنا عند المسلمين إلى أكثر الحدود غموضاً. فقد شرع له حد السجن ثم غير الحد إلى حد ثان هو الإيذاء ثم تغير مرة ثالثة إلى جلد البكر ثم جاء حد رابع للمحصن بالرجم، ثم ألغيت آية الرجم من القرآن، ثم كان يحكم على الزاني المحصن أحياناً بالرجم والجلد، وأحياناً بالرجم فقط، ثم شرع السماح للرجل المرجوم بالهرب، فإن فعل فيسقط عنه الرجم، ثم ألغي هذا الحد، وجاء الحكم على الزاني بالرجم حتى الموت. أما المرأة فلم يسمح لها بأي فرصة للهرب، بل يحفر لها حفرة لا تظهر سوى رأسها وترجم حتى الموت. وتركت فاحشة السحاق وفاحشة فعل قوم لوط من دون حد واضح، ثم شرع لها حدود متخالفة متفاوتة لم يتفق عليها الفقهاء.

فهل يعقل أن نترك شرع الله الواضح كالمحجة البيضاء والذي نص في كتابه الكريم على حد الزنا وحد السحاق وحد ثالث لفعل قوم لوط، ونلاحق تخبطات الفقهاء التي لم يستطيعوا كبحها؟

المثال الرابع: التوبة

هي عند الفقهاء الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها والعزم على عدم العودة إليها، وإن كانت معصية بحق آدمي، فيشترط رد المظالم إلى أهلها.

والمالكية والحنابلة وظاهر مذهب الحنفية ورأي عند الشافعية لا يجيزون توبة الزنديق.

ويعرف الزنديق عندهم بأنه الذي لا يتمسك بشريعة ولا يتدين بدين (كما جاء ذلك في حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٩٦ وحاشية القليوبي ٤/ ١٧٧ وكشاف القناع ٦/ ١٧٦- ١٧٨).

ولا يشترط أكثر الفقهاء السنة في التوبة عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى. أي أنه يمكن عندهم أن يتوب المرء من معصية الزنا الآن ويعود إليها مرة أخرى فيعتبر كأنه يرتكب الزنا للمرة الأولى.

وتصح التوبة عندهم عن معصية مع الإصرار على اقتراف معصية أخرى عند بعض الفقهاء. أي أنه يصح أن يتوب عن الزنا ويداوم على السرقة أو أي معصية أخرى. وعند أحمد تصح التوبة من معصية والإصرار على معصية أخرى إذا كانت المعصية التي أصر عليها ليست من نوع المعصية التي تاب عنها. فمن تاب عن الخمر وأصر على الزنا فتوبته عن الخمر صحيحة، ولكن من تاب عن ربا الفضل ولم يتب عن ربا النسيئة فلا تصح توبته.

واشترط بعض الفقهاء لقبول التوبة ظهور علامات الصلاح، وقدروا ذلك بستة أشهر وقال البعض سنة. ولم يذكروا كيف يمكن التأكد من علامات الصلاح، ولم يضعوا لها معايير.

وقالوا بأن باب التوبة مفتوح حتى الغرغرة، أي اللحظة التي تفارق فيها الروح الجسد، معتمدين على خبر ورد في كتب الحديث، ومنه ما جاء في مسلم: وحدّثنا أبو بَكْرٍ وعُثْمَان ابْنَا أبي شَيْبَةَ. وَحَدَّثَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ. قَالُوا جَمِيعاً: حَدَّثَنَا أبو خَالِدٍ الأَحْمَرُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ أبي حَازِمٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ (مسلم: ٢٠٧٥).

(هذا باختصار ما جاء عن التوبة في الموسوعة الفقهية- إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ـ الجزء الرابع عشر- توبة).

والحقيقة أن ما ورد في القرآن يؤكد أن النطق بالشهادة ولو عن يقين راسخ، لحظة الوفاة، لا يسعف من نطق بها إن كانت أعماله سيئة في حياته: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ

أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (يونس: ٩٠-٩١).

لأن الإيمان ليس قول ويقين فقط ولكن يقين وأعمال: إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (مريم: ٦٠).

وعليه فلو لم يستطع المحتضر أن يتشهد فلا يعني أنه مات ميتة جاهلية أو أن مصيره النار، لأن مصيره يوم الحساب سيتقرر بناء على ما كتب في صحيفة أعماله منذ أن أصبح راشداً، وحتى مات، وليس بناءً على موقف واحد أو لحظة واحدة.

والتوبة لا يقبلها الله إلا إذا استكمل المرء أربعة أسس هي: التوبة المباشرة والإيمان الصادق والعمل الصالح والاستمرار على الهدى: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتدى (طه: ٨٢).

وهو ما ينفي أن تكون الأعمال معلقة بخواتيمها، أي أن المرء يمكنه أن يعمل ما يشاء من المعاصي وعندما يهرم ويعجز ولا تسعفه قوته لمزيد من ارتكاب الموبقات يعلن توبته وسيجد الله تواباً رحيماً، وإلا لقبلت توبة فرعون لأنه نطق بالشهادة وهو يعي ما يقول، ولم يدخل في الغيبوبة التي يدخل بها الغريق والتي تستغرق وقتاً قبل أن يموت، أي أن فرعون تشهد قبل الغرغرة ولكن توبته لم تقبل.

والتوبة في القرآن تكون عن الكبائر: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء: ٣١) أي أن كل أمر أو نهي في القرآن يعاقب مخالفه بالنار فهو كبيرة يجب التوبة عنها.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة: ١٨٦) والدعاء هنا لطلب التوبة من الذنوب والمعاصي وليس لأمور دنيوية أو مادية.

فتكون التوبة مفتوحة للعبد إذا تقيد بشروطها التي أوردها القرآن والتي جاءت على الشكل التالي:

- أن ترتكب المعصية في لحظة ضعف بشري دون تخطيط مسبق وتعمد لفعلها، أو أن ترتكب جهلاً بحرمتها: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: ١٧).

- أن لا يتكرر ارتكاب المعصية، سواءً كانت من نفس نوع المعصية السابقة أو من غيرها، وتكون التوبة عن كل ما يخالف أوامر ونواهي الله، بكل صدق، حال فعل إحدى المعاصي دون تأخير: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أو ظَلَمُواْ أنفسهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاستغفرواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران: ١٣٥) فالتوبة تكون من المعصية المرتكبة ومن كل الذنوب والمعاصي الأخرى (فَاستغفرواْ لِذُنُوبِهِمْ) وليس فقط التوبة عن ما تم اقترافه كل معصية على حده.

- ويلزم أن يتبع التوبة أعمالاً صالحة تمحو آثار المعصية، فإن كانت موجهة للناس فيعوضون عما أصابهم من ضرر مادي أو معنوي حتى يصفحوا ويعفوا، لأن صفحهم شرط لازم لقبول التوبة.

- وإن كانت المعصية ضد أوامر إلهية فتتبع التوبة بالإكثار من الأعمال الصالحة: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الأنعام: ٥٤).

- ومن أفضل ما أمر به القرآن من أعمال صالحة تكفر ذنوب المعاصي، الإنفاق: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (التوبة: ١٠٣-١٠٤).

- والإنفاق بالمفهوم القرآني تم الحديث عنه بإسهاب في الركيزة الثالثة من ركائز الدولة الإسلامية ـ الإنفاق.

- ولا تقبل التوبة إذا كانت بسبب الإحساس بالموت الحقيقي، أو في حال الموت المعنوي، أي العجز وعدم القدرة، جسدياً أو لأي مانع آخر: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (النساء: ١٨).

- وإذا ما تاب المرء وعمل صالحاً فيجب أن يستمر على أداء العمل الصالح والتقوى حتى آخر حياته: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتدى (طه: ٨٢).

ومما ورد يتضح أن القرآن يقول بأن الدين كلٌ لا يتجزأ، فمن أراد التوبة فليتب فوراً عن كل مخالفة لأمر أو نهي إلهي، ولا يعود إلى غيرها سواءً كانت من نوعها أو معصية من نوع آخر وليستمر في طاعة الله واجتناب نواهيه حتى مماته، بينما تقول الاجتهادات الفقهية أن هذا الكلام فيه نظر وتفصيلات كثيرة قال بها البشر.

المثال الخامس: الخمر

اختلف الفقهاء المسلمون في تعريف الخمر وأنواعه وما يسكر منه، كعادتهم في الاختلاف حول أي مسألة فقهية. وهذا استعراض بتصرف لأقوالهم في الخمر كما ورد في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت.

يقول الفقهاء إن كل مسكر خمر، وقال آخرون إن الخمر هو ما صنع من عصير العنب، وقال غيرهم هو ما صنع من عصير العنب شريطة أن يغلى ويقذف الزبد (بفتح الزاء والباء). ونتيجة لهذه الاختلافات فرقوا بين خمر مصنوعة من عنب أو زبيب وبين خمر مصنوعة من تمر أو بسر، أو خمر مصنوعة من غيرهما كالتين والعسل، فقال بعضهم إن ما صنع من غير التمر والعنب فهو مباح، واشترط أبو حنيفة لإباحته ألا يشرب للهو أو طرب. كما أباح بعضهم ومنهم أبو حنيفة النبيذ، وهو المطبوخ من نقيع التمر والعنب وغيرها، وهذه الاختلافات فتحت الباب على مصراعيه لتعود الخمرة إلى موائد السلاطين المسلمين وتجارهم دون مواربة أو وجل، تحت مباركة رجال الدين.

عقوبة شارب الخمر

لم يرد في القرآن الكريم عقوبة بدنية لشارب الخمر، ومع ذلك يحكم على شارب الخمر حالياً بالجلد ٤٠ جلدة، وأحياناً ٨٠، وقد تتطور القضية وتتفاعل فيسجن الشارب. وقد تصدر بحقه أحكام أخرى تكون سبباً في فقد وظيفته ومصدر رزقه ورزق عياله، مما قد يترتب على ذلك مفاسد أكثر بكثير من شربه الخمر.

والحكم بجلد شارب الخمر أربعين جلدة قال به بعض رجال الدين السنة، بينما يقول البعض الآخر بأنه ثمانين، وهو ما يقول به رجال الدين الشيعة أيضاً. ويعتمد الطرفان على أخبار تنسب إلى الرسول أو صحابته. ومما اعتمد عليه السنة

خبر ورد في مسلم تحت الرقم (٤٤٠٦)، وهذا نصه: حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنّى ومُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قالا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ النَّبِيَّ أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الْخَمْر فَجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ، نَحْوَ أَرْبَعِينَ. قَالَ: وَفَعَلَهُ أبو بَكْرٍ. فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ استشار النَّاسَ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحمنِ: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ. فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ.

ولا يعقل أن يكون عمر لم يسمع بأن الرسول قد جلد شارب الخمر، مع أن عمر يسكن المدينة والتي لم تكن تزيد عن بلدة صغيرة يعرف الصحابة كل ما يقع فيها، خاصة إذا كان فعل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام. وخاصة أن عمر كان من أحرص الناس على معرفة كل ما يقوله الرسول وليس فقط ما يفعله، وفي هذا المعنى يقول البخاري: حدَّثنا أبو اليمانِ أَخبرَنا شُعَيبٌ عنِ الزُّهْرِيِّ. ح. قال أبو عبداللهِ وقال ابن وَهبٍ أخَبرَنا يونُسُ عنِ ابن شِهابٍ عن عُبَيدِالله بن عبدالله بن أبي ثَورٍ عن عبداللهِ بن عباسٍ عن عُمرَ قال: كنتُ أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصارِ في بني أُمَيَّةَ بن زيدٍ ـ وهيَ مِن عوالي المدينةِ ـ وكنا نَتَناوَبُ النُّزولَ عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يَنزِلُ يَوماً وأَنزِلُ يَوماً، فإذا نَزَلتُ جِئتُه بِخَبرِ ذلكَ اليوم مِنَ الوحيِ وغيرِه، وإذا نَزَلَ فَعلَ مِثلَ ذلِكَ. فنزَلَ صاحِبي الأنصاريُّ يومَ نوبتِهِ، فَضرَبَ بابي ضرباً شديداً فقال: أثَمَّ هوَ؟ ففَزِعت، فخرَجْتُ إليهِ فقال: قد حدثَ أَمرٌ عظيم. قال: فدخلتُ على حفصةَ فإذا هي تبكي، فقلتُ: طلَّقَكُنَّ رسول اللهِ؟ قالت: لاَ أدري. ثمَّ دخلتُ على النبي صلى الله عليه وسلم فقلتُ وأنا قائم: أطلقتَ نساءك؟ قال: لا. فقلتُ: اللهُ أكبر (البخاري: ٨٩).

وهناك أحاديث كثيرة أخرى متفاوتة في الخمر وشاربها. فما هو المقصود بالخمر؟ وكيف جاء تحريمها؟ وهل على شاربها فعلاً عقوبة بدنية؟

والخمر يمكن تعريفها بعيداً عن تناقضات رجال الدين، بأنها كل مسكر (Intoxicant)، سواءً كان على شكل حبوب وعقاقير أو على شكل شراب، فليس المقصود من تحريمه أنه صنع من التمر أو من العنب أو من العسل أو التين أو غيرها، ولكن المقصود بالتحريم هو بسبب تأثيره على المتعاطي. فيدخل في ذلك الحشيش والقات وما شابهها، إذا ثبت طبياً أن تأثير هذه الأشياء لا يزيد عن تأثير الخمر.

ولا يمكن اعتبار المخدرات خمراً بل هي مواد سامة. ويعتبر متعاطيها كمن يقتل نفسه، أما مروجها وصانعها وزارعها فيعتبر قاتلاً، لأنها تؤدي بمتعاطيها للإدمان الذي يقود إلى الجنون والموت. وليس مهماً إن كانت مادتها الخام مزروعة مثل الكوكايين وما شابهها، أو يتم تصنيعها في المعامل والمختبرات.

والخمر وأكل لحم الخنزير محرمتان في كل الأديان السماوية التي نزلت على كل الرسل، ولازال نص التحريم موجوداً في الكتب المقدسة لليهود والصابئة.

وقد نزل تحريم أكل الخنزير بنص صريح ومباشر في عدد من السور، منها سورة النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فِإِن اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النحل: ١١٥).

بينما لم يرد للخمر ذكر في كل الآيات المكية، لأن الخنزير غير مألوف ولا معروف في شبه الجزيرة العربية، أما الخمر فقد كان سكان شبه الجزيرة يكرعون منه بلا حدود، وكانت معاقرة الخمر تتم في أجواء حميمة بين أقرب الأصدقاء، لدرجة سمي جليس الشرب بالنديم، وكان لهذه المجالس طقوسها الخاصة، يصف جانباً منها طرفة بن العبد بقوله:

نداماي بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة ... بجس الندامى بضو المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت ... لنا على رسلها مطروقة لم تشدد

ويقول طرفة بأن الخمر تأتي في مقدمة أهم ثلاث غايات يعيش من أجلها الإنسان:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

واشتهرت قريش، كبقية سكان جزيرة العرب، بالخمر المعتقة التي كانت تخمر لمدد تصل إلى عشرات السنين. فكان الإقلاع عن الخمر في مثل ذلك المجتمع يحتاج إلى إرادة جبارة لا يولدها إلا تقوىً وإيمان عميق، وهو ما لم يتوفر إلا في المجتمع المسلم المدني الذي أصبح الإسلام جزءاً من تراثه. ولذلك جاء النهي عن الخمر في المدينة وعلى مراحل، وليس في مكة وبنص صريح ومباشر مثل الخنزير.

وقد أورد البخاري خبراً، سواءً صحت نسبته إلى عائشة أم المؤمنين أم لم تصح، يشير إلى أن التدرج في الأحكام كان في الأشياء التي اعتادها الناس ويصعب عليهم التخلي عنها، وهذا نص الخبر: حدّثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرَني يوسفُ بن ماهَكٍ قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك وما يضرك، قال: يا أمَّ المؤمنين أَريني مُصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مَؤلف قالت: وما يَضُرُّك أَيهُ قرأتَ قبلُ. إنما نَزَلَ أول ما نزل منه سورة من المفَصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الْحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوَّلَ شيءٍ لا تشربوا الخَمرَ لقالوا لا نَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ علَى محمد صلى الله عليه وسلم وإنِّي لجارِيةٌ أَلْعبُ، بل الساعةُ موعِدُهُم والساعةُ أدهَى وأَمَرُّ. وما نَزلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عندَه. قال: فأَخْرجت له المصحف، فأَمْلَت عليه (آيَ السُّور) (البخاري: ٤٨٧٣).

وإن كانت آيات الخمر نزلت بالتدرج، فيكون أول ما نزل في الخمر الآية ٤٣ من سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أو عَلَى سَفَرٍ أو جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَائِطِ أو لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا.

فالصلاة لا تجوز من شارب الخمر حتى يعلم ما يقول، لأن الصلاة المقبولة هي التي يستحضر المصلي كل كلمة يقولها، ومع الخمر يفقد المرء التركيز. أما الجنابة فيكفي أن يغتسل عنها بالماء لتجوز الصلاة، ولو تعذر الحصول على الماء، فيكفي أن يتيمم المرء ويصلي. .بينما لا تجوز الصلاة مع السكر لأن غُسل السكران لن يمنحه التركيز والخشوع المطلوبين.

وبعد نزول الآية السابقة، ونزول آيات أخرى بتحريم الميتة ولحم الخنزير، وتحريم شرب الدم، مع أن شربه لا يخالط العقل، بدأ المسلمون يتساءلون عن شرب الخمر، هل هو حلال أم حرام؟

فنزلت الآية ٢١٩ من سورة البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا.

وإعلان الآية للمسلمين بأن هناك إثم في تناول الخمر، كان كافياً للبعض منهم بأن يقلع عن احتسائها، وإن استمر البعض الآخر في تعاطيها، بحجة أن نص الآية لا يحمل التحريم القطعي. ومع ذلك فقد مثَّلت هذه الآية الخطوة الأخيرة لتهيئة المجتمع المسلم آنذاك لتقبل تحريم الخمر نهائياً، فكان آخر ما نزل في الخمر الآيات الثلاث ٩٠، ٩١، ٩٢ من سورة المائدة.

ونصت الآية ٩٠ على أن الخمر رجس من عمل الشيطان مثلها في ذلك مثل الميسر وعبادة الأصنام والاعتقاد بالطالع، ويكون حكم الخمر مساوياً في التحريم لهذه الممارسات التي لا يشك المسلمون في تحريمها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجتنبوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

والمسلم لا يكون مسلماً إذا لم يتعامل مع غيره من المسلمين بمنطق الأخوة الصالحة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأصبحتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران: ١٠٢-١٠٣).

وإذا ما حدث ما يعكر صفو هذه العلاقة الأخوية بين اثنين، فيجب أن يعمل المجتمع المسلم والدولة الإسلامية على إعادة الصفا بينهما: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات: ١٠).

وشارب الخمر تلغى لديه مراعاة المجاملات الاجتماعية التي تمنعه من قول رأيه حول أي موضوع يطرح بوقاحة قد تكون جارحة لشخص آخر لن يتقبلها، مما يؤدي إلى البغضاء والتنافر، والذي فطن له عنترة بن شداد في معلقته فقال مفاخراً بأنه لا يصدر منه ما يصدر من شارب الخمر في العادة:

وإذا سكرت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يثلم

لذلك حرمت الخمر، لأن معاقرتها تهيئ الجو للتنافر والبغضاء بين الندماء،

مثلما يحدث التنافر والبغضاء أحياناً عند ممارسة الميسر، فجاء تحريمهما بالصيغة نفسها. إضافة إلى أن الخمر والميسر تصدان عن ذكر الله والصلاة: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (المائدة: ٩١).

وتتحدث كتب الأخبار عن استمرار بعض الصحابة في شرب الخمر بعد نزول هذه الآية، ومنهم قدامة بن مظعون، ومنهم أبو محجن الثقفي، أحد أبطال معركة القادسية، وضرار بن الأزور وأبو جندب اللذان شربا الخمر قبل إحدى المعارك الهامة في فتوح الشام، وغيرهم. وسواءٌ صحت الأخبار أو لم تصح، فإن هذا لا يستدل منه على أن الأمر بالانتهاء والإقلاع عن شرب الخمر وممارسة الميسر، كان للتخيير، وإن جاء على شكل تساؤلٍ. بل هو تساؤلٌ لحسم الأمر، فإما الانتهاء والإيمان أو الاستمرار والكفر، وهو ما جاءت الآية الثالثة رقم ٩٢ في سورة المائدة لتؤكده: وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فإن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ.

فالخمر حرام، ومن استمر على شربها بعد أن تبلغ تحريمها عبر الآيتين السابقتين فهو مخالف لدين الله وتشريعاته، وبما أن الدين لا يتجزأ، فمخالفة تشريع واحد هو مخالفة لكل التشريعات، وهذا ما قالته آيات الخمر في سورة المائدة للمسلمين.

وإذا قضى الله أمراً وأنزله كتشريع فليس لأحد من خلقه الخيار، إن شاء عمل به أو شاء تركه: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا (الأحزاب: ٣٦).

ولا يعني عدم وجود نص واضح مثل «حرمت عليكم الخمر» في القرآن أن ما قالته الآيات السابقة ليس كافياً للتحريم، وإلا فإن الزنا ليس محرماً، لأن القرآن يخلو من أي آية تنص على لفظ التحريم الواضح، وأوضح ما قاله القرآن في هذا المجال هو: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً (بني إسرائيل: ٣٢) وكانت كافية لئلا يشك أحد بتحريمه.

متى حرمت الخمر

جاء في البخاري وغيره من كتب الإخباريين ما يظهر حمزة بن عبد المطلب وقد ثمل، وأن الرسول رآه وهو بحالة شديدة من السكر. ولو صدق الخبر، فإن الخمر لم تحرم قبل معركة أحد، لأن حمزة قتل في تلك المعركة. وقد ذكر البخاري القصة في حديث رقم (٣٠٢٣) وهو حديث طويل أوله: حدّثنا عَبدانُ أخبرَنا عبدُاللهِ أخبرَنا يونُسُ عنِ الزّهريِّ قال: أخبرَني عليُّ بنُ الحسين أنَّ حُسينَ بنَ عليّ أخبرَهُ أنَّ علياً قال: كانت لي شارفٌ... ويستمر الحديث حتى قوله: فقلتُ: مَن فَعلَ هذا؟ فقالوا: فَعلَ حَمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، وهوَ في هذا البيتِ في شَرْبٍ منَ الأنصار... إلى آخر الحديث.

كما أورد البخاري وغيره، أن مجموعة من الصحابة شاركوا في معركة أحد واستشهدوا فيها وهم قد شربوا الخمرة، يقول البخاري: حدَّثنا صدقةُ بن الفضلِ أخبرَنا ابن عيينةَ عن عمرٍو عن جابر قال: صبح أُناسٌ غَداةَ أُحدٍ الخمرَ فقُتلوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبلَ تحريمها (البخاري: ٤٥٠٠).

فإن صدقت هذه الأخبار يكون تحريم الخمر قد جاء بعد معركة أحد، وإن لم تصدق، فإن الخمر قد حرمت في المدينة وبعد عدة سنوات من هجرة الرسول، لأن سورة المائدة التي فيها آيات تحريم الخمر، من السور المدنية، وإن لم يعرف بالتحديد تاريخ نزول تلك الآيات.

عقوبة شارب الخمر عند رجال الدين

يلاحظ أن الخبر الذي ينسب إلى الرسول بأنه جلد شارب الخمر، يدل نصه على عدم التأكد من عدد الجلدات التي أمر الرسول بها، لأن الراوي يقول «نحو أربعين». فيكون الرسول، حسب زعم هذا الخبر، لم يسن حداً معيناً في الخمر.

كما أن الخبر المذكور وأخباراً أخرى تظهر أن عمر لم يكن لديه أدنى فكرة عن حد الخمر، ولذلك لما أتي له بشارب خمر استشار عبد الرحمن بن عوف، وبناءً عليه جلد الشارب ٨٠ جلدة، يقول مسلم: حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنّى: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ جَلَدَ فِي الْخَمْرِ

بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ. ثُمَّ جَلَدَ أبو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ، وَدَنَا النَّاسُ مِنَ الرِّيفِ وَالْقُرَى، قَالَ: مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ الْخَمْرِ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ: أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخَفِّ الْحُدُودِ. قَالَ: فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ (مسلم:٤٤٠٨).

ولو أشار عليه عبد الرحمن بن عوف بأن يجعلها ٢٠ جلدة أو يطلق سراح الشارب فقد يكون فعل، لأن الأمر لم يخرج عن كونه رأياً شخصياً وليس تشريعاً دينياً.

وتنقل لنا الأخبار أن شارب الخمر قد تعرض لعقوبات متباينة حسبما يراه الخليفة، فمرة يجلد أربعين وبعدها يجلد ثمانين ثم يعود آخر ويجلد أربعين، ومرة ينسب إلى الرسول أنه أمر بجلد الشارب ومرة أخرى ينسب إلى الرسول أنه لم يجلده. يقول أبو داوود: حدثنا ابن السَّرْحِ قالَ وَجَدْتُ في كِتَابِ خَالِي عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عن عُقَيْلٍ أنَّ ابن شِهَابٍ أَخْبَرَهُ أنَّ عَبْدَالله بنَ عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ الأزْهَرِ أَخْبَرَهُ عن أبِيهِ، قال: أُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِشَارِبٍ وَهُوَ بِحُنَيْنٍ فَحَثَى في وَجْهِهِ التُّرَابَ، ثُمَّ أمَرَ أصْحَابَهُ فَضَرَبُوهُ بِنِعَالِهِمْ وَما كَانَ في أَيْدِيهِمْ حَتَّى قالَ لَهُمْ: ارْفَعُوا، فَرَفَعُوا، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ثُمَّ جَلَدَ أبو بَكْر في الخَمْرِ أرْبَعِينَ، ثُمَّ جَلَدَ عُمَرُ أرْبَعِينَ صَدْراً مِنْ إمَارَتِهِ ثُمَّ جَلَدَ ثَمَانِينَ في آخِرِ خِلاَفَتِهِ، ثُمَّ جَلدَ عُثْمانُ الْحَدَّيْنِ كِلَيْهِمَا ثَمَانِينَ وَأَرْبَعِينَ، ثُمَّ أَثْبَتَ مُعَاوِيَةُ الْحَدَّ ثَمَانِينَ (أبو داوود: ٤٤٨٢).

ويصر رجال الدين الشيعة على قتل شارب الخمر إذا تكرر شربه للمرة الرابعة، بينما لا يأخذ رجال الدين السنة بالأخبار التي تقول بذلك، مع أنها جاءت في كتبهم، ومنها ما أورده أحمد في مسنده تحت الرقم ١٦٥٢٨، وهذا نصه: حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا عارم حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن معبد القاص عن عبد الرحمن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد فاجلدوه فإن عاد فاجلدوه فإن عاد الرابعة فاقتلوه.

ولا يأخذ رجال الدين السنة والشيعة بأخبار أخرى تظهر أن الرسول لم يجلد شارب الخمر ولم يضربه بنعال أو جريد أو غيره، وإنما أمر به فأوصل إلى منزله.

ومن ذلك ما أورده ابن حجر العسقلاني ضمن ترجمته لعلقمة بن الأعور السلمي في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، يقول: علقمة بن الأعور السلمي أبو الأعور ذكره بن السكن وغيره وقال بن إسحاق حدثني محمد بن طلحة عن عكرمة عن بن عباس قال ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر إلا أخيراً لقد غزا غزوة تبوك فغشي حجرته (أي خيمته) من الليل علقمة بن الأعور السلمي وهو سكران حتى قطع بعض عري الحجرة فقال من هذا فقيل علقمة سكران فقال ليقم إليه رجل منكم فيأخذ بيده حتى يرده إلى رحله هكذا رواه محمد بن سلمة والجمهور عن بن إسحاق ورواه يونس بن بكير فقال أبو علقمة بن الأعور بن قطبة والله أعلم. انتهى.

وغزوة تبوك حدثت في السنة التاسعة من الهجرة، أي قبل سنة وبضعة أشهر من وفاة الرسول، وبعد أكثر من ست سنوات على نزول آيات تحريم الخمر، فيكون الرسول لم يجلد أبداً شارب الخمر. وتكون عبارة «إلا أخيراً» الواردة في الخبر قد أضيفت في عصور متأخرة، لأنه ليس هناك ما يدل على أن الرسول قد أتي له بشارب خمر بعد تلك الحادثة حتى توفي صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤكد أن الرسول لم يعاقب شارب الخمر ما رواه البخاري برقم ٦٦٣٠ بقوله: حدّثنا عبدُالله بن عبدِ الوهاب حدَّثنا خالدُ بن الحارثِ حدثنا سُفيانُ حدَّثنا أبو حَصينٍ سمعتُ عُميرَ بن سَعيدٍ النَّخَعيَّ قال: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه قال: ما كنت لأقيمَ حدّاً عَلَى أحد فيموتَ فأجدَ في نفسي، إلا صاحبَ الخمر فإنه لو مات ودَيْته، وذلكَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يَسُنَّه. وهذا الكلام لعلي، إن صح، قد قاله عندما أصبح خليفة وبعد موت الرسول بربع قرن من الزمن.

عقوبة شارب الخمر في القرآن

لم يرد في القرآن حد لشارب الخمر، لأن كل المحرمات من المطاعم والمشارب في القرآن ليس لها حد. فليس هناك حد على من أكل لحم الخنزير أو أكل الميتة أو ما أهل به لغير الله، وليس هناك حد على من شرب الدم، وبالتالي فليس من المتوقع أن يكون هناك حد على من شرب الخمر. وما يؤكده القرآن هو

أن الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان وجاء النهي عنهما بلهجة إلهية شديدة لا يتجاهلها إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر.

ويكون الخمر واحداً من المطاعم الحرام، ولكن لا يحد شاربه. وإذا ما ارتكب السكران أي معصية أو جنحة أو جريمة تحت تأثير الخمر فيعاقب عليها، ولا يعذر لأنه سكران، حتى لا يكون فعله المحرم المتمثل في السكر، عوناً له على تخفيف العقوبة عن جرم، لو فعله شخص عاقل لعوقب عليه.

والذي لم يفطن له بعض فقهاء المسلمين هو أن عقوبة الجلد في القرآن، دستور الإسلام، مقصورة على معصية الزنا والقذف بالزنا فقط: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (النور: ٢).

وقد سمى الله الجلد بالعذاب لأن الإحساس بالمهانة جراء الجلد، عذاب نفسي عميق يبقى محفوراً في المشاعر طالما عاش الإنسان ولا يختفي مهما طال عليه الزمن. فهو أكثر تأثيراً من العذاب الجسدي الذي يختفي بمجرد زوال الألم. وبما أن الزنا ممارسة فيها امتهان للضوابط الإلهية لتنظيم العلاقات الجنسية بين البشر، وفيها امتهان للعرض والكرامة، ونزول للمستوى الحيواني الذي يريد الله أن ينزههم عنه، فإن مرتكبها يستحق هذا العذاب المهين. لذا كان الجلد وقفاً في كتاب الله على معصية الزنا والقذف الذي يمت للزنا بصلة، دون سائر المعاصي.

أمثلة لأقوال المفسرين

في هذا القسم من الملاحق سنورد ثلاثة أمثلة من تفسير بعض الآيات القرآنية، لبيان كيف ساهم التفسير في إخراج الآيات عن معانيها الأصلية، إلى معان لم ينزل الله بها من سلطان، وأدخلت في الدين ما ليس فيه وتقولت على رسول الله ما لم يقل، مظهرة الإسلام كدين للخرافات والعوالم الأسطورية.

المثال الأول: أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل، وقعت قبل ولادة رسول الله، ولما بعث عليه الصلاة والسلام كان معظم من عاصروا تلك الحادثة قد فارقوا الحياة، ولعل أشهرهم جد الرسول لأبيه، عبد المطلب، الذي اقترن اسمه بحادثة الفيل كونه القرشي الوحيد الذي التقى أبرهة، قائد جيش الغزاة، كما يقول الإخباريون. وكان يمكن أن لا نسمع عن حادثة الفيل، وتموت بموت من عاصرها، لولا أن القرآن الكريم تحدث عنها في إحدى قصار السور، والتي سميت بسورة الفيل.

وهذه السورة أبقت ذكر تلك الحادثة حياً، مثلما أبقت ذكر حادثة أصحاب الأخدود، وغيرها من الأحداث التي ذكرها القرآن، لكن أسلوب القرآن المختصر المفيد، لم يقنع المفسرين فأطلقوا لخيالاتهم العنان لتصوير ما تعنيه الطير الأبابيل، ونوع العذاب الذي حل بأصحاب الفيل، بما يتناسب وما يظنونه من معتقدات وما يؤمنون به من خرافات وأساطير.

وكان يمكن أن يعفو الزمن على تلك التخيلات الأسطورية، ويأتي من يفهم السورة بشكل أكثر واقعية، لولا أن أقوال أولئك المفسرين الأوائل أضحت مقدسة للأجيال التي جاءت بعدهم، وبالتالي تم تبنيها وحرم المساس بها، وأضحت وكأنها فعلاً تمثل ما أراد الله جل وعلى أن يقوله في كتابه الكريم.

أبرهة وعزمه على تخريب الكعبة

تبدأ حادثة أصحاب الفيل عندما قرر أبرهة، الحاكم الحبشي على اليمن في تلك الفترة، هدم الكعبة لكي يجبر سكان الجزيرة العربية على الحج إلى كنيسته التي بناها في صنعاء.

وهذا نص ما أورده القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في تفسيره لسورة الفيل، عن سبب عزم أبرهة على غزو الكعبة، حيث يقول: وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانيا، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النسأة، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها ـ أي أحدث فيها نجاساته- ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك: أصرف إليها حج العرب غضب، فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. انتهى.

ويكون السبب وراء العزم على هدم الكعبة يعود إلى أن أبرهة كان يهدف إلى تنصير سكان الجزيرة العربية، وارتأى أنه لن يتمكن من ذلك إلا إذا هدم الكعبة وحول الناس للحج إلى كنيسة القليس، ولذلك كان سيتجه لهدم الكعبة سواءً أحدث أحد الأعراب في كنيسته التي في صنعاء أو لم يحدث.

وقد وصل أبرهة وجيشه وعسكر قرب مكة، بمعونة عدد من زعماء قبائل الجزيرة العربية منهم ذو نفر أحد ملوك القبائل اليمنية، ونفيل بن حبيب الخثعمي الذي رافق أبرهة في مسيرته، ومسعود بن معقب الثقفي، الذي أرسل مع أبرهة أحد رجاله لكي يدله على الطريق إلى مكة، وكان اسم ذلك الدليل أبو رغال. وأبو رغال هو الذي اشتهر لأنه من ثقيف، وقام بدور الدليل لجيش أبرهة القادم لهدم الكعبة التي في مكة، على الرغم مما بين قريش وثقيف من أحلاف وروابط أسرية، فكان ما فعله أبو رغال منكراً لديهم.

فلم تنسه قريش، ووصف بكل ألقاب العار والخزي، وأصبح قبره يرجمه كل

من يمر بجواره، لأنه أعان المحتل على بني جلدته العرب، بينما لم يعيبوا على ذي نفر، لأنه يمني ليس له صلة بقريش، ولا على زعيم خثعم، نفيل بن حبيب، لأنه لم يكن بين قريش وخثعم روابط أسرية ولا أحلاف، ولذلك اعتبرت تلك القبيلة كدولة أجنبية.

أما أبو رغال فقد صبت قريش جام غضبها عليه وبقي ذكره سيئاً على مر العصور مع أنه كان منفذاً لرغبات زعيمه وزعيم ثقيف مسعود بن معقب الثقفي الذي أمره ليكون دليلاً لجيش أبرهة، وتنفيذ أمر الزعيم العربي واجب على الرعية، ومن تخاذل عن تنفيذه فقد خان الوطن واستحق أشد أنواع العقوبة. ويبدو أن قريش لم ترد خلق موقف عدائي مع ثقيف ولذلك فقد وجهت اللوم للمواطن المسكين أبو رغال المكلف بالتنفيذ ولو لم يكن لديه خيار بالرفض، بينما لم تشر لا من بعيد ولا من قريب لمسؤولية الزعيم الثقفي وموقفه المداهن للغازي الأجنبي.

وقد جاء ذكر مسير أبرهة وجيشه لمكة في كتب التفسير والأخبار الأخرى، وهذا نص ما جاء في تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن في تفسيره لسورة الفيل: وسمعت العرب، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيرا، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي، فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق (وقد يكون استعان به وبمن بقي من جيشه في حملته، وهو ما يعني أن بقاءه خير من قتله).

ويواصل القرطبي قائلاً: ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيرا؛ فأتي به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه

مسعود بن معتب في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد، يعنون اللات، إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه؛ فتجاوز عنهم. وبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزله المغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس. اهـ.

وهكذا وصل جيش أبرهة وعسكر قرب مكة استعداداً لدخولها وهدم الكعبة.

وقد اتفقت كتب الأخبار على أن أبرهة قد كان معسكره الاستعدادي الأخير لدخول مكة في وادي المغمس الذي كان يمر به الطريق الموصل بين مكة والطائف، ويشرف عليه جبل يسمى كَتَدٌ (حسبما يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان).

المفسرون وقصة الفيل

بما أن حادثة الفيل وقعت قرب مكة، وبالتحديد في بقعة ما من وادي المغمس خارج مكة، فقد كان من المفترض أن تنسب أخبار تلك الحادثة إلى عبد المطلب الذي تقول الروايات أنه قابل أبرهة، وإلى رجال مكة الذين عاصروا الحادثة مثل حرب بن أمية والحارث بن علقمة والعاص بن أمية وهشام بن الحارث وغيرهم، أو على الأقل تنقل عن نسابة قريش من الجيل التالي، ولكن الملفت أن كتب الأخبار (السير والتاريخ والتفسير) التي تحدثت بإسهاب منقطع النظير عن تلك الحادثة نسبت رواياتها إلى أناس ولدوا بعد زمن الرسول، وبعد حادثة الفيل بعشرات ومئات السنين. وأولئك الرواة عاشوا طوال حياتهم في العراق وخراسان وما جاورهما، ولا يعرفون من مكة إلا بقدر ما يعرفه عنها الحاج من خارج جزيرة العرب الذي يعتزم الحج لأول مرة. ولم ينقلوا أقوالهم عن أشخاص كانوا شهود عيان أو حتى ممن أدركوا عام الفيل ووعوا ما حدث، وإن نسب أولئك رواياتهم إلى بعض صغار الصحابة، لدعم أقوالهم.

وقد نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته لعكرمة قوله: قال الثوري: خذوا التفسيرَ عن أربعة: عن سعيد بن جُبير، ومجاهدٍ، وعِكرمة، والضحَّاك. وسوف نورد بعضاً من تراجم هؤلاء وغيرهم للتعرف على بعض جوانب شخصيات من صنعوا التفسير، وجعلوه جزءاً من دين الله.

سعيد بن جبير (قتل سنة ٩٥ للهجرة أو ١٤٨ بعد عام الفيل)(١)

أحد أوائل المفسرين وقد تعاطف معه الإخباريون ورووا له سيرة مليئة بالخوارق والمعجزات الحسية نتيجة لأنه قتل على يدي الحجاج المشهور بظلمه وتسلطه وحبه لسفك الدماء، مع أن سعيد بن جبير هو الذي ابتدأ قتال الحجاج عندما خرج عليه مع ابن الأشعث(٢).

وسعيد بن جبير لا يختلف عن رجال عصره في الإيمان بالخرافات والأساطير، وسنورد نتفاً من تفسيره الخرافي للقرآن، لبيان أن تفسيره لا يعتمد على مصادر موثوقة، بل هو نتاج خيال شخصي، مثل كل سلف المفسرين، ومن ذلك ما رواه الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء، يقول الذهبي: (حدثنا) محمد بن حُمَيد الرازي: حدَّثنا يعقوب القُمِّيّ بن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: لما أهبَط الله آدم إلى الأرض، كان فيها نَسْرٌ وحُوت، لم يكُن غَيْرُهما، فلما رأى النَسْرُ آدم، وكان يأوي إلى الحوت يبيتُ عنده، فقال: يا حوت لقد أُهبِطَ اليومَ إلى الأرض شيءٌ يمشي على رجليه، ويبطشُ بيديه. قال: لئن كنتَ صادقاً ما لي في البحر منهُ منجى، ولا لك في البَرّ.

وفي نفس الترجمة يقول الذهبي: (حدثنا) ابن حُميد: حدَّثنا يعقوب القُمِّيّ عن جعفر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: إنَّ في النار لرجلاً ينادي قدر ألف عام: يا حنَّان يا منَّان، فيقول: يا جبريل أخرجْ عبدي من النار، قال: فيأتيها فيجدها مُطبقة فيرجع فيقول: يا رب ﴿إِنَّها عَلَيْهُمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ فيقول: يا جبريل ارْجِعْ فَفُكَّها فأخرِجْ عبدي من النار، فيفكُّها، فيخرج مِثْلَ الخيال، فيطرحُه على ساحلِ الجنَّة حتى يُنْبِتَ الله له شعراً ولحماً.

ويقول الذهبي: (حدثنا) إبراهيم بن طَهْمان، عن عطاءِ بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس، عن النبيِّ، قال: كان نَبِيُّ الله سُليمان إذا قامَ في مُصَلاَّه رأى شَجرَةً نابِتةً بَينَ يَديهِ، فقال لها: ما اسْمُكِ؟ قالت: الخُرْنُوب. قال:

---

(١) على افتراض أن الرسول ولد عام الفيل، وعلى افتراض أن الرسول بعث وهو ابن أربعين، وعلى افتراض أنه هاجر وهو ابن ثلاث وخمسين، فيكون الفارق بين الهجرة وعام الفيل ثلاث وخمسين سنة.

(٢) ورد ذلك في ترجمة سعيد بن جبير التي أوردها الذهبي في تذكرة الحفاظ.

لأيٍّ شيءٍ أنت؟ فقالت: لخَراب هذا البَيت. فقال: اللّهُمَّ عمِّ عليهم مَوتي حتى يَعْلَمَ الإنسُ أن الجِنَّ لا تَعْلَمُ الغَيْب.

وكان ابن حبير له مجلسان في اليوم يقص فيهما على الحاضرين القصص والأخبار ومنها تلك التفاسير، وهذا ما أكده الذهبي في ترجمته حيث يقول: (حدثنا) عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا أبو شهاب، قال: كان يقصُّ لنا سعيدُ بن جُبَيْر كُلَّ يومٍ مرَّتين: بعدَ الفجر وبَعْدَ العَصر.

ويضيف الذهبي أن ابن جبير كان يكتب الأحاديث والعلوم التي يسمعها على نعليه: (حدثنا) يعقوب القُمِّيّ، عن جعفرِ بن المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: ربما أتيتُ ابن عباس، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها، وكتبتُ في نعلي حتى أملأها، وكتبتُ في كفِّي.

عكرمة مولى ابن عباس (توفي سنة ١٠٥ للهجرة أو ١٥٨ لعام الفيل)

كان مكثراً من الحديث والقصص، ويقول عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى: أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا أيوب عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس قال: لو أن مولى ابن عباس هذا اتقى الله وكف من حديثه لشدت إليه المطايا.

وسبب كثرة حديثه وقصصه يفسره بنفسه فيما نقله ابن سعد، قائلاً: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب قال: قال عكرمة: إني لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة فينفتح لي خمسون بابا من العلم.

فقد كان قصصه يعتمد على سماع جملة ويبني عليها قصة كاملة يحدث بها الناس.

ويقول الذهبي في ترجمته لعكرمة في سير أعلام النبلاء أنه كان كثير الأسفار لطلب المال من الأمراء والسلاطين، وقد خرج للمغرب، ويورد الذهبي سبب ذلك بقوله: (حدثنا) سعيد بن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود قال: كنتُ أوَّلَ من سبَّب لعكرمة الخروج إلى المغرب، وذلك أني قَدِمْتُ من مصر إلى المدينة، فلقيني عكرمة، وسألني عن أهل المغرب، فأخبرتُه بغفلتهم، قال: فخرج إليهم، وكان أوَّل ما أحدث فيهم رأي الصُّفريَّة.

قال يحيى بن بُكَير قدم عكرمة مصر ونزل هذه الدار، وخرج إلى المغرب، فالخوارج الذين بالمغرب عنه أخذوا.

وينقل الذهبي ما يؤيد أن عكرمة له فكراً مخالفاً، فيقول إن علي بن المديني قال: كان عكرمة يرى رأي نجدةَ الحروريِّ.

وقال أحمد بنُ زُهير: سمعت يحيى بنَ معين يقول: إنما لم يذكر مالك عكرمة ـ يعني في «الموطأ» ـ قال: لأن عكرمة كان ينتحل رأي الصُّفريَّة.

وروى عمر بن قيس المكي، عن عطاء قال: كانَ عكرمة إباضياً. وعن أبي مريم قال: كان عكرمة بيَهسيَّاً.

وقال إبراهيم الجُوزجاني: سألتُ أحمد بن حنبل عن عكرمة، أكان يرى رأيَ الإباضية؟ فقال: يُقال: إنه كان صُفرياً، قلت: أتى البربَر؟ قال: نعم، وأتى خُراسان يطوفُ على الأمراء يأخذ منهم.

وينقل الذهبي أن عكرمة يكذب فيما ينقله على لسان ابن عباس بقوله: عن أبو خلف عبدالله بنُ عيسى الخرَّاز، عن يحيى البَكَّاء سمعتُ ابن عمر يقول لنافع: اتَّقِ الله، ويحكَ، لا تكذب عليَّ كما كذبَ عكرمة على ابن عباس، كما أَحَلَّ الصَّرف، وأسلَم ابنه صَيرفياً.

وعن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن سعيد بن المسيِّب أنه كان يقول لِغلام له: يا برد، لا تكذب عليَّ كما يكذب عكرمةُ على ابن عباس.

وعن إسحاق بن الطَّبَّاع قال: سألت مالكاً: أبلغك أنَّ ابن عمر قال لنافع: لا تكذِبْ عليَّ كما كذب عِكرمةُ على عبدالله؟ قال: لا، ولكني بلغني أنَّ سعيدَ بن المسيِّب قال ذلك لبُرْد مولاه.

وينقل الذهبي أن سعيد بن المسيب يعلم أن تفسير عكرمة للآيات من تخيلاته، يقول الذهبي قال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة: سأل رجل سعيد بن المسيِّب عن آيةٍ، فقال: لا تسألْني عن القُرآن، وسَلْ عنه من يزعم أنه لا يخفى عنه منه شيء يعني عكرمة (من باب السخرية).

ومن تفسيره ما نقله الذهبي عن بِشْرُ بنُ المُفَضَّل، عن عبدالله بن عثمان بن خُثَيم سألت عكرمة، أنا وعبدُالله بنُ سعيد، عن قوله ﴿والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ قال:

بُسُوقها كبُسوقِ النساء عند ولادتها، فرحتُ إلى سعيد، فأخبرته، فقال: كذب، بُسوقُها: طُولُها.

وهذه بعض الأقوال من بعض المشاهير في عكرمة والتي نقلها الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء:

سألت ابن سيرين عن عكرمة فقال: ما يَسُوؤني أن يكونَ مِن أهل الجنة، ولكنه كذَّاب.

وقال معن وغيره: كان مالكٌ لا يرى عِكرمة ثقةً، ويأمر أن لا يُؤخذَ عنه. قال يحيى بنُ معين: كان مالكٌ يكره عِكرمة، قيل: فقد روى عن رجلٍ عنه، قال: شيءٌ يسير.

وروى الربيع عن الشافعي قال: ومالك سيِّئ الرأي في عِكرمة، قال: لا أرى لأحد أن يَقْبَلَ حَدِيثَه.

قال أحمد بن حنبل: عِكرمةُ بن خالد أوثقُ مِن عكرمة مولى ابن عباس، عِكرمةُ مضطربُ الحديث يُختلَفُ عنه، وما أدري.

وروى أبو داوود السِّنجي، عن الأصمعي، عن ابن أبي الزِّناد قال: مات كُثَيِّر وعِكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد، فأخبرني غيرُ الأصمعي، قال: فَشهِدَ الناسُ جِنازة كُثَيِّر وتركوا جنازة عِكرمة.

والضحاك بن مخلد (توفي سنة ٢١٢ للهجرة أو ٢٦٥ لعام الفيل)

يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: لم يحدث قط إلا من حفظه (أي أنه كان يحدث ويقص مما تمليه عليه نفسه).

ومثلهم:

الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة، أي بعد مضي ٢٦٠ عاماً على حادثة أصحاب الفيل)

والذي يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: وهو من أوعية العلم، لكنه لا يتقن الحديث، وهو رأس في المغازي والسير ويروي عن كل ضرب (أي أنه يتحدث في كل شيء).

الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦ للهجرة، أو ١٩٩ سنة من عام الفيل)

يقول عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان: وكان الكلبي المذكور. . . يقول إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا. وروى عنه سفيان الثوري ومحمد بن إسحاق، وكانا يقولان: حدثنا أبو النضر حتى لا يعرف.

ومقاتل بن سليمان بن بشير (توفي سنة ١٥٠ للهجرة أو ٢٠٣ لعام الفيل)

وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور.

أما كيف كان يفسر القرآن فقد أوضح هو نفسه ذلك بأنه كان من عند نفسه، كما نقل ابن خلكان ذلك في ترجمته: قال سفيان بن عيينة، قال مقاتل بن سليمان يوماً: إسلوني عما دون العرش.

ويقول ابن خلكان في وفيات الأعيان أن العلماء قد اختلفوا في أمره، فمنهم من وثقه في الرواية، ومنهم من نسبه إلى الكذب وقال أحمد بن سيار: مقاتل بن سليمان كان من أهل بلخ، وتحول إلى مرو وخرج إلى العراق، وهو متهم متروك الحديث مهجور القول، وكان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه. وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: مقاتل بن سليمان كان دجالاً جسوراً.

وعطاء بن رباح (توفي سنة ١١٥ للهجرة أو ١٦٨ لعام الفيل)

وله قصص مماثلة لمن سبقه ولكنه امتاز عنهم كما أورد الذهبي في تذكرة الحفاظ وابن خلكان في وفيات الأعيان بأنه كان يبعث بجواريه إلى ضيفانه.

وسبق وأوردنا بعضاً من تراجم مجاهد والحسن البصري وسفيان الثوري والسدي وقتادة في فصل ولادة الفقه والتفسير والحديث.

وقد اتسمت تفسيرات أولئك وأمثالهم من سلف المفسرين، لسورة الفيل بأشكال أسطورية بعيدة عن الواقع، لأنهم اعتمدوا فيها على تخيلاتهم التي تأثرت بما كان عليه مجتمعهم من تدن في الوعي والثقافة العامة والعلوم وما اعتادوه من تصديق بخرافات وأساطير.

وكانوا ينسبون قصصهم أحياناً إلى بعض صغار الصحابة خاصة ابن عباس، وأحياناً لأم المؤمنين عائشة، أو للرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعادة ما يتوقفون دون أن يذكروا من أين استقى ابن عباس أو أم المؤمنين رواياتهم، وغالباً

ما يدلون بقصصهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ذكر مصادرهم التي استقوا معلوماتهم منها.

وفي الأسطر المقبلة سنورد بعضاً مما قاله أولئك المفسرون في تفسير قوله تعالى: وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ونبدأ بما نقله القرطبي في تفسيره قائلاً: قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها.

وعن سعيد بن جبير أيضاً: هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر. وقيل: كانت بِيضاً. وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة.

وروى جويبِر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ.

وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب.

وقال عِكرمة: كانت طيراً خُضْراً، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تُر قبل ذلك ولا بعده.

وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف (ونسبة الحديث إلى عائشة قد يكون حصل بعد وفاتها ولم تعلم به).

وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء.

وقيل: إنها العنقاء المُغْرِب التي تضرب بها الأمثال؛ قال عِكرمة: «أبابِيل» أي مجتمعة. وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل مختلفة متفرّقة، تجيء من كل ناحية، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش. قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام. يقال: فلان يؤبِّل على فلان؛ أي يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل. واختلف في واحد (أبابيل)؛ فقال الجوهريّ: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فِرقاً، وطير أبابيل. قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده إبَّوْل، مثل عِجَّوْل. وقال بعضهم: ـ وهو المبرّد ـ: إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أجد العرب تعرِف له واحداً في غير الصحاح.

ونقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: ترميهم بحجارة من سجيل: في الصحاح: حِجارة مِن سِجيلٍ» قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً﴾ (الذاريات: ٣٣-٣٤).

وقال عبد الرحمن بن أبزى: مِن سِجيلٍ: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل من الجحيم. وقال الزجاج: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي مما كُتب عليهم أن يُعَذّبوا به؛ مشتق من السجل.

قال عِكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُر قبلَ ذلك اليوم. وكان الحجر كالحِمصَّة وفوق العدسة.

وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده، فكان ذلك أوّل الجُدرِيّ. وقراءة العامة ﴿تَرْمِيهِم﴾ بالتاء، لتأنيث جماعة الطير.

وقرأ الأعرج وطلحة «يَرْمِيهم» بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧) ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير، لخلوّها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ.

ونقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: فجعلهم كعصف مأكول: أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. روُي معناه عن ابن زيد وغيره.

والعَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١). ومعنى «مأكولٍ» مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس؛ «فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ» أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِندة.

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال

ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهلُ اللَّهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

وكتب التفاسير الأولى واللاحقة تنقل روايات متشابهة في الغرابة، ومن ذلك ما جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للخضيري ما يلي:

وأخرج أبو نعيم عن حكيم بن حزام قال: كانت (أي الحجارة) في المقدار من الحمصة والعدسة حصى به نضح أحمر مختمة كالجزع فلولا أنه عذب به قوم أخذت منه ما اتخذه لي مسجداً وهي بمكة كثير.

وأخرج أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية قالت: رأيت الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل حمرا مختمة كأنها جزع ظفار فمن غير ذلك فلم ير منها شيئاً، ولم يصبهم كلهم، وقد أفلت منهم. وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الديلمي قال: رأيت الحصى التي رمي بها أصحاب الفيل مثل الحمص وأكبر من العدس حمر مختمة كأنها جزع ظفار. انتهى.

وعن الجزع، يقول صاحب لسان العرب: والجَزْعُ والجِزْعُ: الأَخيرة عن كراع: ضرب من الخَرَز، وقيل: هو الخرز اليماني، وهو الذي فيه بياض وسواد تشبَّه به الأَعين؛ قال امرؤ القيس:

كأَنَّ عُيُونَ الوحْشِ حَوْلَ خِبائنا وأَرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

وكانت نساء العرب تصنع منه عقد تتحلى به.

وحسبما رواه المفسرون فإن حجارة أصحاب الفيل قد كتب على كل واحدة منها اسم من ستصيبه من جيش أبرهة كما يورد الخضيري في تفسيره الدر المنثور، يقول: وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح أنه رأى عند أم هانئ بنت أبي طالب من تلك الحجارة نحواً من قفيز مخططة بحمرة كأنها جزع ظفار مكتوب في الحجر اسمه واسم أبيه.

وجميع المفسرين تقريباً على مر العصور نقلوا تلك التفاسير، ولم يشذ إلا القليل عن تلك القاعدة. حتى أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قد قالا كلاماً حول حادثة الفيل لا يمكن أن يتلاءم مع ما نعتنا به من عقلانية. وهذا ما قرأته في كتيب صفحاته ٦٣ صفحة من تأليف محمد متولي الشعراوي بعنوان: تفسير

سورة الفيل وقريش. يقول الشعراوي في الصفحة ٢٣ أن محمد عبده قال: «إن الطير الأبابيل جاءت بمايكروبات الجدري».

ويكون محمد عبده وافق المفسرين الأوائل بأن هناك طيوراً أرسلت من السماء وأنها تحمل عذاباً لجيش أبرهة، وإن اختلف معهم بأن ما تحمله لم يكن حجارة بحجم الحمص أو مخططة أو كجزع ظفار، ولكنها كانت تحمل مواد جرثومية تتمثل في ميكروبات الجدري، ويكون قد استعار ثقافة مفسري الجيل الأول في عالم القرنين التاسع عشر والعشرين.

بينما يوافق الشعراوي ما قال به المفسرون الأوائل بأن هناك طيوراً، وأنها حملت حجارة في مناقيرها وأرجلها، واعتبر ذلك من المعجزات الحسية التي حصلت بأمر الله، ومن لا يقتنع بذلك «يقول الشعراوي» فلا يعنينا أن تقتنعوا بهذه أو لا تقتنعوا (ص٣١).

وتكون تفاسير الرعيل الأول من المفسرين قد بقيت هي السائدة حتى الآن، ليس لأنها هي القول الحق، ولكن لأن المسلمين لا يقرأون قرآنهم، وإن رددته حناجرهم فلا يصل إلى أذهانهم؟

قصة أصحاب الفيل كما يرويها القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (سورة الفيل).

ومفتاح فهم الآيات السابقة يكمن في قوله تعالى «طيراً أبابيل» وقوله تعالى «حجارة من سجيل» وقوله تعالى «عصف مأكول».

وسنحاول أن نتكلم عنها بقليل الكلام ومفيده، فنقول:

إن لفظة (طير) الواردة في الآية إما أنها تعني الطيور كما نعرفها ذات الجناحين من الريش. وهذه المخلوقات تطير باختيارها ولديها القدرة على الطيران والهبوط متى شاءت.

أو أنها تأتي من الطيران، أي التحليق فترة في الهواء قبل أن تقع على الأرض.

وهذا الطيران ليس اختيارياً ولا يكون عن مقدرة، ولكنها أرغمت عليه بقذفها في الهواء سابحة لفترة قبل أن تسقط على الأرض.

وفي هذا المعنى يمكن لإنسان أن يطير إذا قذف بواسطة آله أو قوة دافعة أو سقط من علو. ومثل الإنسان كل حيوان أو جماد ليس لديه القدرة على الطيران بذاته والهبوط بشكل اختياري.

ويدخل في هذا المعنى الحمم البركانية إذا قذف بها البركان عند ثورانه.

وهذا المعنى لـ«طير» هو المقصود في سورة الفيل، وليس الطير بمعنى الطيور القادرة على الطيران والهبوط.

أما «أبابيل» فينقل ابن منظور في لسان العرب أن الأَبابيل جمع لا واحد له. وقيل: طير أبابيل يتبع بعْضها بعضاً إِبِّيلاً إِبِّيلاً أي قَطيعاً خَلْفَ قَطيع؛ قال الأَخفش: يقال جاءت إِبلك أَبابيل أي فِرَقاً. انتهى.

فهي جمع لا مفرد له، وتعني مجتمعة، أو جماعات جماعات، أو كتلاً كتلاً، ووصف القرآن الكريم للحمم البركانية بالطير الأبابيل، وصف دقيق، إذا أن الحمم البركانية جمع لا مفرد له، فلا يمكن أن يثور البركان بقذف حمم بركانية واحدة، وثوران البركان يطلق على قذف حمم متتالية ومتتابعة.

وسجيل تعني الحجارة أو الطين المطبوخ وهي فارسية، كما يقول ابن المنظور في لسان العرب، وقد دخلت العربية كما دخلتها كلمات فارسية أخرى مثل ديباج وجاموس وغيرها. والعربية تخلو مفرداتها من كلمة واحدة تعني الحجارة أو الطين المطبوخ، أو «اللابة» (Lava).

وقد جاء القرآن ليبين أن معنى سجيل هو الطين أو التراب أو الحجارة المطبوخة على شكل حمم بركانية في قوله تعالى: قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (الذاريات: ٣٢- ٣٣) لأن هذا الطين المطبوخ هو الذي أهلك قوم لوط والذي وصف في آيات أخرى بأنه حجارة من سجيل، ومن ذلك: فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (هود: ٨٢).

ومنضود معناها كما في لسان العرب إذا صار الشيء بعضه فوق بعض. وأَنضادُ الجِبالِ: جَنادِلُ بعضُها فوق بعض. وكذلك أَنضادُ السحاب: ما تراكبَ منه.

فيكون السجيل حمم بركانية تطاير بعضها خلف بعض في الفضاء على شكل كتل (طيراً أبابيل) وهبطت على الأرض. والدليل على أنها سقطت من علو كالمطر، قوله تعالى: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (الحجر: ٧٤) في الحديث عن قوم لوط.

والحمم البركانية (الطير الأبابيل) تندفع من باطن الأرض بدرجات حرارة قد تصل إلى (١٥٠٠) درجة مئوية[١]، ولو وقعت على جسم الإنسان لحولته، خلال لحظات، إلى ما يشبه العصف المأكول. أي إلى ما يشبه تجاعيد القشرة الخارجية للتفاحة المتعفنة، أو تجاعيد قشرة أي ثمرة أخرى أو حبة قمح قد أفرغت من ثمرتها وبقيت قشرتها المتجعدة، وذلك نتيجة لتبخر السوائل التي تكون ٨٠٪ من جسم الإنسان في لحظات، وكأنه فرّغ من الداخل.

وليس في القرآن ذكر لسجيل إلا في الحديث عن عذاب قوم لوط وعذاب أصحاب الفيل فقط. وقوم لوط عذبهم الله بالزلازل والبراكين، والذي صوره المفسرون على أن جبريل قد رفع القرية حتى سمع ملائكة السماء الدنيا صياح ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها وتركها تهوي إلى الأرض. لأن هذا التصوير السطحي الخرافي لا يمكن أن يحدث. ليس لأن الله لا يمكن أن يرسل ملائكة لرفع القرية، ولكن لعدة أسباب، أهمها:

* أنه بمجرد الخروج عن الغلاف الجوي للأرض فإن الإنسان، وكل ذي روح، يختنق من انعدام الأكسجين إن بقي حياً بعد انخفاض الضغط الجوي المصاحب للارتفاع، وبالتالي فلن تبقى الديكة تصيح بعد ذلك.
* أن الله سبحانه لم يقل بذلك وكلما روي في كتب التفسير خيال بشر.
* أن جبريل ليس بحاجة إلى رفع القرية للسماء الدنيا التي لا أدري كم تبعد عن مجرتنا، ولكني أعرف بأن الخروج من محيط مجرتنا المسماة «درب اللبانة» يحتاج إلى قطع مسافة طولها نحو ١٠٠ ألف سنة ضوئية أي نحو (٩٥ مليون مليون كيلومتر) وليس مهماً كم يستغرق الوقت على اعتبار أن جبريل يمكنه السير بسرعات كونية لا نعرفها.

---

(١) كما ورد في الموسوعة العالمية ـ الجزء الأول/ ص١٤ / النسخة العربية تراد كسيم ش. م. ـ جنيف.

* ولكن المهم هو أنه ليس هناك داع لرفع القرية كل هذه المسافة لأن الديكة وأهلها من قوم لوط سيكونون قد ماتوا بمجرد الارتفاع عن سطح الأرض بضعة كيلومترات في الفضاء. وأن جبريل لو ابتعد عن الجاذبية الأرضية وقلب القرية وتركها تهوي، فلن تعود إلى الأرض أبداً، بل ستدور في الفضاء المحيط بالأرض كما تفعل الأقمار الصناعية التي تبث بواسطتها القنوات التلفزيونية الفضائية، حتى ولو تعطلت.

* وأن جبريل لو رفع القرية إلى ارتفاع مساو للارتفاع الذي انفجر فيه مكوك الفضاء كولومبيا يوم السبت الأول من الشهر الثاني لعام ٢٠٠٣، وكان على مسافة نحو ٢٠٠ ألف قدم فوق الأرض فقط، فإن حطام القرية سيتناثر على مساحة تصل إلى مئات آلاف من الكيلومترات المربعة، وبحجم يصل إلى حجم مساحة الجزيرة العربية، ولن تهبط في مكانها نفسه الذي رفعت منه كما تقول كتب التفسير، والذي لا يزيد عن كيلومتر مربع.

والقرآن يؤكد أن القرية بقيت خراباً في مكانها بعد العذاب لتكون عبرة لقريش وغيرهم: وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (العنكبوت: ٣٥) فمعنى «تركنا منها آية بينة» أي آثار وبقايا.

والله سبحانه يقول عن عذاب قوم لوط بأنه كان عبر إرسال حاصب عليهم وليس برفعهم: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (القمر: ٣٤) والحاصب كلمة تعطي نفس معنى (طيراً أبابيل) لأن الحاصب عبارة عن حمم بركانية مكونة من حجارة وطين وتراب منصهر تقذف في الفضاء وتهبط على القرية فيجعل أهلها كالعصف المأكول.

وقد أكدت آيات أخرى أن ما حل بقوم لوط هو طمر القرية بحمم بركانية، ومن ذلك قوله تعالى: إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (العنكبوت: ٣٤) ولذلك قالت الآية منزلون، لأن الحمم تأتي من الفضاء بالنسبة إلى القرية، وليس رافعون للقرية كما يتخيل المفسرون.

وقذف البركان للحمم البركانية يجعل منظر نزولها على الأرض يشبه هطل المطر الغزير، مع الفارق في المحتوى. ويقول تعالى يصف ما حل بقوم لوط: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (النمل: ٥٨).

ومن المؤكد أن ما حل بقوم لوط كان بركاناً مصحوباً بزلازل، يقول تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر: ٧٣).

والصيحة ذاتها جاءت في القرآن كعقاب لقوم صالح: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (القمر: ٣١).

والصيحة التي أخذت قوم صالح هي الرجفة أيضاً أو بلغة العصر الزلزال: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأصبحواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (الأعراف: ٧٨).

وبالمناسبة فقد بقيت أجساد موتى من قوم صالح في مقابرهم الموجودة على شكل البناء المشهور بمدائن صالح حالياً في منطقة العلا شمال المدينة في جزيرة العرب حتى زمن ابن بطوطة حيث مر بتلك المدائن وكتب يقول: وهناك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر، منحوتة لها عتب منقوشة، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة. وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت، إن في ذلك لعبرة (ص ١٣٣ رحلة ابن بطوطة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت).

وإذا ما ترافق زلزال مع ثورة بركان فإن القرية سيكون منظرها بعد ذلك وكأنها قد قلب عاليها ليكون سافلها من أثر الزلزال ثم طمر البركان لها بحممه الملتهبة: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (الحجر: ٧٤).

وقد تمكن الإيطاليون أخيراً من اكتشاف مدينة بومبي الإيطالية التي طمرها البركان في العصر الروماني، والتي احتفظت بكامل شوارعها ومبانيها وسكانها على هيئاتهم التي كانوا عليها لحظة ماتوا خنقاً تحت الرماد أو حرقاً من الحمم البركانية، والمتاحف الإيطالية تحتفظ الآن بمجموعات من الناس والكلاب والحيوانات الأخرى، متحجرين في أوضاع مختلفة، بنفس الهيئة التي طمروا فيها وتحولوا إلى ما يشبه العصف المأكول.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن ما حل بقرى لوط عبرة لمن يريد أن يعتبر: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (الحجر: ٧٥) ولو كانت قرى لوط قد رفعت إلى السماء وهوي بها إلى الأرض فلن يبقى للمشاهدة إلا الحفرة التي قلعت منها القرية والتي لن يزيد قعرها عن قعر أساسات بيوت القوم، وستتكفل الرياح بدفنها بسرعة، ولن يبقى منها ما تعتبر منه قريش التي تخاطبها هذه الآيات والتي تؤكد أن قريش

يعرفون موقع قرى قوم لوط لأنها تقع على سبيل تطرقها قريش باستمرار في رحلاتها التجارية: وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (الحجر: ٧٦).

ولو كان لدى أهل جزيرة العرب من التطور والحس العلمي ما لدى الغرب لأمكن، بمعاونة طرق التصوير المتقدمة والوسائل الحديثة للبحث عن الآثار، تحديد مكان قوم لوط الذي يقول عنه كمال سليمان الصليبي بأنه في منطقة جنوب غرب جزيرة العرب، وذلك بناءً على دلائل أوردها في كتابيه التوراة جاءت من جزيرة العرب وخفايا التوراة.

ويكون ما حدث لأبرهة وجيشه هو أنهم تعرضوا لثوران بركان طمرهم بحممه، ومن الشواهد الواقعية التي تؤكد ذلك، ما يلي:

* أن من هلك من جيش أبرهة لم يجده أهل مكة، ولما لم يجد المفسرون والمؤرخون تبريراً مقنعاً لاختفاء أجسادهم، قالوا بأن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر، كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن النقاش في تفسيره[١].

وبالطبع هذا لم يحدث والذي قد يكون حدث هو أن من طمرته الحمم البركانية قد اختفى تحتها إن بقي منه شيء. ومن أصيب ببعض الحمم ولكنها لم تطمره فقد تفسخ جلده، وقد يكون هلك في وقت لاحق أو برئ.

وقد يكون المؤرخون والمفسرون الأوائل قد نقلوا وصفاً حقيقياً لذلك عندما قالوا: قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مَهْلك على كلّ مَنْهَل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة ثمت قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه فيما يزعمون[٢]. ومن يتعرض لحمم بركانية تصل حرارتها لمئات الدرجات المئوية فسيتفسخ جسمه ويسقط لحمه متبوعاً بالقيح والدم، كما حدث لأبرهة.

وبطبيعة الحال فمنظر التفسخ الذي يصيب من يتعرض للحمم البركانية يتشابه

(١) البداية والنهاية/ فصل ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة/ ج١ ص١٧٠.
(٢) الطبري/ تفسير سورة الفيل.

نوعاً ما مع منظر جسد المريض بالجدري الذي تلتهب قروحه وكأن لحمه يتفسخ، ولذلك اعتقد المؤرخون أن عذاب أهل الفيل قد أوجد الجدري. يقول ابن كثير في البداية والنهاية: قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أوّل ما رُئيت بها مرائر الشجر الحرمل، والحنظل والعشر ذلك العام.

وهذا غير صحيح، ولكن ومع الأسف فقد اعتقده مفكرون إسلاميون بحجم محمد عبده الذي نقل عنه محمد متولي شعراوي كما أسلفنا أنه يعتقد أن عذاب قوم أبرهة كان بالجدري الذي بثت مايكروباته تلك الطيور الغريبة ذات المخالب التي نزلت من السماء.

ومرة أخرى لو كان في بلاد الحرمين تقدم واهتمام علمي كما في الغرب، لأمكن وبسهولة متناهية تحديد المكان الذي وقعت فيه حادثة الفيل وأمكن التنقيب والكشف عنها، وسنجد بكل تأكيد جثثاً متحجرة وقد لا نجد الفيل محمود لأنه قد يكون نجا بنفسه.

* يقول القرطبي في تفسيره لسورة الفيل: فَبَرَكَ الفيلِ. . . وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وضربوا في رأسه بالطَّبَرْزِين ليقوم، فأبى، فأدخلوا محَاجن لهم في مراقّه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعا إلى اليمن، فقام يُهَرْوِل، ووجَّهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. انتهى.

وهذه الرواية تصور الحقيقة لأن الفيل عندما أبى أن يسير باتجاه مكة كان يتبع حاسة خاصة، لأن الحيوانات قد زودها الله بأجهزة استشعار عالية الحساسية في أجسادها تمكنها من التنبؤ بوقوع الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية الأخرى قبل وقوعها، وهذه حقيقة علمية يعرفها الجميع، وقد استفادت منها الصين للتنبؤ بحدوث الزلازل وإخلاء السكان قبل وقوعها. ولذلك كان فيل أبرهة يسرع مهرولاً بأي اتجاه آخر عدا وجهة مكة التي يبدو أن البركان قد ثار في منطقة بين الموقع الذي عسكر فيه جيش أبرهة وبين مكة. وقد ثار البركان بعد ذلك فطمر البعض بالحمم وهرب البعض وقد أصيب وقد يكون هناك من لم تلحقه أي إصابة.

* ومن المؤكد أن ثورة البركان كانت محدودة ولذلك لم يره أهل مكة ولا

الطائف، لأن الطائف متوارية خلف قمم جبال السروات الشاهقة، ولأن قريش قد أخلت مكة وهربت إلى الشعاب الموجودة في الجبال الواقعة في الجهة المقابلة للجهة التي سيقدم منها جيش أبرهة. فإذا كان أبرهة سيقدم إلى مكة من جهة الشرق أو الشمال الشرقي، على اعتبار أن آخر معسكر له كان في المغمس الذي يقع على طريق مكة ـ الطائف القديم، فإن من البديهي أن يلجأ القرشيون إلى الجبال الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من مكة. ويكون هناك مسافة بينهم وبين مكة ثم مسافة أخرى بين مكة والموقع الذي ثار فيه البركان الذي قضى على بعض جيش أبرهة وبدد الباقين. وبما أن البركان ليس كبيراً وبما أن المنطقة المحيطة بمكة جبلية ومتعرجة فمن المعقول جداً ألا يرى القرشيون أو يسمعوا ثوران البركان.

* وعلى الرغم من أن غالبية الأخبار التي تحملها كتب التفسير حول حادثة الفيل عبارة عن تصورات خرافية إلا أن بعضها قد لا يكون كذلك، ومن ذلك قصة امتناع الفيل عن التوجه لمكة، التي سبق وأشرنا إليها، ومن ذلك أيضاً ما ورد في الدر المنثور والذي قد يكون خبراً لشاهد العيان الوحيد الذي يصف ما حدث لأبرهة وجيشه، على أنه يجب أن يؤخذ الخبر وقد وضع في الحسبان حقيقتان، هما:

١- أن الشاهد يصف شيئاً يراه لأول مرة في حياته، ولم يسمع عنه من قبل. ووصف من يشاهد شيئاً لأول مرة يكون مشوشاً، لأنه يصف انطباعه الشخصي عما يراه للمرة الأولى وليس حقيقة ما يراه فعلاً. فهذا ابن بطوطة في رحلته يصف النارجيل الذي رآه أول مرة في ظفار، فيقول: ذكر النارجيل: وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر تمراً وتلك تثمر جوزاً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ، إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر. انتهى كلام ابن بطوطة الذي يصور انطباعه الشخصي الأول عن تلك الثمار، وليس وصفاً حقيقياً لها[١].

(١) ص٢٦٣-٢٦٤ رحلة ابن بطوطة/ دار صادر ـ بيروت.

٢- والحقيقة الثانية حول خبر شاهد العيان الوحيد الذي سنسرده، تتمثل في أنه تم تناقله بعد أن انتشرت الأقاويل التي وجدت فيما بعد طريقها لكتب المفسرين حول ما حدث لأصحاب الفيل، مما أثر على مضمون الرواية، إما من قبل الشاهد الذي رواها بما يتلاءم مع الرأي السائد أو أن الرواية تعرضت للتحوير في وقت لاحق من قبل الرواة.

وهذا هو الخبر عن شاهد العيان الوحيد: وأخرج أبو نعيم عن عثمان بن عفان أنه سأل رجلاً من هذيل قال: أخبرني عن يوم الفيل، فقال: بعثت يوم الفيل طليعة على فرس لي أنثى فرأيت طيرا خرجت من الحرم في كل منقار طير منها حجر، وفي رجل كل طير منها حجر، وهاجت ريح وظلمة حتى قعدت بي فرسي مرتين فمسحتهم مسحة، كلفته كرداك وانجلت الظلمة، وسكنت الريح. قال: فنظرت إلى القوم خامدين[١].

وصياغة الخبر ليست مترابطة، ويبدو أنه قد طرأ عليها بعض التعديل والتغيير والحذف والإضافة، ولذلك جاءت بعض عباراتها وكأنها مبتورة أو خافية المعنى، ومع ذلك بقي من أصل الخبر ما يفيد بأن ذلك الرجل كان على فرس له وأنه كان في موقع مكنه من رؤية ما حدث في سماء المنطقة المنكوبة، ولو لم يتمكن من رؤية ما حل بالقوم مباشرة، وقد يكون ذلك ناتجاً لأن البقعة التي كانوا فيها متوارية عنه خلف الجبال التي تتكون منها تضاريس المنطقة.

ومن المحتمل أنه قد رأى طيوراً تطير فارة بعيداً عن مكان البركان، ولما جاء الإسلام ونزلت سورة الفيل وفيها الآية التي تقول: وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ظن الراوي الذي سمع من الشاهد أو الشاهد نفسه أن الطيور التي رآها تطير قرب موقع الحدث هي الطير الأبابيل التي أرسلت بالعذاب، ومن ثم أضيفت لها قصة حملها للحصى وبقية الصورة الخيالية بعد ذلك من رواة لاحقين.

ويكون الشاهد قد رأى بالفعل ظلمة (أي سحب سوداء ودخان) من النوع الذي يتكون عادة بفعل ثوران البركان، فوق المنطقة المنكوبة. كما أن ثوران البركان يصحب بالإعصار وهو ما قد يكون رآه الشاهد أيضاً.

---

(١) تفسير سورة الفيل/ الدر المنثور/ الجلال السيوطي/ دار الفكر ـ بيروت.

ومما قد يكون وقع بالفعل، حديث الشاهد عن الفرس وأنها قعدت به ولم ترد التقدم باتجاه الموقع، لأن الفرس قد استشعرت خطر البركان مثلها مثل أي حيوان آخر، بواسطة ملكاتها الخاصة.

ويبدو أن الشاهد قد بقي في مكانه يرقب الحدث حتى هدأ البركان وزالت السحب والأعاصير المرافقة له، ولاحظ أنه خلف هدوءً مميتاً في الموقع الذي كان يعج بجلبة عسكر أبرهة. «قال: فنظرت إلى القوم خامدين». ثم فضل الابتعاد ولم يجرؤ على الاقتراب من موقع الحدث.

ومنطقة مكة تقع ضمن امتداد جبال السروات التي تكونت بفعل صدع البحر الأحمر الممتد من شرق أفريقيا جنوباً إلى تركيا شمالاً عبر البحر الميت، ولا زال الصدع يتسع بمعدل (٢سم) سنوياً وبالتالي فإمكانية حدوث براكين وزلازل على طول جانبي هذا الصدع واردة وحدثت وستحدث. وكان آخر ثوران لبركان في جزيرة العرب تم تسجيله في العام ٦٥٤ للهجرة قرب المدينة، وقد ذكرها ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ضمن حوادث تلك السنة نقلاً عما كتبه شهاب الدين أبو شامة المقدسي وغيره.

وكل العقوبات التي أهلكت بها الأمم السابقة التي ذكرت في القرآن كانت بسبب كوارث طبيعية. وأرجو من بعض القراء ألا يخلطوا بين قولي كوارث طبيعية وبين من قال بأن الطبيعة خلقت نفسها وكل ما يحدث فيها يحدث تلقائياً ومن دون خالق، لأن الفرق كبير جداً بين ما ذهبت إليه وبين ما يعنيه أولئك. فأنا أقصد بالكوارث الطبيعية ما يحدث على الأرض من زلازل وبراكين وأعاصير ورياح وفيضانات وطوفان وغيرها، وهي التي أهلكت بها كل الأمم السابقة. ففرعون أهلك بالغرق بلا جدال، وكذلك قوم نوح. وقوم عاد أهلكوا بالريح بلا جدال، وقوم هود أهلكوا بالرجفة أو الصيحة وهي الزلازل كما أوضحنا، ومثلهم قوم لوط وقوم شعيب، وقد أجمل القرآن ذلك في الآية (٤٠) من سورة العنكبوت: فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أنفسهُمْ يَظْلِمُونَ. وأبرهة وجيشه أهلكوا بثوران بركاني أيضاً، وليس هناك من أهلك بعقوبة غير أرضية كما صور ذلك رجال التفسير.